العرب

وتحديات القرن الحادي والعشرين

تأليف

د.رياض نعسان آغا

مقدمة

يحمل هذا الكتاب وجهة نظر ثقافية وفكرية وسياسية في الأحداث التي عصفت بالأمة العربية والإسلامية منذ مطلع القرن الحادي والعشرين، وهي أحداث خطيرة تركت نتائج مأساوية تفاقمت وكبرت آثارها بعد جريمة الحادي عشر من سبتمبر، التي اتخذتها الولايات المتحدة ذريعة لاحتلال أفغانستان والعراق، ولتمكين إسرائيل من فرض سيطرتها على الوطن العربي وعلى الأمة الإسلامية.

يضم الكتاب بعض المقالات التي كتبتها خلال السنوات الأربع الماضية في جريدة الاتحاد في أبو ظبي في صفحات «وجهات نظر» التي قدمت ساحة حوار واسع بين كتاب من الشرق والغرب.

وأنا أدرك أن بعض هذه المقالات تجاوزتها الأحداث، كتلك التي سبقت الحرب على العراق، ولكنني حريص على أن تكون وثيقة تُعرف القارئ برؤيتنا، وأن تُعرف الأجيال القادمة كيف نفكر، وكيف نستجيب للتحديات.

الدكتور رياض نعسان آغا

تعددت الأسباب والكره واحد

لماذا يكرهوننا؟ هذا السؤال يردده الجانبان (العرب والغرب)، وكل يبحث عن أسباب كراهية الآخر له، وقد اهتمت الإدارة الأميركية بالبحث عن إجابة عبر اهتمام الرئيس الأميركي بإنشاء هيئة في البيت الأبيض مهمتها التنسيق مع مؤسسات داخلية للإشراف على إيصال رسالة السياسة الأميركية إلى الخارج، وتحسين صورة الولايات المتحدة (كما نقلت واشنطن بوست مؤخراً). ونذكر قول الرئيس بوش بعد أحداث ١١ سبتمبر: هناك في بعض البلدان الإسلامية كراهية ضد أمريكا، وأنا مندهش من أن يكون هناك عدم فهم لحقيقة بلدنا، ذلك أنني أعلم كم نحن طيبون!!علينا أن نعمل لكي نوضح لشعوب الشرق الأوسط أننا لا نقوم بحرب ضد الإسلام والمسلمين.

ولقد أسهمت زيارات الرئيس الأميركي للمراكز والمساجد الإسلامية ولقاءاته مع بعض الجاليات المسلمة فضلاً عن التصريحات الرسمية في تخفيف التوتر الذي أصاب العرب والمسلمين قبل أن يعتذر الرئيس بوش عن استخدامه لفظ حرب صليبية وبعد حملة الكراهية التي اجتاحت أميركا ضد العرب والمسلمين بدعم إعلامي صهيوني.

ولكن جذور هذه المشاعر ما تزال قائمة، بل هي قابلة لمزيد من التشدد والبغضاء، وأخشى أن ينتاب ملايين العرب الأميركيين شعور بخطر أن يصبحوا رهائن لدى الولايات المتحدة بعد تصريحات بيتر كيرسانو في اللجنة الفيدرالية في الكونغرس حين قال إذا حدث أي هجوم إرهابي آخر في الولايات المتحدة يجب أن تنسوا كل شيء له علاقة بالحقوق المدنية، والرأي العام سيكون مهيأً لإلغاء الحقوق المدنية بل يمكن أن يؤدي الأمر إلى توقيف جماعي كالذي حصل حين اعتقل آلاف الأميركيين من أصل ياباني طوال فترة الحرب العالمية الثانية.

هذا التصريح يذكرنا بقول ريتشارد كلارك (الذي كان مسؤولاً عن مكافحة الإرهاب في أميركا) وقد نشرته الأندبندنت ٢٠٠٠/٨/٢٦ حيث قال: لا نحتاج إلى أدلة حين يتعرض مواطنونا الأميركيون إلى خطر. لقد ألغى كلارك ببساطة كل إرث أميركا القانوني والحضاري، وليس مستبعداً مستقبلاً أن تقوم الصهيونية بتدبير عمل تخريبي يُتهم به العرب والمسلمون ويحقق مزيداً من الكراهية للعرب، ومزيداً من الدعم للإسرائيليين، ويخلق جواً صعباً من التوتر والقلق لدى العرب والمسلمين في أميركا ما دامت الولايات المتحدة لن تهتم بالبحث عن أدلة.

ورغم أن حملات التهديد قد توقفت على الصعيد الشعبي، ولم يعد العرب والمسلمون يتسلمون رسائل تقول (لا يغسل الدم إلا الدم) على غرار ما حدث بعد التفجيرات، فقد برد الدم، بل فهم الأميركيون أن ما تعرضوا له كان (الخديعة المرعبة) وكثيرون منهم باتوا يدركون الآن أن ما حدث سر ما يزال مبهما· إلاّ أن التهديد الأميركي المتصاعد للبلدان العربية بلداً إثر بلد يؤجج المشاعر من جديد، ويضرم الموقف الشعبي العربي والإسلامي الذي يضيق بهذه الاستهانة كما يضيق بما تلقاه إسرائيل من دعم أميركي غير محدود على حساب حقوقهم.

والمشكلة التي تواجه أميركا اليوم ليست في كراهية العرب والمسلمين لها كما تتصور، بل إنها كراهية تتنامى عند كل الشعوب في العالم، والمفارقة أنها وصلت إلى الغرب الأوروبي نفسه والتظاهرات التي شهدتها عواصم أوروبية وأميركية أيضاً ضد قسوة العولمة ومؤتمراتها الاقتصادية شاهد على ذلك· وقد قال بعض الباحثين عن أسباب الكراهية:لن نسأل الفيتناميين بالطبع إن كانوا يكرهون أميركا أم أنهم نسوا ما حدث! ولن نسأل الروس الذين انهارت امبراطوريتهم ولن نسأل اليابانيين أحفاد ضحايا ناغازاكي وهيروشيما ولن نسأل الصينيين الذين تحاول أميركا تغيير مشاعرهم التاريخية نحوها، وهم بطبيعتهم الإنسانية يكرهون الظلم وينشدون العدالة، ولن نسأل الكوبيين، ولن نسأل اليوغوسلافيين، ولكن بات بوسعنا أن نسأل الشارع الفرنسي والإسباني والألماني الذي يضيق بأن تتحول دول ذات شأن في حضارة وتاريخ الإنسانية إلى مجرد توابع للسيد المطلق الذي بات يستخف حتى بحلفائه، ويريد منهم أن يوقعوا شيكات على بياض.

ولنعد إلى العرب والمسلمين الذين كتبت واشنطن بوست حولهم بعد التفجيرات سيئة الذكر، بعنوان لماذا يكره العرب والمسلمون أميركا؟ وقالت تعليقاً على ما أشيع من أن الفلسطينيين ابتهجوا بما حدث: إن السبب هو الدعم الأميركي المستمر لإسرائيل باعتبارها الحليف الموثوق والدولة الوحيدة التي تسير مع الديمقراطية الغربية ·وأشارت إلى أن فرض العقوبات على العراق على مدى أحد عشر عاماً يشكل سبباً آخر للكراهية· والطريف أن الصحيفة الأميركية أضافت سبباً سمته شعوراً بالحسد، واستياء من كون الولايات المتحدة هي الدولة الأقوى والأغنى. وقد وصفت الصحيفة هذه الأسباب بأنها غير منطقية ولكنها قائمة.

بعض الأميركيين حذروا من أن يتم تصدير الحرب من فلسطين إلى أميركا، ولكنهم يقتنعون الآن في أعماقهم بأن الإعلام أغرقهم في الأوهام.

فالفلسطينيون بل العرب عموماً يقدمون عروضاً سخية للسلام، وقد شعرت الولايات المتحدة بحرج بالغ بعد إعلان المبادرة العربية، فلم يعد لديها مبررات لدعم الحكومة الإسرائيلية

التي زادت جرعة الحرج الأميركي حين رفض شارون رؤية بوش للسلام، وعلق على خطابه حول سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط بأن الظروف غير ناضجة لإقامة دولة فلسطينية وأن إسرائيل لن تنسحب إلى حدود ١٩٦٧، وهذا ما يجعل الطريق مسدوداً تماماً أمام عملية التسوية السلمية. فقد باتت الدعوة الأميركية للعرب بأن يقيموا علاقات تطبيع مع إسرائيل رغم إصرارها على قضم الحقوق العربية، دعوة تستخف بهم ويرون فيها نوعاً من الرغبة في الإذلال.

وقد انتقد المؤرخ توني يودت الأستاذ في أوكسفورد ما سماه (الغطرسة في السياسة الأميركية) واعتبرها سبباً للكراهية بالإضافة إلى إسرائيل، وقال معبراً عن ضمير حي: إن السياسة التي تمارسها إسرائيل هي سياسة أكثر إجراماً من الجريمة نفسها، فالإسرائيليون يباركون ما يرتكب جيشهم من جرائم ومن مذابح، بسلاح أميركي، والولايات المتحدة لا تخدم نفسها ولا تخدم إسرائيل حين تؤيد هذه السياسة لقد تسامى العرب والمسلمون فوق جراح الماضي، وطووا صفحة الحروب الصليبية، وصفحات الاستعمار الغربي الحديث لبلادهم، واعتبروا الغرب الديمقراطي الراهن غير مسؤول عما فعلت قيادات الأمس، وتعلق الكثيرون من العرب والمسلمين بالثقافة الغربية، وفي الستينيات كان سارتر مثلاً منتشراً في الثقافة العربية أكثر من انتشاره في أوروبا، وتناسى العرب موقفه من الإسلام لمجرد تأييده استقلال الجزائر، رغم أنه كتب يوماً إن كل بذور الدمار الاجتماعي موجودة في ديانة محمد وتحاول الذاكرة العربية نسيان جذور الكراهية الغربية للعرب في حرص على طي صفحات التاريخ الذي يسميه بعضهم (تاريخ مواجهات فاشلة) ويتجاهل العرب المترادفات الغربية لكلمة عربي أو مسلم وهي (قاس، همجي، متوحش... إلخ) مما نشرت الصهيونية من مترادفات بدأ الوعي الغربي يستهجنها، وقد نشرت لوكوريه (Lecourier) الفرنسية مقالات عديدة تحت عنوان: لماذا يكره العالم أميركا؟ ذكرت فيها قول الكاتب الأميركي جور فيدال: كان رد الفعل العسكري الأميركي على ١١ سبتمبر بالهجوم على أفغانستان وقتل آلاف الأبرياء كارثة، وهذا ما أضرم مشاعر الكراهية لدى مليار مسلم. كان يجب أن نفكر في محاصرة أسباب الكراهية، نحن نستحق الحقد، لأننا نزدري الإسلام، ونمنع الديمقراطية في البلدان الإسلامية، ونجند مرتزقة ليحاربوا باسمنا.

وهنا نتذكر عنوان بيان المثقفين الأميركيين ليس باسمنا ونتذكر أن هنري كيسنجر نفسه حذر أميركا في لوس أنجلوس تايمز من أن تتحول سياستها لمكافحة الإرهاب إلى صدام بين الغرب والإسلام، وقال يجب أن تكون السياسة الأميركية موضع مراجعة دائمة، وأن تكون العلاقة مع الدول الإسلامية أحد مكوناتها.

لقد شعر العرب والمسلمون باستياء شديد لما خرجت به لجنة البنتاغون التي اعتبرت السعودية دولة معادية، رغم ما سماه البيت الأبيض بتطمينات، وما جاء من تفسير لكون التقرير لا يمثل وجهة نظر رسمية، إلا أن الخطر الذي يجب أن تتنبه له الولايات المتحدة هو ألا تترك سياستها العسكرية والخارجية بيد الصهاينة الحاقدين عليها وعلى العالم كله، لأن شعوب الأرض في نظر الصهاينة أتباع لشعب الله المختار. فهم الأغيار والأميون الذين يجب التعامل معهم بما يخدم إسرائيل فقط. وقد عبر عن خطة التعامل الصهيونية هذه ديفيد هاريس (المدير التنفيذي للجنة اليهودية الأميركية) حين كتب لجيروزاليم بوست: علينا أن نعمل مع إسرائيل لمقاومة الإسلام. إن مثل هؤلاء يريدون إغراق الولايات المتحدة في بحار الدم، ويريدون أن يحشدوا قوتها وثروتها لصالح مخططهم الأسطوري، وعلى حكماء الولايات المتحدة أن يحذروا من أن تحولهم الصهيونية إلى عاملين في مشروعها، وأن يفقدوها مكانتها في العالم، حيث لا يمكن أن تكون مشاعر الكراهية بسبب الحسد. فليست الولايات المتحدة الدولة الوحيدة الأغنى من العرب وهم ليسوا فقراء إلى حد حسد الآخرين، بل إنهم أثرياء ويغتني الآخرون بثرواتهم، ولكن المشكلة الأساسية هي في غياب العدالة. لم يكن العرب والمسلمون في الماضي يكرهون الولايات المتحدة بل على العكس كانوا وما يزالون يشعرون بمشاعر مودة نحو الشعب الأميركي وكثيرون منهم يعتقدون أنه مثلهم يحتاج إلى أن يتحرر من سطوة اللوبي الصهيوني الذي يضيق به الأميركيون الطيبون.

٢٠٠٢/٨/١٥

سيناريوهات المستقبل: أوهام أم حقائق؟

قال صاحبي وهو يدافع عن نظرية المؤامرة التي يميل بعض المثقفين العرب إلى إنكارها: يـا أخي، التاريخ إما صدفة وإما مؤامرة، ولن أقتنع بأن ما حدث بعد انهيار الإمبرطورية العثمانيـة، أو ما يحدث بعد انهيار الإمبرطورية السوفييتية هو مجرد ردات فعل، تقودها الظروف الناجمـة عـن الانهيار وحدها، فالظروف لاتنشأ بالصدفة، هناك مفكرون استراتيجيون، يضـعون السـيناريوهات والخطط الدقيقة ويرسمون المستقبل بدقة متناهية ويعرفون ماذا يريدون، أما نحن العرب فلا نعـرف ماذا نريد اليوم، فكيف نعرف ماذا نريد غداً؟

ولقد كره العرب الحديث عن المؤامرات لكثرة ما استهلكته الأنظمة العربية الثوريـة وغيـر الثورية، وباتوا يرون فيه مشجباً يُعَلق عليه العجزالعربي، فليس باليد حيلة، أخفقنـا لأن الاسـتعمار والإمبريالية وأعوان الاستعمار تآمروا علينا، وقد تصدينا لمؤامراتهم ولكننا لانكاد نفرغ من مواجهة مؤامرة حتى تطلع الثانية أشد مكراً وكيداًو لحسن الحظ فقد باءت كل المؤامرات بالفشل، ولم تتمكن من اسقاط نظام عربي ذي شأن على مدى سنوات القرن العشرين، بينما سقط المتـآمرون، وعلـى مدى السنوات القليلة الماضية سقط شامير ورابين وبيريز ونتنياهو وباراك وسيسقط شارون، وكمـا مضى كارتر وريغان وكلينتون وبوش الأب سيمضي بوش الابن، وكما مضت تاتشر سيمضي بلير، ولكن المفارقة أن هؤلاء يمضون، بينما تستمر السيناريوهات البعيدة المدى، التي لايطرأ عليهـا إلا القليل من التغيير مما تفرضه المستجدات، وهو على الغالب ملحوظ في مرونة السيناريوهات.

فمن ذا الذي يؤلف هذه السيناريوهات التي ترسم مصير الشعوب والأمم؟ أهـم القـادة الـذين يمضون أم عسكريون صامدون في وزارات الدفاع أم مخططون استرتيجيون يلتـزم القـادة بمـا يقررون؟

يذكرنا تسفي برئيل في هآرتس (٢٠٠٢/٨/١٨) بقول جنرال من القرن الثامن عشـر اسـمه موريس دي ساكس (إن الحرب مسالة جدية جداً لأنها تتعلق بمصير الأمم ولذلك يجب عدم تركهـا بيد الاسترتيجيين بالصدفة) وينتقد ــ تسفي ــ جدل الاسترتيجيين الهواة حـول ضـرورة أن تشـن الولايات المتحدة حرباً على العراق (فالمسألة ليست عسكرية فقط، إنها مصير شعوب).

ورغم أننا متمسكون بإصرارنا على أن الشعوب هي وحدها التي تقرر مصيرها إلا أننا لانملك أن ننكر أن شعبنا العربي لم يتمكن منذ أن سقطت بغداد بيد هولاكو إلى اليوم من تقرير مصيره على النحو الذي يريد، فقد بقي الأعداء يحاصرونه ويلاحقونه، وللأسف تمكنوا من إجهاض الكثير مـن الانتصارات التي حققها العرب عبر التاريخ، فبعد النصر الضخم الذي حققه صلاح الدين في حطين

اطمأن القادة والعسكريون لما أنجزوا، وغرق بعضهم في الفساد، فتمكن الصليبيون من حصار نتائج حرب حطين واضطر حكام المنطقة إلى التنازل عن كل ما حققه النصر.

وعلى مدى قرون الحكم العثماني كان العرب تحت الاحتلال، وحين أفاقوا (بفضل انهيار الدولة العثمانية) وجدوا مصيرهم بيد سايكس وبيكو، يمزقان الأمة ويرسمان لها خريطة لم تكن موجودة من قبل،وقد نهضت الجامعة الإسلامية العربية لمهة استعادة امتلاك العرب للخلافة، بينما نهضت القومية العربية لإلغاء خريطة سايكس بيكو على أمل أن تعود الشام قطراً واحداً كما كانت عبر التاريخ كله، وأن تستعيد التحامها بمصر فتصيران بلداً واحداً كما كانتا تفعلان دائماً حين يواجههما الخطر، وقد صدتاه في حروبهما ضد الصليبية والمغول أيام صلاح الدين والظاهر بيبرس، وقداستعادتا هذا الالتحام في أواخر خمسينيات القرن العشرين، حين جاءت الوحدة مخرجاً من مأزق الحصارالغربي، وكان المشروع القومي يحلم كذلك بأن تعود بلاد المغرب العربي كتلة واحدة، وأن تعود بلاد الجزيرة والخليج قطراً واحداً وأن يجتمع الشمل العربي تحت مظلة واحدة هي المصالح العليا للأمة،ولكن الحلم غفا، وبات العرب يسعون للحفاظ على خريطة سايكس وبيكو، التي شملها التقادم على ما يبدو، وبات أعداء الأمة مضطرين لإعادة رسمها لتلبية المستجدات الراهنة، وهي بلوغ إسرائيل سن الرشد، وخروجها من عهد الوصاية والرعاية الغربية، بعد انتصارها على العرب، بل وعلى الغرب كذلك، بعد أن تمكنت من اختراق عقائده وكياناته السياسية والعسكرية والاقتصادية والاعلامية.

لقد رسم الاسترتيجيون الصهاينة سيناريوهات عديدة للمستقبل، ولكنهم رغم كل ما نصدق مما يزعمون ويدعون من قوة وحنكة، يقعون في أخطاء استراتيجية كبرى، على حد قول عوديت غرانوت في تصورات نشرها قبل أعوام في معاريف لسيناريو مستقبل إسرائيل حتى عام ٢٠٠٨) يقول إن قيادة المخابرات العسكرية في اسرائيل توجهت في الستينات إلى أحد المعاهد الأكاديمية الكبيرة تطلب أن يضع الباحثون خارطة للأخطار المستقبلية التي ستواجهها إسرائيل، وبدأت الدراسات تحلل الأحداث وتستنتج وتبني التنبؤات والسيناريوهات المحتملة، ولكن البا حثين لم ينجحوا (في التنبؤ باحداث هامة غيرت خارطة التاريخ في المنطقة كحرب اوكتوبر ١٩٧٣ والحرب اللبنانية ١٩٨٥وزيارة السادات لإسرائيل ١٩٧٧ وتوقيع اتفاقية كامب ديفيد ١٩٧٨واتفاق السلام مع مصر ١٩٧٩) وقد قام الباحثون الإسرائيليون بدراسات جديدة في منتصف الثمانينيات، ولكن الدراسة لم تتنبأ باحتمال غزو العراق للكويت، وبتشكيل ائتلاف عربي ـ غربي أو باحتمال سقوط صواريخ سكاد على تل أبيب.

قد يكون غرانوت أخطأ اختيار الأحداث التي أخفق الباحثون في التنبؤ بها، إلا أنني واثق من أنهم أخفقوا في التنبؤ بما هو أهم من ذلك كله، وهو أن تجبر المقاومة اللبنانية جيش إسرائيل الضخم

على الخروج من جنوب لبنان، ولئن كنا نأسف لصحة قول ألوف بن (هآرتس ٢٠٠٢/٨/٢٢) بأن (حرب لبنان شطبت صدمة يوم الغفران، يقصد حرب اكتوبر) فعليه أن يأسف لقوله (إن حملة السور الواقي طوت في النسيان الإهانة في لبنان) وقديماً قال الأجداد (حساب السوق غير حساب البيدر).

يشير الباحث الإسرائيلي آفرام كايم (من مركز الأبحاث الاستراتيجية في جامعة تل أبيب) في كتابه (الهجوم المباغت) غلى ثلاثة أنواع من المفاجآت الاسترتيجية هي: حرب تندلع شكل مفاجىء، سلام يتحقق بشكل مفاجىء، انظمة تبدو مستقرة لكنها تهار دون إنذار، والتطورات في الشرق الأوسط تعزز الاحتملات بحدوث كل المفاجآت.ويتنبأ غرانوت في عام ١٩٩٨ بأن أبرز الأخطار التي ستواجه إسرائيل حتى عام ٢٠٠٨هو الخطر العراقي ويراه أشد من الخطر الإيراني يقول (رغم ان عملية ضرب المفاعل النووي من قبل سلاح الجو الإسرائيلي أربكت مستوى التطور النووي في العراق، إلا ان البنية التحتية والهندسية والقوة البشرية ذات الخبرة واصلت عملها من أجل تجديد المشروع النووي، ولكن حرب الخليج والعقوبات التي لحقت بالعراق أدت إلى تدني مستوى القدرة العراقية على تهديد إسرائيل).

حروب ضد النوايا: ليس مهماً أن تقتنع!

إذا كانت الحقيقة أولى ضحايا الحروب، فإن الشعوب لا تقبل أن تبقى الحقيقة ضائعة أبد الدهر، وهذا ما يجعل علم التاريخ سجالاً مستمراً للبحث عن الحقائق، ولكن ذلك يتم للأسف بعد فوات الأوان، ولكنه يؤكد على كل حال أن الحقيقة لا تموت، وعلى سبيل المثال، كشف الباحثون الفرنسيون الشرفاء بعد عقود، أن حكاية (المروحة) التي ضرب بها داي الجزائر قنصلَ فرنسا (ديفال) كانت كذبة ــ مفبركة ــ لا أصل لها في الحقيقة، وأن وراءها يهودياً اسمه (بكري) هو الذي عقد العلاقة بين الداي وفرنسا بسبب دين متنازع عليه، وقد عجب المؤرخ الفرنسي شارل أندريه جوليان من أن تحرك فرنسا أربعين ألف جندي وأن تنفق مئة وخمسين مليون فرنك من أجل ضربة مروحة.وتذكرنا الانتقادات الفرنسية الحديثة لهذه الذريعة بما يتردد في العالم كله اليوم من تعليقات وانتقادات للذرائع والحجج التي تسوقها الولايات المتحدة لحروبها المفتوحة ضد الإرهاب الذي بات تهمة جاهزة يمكن توجيهها إلى كل من يخالف الصهيونية في معتقدها وأهدافها وهي لا تحتاج بالطبع إلى تقديم أدلة بعد أن أعلنت الولايات المتحدة عن تغيير منهجي في سياساتها باتجاه ما تسميه استباق الحدث عبر الضربات الوقائية، وهو يعني خوض حروب ضد النوايا، حيث لا يمكن تقديم أدلة على النوايا السيئة أو الحسنة، ولذلك تعاني الإدارة الأميركية حالة من الارتباك الواضح بسبب عجزها عن تقديم مبررات مقنعة لمشروعها العدواني على العراق ودول أخرى لاحقة.

والمؤمنون بعقيدة الصهيونية أو الخاضعون لسلطتها الروحية أو المادية والعاملون على تحقيق مشروع إسرائيل الكبرى على حساب الأرض والحقوق العربية لا يحتاجون إلى أدلة أو مبررات فهم يعرفون الدوافع الحقيقية،ويدركون أنها افتراضية، تستبق إمكانية امتلاك العرب والمسلمين أية قوة تمكنهم من الدفاع عن أنفسهم،ومن إعاقة المشروع الصهيوني الذي بات مشروع الولايات المتحدة نفسها بعد أن خضعت بعض قياداتها خضوعاً كاملاً للّوبي الصهيوني الذي يتصرف بمقدرات الشعب الأميركي وبأمواله وبقوته العسكرية كيفما شاء، ولا سيما بعد أن لعبت وسائل الإعلام الصهيونية بمشاعر وعقول الشعب الأميركي الطيب والبسيط والمحب للحياة فجعلته يعيش في رعب من التهديدات المزعومة التي يعدها له الإرهابيون العرب والمسلمون. وتساند الإعلام تصريحات رسمية مروعة كتلك التي سبقت ١١ سبتمبر الماضي حين ارتفعت حالة الطوارئ، وأظهرت استطلاعات الرأي أن سبعين في المئة من سكان نيويورك يعيشون حالة رعب، على غرار ما حدث في العام الماضي حين تم التلاعب بمشاعر

الشعب الأميركي بالترويع والتخويف بطريقة وصلت إلى حد السخرية، ولا سيما في مسلسل الجمرة الخبيثة وبالإنذارات المتلاحقة من تفجيرات نووية وبيولوجية وسوى ذلك من إشاعات تروجها الجوقة الصهيونية لإثارة الشعب الأميركي ولاستثارة تأييده للمخطط الصهيوني، ولإقناعه بضرورة تقديم كل ما يملك لإسرائيل التي تصد عنه الإرهاب العربي والإسلامي. وهي تعيش أزمة خانقة، بعد أن عجزت عن مواجهة الانتفاضة رغم أنها استخدمت لإخمادها كل ما تملك من همجية ووحشية حتى أن بن أليعازر أعلن أنه لم يعد لدى إسرائيل ما تفعله بعد أن أجرت أنهار الدم.

وقد انتقد كتاب إسرائيليون تحول الجيش الإسرائيلي إلى مقاول هدم منازل ومدن فوق رؤوس أصحابها، وتدرك القيادة الأميركية حاجتها إلى مبررات أخلاقية لشن حربها ضدالعرب فالشرفاء النزيهون المسالمون في أميركا يعرفون أن كل ما يحدث هو من أجل إسرائيل ولا مصلحة للولايات المتحدة فيه، وقد عبرت التظاهرات في واشنطن ولندن وسواهما من عواصم الغرب عن رفض الشعوب لهذا الزيف الذي ضاقت به البشرية كلها.

ويدرك صناع الحرب في أميركا أنهم يواجهون مشكلة أخلاقية في ضعف أدلتهم وفي افتضاح الأكاذيب ركيكة التأليف، لتبرير نزعة عدوانية شرسة، مما دعا وزيرة ألمانية إلى استحضار تاريخ هتلر بينما يستحضر العرب تاريخ هولاكو الذي دمر بغداد ولكن دون أن يبحث عن مبررات أخلاقية فلم يكن يعنيه أن يصفه التاريخ بالسفاح والهمجي، بينما يريد السيد بوش أن تكون لحروبه شرعية دولية ذات عناوين براقة كالعدالة المطلقة والحرية الراسخة، لإضفاء قدسية على ما يعتزم القيام به من تدمير وقتل وسفك سيكون في المحصلة أخطر بكثير مما فعل هولاكو بأسلحته البدائية، فلم يكن لدى التتار شيء مما تمتلك الولايات المتحدة وبريطانيا وإسرائيل من أسلحة دمار شامل قادرة على أن تزلزل الكرة الأرضية.

والمشكلة الراهنة التي تواجه الولايات المتحدة وتابعتها بريطانيا اليوم أن المجتمع الدولي يرفض جميع المبررات والذرائع التي يقدمونها له، حتى أن الصحف البريطانية اتفقت في غالبية تحليلاتها لتقرير السيد بلير على أنه لم يكن مقنعاً ونقلت عن استطلاعات الرأي أن سبعين في المئة من البريطانيين لم يقتنعوا بما قاله بلير. بل إن الحكومات الغربية نفسها، رغم حرص بعضها على تجنب المشاكسة لم تتمكن من المجاملة، فما عدا رئيس وزراء أستراليا السيد جون هاورد فإن جميع دول العالم عبرت عن أن خطاب بلير يمكن أن يقدم لمفتشي الأمم المتحدة للتحقق مما جاء فيه ــ كما قال السيد لوي ميشيل ــ ولكنه لا يقنع الأشخاص

المعارضين لعمل عسكري ضد العراق كما قالت السيدة ــ هيلين كلارك رئيسة وزراء نيوزلندا ــ وبالطبع قد يتغير الموقف لدى بعض الدول بتأثير الضغط الصهيوني.

ورغم أن الولايات المتحدة حاولت إثارة ذعر الناتو وإشغال روسيا العضو الجديد بملف جورجيا بهدف المساومة، إلا أن تصريح الوكالة الدولية للطاقة الذرية شكك في كل المبررات التي قدمها السيد رامسفيلد في حديثه للناتو وفي تقرير بلير حين أكدت الوكالة أن العراق لم يحصل على يورانيوم كما زعم التقرير.

ونقاط الضعف في المبررات الأميركية البريطانية الإسرائيلية للحرب ضد العراق كثيرة ومربكة لمؤلفيها، فهم يتهمون العراق بما هم فيه غارقون. إنهم يزعمون أن العراق يمتلك أسلحة دمار شامل،ويتجاهلون أنهم هم مخترعو وصناع أسلحة الدمار الشامل والمطورون لها بشكل يفوق قدرة شعوب وأمم كبرى في العالم على تحقيق توازن قوة أمامهم، وأن لدى إسرائيل ترسانة أسلحة دمار شامل وهي تهدد ــ جيرانها ــ كل يوم باستخدام قوتها النووية وترفض القبول بما ترغب فيه كل شعوب وحكومات المنطقة من نزع أسلحة الدمار من الشرق الأوسط بل من العالم كله. أما إسرائيل فهي تريد أن ينزع سلاح الجميع فلا يبقى سلاح ــ مهما كان بسيطاً ــ بيد أحد غير يدها كي تقتل وتسفك وتدمر، دون أن يقدر أحد على ردعها أو صدها.

ويزعمون أن العراق يشكل خطراً على البشرية جمعاء، ويصورونه بأنه قوة عظمى وهم في الوقت ذاته يعترفون بحاجة الشعب العراقي إلى الغذاء والدواء، وبأنهم دمروا كل ما كان فيه من ملامح قوة ورخاء، ويزعمون أنه يشكل خطراً على الولايات المتحدة وبريطانيا اللتين تبعدان عنه آلاف الأميال، وقواتهما البرية والبحرية والجوية والفضائية تحاصره من كل الجهات، ويزعمون أنه يتحدى قرارات الأمم المتحدة رغم إقراره بها وقبوله بعودة المفتشين بلا شروط، ويتجاهلون أن حليفتهم إسرائيل لا تقيم أي وزن للأمم المتحدة ولا تعني قراراتها لها شيئاً فهي فوق القانون الدولي وفوق البشر جميعاً، وآخر ما لجأوا إليه من اتهامات هو اختراع صلة لتنظيم القاعدة بالعراق، وقد سخر من هذا الاتهام على شبكة إن. بي. سي السيد برنت سكوكروفت مستشار بوش الأب ومخطط حرب الخليج وقال: إن صدام يطرح مشكلة جدية ولكنها ليست بالتأكيد بسبب الإرهاب، وقد سبق أن اتهم بعض قادة الإدارة الأميركية إيران بإيواء عناصر من القاعدة،كما اتهموا سوريا ولبنان، ولكن المجتمع الدولي يعرف أنهم يفترون ويتخبطون، لقد أخفقوا في فبركة أية مبررات أخلاقية لحربهم ضد العراق.

إن جريمة الحادي عشر من سبتمبر، لم تكن ــ على الرغم من فداحتها ــ مبرراً أخلاقياً لقتل آلاف الأبرياء من سكان أفغانستان الذين لم يتهمهم أحد،وقد أخفق مكتب التأثير

الاستراتيجي الذي أسسوه لتوجيه الرأي العام والحكومات أيضاً،حين بدت حالة الارتباك واضحة في التأليف المتسرع لأدلة باهتة منذ بدء عملية تلفيق التهمة للعرب والمسلمين، مما جعل الشرفاء من الأوروبيين يضيقون بهذا الاستخفاف بعقول البشر. وقد كان الفرنسيون من أوائل من استهجن الروايات الأميركية الساذجة كما يستهجن الألمان اليوم مبررات أميركا لضرب العراق، وحتى البسطاء من كل الشعوب باتوا يتذمرون من أن تستخف بعقولهم الجهات المصدرة للأدلة الغبية. ولست هنا بصدد مناقشة المآخذ والثغرات الدرامية في القصص الهوليودية، وإنما يهمني أن أشير إلى أن القائمين على أمر الدعاية والإعلام والتأثير الاستراتيجي، قد جعلوا شعار عملهم كما يبدو ليس مهماً أن تقتنع فنحن نقدم ما لدينا من أدلة معقولة كانت أو غير معقولة، وليس ضرورياً أن يقتنع العالم كله بها، حيث سيكون كافياً أن تقتنع نسبة ضخمة من المتلقين الذين لا تعنيهم مناقشة التفاصيل، وليسوا معنيين بمحاكمة دقيقة لكل دليل، وهم بالتالي ليسوا قضاة حكم، وبالنسبة للغربيين يكفي أن يكون مصدر الأدلة عربياً إسلامياً كي يسبغ عليها أهمية خاصة.

وبالمناسبة فقد قدم البرنامج الذي اعتبر الوثيقة النهائية التي قطعت قول كل حكيم أسوأ الاتهامات للرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام على لسان من يفترض أنه إسلامي أصولي، فقد قال الرجل (المزعوم) بالحرف الواحد في تحليله لدماء الأميركيين والغرب من الكفار!! تحل دماؤهم وأموالهم وأعراضهم كما فعل الرسول عليه الصلاة والسلام مع ــ المحاربين ــ خطف رعاياهم كما فعل مع بني عقيل، وقطع الطريق على قوافلهم كما فعل مع قريش، واغتال رؤساءهم كما فعل مع كعب بن الأشرف وسلمة بن أبي الحقيق، وحرق أرضهم كما فعل مع بني النضير، وهدم حصونهم كما فعل في الطائف، وإلى غير ذلك من الأفعال! ولقد كفاني حين سمعت هذا التعداد لأفعال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أدرك الهدف البعيد من البرنامج حيث لا يختلف اثنان مسلمان بأن من يقول هذا الكلام عن رسول الله ليس على دراية ووعي بالإسلام من قريب أو بعيد بل إن ظاهر القول أنه يريد تقديم رسول الرحمة على أنه ــ حاشا لله ــ يقوم بأفعال لو صحت لأساءت إلى أي شخص فما بالك بالرسول الكريم، ولم يكن مهماً أن تقنع المسرحية ــ كما سماها الكثيرون ــ كل من تابعها فالهدف إحداث البلبلة وإثارة الشكوك، وفي غياب أدلة دامغة ترتقي الشبهات إلى مستوى الأدلة من خلال التكرار، ولكننا كما قال رئيس تحرير مجلة انتلجنس ريفيو أدوارد أسبانوس في البرنامج نفسه: نصر على ما نعرف بأنه حقيقة ونعرف من كان عنده الدافع وأين تكمن الامكانيات، والمؤسف أن الحقيقة ستبقى غائبة حتى يأتي يوم ينتصر فيه الشرفاء الأميركيون أنفسهم، كما انتصر الشرفاء الفرنسيون فوقفوا إلى جوار شعب الجزائر وأيدوا كفاحه من أجل الحرية وكشفوا كذبة المروحة

ومثلهم سيفعل الأميركيون العادلون وسيكشفون الحقائق والخفايا، وسيلقى الصهاينة من الغرب عقاب ما يفعلون كما سبق أن لقوه عبر القرون، يوم لم يجدوا مأوى آمناً لهم غير بلاد العرب والمسلمين، ولكنهم جاحدون.

٢٠٠٢/٣/١٠

الانسحاب من التاريخ وأخطاء اســتراتيجية كبرى

إذا كان صحيحاً أن التاريخ لا يكرر نفسه، فإن البشر كثيرا ما يقعون في ذات الأخطــاء التي أوردتهم إلى المهالك.

وإذا كانت التجارب، على الغالب، هي النماذج التي نتعلم منهــا حســن إدارة المواقــف القادمة، فإن العاقل من يتعظ بتجربة غيره، فما بالك إن كان هو الذي اكتوى بنار التجربة؟!

ولقد كانت التجارب الأكثر مرارة في تاريخ العرب هي سقوط القدس بيد الصليبيين عــام ١٠٩٩ ثم سقوط بغداد بيد هولاكو عام،١٢٥٨ ثم سقوط غرناطة بيد القشتاليين عام،١٤٩٢ مما جعل العرب ينسحبون من التاريخ، ويحصدون نتائج إخفاقهم في توفير الحد الأدنى من التضامن بينهم وتفضيلهم المصالح الشخصية والقطرية على المصالح العليا للأمة، وإسرافهم في النعــيم والترف، والاعتماد على الأجانب الذين كبر شأنهم حتى أمسكوا بأعصاب البلاد، ووصلوا إلــى قيادة الجيوش فجعلوا الخليفة بلا سلطان، ولم يكن حال الفاطميين في مصر بأفضل مــن حــال العباسيين في بغداد، فأما الشام فقد كان يحكمها بعد سقوط الدولة العربية أخلاط من الأمم حــين احتلها الصليبيون.

لقد غاب العنصر العربي عن عرش السلطة قرونا طويلة، ولــولا تمســك قــادة الــدول المتتابعة بالإسلام، ولولا أن القرآن الكريم محفوظ ومُصان، لما تمكنت الأمة العربية من الحفاظ على هويتها الشخصية الحضارية، ولقد ساعد العرب على ابتلاع غصة الولاء للغرباء، كــونهم يستمدون شرعية حكمهم من الإسلام، ويدافعون عن المقدسات، وهذا ما جعل العرب ينصهرون في البوتقة الإسلامية ويلتفون حول أبطال مسلمين كبار من أمثال عماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي، الذي تمكن من تحقيق النصر في حطين ودخل القدس منتصــراً في ١٢ أكتوبر ١١٨٧٠ لكن العرب قدموا الولاء بعد انتكاسة حطين، لرعاياهم مــن المماليــك، وقد ظهر منهم فاسدون كثر، كما ظهر منهم أبطال تاريخيون كالصالح أيوب وزوجته شــجرة الدر التي قادت مقاومة مصر لحملة لويس التاسع وهزمته في المنصورة (١٢٥٠)، وكالسلطان قطز الذي تمكن بعد عشر سنين من هزيمة المغول في عين جالوت ١٢٦٠ وكالظاهر بيبــرس الذي وحد مصر والشام كما فعل من قبل صلاح الدين، وأحيا الخلافة العباسية التي كانــت قــد انهارت في بغداد قبل عامين، وقد اضطر بيبرس إلى أن يصطنع العربي (أبا العبــاس أحمــد) خليفةً يتولى ولا يحكم، لكي تبقى للعرب المكانة الرمزية الشكلية، وكان بيبرس بعد أن حــرر

إنطاكية وقيسارية وأرسوف وصفد ويافا من الصليبيين، ومدّ نفوذ ه إلى الحجاز، قد ذاع صيته حتى صارت له ملحمة شعبية تتغنى ببطولاته.

ولكن الاعتزاز العربي الإسلامي ببسالة الدولة الأيوبية وشجاعة المماليك لا يلغي مأساة العرب في انسحابهم من موقع القيادة مع أنهم الأمة التي قدمت التضحيات وحققت الانتصارات خلف تلك القيادات.

وقد استمر انسحاب العرب من التاريخ مع قدوم السلطان سليم الأول العثماني وهزيمة المماليك، فأسدل الستار على العروبة أربعة قرون أخرى..

ولقد وجد العرب في انهيار الإمبراطورية العثمانية فرصة النهوض، ولكن مشروع النهضة العربية لم يكد يقف على قدمين حتى أمسك البريطانيون بإحداهما، وأمسك الفرنسيون بالثانية، وسدد الضربة إلى القلب الإسرائيليون فكانت نكبة (١٩٤٨) ونكسة (١٩٦٧) والنزيف المستمر في فلسطين.

وحين انتصر الفرنسيون لمبادئ الحق والعدل والحرية والمساواة، وبدؤوا يتعاطفون مع الحقوق العربية في أواخر النصف الثاني من القرن العشرين، تفاءل العرب بصحوة أوروبية، ومدّوا يد الصداقة والشراكة إلى الأوروبيين، ولبوا دعوة الأميركيين إلى السلام، وأبدوا استعدادهم للتعايش مع إسرائيل، لكنهم فوجئوا بأن خطاب (أوربان) ما يزال في الأذهان… وأن الإسرائيليين والأميركيين، لا يقبلون أن يعود العرب إلى التاريخ مرة أخرى.

ومن الواضح أن استهداف بغداد الآن هو درس التاريخ الذي يفيد منه التحالف الصهيوني الأميركي، وهو يكرر بأساليب عصرية ما فعل التحالف المغولي الصليبي، وقد حل الصهاينة محل المغول، وهم أخطر على البشرية من التتار، لأنهم يملكون كل أنواع أسلحة الدمار، وأما قائدهم شارون فهو أشد نهماً إلى القتل والسفك من هولاكو ومن كل السفاحين الذين عرفهم تاريخ الهمجية.

وستكون المفارقة التراجيدية ألا يستفيد العرب من درس تاريخهم الذي يفيد منه عدوهم، وأن يكرروا الوقوع في ذات الأخطاء الاستراتيجية التي كانت سبب سقوط دولتهم قبل قرون،والمأساة أن حال العرب اليوم ليس بأفضل من حال العباسيين والفاطميين في أواخر أيامهما، بل إنه شبيه بحال دول الطوائف في الأندلس التي كانت تتنافس على التقرب من ملك قشتالة وتدفع له الجزية، وتعقد معه الاتفاقيات السرية، ويؤكد له الحكام الصغار أمثال أبي

القاسم بن عبد الملك ويوسف بن كماشة مواثيق الولاء والطاعة ويعرضون الخدمات مقابل أن يمنحهم الأمان أو أن يجنبهم الويلات، لكنهم كانوا أول ضحايا السقوط.

ولا يغيب عن العرب اليوم أن هدف الحملة على العراق ليس تغيير النظام، فثمة أهداف عديدة تلتقي فيها مطامع الولايات المتحدة مع مطامع إسرائيل، وهما تنفذان معاً مشروع الصهيونية الكبير، وقد بدأ التمهيد الإعلامي للأهداف، حيث تقرأ في عناوين الصحافة الإسرائيلية ما ينبىء بشيء من الخطة، كعنوان مقالة عكيفا الدار في هآرتس ٢٠٠٢/١٠/١ فلسطين هي إسرائيل، والأردن هو فلسطين، والعراق هو المملكة الهاشمية والباحثون الإسرائيليون والأميركيون يتحدثون صراحة عما يسمونه (مثلث أهداف الحرب) وقد أعلنت الصحافة الغربية والإسرائيلية أن العراق هدف تكتيكي، والسعودية هدف استراتيجي، ومصر هي الجائزة الكبرى. وقد ينظر إلى هذه الأقوال على أنها تهويل أو إثارة صحفية، لكن عكيفا الدار يذكرنا بأن الباحثين الذين قاد عملهم نتنياهو قبل بضع سنين، وبينهم ريتشارد بيرل وداغ فايت قدموا توصيتين مهمتين، الأولى جر تركيا إلى نزاع مع سوريا، وهذا ما تنبهت له قيادتا البلدين الجارين فسارتا في الاتجاه الصحيح لما ينبغي أن تكون عليه علاقات الجوار بين شعبين مسلمين تربطهما علاقة التاريخ والدين والثقافة والمصالح المشتركة، والثانية استخدام بعض تيارات المعارضة اللبنانية لزعزعة استقرار سوريا وللتشويش على علاقتها بلبنان، ومن ثم توجيه الأنظار إلى ادعاءات بشأن ما تملكه سوريا من أسلحة الإبادة الجماعية بهدف إزاحة اهتمام سوريا عن تغيير العراق، وهذا ما يفسر التصريحات والمزاعم التي يروجها الناطقون باسم الخارجية الأميركية الآن حول التعاون السوري الروسي النووي، والأميركيون يعلمون أن سوريا منضمة لمعاهدة منع انتشار الأسلحة النووية، وأنها تستقبل وفوداً من الوكالة الدولية للطاقة الذرية التي تؤكد تقاريرها أن البرنامج السوري النووي مخصص للأغراض السلمية وبإشراف الأمم المتحدة،والعجيب أن يتجاهل الأميركيون تماماً برنامج إسرائيل النووي وإصرارها على تحدي المجتمع الدولي ورفضها الانضمام إلى معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية، ويبدو أن من لا تنجح أميركا وإسرائيل باتهامه بدعم الإرهاب الأصولي يسهل اتهامه بالبرنامج النووي ويؤكد عكيفا الدار أن الخبيرين اليهوديين سارا على حبل رفيع بين مصالح أميركا ومصالح إسرائيل، فحين صرحا بأن من الطبيعي أن ترفض إسرائيل السلام الشامل ومبدأ الأرض مقابل السلام، نصحا حكومة إسرائيل أن تلوح بأنها باتت ناضجة للتخلي عن المساعدة الاقتصادية، كان هذا أيام كلينتون، أما الآن فقد تبدل الحال ولم تعد ثمة فوارق بين مصالح الحليفين بعد أن تمت لإسرائيل السيطرة الكاملة على القرار الأميركي بفضل تراجيديا

سبتمبر التي لا يعلم خفاياها غير الصهيونية صاحبة الخبرة العريقة من قبل في فضيحة لافون وحريق ليبرتي وفندق الملك داوود وسوى ذلك كثير من العمليات الإرهابية التي ينفذها الصهاينة ويتهمون خصومهم بتنفيذها بهدف تحقيق أهداف استراتيجية.

ولا ينفي التركيز على الهدف الصهيوني التوسعي المباشر للحملة الأميركية المبيتة على العراق، أن تكون لها أهداف بعيدة المدى تشمل أمماً أخرى، وهذا ما يستشعره كثيرون في الشرق وفي الغرب،فالتحالف الصهيوني الأميركي يتطلع إلى إلغاء أي دور فاعل لأمم كبرى قد تشكل منافسة مستقبلية لنفوذه الكوني، وقد نجح المشروع الصهيوني الأميركي في تحويل بريطانيا ذاتها من موقع المشارك إلى موقع التابع، مما أثار الغضب الذي يتنامى عند ورثة أمجاد الامبرطورية التي غابت الشمس عنها، وقد بلغ الغضب بالبريطانيين أنهم نشروا أغنية تصف هذه التبعية وصفاً غير لائق بمكانة قادتهم.

أما الألمان وهم الخارجون من مأساة أوزار هتلر، فقد تنبهوا إلى المكيدة الجديدة التي كان شعارها اللامعقول من ليس معنا فهو ضدنا فأعلنوا استياءهم وقال زعيمهم شرويدر: إن ألمانيا لم تعد بلداً تحل فيه ديبلوماسية دفتر الشيكات محل السياسة ولم يغب عن السياسة الألمانية تقدير ما سيصيبها من ويلات حرب العراق وقد قال فيشر: إذا أنهى الأميركيون مهمتهم في العراق ستواجه أوروبا مشكلات جيرانها العرب.

ولا يغيب عن قادة الصين ما يضمر لها التحالف الجديد، فالساسة الأميركيون يعلنون أن الصين هي التحدي الاستراتيجي الأكبر في القرن الحادي والعشرين، كما قال هنري هايدر رئيس لجنة العلاقات الدولية في مجلس النواب الأميركي، الذي أوصى أن تتبع أميركا مع الصين ذات الأسلوب الذي اتبعته مع روسيا،وفي هذا الإطار يمكن فهم التحرشات الأميركية بالصين، وإصرارها على فتح ملف حقوق الإنسان ودعمها للحركات الانفصالية، لتفتيت النسيج الصيني المتعدد القوميات، وهذا ما اتبعته أميركا مع الاتحاد السوفييتي. وفي منطقتنا يدرك جيراننا الأتراك نصيبهم من أخطار الحملة على العراق، وهم يعلمون أن مصالحهم الحقيقية مع العرب وليس مع إسرائيل المتطلعة في مشروعها التوراتي إلى حدود من الفرات إلى النيل.

ويدرك العقلاء والشرفاء في العالم كله أن أميركا تبحث مخفقة عن مبررات أخلاقية لحربها المقبلة، وتقدم ذرائع غير مقنعة لأحد، وهي تحاول ربط الحملة على العراق بالحملة على الإرهاب، وهذا ما يفسرنشاط العمليات الإرهابية مؤخراً في أندونيسيا وفي سواحل اليمن، ولا أستبعد من رؤية شخصية دور الأيدي الخفية فيها، لكي تمنح أميركا ما أخفقت في الحصول عليه من تأييد دولي وإقناع أخلاقي، ولا أستبعد كذلك تصاعدها واستهدافها أماكن متباينة في

العالم مع اقتراب موعد الهجوم حيث يواكب العمليات ظهور المزيد من الأشرطة الملفقة والبيانات اللقيطة التي تصدرها إحدى الجهات الإعلامية العربية تحت شعار سبق أن أشرت إليه وهو ليس مهماً أن تقتنع فإن اقتنعت فانظر من المستفيد كي تعرف من المدبر؟

لكن ذلك كله لن ينقذ الولايات المتحدة من أزمتها الأخلاقية بعد أن شطبت من قاموسها السياسي تلك القيم الإنسانية النبيلة التي تغنت بها منذ مطلع القرن العشرين، ولن يكون بوسعها أن تزعم أنها القوة العظمى في سبيل الخير، وأن ترفع شعار الحرية على ركام من جثث الضحايا الأبرياء وهي غارقة في محيط من الدماء،وسقوط الرسالة الأخلاقية أخطر انتكاسة تواجهها الأمم وتهدد قدرتها على البقاء، لأن القوة التي لا تكبحها رسالة إنسانية تفتك بمن يمتلكها، وهذا ما جناه نيرون وهولاكو وهتلر وأمثالهم ممن دمروا البشرية.

وإذا كان العرب معتادين على ارتكاب أخطاء استراتيجية فإن الصهاينة المشهورين بحنكة التخطيط والرسم الدقيق للأهداف، يقعون اليوم في أخطر الأخطاء الاستراتيجية القاتلة، وأعتقد أن رفضهم للمبادرة العربية للسلام ـــ وقد جاءتهم في لحظة ضعف عربي، وانهيار للشرعية الدولية ـــ سيكون الندامة الكبرى لهم، ولكن غرور القوة يأخذهم بعيداً، ويظنون واهمين أنهم قادرون على إخراج العرب والمسلمين من التاريخ، ومن يدري فقد تكون هذه الغلطة الإسرائيلية الأميركية من صالح العرب، فربّ ضارة نافعة.

٢٠٠٢/١٠/١٧

مهرجان التراث الإسلامي في واشنطن

إذا كانت الجمعية الأميركية الإسلامية (ماس) جديرة بالتحية لجهدها الرائع في إقامة مهرجان للتراث الإسلامي في العاصمة الأميركية (واشنطن)، فإن الأجدر بالشكر هو الشعب الأميركي الطيب الذي أقبل على المهرجان إقبال المحب، كما نقلت الأنباء، فضلاً عن رعاية أنتوني وليامز عمدة واشنطن، الذي أعلن أن يوم السادس من تشرين من كل عام سيكون يوم المسلمين متفائلاً بأن يتسع المهرجان في المستقبل، وأن يشمل مدناً أميركية أخرى.

وتحيتنا الأسمى إلى الشعب الأميركي لقيامه بالتظاهرات والمسيرات الحاشدة التي تجمعت عند النصب التذكاري لحرب فيتنام، ثم اتجهت إلى البيت الأبيض لتعبر عن أكبر احتجاج شهدته الولايات المتحدة ضد الحرب منذ السبعينيات، ولتعلن رفض الشعوب جميعاً لاستخدام القوة المدمرة وسيلة لحل النزاعات الدولية، ولتقول لقادة أميركا أسقطوا العقوبات عن شعب العراق بدل أن تسقطوا عليه القنابل، ولتعرب عن استنكار الشعب الأميركي بخاصة لسياسة التسلط والتهديد والوعيد التي ينتهجها وكلاء إسرائيل في الإدارة الأميركية ممن بات همهم إرضاء شارون وأتباعه من المتطرفين، على حساب الشعب الأميركي قبل سواه من الشعوب.

والمفارقة أن بعض قادة أميركا الكبار يدعمون شارون(الذي استُقبِل في البيت الأبيض بوصفه حمامة سلام) وهم له كارهون، تماماً كما يكرهه الأوروبيون الذين سعوا إلى محاكمته بوصفه مجرماً وسفاحاً، وقد أنقذته جريمة ١١ سبتمبر من المثول أمام المحكمة الأوروبية،حين انشغل العالم بالحدث الجلل وانصرفت الأنظار عن جرائم إسرائيل التي وجدتها فرصة لقلب الحقائق، وتحويل المشاعر الإنسانية المعادية للصهيونية، والمتعاطفة مع الانتفاضة، والمطالبة بإنهاء الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية، إلى مشاعر عداء وكراهية ونفور من العرب والمسلمين.

ولكن شعوب العالم أفاقت على الحقائق إلى درجة جعلت إسرائيل تقلق مما زعمت أنه عودة لموجة عداء السامية، وراحت تسعى إلى إخمادها ومحاصرتها.

وقادة الولايات المتحدة يعلمون من الحقائق مالا نعلم، ولا نستبعد أن يضمروا حقاً كراهية لقادة إسرائيل رغم ما يقدمون من دعم غير محدود لهم، وقد أكد هذه الكراهية عدد كبير من السياسيين المقربين من الأميركيين، وبعضهم يفسر هذا الدعم مع الكراهية بالتقاء المصالح، وبعضهم يفسره بالخوف من المكائد والفضائح، لكن أطرف تفسير له هو ما قالته غريس هالسل (التي كانت تكتب خطابات عدد من الرؤساء الأميركيين) حين أوضحت أنهم يدعمون إسرائيل

بدوافع دينية، وبهدف استعجال ظهور السيد المسيح فهم يهيئون العالم لتحقق النبوءة التي تقتضي أن يتجمع اليهود في أرض فلسطين، وأن يرتكبوا المزيد من السفك والقتل والجرائم الوحشية كما يفعلون الآن، حتى يظهر فيهم المسيخ الدجال، ومن ثم يظهر السيد المسيح عليه السلام فيقضي على كل أتباع الدجال.

تقول الكاتبة: إن اليهود أنفسهم يروجون لهذه النبوءة ويبتزون الأميركيين عبر وسائل الإعلام الأميركية لأنها توفر لهم مزيداً من الدعم، حتى إن نصف الشعب الأميركي كما تقول استطلاعات الرأي بات يؤمن بهذه النبوءة، التي يروج لها آلاف المبشرين أمثال بات باترسون الذي هاجم النبي عليه الصلاة والسلام، وهالويل وجيري فالويل وتشالز تايلور وهول ليفدسي الذي باع كتابه الكرة الأرضية المأسوف عليها أكثر من ٢٥ مليون نسخة، وقد نشرت الشبكة الإسلامية عرضاً مفصلاً لكتاب هالسل في موقعها على الإنترنت لمن يريد التفاصيل، والكتاب مترجم إلى العربية في دمشق.

وأطرف ما فيه، تأكيد الكاتبة على أن بوش الأب وكارتر وريجان كانوا يتخذون قراراتهم السياسية والعسكرية على أساس هذه النبوءة. ولا أقصد بالطرافة جدة الخبر، وإنما أعني ما تشف عن كونها من النوادر والطرائف، فنحن نعرف أن الصهيونية رغم ادعائها العلمانية تروج للأساطير الدينية، ولقد كشف الصهاينة كذب ادعائهم العلمانية، حين جعلوا همهم هدم المسجد الأقصى وبناء الهيكل، وكنا قرأنا قبل عشر سنين ونيف أن بوش الأب كان يحلم حقاً أن تكون حرب الخليج التي قادها هي تلك التي وعد الرب بها في الهرمجدون، والتي تروج لها في الولايات المتحدة أكثر من ألف ومائتي منظمة أصولية متطرفة.

لكن المهم مما تنبغي الإشارة إليه،هو أنه لا يوجد أحد من القادة العرب أو حتى من غالبية قادة الحركات السياسية العربية، أو عامة المثقفين يقحم الدين في الصراع العربي ــ الإسرائيلي، بحيث يبدو العرب والمسلمون أكثر عقلانية وعلمية وتفاعلاً مع معطيات الواقع ومع فعل السياسة من الساسة التوراتيين.

ولئن كان نصف الشعب الأميركي يؤمن حقاً بهذه النبوءة التوراتية، ويدفع المال والسلاح لتقوية إسرائيل، لكي يكبر الشر فيها فينزل السيد المسيح ويهزمه (وهذا ما تحذر منه جماعة ناطوري كارتا اليهودية التي تعتبر الصهاينة أعداء لليهود، حيث ينادي أتباعها بإزالة إسرائيل لأن قيامها يخالف إرادة الرب، كما جاء في الإنجيل) فإن النصف الآخر من الشعب الأميركي لا يعيش في هذه المعتقدات، ولا يقبل أن تتخذ القرارات المدمرة للإنسانية من أجل تحقيق نبوءة، ولا تخفى عليه النزعة الإمبراطورية الشرسة التي تدفع قادة أميركا إلى السيطرة الشاملة على

العالم، وهم يبحثون عن ثروات الشرق الأوسط، وعن كنوز آسيا، وليس عن نبوءات الإنجيل أو التوراة.

لقد عبرت المظاهرات والاحتجاجات اليومية عن عظمة البعد الإنساني في نفوس البسطاء الطيبين من شعب أميركا ومن شعوب أوروبا التي انفجر فيها الضيق من دعاة الأساطير الصهيونية وأكاذيبها وتحريضها على القتل والسفك والتدمير، في استغلال بشع للأديان، وتحريض على صراعاتها تحت يافطة صراع الحضارات، والحضارات التي تحدث عن الصراع بينها هنتغتون وفريقه من الصهاينة، هي حضارة العرب المسلمين، وحضارة الغرب المسيحيين، فأما الحديث عن الهند وعن الصين، فقد كان للتمويه الذي لم يستر الحقيقة حين تركز الإعلان على كون الإسلام هو الخطر القادم، وحين فوجىء العالم بسلسلة من العمليات الإرهابية ينفذها أو يتهم بتنفيذها شبان مسلمون ممن كانوا يحظون برعاية أميركية خاصة ورعاية أوروبية عامة، ولا أعني بذلك أنهم جميعاً خائنون لدينهم أو عروبتهم أو عملاء مأجورون، أو مخدوعون غُسلت أدمغتهم، فكثيرون منهم مقتنعون بصواب ما يفعلون، ويعتبرونه صحوة إسلامية، وهنا لابد من الاعتراف بأن الأصولية اليهودية والصهيونية المسيحية تمكنتا من استدعاء أصولية إسلامية مماثلة،تجاوبت مع دعوات التطرف اليهودي والمسيحي وتم استغلالها ورعايتها، كما قال نيكولاس كريستوفر في مقالة له في الشرق الأوسط بتاريخ ٢٠٠٢/١٠/٢٥ حيث اعترف بمسؤولية الولايات المتحدة عن تغذية الإسلام الأصولي لمواجهة المد القومي، وقال إن الولايات المتحدة هي التي طلبت من بعض الدول العربية أن تفتح باب الجهاد ضد السوفييت فتشكلت على أساسه أرضية منظمة القاعدة.

وقد استلت الأصولية الإسلامية السيف نفسه الذي تحارب به الأصولية اليهودية والمسيحية الصهيونية أعداءها من الأغيار، حين بدا من الصعب أن يتفاهم مع كاهانا وغولدنشتاين وأرييل شارون وموشيه فايغلين (الذي يحلم بزعامة الليكود لإعلان مملكة اليهود) غير مسلمين متطرفين من دعاة الحرب على الكافرين.

ولقد كان إهمال الولايات المتحدة لعملية السلام وتهرب إسرائيل منها، وإصرارها على الإمعان في استباحة الحقوق العربية بالعنف الذي أودى بحياة رابين لمجرد أنه بدا جاداً بتوجهه إلى السلام ولاسيما بعد أن كُشفت وديعته الشهيرة عند الولايات المتحدة، مبرراً لدعاة العنف مقابل العنف، وقد أسقط بيد دعاة السلام العرب (من طرف واحد) وكان درس أوسلو كافياً لكشف حقيقة نوايا إسرائيل.

ورغم عدم تمكن السياسة العربية من تحقيق السلام الشامل والعادل بسبب رفض إسرائيل وأميركا له، وإصرارهما على استسلام عربي مطلق لإسرائيل، فإن العرب ميزوا بإنصاف بين المقاومة الوطنية المشروعة للاحتلال، وبين عمليات العنف ضد الأبرياء وأصروا في مبادرتهم الشهيرة على خيار السلام، ونادوا به ولكن لا حياة لمن تنادي.وهذا ما جعل خيار السلام موضع شك عند كثيرين.

والعجيب أن العرب أدانوا المتطرفين من أبنائهم المسلمين لكن الولايات المتحدة لم تقم بإدانة المتطرفين من الصهاينة والمسيحيين التوراتيين.

ولقد عبر بعض الكتاب الإسرائيليين أنفسهم عن ضيقهم بالدعم الأمريكي الذي تلقاه الأصولية اليهودية التي يقودها شارون، والتي سيطرت على العقل الإسرائيلي العام، الذي بات يؤمن بما سماه مئير شتيغليتس في صحيفة يديعوت أحرنوت التعريف الثوري للأسطورة القومية، حيث يعتقد هؤلاء المتطرفون أن الإسلام والمسيحية سيتعاونان يوماً لتخليص العالم من اليهود، حيث سيكون الإسلام المطرقة والمسيحية السندان، كما يعتقدون.

ولقد كان من المفارقات المؤسفة أن يستنكر مبعوث أميركي إلى الشرق الأوسط إحدى عمليات المقاومة الفلسطينية التي قتل فيها أربعة عشر عسكريا إسرائيلياً دون أية إشارة إلى المجازر اليومية التي ترتكبها إسرائيل في جنين وخان يونس والمخيمات والمدن الفلسطينية، ولعله خجل أن يقول علانية أمام المسؤولين العرب إن المطلوب من الفلسطينيين أن يسلموا رقابهم لإسرائيل كي تذبحهم تقربا من الرب دون أن يصدروا صوت ألم أو أنين.

وليت المسؤولين الأميركيين يصغون لضمير الشعب الأميركي إن كانوا حقاً يؤمنون بالديمقراطية كما يدّعون، فهاهو ذا صوت الشعب الأميركي، يعلن أمام شعوب الأرض رفضه لنزعة الشر والعدوان على الشعوب الضعيفة، ويعلن تعاطفه مع أطفال العراق ومع أطفال فلسطين، ويرفض منح إسرائيل من جيبه عشرات المليارات من الدولارات لدعم هجومها على الشعب الفلسطيني الأعزل الذي يواجه بشجاعة وصبر أضخم آلة عسكرية عرفتها البشرية، ويُمنع حتى من اختيار الموت النبيل.

المؤسف أن قادة الولايات المتحدة ينظرون إلى العالم بعيني إسرائيل، وقد استخلص لهم منظروها خمس عبر ذكرها جدعون ساعر في مقالته في يديعوت أحرونوت ٢٠/١٠/٢٠٠٢)،

أولها: إن استخدام القوة العسكرية أكثر نجاعة مما تفعله المنظمات الدولية ــ يقصد مجلس الأمن ــ.

وثانيها: إن التعرض لانتقادات دولية أفضل من تعريض المواطنين للخطر.

وثالثها: إن أوروبا لا تفهم الحاجة للحرب إلا حين يتعرض الاقتصاد للخطر.

ورابعها: إن الهجوم وليس الدفاع هو طريق الردع.

وأخيراً، إن اتخاذ القرارات الحاسمة والخطوات التاريخية لا يحاكم من خلال عناوين الصحف.

فهل تصغي قيادة الولايات المتحدة للعبر الإسرائيلية التي تدعوها إلى استخدام القوة وتدمير البشرية، وإلى إلغاء مجلس الأمن وهيئة الأمم، وإلى افتعال أزمات للضغط على من يرفضون منطق العنف والقوة، وإلى الاستهانة بما يكتبه المثقفون والمفكرون والعقلاء فيما سمته العبر عناوين الصحف، أم تصغي لصوت الوجدان الشعبي الأميركي الذي يدرك أن لديه مسؤولية أخلاقية عن أمن واستقرار البشرية، وهو لا يقبل أن تحوله القوة العسكرية إلى عصر الوحشية والهمجية، وأن يدفع ثمناً غالياً لأوهام وأحلام إسرائيل؟

ولئن كانت الإدارة الأميركية قد تذكرت قضية الشعب الفلسطيني وضرورة التخفيف من معاناته، فأرسلت مبعوثها إلى الشرق الأوسط لجبر خاطر العرب قبل دعوتهم للمشاركة في تدمير العراق، فإن حديث الولايات المتحدة عن خطط الطريق تتجاهل الحديث عن الطريق الذي تخطط إسرائيل أن يسلكه الفلسطينيون المزمع تهجيرهم من الأرض المحتلة التي اعتبرها رامسفيلد (حقاً لإسرائيل ما دامت قد حصلت عليها بالقوة)، وبذلك يكون الحديث عن دولة فلسطينية وعن السلام بلا معنى لأولئك الذين لن يغادروا أرضهم مهما فعلت إسرائيل، وسيصرون على مزج ترابها بدمائهم، وسيقتلون من يقتلهم، ولن توقف مقاومتهم للمعتدي إدانة أو شجب أو استنكار، بل سيصعدون من مقاومتهم كلما تصاعد الطغيان، حيث لا خلاص إلا بزوال الاحتلال، وإحلال السلام العادل والشامل.

وكما يناصرنا الشعب الأميركي في تأييده للحق فإننا نناصره بالتحية لجرأته على قول الحق، في زمن ساد فيه الباطل، ويسعدنا أن يتفاعل مع مهرجان الإسلام، بل نرجوه أن يتعرف على الإسلام، وألا يكتفي بالتعرف على المسلمين.

٢٠٠٢/١١/١

حكماء صهيون وحكماء العرب

أثار موقف الولايات المتحدة من مسلسل فارس بلا جواد مخاوف متهكمة من بعض المثقفين والمبدعين العرب، من أن يأتي يوم يسن فيه الكونغرس الأميركي قانوناً يقضي بأن يتولى البيت الأبيض مسؤولية الرقابة على المصنفات الأدبية والأعمال الفنية والفكرية العربية والإسلامية (بالإضافة إلى مسؤوليته عن رقابة مناهج التربية والتعليم)، وأن تحدث دائرة رقابة فيه تتولى مهمة إجازة النشر والعرض بعد التأكد من خلو العمل من أية انتقادات لسياسة أو فكر أو أهداف إسرائيل، وتكون هذه الدائرة مسؤولة أمام المرجعية العليا في تل أبيب، وفي حال ضبط أي عمل فني أو فكري متلبساً بجريمة الإحساس بمشاعر معادية للصهيونية ولو كانت خفية، يتم إلقاء القبض على المسؤولين عن العمل جميعاً، ويحالون إلى محكمة التفتيش الصهيونية بتهمة معاداة السامية ٠

والمفارقة الأولى أن كثيرين من الأميركيين وبعض الأوروبيين يجهلون أن هذه التهمة التي تلاحقهم بها إسرائيل وتبتزهم من خلالها، لا يمكن توجيهها للعرب لكونهم ساميين، فهم من أبناء سام بن نوح عليه السلام، ومن سلالته جدنا إبراهيم، ونحن العرب أبناء ابنه اسماعيل، وبنو إسرائيل الشرقيون أبناء ابنه اسحاق، فنحن معاً أبناء أشهر ضرّتين في التاريخ، هما هاجر وسارة، كما تقول الروايات.

أما اليهود الغربيون والمستوطنون القادمون من أوروبا وأميركا وشتات الأرض، وهم الغالبية في إسرائيل، فلا شأن لهم بالسامية من قريب أو بعيد٠ قد يكونون من أبناء يافث، وكذلك يهود الفلاشا قد يكونون من أبناء حام، وهذا المزيج العرقي في سلالات اليهود، جعلهم ينفردون عن كل أمم العالم، ويعتبرون الدين قومية لهم، لغياب أية رابطة قومية حقيقية بينهم٠

والعرب لا يهتمون على الإطلاق بكونهم ساميين، وليس ذلك استهتاراً بنسبهم، وهم الأمة التي كانت تباهي وتفاخر بالأنساب، وإنما لأن الإسلام علّمهم كراهية التفرقة بين البشر على أسس عرقية أو عنصرية، فقد قال نبيهم المصطفى عليه الصلاة والسلام (كلكم لآدم، وآدم من تراب) وألغى الفوارق اللونية والعرقية بين الناس٠ وقد جعل الله العمل الصالح والتقوى معيار التفاضل الوحيد (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وأما حرص العرب على قوميتهم العربية فهو حرص على لغتهم وهويتهم ومسؤوليتهم الحضارية.

والمفارقة الثانية أن العرب لم يبدوا قط أي اهتمام يذكر بالكتاب المسمى بروتوكولات حكماء صهيون ولا وجود له في أدبيات القضية الفلسطينية، ولا إشارة إليه في مناهج التعليم

العربية، فإذا ورد ذكره في بعض المراجع والدراسات، فإنه يرد في موضع الشك والريبة في صحته، ولعل سر الإهمال أن العرب لا يريدون إضفاء هذا البعد الأسطوري على الصهيونية، لكن بعض العرب كذلك لا يستبعدون أن يكون فريق من الصهاينة قد ألفوا هذا الكتاب ورموه في الأسواق، ثم أنكروه وأثاروا ضجة حوله، لكي تحقق له رواجاً وتمنحه إثارة، ويبث شيئاً من الرهبة والخوف عند الأغيار، ويصير سراً يتم الحديث عنه همساً. وهذا الظن العربي يمكن أن يفسر إهمال العرب والمسلمين واستهتارهم ببروتوكولات حكماء صهيون الخرافية. أما العرب المتدينون مسلمين ومسيحيين فبعضهم يعتبرالبروتوكولات مكراً (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين).

والمفارقة الثالثة أن العرب أعلنوا منذ خمسين عاماً ونيف أن صراعهم مع الصهيونية لا يعني صراعاً مع الدين اليهودي، ولقد عاش كثيرون من اليهود الشرقيين في أوطاننا العربية مئات السنين، لم يتعرض أحد منهم لشيء مما تعرضوا له في الغرب من اضطهاد وتقييد وطرد، بل كانوا يشغلون مواقع مهمة في دواوين السلطة العربية فضلاً عن التجارة والطب واحتكار الذهب، وحتى في عقود الصراع قبل وبعد حرب ١٩٤٨ بقي اليهود في المنطقة العربية، لم يتعرض أحد لهم بسوء. والطريف أن العرب بعد نكسة حزيران يونيو ورغم كل ما كانوا فيه من بلاء، جددوا المناداة بالتفريق بين الصهيونية واليهودية، رغم شك الكثيرين في وجود فارق بينهما، حيث يصر بعض الباحثين على أن هذا التفريق نظري، وعلى أن اليهودي المتدين أشد عداء للعرب مسلمين ومسيحيين من الصهيوني العلماني، لكن السياسة العربية بقيت حريصة على استبعاد الأديان من مجريات الصراع.

ولقد كان بعض اليهود حقاً ضد قيام دولة إسرائيل، وبعضهم خشي من عاقبة جمع يهود العالم في مكان واحد وقد رفض كثيرون من اليهود العرب أوامر إسرائيل بالهجرة إليها، وفضلوا البقاء في أقطارهم، كما فعل يهود الشام حتى أجبرتهم إسرائيل على الهجرة، وما تزال لدى بعضهم من المقيمين في الولايات المتحدة مشاعر طيبة نحو سوريا التي وجدوا فيها الطمأنينة والأمان.

والمفارقة الرابعة أن بروتوكولات حكماء صهيون التي يفترض أن تكون مستمدة من التوراة والتلمود تحمل في جوهرها عداء نحو المسيحية وليس نحو الإسلام الذي لم يكن موضوع الجدل حول صدق رسالة السيد المسيح، ولم تكن المخططات التي تكشفها البروتوكولات تعني العرب في شيء، فهم في مطلع القرن العشرين منشغلون بالبحث عن استقلالهم من الدولة العثمانية، ولا يعرفون شيئاً ذا بال عن مؤتمر (بال) الذي انعقد في سويسرا

عام ١٨٩٧ وتروي حكاية البروتوكولات أنه حين اكتشف الروسي أليكسي نيقولا فيتش ما تم اتخاذه من قرارات في مؤتمر بال الشهير أصابه ذعر شديد، ذاك أن المقررات تقضي بأن يعمل اليهود لاستعباد العالم كله والسيطرة عليه، وقد قدم أليكسي نسخة من البروتوكولات إلى صديقه العالم الروسي سيرجي نيلوس فترجمها وقام بدراسة تحليلية لها وقارن بينها وبين ما يحدث في العالم آنذاك فهاله التطابق، ولذلك هاجت روسيا القيصرية عندما انتشرت الوثيقة عام، ١٩٠٢ وكان من نتائج الغضب الروسي على اليهود وقوع مذابح قُتل في إحداها عشرة آلاف ضحية· وقد قام اليهود بجمع الكتاب وإحراقه وتبرؤوا منه· وتقول الروايات المتواترة، إن النسخة التي احتفظ بها المتحف البريطاني انتشرت من جديد حين وقعت بيد فيكتور مارسدن مراسل صحيفة مورنينج بوست الذي أوفدته جريدته مندوباً لتغطية أحداث الثورة البلشفية، فذهب إلى المتحف البريطاني ليطلع على كتب روسية، وكان أن وجد الكتاب، ويقال إنه أول من ترجم البروتوكولات إلى العالم أجمع حيث انتشرت الطبعات عن نسخته باللغات الأوروبية، وذاع صيتها في نهاية العقد الثاني من القرن العشرين، وقد تأخرت ترجمة الكتاب إلى العربية وأعتقد أن أول من ترجمه هو محمد خليفة التونسي·وقد اهتم الأميركيون بكتاب البروتوكولات، وذكرهم ظهورها بخطاب رئيسهم بنيامين فرانكلين أمام الكونغرس حيث قال: أيها السادة: هنالك خطر كبير يتهدد الولايات المتحدة الأميركية، وهذا الخطر هو اليهود، ففي أي أرض يحلّونُ بها يعملون على تدني المستوى الأخلاقي والتجاري فيها وعلى مدى تاريخهم الطويل، ظلّوا متقوقعين على أنفسهم في معزل عن الأمم التي يعيشون فيها، ولم يندمجوا في حضاراتها، بل كانوا يعملون دوما على إثارة الأزمات المالية وخنق اقتصاداتها، كما حصل في البرتغال وإسبانيا.

فإن لم يُطردوا من الولايات المتحدة بموجب الدستور، فإنهم وخلال مئة عام على الأقل من الآن، سيتوافدون إلى هذا البلد بأعداد كبيرة، وسوف يحكموننا ويدمّروننا...

كما تذكّر الأميركيون، قول رئيسهم لنكولن:

إنني أرى في الأفق نُذر أزمة تقترب شيئا ًفشيئاً... وهي أزمة تثيرني وتجعلني أرتجف على سلامة بلدي··· فقد أصبحت السيادة للهيئات والشركات الكبرى... وسيترتب على ذلك وصول الفساد إلى أعلى المناصب... إذ أن أصحاب رؤوس الأموال، سيعملون على إبقاء سيطرتهم على الدولة، وستصبح ثروة البلاد بأكملها، تحت سيطرة (فئة قليلة)... الأمر الذي سيؤدي إلى تحطم الجمهورية ·

ولم يشغل الأميركيون أنفسهم بالجدل حول صحة البروتوكولات أو زيفها وحقيقة كونها من وضع الاستخبارات الروسية بهدف الإساءة إلى اليهود فقد اكتفى الأميركيون في مطلع القرن العشرين برؤية هنري فورد (الجد) صاحب كتاب اليهودي العالمي عندما قال معلقاً الكلام الوحيد الذي أحب أن أعلق به حول البروتوكولات هو أنها تنبأت تماماً بما يجري اليوم والطريف أنه كان يتحدث بعد ستة عشر عاماً من ظهورها، ولا ندري ما ذا كان سيقول فورد لو أنه يتحدث الآن بعد مئة عام.

والمفارقة الخامسة أن حكماء العرب لم يشغلوا أنفسهم قط في تفسير أي من الأحداث الكبيرة (التي انعكست عليهم بشكل مباشر، ودفعوا ثمنها فادحاً)على ضوء البروتوكولات أو التوراة أو التلمود أو أية مرجعية دينية، فالعرب لم يتوقفوا عند تبرئة الفاتيكان لليهود من دم السيد المسيح، لأن المسلمين أصلاً يبرئون اليهود من قتله لأنهم يعتقدون أنهم (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم). وإذا كانت بعض القيادات الدينية المسيحية قد سامحت اليهود بكل ما أذاقوا السيد المسيح من تعذيب وتنكيل، وغفرت لهم ما في معتقداتهم من إساءات للسيدة العذراء مريم وابنها المسيح عليهما السلام، فإن المسلمين يكتفون بأنهم يقدسون السيد المسيح وأمه التي اصطفاها الله وفضلها على نساء العالمين أعظم تقديس، بل يقدسون كل أنبياء بني إسرائيل ويقدمونهم بشكل أنقى وأكثر بهاء مما في سفر التكوين وسفر الخروج وسفر صموئيل وسفر الملوك وسوى ذلك من أسفار تلحق بالأنبياء ما لا يليق بهم من أوصاف أو أفعال،كحكاية سيدنا لوط مع بناته، وحكاية سيدنا داود مع زوجة أوريا الحثي وسوى ذلك كثير مما لا يعنينا التفصيل فيه فلهم دينهم ولنا دين. لكن الذي يعنينا أن العرب المسلمين لم يفكروا طويلاً في أسرار هذا التحالف اليهودي المسيحي الصهيوني وكيف تم؟ وما أهدافه؟ لأنهم يصرون على استبعاد الدين كلاً من الصراعات السياسية. بل إن المسلمين يودون أن تتلاقى الأديان وأن تتفاهم، وهم أصحاب الدعوة العريقة إلى (الكلمة السواء) وهي كلمة التوحيد التي تلتقي عندها الديانات السماوية.

وكذلك لم يفسر العرب أحداثاً كبرى، مثل مقتل كينيدي، ولا فهموا ما فعل غورباتشوف ومن بعده يلتسين والملياردير بيريزوفسكي على ضوء خرافة البروتوكولات، ولا فسروا الفضائح الشهيرة للسياسة الأميركية مثل فضيحة مونيكا لوينسكي بعد صراع نتنياهو مع كلينتون، تفسيراً ينسجم مع رؤية البروتوكولات ولا أحبوا أن يفسروا الظهور القوي لفكرة النظام الدولي الجديد ولفكرة العولمة وظهور منظمة التجارة الدولية والسيطرة المدهشة للبنك الدولي، ولا حتى أحداث ١١ سبتمبر ذاتها، بناء على ذاك الوهم الذي اخترعه الروس في مطلع

القرن العشرين، لأن العرب تخلوا منذ زمن بعيد عن ذهنية المؤامرة، وباتوا يفضلون التفسير الاقتصادي والمادي والعلمي للتاريخ، بل إنهم تحملوا كثيراً من المسؤوليات الراهنة عن العلميات الإرهابية التي نسبت إلى عرب ومسلمين، رغم أن كثيرين منهم ما يزالون، غير مقتنعين في دواخلهم بصحة هذا الاتهام الذي لم يقم عليه دليل قانوني إلى الآن، ولكنهم لم يكونوا في وضع يسمح لهم أمام الهياج الأميركي أن يطالبوا بالمشاركة في التحقيق أو الإطلاع على الأدلة فوجدوا أنفسهم في قفص الاتهام طائعين يدفعون الديات، وينفذون العقوبات، وكان من آخرها منعهم من تقديم المسلسلات دون الحصول على إجازة عرض من الوصي على شؤون العالم. ورغم أنني لست معنياً بالتحقق من صحة بروتوكولات حكماء صهيون، وأتمنى ألا ينشغل أحد بها، إلا أنني أرجو أن يجد حكماء العرب في الممارسات الإسرائيلية اليومية التي نراها في فلسطين، وفي الحملة الاستراتيجية الأميركية بعيدة المدى والأهداف، وفي المشروع الصهيوني الذي أوشك أن يصل إلى ذروة أبعاده، ما يجعلهم يستفيدون من فكرة البروتوكول، فيضعوا لأنفسهم رؤية موحدة وخطة عمل قومية، توضح لهم الطريق التي سيمضون فيها، وتدعوهم إلى الإجابة على أسئلة المصير الذي بات مخيفاً.

٢٠٠٢/١١/١٤

حلف الناتو: شراكة غير متكافئة

ليس مفاجئاً لأحد من العرب والمسلمين أن يعرِّف صموئيل هنتينغتون حلف الناتوبأنه المنظمة الأمنية للحضارة الغربية وأن يطالب بإغلاق الحلف أمام الدول ذات الميراث الثقافي الشرقي وهو إذن يقصد ثقافتين هما الثقافة الإسلامية، والثقافة المسيحية الأرثوذوكسية.

ولم يكن مفاجئاً كذلك أن يقلل توماس فريدمان من أهمية توسيع حلف الناتو شرقاً ليضم دولاً تخلفت كثيراً عن أميركا، وأن يقول لا تقلقوا فنادي الناتو الجديد لن يكون قوة ضاربة، والبنتاغون يعلم ذلك منذ مدة طويلة، ولذلك لم يفكر أبداً في قتال الأفغان عبر الناتو، ولن يفعل ذلك في العراق أيضاً، فأعضاء الحلف الأساسيون هم أولئك الذين يمتلكون عقلية وثقافة واحدة ويتحدثون الإنجليزية، وهم بالطبع الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا وأستراليا... أما فرنسا فهي حليف للسلام فقط.

أما مايكل ماندل باوم مؤلف كتاب الأفكار التي غزت العالم فيرى في الدول الداخلة حديثاً في الحلف من شرق ووسط أوروبا، مجرد مجموعة داعمة للديمقراطيات الجديدة، بوصفها خارجة من سلطة الفاشستية خلال الحرب الباردة.

ولئن كان توصيف باوم صحيحاً على صعيد الشكل، فإنه يخفي في المضمون ذاك الهدف الواضح للاستراتيجية الأمنية الأميركية الجديدة، وهو السيطرة على التركة النووية للكتلة الاشتراكية السابقة، بعد أن تم دفن حلف وارسو تحت أنقاض سور برلين.

ومن الواضح أن انضمام سبع دول شيوعية سابقاً إلى الناتو الذي سيضم ستاً وعشرين دولة في عامه الثالث والخمسين،سيوفر فرصة الزحف الأوسع نحو روسيا بهدف عزلها النهائي نووياً •••ولم يكن مصادفة اختيار براغ لاستضافة قمة الناتو الأولى في القرن الحادي والعشرين، فعاصمة جمهورية التشيك هي رمز القوة التي زمجرت في الستينيات، وتمكنت من فرض نفسها على الخصوم، ولكنها انهارت في سقوط تلقائي منظم، وكانت أول دولة شيوعية سابقاً تنضم إلى موكب خصوم الأمس عام،١٩٩١ وقد تبعتها المجر وبولندا. ولم يخف الروس، الذين يحتفظون بقواهم النووية، قلقهم من أن يضم الناتو ثلاثاً من دول البلطيق هي أستونيا وليتوانيا ولاتفيا، وأن يصبح على بعد بضع مئات من الكيلومترات من حدودهم، مما يقطع على الروس أي أمل في استعادة السيطرة على شرق أوروبا، وما ندري إن كان الروس سيقتنعون بما قاله الرئيس بوش لمحطة تلفزة روسية بأن توسع الناتو شرقاً سيحافظ على مصالح موسكو، وقد أعطى الرئيس بوش عربوناً لهذا التفاؤل في مسألتين: الأولى إقراره بأن النزاع الشيشاني

الروسي هو مسألة داخلية، والثانية تعهده بأن تضمن واشنطن مصالح روسيا بعيدة المدى في العراق ويقصد النفط إذا تمت الإطاحة بالرئيس العراقي.

ولم تتح للروس فرصة مناقشة هادئة كان مقرراً أن تتم في المكسيك أواخر الشهر الماضي (أكتوبر ٢٠٠٢) لأن حادثة احتجاز الرهائن في مسرح موسكو منعت بوتين من السفر وانشغلت روسيا بما لم يكن على البال، في وقت عصيب يطرق فيه الناتو باب روسيا من الطرف الآمن بعد أن طرقها من جبال أفغانستان.

كان يفجيني بريماكوف رئيس وزراء روسيا الأسبق يدرك جيداً أهمية هذا الخطر، حين طالب بإنشاء مكتب استراتيجي يضم روسيا والهند والصين بهدف معالجة الخلل الدولي الناجم عن تفرد الولايات المتحدة بقيادة العالم.

وقد سعى المفكرون الأميركيون لطمأنة العالم أن ما يحدث ليس خللاً، فالغرب كله على رأي هنتينغتون يمر بالطور الأميركي الذي يجب أن يلتحق به الجميع لتشييد ثقافة مشتركة وتكامل اقتصادي، وإذا كان الغطاء الأيديولوجي لحلف الأطلسي قد انهار بانهيار حلف وارسو، فإن المفكرين الجدد يحاولون الآن خلق قاعدة فكرية جديدة بعنوان الشراكة من أجل السلام وقد انطلق هذا الشعار منذ قمة بروكسل ١٩٩٤.

لكن هذه الشراكة غير متكافئة. ولم يكن يغيب عن الأوروبيين أن هذه الشراكة هي لصالح الولايات المتحدة وليست لصالحهم تماماً، وكانت أوروبا قد حاولت الانسلاخ من الناتو منذ عام ١٩٦١ حين بدأت أميركا تقوي قدراتها العسكرية التقليدية، وتعتمد استراتيجية مرونة الرد، ولكن المبررات الأوروبية لم تكن كافية، ولم يكن بوسع الساسة الأوروبيين حتى بعد أن تمكنوا من إصدار العملة الأوروبية الموحدة اليورو أن يحققوا الحلم الأهم، وهو تشكيل هيئة دفاعية أوروبية في حدود الاتحاد الأوروبي، فعلاقاتهم مع أميركا عنكبوتية وشديدة التعقيد، وقد حذرتهم الولايات المتحدة من خطورة الإقدام على فصل نظرية الأمن الأوروبي، عن استراتيجية الأمن الأميركي.

وإذا كان جنود الناتو اليونانيون، هم حسب معايير هنتينغتون من أبناء الميراث الثالث لاعتناقهم المسيحية الأرثوذكسية، قد طالبوا بالعودة إلى بلادهم بعد تجربتهم المريرة في حرب البلقان، فإن الفرنسيين كانوا وما يزالون الأكثر جرأة بين الأوروبيين في التعبير عن الضيق من حالة فقدان التوازن الدولي، ولعل مواقفهم شجعت الألمان على التصريح بما يدور في النفوس،

وقد طالبوا بوضوح أن ينزع الناتو أسلحته النووية كمقدمة لمطالبة بقية أعضاء الحلف ودول العالم بنزع أسلحة الدمار الشامل.

لقد اعترض الفرنسيون على مقترحات رامسفيلد الأخيرة المطالبة بأن يتدخل الناتو في أي مكان في العالم، وطالبت ميشيل اليوت ماري بضرورة الحفاظ على الولاية الجغرافية للحلف، وعلى تحديد عملياته في إطار المناطق المجاورة للدول الأعضاء، وطالبت فرنسا بألا يتدخل الحلف في أي نزاع دون الرجوع إلى مجلس الأمن• وعلى صعيد عام لم يعلن قادة الحلف تأييدهم لعمل عسكري ضد بغداد رغم كل جهود الطرف الأميركي لجعل قمة براغ قمة التحالف لضرب العراق، فقد تمسك قادة الحلف بمجلس الأمن، وأصروا على بقاء هيئة الأمم المرجعية العليا في اتخاذ القرارات الحاسمة.

أما العرب، فقد اختلط على كثيرين منهم فهم موقف حلف الناتو حين انبرى للدفاع عن مسلمي كوسوفو العزل، ورغم أنهم لم يستطيعوا أن يتعاطفوا مع الصرب بعد المذابح المريعة التي ارتكبت ضد المسلمين، إلا أنهم لم يكونوا مبتهجين بالهجوم على بلغراد• وقد تشتت فهمهم لدوافع الولايات المتحدة وحلف الناتو، حيث لم يصدقوا أن يكون هدف الحرب في البلقان هو إنقاذ مسلمي كوسوفو بعد سنوات من الصمت على المجازر التي ارتكبت ضد الجيب الإسلامي في أوروبا ولا سيما في البوسنة والهرسك، لكن كلينتون لم يخف الهدف آنذاك فقد أعلن في قمة الناتو الخمسين في واشنطن أن الغارات الجوية على بلغراد تهدف إلى إنهاء آخر الديكتاتوريات في أوروبا، ويومها قال خافيير سولانا، وكان سكرتيراً عاماً للحلف، إن حلف الأطلسي يثبت أنه ليس قانعاً بأهدافه فحسب وإنما هو مستعد للدفاع عنها حين تتعرض لأي تهديد• وكان التهديد الواضح لدى المراقبين هو أن يقوى ساعد الصرب بوصفهم الحليف القوي لروسيا في قلب أوروبا، وكان زعيم الصرب سلوبودان ميلوسوفيتش قد فجر نزعة قومية أوشكت أن تقود أوروبا كلها إلى حرب ثالثة، وكان القضاء عليه هو شوط التصفية النهائية لآخر ذيول الاتحاد السوفييتي.

وقد كان العرب، وما يزالون، يخافون أن يتمرد حلف الناتو على هيئة الأمم وعلى مجلس الأمن، وأن يقوده غرور القوة إلى أخذ موقع شرطي العالم فيحدث في العراق ما حدث في يوغسلافيا، وإذا كان الحلف قبل ثلاثة أعوام قد اكتفى باعتقال ميلوسوفيتش، ولم ينزل القوات البرية في يوغسلافيا، فإنه قد يفعلها في بلد من بلدان الميراث الشرقي، وسيعني ذلك دماراً وكارثة كبرى•

ونذكر أن توماس فريدمان طالب في مقالة له في واشنطن بوست بأن يقوم حلف الناتو باحتلال غزة والضفة الغربية، وأن يفرض بالقوة دولة فلسطينية يقودها الناتو بنفسه، ويضمن أمن إسرائيل •

والمفارقة أن بعض الدول العربية حلمت بأن تنضم إلى حلف الناتو، وغابت عنها الشروط الثقافية للحلف، وهي الشروط التي أوشكت أن تحققها تركيا العلمانية، ولكن يبدو أن ارتداء القبعة الأميركية لا يكفي لقبول المصاهرة مع الثقافة الأنجلوسكسونية، فإذا كانت المسيحية الأرثوذكسية موضع ارتياب في التحالف الثقافي للناتو، فمن باب أولى أن تكون الثقافة ذات الصلة بالحضارة الإسلامية مرفوضة قطعاً، ورغم أن السيد سولانا قد أعلن مؤخراً عن قرب التوصل إلى اتفاق بين تركيا والناتو في لقائه مع رجب طيب أردوغان إلا أن ذلك سيبقى وعداً تحت المجهر كما أتوقع، ريثما ينكشف بوضوح أسلوب حزب العدالة والتنمية في الحكم•

المهم أن المسألة في اعتقادي ليست كما روى توماس فريدمان عما حدثته به ديبلوماسية أميركية في جاكارتا، حيث أخبرته أنها رأت في مدينة مالانغ شرق جاوة صبياً يرتدي قميصاً عليه صورة لابن لادن، وفي ذات الوقت يضع على رأسه قبعة أميركية، لقد علق فريدمان على ذلك بقوله: إن ما نحتاج إليه هو القيام بجعل هذا الصبي يعتاد على القبعة ويخلع القميص.

لم يقل فريدمان كيف يمكن التخلص من القميص، وكل ما نخشاه هو أن يتم إطلاق النار على صورة ابن لادن التي على القميص، فيموت الصبي الذي وضع الصورة على قميصه احتجاجاً على سياسة الولايات المتحدة، وليس حباً لابن لادن بالتأكيد، ولعله وضع القبعة على رأسه لأنه مثل كل المسلمين في العالم لا يملك مشاعر عدوانية نحو الشعب الأميركي.

وليعذرني القارئ إن صارحته وأنا أتحدث عن الناتو بأنني أحلم بأن يأتي يوم يشعر فيه العرب بحاجتهم إلى ناتو عربي، وبأن تستعيد نظرية الأمن القومي حضورها المغيب وقد يبدو الحلم بعيداً في الظروف الراهنة التي غابت فيها الإرادة، لكن درس الخراب القادم سيجبر الأمة على التعلم.

٢٠٠٢/١١/٢٩

حساب التاريخ ومراجعة الذات في أوربا

ينتقد المحللون السياسيون الصهاينة هشاشة موقف أوربا أمام الإرهاب، ويصعّد الإعلام الصهيوني المسيطر في الغرب حملة التخويف من التهديد الإسلامي لأوربا، حيث لا يكاد يمر يوم دون أن يستيقظ الناس على نبأ يشيع الذعر، وبدافع من هذا التحريض نشطت في الأسبوع الماضي حملة اعتقالات في العديد من البلدان الأوربية لمتهمين اشتبه بكونهم من القاعدة، وتحرك في إحدى عواصم أوربا ثمانمائة جندي من وحدة مكافحة الإرهاب لاعتقال شاب، وسربت الأنباء أن المعتقلين أفادوا أن شبكتهم تمتد من أوربا إلى أمريكا الشمالية وتلتف إلى قارة آسيا مروراً بشمال أفريقيا والشرق الأوسط، أي أنها تملك مواقع في العالم كله، وينتقد أحد التقارير غياب استخبارات أوربية قوية تتمكن من قتل خلايا الإرهاب السرطانية.

ورغم أن الإرهاب الدولي المتعدد الهويات والاتجاهات والأهداف يستدعي حالة من الحذر الدائم إلا أن هذه المبالغة في التحذير من إرهاب التطرف الإسلامي بدأت تنبه عامة الأوربيين إلى الشك في أهدافها ودوافعها، فقد أشار تقرير آخر إلى شكوك خبراء مكافحة الإرهاب أنفسهم في دقة المعلومات والتحذيرات التي يطلقها السياسيون، فهم كما يقول التقرير (يضخمون الأمور ويبالغون ليظهروا يقظين في عيون الشعوب) لكن المتنورين في أوربا بدؤوا يدركون أن الهدف الذي لم يقله الخبراء، هو تعبئة القارة الأوربية المسيحية ضد المسلمين جميعاً، ولاسيما أولئك المقيمين الذين اختاروا العيش في أوربا، وأسسوا حضوراً ثقافياً واجتماعياً قوياً خشيت الصهيونية من نموه وامتداده، ووجدت في تهمة الإرهاب وسيلة لحصاره والتحريض على اقتلاعه.

والواضح أن الصهيونية التي نجحت في حصار المسلمين في أمريكا تريد أن يحدث الشيء نفسه في أوربا، لكن القيادات السياسية الأوربية النزيهة تقاوم هذا التحريض الصهيوني، الذي بدأ سياسيون أمريكيون كذلك بمقاومته، وقد انتقدوا مبالغة الإدارة الأمريكية في إجراءاتها الأمنية الصارمة ضد المسلمين، وقد سببت ضرراً بالغاً لمجموعات كبيرة من الفقراء والبسطاء ولا سيما أولئك الذين كانوا يتلقون مساعدات وصدقات، حرموا منها بعد أن أغلقت الإدارة الأمريكية عدداً كبيراً من المنظمات الخيرية الإسلامية، وجمّدت ثمانية ملايين دولار من حساباتها لمجرد الاشتباه بذهاب بعض الهبات إلى المتطرفين، كما أن أكبر شريحة من المتضررين من هذا الحظر هم أطفال فلسطين كما يقول آلان كوبرمان في مقالة له في الواشنطن بوست (٢٠٠٢/١٢/٧) حول هبات المسلمين.

لقد بدأ المجتمع الغربي كله، يدرك أن ثمة خدعة كبيرة يتم ابتزازه من خلالها، وقد لاحظنا بداية انقلاب السحر على الساحر في تفتح وعي جديد، وصل إلى مواقع قيادية هامة، وبوسعنا أن نشيد بتصريحات السيد جاك سترو الذي قام بما سماه المؤرخ الأستاذ أحمد صدقي الدجاني (حساب التاريخ) تعليقاً على حديث أدلى به سترو إلى مجلة نيو ستيتمان قال فيه (إن منح بلفور وعداً للإسرائيليين مع تأكيدات مناقضة للفلسطينيين ــ يقصد وعود مكماهون ــ يشير إلى ماض مثير لبريطانيا ولكنه غير مشرّف) وبوسعنا أن نسمي موقف بريطانيا على الصعيد الشعبي نوعاً من ــ مراجعةالذات ــ عبرت عنه المظاهرات الحاشدة التي أعلن من خلالها الشعب البريطاني رفضه للتبعية والانصياع لأوامر صقور الإدارة الأمريكية المصممين على ضرب العراق وعلى تدمير البلدان العربية والمسلمة.

ولئن كانت محادثات الرئيس السوري بشار الأسد مع السيد توني بلير قد أوضحت اختلافاً في وجهات النظر في القضية العراقية وفي تعريف الإرهاب، إلا أن استضافة وجهة النظر العربية والإنصات إليها باحترام في لندن كان بادرة إيجابية، أقلقت الصهاينة الذين شنوا حملة على السيد بلير رغم حرصه الشديد على تأكيد اختلافه مع وجهة النظر العربية والإسلامية التي ترى في مقاومة الفلسطينيين للاحتلال الإسرائيلي عملاً مشروعاً بل واجباً مقدساً.

لقد تابعت بعضاً من المقالات التي نشرتها الصحف البريطانية هذا الأسبوع، فوجدت فيها الكثير مما يبشر بصحوة على الحق العربي، وبترحيب بالحوار بديلاً عن الصراع، وتفهماً لأهمية معالجة جذور المشكلات بدل المعالجات السطحية التي تعتمد منطق القوة بدل قوة المنطق، وبالطبع نشرت بعض الصحف البريطانية مقالات صهيونية الهوى، هاجمت الموقف العربي والكياسة البريطانية الرسمية التي خشي الإسرائيليون أن توحي بدور جديد لبريطانيا تفهم منه الولايات المتحدة تأثيراً لمناهضي الحرب على السياسة البريطانية، وتفهم منه إسرائيل ضرورة أن تعيد النظر في سياساتها، وقد هاجم الكتاب الصهاينة رغبة بريطانيا بالحوار وفهم المواقف كيلا تتصاعد عملية حساب التاريخ ومراجعة الذات، لدى مثقفي ومفكري بريطانيا المسئولة تاريخياً أمام ملايين العرب عن مصائبهم من طوفان الإرهاب الإسرائيلي الذي اقتلع الشعب الفلسطيني من أرضه وحكم عليه بالتشرد ثم أغرقه في بحر الدماء.

و يرى ملايين العرب كذلك أن بريطانيا العظمى مسئولة عن غزو العراق إبان الحرب العالمية الأولى،وعن تقسيم بلادهم وقد قال السيد سترو في الحديث المشار إليه إن بريطانيا استعمرت العراق باسم الانتداب وقال إن بريطانيا خلفت كثيراً من المشكلات من توابع الاستعمار، ومع إشادتنا بالشجاعة الأدبية للسيد سترو فيما نرجو أن يكون مراجعة تاريخية

نذكّر السياسة البريطانية والغربية عموماً بأن العرب جميعاً يمتلكون قدرة هائلة على التســامح، وهم لا يحمّلون الأجيال الراهنة من الأوربيين مسئولية أخطاء الآباء والأجداد وشواهد التسامح العربي والنظر إلى المستقبل أكثر من أن تحصى وهذا ما يعبر عنه الإصرار العربي على دور أوربي في رؤية عادلة وشاملة لإنهاء الصراع العربي الإسرائيلي، بينما تريد إســرائيل إبعــاد أوربا التي أفاقت شعوبها على الحقائق، وبات الشرفاء فيها يطالبون بإلقاء القبض على شارون لأنه سفاح مدان بسلسة مجازر ضد الإنسانية.

ولقد نهضت إسرائيل بقوة لمحاصرة الصحوة الأوربية بتهمة عودة معاداة السامية، فشنت حملات قاسية على أي تصريح يشير إلى الحق العربي،حتى وصلت الحملة الصــهيونية إلــى انتقاد حاد لتعبير شفاف قالته السيدة بلير في حزيران الماضي واضطرت للاعتذار عنه، وقــد استعاده بالأمس ماثيو تمبست في مقالته (في الغارديــان ٢٠٠٢/١٢/١٦ التــي يهــاجم فيهــا استضافة لندن للرئيس الأسد) فذكر القراء بأنها هي التي قالت (إن الشبان الفلسطينيين يشعرون أن لا أمل لهم إلا بتفجير أنفسهم) كما ذكّر القراء بأن دمشق تدعم الإرهاب الفلســطيني الــذي يقوم به أطفال وشبان يرعبون جيش إسرائيل، وبأن دمشق متحالفة مع من سماهم القتلــة فــي لبنان، يقصد (حزب الله) الذي أخرج المحتل من أرضه.

وتكشف الحملة الإسرائيلية الصهيونية المسعورة على بادرة الحوار العربي البريطاني خوف إسرائيل من أن تتسل إلى أذن الغرب وجهة النظر العربية، فهم لا يريــدون للخطــاب العربــي المتمسك بالحق أن يجد منبراً في عاصمة سيطر الصهاينة فيها على مواقع القرار عقوداً طويلــة، حتى ضاق به العقلاء والشرفاء يراجعون الذات اليوم، ولا يعني هذا التفاؤل بالمراجعة أن انقلاباً قد حدث في بنية سياسة بريطانيا، ولكنه تفاؤل بدور الأصوات البريطانية النزيهة التي بــدأت تعلــو، والتي انطلقت في مظاهرات شارك فيها يهود نحترمهم، وليس صحيحاً أننا نعتقد بأنهم مصاصــو دماء كما روجت مقالة رود ليل (في الغارديان ٢٠٠٢/١٢/١٧ تحت عنوان – لدى تــوني بليــر الحق في استضافة الأسد، والتي استنتج فيها من مقدمات كاذبة أن بلير يجب ألا يستضــيف مــن يبغض اليهود ومن يعادي السامية) والمقالة محشوة بما نعتقد أنه لصالح الصحوة الأوربيــة التــي أدرك الناس فيها سخف أن يتهم العرب الساميون بعداء السامية، ولعل بعض الأوربيــين فوجئــوا حين علموا أن العرب المسلمين هم الذين وفروا لليهود الملجأ الآمن حين طردتهم أوربا، وقد ساهم في نشر هذا الوعي يهود باحثون عن السلام يناضلون ضد الصهيونية ليس في حركة نــاطوري كارتا فحسب وإنما في جماعات عديدة لاتجرؤ على المجاهرة خوفاً من بطش الصهيونية، (ونحن نتذكر أن ثلاثين حاخاماً شاركوا في تظاهرة بلندن في أبريل الماضي وأعربوا عــن اســتنكارهم

لمجازر شارون، ومزقوا علم إسرائيل، كما أن أربعمائة محاضر أكاديمي بريطاني بينهم عشـــرة أكاديميين إسرائيليين منهم بردفورد ديفيت وتانيا راينهارت والمؤرخ إيلان بابيه وقعوا فـــي لنـــدن على بيان يدعو إلى مقاطعة إسرائيل أكاديمياً، وقد قال البرفسور ستيفن رون إن إسرائيل لاتفهـــم كالدول المتنورة لغة الاحتجاج السياسي، إنها لا تفهم غير لغة القوة ونحن لا نملك من القوة غيـــر علمنا فلنجند علمنا لوقف حملة الموت التي تشنها إسرائيل على شعب فلسطين) ونحن نحيي هـــذه الأصوات التي تبشر بصحوة أوربية وغربية، ترفض تدمير البشرية.

٢٠٠٢/١٢/١٩

الانتفاضة ورؤية المقاومة

ودعنا عام ٢٠٠٢ ونحن نشعر بأسى بالغ لأنه كان عام الاجتياح الإسرائيلي الوحشي ضد الشعب الفلسطيني، وعام قرع طبول الحرب الأميركية الصهيونية على العراق وما تلاها من بلاد العرب والمسلمين، وعام الإخفاقات المتتالية لآمال الشعب العربي في تحقيق تضامن عربي متين، يتوحد فيه قرار الأمة وموقفها من العدوان عليها، ولئن كانت قمة بيروت قد أوحت بشيء من التفاؤل فإن ما تلاها من أحداث، سرق الأمل من عيون المتفائلين. وكان إهمال الولايات المتحدة للمبادرة العربية للسلام قد أكد إصرارها على خيار الحرب، وعلى الاستمرار بدعم إسرائيل في عدوانها المتصاعد على الشعب الفلسطيني. وقد بدت كل مساعي اللجنة الرباعية وخطط الطرقات وكل الممرات الالتفافية ودعوات الاتحاد الأوروبي لإيقاف العنف الإسرائيلي وكل المبادرات الشكلية للعودة إلى المفاوضات غير ذات جدوى لأنها تشبه الأدوية المسكنة التي لا تعالج المرض ولكنها تحاول تسكين الألم، وهي تخفق في تسكين الألم الفلسطيني لأن الجرح مفتوح والشرايين تنزف دماً وصديداً. ولكن المهدئات تنجح عند الضعفاء في تسكين آلام الكرامة التي أدمنت على رؤية مشاهد الجنازات اليومية التي يودع بها الفلسطينيون أبناءهم. ولعل بعض المشاهدين العرب للتلفزيون باتوا يضغطون بسرعة على الريموت لتغيير المحطة التي تقدم خبر دمار أو موت بالجملة في فلسطين، فقد سئموا رؤية الموتى بلا قبور، وأزعجت أسماعهم صرخات النحيب، وما باليد حيلة، و(الله غالب) وقد قام القوم بواجبهم حين خرجوا في مظاهرات عارمة وبحّت الحناجر، وتبرع المتبرعون ببعض ما جادت به النفوس، ويبدو أن كثيرين من أهلنا العرب وقد ظنوا الهجمة أكبر من طاقاتهم على صدها، تمسكوا بإيمانهم بأن الموت حق، وبأن الساعة آتية، وهم يدركون أن هذه الحشود التي استقدمتها الولايات المتحدة فملأت البحر والبر، لم تأت لنزهة بحرية في مياه الخليج الدافئة، أو لصيد الحبارى في بواديه، وإنما هي قادمة لأداء مهمة أميركية إسرائيلية مقدسة، هي قتل العرب والمسلمين وتدمير مدنهم واجتثاث حضارتهم .

ومع ذلك تجد بعض العرب آمنين مطمئنين، لا يؤرقهم شيء، أصيب بعضهم بداء المازوخية، وأصيب آخرون ببلادة الإحساس، ولم يعد بالإمكان غير الحوقلة. وقد سألني أحد الأصدقاء الغربيين عن سر الصمت العربي وعن الوجوم والذهول والاستسلام و(التطنيش) فقلت على استحياء: لعله الهدوء الذي يسبق العاصفة، فضحك وقال: لعلك تقصد عاصفة المظاهرات، والمفارقة أن آخر مظاهرة شهدتها عاصمة عربية قام بها أوروبيون يعيشون فيها. وقد لمحت لبعض العرب بارقة أمل في الخروج من الطريق المسدود، حين جاء متسناع ليعتلي صهوة

حزب العمل، فبدأ العمل على الفور في ورشة التطبيل والتزمير، وقال أحد المنظّــرين: إن لــم ننجح في التفاهم مع متسناع فلن ننجح في التفاهم مع أي سياسي آخر وأحســن الظــن بعــض الأصدقاء وهم معذورون حين ألجأهم اليأس للتفاؤل بما قيل حول إمكانية قبول متسناع بإعطاء الأحياء العربية في القدس للعرب، وبلمّ شمل مرحلي على مدى عقود، لعدد محدود جــداً مــن اللاجئين· واستعداداً لقدومه يُطالب الفلسطينيون بوقف الانتفاضة، في الوقت الذي يصــعّد فيــه شارون سياسة الاغتيالات على ما يفسره بعض المحللين استجراراً للرد بعمليــات استشــهادية جديدة تؤكد للشارع الإسرائيلي حاجته إلى البلدوزر· وقد آن للعرب أن يدركوا أن الفارق بــين حزب العمل وحزب الليكود هو كالفارق بين مجزرة قانا ومجزرة جنين، وأن المشكلة ليست في الأشخاص، وإنما هي في استراتيجية المشروع الصهيوني، الطامح إلى توسيع رقعــة الأرض المحتلة بدل الانسحاب المنتظر، والسرطان الإسرائيلي المتورم في الجسد العربي ينشر خلايــاه الاستيطانية التي تتكاثر وتبدو على الجسد الفلسطيني كالبثور المتقيحة، وقد شبهها يوسي ساريد بأنها ثقوب في الرأس، ولكن غالبية الإسرائيليين يعتبرونها جوهر الصهيونية وعمودها الفقري، حيث يعتقدون أن المستوطنين هم طليعة شعب إسرائيل المختار.

وفي المقابل نجد أن طليعة الشعب العربي اليوم هم صناع الانتفاضة المقاومون المناضلون الذين يدفعون ضريبة الانتماء إلى الوطن وإلى العروبة، وإلى عقيدة إيمانيــة راســخة، تجعــل الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وهذه العقيدة هي السلاح الذي يجعل الضعفاء أقوياء، ماداموا لا يخافون الموت.

ويدرك الفلسطينيون أن الانتفاضة هي الطريق الوحيد إلى السلام، فإسرائيل لن تقبــل أن تعيد شيئاً من الحق إلى أصحابه إن لم يطالبوا به بقوة وإصرار،فحين توقفت المقاومة قليلاً بعد نتائج الانتفاضة الأولى تنكرت إسرائيل سريعاً لكل التزاماتها وباتت تبحث عن وسائل لإجهاض ما تم الاتفاق عليه في أوسلو،رغم أنه كان رؤية إسرائيلية، ودون الطموح الفلسطيني والعربــي ولم يحظ بقبول المقاومين، ويدرك الفلسطينيون أن العالم لن يتعاطف مع من يستهين بحقه، وأن الاعتماد على أنصار السلام من شعب إسرائيل وحدهم لن يجلب اســتقلالاً ولــن يقــيم دولــة فلسطينية· ولقد أشرت في غير موضع إلى دراسة الباحث الموسوعي عبد الوهاب المسيري في كتابه (من الانتفاضة إلى حرب التحرير) حيث يبرز في دراسته ضخامة الإنجاز الذي حققتــه الانتفاضة ويؤكد تحليله السياسي للمعطيات أنها طريق السلام، وهي التي جعلت الفكر العــالمي كله يستنكر تبرير حق عودة اليهود إلى إسرائيل بكونه حق دم يعود إلــى آلاف الســنين، فــي

الوقت الذي ترفض فيه إسرائيل عودة الفلسطينيين وهو حق دم وانتماء (غير منقطع) آلاف السنين، وقد أخرجوا من أرضهم ظلماً قبل خمسين عاماً.

لقد بات واضحاً لكل من يتأمل مسار الصراع، أنه كلما زاد ما يسمى بالاعتدال الفلسطيني ازداد التطرف الإسرائيلي، وكلما ازداد تمسك الفلسطينيين بحقوقهم أبدى الصهاينة استعداداً لقبول فكرة السلام.ويذكر كتاب الانتفاضة أن شارون أعلن شعار دعوا الجيش ينتصر واستخدم ذروة الإرهاب، وأشبع شهوة المستوطنين إلى القتل والتدمير والانتقام من الفلسطينيين الذين لم يستسلموا ولكنه فوجئ بقدرة الفلسطينيين على تحمل كل هذا الدمار.

وتؤكد الدراسة الدقيقة لنتائج الانتفاضة أن المقاومة الفلسطينية ألحقت بإسرائيل من الخسائر أكثر من كل ما خسرته في حروبها السابقة، وبعيداً عن الخسائر الاقتصادية التي يعوضها لإسرائيل دافع الضرائب الأميركي، فإن الانتفاضة أسقطت الإجماع الشعبي حول ضرورة الإبقاء على المستوطنات، ذاك الإجماع الذي لم تستطع الولايات المتحدة زحزحته ونذكر تقرير بيكر وتقرير ميتشل وتصريحات الساسة الأميركيين حول ضرورة إزالة المستوطنات، وهي تصريحات ذهبت هباء، ولم تعن بها حكومات العمل ولا حكومات الليكود لكن الانتفاضة وحدها زعزعت تمسك الإسرائيليين بالمستوطنات. وقد كانت سنوات اتفاقية أوسلو هي السنوات السمان التي نشطت فيها حركة الاستيطان، وكانت الانتفاضة الأولى قد جعلت رابين يرى المستوطنات تشكل عبئاً على المؤسسة العسكرية، لكن الانتفاضة الراهنة جعلت الإسرائيليين يرون المستوطنات مواقع للأشباح، ولا سيما تلك التي يسكنها بضع عشرات، يحرسهم المئات من الجنود.كذلك كشفت الانتفاضة وهم الطرق الالتفافية التي باتت طرق الموت ــ هناك طريق التفافي أنشئ من أجل طفل إسرائيلي يريد أن يتعلم العزف على الكمان في مستوطنة أخرى، وطريق آخر رفض أحد المستوطنين أن يسلكه إلى عمله إلا برفقة دبابة وعدة جنود لحمايته ــ وقد كانت رسالة الانتفاضة إلى المستوطنين واضحة وهي أن عليهم الرحيل، وقد كتب موني باسوك في هآرتس: إن إسرائيل تنضم إلى الاتحاد الأوروبي ولكن بشكل فردي، حيث يتزايد عدد الذين يطلبون جوازات سفر أوروبية، وأغلبهم من الطبقة الوسطى، وكثيرون منهم أعلنوا رفضهم أداء الخدمة العسكرية. وأنا أشير ثانية إلى كتاب المسيري مجدداً تحيتي له ولدار الفكر التي أصدرت الكتاب في دمشق وطلبت من القراء نشره وترويجه، لكي يطلع كل عربي على حقيقة إنجاز المقاومة الفلسطينية .

صحيح أن الشعب الفلسطيني دفع الكثير مما لايطاق من الألم، ولست أعترض على من يقول اتركوا الأولاد يذهبون إلى المدارس، ولكنني أتمنى ألا يسقط الحجر من أيديهم، وأدرك أن

الألم الأكبر هو أن يضيع ما دفع الفلسطينيون من تضحيات، وما أهرق من دمائهم سدى وهباء. فليتق الله من يطالب الفلسطينيين بوقف الانتفاضة، وقد أوشكت أن تقنع إسرائيل بأن مشروعها العدواني الصهيوني على الحقوق العربية وهم كبير، يصعب أن تحققه حرب ضد العراق أو سواه من بلاد العرب، حيث لن تفعل الحرب أكثر من الموت، وهو عند العرب موت مقدس حين يكون دفاعاً عن النفس والوطن والهوية، أو حين يكون اغتيالاً بيد عدو غادر، وحين تنفتح بوابة الموت لن يعبر منها المقتول وحده بل سيجر معه القاتل، إلى بحر من الدم ستغرق فيه إسرائيل حتماً، ولن تبقى أميركا حليفتها إلى الأبد. ومن يدري كيف يكون مستقبل أميركا نفسها إذا قادها الكبر والغرور والحماقة إلى قتل ملايين البشر، فلن يقبل الشعب الأميركي أن يصير جزاراً مهمته ذبح الناس وقتلهم وتدمير المدن وتخويف البشرية. ستستيقظ إنسانيته وسيلقن الصهاينة الذين يقودونه إلى ارتكاب الجرائم ضد الإنسانية عقاباً بحجم جرائمهم، ونحن متفائلون بضمير الشعب الأميركي الذي تغيّب وسائل الإعلام الصهيونية بعض وعيه الآن، ولكنها لن تستطيع قتله.

وإذا كنا ننتظر صحوة الضمير الأميركي ومزيداً من التأييد الأوروبي والدولي لحقنا العربي، وموقفاً أشد صلابة من المجتمع الإنساني كله، فسيكون مخجلاً أن يقول لنا أحد من بني البشر كيف تطالبوننا بدعم نضال تطالبون بإيقافه؟ وكيف تريدون منا الدفاع عنكم وأنتم تستسلمون؟

لقد مضى عام ٢٠٠٢ وهانحن نبدأ عاماً جديداً نتوقع أن يكون أشد وأقسى على أمتنا، فهو عام الوعيد، فهل بوسع العرب أن يجعلوه عام التضامن والصمود؟

٢٠٠٣/٢/١

العراق وأزمة الضمير الإنساني

إذا كان الضمير الإنساني قد غض الطرف عن الجرائم التي ارتكبتها الإدارة الأمريكية في أفغانستان مقدراً حجم الفاجعة التي تعرضت لها الولايات المتحدة في الحادي عشر من سبتمبر، رغم استنكار العقلاء بأن تفقد دولة عظمى صوابها فترد على الإرهاب بالإرهاب، وأن تتجاوز احترامها لإعلانها الفذ عن حقوق الإنسان، ولادعائها الديمقراطية وسيادة القانون حين رفضت تقديم أدلة على كون المشتبه بهم مدانين، وعرضت الآلاف من الأبرياء المدنيين للقتل والتدمير تحت يافطة مكافحة الإرهاب، فإن الضمير الإنساني لم يغفر لنفسه صمته الغريب على جـرائم إسرائيل، واستهتارها بكل قيم الإنسانية، وتحديها لقرارات مجلس الأمن والشـرعية الدوليـة، وسيبقى يوم جنين مصدر ألم لضمائر الشرفاء في العالم، ولاسيما حين رأوا ضعف الولايـات المتحدة أمام شارون وقد طالبه الرئيس بوش بالانسحاب الفوري عدة مرات (الآن وفوراً) فلـم يكلف نفسه عناء التعليق على أوامر بوش، فاضطر رئيس أعظم قوة في العالم أن يقدم اعتذاراً ضمنياً حين أعلن أن شارون رجل سلام، ومنع الأمم المتحدة من إرسال لجنة تحقيـق، ومـن محاسبة إسرائيل على اقترافها أبشع الجرائم وأشدها إرهاباً في تاريخ البشرية.

صحيح أن هذا الموقف المخجل كشف للعالم حجـم السـيطرة الصـهيونية علـى الإدارة الأمريكية، لكنه في الوقت ذاته، أشعر الشعوب بخطورة أن تصير قوة الولايات المتحدة في يـد مجموعة من هواة الحروب، وأصحاب المصالح النفطية، والحالمين بأمجاد أسطورية يعبئون بها الجنود المرتزقة من فقراء أمريكا وهم يمنحون حروبهم هالة قدسية عبر شعارات براقة كالحرية المطلقة والعدالة والديموقراطية فضلاً عن أحلام المتطرفين من المتدينين بتحقيق وعود التـوراة، وقد خشيت الشعوب جميعاً من تضخم شعور الولايات المتحدة بجنون العظمة وقد دعاهـا هـذا الشعور إلى الاستهانة بدول عريقة مثل فرنسا وألمانيا، وإلى توجيه الإنذارات المتلاحقـة للأمـم المتحدة، وإلى التلويح بالتفرد بقرار الحرب في استهانة علنية بمجلس الأمن وشرعيته، ولم يعـد ضمير الإنسانية قادراً على هضم الاستخفاف بالعقل والمنطق بعد سيل من الأكاذيب التي أغرقت بها الإدارة الأمريكية العالم عبر ما سمته أدلة، جعلت الصحافة البريطانية والأمريكية ذاتها تسخر من سذاجتها، وتكشف فضائحها في مثل التقرير الذي كتبه الطالب إبراهيم المراشي قبـل اثنـي عشر عاماً كما نقلت الأنباء، وفي مثل تقرير باول لمجلس الأمن الذي دحضه تقرير بليكس، وقد تفجر الغضب العالمي في المظاهرات التي ذكرت الشعوب بمواقفها الشجاعة من حرب فييتنـام، وبزخم وقوة الرأي العام الدولي في الستينيات، وربما كانت مظاهرات منتصـف شـباط ٢٠٠٣ أضخم حضوراً وأقوى تعبيراً من سابقاتها، وبوسعنا أن نستقرىء من دلالاتها بعـض الحقـائق،

وأولها إسقاطها لنظرية صراع الحضارات، فقد بدا واضحاً أن شعوب الأرض لا شأن لها بما تفتق عنه عقل هنتجتون من نبوءة مريضة، وما حلم به فوكوياما من نهاية للتاريخ عبر انتصار الرأسمالية، فهاهي ذي كل الثقافات والحضارات تعبر في يوم واحد في أكثر من ستمائة بلد وعاصمة في العالم، عن موقف إنساني واحد يرفض الصراع والصدام واللجوء إلى القوة لحل الأزمات والمشكلات الدولية، وهاهو ذا التاريخ يجدد رفضه للنزعة الإمبراطورية ويبحث من جديد عن التوازن الدولي ويرفض عنجهية القطب الواحد.

والحقيقة الثانية أن الشعب الأمريكي ذاته يعيش حالة من الاستلاب لحريته، ويرفض أن تتحول قوته إلى طاقة شريرة تدمر البشرية، وهذا ما عبر عنه إعلان المثقفين الأمريكيين في عنوانه الواضح (ليس باسمنا) وقد كانت المظاهرات الضخمة التي شهدتها مدن الولايات المتحدة تعبيراً عن رفض الشعب الأمريكي لسياسة الإدارة الأمريكية التي توهمه كل صباح بأنه معرض لعملية إرهابية، مما يخترع عقل الصهاينة المسيطرين على وسائل السياسة والإعلام، وقد نشروا الذعر في نفوس الأمريكيين إلى درجة الهوس، حتى بدا الأمر مضحكاً حين أعلنت الإدارة الأمريكية بعد انفجار المركبة الفضائية كولومبيا بأن الحادث ليس عملاً إرهابياً، وقد بدا مثيراً للإشفاق كذلك أن يظهر وزير العدل الأمريكي فيعقد مؤتمراً صحفياً ضخماً تنقله وكالات الأنباء العالمية لتقديم قرائن على اتهام أستاذ جامعي من أصل فلسطيني بأنه عضو في حركة الجهاد، وأنه ضبط وهو يناصر الشعب الفلسطيني ويعادي إسرائيل لمجرد أنها تقتل الشعب الفلسطيني بالجملة وتهدم بيوتهم، وأعلن الوزير العتيد أن المتهمين مع الأستاذ ضبطوا وهم يقدمون المعونات المالية للشعب الفلسطيني، فهم إذن إرهابيون، ونسي الوزير الأمريكي أن هناك الكثيرين من الأمريكيين على اختلاف أصولهم يدعمون الشعب الفلسطيني، وقد خرجوا في مظاهرات عديدة يطالبون بمحاكمة شارون، وليس بعيداً أن تلاحقهم الصهيونية بتهمتها الجاهزة (معاداة السامية) التي باتت موضع سخرية دولية، ولاسيما حين اتهم بها العرب الساميون، وحين وقف كثيرون من اليهود في العالم وبينهم حاخامات موقف استنكار لجرائم إسرائيل حتى داخل إسرائيل.

والحقيقة الثالثة أن أوربا بدأت تعلن ضيقها بتعاظم نفوذ الولايات المتحدة التي عبرت عن استخفافها بأوربا القديمة بعد أن ضمنت ولاء أوربا الشرقية المتطلعة إلى حضور على الساحة الدولية عبر الانضمام إلى موكب القوة الذي تقوده الولايات المتحدة، وقد تكرمت عليها الولايات المتحدة بضمها إلى عضوية الناتو، وبإعادة الاعتبار لها بعد سنوات من النسيان والذوبان في الاتحاد السوفيتي المنهار.وقد تعاملت الولايات المتحدة مع ألمانيا من موقع المنتصر وصاحب

النفوذ، وتعاملت مع فرنسا من موقع المتفوق، وغاب عن الولايات المتحدة أي اعتبار للوزن الحضاري الثقيل لألمانيا وفرنسا أعضاء النادي النووي، وهما إذا اتحدتا في موقف فإن العرب والمسلمين بثقلهم الجغرافي والمادي والثقافي سيجدون فيهما ملاذاً من الضغوط الأمريكية اليومية التي تعاملهم باستهانة واستخفاف، وستشجعهما كل شعوب الأرض على تشكيل محور ينقذ البشرية من مخاطر تفرد قطب واحد بالتحكم بمصير البشرية.

والحقيقة الرابعة أن شعوب الأرض رغم اختلاف دوافعهم للخروج في المظاهرات (حيث أن لكل حساباته) يدركون أن الحرب على العراق ليست حرباً إقليمية، وإنما هي إنذار بحرب عالمية، فإذا سقطت العراق بيد الصهيونية وتمكنت إسرائيل من تنفيذ خطة الترانسفير، وأقامت دولة فلسطينية كرتونية مقابل الموافقة الدولية على إعلان القدس عاصمة لإسرائيل، ومقابل التخلص من حقوق اللاجئين، ومقابل انتشار المستوطنات، واحتفاظ إسرائيل بالأراضي العربية التي احتلتها عام ٦٧ مستغلة انشغال العرب بتحرير العراق وما يليه من بلاد قد تجتاحها الولايات المتحدة نيابة عن إسرائيل، فإن ذلك يعني انهياراً للأمن والاستقرار ليس في المنطقة وحدها وإنما في كثير من دول الجوار التي ستمتد إليها تداعيات الحرب، وقد تواجه أوربا مشكلة كبيرة إذا تحققت سيطرة مطلقة للولايات المتحدة على النفط العربي، كما قد تواجه مشكلة ضخمة حين تسيطر الولايات المتحدة على كل الممرات بين آسيا وأوربا، مما سيجعل القارة الأوربية محاصرة بالنفوذ الأمريكي، وهذا ما دعا أحد السياسيين الأوربيين أن يحذر من يوم تجد أوربا نفسها فيه مضطرة إلى موافقة الولايات المتحدة على اختيار رؤساء البلديات، وسيهدد الحصار دول آسيا بالقدر نفسه.

والحقيقة الخامسة أن شعوب العالم تدرك أن أنهار الدم التي ستجريها الولايات المتحدة في العراق والبلدان العربية والإسلامية ستتحول سريعاً إلى بحار، ولن تجد شعوب المنطقة من الأيتام والثكالى والمفجوعين وسيلة للتحرير والانتقام عبر الفوضى التي ستحل بالمنطقة غير اللجوء إلى إغراق أعدائها بما أغرقوها به من الموت والدمار، وتذكر الشعوب ما حدث بعد نكسة حزيران، حين لم يجد المشردون وسيلة لتذكير العالم بقضيتهم غير اختطاف الطائرات، ونشر الفزع والهلع في كل مكان ساعد على تشريدهم، وهذا ما دعا العقلاء في العالم كله للدعوة إلى تجنب الحرب التي ستفتح باب الدمار والفوضى وغياب الأمن والاستقرار، ولن تستطيع الولايات المتحدة بكل قواها إيقاف العنف حين تشاء لأنه قد يأخذ شكله الفردي، وهو لا يحتاج إلى أسلحة دمار شامل كالتي تملكها أمريكا، وستكون الولايات المتحدة هي المسئولة عن ضخ الحيوية في ما تسميه إرهاباً وسوف تسميه الشعوب المقهورة محقة دفاعاً عن النفس، وتحريراً من الاحتلال، ولن يخاف الناس من الموت، حين يجدونه قدراً لا مفر منه، وسيعتادون

عليه وأمامهم نموذج من تجربة شعب فلسطين الذي تجاوز عقدة الخوف حين رأى الموت أمامه ووراءه فاقتحمه وسماه شهادة مستمداً من عقيدته قوة جعلت الحجارة بيد طفل أقوى من دبابة، والعالم كله يرى كيف يلاحق الأطفال والشبان الفلسطينيون بحجارتهم دبابات إسرائيل التي تقذف حمم الدمار، غير عابئين وغير خائفين، وهم يودعون شهداءهم بالزغاريد.

والحقيقة السادسة أن شعوب الأرض قد أفاق ضميرها على بشاعة الكيل بمكيالين، ففي الوقت الذي تهول فيه الولايات المتحدة من خطر ما تزعم أن العراق تمتلكه من أسلحة دمار، رغم إعلان المفتشين خلو العراق منها، ورغم قناعة العالم كله بزيف الادعاء، فإن الولايات المتحدة ما تزال تمد إسرائيل بالمزيد من أسلحة الدمار، ولديها كل أنواع الأسلحة المحرمة دولياً وهي ترفض كل قرارات مجلس الأمن، وهي دولة معتدية، وترفض السلام، وتمارس وحشية في سعيها لإبادة الشعب الفلسطيني،وقد كان العالم يصدق أكاذيبها في العقود الماضية، لكن الأمر تبدل منذ الانتفاضة الأولى، وسطعت الحقائق على الفضائيات، وبات ضمير البشرية مداناً بالصمت، على جرائم ترتكب يومياً أمام عينيه، وقد بدا واضحاً في شعارات مظاهرات فبراير ربط الحرب على العراق بالمشروع الصهيوني التوسعي، وكشف زيف الادعاء الأمريكي بمكافحة امتلاك أسلحة الدمار، ولو أن الولايات المتحدة طالبت إسرائيل بكشف مخزونها منها، وأرسلت المفتشين الدوليين لتدميرها لكان لها أن تدعي العدالة، فضلاً عن ضيق الشعوب بأن تهدد الولايات المتحدة العالم كله بقوة ما تملك هي ذاتها من أسلحة تدمير لا يمتلكها سواها، مما دعا مواطنين كنديين ظرفاء بمطالبة الولايات المتحدة بكشف ما لديها، وما تبيح لنفسها امتلاكه وتمنع الآخرين منه،وما يجعل هدف أمريكا احتكار أسلحة التدمير وليس نزعاً لها، ولهذا أعجب الكثيرون بموقف كوريا الشمالية، وتمنى بعض العرب أن يكون لدى العراق حقاً أسلحة رادعة، وقالوا لو كان العراق يملك لتبدلت نبرة الكلام الأمريكي معه كما تبدلت مع كوريا، وحسب العالم دليلاً على خلو العراق من أسلحة الدمار ما يقدم من تعاون مع المفتشين وقبول بكل ما يطلب منه.

والحقيقة المؤلمة التي أوضحتها مظاهرات فبراير هي هشاشة الموقف العربي، وقد آلمني عنوان مقال لروبرت فيسك في الإندبندنت في (٢٠٠٣/٢/١٨) تحدث فيه عن المظاهرات وهو كثيراً ما يتعاطف مع العرب، ولكنه سماهم العرب فئراناً، وتساءل: ما أمر العرب؟ ألا يدركون أنهم هم، هم، وحدهم الذين سيعانون من الغزو الأمريكي لبلادهم؟؟

٢٠٠٣/٢/٢٨

الإعلام العربي والحفاظ على الثوابت

لأول مرة يقتحم سياسيون ومثقفون عرب جدار الثوابت ويشككون في العقد الاجتماعي والقومي العربي والإسلامي الذي احتفظ بحصانته على مدى سنوات القرن العشرين. وعلى رغم أن القمة العربية في شرم الشيخ لم تخفق في اتخاذ قرارات الحد الأدنى مما ينبغي عمله، ولا سيما في جانبها العملي إلا أن كتابات وتصريحات كثيرة ومثيرة تلت القمة أو سبقتها عبرت عن حالة اضطراب فكري مخيف تعيشه بعض النخب، بعيداً عن عامة الناس الذين لا يهز ثوابتهم كل ما تملك أميركا وإسرائيل من أسلحة دمار وإبادة.

ولست بصدد الرد على رؤية فكرية معينة، ولكنني شعرت بقلق كبير، أحسب أن ملايين الناس من الأمة يشاطرونني الإحساس به، أمام ظاهرة التشكيك بعقد العروبة والإسلام، والترحيب بالاستعمار والصهيونية من قبل بعض المتحدثين على شاشات التلفزة العربية وبعض الكتاب في الصحافة،ممن يقدمون أنفسهم بأسماء عربية ومسلمة ولكنهم ينقضّون على العروبة والإسلام وتتيح لهم بعض وسائل الإعلام العربية أن يعبروا عن حنقهم على أمتهم تحت يافطة الحرية والديمقراطية، في وقت تعلن فيه الولايات المتحدة وبريطانيا وإسرائيل حربها المدمرة على الأمة.

لقد قرأت وسمعت مندهشاً ما تردد في بعض وسائل الإعلام العربية من دعوة للبحث عن نصيب ولو ضئيل من الكعكة (أي الغنائم المتوقعة بعد انتصار أميركا على العرب (بدلاً من التعلق بالشعارات العربية والإسلامية التي ما رفعها أحد إلا ذل وانتكس كما يقول كاتب يحمل اسماً عربياً.

ولقد دعا كاتب عربي آخر جهاراً إلى تقديم العون والمساعدة لأميركا المصممة على ضرب العراق وقال: إن الإصرار على عدم المشاركة بضرب العراق خطأ استراتيجي، لأن السياسة لا تعرف المبادئ وإنما هي مصالح فقط.

وقال كاتب عربي ثالث بوضوح: دعك من أهل الشعارات و ـــ الخـريط ـ العربي وتساءل كاتب آخر هل نحن عرب؟ وأجاب هذه أسطورة وكذبة لن ننال منها أكثر مما نال صدام عندما راهن على الجماهير العربية فلم ينصره أحد وقال كاتب: يجب أن نعيد صياغة استراتيجيتنا ونربطها بأميركا بدل من أن نتظاهر مع ــ كم واوي ــ من أجل فلسطين.

وليس غريباً أن يقال مثل هذا الكلام، والأمة مقبلة على حرب ويحاصرها أعداؤها من كل جانب، فالحرب ليست جيوشاً مقاتلة فقط، وإنما يسبقها عادة من يثبط الهمم وينشر اليأس ويثير الفتن ويشكك في الوحدة الاجتماعية والقومية. وهذا ليس في أمتنا فحسب بل يحدث في كل الأمم، وكان يسمى في الحروب الكلاسيكية الطابور الخامس، لكن الغريب العجيب أن تعطيه وسائل الإعلام العربية منبراً، وأن تتيح له فرصة الانتشار، كأنها تضع إمكانياتها تحت تصرف الأعداء.

والمفارقة الأخطر أن نسمع بعض التصريحات التي تشكك في العقد الفكري العربي من أناس بنوا أمجادهم على الهرم القومي، ولكنهم سرعان ما تخلوا عن انتمائهم للعروبة وراحوا يبحثون عن فضاءات أخرى ينتمون إليها.

وقد بدأ بعض المشككين بعقد العروبة باستخدام المغالطات المنطقية للوصول إلى إجابات مضطربة، كذاك السؤال الذي يشبه سؤال الرئيس بوش الذي استنكره المجتمع الدولي كله أنت معي أم مع الإرهاب،فإن لم تكن معي فأنت ضدي وأنت إرهابي وقد رفض الرئيس بوش سؤال البشرية له عن تعريف للإرهاب قبل أن يقدموا إجابة على سؤاله لخوف الشعوب وقلقها من الخلط بين الإرهاب الإجرامي وبين حقها في الدفاع المشروع عن النفس والأوطان. وقد جاء الاستخدام المشابه في السؤال المغالط أنت مع الحرب أم مع النظام العراقي؟ أنت مع بوش أم مع صدام؟ في تجاهل مطلق لكون الحرب على العراق شعباً وأرضاً وثروة وتاريخاً، ولكونها حرباً على العرب والمسلمين جميعاً. ونحن لا نتوهم، ولا نبالغ، فالمسؤولون الأميركيون أعلنوا صراحة أن الحرب ستبدأ بالعراق ولكنها ستحمل رياح التغيير إلى المنطقة العربية جميعها كما قال الرئيس بوش في خطابه، وستعيد تشكيل المنطقة بما يحقق مصالح الولايات المتحدة كما قال السيد باول، وستطلق الديمقراطية على النموذج الذي سيتشكل في العراق،حسب خطط وولفويتز وبيرل الذي شغل منصب مستشار انتخابي لنتنياهو في حملته عام ١٩٩٦ وكانت نصيحته الشهيرة له أن يلغي كل ما وقعته إسرائيل من اتفاقيات سلام مع الفلسطينيين، وأن يضم الضفة وغزة وأن يطرد أكبر عدد ممكن من الفلسطينيين، وهو اليوم في موقع يمكنه من تحقيق ذلك، ولكن عبر إشعال المنطقة بحرب مدمرة تبدأ بقصف العراق بستة آلاف صاروخ ذكي تحقق خسائر أضعاف ما حققت القنبلة الأميركية التي قصفت هيروشيما كي تتحقق الديمقراطية على الطريقة الأميركية، ولئن كانت حجة بعض وسائل الإعلام ـ فيما تتيح من فرصة لدعاة الحرب والتشكيك في العروبة والإسلام ـ أنها تفعل ذلك بدافع الانفتاح على كل الآراء عبر حرية الإعلام واستقلاليته، فإنني أجد في هذا الانفتاح ما يدعو إلى الريبة، لأن منح العدو فرصة

استخدام قوى العرب الإعلامية وتوظيفها في حربه النفسية ضد العرب والمسلمين موقف معـاد للأمة، لا يبرره الحرص على حرية الإعلام، ولا تمنحه الشرعية دعوى الديمقراطية،وقد رأينا كيف أمسكت إدارة الولايات المتحدة بناصية الإعلام الأميركي يوم تعرضت لجريمـة الحـادي عشر من سبتمبر، فلم تسمح لحرية الإعلام أن تشكك في توجهات الإدارة الأميركية نحو اتهـام العرب والمسلمين بلا أدلة، وفي حربها على أفغانستان منعت نشر الأنباء والصور التي تكشف المذابح التي ارتكبها الجيش الأميركي، وما تزال إلى اليوم تحاصر حتى مواقع الانترنت التـي تخرج عن الطاعة لأن الحرب المعلنة تقضي باستنفار كل القوى لصالح المعركة.

ولقد أقام الإسرائيليون الدنيا ولم يقعدوها حين سـمعوا أن مسلسـلاً مصـرياً يتعـرض لـبروتوكولات حكماء صهيون، وتدخلت قيادة الولايات المتحدة وطلبت مـن بعـض الـدول العربية أن تتوقف عن عرض المسلسل بدعوى أنه يروج لأكاذيب تشوه إسرائيل، وفـي كـل ديمقراطيات أوروبا وأميركا لا يجرؤ كاتب على التعرض لأرقام القتلى في الهولوكوست، وقـد واجه روجيه غارودي محاكمة وعقاباً لأنه تجرأ وشكك في عددهم،وحسبنا عنوان كتاب بـول فيندلي من يجرؤ على الكلام لندرك حجم الخطوط الحمراء التي لا يسمح للإعـلام فـي جنـة الديمقراطية الأميركية بتجاوزها، فهي متاحة ولكن تحت سقف ما يرونه ثوابت. وهـل يجـرؤ كاتب أو مسؤول أميركي على مطالبة إسرائيل بتدمير ما لديها من أسلحة دمار شامل لكي تظهر الولايات المتحدة عادلة فيما تطلبه من العراق بقسوة وما تطلبه من كوريا برفق؟إنـه سـيواجه على الفور تهمة معاداة السامية وستهب في وجهه عواصف من التهديد والترويع، كمـا حـدث لصاحب كتاب الصحوة ديفيد ديوك الذي يقول: إن وسائل الإعلام الأميركية محرومة من تقديم أدنى نقد لليهود وهي لا تتورع عن الحط من قدر مجموعات بشرية أخرى، فقد تلقى الجنوبيون البيض والألمان والإنجيليون البروتستانت أكثر مما يحتمل من السخرية والاحتقار ومسموح في الإعلام الأميركي أن تنتقد المعاملة البشعة التي لقيها الهنود في التاريخ الأميركـي، وأن تنتقـد محاكم التفتيش الإسبانية، ولن يقول لك أحد أنت لا أميركي أو لا إسباني أو لا مسيحي، ولكـن ويلك ثم ويلك إن انتقدت إسرائيل!!! فأنت على الفور لاسامي، إن إسرائيل شاحاك نفسه يعـاني من الاحتقار والمضايقة، لأنه أطلع العالم على بغض إسرائيل للجنس البشري، ونعوم تشومسكي أصبح مكروهاً لأنه ينتقد سياسة إسرائيل وانتهاك الولايات المتحدة للقانون الدولي إنه أمر مريب أن يصبح بعض الإعلام العربي فجأة أكثر انفتاحاً وديمقراطية من إعـلام أميركـا وأوروبـا وإسرائيل ولكن فقط في التجرؤ على قيم العروبة والإسلام، وبالتحديد في مرحلة تتعرض فيهـا الأمة لغزو صهيوني مدمر.

لقد كان الإعلام العربي عبر تاريخه في طليعة المقاومة، يجسد ــ على رغم كل علاّته ــ وجدان الأمة وينطق باسمها ويضع كل طاقاته في الدفاع عن ثوابتها، وأستطيع القول إن ما نشهده هذه الأيام يمثل أول اختراق علني للثوابت، حيث لم يجرؤ أحد أيام نكسة حزيران على رغم قسوة الانكسار فيها على أن يشكك في عروبة الأمة وإسلامها، وفي حرب أكتوبر كان الإعلام العربي كله مجنداً للمعركة، وكان هذا شأنه في كل المعارك السابقة من بداية تشكل الدولة العربية وانطلاق الصحافة العربية، وحتى في أيام الاستعمار الفرنسي والبريطاني لم يكن أحد يمتلك الجرأة على النيل من ثوابت الأمة بهذه الفجاجة التي نراها اليوم.

لقد بدأت بعض وسائل الإعلام العربية في تعميق الفرقة العربية، إلاّ أن بعض المواطنين كانوا يعبرون عن ضيقهم بما آل إليه الحال بدوافع وطنية وقومية، أما ما يحدث من هجوم على العروبة كلها وعلى القيم والروابط الإسلامية فهو حدث جلل وعدوان يستخف بالبقية الباقية من كرامة الأمة والخطير أنه يأتي عبر من يزعمون أنهم أبناؤها.

لقد بت أخشى إذا ما بدأت الحرب على العراق (لا سمح الله) أن يجد أعداء الأمة من الخلايا النائمة فيها ــ عبر القرون ــ من الذين ادعوا أنهم عرب أو مسلمون فرصة الهجوم على مقومات وثوابت العروبة لغة وتاريخاً وثقافة وعلى قيم الإسلام قرآناً وسيرة وفقهاً وأسلوب حياة وعيش، فيكون ذلك مدعاة لتحول الحرب إلى فتن وشقاقات داخلية.

لقد ثار العرب والمسلمون في العالم كله ضد تصريحات الحاخام عوفاديا وروبرتسون وفالويل وأمثالهم من المتطرفين، وربما اكتشف أعداء الأمة أن من الأفضل تجنيد عرب ومسلمين للقيام بمهمة تهزيء الأمة والاستخفاف بها بلسان عربي، وعبر متحدثين مسلمين، ونرجو أن يحذر من نحسن الظن بهم من الإعلاميين العرب من شهيتهم المفتوحة على الانفتاح بحسن نية من أن يفتح بعضهم بسوء نية بوابة الجحيم على أمتهم بأيديهم، ولن يشفع لهؤلاء عند عدوهم أنهم وقفوا معه وشتموا أمتهم وأهانوها، بل سينظر إليهم باحتقار، لأن من احتقر أمته غير جدير بالاحترام، ومن أراد الشاهد فلينظر إلى ما فعله الإسرائيليون بمن تعاونوا معهم عبر السنين.

ويذكرنا الحال بما قال عمر أبو ريشه رحمه الله:

لا يلام الذئب في عدوانه

إن يك الراعي عدو الغنم

٢٠٠٣/٦/٣

حرب على العراق أم حرب على العالم؟

لم يسبق أن اتحدت البشرية في موقف كما اتحدت ضد الحرب على العراق، فللمرة الأولى في التاريخ الإنساني تحقق الأمم هذا التواصل النوعي، وتنطلق شعوب الأرض في كل مكان، لتهتف باسم الإنسان (لا للحرب، ولا للدمار) وكانت التظاهرات الأخطر تعبيراً تلك التي شهدتها الولايات المتحدة وبريطانيا وإسبانيا وأستراليا، وهي البلدان التي صممت قياداتها على العدوان.

كانت الأمطار تنهمر يوم ٢٠٠٣/٣/١٥ على آلاف المتظاهرين في لوس أنجلس والآباء يحملون المظلات فوق أطفالهم،واللافتات التي تقول (أسقطوا بوش بدل أن تسقطوا القنابل) وقالت إحدى المشاركات وهي ليزا إدموندسن (إنها تمطر هنا الآن، ولكنها غداً ستمطر عشرات الأطنان من القنابل على أطفال ونساء العراق) وفي كل المدن الأميركية عبر الشعب الأميركي عن انتمائه للإنسانية ورفضه حماقة وجنون رعاة البقر كما تقول الصحافة الأميركية نفسها. ويقول أحد البسطاء وهو كريس مار ــ ابن جندي بحار أنا أمثل أميركا الحقيقية، لدينا ما نقدمه للبشرية غير القنابل والدمار، لدينا الكرم الأميركي، ولدينا الإحساس بالعدالة، ولكننا أصبحنا المتنمرين على العالم وقد كشفت ظاهرة المظاهرات الدولية أن عصر القطب الواحد أوشك على الانتهاء، فقد برز القطب الجديد وهو شعوب العالم في مواجهة مجموعة ممن يسمون المحافظين الجدد من اليمين المسيحي الذين يحكمون البيت الأبيض والبنتاغون تدعمهم أقلية تابعة أخرى من العالم.

لقد أصبحت الحرب العدوانية على العراق حرباً على الإنسانية جمعاء، وقد وصف روبرت هيربرت في نيويورك تايمز قادة الحرب الذين اجتمعوا في جزر الآزور بعيداً عن جموع المتظاهرين، على الرغم من أن أهل الجزر لم يقفوا صامتين بأنهم: (مجموعة صغيرة تضم رجالاً فقدوا حاسة السمع فقد صمموا على ألا يسمعوا من يخالف رؤيتهم، وأداروا ظهرهم لكل من حذرهم من خطورة انقسام التحالف الأطلسي (والحقيقة هو انقسام العالم كله) المهم أن الرئيس بوش لم يتأثر بنداءات عشرات الملايين من المتظاهرين في العالم، والتفسير الذي بدأ المثقفون الأميركيون فهمه لهذا التصميم المدهش على الحرب هو وقوع الرئيس بوش وطاقمه، في حمى الحماس الديني الذي تحدث عنه المرشح الرئاسي السابق باتريك بوكانان في مقالة مهمة أثارت موجة كبيرة من ردود الفعل، حين قال: (إن ما يسعى وراءه المحافظون الجدد هو تجنيد الدم الأميركي لجعل العالم كله آمناً لإسرائيل) وقد نشرت المقالة في مجلة المحافظ الأميركي، وكالعادة سارعت المنظمات اليهودية لاتهام الرجل بمعاداة السامية تماماً كما فعلت مع كل من انتقدوا الحرب أو من انتقدوا جرائم شارون في الأرض المحتلة.

وكان علماء الاجتماع الأميركيون حذروا من أن عواقب الحرب ستجلب حملة معاداة السامية التي تصاعدت في أوروبا بعد تفجيرات سبتمبر، إلى الولايات المتحدة ·وقال تشارلز موسكوس وهو سوسيولوجي يهتم بالأقليات: (يوجد سبب وجيه الآن للاعتقاد بظهور موجة عداء لليهودية بعد نتائج الحرب على العراق) وأعلن أنه تلقى آلاف الاتصالات الهاتفية والرسائل الإلكترونية تسأله كم يهودياً يوجد في الجيش؟ وكم أسود سيموت من أجل إسرائيل؟ وكان الحاخام روزنبرغ مدير مكتب واشنطن لسياسة إسرائيل قد رد على مقالة بوكانان بالقول هناك بشاعة في تساؤل بوكانان عن ولاء المسؤولين اليهود، إنهم مسؤولون في الحكومة وقد تصادف أنهم يهود، وذلك كالقول ــ آخذين بوجود رايس وباول ــ إن الزنوج تسببوا بالحرب وكان بوكانان قد كشف أن أصحاب فكرة غزو العراق هم مسؤولون يهود متعصبون من أمثال ريتشارد بيرل وولفويتز ودوغلاس فيث وإيليوت أبرامز وآخرين وعلى رغم أننا نكره التفسير الديني للصراع، ونحرص على تجاهله لأننا لا نشعر بعداء ديني ضد اليهودية التي نؤمن مسلمين ومسيحيين عرباً بأنها رسالة سماوية مقدسة· إلا أن مثقفي أميركا الذين لم يجدوا تفسيراً مقنعاً لإصرار بوش على الحرب، فتشوا عن الأسباب الدينية، وأشاروا إلى أن مجموعة بيرل (رئيس مجلس سياسات الدفاع الأميركية) وكان مستشاراً لنتنياهو ومديراً لصحيفة الجيروزاليم بوست، هم من رسموا فكرة غزو العراق منذ منتصف التسعينيات، وقد قدمت السي إن إن مقابلة مع بيرل بوصفه (صاحب الفكرة) والغريب أن تنزعج المنظمات اليهودية من إعلان هذه الحقائق مع أن أفرام كام من مركز جافيه للبحوث في تل أبيب قال صراحة في دراسة بعنوان ما بعد صدا: (إن إسرائيل هي صاحبة المصلحة الأولى والأخيرة في غزو العراق) ولقد استنكر العالم كله أن يستعيد الرئيس بوش ومجموعته تاريخ الصراعات الدينية منذ أن زل لسانه بذكر الحروب الصليبية، والكثيرون لا يرونها زلة لسان فقد توالت الانتقادات للبعد التوراتي في فكر قادة الحرب الأميركيين· ولقد قال الكاتب النيجيري وولي سوينكا الحائز على جائزة نوبل للآداب: (إن الرجل الذي يحكم البيت الأبيض هو من المتعصبين). وفي محاضرة في مركز زايد في أبوظبي قال المفكر الأميركي مايكل كولينز بايبر: (تأتي الحرب ضد العراق ضمن مخطط إقامة إسرائيل الكبرى، واللوبي الإسرائيلي هو المحرك لشنها).

وخلال الأسبوع الماضي أعلن عدد من النواب في الكونغرس استنكارهم لما سموه الحماس المسيحي لشن الحرب، وحذر النائب الديمقراطي جيمس موران الجالية اليهودية من عواقب تشجيعها للإدارة الأميركية على حرب يدعمها اليهود واضطر إلى أن يقدم الاعتذار عما قال ولقد كان موقف الفاتيكان ناضجاً ورافضاً لاستخدام المسيحية في هذا الصراع، وقد عبر عن ذلك بوضوح موقف البابا، وقد قال الأب باسكوا في الحديث الإذاعي البابوي:(في الوقت الذي يدعو فيه الفاتيكان إلى التعقل ويشجع العمل الديبلوماسي نجد قوة عظمى تقودها إدارة

تخول نفسها بمهمة إنقاذية وتتخذ لهجة ومواقف صليبية) إن أخطر ما في توجهات الحرب أنها تعمق إحساس المسلمين في العالم كله بأنهم مستهدفون في عقائدهم ومقدساتهم، ولن يقتنع الكثيرون منهم بأن المصالح الاقتصادية وحدها هي التي دعت قادة الحرب إلى تدمير العراق وتهديد المنطقة، فلا يوجد في المنطقة من يهدد مصالح الولايات المتحدة وبريطانيا، وقد أعلن العرب أنهم يريدون سلتهم بلا عنب .وبعضهم أبدى استعداده للتنازل عن السلة، كما تعهد بعضهم بالقضاء علىالا نتفاضة التي عجزت إسرائيل عن القضاء عليها، وهذا كله يؤكد أن مصالح الولايات المتحدة في الحفظ والصون فماالذي يدعوها إلى الحرب والعدوان على العراق وما يليه؟ إن الهدف الواضح هو أن تقوم إسرائيل الكبرى، وهي تريد لضمان أمن إسرائيل ألا يرتفع رأس عربي مسلم أو مسيحي في المستقبل ليقول أين حقي؟

وقد سمع نتنياهو وصية مستشاره بيرل وهو اليوم مستشار رامسفيلد حين نصحه بإلغاء كل الاتفاقات التي عقدتها إسرائيل مع الفلسطينيين عبر إذعان للإرادة الدولية في إطار مدريد وحتى في أوسلو لأنها قامت على مرجعية الأرض مقابل السلام. لأن الرؤية فيها منطلقة إلى هدف السلام العادل والشامل. لكن بيرل ومن قتلوا رابين، يريدون السلام على مرجعية ميزان القوى، ولإخلال الميزان فوق ما هو عليه من اختلال، ولإجبار العرب على التنازل عن مزيد من الأراضي العربية بدل أن يستعيدوا أرضهم المحتلة عام ١٩٦٧ ولإجبار الفلسطينيين على تجاهل حق العودة، ونسيان القدس عاصمة لفلسطين، ولإعلان الإذعان للواقع الجغرافي المليء ببثور المستوطنات التي تقطع الطريق على أي لقاء بين الأخ وأخيه، وللقبول بما ستلقي إسرائيل من فتات فيما ستسميه دولة فلسطينية عبر خطة الطريق إلى الذل هذا إن وافقت إسرائيل على الاعتراف لهم بكيان. لابد من تحطيم كل ما يمتلك العرب وجيرانهم المسلمون من قوة، بل وما قد يمتلكون في المستقبل، وهذا ما يفسر إصرار قادة الحرب الصهيونية على احتواء علماء العراق، وهو ما سيفسر إصرارهم لاحقاً على اتهام دول أخرى في المنطقة بامتلاك أسلحة أو بتهديد المجتمع الدولي أو بما ستتفتق عنه العبقرية الصهيونية الغبية التي أخفقت في كل ما دبرت من مكائد لإقناع العالم بقانونية وشرعية الذرائع التي قدمتها لحربها على العراق.

لقد عبر كسينجر عن قلقه حول مستقبل إسرائيل بعد حرب العراق، على رغم أن الخطة لصالحها وحدها، ولكن يبدو أن الرجل بوصفه مفكراً استراتيجياً رأى أبعد مما يراه المتحمسون اليوم للسفك والتدمير، لعله رأى العواقب الوخيمة التي ستجرها المذابح التي سيرتكبها الجيش الأميركي في العراق على اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة. فهناك سيبدأ الحساب، وسيسأل مخططو الحرب عن الدماء التي أهرقت، ولا سيما حين تستمر الحرب أبعد مما قضت الخطة، فحين ينجح العراقيون بجر الغزاة إلى المدن، ستتغير المعادلة. وفي حال انتصار

الغزاة، سيفاجؤون بأن كثيرين ممن كانوا معهم من العراقيين سينقلبون عليهم، ولا سيما بعد أن يشموا رائحة التراب، وتستيقظ النخوة الوطنية التي ترفض الإذعان لحاكم غريب، عندها سيقع ضحايا من الغزاة سيسأل عنهم الصهاينة في البيت الأبيض وفي دواننـــغ ســـتريت، وســـينقلب السحر على الساحر.

٢٠٠٣/٣/٢٧

بين منطق القوة وقوة المنطق

لم يفاجأ الشعب العربي بانطلاق التهديدات الأميركية نحو سوريا فور سقوط بغداد،فهم يعرفون أن العدوان على العراق هو بداية مخطط يجتاح المنطقة كلها، وليس مجرد عاصفة، وقد طالب الشعب بإجابة على سؤال للنظام العربي كله: متى يقوم بما ينبغي عمله؟

وما ينبغي عمله في الحد الأدنى، هو أن تقف الأمة على قلب رجل واحد، وأن تعلن أن أيّ عدوان على بلد عربي هو عدوان عليها جميعاً، ولا يعني ذلك بالضرورة إعلان حرب، وإنما يعني تأسيس قاعدة صلبة لحوار سياسي ديبلوماسي تتغير مفرداته بتغير الشروط الموضوعية، ويحذر من خطورة إغلاق خيار السلام، وفرض منطق القوة العسكرية على الشعوب· ومُستَنَدُ القاعدة الصلبة للحوار هو تعزيز قدرة الشعوب على الدفاع عن أمنها وكرامتها وحقها في الحياة حين يُعتدى عليها ·وستفتح تداعيات العدوان على العراق آفاقاً واسعة لخيارات شعبية لا حدود لها، ولكون إسرائيل هي المحرضة على متابعة التهديد للأنظمة العربية والإسلامية، والمرشحة لدور بطولة في السيناريو القادم، ولاسيما بعد أن أعلن المتحالفون الآخرون أنهم لا يجدون أية مبررات لمتابعة اجتياح المنطقة العربية والإسلامية، فإنها تدرك استحالة استنساخ الحالة العراقية على بقية الأنظمة العربية· فلا توجد شروخ بين الدول المهددة لاحقاً وبين شعوبها. وهذا لا يعني غياب قضايا ومشكلات إجرائية، ولكنها ليست على الإطلاق من طراز الشرخ المريع الذي كان بين النظام العراقي البائد وبين شعب العراق، الأمر الذي قدم مبرراً نظرياً تمويهياً لتسمية العدوان حرب تحرير· كما أنه لا توجد لبقية الأنظمة معارضات في الخارج يمكن أن تراهن عليها إسرائيل، ففي كل الأقطار العربية تماسك وطني، ووعي قومي، وتشبث بالعقائد والمبادئ الدينية التي تقدس الدفاع عن الوطن، وتدرك إسرائيل أن مواجهة الشعوب هي الفصل الأخطر في أيّ عدوان، والدليل ما يحدث في فلسطين، والدليل الأسبق ما حدث في لبنان، والأمر ليس بحاجة إلى برهان، فحيث يوجد الاحتلال توجد المقاومة ·

وأعتقد أن منظّري الاحتلال من غلاة الصهاينة أنفسهم سيعيدون النظر في مشروعهم التوسعي، بعد تقويمهم لنتائج احتلال العراق، وستأتي النتائج (على رغم فداحة الخسائر المادية والبشرية العراقية) لصالح القضية العربية وليس لصالح المشروع الصهيوني التوسعي، كما أتوقع أن يعلن هؤلاء المنظّرون ندمهم سريعاً على ما فعلوا، فقد كان النظام السابق هو الذي يعطل طاقة الشعب العراقي ويوجهها إلى حروب خاطئة في إيران والكويت· أما الآن فسوف

يباشر الشعب العراقي مسؤولياته بنفسه، وسيرى الإسرائيليون أنهم لن يمتلكوا العراق قط، وستخيب كل آمالهم، في محو الذاكرة العراقية، وفي تهويد الشعب العراقي، وقد بدأ التمهيد الأميركي لإعلان التراجع عن نشر الديمقراطية في العراق لأن شعارات الشعب العراقي تطلق مارداً تحررياً يخشى أنصار إسرائيل من أن يقوموا هم أنفسهم بإخراجه من عنق الزجاجة. وإذا كان الإسرائيليون لم يتمكنوا من السيطرة على الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية المحدودة المساحة والسكان فأيّ حلم لهم في السيطرة على شعب العراق؟ وسيبقى حلمهم بإسرائيل الكبرى وهماً أسطورياً، بل إنهم إذا ما أصروا على رفض قرارات الأمم المتحدة القاضية بالسلام العادل، وإذا قادهم غرور القوة إلى توسيع المعركة نحو بلدان عربية وإسلامية أخرى، فإنهم يعلمون أنهم سيواجهون انتفاضة شعبية مسلحة تمتد من بلاد الرافدين مروراً ببلاد الشام، ووصولاً إلى مصر والسعودية وباقي البلدان العربية والإسلامية. وعندها سيكون للإسرائيليين الفضل حقاً في تحرير المجتمعات العربية والإسلامية من عقد الخوف والرعب من أسلحة الدمار الشامل التي تمتلكها إسرائيل وحدها في المنطقة، وستعرف الأمة العربية والإسلامية أيّ سلاح يمكّنها من الانتصار.والعقلاء من الإسرائيليين واليهود في العالم يدركون ذلك،وقد رغب كثيرون منهم أن تستغل إسرائيل فرصة الضعف العربي الناجم عن الخوف، وأن تقبل بالسلام الذي أوشك أن يصل إليه رابين، وحذروا الغلاة المتطرفين من خطورة أن تكسر إسرائيل حواجز الخوف عند الشعب العربي كله، وذكّروا أمراء الظلام في الولايات المتحدة من خطورة الجور على الشعوب العربية والإسلامية مذكرين بالمثل الشهير (الجور على الجبان يعلمه الشجاعة) فما بالك بأمة لا تعرف الجبن، بل هي الأمة الوحيدة التي تجعل الموت دفاعاً عن النفس والوطن والدين والشرف والمال عقيدة لها وديناً؟

وبوسع النظام العربي أن يفيد على صعيد سياسي من شهادة العالم كله للعرب، بأنهم بذلوا فوق ما يستطيعون من جهد لتجنب الحروب، وأنهم قبلوا دعوة الرئيس بوش الأب للسلام في مؤتمر مدريد، وأنهم تنازلوا عن فلسطين التاريخية التي خاضوا من أجلها حروبهم السابقة، وأذعنوا للأمر الواقع وقبلوا بوجود إسرائيل، وأعلنوا استعدادهم لمتطلبات السلام، وأعلنوا أنهم لا يريدون فوق ما أقرت لهم الشرعية الدولية في قرارات مجلس الأمن، وقدموا مبادرة عربية للسلام تجاوزت ما كان يحلم به مؤسسو إسرائيل. ومع ذلك ما تزال إسرائيل رافضة للسلام، تريد تجريد العرب من أبسط ما يملكون من أسلحة، وأن يعلنوا الإذعان والاستسلام، لمجرد أنها الوحيدة في المنطقة التي تمتلك أسلحة الدمار الشامل، وتحظى بتأييد مطلق من أقوى إمبراطورية في العالم.

ولقد انفتحت شهية إسرائيل على مزيد من التنازلات حين رأت العرب والمسلمين أمة ممزقة ضعيفة، يهتك فيها الفساد من كل جانب، ولكن هذه الأمة صاحبة مفاجآت، فهي تملك من الطاقات ما يمكنها من أن تجعل الضعف قوة. ألم يحول حزب الله ضعف لبنان إلى قوة تمكنت من التحرير؟ وألم تتمكن المقاومة الفلسطينية من أن تحول الضعف الفلسطيني إلى انتفاضة هادرة تقاوم أعتى الجيوش وأشدها عنفاً؟

ومما قد يدعو المواطن العربي المحبط إلى بارقة تفاؤل بقدرة النظام العربي على استعادة حضوره، أن العرب تكاتفوا مع دول الجوار العراقي، وقد جاء بيان اجتماع خارجية الجوار الذي انعقد في الرياض مؤخراً، مبشراً بموقف يدرك جيداً أخطار المخطط الصهيوني، حين وصف الوجود الأميركي والبريطاني في العراق بأنه احتلال، وحين رفض التهديدات لسوريا، وأعتقد أن بوسع العرب الآن أن يلتقوا على موقف موحد بعد زوال نظام صدام الذي كان سبب الشرخ في النظام العربي. فمنذ أن غزا الكويت فقد العرب نظرية الأمن القومي، وبات كل قطر يبحث عن أمنه القطري، حتى قال بعض العرب إن إسرائيل ليست مصدر الخطر الوحيد على الأمن العربي، واستعانوا بالأجنبي على العربي، وتلك إحدى جرائم صدام الكبرى التي لن يغفرها له التاريخ. فهل يستعيد العرب رؤيتهم التاريخية للأمن العربي بعد زوال سبب انكفائها؟وهل يتمكنون من إعادة ترتيب البيت العربي في إطار يحميه من الضعف والهوان؟

وكذلك سيعين الأمة على الموقف الموحد إزاء التهديد الراهن لسوريا، استناد الموقف السوري إلى عقلانية في الطرح والتصرف بإحساس عال من المسؤولية التي تستبعد المغامرات والحسابات الخاطئة، ولكنها تستبعد بذات القدر تقديم تنازلات على حساب ثوابتها وهي حقوق الأمة. كما سيعين سوريا على الطمأنينة والثبات، احترام المجتمع الإنساني لها، وإدراكه أن الاتهامات التي وجهت إلى سوريا في حالة انفعالية لا دليل عليها، وهي من فبركة مجموعة صغيرة في الإدارة الأميركية تريد مصالح إسرائيل ولو على حساب مصالح الولايات المتحدة التي لم ينقطع الحوار البناء بينها وبين سوريا عبر العقود الماضية، وقد كان للتفاعل الديبلوماسي الإيجابي مع المعطيات الراهنة فضل في عقلنة الموقف والاستعداد لمتابعة الحوار.

وقد جاءت دعوة سوريا لإخلاء الشرق الأوسط كله من أسلحة الدمار الشامل، امتحاناً للمصداقية الدولية كلها، وسوف يساعدها في الحوار السياسي إقرار بريطاني وأوربي وعالمي بخطر استمرار سياسة الكيل بمكيالين، وتنامي الرفض الإنساني لحل النزاعات الدولية بالقوة العسكرية، وحرص المجتمع الدولي على إعادة الاعتبار للأمم المتحدة التي فشلت في منع العدوان على العراق ولكنها نجحت في حرمانه من غطاء الشرعية القانونية الأممية .

ويدرك المجتمع الدولي أن سوريا ركيزة السلام في المنطقة، ولكنها لا تقبل سلاماً منقوصاً لا يملك مقومات الاستمرار، ولا يحقق الاستقرار، وأي سلام يتم بالإذعان وعلى حساب الحقوق سترفضه الشعوب حين يتاح لها رفضه ولن يؤسس لمستقبل آمن ·

ويدرك العالم أن هدف الضغوط على سوريا وإيران هو تخوف الاحتلال من أن يجد العراقيون نصيراً لهم على طرفي حدودهم مع أن العراقيين يمتلكون من القوة الذاتية ما يمكنهم من الدفاع عن وحدة العراق واستقلاله وسيادته، وتخشى إسرائيل أن تجد المقاومة الفلسطينية واللبنانية من يقدم لها المعونة، وتتجاهل أن الرجال الذين وهبوا أنفسهم للموت دفاعاً عن حقوقهم وأوطانهم لن ينتظروا معونات ومساعدات، بدليل ما فعل الفلسطينيون منذ أن بدأ شارون بالاجتياح، وأوشك أن يقطع عنهم الهواء، وكانت ومازال مقاومتهم تشتد كلما اشتد الحصار·ولقد عارضت سوريا اتفاقية أوسلو، ولكنها لم تقم بإسقاطها، فالشعب الفلسطيني ليس تحت وصاية أحد، وهو شعب مجرب يعرف فيه الأطفال حقوقهم أكثر مما يعرفها الكبار، وحسبه أنه قدم للبشرية تجربة فريدة حين قاد أطفاله انتفاضة الحجارة، وقد منح الفلسطينيون اتفاقية أوسلو فرصة التجربة حتى أسقطتها إسرائيل قبل أن يسقطها الشعب الفلسطيني· وهذه التجربة جديرة بأن تؤكد للولايات المتحدة أن أيّ حل للصراع العربي الصهيوني لن يكتب له النجاح ما لم يستند إلى قرارات الشرعية الدولية التي وافقت عليها الولايات المتحدة ذاتها وجعلتها مرجعيتها في مؤتمر مدريد،وقد جربت الولايات المتحدة ورقة ميتشل وخطة تينيت· وجرب شارون الاجتياح، وستجرب إسرائيل الكثير، لتكتشف في النهاية أنه لا يصح إلا الصحيح، حتى ولو جاءت الحلول عبر التوماهوك والأباتشي وأم القنابل· وستؤكد تجربة العراق القادمة فشل القوة العسكرية في حل الصراعات، فكسب الحروب أمر يسير يحققه جنون القوة إلى حين، لكن كسب القلوب يحتاج إلى عقول حضارية تحترم إنسانية الإنسان· ونحن متفائلون بأن تؤسس قوة المنطق والعدل والقانون الدولي قاعدة الحوار المتصل مع الولايات المتحدة، وأن يستبعد في الحوار الحضاري منطق القوة، لأن العدل وحده ضمان الأمن والسلام.

٢٠٠٣/٢٤/٤

الطريق إلى مكافحة الإرهاب

لا يختلف اثنان حول استنكار الإرهاب بكل أنواعه وأشكاله من احتلال أراضي الغير، إلى العدوان على السيادة الوطنية للدول والشعوب، إلى التدخل غير المشروع في الشؤون الداخلية للبلدان ذات السيادة، إلى التهديد باستخدام القوة لحل النزاعات، إلى إثارة الفتن والاضطرابات في دول مستقرة آمنة بهدف كسر إرادتها، إلى سوى ذلك مما يتفق المنطق الإنساني السليم على رفضه، ويعتبره قهراً وتعدياً على حقوق الإنسان والشعوب والأمم.

ويجمع العالم كله على مشروعية الدفاع عن النفس، على المستوى الفردي والجماعي، وتقدس الشرائع الوضعية والسماوية حق مقاومة العدوان، ولدى كل الشعوب ملاحم وأساطير تتغنى بأمجاد الأسلاف الذين قاوموا من اعتدى على أمتهم، وحرروا ترابها الوطني من الغزاة. وقد وافق العالم كله على مشاركة الولايات المتحدة حربها على الإرهاب، وكان من أكثر المتحمسين العرب والمسلمون المتهمون بجريمة الحادي عشر من سبتمبر، ليس لكي يبرئوا أنفسهم من تهمة لم يقم عليها دليل قاطع إلى الآن، وإنما لأنهم يعانون من الإرهاب أكثر من سواهم، ويريدون الأمن والاستقرار لهم وللآخرين. ولكن على رغم كل الإجماع الدولي الرسمي والشعبي على مكافحة الإرهاب، وعلى رغم انتصارات الولايات المتحدة الساحقة والمتلاحقة فإن الإرهاب ما يزال في تصاعد، بل لقد بدا كأنه يستعد لجولة جديدة، كما تقول وسائل إعلام الغرب. وهذا ما يدعو إلى مواجهة ومكاشفة حول جدية الحرب على الإرهاب، وحول صحة الطريق الذي تسلكه الولايات المتحدة للوصول إلى الهدف الإنساني النبيل في القضاء على الإرهاب والعنف، وفي تحقيق الأمن والاستقرار للعالم كله. وتحقيق هذا الهدف مسؤولية أخلاقية تتحملها الولايات المتحدة لكونها الدولة الأقوى في العالم، ولأنها تعتبر نفسها قائدة للبشرية، وهي ترسخ تفردها بالقرار الدولي، وتجعل اللاعبين الآخرين مجرد (كومبارس) في المسرحية (التراجيكوميدية) التي يشهدها العالم منذ مطلع الألفية الثالثة. وهذا ما يتحدث عنه كتاب أميركيون وأوروبيون كبار، ممن يتابعون إصدار المقالات والدراسات والكتب التي تنتقد بقوة تفرد قطب واحد بمصير البشرية، وتشير بجرأة إلى أساليب الخداع والتضليل الإعلامي والسياسي التي تمارس ضد الشعوب، وإلى المبررات الزائفة والأكاذيب الفاقعة والذرائع الواهية التي قدمت لتبرير ما يحدث في العراق على سبيل المثال. وقد اضطر الرئيس بوش قبل أيام إلى أن يرد على بعض هؤلاء المنتقدين فسماهم بـــ محرفي التاريخ.

وما يدعو الكثيرين إلى الشك في جدية الحرب ضد الإرهاب، وفي صحة الطريـــق التـــي اختارتها الولايات المتحدة في سياستها ضد الإرهاب، هو إصرار بعض القادة فـــي الولايـــات المتحدة على مخالفة المنطق في أبسط قواعده وقوانينه، وتجاهلهم نداءات دول عديدة في العالم فضلاً عن نداءات الشعوب لسلوك الطريق السليمة التي تضمن نتائج ناجحة. ومن ذلك تجاهل الدعوة الملحة إلى عقد مؤتمر دولي لتعريف الإرهاب، وتجاهل الحقيقة الناصـــعة فـــي كـــون الطريق إلى مكافحة الإرهاب تنطلق من تحقيق العدالة الإنســـانية أولاً، وإنهـــاء حالـــة القهـــر والضغط الذي يولد الانفجار عند من يسيطر عليهم اليأس إلى درجة الانحراف والإقـــدام علـــى ارتكاب الجرائم. وهذا لا يعني أن للإرهاب مبررات مشروعة، فالإرهاب مرفوض مهما كانت مبرراته، ولكن مكافحته تقتضي دراسة موضوعية لأسبابه ودوافعه، وسد الذرائع التي تفتح لـــه الأبواب .

إن إصرار الولايات المتحدة على اعتبار المقاومة الوطنية للاحتلال والدفاع المشروع عن النفس والأرض إرهاباً، يتيح الفرصة للإرهابيين المجرمين أن يتستروا بالدوافع الوطنية التـــي ستبقى نبيلة ومشروعة بل مقدسة في نظر الشعوب مهما حاولت القوى الكبرى تزييف الحقائق، ومهما تذرعت بمنطق سفسطائي يهرب من الاعتراف بحق المقاومة عبـــر تســـميته الإرهـــاب الجيد، ومن مصلحة الولايات المتحدة وحلفائها وكل المشاركين في الحرب ضد الإرهاب أن يتم الفصل بين المجرمين الذين يعتدون على الأبرياء ويقومون بعمليات إجرامية لا هدف لها سوى التخريب وزعزعة الأمن والاستقرار وإثارة الفوضى والفتن، وبين المناضلين الشـــرفاء الـــذين يطالبون بحقوق مشروعة ضمنتها لهم الشرعية الدولية، وأقرها لهم مجلـــس الأمـــن. ومـــا دام المحتل المعتدي يصر على الاستمرار في الاحتلال وفي التسلط على حقوق الشعوب الضـــعيفة وإذلالها، فإن الشعوب التي تستباح أرضها ويعتقل أبناؤها وتهدم منازلها، ويتشرد سكانها ستلجأ بشكل فطري وعفوي إلى المقاومة بأبسط ما تجد من أسلحة، ولن يثنيها عن ذلك بيان يعقب قمة أو مؤتمراً، ولن يتمكن الإعلام من إقناعها بالاستسلام لقاتليها حتى لو حذف كلمة الشهادة مـــن قاموسه، وشجب الانتحار والتطرف، لأن الدفاع عن البقاء غريزة متأصـــلة وليســـت ســـلوكاً مكتسباً. الشعوب عبر التاريخ كانت تقبل على الموت خلاصاً من الذل أو انتقاماً لضـــحاياها أو دفاعاً عن قضاياها، ولا جدوى من أية أحلام بخلق أجيال بشرية تنسى فطرتها حتى لو جـــاءت عبر الاستنساخ، وحتى لو أعيدت إلى المرحلة البدائية، لأن الحيوانات حتى الضعيفة منها تقاوم بغريزتها من يعتدي عليها حتى الموت. وهذا الفصل بين المجرمين وبين المناضلين كما يقضي المنطق، وكما تقر الشرائع والأديان والقيم الإنسانية، سيتيح للولايات المتحدة حل المشكلتين معاً.

فإذا توقف الظلم، وتراجع المعتدي عن عدوانه سيلقي المقاومون الشرفاء أسلحتهم طوعاً، وسيتفرغون لبناء ما تهدم من أوطانهم، وفي الوقت نفسه سيتم فرز المجرمين الذين سينكشف الغطاء الذي يتسترون به، ولن يجد خطابهم آذاناً صاغية عند أحد في العالم حين يتحقق العدل والأمان.

وقد يبدو هذا الكلام مضحكاً، لأنه يتجاهل أن كبار القادة في الولايات المتحدة ليسوا بحاجة إلى هذه النصيحة الباهتة فهم يعرفون في دواخلهم أن المقاومة الوطنية مشروعة، وأنها ليست إرهاباً. الولايات المتحدة نفسها حين تعرضت لاعتداء في سبتمبر وضعت كل قوانينها جانباً وهبت للدفاع عن نفسها، واعتبرت حربها ضد أفغانستان ومن ثم العراق جزءاً من دفاعها المشروع عن النفس، وكان من مبررات احتلالها للعراق كما قالت في بيانها الرسمي شبهة امتلاكه أسلحة دمار شامل ترعب أميركا. وعلى رغم أن المنطق والعدل يقضيان ألا تمنع عن سواها ما تبيح لنفسها فإنها غير عابئة بتجاهل هذه الحقائق ولا يعنيها أن تقتنع أو ألا تقتنع الشعوب لأنها تتحدث بمنطق القوة وليس بقوة المنطق، وهذا ما يفسر تهرب قادة الولايات المتحدة من عقد مؤتمر دولي لتعريف الإرهاب لأنهم يعرفون أن البشرية كلها ستصر على التفريق بينه وبين المقاومة الوطنية المشروعة. ولو كانوا يظنون ولو مجرد ظن بأنهم على حق لسارعوا هم أنفسهم إلى عقد هذا المؤتمر، لكسب مزيد من التأييد الدولي. ولكن إسرائيل التي تلقت صفعة من شعوب الأرض في مؤتمر دوربان لا تريد أن يتكرر ذلك مرة أخرى، وسيبقى الإصرار على خلط المناضلين بالمجرمين فرصة للإرهابيين للنمو والتستر بأهداف نبيلة، وهو ما يدعو بعض المشككين إلى الشك في دور لإسرائيل في العمليات الإجرامية لأنها وحدها صاحبة المصلحة من خلط الأوراق بين المقاومة والإرهاب، ولإجبار العالم على مزيد من النفاق السياسي والأخلاقي الذي ترفضه الشعوب. ولكن بعض الأنظمة السياسية تضطر للنفاق وهي تدرك أنها تتصرف خارج حدود الأخلاق حين تساوي بين المعتدي وبين المعتدى عليه، وقد انفجرت ضمائر حرة كثيرة في العالم، وصرخت بقوة في وجه الزيف والنفاق بكل أشكاله.

ولقد قلت في مقالتي السابقة إن صراع الأصوليات خطر يهدد أمن العالم، وإن إصرار الصهيونية على التفسير الديني للصراع العربي ــ الإسرائيلي، سيزيد من حدة العنف، وقد أثار الكثيرين وأدهشهم أن يدعو الرئيس بوش إلى قيام دولتين الأولى يهودية والثانية فلسطينية. ولست في معرض نقاش الثانية والسؤال عن حدودها ومواصفاتها ونوع سيادتها، فهذا ما يناقشه الفلسطينيون، لكن السؤال المثير في كل أنحاء الوطن العربي يتجه إلى الاستفسار عن الدولة اليهودية التي يبشر الرئيس بوش بقيامها، وقد يبدو أنه لا يقصد دولة إسرائيل الراهنة، لأنها

موجودة فكيف يبشر بقيامها وهي قائمة؟ وهي لا تقدم نفسها بوصفها دولة دينية في خطابها السياسي الرسمي، بل تزعم أنها الدولة العلمانية الديمقراطية الوحيدة في المنطقة، وهذا ما دعا الشارع العربي إلى الشك في أن تكون الدولة الدينية اليهودية التي يبشر الرئيس بوش بها هي دولة إسرائيل التوراتية الكبرى، كما أن الشارع العربي افتقد المعادلة في التطابق بين دولة دينية يهودية وأخرى فلسطينية لم يذكر لها دين، ولتحقيق التوازن لابد من التماثل بين الدولتين الجارتين، وهذا ما قد يستدعي صراع الأصوليات الذي لا يريده العرب مسلمين ومسيحيين، وهو أحد الأبواب التي قد يتسلل منها الإرهاب من طرفي الصراع. فهل يغيب عن الولايات المتحدة أن الدعوة إلى قيام دولة دينية يهودية تضم أكثر من مليون فلسطيني مسلمين ومسيحيين، هو بوابة عنف ديني أصولي؟ وهل يغيب عن الولايات المتحدة أن الطريق إلى مكافحة الإرهاب تستدعي البحث عن أصحاب المصلحة الحقيقية من العمليات الإرهابية التي يقع جل ضحاياها من العرب والمسلمين أنفسهم ومن السياح والأبرياء بشكل يستفز العالم،ويسيء إلى قضايا العرب ويحقق أهداف أعدائهم؟ وهل يغيب عن الولايات المتحدة الحريصة على إنهاء المقاومة الوطنية في البلدان العربية والإسلامية التي تتعرض للعدوان، أن الطريق الوحيدة لإنهاء دوامة العنف ولنشر الأمن والسلام هي ببساطة إنهاء الاحتلال؟

٢٠٠٣/١٩/٦

خطاب ثقافي جديد

يتصاعد الحديث عن حاجة الأمة إلى خطاب ثقافي جديد يلائم ما آل إليه الحال بعد حدثين خطيرين ألمّا بالعالم، وبالأمة العربية بخاصة، وهما الحادي عشر من سبتمبر، والتاسع من نيسان (أبريل) ولقد شهد شهر يونيو الماضي سلسلة اجتماعات ولقاءات بين وزراء الاعلام والثقافة العرب، ورجال الفكر والأدب، ولم يكن الحديث عن الخطاب الجديد (جديداً) ولكنه يحظى اليوم باهتمام رسمي بعد أن صارت الأخطار حقائق وليست إرهاصات. وقد قيل عبر التاريخ إن العرب لا ينهضون لمواجهة الخطر إلا بعد أن يقع، وهذا شأنهم عامة حتى على الصعيد الشخصي فهم ــ على الغالب ــ لا يأخذون المريض إلى العلاج إلا بعد أن تستفحل حالته. والكارثة لم تكن مفاجئة لأحد، وقد كان الخطاب الثقافي العربي والإسلامي جديراً بالفحص والتأمل منذ عقدين على الأقل، كما كان من الضروري أن يستشعر المسؤولون أهمية مواجهة حمله تشويه العروبة والإسلام على الصعيد الدولي فهي ليست جديدة، ولكنها بالطبع لم تكن ضارية كما أصبحت بعد الحادي عشر من سبتمبر ولم يكن المثقفون والمفكرون غافلين عما يحدث، فلطالما نبهوا إلى خطورة اللامبالاة الرسمية تجاه أفكار خطيرة تسللت منذ عقود إلى الفكر والثقافة العربية .وربما كان سبب هذا الإهمال الرسمي هو الخوف من المواجهة الإيجابية، ولا سيما في القضايا المتعلقة بالدين، حتى تفاقم الخطر ونمت مفاهيم خاطئة لدى شرائح من الشباب كتلك المفاهيم التي تقسم العالم إلى دارين، دار إسلام ودار كفر، أو التي تتعصب إلى القومية بطريقة شوفينية تلغي الآخر، أوتقلل من حضوره وتميزه الثقافي. وكانت بعض وسائل الإعلام العربية تعزف على النغم النشاز في سلاسل من البرامج الحوارية التي ظهر فيها أدعياء فكر وثقافة أعلنوا الحرب على العالم، وكنا نستشعر أنهم ينفذون مخططات ليست في صالح الأمة، وهي بالطبع ليست من جوهر الدين الإسلامي المعتدل، وليست من مفاهيم الفكر القومي المنفتح، وقد جاء العلاج للحالات الشاذة في كثير من الأحيان ذا طابع أمني أكثر من كونه علاجاً فكرياً واجتماعياً وثقافياً، وهذا ما جعل الأزمات الفكرية تتفاقم أحياناً .

كما أن وسائل الإعلام العربية شهدت تسللاً صهيونيا خطيراً منذ أكثر من عقدين تحت يافطة السلام والشرق أوسطية والتطبيع وأتاحت منابر مهمة لمثقفين شككوا بمفاهيم العروبة بل بوجود أمة عربية أصلا، واستغلوا شعار حقوق الأقليات للافتراء على الواقع ولتفتيت الوحدة الوطنية في العديد من الأقطار العربية .وقد أصبح الحديث عن الهوية العربية شغلا شاغلا للمفكرين العرب، جرهم إليه المتسللون المشككون الذين تمكنوا من وضع المثقفين العرب في

موقع الدفاع وتقديم الحجج والبراهين على أن العرب أمة واحدة، وهذا أمر مؤسـف ومخجـل، وقد تزامن مع كواليس اتفاقيات السلام، التي حاولت شق الصف العربي، وزعزعة ثوابته، لأنها لم تكن تسعى إلى سلام حقيقي عادل وشامل، بمقدار ما كانت تسعى إلـى اختـراق الموقـف العربي الصلب الذي تجلى في حرب أكتوبر ·ومثلما تعرضت العروبة إلـى التشـكيك كـذلك تعرض الإسلام، وتمكن المتسللون المشككون من وضع المفكرين الإسلاميين في موقع الـدفاع وتقديم الحجج والبراهين على أن الإسلام رسالة تسامح ومحبة وليس دين عنف وإرهاب ·

وقد يستنكر كثيرون أن تتهم الصهيونية بالمسؤولية عن إخفاق المشروع القومي، وعـن تصوير الإسلام على أنه دين يقدس القتل وهؤلاء يعتقدون أن (العيب فينا) والمسـؤولية علينـا عربا ومسلمين· فالعرب لم يتقنوا تقديم المشروع القومي وكان من سوء حظ هذا المشروع أن تتسلل إلى قيادته في العراق مجموعة مجرمة اتخذت فكر البعث وسيلة للاستيلاء على السلطة، وقامت بتحطيم المشروعين القومي والإسلامي معاً، وقد كانت الحرب العراقية ــ الإيرانية زجا مفتعلا لمفردات الخطاب القومي العربي في حرب ضد الخطاب الإسلامي العام، وإذكاء للفصام المفتعل بين العروبة والإسلام.

كما كان غزو العراق للكويت ضربة قاصمة للمشروع القومي جعلت الصراع العربي ــ العربي أكثر خطورة من الصراع العربي ــ الإسرائيلي صحيح أن ما حدث هو فعل عربي حقا إلا أن الملابسات المأساوية لسقوط بغداد لم تكن بمعزل عن المشروع الصهيوني الذي حصـد النتائج لصالحه ··وأعتقد أن إعادة النظر في الخطاب الثقافي العربي يجب أن تلحظ أن المشكلة لم تكن في الخطاب وحده وإنما كانت في وسائل وأدوات التعبير والتنفيذ، ويفترض أن ينطلـق النقد الموجه إلى الخطاب القومي من وعي الصلة الخفية بين بعض القائمين على هذا المشروع وبين دوائر أجنبية أرادت لهذا المشروع أن ينهض وأن يصبح الحديث عن وجود أمة عربيـة واحدة ذات خصائص ومقومات متعددة موضوع شك وريبة، وأن يصير التفاؤل بوحدة عربيـة أو اتحاد عربي مدعاة للسخرية والتسخيف، وأن يصير البحث عن التضامن العربي في حـده الأدنى طموحا يصعب تحقيقه·· وعلى رغم أنني لا أفكر (أن العيب فينا والمسـؤولية علينـا) ولكنني مقتنع بأن المشكلة ليست في الخطاب القومي ذاته، وانهياره لا يعني بطلانـه أو عـدم صلاحيته لأن أسباب هذا الانهيار، كانت خارجه بالدرجة الأولى.

ولا يعني هذا أن الخطاب القومي ليس بحاجة إلى مراجعة بل هو في أمس الحاجة إليهـا، ولا سيما أن بيئته الفكرية الأساسية وضعت في أواخر القرن التاسع عشر كمـا أن منطلقاتـه النظرية تبلورت في العقد الرابع من القرن العشرين وقد تفرق دعاته إلى تيارات متعددة كانـت

الغلبة فيها للمثقفين الذين بهرتهم الشيوعية، وكانت ثقافتهم ماركسية خالصة، ولم يكن يحــرجهم فيها سوى إنكارها للبعد القومي في حياة الأمم، وهذا ما جعلهم يمزجون الفكر القومي العربــي بالفكر الماركسي الأممي· وأحسب أن هذا المزج كان من أسباب الفراق بين المشروع القــومي وبين المشروع الإسلامي العربي الذي يحتاج هو الآخر إلى مراجعة عميقة بعد أن افترق دعاته إلى تيارات كانت الغلبة فيها للتطرف الذي رفض القومية، وأصدرت بعــض قياداتــه الفقهيــة أحكاما قاسية خرجت عن الاعتدال والوسطية وكان من بين دعاته من أراد هدم الجســور مــع الغرب ومن رفض التعايش مع الآخر وتجرأ على إطلاق أحكــام التكفيــر علــى كثــرة مــن المسلمين· وأعتقد أن أهم ما يجب أن يعنى به الخطاب الثقافي الجديد هو إعــادة اللحمــة بــين العروبة والإسلام وتحقيق التكامل بين المشروع القومي والمشروع الإسلامي وفتح آفــاق كــلا المشروعين على رحابة الحضارة العربية الإسلامية التي اتسعت لكــل القوميــات والإثنيــات والشعوب والأعراق في إطار الانتماء الثقافي إلى العربية لغة وثقافــة ودينــا· كمــا اتســعت للمسيحية واليهودية إطاراً اجتماعياً يقوم على التعايش والتلاؤم ساعد عليــه إيمــان المســلمين بالرسالات السماوية السابقة وتجاوزهم لما بينهم وبين الأديان الأخرى من اختلافات عقائدية في احترام لحرية المعتقد وحرية التعبير، مثلما كانت المسيحية العربية تؤكد كذلك انتماءها المتــين للحضارة العربية الإسلامية· وقد كانت المسيحية العربية شريكا أساسيا وفاعلا في كل المنجزات التاريخية لهذه الحضارة التي انفتحت على اليهودية كذلك، وقد جسدت تجربة الأندلس ذروة في هذا الانفتاح والتعاون والتلاؤم ولولا العدوان الصهيوني على الأمة العربية والإسلامية لحققــت هذه التجربة ما يخفق اليوم حوار الأديان في تحقيقه ·

وأعتقد أن من أهم ما نرجو أن يعنى به الخطاب الثقافي الجديد، هو ردم الهوة بين الــدين والعلمانية، من خلال تقديم تعريف جديد للعلمانية العربية يوضح موقفها من الأديــان، ذلك أن الكثرة من الناس يعتبرون العلمانيــة العربيــة نموذجــا مماثلاً لــ العلمانية الغربية التي تعتقد بأن العالم خلق نفسه بنفسه، وأنها تقوم على أفكار إلحادية ترفض الأديان، حيث من الضروري التفريق بين موقف العلمانية العربية من الإسلام، وبين موقف العلمانية الغربية من الكنيسة التي كانت تسيطر على حياة الدولة والمجتمع في أوروبا، ومن الضروري كذلك إيضاح أن غالبيــة العلمانيين العرب يؤمنون بالله ويحترمون الأديان السماوية وينطلقون في علمانيتهم نحو تحقيق مجتمع تعددي يحترم العقائد والانتماءات ويحقق العيش المشترك ·

وأعتقد كذلك أن الخطاب الثقافي مطالب بتعميق الدعوة إلى السلام الشامل والعادل علــى صعيد عالمي، فلئن أخفق العرب في هزيمة إسرائيل عسكريا، فإن عليهم أن يســتخدموا كــل

الوسائل المتاحة لكسب معركة السلام، التي تهرب منها إسرائيل لأنها تدرك أن السلام يقضـــي على مشروعها التوسعي.

٢٠٠٣/٧/٤

من يعادي الأمم المتحدة؟

أعادت جريمة تفجير مقر الأمم المتحدة في بغداد ومقتل سيرجيو فييرا دي ميللـو إلـى الأذهان جريمة اغتيال إسرائيل للكونت السويدي فولك برنادوت عام ١٩٤٨ لأنه أيـد الحـق العربي في فلسطين، وحذر من فتح باب الهجرة اليهودية إلى الأرض العربية المحتلـة لكونهـا كما قال في تقريره تبرر مخاوف العرب من مخاطر التوسع الصهيوني في الشـرق الأوسـط، وكان برنادوت قد اقترح وضع القدس تحت السيادة العربية بعد قرار التقسيم الشهير، وقد أثـار موقف الكونت غضب إسرائيل· ودعت منظمات إرهابية إسرائيلية شهيرة مثل آرغون وشتيرن إلى دراسة عملية اغتيال الكونت وترأس اجتماع التخطيط لقتله اسحق شامير زعـيم شـتيرن، والأمر ليس سراً، فالعالم كله يعرف أن إسرائيل قتلت الكونت برنادوت، وقد افتخر مناحيم بيغن زعيم منظمة الأرغون في كتابه (التمرد) بمقتل برنادوت مثلما افتخـر بمذبحـة ديـر ياسـين وبتفجير فندق الملك داوود الذي قتل فيه العشرات من الضحايا· وكان مناحيم بـيغن واسـحق شامير ينفذان وصية أستاذهما فلاديمير جابوتنسكي الذي أوصى قادة إسرائيل باتبـاع سياسـة الإرهاب والعنف المطلق لبناء دولة إسرائيل، تلك السياسة التي طورها نحو مزيد من العنـف والإرهاب قادة إسرائيل من وايزمان إلى بن غوريون وصولاً إلى شارون.

ولقد كان قتل إسرائيل للكونت برنادوت متعدد الأهداف، ومن أهمها معاقبة الأمم المتحـدة التي وضعت آنذاك شرطاً لقبول عضوية إسرائيل فيها،و هو أن تنفذ قرارات مجلـس الأمـن وكان من أهمها القرار ١٩٤٠ وقد نهجت إسرائيل منذ قيامها سياسـة إهمـال الأمـم المتحـدة والاستخفاف بقرارات مجلس الأمن معتمدة على الفيتو الأميركي، أو متجاهلة القرار الأميركـي ذاته بفضل اعتمادها على مراكز القوة الصهيونية داخل الولايات المتحـدة· وكانـت المنظمـة الدولية قد أصدرت عشرات القرارات التي تدعم حقوق الشعب الفلسطيني والحقـوق العربيـة عامة، ولم تنفذ إسرائيل منها شيئاً، وبوسع الباحث أن يجد خمسين قراراً على الأقل من الجمعية العامة لدعم قرار مجلس الأمن ١٩٤ فضـلاً عـن القـرارات الشـهيرة ٢٣٧ و٢٤٢ و٣٣٨ والحديث عن تجاهل إسرائيل للأمم المتحدة يطول، وقد بـات واضـحاً للأسـرة الدوليـة أن المجموعة الصهيونية المتنفذة في الولايات المتحدة هي التي منعت البيت الأبيض علـى مـدى سنوات من تسديد التزامات الولايات المتحدة المالية· ونذكر جيداً أن الموقف من الأمم المتحـدة كان واحداً من القضايا الخلافية بين المتنافسين الرئاسيين آل غور وبوش، فقد كـان آل غـور يدعو إلى استخدام القوة العسكرية الأميركية في إطار الأمم المتحدة، وإلى أن تفـي الولايـات المتحدة بالتزاماتها المالية للمنظمة الدولية، بينما كان بوش يرفض وضع الجنـود الأميـركيين

تحت قيادة الأمم المتحدة، ويشترط على المنظمة الدولية أن تصلح هيكلها (وبمعنى آخر أن تعلن الإفلاس والإذعان) قبل أن تسدد الولايات المتحدة التزاماتها المالية.

وقد أبدت أطراف في الإدارة الأميركية إهمالاً كبيراً للمنظمة الدولية ولقرارات مجلس الأمن بعد رفض إسرائيل الاستمرار في مشروع السلام الذي دعا إليه الرئيس بوش الأب في مدريد، فتم تعطيل كل قرارات الشرعية الدولية ذات الصلة لأن إسرائيل رفضت مبدأ الأرض مقابل السلام، وعبرت عن ذلك بعمل إرهابي وصل إلى حد قتل رابين مما جعل بيريز يسارع لحماية نفسه من تهمة القبول بالسلام ضمن قرارات الشرعية الدولية، فكان أهم عمل قام به في فترة ولايته الانتقالية القصيرة عام ١٩٩٦ هو توجيه ضربة لمقر الأمم المتحدة في قانا ضمن المجزرة الشهيرة التي قتل فيها عشرات الأبرياء وكان أكثرهم من الأطفال والنساء المدنيين ٠ وقد تمكن نتانياهو بعد بيريز من تعطيل مسيرة السلام، حين أعلن فريق مستشاريه وبينهم ريتشارد بيرل استراتيجية جديدة تلغي مبدأ الأرض مقابل السلام، ومبدأ السلام الشامل،

وتطالب العرب بالسلام مقابل السلام (أي بالاستسلام) والتنازل الكامل عن الحقوق العربية، كما أعلن حكماء إسرائيل إنهاء العمل باستراتيجية التفوق العسكري على العرب، واعتماد سياسة السيطرة المباشرة على الدول العربية عبر الضامن الأميركي للمشروع الصهيوني، وعلى الصعيد الفلسطيني أعلن الإسرائيليون سياسة ما سموه الضربة الوقائية للفلسطينيين.

وقد بدأ شارون بالتنفيذ بعد أن أعلن باراك فشله في انتزاع استسلام فلسطيني كامل، وبدا أنه من غير الممكن إرغام الفلسطينيين على التنازل الكامل عن حقوقهم، إلا بتغيير الوقائع على الأرض· وعلى الجانب العربي، كان إخفاق كلينتون في إرغام الأسد الراحل على القبول بتقديم تنازل عن حقوق سوريا في هضبة الجولان، نهاية مرحلة وجدت إسرائيل نفسها فيها تواجه طريقاً مسدوداً، ولاسيما بعد أن اضطرت إلى الانسحاب من لبنان بفضل التضحيات المجيدة التي قدمها حزب الله بخاصة ومن خلفه الشعب اللبناني وحكومته بكل فئاته وشرائحه الوطنية· وقد منح هذا الانتصار الشارع العربي شعوراً بالأمل بإمكانية استعادة الحقوق العربية بالقوة إن أصرت إسرائيل على جعل القوة وسيلة وحيدة لحل الصراع· وأيدت كل شعوب الأرض الحق العربي وهنأت لبنان بتحرير أرضه، وساندت الفلسطينيين الذين قدموا مصداقية رغبتهم بالسلام، وبدأت إسرائيل تفقد الدعم الدولي الذي جنته قبل عقود عبر الأخطبوط الإعلامي الصهيوني الذي تمتلكه في العالم، والذي زيف الحقائق، مقابل عجز إعلامي عربي، أو صمت مريب، تمكنت الانتفاضة الفلسطينية من كسره.

وقد جاء شارون ليذكر العالم بجرائمه القديمة حين اقتحم المسجد الأقصى بفظاظة وجلافة تقزز منها أنصاره أنفسهم، وقد أطلق شارون رصاصة الرحمة علـى بقيـة الآمـال الممكنـة بالسلام، ولكنه وجد نفسه يغوص في الوحل ويغرق في الدماء ويقود إسرائيل إلى الدمار. وقـد سألته الصحافة الإسرائيلية وأعضاء في الكنيست مراراً إلى أي جحيم يقود إسرائيل؟ ولم يكـن أحد يعلم ماذا كان يخبىء شارون من دوافع قوته، بل لم يكن أحد يعرف غير قادة الصـهيونية الكبار سر استهتار شارون وطاقمه بقرارات مجلس الأمن وبالمجتمع الدولي كله، إلـى درجـة إحراج الرئيس الأميركي بوش ذاته حين كان يطالب شارون بالانسحاب من أراضـي الضـفة ومن جنين بالذات ويقول بإصرار (اليوم وليس غداً) وشارون يتجاهل. وفي الوقت ذاته أحـرج الاتحاد الأوروبي، وأهان المنظمة الدولية حين رفض قرار كوفي عنان بتشكيل لجنة تحقيق أو لجنة تقصي حقائق، وقد كان من السخرية أن تتدفق الأخبار في كل وسائل الإعلام يوم تفجير مقر الأمم المتحدة في بغداد بأن منظمة إسلامية غير معروفة في العراق، وأحسب أن من بـين أسمائها المدعاة اسم (المدينة المنورة) هي التي أعلنت مسؤوليتها عن جريمة تفجير مقر الأمـم المتحدة في بغداد، والهدف زج الإسلام والتأكيد على إلصاق صفة الإرهاب به.

والمحققون في كل جريمة يبحثون دائما عن المستفيد من الجريمـة، وبالتأكيـد لا يوجـد عراقي أو عربي له مصلحة في إبعاد الأمم المتحدة عن العراق، فالعراق في أمس الحاجة إلـى جهود المنظمة الدولية وكل المجتمع المدني العالمي فضلاً عن الحاجة الماسـة لـدعم أشـقائه العرب لحمايته أولاً من حرب داخلية تريدها إسرائيل لتمزيق البقية الباقية من مكـامن الحيـاة فيه،ولمساعدته على تحقيق استقلاله واستعادة حريته.لقد سارع مندوب إسرائيل في الأمم المتحدة إلى تقديم اتهامات لسوريا بلا أدلة كعادة إسرائيل، بهدف تحويل الأنظار عن المستفيد الوحيد من إبعاد المنظمة الدولية عن العراق، وهو إسرائيل التي تريد لنفسها دوراً منفرداً وغامضاً يبحـث عن ثأر أسطوري، ويعتبر بابل جزءاً من مملكة إسرائيل الكبرى، وهذا ما لا يمكن أن تقبلـه الأمم المتحدة، التي أعلن الحرب عليها ريتشارد بيرل في مقالته الشهيرة في الناشيونال بوسـت الكندية حين قال: (إن نهاية النظام في العراق سوف تصاحبها نهاية أخرى هي نهايـة الأمـم المتحدة) وعلينا أن نتذكر ما قاله بيرل ونحن نشعر بالحزن والأسى لما أصاب الأبرياء في مقر الأمم المتحدة في بغداد.

٢٠٠٦/٥/٢٩

الخاسرون والرابحون من ١١ سبتمبر

حتى الآن يبدو واضحاً أن المستفيد الأكبر من جريمة الحادي عشر من سبتمبر هو إسرائيل التي حصدت وحدها النتائج الإيجابية الكبرى من الفاجعة المريعة التي تعرض لها شعب الولايات المتحدة الذي لا تدري الغالبية العظمى منه شيئاً عن حقيقة ما حدث ولماذا حدث ولصالح من ارتكبت هذه الجريمة المروعة بحق آلاف الأبرياء من كل القوميات والمذاهب والأديان؟

فأما الخاسر الأكبر من تداعيات الجريمة فقد كان الإسلام بوصفه ديناً، فقد اتهم زوراً وبهتاناً بالمسؤولية عن الجريمة، ولا أقول المسلمين لأن بعض المفكرين والباحثين الغربيين خرجوا بنتيجة مفادها أن الإسلام هو المسؤول لأنه يبث في أبنائه ثقافة العنف والتطرف ويدعو إلى قتل الكفار. وقد حمل العرب المسؤولية بالتبعية، ليس لكونهم عرباً، وإنما لأنهم مسلمون، وسُجل معهم في خانة المسؤولية العرب المسيحيون، فقد قتل أحدهم وهو قبطي مصري في خضم ردود الفعل الثأرية. مثلما حمل المسؤولية الشرق كله بتهمة الجوار، فقد قتل أحد الهنود السيخ في حالة انتقامية أخرى لمجرد أن له لحية ويرتدي ملابس شرقية. وقد استنكر الأوروبيون المتحضرون وغالبية الشعب الأميركي التصرفات العدوانية الثأرية، وكان العارفون يعلمون جيداً من هم المحرضون ومن هم الذين يؤججون العداء بين العرب المسلمين وبين الغرب المسيحي. وقد نجح الطرفان المتعقلان (المسلم والمسيحي معاً) في احتواء المشاعر الغاضبة، وتوصلا إلى تفاهم ضمني عمّقه إحساس الطرفين الناضجين بوجود غموض كبير في حقيقة ما حدث. وقد شم المجتمع الدولي كله بحدس قوي رائحة أكاذيب ضخمة تحتاج إلى براهين وإلى أدلة. وتمكن الحكماء من لجم الموقف الذي صعدته وسائل إعلام مريبة ومراكز بحوث متواطئة، كانت تصب الزيت على النار لتذكي الخلاف، وتقود المسيحية الأوروبية والأميركية إلى استعادة كارثية للحروب الصليبية ضد العرب والمسلمين.

كان الإسلام هو الخاسر الأكبر في تداعيات ١١ سبتمبر، ولكن خسارته لم تبدأ يوم اتهم بالمسؤولية عن التفجير وإنما سبقت ذلك،منذ أن بدأت دوائر أجنبية مريبة تدعم ظهور تنظيمات إسلامية تعلن أفكاراً متطرفة، وكانت الإدارة الأميركية قد أعلنت نداء الجهاد الإسلامي ضد السوفييت المعتدين على ديار الإسلام في أفغانستان، فعبأت من سمتهم الأفغان العرب للحرب معها .وليس سراً أنها أسهمت بظهور أسوأ نموذج للحكم الإسلامي عبر دعمها لحركة طالبان التي قدمت صورة متخلفة للإسلام استغربها المسلمون في كل أقطارهم، وعجبوا من سلوكها في

التعامل مع المجتمع ومع المرأة بشكل خاص خلاف ما هو عليه الحال في كل البلاد الإسلامية. فقد استغرب المسلمون حكمها بهدم تماثيل بوذا، وحكمها باعتقال مبشرين مسيحيين، لأن المسلمين الأوائل رأوا منذ عصر الفتوحات تماثيل بوذا في آسيا، ورأوا سواها من تماثيل آلهة اليونان والرومان في سوريا ومصر والشمال العربي الإفريقي ولم يفكر أحد بهدمها. وما تزال إلى اليوم شواهد حضارية في المدن الأثرية أو في المتاحف الإسلامية. فما الذي دعا طالبان إلى هذه الفتوى الغريبة التي عارضها علماء المسلمين، وما سر ذاك التوقيت؟ أما بعثات التبشير بالدين المسيحي فقد اكتظت بها بلاد المسلمين ولاسيما في القرن التاسع عشر في سوريا ولبنان ومصر وبلدان المغرب العربي، ولم يقف أحد من المسلمين ضدها، بل إن مؤرخي عصر النهضة يمتدحون دورها في تحقيق تواصل مع ثقافة الغرب، ولم نسمع أن أحداً من علماء المسلمين قد حارب هذه البعثات، وهي على كل حال لم تخرج أحداً من المسلمين من دينه، فقد كانت جل أعمالها خيرية وإنسانية. وكيف للمسلمين أن يعارضوا وجود مبشرين للمسيحية في ديارهم في الوقت الذي كانت ترحب فيه أوروبا وأميركا وكل دول الأرض ببناء مساجد للمسلمين في أراضيها، بل إن كثيراً من البلديات الأوروبية كانت تدعم إنشاء المساجد والمراكز الإسلامية، التي كانت تدعو إلى الإسلام وقد دخل فيه عبر السنوات الأخيرة من القرن العشرين آلاف الأوروبيين والأميركيين دون أن يثير ذلك حفيظة أحد من المسيحيين. فالدين علاقة بين الإنسان وربه، ولكل إنسان حرية أن يختار طريقه إلى الله كما يقتنع، ولكن فئة متنفذة في الغرب شعرت بخطر تنامي حضور المسلمين في أوروبا وأميركا، فبيتت له أمراً.

وحين وقعت الواقعة يوم ١١ سبتمبر أعلنت إسرائيل على الفور مستبقة أي تحقيق أن الفاعلين هم عرب مسلمون، وبدأ تلفيق الروايات، وأمام سورة المشاعر الغربية الناقمة الهائجة بات التشكيك بالرواية الأميركية الصهيونية أمراً يثير الغضب، فلا يحق لأحد أن يطالب بتحقيق دولي، ولا أن يناقش التناقضات الواضحة في الرواية. بل لقد مُنعت وسائل الإعلام الأميركية ذاتها من المناقشة. ولكن كثيرين في المجتمع الإنساني لم يقبلوا الرواية وقد اتجهوا إلى الاعتقاد بأن مجموعة من أصحاب النفوذ في الولايات المتحدة هي التي نفذت العملية بل سيطرت على القرار السياسي فيها، لزجها في حرب شاملة ضد العرب والمسلمين بدأت في أفغانستان ثم انتقلت إلى العراق. وهي تسعى إلى توسيع رقعة الحرب ليس بهدف أن تسيطر الولايات المتحدة على أهم مناطق الثروة في العالم فحسب، وإنما لهدف أخطر لدى هذه المجموعة، هو تحقيق الهدف الصهيوني بإقامة دولة إسرائيل الكبرى. وقد شجع أصحاب هذه الرؤية على الاقتناع بما يظنون، ظهور أكاذيب كبرى في المبررات التي قدمتها الإدارة الأميركية لحربها على العراق،

وقد بدأ سياسيون أميركيون وأوروبيون كبار يعلنون شكهم في كل ما قيل وما حدث منذ عامين إلى اليوم.

فأما العرب والمسلمون فإن بعضهم يتضايق من الشك في الرواية الصهيونية الأميركية لأنه يظن أن من ينكرها ينكر على العرب ذكاءهم وقدرتهم على القيام بعمليات تقنية معقدة تقاد من كهف في جبال أفغانستان، وبعض العرب وجد في الرواية على شكه فيها فرصة للتخلص من التنظيمات المتطرفة التي قامت بعمليات إرهابية ضد المسلمين أنفسهم في البلاد الإسلامية. وكانت حين تلاحقها السلطات تجد الملاذ الآمن في الغرب. فأما الكثرة المطلقة من العرب والمسلمين فإنها لم تقتنع بشيء مما قيل، وهي ما تزال تعتقد أن الجاني هو المستفيد، وأن الأمور بخواتيمها، وتداعيات سبتمبر كشفت أن الجريمة المروعة التي عصفت بالولايات المتحدة أخرجت إسرائيل من الطريق المسدود الذي واجهته بعد فشلها في كامب ديفيد الثانية،وبعد أن حاصرتها انتفاضة الأقصى، وبعد أن فقدت تأييد المجتمع الدولي لها، وقد حمّلتها البشرية مسؤولية إفشال عملية السلام من مدريد إلى أوسلو.ولم تكن أشرطة ابن لادن تقنع أحداً، لأنها ظهرت بعد أن شكلت الإدارة الأميركية لجنة إعلامية لتأكيد التهمة وكانت قد فشلت في تشكيل لجنة تحقيق، بل إن استقالة كيسنجر دعمت الشكوك في الأذهان. لكن القوة الجامحة والغضب الأميركي العارم أجبرا النظام العربي والإسلامي على الصمت أمام التهمة، وبدل الخوض في نقاش لا فائدة منه بدأ النظام العربي يبحث عن وسائل امتصاص الغضب بتبرئة النفس حيناً وبالتعاون الأمني حيناً آخر، ثم بنصح هادئ للولايات المتحدة وحلفائها بخطورة استعداء ملايين المسلمين في العالم. وقد بدأت الولايات المتحدة تتفهم خطر زلات اللسان، وتعتذر عما سلف، وتبرئ الإسلام في التصريحات الرسمية، وبدأ العقلاء يعيدون بناء جسور الثقة من جديد ولم يكن العرب وحدهم من شككوا بالرواية، وعلى صعيد عالمي كان هناك غضب شعبي لما حدث من انتهاك صارخ للقوانين ولحقوق الإنسان في اعتبار المشتبه بهم مدانين دون أحكام قضائية. وقد صرح عشرات القضاة في العالم بأن كل الأدلة المقدمة ضد المشتبه بهم حتى الآن لا تصمد خمس دقائق أمام محكمة عادلة. ولا يعنيني في هذا المقال تأكيد الاتهام أو نفيه، فقد أوشك أن يصير الأمران جدلية شديدة الغموض وقد قيل فيها الكثير. فالمهم الآن هو استقراء النتائج التي تظهر بعد عامين من الحدث أن الإسلام وحده كان الخاسر الأكبر بينما ما تزال إسرائيل هي الرابح الأكبر. ولا أقول الولايات المتحدة لأن نتائج حربها على أفغانستان والعراق تشير إلى خسائر بشرية ومادية للشعب الأميركي الذي لم يجن أية فائدة أو مصلحة، سوى أن الكثيرين في العالم شعروا بالخوف من تفرد الولايات المتحدة الغاضبة

بالقرار الدولي، وكثيرون امتلأت نفوسهم كراهية للغطرسة والغرور الأميركي. وهذا ما لا يريده الأميركيون الطيبون الذين قدموا للبشرية أكثر من سواهم نموذجاً فذاً للتعايش الإنساني بين الأمم والشعوب، وقد بات عقلاء أميركا يبحثون عن وسائل تحسين صورتها أمام البشرية، ولكن المزيد من القتل والتدمير للشعوب الضعيفة يزيد الصورة قتامة عند الكثيرين.

صحيح أن القوة الأميركية التي تمركزت في العراق والتي باتت قادرة على تهديد الجوار، تمنح إسرائيل فرصة تحقيق حلمها في إقامة دولة يهودية كبرى، وفي إجبار العرب على الإذعان والاستسلام، وعدم المطالبة بحقوقهم الشرعية. ولكن هل هذا هو ما يريده الشعب الأميركي الذي تربطنا نحن العرب والمسلمين به علاقات تاريخية وإنسانية عريقة ومصالح راهنة ومستقبلية كبيرة؟

نحن واثقون أن الشعب الأميركي الطيب قد بدأ يصحو على الحقائق، ويدرك أنه قد زج به في حروب ليست حروبه، وهو يدرك أن عليه أن يستخدم قوته لإقرار الحق وليس لدعم المغتصبين.

والمهم أننا حين نتذكر أحداث الثلاثاء الدامي تدمى قلوبنا من أجل كل الأبرياء الذين قضوا في مركز التجارة العالمي في نيويورك، وفي أفغانستان وفي العراق، فقد قتل مئات الآلاف من البشر في حروب مجنونة، لم يستفد من نتائجها غير المتطرفين الحالمين بأساطير مملكة الرب واستعادة مملكة بابل. ونرجوا أن يستفيق صناع الموت على خطورة ما يفعلون، وأن يوجهوا جهودهم لبناء السلام، وألا تغرهم القوة، وألا يجوروا على الضعفاء، فيضطروهم إلى اختيار الموت مع قاتلهم بدل اختيار الحياة.

٢٠٠٣/١٢/٩

نحو نظام عربي جديد

بعد سقوط بغداد على يد هولاكو (١٢٥٨) ولد في المنطقة نظام جديد فرضته الهزيمة التي أجبرت العرب على السقوط مع بغداد التي كانت في حالة انهيار داخلي يقودها المستعصم بالله الذي يقال إنه كان غارقاً في الفساد وقد سلم أمره لابن العلقمي، وقد أنذره هولاكو وطلب منه التنحي عن الحكم فأصر بغرور وكبرياء على المنازلة، دون أن يدرك ضعف حكمه وهشاشة جيشه وخيانة صحبه فقد فرّ الجيش واستسلم قادته، فاضطر هو كذلك أن يسلم نفسه لهولاكو الذي وعده بالأمان بعد مفاوضات سرية، لكن هولاكو سرعان ما قتل ابنه وأفراد أسرته ثم قتله.

ولقد فعل المغول ببغداد الفظائع، فقد قصفوها بالمنجنيق وأشعلوا فيها الحرائق أربعين يوماً، ثم نهبوا المتاحف والقصور والمساجد وسرقوا ما فيها من ذهب وثروات، وكان من أسوأ ما فعلوا أنهم أحرقوا الكتب وبدأوا بملاحقة العلماء معبرين عن همجية ووحشية لم يعرف لها التاريخ مثيلاً من قبل (ولكنه عرف ما هو أفظع منها من بعد). والمهم أن هولاكو حين فرغ من بغداد توجه إلى بلاد الشام ليتابع خطته الاستراتيجية في إعادة ترتيب المنطقة، ويقال إن المخطط الاستراتيجي الذي وضعه شقيق هولاكو، أدرك أهمية تحالف المغول مع الصليبيين المهزومين في حطين على يد صلاح الدين، والذين سرعان ما خططوا لإفراغ النصر من مضمونه، وكان يمثلهم في التحالف مع المغول هيتوم ملك أرمينيا الصغرى ثم دخل فيه ملك إنطاكية، وكانت بلاد الشام موزعة بين نفوذ الصليبيين، وبين الدولة الأيوبية التي تراجعت قوتها بعد حطين وقد تردد الصليبيون أمام زحف هولاكو خوفاً من بطشه بممالكهم، لكن الملك محمد بن المظفر بن العادل الأيوبي لم يهتم لتهديدات هولاكو، الذي فرض عليه حصاراً شديداً. فقد استمر حصار ميافارقين ثمانية أشهر، وكان من سوء الحظ أن الأمة العربية غائبة غياباً كاملاً، فقد قاومت حلب وحدها ثلاثين يوماً كان فيها هولاكو يمطرها يومياً بوابل من القصف بعشرين منجنيقاً، ثم سقطت حلب، فانتقلت المقاومة إلى قلعة حارم التي شهد فيها المغول مقاومة عنيفة، واضطر الحكام الأيوبيون إلى الاستسلام وتركوا دمشق لمصير سيئ، بعد مقاومة شديدة كذلك في قلعة دمشق.

كان النظام الجديد الذي شهدته المنطقة بعد هذا السقوط المريع هو غياب العرب غياباً كاملاً عن سدة الحكم بل وعن التاريخ، فلم يكن ما فعله الظاهر بيبرس من استعادة للخلافة العباسية إلا شكلاً اضطر أن يتستر به لأنه مملوك تركي بيع في حماه، ولكنه مع احترامي الشديد لتاريخه المجيد، غدر برفيق النصر في عين جالوت (١٢٥٠) وهو المظفر قطز (الذي باعه المغول طفلاً

كذلك في الشام) فحكم مصر وانتقم من المغول شر انتقام حين دحرهم إلى شمال سوريا بعد عامين من سقوط بغداد.

لقد أدرك بيبرس بعد مقتل قطز أن بناء نظام عربي جديد (عماده الإسلام الذي لولاه لما منح العرب الولاء للمماليك) هو في لم الشمل وتوحيد الكلمة فكان أول ما فعل هو ربط قواعد مثلث الأمة القوي (الشام ومصر والحجاز) فبنى دولة قوية بعد عامين من سقوط بغداد، وهزم فلول المغول الذين لجأوا إلى الإسلام ليجدوا فيه الأمان، وأفاد من الدرس العظيم الذي قدمه صلاح الدين الذي تمكن قبل بضعة عقود من هزيمة الصليبيين في حطين عام (١١٨٧) وبنى دولة قوية حين ربط أطراف الأمة ووحد كلمتها واستنفر طاقاتها واتخذ قراراً استراتيجياً بالمقاومة.

وأعترف أنني أطوف حول هذه الأحداث المهمة كي أذكر القارئ بالمثل الشهير (ما أشبه الليلة بالبارحة) ولكن القارئ سيقول إن التاريخ لا يكرر نفسه، ولا مجال لأية مقارنة أو مقاربة بين ما تعرضت له الأمة قبل ألف عام وبين ما تتعرض له اليوم، ولا مجال لأية مقارنة بين قوى المغول والصليبيين وبين قوى الصهيونية المعاصرة.

ولكني أحسب أن القارئ لن ينكر ضرورة أخذ العبر من التاريخ، وأول هذه العبر أن العرب حين تقاعسوا وضعفوا تحول الحكم منهم إلى الخدم والحواشي (مع كل الاحترام لنجم الدين أيوب ولشجر الدر وللمظفر قطز وللظاهر بيبرس وسواهم كثير من الشرفاء) ولكن بالمقابل كان هناك فساد مريع لو توقف المرء عند بعض تفاصيله لبكى وضحك من سخف ما حل بالأمة على يد الجهلاء، إلى أن جاء العثمانيون فحكموا الأمة العربية التي خرجت قروناً أخرى من التاريخ، وأحسب أن نقطة النهاية الفاصلة كانت في سقوط بغداد ونهاية العصر العباسي.

أحسب أن من حقنا أن نتعظ مما حدث لأمتنا في التاريخ، والأمر اليوم ليس حدثاً سياسياً طارئاً، فما يحدث هو بالطبع مخطط استراتيجي بعيد المدى وهو أخطر بكثير مما حدث قبل ألف عام، وهدفه إعادة العرب إلى غيابة التاريخ مرة أخرى لأن تجربة عودتهم إلى المسرح العالمي على مدى عقود القرن العشرين جعلت الصهيونية تنظر بقلق وخوف شديدين مما سماه هنتنغتون زوراً وبهتاناً (الحدود الدموية للإسلام) وكان المتطرفون المتشددون العنصريون في الغرب قد حذروا بعد استقلال البلدان العربية أواسط القرن العشرين من خطر النهوض العربي، ولكن تفاهماً ضمنياً بين ممثلي الصهيونية وبعض الحكام العرب الذين ضمنوا الموافقة على قيام إسرائيل جعل الغرب يتريث حتى تبدل التاريخ ونهضت الثورات منذ الستينيات.

لقد كان الإسرائيليون يراهنون على أن الجيل الجديد من الفلسطينيين سينسى اسم فلسطين بل إن باراك قال إن السلام قد يحل عام ٢٠٢٨ حين لا يبقى على قيد الحياة فلسطيني يتذكر فلسطين التاريخية، لكن المفاجأة أن أطفال فلسطين طلعوا أشد من أجدادهم وآبائهم، بل إن بعض الشباب نذروا أنفسهم للموت بطريقة أدهشت العالم، ولا يعنيهم بالطبع أن يصفهم من يشاء بأنهم إرهابيون، فهم يقاتلون عدواً يحتل أرضهم، وهم قانعون ومؤمنون بقداسة ما يفعلون وقد قال شاعرهم قبل عقود (فإما حياة تسر الصديق… وإما ممات يغيظ العدا).

ولابد في البحث عن نظام عربي جديد من الاعتراف بأن العرب يواجهون قوة عظمى غير مسبوقة في التاريخ، ولابد من الاعتراف كذلك بأن الأمة العربية تعيش فراغاً وضياعاً فكرياً غير مسبوق كذلك، فقد جربت القومية والاشتراكية والماركسية والشيوعية والأممية والشعوبية والديمقراطية الشعبية والإمارة والشورى والسلطنة والمملكة والجمهورية والجماهيرية، ورفعت كل ما في الأرض من شعارات ومن صور غيفارا إلى صور بن لادن، مروراً بهتافات طنانة رنانة هدرت بها الجماهير التي كانت تساق على الغالب كما يساق القطيع، ومع ذلك كانت النتيجة اهتراء وخواء وهشاشة جعلت الشعب العربي يشعر بالوجوم والذهول وهو يرى دوله تقف حائرة خائرة لا تملك أن تجيب على سؤال البقاء، ولا تملك أن تقطع أبسط صلاتها مع أعدائها. ورأى النظام العربي كيف خذل الشعب العراقي (بطله المفدى صدام) الذي كان قبيل أيام يهتف له الملايين ويحملونه على الأكتاف ويرقصون حوله.

ولإقامة نظام عربي جديد لابد من مواجهة الحقائق مهما تكن مريرة. لابد من الاعتراف بأن ثمة هوة سحيقة بين الأنظمة العربية وبين الشعب العربي، ولابد من الاعتراف بأن صدام خطف من العرب القومية كما خطف بن لادن من المسلمين الإسلام، ولا أمل للأمة بالنهوض إلا إذا استعادت عروبتها وإسلامها،وهو تراثها الفكري والحضاري الذي يضم مساهمات الأديان والقوميات التي أنجزت ما نسميه الحضارة الإسلامية.

ولابد من الاعتراف بأهمية ربط أطراف الأمة بمصالح تجمعها، ولكي لا أشتد على النظام العربي الراهن الذي لاحول له ولا قوة وقد بات همه تقليل الخسائر وتجنب الدمار وترويض الشرسة أقول إن إلقاء المسؤولية على أهل الحكم والسياسة وحدهم ليس عدلاً، فأهل الفكر مسؤولون كذلك عن هذا الضياع المريب الذي تعيشه الأمة إلى درجة أن بعض أبنائها يسألون بعد قرون من حضارتها من نحن؟ وماذا نريد؟وإلى أين نمضي؟ أترانا نملك أن نقاوم من يحتل أرضنا أم نستسلم ونستجدي رضا أميركا وإسرائيل؟

وحتى هؤلاء الذين نسميهم بظرف ولطف رواد الواقعية السياسية ودعاة التعامل مع الظرف الراهن لا يطمئنون في أعماقهم إلى وعود أميركا وإسرائيل، فمن يضمن صدق ما يقول قادة الإدارة الأميركية وما يعدون؟ وها نحن نرى شعوب أميركا وبريطانيا تحاسب قادتها بتهم الكذب والخداع وافتعال الذرائع للسيطرة على الآخرين، ونرى كيف خذلت إسرائيل من وقعوا معها اتفاقيات سلام، وكيف نقضت وعودها وعهودها للفلسطينيين، وهذا كله يجعل الحاجة ماسة إلى بناء نظام عربي جديد يواجه الخطر من موقع الأمة وليس من موقع الأفراد أو الدول التي باتت تواجه تهمة الشك في كونها أمة.

٢٠٠٣/٢٥/٩

من أجدر بأن يتعلم من الدرس نحن أم الأميركان؟

كثر الحديث عن حاجة العرب إلى الاستفادة من درس العراق· بل إن الرئيس بوش وجه ما يشبه التهديد والإنذار إلى بعض الدول مؤكداً على ضرورة فهم الدرس وأخذ العبر، وقد تردد طويلاً في الأدبيات العربية سؤال: هل استوعبنا الدرس وهل فهمناه؟ وقد أصبح الدرس كما يبدو مروعاً لكثير من دول العالم· فقد تعرضت دول كبرى للتنديد إن لم نقل للتهديد· أما الأوروبيون الذين عارضوا الحرب على العراق ولم يقتنعوا بالذرائع والمبررات الأميركية فقد نالوا نصيباً وافراً من التهكم والاستخفاف في فترة الزهو الأميركي بالانتصار الساحق على شعب العراق، وأما هيئة الأمم المتحدة فقد أصابها من التقزيم والتهميش ما جعلها عرضة للتهديد العلني بإطلاق رصاصة الرحمة عليها وقد وعد ريتشارد بيرل بأن نهاية النظام في العراق ستصاحبها نهاية الأمم المتحدة· ولايخفى على أحد من قادة الصهيونية في الولايات المتحدة أو في إسرائيل أن العالم كله ممتعض من هذه الغطرسة ومن هذا الجبروت، ومن لم يظهر امتعاضه فهو يمالىء وينافق ويقدم الولاء خوفاً وليس قناعة كما حدث حين اعتبرت دول محترمة في العالم حركات المقاومة الفلسطينية منظمات إرهابية وهي تدرك في سرها أنها تخالف ضميرها وأن تلك المنظمات حركات تحرر وطنية جديرة بالمعونة لأنها تسعى إلى حق ضمنته لها الشرعية الدولية· ولقد ضاقت الأكثرية الساحقة من البشر ذرعاً بهذا الصلف والغرور الصهيوني، ولعل احتفالات العالم بالذكرى الثالثة للانتفاضة والمظاهرات التي اكتظت بها عواصم الغرب والشرق أكبر دليل على توهج جمرة التحدي في قلوب الأحرار في العالم الذين يدركون جيداً أن (القوة تستطيع أن تغير الوقائع مؤقتاً ولكنها لا تستطيع أن تغير الحقائق أبداً).

وإذا كان على العرب أن يستفيدوا حقاً من الدرس التراجيدي المفجع الذي حدث في العراق، أفليس الأجدر كذلك بأن يستفيد الأميركيون أنفسهم من الدرس ذاته؟

صحيح أن النهاية العبثية التي سقط بها نظام صدام كشفت هشاشة أي نظام يقوم على الديكتاتورية والقمع، ولكن على رغم انتشار الفساد في العديد من الأنظمة العربية فإننا لا نجد نظاماً يشابه نظام صدام، ولم ينجح أحد في عقد أية مقارنات أو مقاربات لأن ما فعله صدام غير مسبوق وغير ملحوق· فهو النظام الوحيد الذي أعلن حرباً على الثورة الإسلامية الإيرانية التي كان يفترض أن يحتفي بها العرب لأنها عبر الإسلام تشكل قوة للأمة العربية· وهو النظام الوحيد الذي شن حرباً على بلد عربي وأعلن ضمه إليه بالقوة وشرد شعبه وسرق أمواله بحجة

الوحدة العربية والقومية، فأسقط بما فعل من جريمة شنعاء صفاء المبادئ العربية ومزق نظرية الأمن القومي. وهذه التصرفات لم يقم بمثلها نظام عربي كي يكون الدرس مفيداً له فيتراجع قبل أن يلقى ذات المصير وعلى رغم أن الفساد القائم في بعض البلدان العربية يهدد قدرة الشعوب على الصمود فإن حملات مقاومة الفساد لم تتوقف وهي إن لم تحقق النجاحات المأمولة فحسبها من الدرس العراقي أن تدرك أهمية تسريع الخطى على طريق الديمقراطية وإشراك الشعوب العربية في الحكم، وقد رأينا حيوية وحراكاً في العديد من البلدان العربية التي سارعت إلى الإصلاح السياسي والاقتصادي والإداري، ولم تكن دوافع الإصلاح سداً للذرائع، وإنما كانت تلبية للاحتياجات التي نبه إليها الواقع المتردي بصوت مرتفع.

ولم يكن صحيحاً أن الشعب العراقي لم يدافع عن بلده لأنه يكره النظام، فهذا الكلام يدحضه الدفاع المستميت الذي بذلته قرية أم قصر وحدها، ولم يكن الشعب العراقي بالطبع يدافع عن صدام، وإنما كان يدافع عن حرية واستقلال العراق،وفي الوجدان العربي العام قيمة فكرية يرددها العرب جميعاً وهي التي اختصرها الشاعر العربي بقوله: بلادي وإن جارت علي عزيزة.. وأهلي وإن ضنوا علي كرام.

ولكن السقوط التراجيدي للنظام المهترئ في بغداد جعل الناس يصابون بالذهول والوجوم، ولا أحد إلى الآن يعرف كيف تمت الصفقة وكيف تم تسليم البلاد وكيف اختفى صدام كما اختفى ابن لادن من قبل؟ وأذكر أنني كتبت في هذه الصفحة من وجهات نظر قبل حرب العراق عن السيناريوهات المحتملة في العراق، وصدق حدسي بأن ما سيحدث هو انهيار مريع يليه اختفاء لصدام ثم ظهور تدريجي لأشرطته الإذاعية ومن ثم التلفزيونية وذلك على غرار سيناريو سقوط طالبان واختفاء ابن لادن ثم ظهور أشرطته لأن الأفكار الهوليودية السينمائية والتلفزيونية الناجحة قابلة للتكرار في الذهنية الأميركية كما يحدث مع أفلام جيمس بوند ورامبو . وبالطبع لم أكن وحدي من توقع ذلك ولكنني كنت من الأكثرية التي لم تراهن قط على انتصار نظام فاسد ولكنني كنت مع من راهنوا على قدرة شعب العراق على الصمود والمقاومة؟ والمهم أن الشعب العراقي العظيم الذي تعرض لأسوأ المآسي في التاريخ المعاصر، كان حسبه بلاء أن يحكمه صدام فازداد بلاؤه بويلات حروب لم يجن منها غير الدمار، ثم جاءه الحصار وأخيراً ابتلي بالاحتلال الأميركي ـ البريطاني، ولم يسقط الرهان عليه، إذ سرعان ما نهض وبدأ المقاومة التي تصورها وسائل الإعلام الصهيونية اليوم بأنها عمليات إرهابية يقوم بها فدائيو صدام على رغم أن ذات الإعلام كان يقول إن فدائيي صدام هربوا من المعركة وجيوشه الجرارة أبيدت أو انهزمت، ولم يدافع عنه من قومه أحد. وحقيقة الأمر أن المقاومة العراقية

اليوم هي رد فعل شعبي طبيعي على الاحتلال، وليس بوسع أحد أن ينكر على العــراقيين أن يقاوموا وجود قوى أجنبية على أرضهم بأية وسيلة يرونها مناسبة حتى تتحرر بلادهــم مــن الاحتلال، مع تفاؤلنا المرحلي بما تعلن عنه الخارجية الأميركية من جدية في التوجه إلى إنهاء الاحتلال.

إن ما يحدث الآن في كل من العراق وفلسطين جدير بأن يكون درساً يستفيد منــه قــادة أميركا وإسرائيل أكثر مما هو درس للعرب والمسلمين، فقد ارتكبت الولايات المتحــدة خطــأ فادحاً حين ضربت بالعصا التي كانت تهدد بها، والقاعدة التربوية تقــول (هــدد بالعصــا ولا تضرب بها) لأن الضرب بها سيفقدها الألم المتخيل لهول الضربة، ولا أحد ينكر أن الضــربة التي تلقاها شعب العراق كانت أضخم من الهول، فقد أبيدت فرق عســكرية كاملــة، وقيــل إن الولايات المتحدة استخدمت في معركة مطار بغداد قنابل تكتيكية مدمرة للحياة دون المباني، قتل بها عشرات الألوف، وما يزال عدد ضحايا الاحتلال من الشهداء والجرحى والمعاقين سراً لــم يعلن. وصحيح أن الولايات المتحدة دمرت البنية التحتية للحياة المدنية العراقيــة، ولكــن هــذا العنف المدمر الذي لا سابقة له في التاريخ في كل من العراق وفلسطين، جعل الناس في النهاية يتعاملون مع الموت والدمار على أنه أمر عادي وقضاء وقدر، ورتبوا نظرتهم إلى الحياة على أنها غير جديرة بأن تعاش ما لم تكن كريمة وعزيزة، وهذه هي كلمة السر في المقاومة، وقــد انتهت العمليات العسكرية في العراق كما أعلنت القيادة الأميركية، وصار ممكناً استقراء الدرس من وجهة النظر الأميركية، وسؤال الولايات المتحدة عما استفادت هي منه كذلك، فهل تحققــت أهدافها وهل وجدت أسلحة الدمار التي كانت تبحث عنها؟ وهل تمكنت من السيطرة الكاملة على الشرق الأوسط؟ وهل تمكنت من جعل العراق التجربة الديمقراطية التي يتــوق إليهــا العــرب المجاورون؟ وهل وصلتها طلبات استغاثة من دول عربية أخرى تستعين بها من أجل أن تعيش الحلم الأميركي الرائع الذي يعيشه شعب العراق؟ وهل ازدادت شعبية الولايات المتحــدة فــي العالم العربي والإسلامي، (بل هل ازدادت شعبيتها في أميركا ذاتها وفي أوروبا؟) وهل حقــق احتلال العراق لإسرائيل ما كانت تبحث عنه من الطمأنينة للمستقبل؟ وهل وضح الطريق أمــام الخريطة أم أن الخريطة ضاعت والطريق صار مسدوداً ليس على الفلسطينيين الذين لم يكسبوا شيئاً كي يخسروه وإنما على الإسرائيليين الذين كسبوا أشياء كثيرة من خلال اتفاقيــات أوســلو ومن خلال المبادرة العربية للسلام ولكنهم باتوا اليوم مهددين بأن يخسروا كل ما كسبوه بعد أن أصبح الشارع العربي مقتنعاً بأن حكومة شارون وقيادة بوش هما قيادتا حروب وليستا قيــادتي سلام وأن من الخطأ التفاؤل بمستقبل آمن مع صناع الحروب والدمار.

والأسئلة التي يمكن أن تطرح على الولايات المتحدة وبريطانيا وإسرائيل قابلة للزيادة وستصبح متوالية في مجلس العموم البريطاني وفي الكونغرس وفي الكنيست، حيث من المتوقع أن تبدأ المحاسبة للقادة الذين قادوا البشرية إلى بحار الدم دون مبرر، وكان بوسعهم أن يقودوها للسلام. تصوروا ما الذي كان يمكن أن يحدث لو أن الرئيس بوش أنفق ربع تكاليف حربه على العراق، على مشروعات حيوية للشعب الفلسطيني واللبناني وبعض شعوب المنطقة، ولو أنه بادر العراقيين برفع الحصار، ورفع يده عن صدام (وبالمناسبة نرجو أن يعرف الأميركيون أن غالبية العرب مقتنعون بأن صدام ما كان بوسعه أن يصبح فرعون القرن العشرين لولا ما كان يلقى من دعم الأميركيين فهم الذين زودوه بأسلحة الدمار ليحارب إيران وهم الذين دعموه حين قصف الأكراد، وحين أباد ثورة الجنوب، وهم الذين كانوا يدعمونه حين كان يرسل المتفجرات إلى سوريا ويحرض على قيام فتنة طائفية فيها عقاباً أميركياً وإسرائيلياً لها لأنها وقفت ضد الحلول السلمية الانفرادية وضد تجزئة الحل منذ أواخر السبعينيات كما رفضت المشاركة في الحرب ضد إيران).

أعتقد أن الأميركيين أولى من العرب بالاستفادة من درس العراق، فقد غرقوا في مستنقع من الوحل والدم، قادتهم إليه حفنة من المسؤولين المتطرفين الذين غذت أفكارهم مراكز بحوث صهيونية صورت لهم الأمور بشكل مخادع وكاذب واستغلت كونهم مدعومين بأضخم ميزانية عسكرية في التاريخ لتقودهم عبر نظرة إيديولوجية ضيقة إلى دعم مشروع إسرائيل الكبرى الحالمة بالسيطرة المطلقة على العالم، وتظن أن بوسعها أن تمحو أمماً من على سطح الكرة الأرضية، وأن تلغي ثقافات وأن تبدل لغات، وهذا ما قد يفسره حرق المكتبات ونهب المتاحف. إنها نظرة عدوانية للآخر، يجب أن يقوّمها عقلاء الولايات المتحدة، وعليهم أن يستنتجوا من الدرس أن الفلسطينيين أصبحوا أكثر قابلية للموت شهداء، لأنه لم يعد لديهم ما يخسرونه، وأن العراقيين الموعودين بجنة الديمقراطية لن يطول انتظارهم للوعد فإن لم يجدوه فسوف يشعلون الصحراء لهيباً، وأن العرب جميعاً فقدوا الفزع من تهديدات الولايات المتحدة لأنهم رأوا أن العراق ما يزال باقياً على رغم ضخامة عدد الشهداء وفداحة الدمار والموت، ولم يكن سهلاً محوه من على سبورة درس الجغرافيا القديم.

وخلاصة الدرس أنه لا يصح إلا الصحيح، والصحيح هو ما تقرره الشعوب وليس حفنة الحاقدين في إدارات الحروب وصناع الدمار.

٢٠٠٣/٢/١٠

نهاية العروبة أم نهاية الصهيونية؟

لم يعد العرب وحدهم يرثون أمتهم ويبكون وفاة العرب كما فعل قبل عشر سنين شاعرهم الكبير نزار قباني، يوم كتب قصيدته الشهيرة التي يقول فيها (إذا أعلنوا يوماً وفاة العرب ففي أية مقبرة يقبرون ومن سوف يبكي عليهم؟ (فالصهاينة أيضاً يتحدثون عن موت الصهيونية، وقد برزت بحوث (ما بعد الصهيونية) كظاهرة تأريخية منذ أواسط الثمانينيات، حيث تصاعد التساؤل عن جدوى احتلال جنوب لبنان، مع ظهور المؤرخين الجدد الذين أعادوا النظر في الرواية الرسمية للهولوكوست، ومع ولادة بحوث اجتماعية حلت محل البحوث الإيديولوجية التي انتهت مهمتها في حرب يونيو التي رسخت وجود إسرائيل، وأنهت خوف الإسرائيليين من إمكانية أن يحقق العرب تهديدهم العشوائي برميها في البحر. ولكن حرب أكتوبر سرعان ما أعادت الهواجس إلى الإسرائيليين، وجعلت كثيرين من اليهود المترددين في الهجرة إلى ما يسمونها أرض الميعاد يتراجعون ويفضلون الاندماج في المجتمعات الغربية التي يعيشون فيها، إلى أن حدث التطور الدراماتيكي المثير في اتفاقية أوسلو التي كشفت الستار عن المخبوء في الكواليس الذهنية للصهيونية، على رغم محاولة التدرج في إظهار الحقيقة عبر البدء مما سمي بما يمكن التفاهم حوله من الملفات وإرجاء ما يصعب التفاهم حوله إلى ما سمي بمفاوضات الحل النهائي التي لم يفاجأ أحد بوصولها إلى الطريق المسدود في كامب ديفيد الثانية. يومها أعلن باراك لاءاته الخمسة، وكان طبيعياً أن تصدق رؤية يوري ساريد بأن تتحول اتفاقية أوسلو إلى مقصلة تقطع رأس كل من سار على دربها. ولئن كان رأس رابين قد قطع من قبل شاب يهودي أمضى خدمته العسكرية في لواء جولاني الشهير (ولهذا الانتماء العسكري دلالة نبّه الإسرائيليين إليها، البروفسور يارون إزراحي) فإن سياسيين إسرائيليين كبارا من وزن بيريز وباراك ونتنياهو سقطوا كما سقط كثيرون من سياسيي الصفين الثاني والثالث على طريق سلام كاذب ومخادع عبر اتفاق مجحف بحق الفلسطينيين، لم يأخذ موقعوه الإسرائيليون في الحسبان خطر كونه سيمنح الحقيقة فرصة الظهور لأول مرة ولو بألوان دموية قانية.لم تكن كتابات أستاذ الفيزياء إسرائيل شاحاك أو أستاذ الكيمياء بني بيت هالاحمي تحظى باهتمام لائق عند المتعلقين بالوهم الصهيوني، فهما غير مختصين بالتاريخ. لكن ظهور كتابات توم سيغيف في أواسط الثمانينيات (وهو صحفي في هآرتس) هزت النخبة الإسرائيلية حين نزع القدسية عن الآباء المؤسسين، واعترف بأن المستوطنات التي يدعي القادة الإسرائيليون أنها تجمعات تقدم نماذج متفوقة للعدل والتكافؤ والمساواة ــ بحيث تجتذب المزيد من المهاجرين ــ هي في الحقيقة تجمعات عدوانية تبث الكراهية والبغضاء وتدعو إلى الاعتداء على السكان الأصليين العرب

الفلسطينيين. وقد أظهرت كتابات عديدة واكبت كتاب سيغيف (الإسرائيليون الأوائل) وكتابه (المليون السابع) تفضح حقيقة أشد مرارة وقسوة على الإسرائيليين حين تمت تعرية الرواية الرسمية للهولوكست، واعترف المؤرخ الجديد بأن تجمعات المستوطنات رحبت بالهولوكست وبما حلّ بيهود أوروبا لأن النتيجة صبت في صالح أصحاب مشروع الهجرة إلى أرض إسرائيل موئل الخلاص الأخير. وفي هذه المرحلة من نهاية الثمانينيات ظهر كتاب يارون إزراحي عن رصاصات المطاط، الذي تحدث فيه عن تفسخ الرواية الصهيونية إلى نسخ متضاربة وعن تفكك الصهيونية إلى قومية دينية تقابلها قومية علمانية، أو ليبرالية دينية تقابلها ليبرالية علمانية، وهذا أمر عادي، لو أن واحدة من المكونات الصهيونية المفككة، تمكنت من إيجاد حل نهائي لمشكلة التعامل اليهودي مع الآخر الفلسطيني الذي بقي مشكلة الصهيونيةالمزمنة. وحين كشف بني موريس في كتابه (ولادة مشكلة) عام ١٩٨٧ عن أساليب إسرائيل في تهجير الفلسطينيين وسمى بن غوريون بالطارد الأكبر للعرب، كشف للأجيال الجديدة من الإسرائيليين زيف ما كان يروج من أن الفلسطينيين باعوا أراضيهم طواعية لليهود، وكشف جذور فكرة الترانسفير في الإيديولوجيا الصهيونية وأسطورة أرض الميعاد ولقد تمكنت إسرائيل من تحقيق تقدم هائل لمشروع إسرائيل الكبرى في أواخر الثمانينيات مستفيدة من المتغيرات الدولية التي نعتقد أنها لم تأت بالمصادفة، مثل انهيار الاتحاد السوفييتي وخسارة العرب جداراً استراتيجياً مهماً كانوا يستندون إليه، ومثل تداعيات الحرب العراقية الإيرانية التي جاءت مدمرة للمشروعين القومي والإسلامي معاً، فضلاً عن إنجازها الأخطر حين تمكنت من شق الصف العربي عبر طرح حلول سلام فردية فككت بنية الرؤية العربية للصراع، فجعلته قطرياً بعد أن كان قومياً، ومثل توسيع دائرة الاحتلال للأرض العربية عبر احتلال لبنان، إلى أن جاءت الضربة القاضية حين غزا صدام الكويت، فلبى العرب دعوة أميركا إلى مدريد متنازلين عما قبل ١٩٦٧ قابلين بما لم يكونوا يتصورون القبول به. وتردد شامير في لعبة مسرحية سبقت دخوله اللعبة، وهو يضمر غير ما يعلن، وقد حققت إسرائيل عبر هذه الأحداث التي تسارعت لصالحها تفوقاً عسكرياً وتقنياً هائلاً على العرب مجتمعين. إلا أنها لم تستطع أن تحتفل لحظة واحدة بشيء من هذه الإنجازات الضخمة، فقد جاء غياب السلطة في لبنان لصالح مشروع التحرير، حيث تمكن الشعب من بناء المقاومة الوطنية ومن فرض توازن جديد هو توازن الرعب الذي أجبر إسرائيل على الهرب من مستنقع الدم الذي غرقت فيه (وهذا الوضع تواجهه الولايات المتحدة الآن في العراق) وأما اتفاقيات السلام الجزئية والفردية التي كانت إنجازاً ضخماً لإسرائيل فقد تبين لها بعد عشرين عاماً بأنها لم تغير شيئاً من حقيقة الصراع على الصعيد الشعبي. فالشعبان المصري والأردني لم يديرا ظهريهما للفلسطينيين، ولم يكتفيا

بخلاص فردي، بل هما يجسدان مخزوناً ضخماً من الدعم للقضية التي بدا أنها ما تزال مركزية في الوجدان العربي على رغم كل ما تم تجاوزه على الصعيد الرسمي.

هذا ما كشفت عنه الانتفاضة الثانية بوضوح جعل كثيرين من الإسرائيليين يعلنون الندم على توقيع الاتفاقيات، وكانت المقاومة اللبنانية والانتفاضة الفلسطينية الأولى قد ألهمت الوجدان العربي حلماً يتجدد بالقدرة على الصمود والتصدي للمشروع الصهيوني على رغم ضخامة الخلل في توازن القوة، وعلى رغم غياب التوازن الدولي· وأعتقد أن بيريز لجأ إلى مشروع الشرق أوسطية في مطلع التسعينيات كي ينقذ الصهيونية من الموت المحقق، فأراد لها توسعاً اقتصادياً يجعل السيطرة الاقتصادية والسياسية والثقافية بديلاً عن التوسع الجغرافي الذي بدا مستحيلاً· وقد نبّه بيريز في كتابه الشرق الأوسط عام ١٩٩٣ إلى خطر تنامي ما سماه بالهجمات الإرهابية، وإلى خطر الخلل في التوازن السكاني بين اليهود والفلسطينيين، وأشار إلى خطورة تناقص عدد اليهود عالمياً، وإلى الزيادة التناسلية الطبيعية المدهشة للفلسطينيين الذين سيصل عددهم عام ٢٠٢٠ إلى ١٤ مليون نسمة، مشيراً إلى أن اليهود يعانون من ضعف تدين جيل الشباب ومن ميلهم إلى الاندماج في المجتمعات التي يعيشون فيها· ولعلهم يستعيدون قول الحاخام وايزمن الشهير كان صهيون ملكاً نفيساً في الماضي لكنه ليس أملنا للمستقبل، إن أميركا هي صهيون بالنسبة لنا · وقد واجه بيريز انتقادات كبيرة جعلته يقدم دلائل جديدة على أنه يكره العرب أكثر من كل منتقديه حين ختم أداءه لدور البطولة الذي أسند إليه لفترة قصيرة بعد مقتل رابين، فقام بارتكاب مجزرة قانا· إلا أن نتنياهو رد على أطروحاته عبر فريق مستشاريه الذين اشتهروا بلقب (أمراء الظلام) فكان كتاب نتنياهو (مكان تحت الشمس) مراهنة على القوة ورفضاً للسلام، وإصراراً على عدم التنازل عن الضفة والجولان· لكن نتنياهو لم يجد للإسرائيليين مكاناً آمناً تحت الشمس، على رغم كل ما تملك إسرائيل من قوى نووية وتدميرية يدرك أن استخدامها يعني نهاية أبدية للشعب الإسرائيلي وربما لليهودية في المنطقة كذلك، ولكنه لا ينهي الشعوب العربية والمسلمة مهما بلغت شدة التدمير والعدوان.

ولم تنفع تراجيديا ١١ سبتمبر في توفير هذا المكان الآمن على فظاعتها وبراعة الاستفادة الصهيونية منها حين جلبت إسرائيل كل طاقات الولايات المتحدة العسكرية لتحارب العرب والمسلمين نيابة عنها تحت يافطة مكافحة الإرهاب· ولم يتوفر هذا المكان الآمن على رغم كل الجرائم التي يرتكبها شارون يومياً بدعم من الفريق الصهيوني الذي تمكن من سيطرة غير مسبوقة على القرار الأميركي، عبر ما يمكن أن نسميه انقلاباً عسكرياً دموياً هادئاً قام به المحافظون الجدد الذين يسعون إلى إمبراطورية سيناركية أميركية كما تقول الدراسات

الأميركية ذاتها· وعلى رغم أنهم جروا أميركا إلى حروب لا مصلحة للشعب الأميركي فيها من أفغانستان إلى العراق، فإن الحلم بتوفير مكان آمن بالاعتماد على القوة وحدها سيبقى وهماً وسراباً، وقد بدأ شارون يواجه هذه الحقيقة، وأعتقد أنه بعد مرور أكثر من ألف يوم على وعده للإسرائيليين بالمكان الآمن تحت الشمس، بات يخشى أن يدركه الموت وهو العجوز المسن قبل أن يحقق شيئاً من الحلم الذي ناضل من أجله سبعين عاماً· ولعل هذا الرعب هو ما يدفعه لتوريط العالم في حرب عالمية رابعة، أو على الأقل لإشعال المنطقة كلها بلهيب سيحرق إسرائيل قبل أن يحرق أحداً من جيرانها· وأعتقد أن إبراهام بورغ رئيس الكنيست السابق كان أذكى من شارون بكثير، حين كتب مقالته الشهيرة (نهاية الصهيونية) التي ذاع صيتها منذ شهر ونيف، فقال إن الداء الذي يلتهم جسد الصهيونية بدأ بمهاجمة الرأس وقال إن دولة تفتقر إلى العدالة لا يمكن أن تبقى على قيد الحياة.

فأما العرب الذين ينعون العروبة كل يوم وينعون النظام العربي المنهار في العديد من الأقطار، فإن عليهم أن ينظروا إلى ما تحت الرماد حيث تولد أمة جديدة يصنعها جيل لم تعرف العروبة في تاريخها كله له مثيلاً حتى في صدر الإسلام وفي ذروة الفتوحات، إنه جيل يقبل على الموت بطريقة تدهش الدنيا، وقد أسهم الأعداء بتقوية زنده، وبتصعيد قدراته، حين سدوا عليه منافذ الحياة الكريمة فلم يعد أمامه غير أن ينفجر، وهذا ما أدركه بورغ حين قال حتى لو طأطأ العرب رؤوسهم وابتلعوا الشعور بالخزي والعار والغضب إلى الأبد، فلن يجدي هذا نفعاً، فأية تركيبة تبنى على قسوة القلوب البشرية ستنهار على نفسها حتماً·لا يدرك صناع الموت والدمار في إسرائيل والولايات المتحدة ممن يريدون توسيع نطاق المعركة أنهم يقدمون بذلك خدمة كبرى للعرب والمسلمين حين يضغطون عليهم إلى حد الانفجار الذي سيشكل ولادة أمة لا تستطيع كل أسلحة الدمار التي تنفرد إسرائيل بامتلاكها وحدها في المنطقة أن تمحوها من التاريخ والجغرافيا، بينما يستطيع العدل أن يضمن الحياة الحرة الكريمة لكل شعوب المنطقة مهما اختلفت أديانهم وقومياتهم، ولا حاجة في وجود العدل لأسلحة دمار وإبادة.

٢٠٠٣/١٦/١٠

الحرية والديمقراطية على الطريقة الأميركية

كيف تنسجم دعوة الرئيس بوش إلى إقامة الديمقراطية في شرقنا العربي مع الإملاءات اليومية وقوائم التابوهات والممنوعات التي يصدرها البيت الأبيض إلى الحكومات العربية والإسلامية؟ وكيف تتوافق دعوته (الرسولية!!) إلى الحرية مع أوامره الصارمة التي تحدد الطريق والمنهج الذي يجب أن يسير عليه البشر بحيث ينبغي أن تنسجم أفكارهم وإبداعاتهم مع تعاليمه وحدها. ربما لقناعته بأن ما يفعله هو إرادة إلهية وقد صرح مرات بأن الله هو الذي كلفه بأن يغزو أفغانستان وأن يقتل فيها من يشاء، وأن الله هو الذي كلفه بأن يحتل دولة العراق ويدكها بالصواريخ، فيقتل من يشاء ويمنح الحكم والسلطة لمن يشاء، وكذلك الله كلفه بأن يقيم دولة للفلسطينيين لا سلطة ولا سيادة ولا دين لها لتكون مجرد سجن لهم وراء سور الكتروني، مقابل دولة دينية يهودية تكون مملكة الرب على الأرض، وهي لذلك فوق قوانين البشر وفوق شرعية الأمم المتحدة. ولها سلطة مطلقة ليس على من حولها فحسب بل على العالم كله. ثم إن الله كلفه أخيراً بأن يقيم الديمقراطية وأن ينشر الحرية في الشرق الأوسط.

إن من يتأمل اللغة الاستعلائية وما وراء السطور في خطاب الرئيس بوش عن الحرية والديمقراطية يدرك البعد الرسولي في دعوته، ولست هنا في معرض الحديث عن سيطرة الأفكار الدينية على فكر وقناعات بعض رموز الإدارة الأميركية فقد أشبع الموضوع درساً وبحثاً، وكان حسبنا دليلاً على استبداد الفكرة أن تتحول الديمقراطية إلى نمط ديكتاتوري في المقولة (البوشية) التي تنفي الحرية الفردية والجماعية وتصادرها جملة وتفصيلاً في مبدئه الشهير (إما أن تكون معي وإلا فأنت ضدي). وقد باتت هذه المقولة فجة ومستفزة إلى درجة أن السيد زيبيغينيو بريجنسكي (وهو مستشار سابق للأمن القومي) وصفها بأنها (جنون عظمة) وأنها تجعل الموقف السياسي الأميركي يصل إلى الحضيض ولكن على افتراض أن الرئيس بوش يعتقد حقاً أنه سفير الله إلى الشرق الأوسط، فإن من حقنا قبل أن نؤمن بدعوته (على عادة شعوب منطقتنا التي خصها الله وحدها بالرسل ومنحهم حق المناقشة) أن نقول له: أرنا أوراق اعتمادك يا سيدي. فالأنبياء جاؤوا بالكتب السماوية التي ما تزال حية في عقول وضمائر الناس إلى اليوم، فإن لم يكن لديك ما يثبت حقك في فرض تعاليمك على البشر (بإرادة إلهية) فأرنا معجزاتك، فقد سبق أن قدم السيد المسيح معجزته حين أحيا الموتى. فأما أنت فليس بوسعك سوى أن تقتل الأحياء وقد فعلت ببراعة في أفغانستان ثم في العراق ولا ندري أين سيكون مسرح معجزاتك القادمة. أنت تعلم أن القدرة على القتل والتدمير ليست معجزة، فبوسع أي

أحمق طائش يملك سلاحاً أن يقتل، وأما أحباء الله فقد كانت مهمتهم عبر التاريخ دعم الحياة وليس تدميرها، وإلى اليوم لم نر أثراً لقدرتك على بث الحياة في أي أرض وطئتها جيوشك ودمرتها.

أليس مناقضاً لمفهوم الحرية المنطقي عبر تاريخ الفكر كله أن تكون الحرية التي يدعونا إليها الرئيس الأميركي هي الإذعان المطلق لآرائه وأفكاره، نطيع ما يأمر، وننفذ ما يطلب، ونبتعد عما ينهى، ونجعل هدفنا الأسمى تحقيق مصالح إسرائيل وحدها لأن شعبها هو الشعب الذي اختاره الله وكلف الرئيس بوش وإدارته بخدمته؟

إن الله جل جلاله لم يجبر البشر على طاعته وإنما ترك لهم الاختيار فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. ونحن العرب والمسلمين ورثة هذا الإرث العظيم نعلم الناس فاتحة الحرية، وكنا أول من فتح للبشرية أبوابها الموصدة، وحين كانت حضارتنا تنتشر في الأرض لم نجبر أحداً على معتقداتنا بدليل وجود كل الأديان والثقافات إلى اليوم في بلادنا، وما نظن أننا بحاجة إلى من يلقي علينا دروساً في الحرية، وإن كنا فقدناها في بعض أوطاننا فإنما كان الفقد لها بفاجع دعم الاستعمار الغربي لأنظمة الحكم الديكتاتورية المستبدة في العالمين العربي والإسلامي. والغرب اليوم يعترف بهذه الخطيئة ويعلن الندم .

والمضحك المبكي في الحال العربي والإسلامي أننا نحن العرب والمسلمين كنا أكثر من غيرنا تفاؤلاً بمجيء الرئيس بوش إلى سدة الرئاسة في الولايات المتحدة، لقد دعونا الله أن يساعده كي يكسب معركة الرئاسة فلا يصل إليها آل غور لأنه اختار صهيونياً نائباً له. ويذكر العالم كله أن العرب والمسلمين الأميركان جميعاً وقفوا إلى جانب حملة بوش الرئاسية، حتى أن اللواتي شاركن في عد الأصوات المرجحة لصالحه كنّ نساء مسلمات محجبات نقلت كل وكالات الأنباء صورهن، وكنا سمعنا أن للسيد بوش علاقات وصداقات نفطية مع العرب فقلنا إذن هو أفضل الموجود. وحين نجح فرحنا، ولم يخطر لنا أننا سنتذكر ندامة الكُسَعيّ، وأن تفاؤلنا العربي سيذهب (بوش) مع السيد بوش، وأننا سنستشهد يوماً على زيف ما ندعى إليه بقول آل غور نفسه إن بوش يقوض الحريات في الولايات المتحدة ويستغل مخاوف الناس من الإرهاب لتعزيز نفوذه السياسي والطريف أن آل غور يشكو غياب الحرية في الولايات المتحدة نفسها ويقول إن شن هجوم على الحريات المدنية في الولايات المتحدة لن يكون أكثر طيشاً مما فعلته الإدارة حين غزت العراق كأفضل وسيلة للإمساك بابن لادن . ولا ندري كيف سنقتنع بدعوة بوش للحرية في بلادنا ومنافسه الرئاسي يرجوه أن يكف عن احتجاز الحرية في بلده ويطالبه بإلغاء قانون الوطنية الذي سنّه بعد ١١ سبتمبر وبأن يكف عن تضليل الشعب الأميركي

عبر تقارير سطحية وانفعالية وملتوية لا تتناسب مع الديمقراطية في الولايات المتحدة (بالمناسبة جاء هذا النقد الحاد لسياسة بوش في خطاب ألقاه آل غور مؤخراً في حفل أقامته جماعة موف أوف دوت للدفاع عن الحرية في الولايات المتحدة وليس في الشرق الأوسط).

لقد خيب الرئيس بوش بسياسته المنحازة بشكل مريع لإسرائيل ومشروعها الجهنمي كل آمال العرب والمسلمين، وقد تبدلت مشاعر التفاؤل به إلى تشاؤم، وإن كان لا يعلم هذه الحقيقة فنرجو منه أن يقرأ بإمعان تقرير جيرجيان.

ونحن لم تكن مشاعرنا معادية يوماً للولايات المتحدة، فقد كانت واحة الحرية ومنارة العلم وحلم الفردوس للمهاجرين العرب الأوائل، وما نزال نكن للشعب الأميركي أجمل مشاعر المحبة والتقدير ونفرق بدقة بين الشعب الأميركي وبين بعض حكامه، ونرى بعضهم الآخر منطقياً وعقلانياً ولكنه لا يملك الخلاص من سلطة المتطرفين ولم نكن نتوقع يوماً أن تقع الإدارة الأميركية في مثل هذا التناقض المنطقي والفكري إلى درجة أن ترى أن الحرية تعني الرضوخ للاحتلال والتبعية للأجنبي كائناً ما كانت مبررات الاحتلال أو التبعية؟ والأخطر أن تعلن الإدارة الأميركية أن رفض الانصياع للاحتلال يعني رفضاً للحرية والديمقراطية ووقوعاً في دائرة الإرهاب؟

كيف بوسعنا أن نقنع أنفسنا بأن الإذعان لأوامر أميركا ولمطالبها (التعجيزية) هو بوابة الدخول الأرحب إلى عالم الحرية؟ وكيف سنقنع أطفالنا بأن نموذج الحرية الأجمل ونعيمها الأمثل هو فيما يرونه كل يوم على شاشات الفضائيات من صور القيود التي تربط بها أيدي الشبان العرب وصور الأكياس التي تحشى بها رؤوسهم؟ هل سنقول لأطفالنا هنيئاً لكم ما ستنعمون به من حرية يقدمها لكم الرئيس بوش وحليفه (بطل السلام شارون كما وصفه) ومحظوظ منكم من سيقع عليه الاختيار مستقبلاً فيدار وجهه إلى الجدار وتلوى ذراعاه إلى الخلف وتربطان بقيود الحرية، ويزج رأسه في كيس العمى والاختناق وربما تكبر نعمة الحرية الأميركية أو الإسرائيلية حين يتكرم أحد الجنود الأميركان أو الإسرائيليين فيرفسه بقدمه على مرأى أسرته بل على مرأى العالم كله وأمام الكاميرات تخليداً لنعمة تعميده بحذاء الحرية الأميركي؟ أعتقد أن الرئيس بوش يشاهد هذه المناظر لنماذج الحرية على الطريقة الأميركية والإسرائيلية يومياً على الشاشات، ولعله سيقول إن هؤلاء هم أعداء الحرية في العراق لأنهم يقفون ضد احتلال الحرية لبلدهم، ويعضون اليد التي خلصتهم من شرور صدام، ومنحتهم ما لم يكونوا يحلمون به من نعيم الديمقراطية، وعليهم أن يتذكروا أن الرئيس بوش كان الطبيب الجراح الذي أجرى لشعب العراق أخطر عملية جراحية خلصته من سرطان الظلم والاضطهاد

.ونقول له نعم، لقد قام الطبيب بوش حقاً بعملية جراحية صعبة جداً في العراق، ولكن كما تقول النكتة الشهيرة، لقد نجحت العملية ولكن مات المريض.

إننا نتساءل كيف تنسجم البشارة (البوشية) لنا بالحرية مع دعمه المطلق لأخطر مثال صهيوني قبيح يُفتَتح به القرن الحادي والعشرون على بوابة الظلم والاضطهاد، وتقتل فيه بقايا أحلام الحرية وتنسف فيه كل المبادئ الإنسانية عبر الجدار العنصري الذي تقيمه إسرائيل فوق الأراضي الفلسطينية المحتلة. لقد سماه رئيس وزراء النرويج الأسبق كاري فيلوش (جدار العار) الذي سيبقى وصمة في جبين بُناته بعد سقوط جدار برلين عام ١٩٨٩ وجدار الفصل العنصري في جنوب أفريقيا عام ١٩٩٤.

ربما كان صحيحاً ما قاله عكيف ألدار حول كون الرئيس بوش يعارض إقامة الجدار ويعارض نمو المستوطنات، ولكنه لا يستطيع فعل شيء كيلا يخسر دعم اليهود له في الانتخابات القادمة. وفي هذه الحالة نقول إنه إذن سيفقد المصداقية، ولسنا وحدنا الذين نخشى على مصداقيته، فقد جعل السيد بريجنسكي عنوان مقالته (فقدان المصداقية) وقدم دليلاً على ذلك وقوف الولايات المتحدة وحيدة في الجمعية العامة في مناسبتين هذا الشهر لا يدعمها أحد غير إسرائيل وجزر المارشال وميكرونيزيا في حين لم يتمكن حلفاؤها من اليابان إلى دول الناتو وبالأخص بريطانيا من دعمها لأنها تفقد مصداقيتها السياسية.

ولقد شخص الموقف خبير أميركي من جامعة ميريلاند علق على خطاب الرئيس بوش مشيراً إلى أن العالم العربي والإسلامي فقد الثقة في الرئيس بوش بعد ثلاث سنوات من حكمه، وقال (أنت عندما لا تثق بالبائع فلن تثق بالسلعة) وكثيرون من بسطاء الشارع العربي قالوا إنها دعوة حق يراد بها باطل، واستغربوا أن تغيب كلمة الاحتلال عن خطاب يتحدث عن الحرية.

٢٠٠٣/١١/١٣

الغزو الفكري أخطر من الغزو العسكري

تبدو مقولة الغزو الفكري قابلة للنقض، وقد كنت على مدى سنوات مضت من الذين يفضلون تسميتها مثاقفة تنميها ثورة تقنيات الاتصال وانتشار فكر العولمة، وكنت من المتفائلين بانتشار المعلوماتية بوصفها تشكل انطلاقة رحبة لإنسانيين جدد، قادرين على التواصل الإنساني على رغم اختلاف قومياتهم وجنسياتهم وأديانهم، متحررين من سلطة التاريخ التي تورث الأجيال أحقاد آبائهم وأجدادهم،ومؤمنين بضرورة بناء المجتمع الإنساني بوصفه أسرة كبيرة يجتمع أفرادها على المحبة والتسامح ويحتكمون إلى العدالة والحق، ويتشاركون في تقدم العلم لصالح الإنسان وليس لإبداع وسائل أكثر تقنية لقتله. ولم يكن التفاؤل بعالم يسوده التفاهم والسلم مستحيلاً، ولا حلماً طوباوياً بعد أن ذاقت البشرية من ويلات الحروب ما هو جدير بأن يجعلها ترتدع عن احتلال أوطان الآخرين وعن التدخل الفظ في شؤونهم وعن السطو والقتل والتدمير والاحتكام إلى القوة العسكرية وحدها. وحين كان يقال إن العولمة ووسائل الاتصال الحديثة ستقضي على الخصوصيات الثقافية كنت أجد في هذا التخوف نوعاً من المبالغة، فالثقافات لا خصوصية مغلقة لها، وصفوتها عبر التاريخ كله، هي ما حمل المحلية إلى العالمية ونشرها في فضاء الإنسانية الأرحب،وهذا ما حققه شكسبير في أدب البريطانيين، وهوغو ولامارتين في أدب الفرنسيين وطاغور في أدب الهند،والخيام في أدب الفرس، والمتنبي وأبو العلاء في أدب العرب، وتولستوي وديستويفكي في أدب الروس والأمثلة لا تحصى من آداب وثقافات الأمم التي خرج مبدعوها الكبار إلى فسحة الإنسانية حاملين معهم خصوصية قومية منفتحة على الكون. فأما الفلسفات فهي تختص بغياب الخصوصية، لأن مقولات العقل الإنساني واحدة وكليات المنطق وبديهيات الفكر ومسلماته متطابقة في الجوهر وإن اختلفت في أشكال التعبير، وهذا ما جعل الأديان أممية لا قومية لها ولا عرق.

ولا يقلل هذا الانفتاح المطلق من جمالية الخصوصيات في اللغة شعراً ونثراً ومسرحاً وفي الموسيقا والفنون التشكيلية، بل إنه يشكل في التنوع الشكلي ثراء هو في المحصلة لصالح البشر جميعاً وليس حكراً على قوم أو على أمة دون سواها.

لقد قبلنا بالعولمة على هذه الأرضية الرحبة من الفهم، وكعادتنا في البحث عن جذور الأشياء لدينا، وجدنا أنفسنا أوائل الدعاة إلى العالمية. فقد جاء ديننا الإسلام عالمياً، ومضت حضارتنا الإسلامية في ذات اتجاهه الكوني، ولا أحد بوسعه أن ينكر علينا اتساع تجربتنا الفكرية إلى حد أنها أحيت فكر وثقافة اليونان والرومان، ونشرت كل ما لدى الهند من مقولة

مقبولة أو مرذولة، وجعلت طلب العلم فريضة تطلب ولو في الصين، التي كانت الأبعد جغرافياً والمحصنة خلف سورها العظيم، ولا أنكر أنني كنت من المتفائلين كذلك بقيام منظمة التجارة العالمية، مع التحفظ المشروع الذي أبداه أمثالي من مواطني العالم الثالث الذين خافوا أن تقضي المنافسة على حضورهم وقدرتهم على الندية في عقد شراكة غير متكافئة مع المتقدمين. لكنني كنت أكتم رغبة في التحريض الذي تتيحه التجربة، لعله يثير طاقات كامنة، تخلصنا من الخضوع لروتين التخلف. والمؤسف بعد كل هذا التفاؤل أن حساب السوق لم ينطبق على الصندوق، فقد جاءت العولمة بعكس كل التفاؤل الذي استقبلت به،فمنذ أن أعلن الرئيس بوش الأب ولادة ما سماه العالم الجديد، شهد العالم عودة مريعة إلى ما يشبه عصر الطوطمية والبدائية الأولى. فبدلاً من أن تنصهر الإنسانية في بوتقة كونية أو أن تتجه إلى إحلال السلام مع انتهاء العالم من الحروب ظهرت النعرات العرقية، والاختلافات الإثنية، واشتعلت عشرات الصراعات والحروب الإقليمية،وكان مثيراً أن تصل هذه الحروب المفتعلة إلى القارة الأوروبية نفسها في حرب البوسنة وما تلاها، وأن يصل البركان إلى الولايات المتحدة ذاتها في الحادي عشر من سبتمبر، لتنطلق جحافل الجيوش الأميركية فتغزو وتحتل وتهدد وتعلن أنها ستدخل حروباً قد تستمر أربعين عاماً.

هكذا تبدد التفاؤل الذي لم يدم طويلاً بولادة عالم جديد ينزع إلى السلم، ويتفرغ فيه البشر لمواجهة القضايا الأخطر على الإنسانية مثل مشكلات الفقر والأمراض المستعصية، ومثل اتساع الهوة بين الشمال والجنوب وهي ذات الهوة بين الغنى والفقر.

أما الذين تشاءموا من العولمة منذ ظهور أفكارها، ولم يجدوا فيها جديداً عما كان في نظام دولي شهده العالم في القرن التاسع عشر وكان فاتحة حروب مدمرة، فقد وجدوا فيما حدث من صراعات مبرراً للتشاؤم الذي أبدوه،وقد أيدته المقدمات الفكرية المريبة التي رافقت ولادة النظام الجديد والتي كانت توحي بما يضمر منظروه، فقد كانت أفكار هنتينغتون وفوكوياما وأمثالهما توحي بما وراء الأكمة.

لقد بدت تلك الأفكار عدوانية قاتمة، تبحث عن عدو جديد لأميركا، وعن مبررات تسلط وسطو على حقوق الضعفاء. وبدافع من التثقيف الجديد للقادة السياسيين تحول مشروع العولمة إلى مشروع مدمر لأحلام البشر في الأمن والسلام والاستقرار،وسرعان ما اكتشف المتفائلون أن كل ما قيل عن عالم جديد يتنفس فيه البشر هواء الحرية النقي وينعمون فيه بالديمقراطية لم يكن إلا غطاء لمشروع إقامة إمبراطورية أميركية، يقودها فاشيون جدد، من (السيناركيين) الذين كشف الأميركيون الشرفاء مخططاتهم، وبدأوا بفضحها، وأشاروا إلى أفراد هذه العصابة

المسيطرين على حزب الحرب في الإدارة الأميركية. وقد ظهرت دراسات أميركية عديدة تشير إلى هؤلاء بأسمائهم، ومن أهمها دراسة جيفري شتاينبرغ وتوني بايبرت وباربرة بويد التي تحدثت باسهاب عن ليو شتراوس وعن اليكساندر كوجيف وعن تلامذتهما المخلصين لفكرهما من أمثال فرانسيس فوكوياما وبول ولفوفيتز وأستاذه آلان بلوم، والإعلامي وليام كريستول من مؤسسة روبرت مردوخ، والإعلامي العسكري إبرام شولسكي، والقاضي كلارينس توماس ووزير العدل جون أشكروفت، ومدير مشروع القرن الأميركي الجديد غاري شميت وداعية الحرب الرابعة روبرت كاجان. وكانت العصابة الموازية لهم في إسرائيل كما تقول الدراسة الأميركية مجموعة من الخبراء الذين يشكلون العمود الفقري لنظام شارون الجابوتنسكي، وهم منظرو معهد الدراسات الاستراتيجية والسياسية المتقدمة، الذي أعد الدراسة الشهيرة (الانقطاع النظيف) عام ١٩٩٦ بإشراف ريتشارد بيرل ودوغلاس فيث وديفيد رومسير، وآخرين، ممن روجوا لحرب دائمة في الشرق الأوسط، بدأت في العراق ولا أحد يعلم أين ستنتهي.

ولقد كشفت حملة لاروش الرئاسية فضائح خطيرة حول الانقلاب البارد الذي يقوده ديك تشيني منذ ١١ سبتمبر ومعه من تسميهم الدراسات الأميركية الصقور الجبناء، أو الحمقى المفيدين كما سمّى ليو شتراوس بعضهم، وهؤلاء يسعون إلى إغراق الولايات المتحدة والعالم كله في حرب عالمية رابعة بدافع ما يسمونه العنف التطهيري. وهؤلاء يعتقدون أنه بفضل الإرهاب يمكن إدراك فكرة التركيبة النهائية التي تشبع رغبة الإنسان بشكل حاسم كما قال كوجيف الذي كان معجباً بستالين لأنه أدرك الحاجة إلى الإرهاب ولم يتردد في ارتكاب جرائم وأعمال عنف وحشية، وتقول (شادية دروري) في دراستها المفصلة عن كوجيف إنه اعتقد أن جرائم نابليون وستالين بررتها نجاحاتهم وإنجازاتهم.وهذه العصابة لا تقيم أي وزن للأديان بل هي تريد إحلال الفوضى محل النظام، والتجاوز محل التحريم،والجنون محل العقل.ولقد بدا مثيراً أن تظهر كتابات عربية تروج لهذا الفكر وتمهد الطريق أمام غزو فكري عاصف يستهدف الثقافة والقيم العربية والإسلامية، ويتم التحضير له عبر صحف وإذاعات وفضائيات ناطقة بالعربية ستنطلق قريباً، وبات مؤلماً أن تتحول بعض القنوات الفضائية والكثير من مواقع الأنترنت العربية إلى منابر دعائية لكتاب ومحللين ومتحدثين يعلنون عداءهم للعرب والإسلام بوقاحة وصفاقة من على المنابر العربية والإسلامية ذاتها، وهم يتهمون ديننا بتقديس العنف، وقد صارت السخرية من الثوابت العربية مادة شبه يومية في البرامج الحوارية، في استغلال بشع للمثال السيئ الذي قدمه صدام حسين عن الفكر القومي، وتجاهل لكونه خدم المشروع الصهيوني من حيث علم أو لم يعلم، وفي استغلال أكثر تعسفاً لخطاب ابن لادن كمثال عن

التطرف الإسلامي في تجاهل لكون القاعدة منظمة أنشأتها المخابرات الأميركية وقدم لها ابن لادن من حيث علم أو لم يعلم كذلك، كل ما يحتاج إليه المشروع الأميركي من ذرائع ومبررات.

لقد بدا الغزو الفكري للعرب مريعاً من خلال إقناعهم رغماً عنهم بأنهم مجرمون، فقد اتهموا بارتكاب جريمة ١١ سبتمبر وكان عليهم أن يعترفوا بالمسؤولية عنها وألا يطالبوا إطلاقاً بتحقيق دولي على رغم فداحة الجريمة التي اتهموا بها، وما يزال كثيرون مثلي غير مقتنعين بمسؤولية العرب والمسلمين عنها، كما بدا الغزو الفكري الأخطر في إقناع العرب بأن مقاومة الاحتلال إرهاب عليهم أن يدينوه وأن يتبرؤوا منه، بل أن يشاركوا في الحرب ضد أبنائهم المقاومين، وأن يكفوا عن المطالبة بمؤتمر دولي لتعريف الإرهاب، على رغم أن كل شعوب الأرض تفرق بين المقاومة والإرهاب وتعتز بمقاومتها للاحتلال. وكان من الغزو الفكري البشع الذي عرفناه منذ مطلع القرن العشرين ورأيناه يعود اليوم هذه الدعوات المستجدة إلى إلغاء الهوية العربية والإسلامية في بلاد العرب والمسلمين، بدعوى أن مقومات العروبة وهم، وأن الإسلام ثقافة تاريخية، لا تشكل رابطاً للأمة، وليس بوسعنا أن نفهم دعاوى إحياء القوميات الإثنية والقطرية والنزاعات الطائفية، والدعوة إلى أحزاب تدعو إلى إحياء الهيروغليفية وما يماثلها بديلاً عن العربية، بمعزل عن مستلزمات تمرير المشروع الصهيوني.

لقد كنا نحلم بفضاء عالمي تتسع فيه الرؤية فإذا بنا نقع في أوحال حفر مليئة بالمتفجرات تنذرنا بتفكك مخيف إن لم نحذر ونستعد لمواجهة ثقافية جادة، ولقد قلت في العنوان إن الغزو الفكري أخطر من الغزو العسكري لأن الفكر ينسل بصمت ودون ضجيج ويتسرب إلى العقول القاصرة وإلى النفوس الضعيفة المريضة. فأما الغزو العسكري فهو ذو دوي وجلجلة، وهو على فداحته وقدراته التدميرية المادية يستنهض الهمم والقوى المعنوية، ويقوي العزائم، وما يحدث في العراق اليوم دليل ناصع على أن الضارة صارت نافعة، فقد كان الغزو الفكري يمزق المجتمع إلى إثنيات مستعدة للصدام، فلما جاء الاحتلال العسكري استيقظت المناعة الثقافية التاريخية، وأثبت شعب العراق كما أثبت شعب فلسطين أن المحن الكبيرة هي الرحم الذي يحقق الولادة الجديدة للأمة.

٢٠٠٣/١١/٢٨

الثابتان: العروبة والإسلام

كثيراً ما نتحدث عن الثوابت العربية دون تحديد واضح للدلالة الفكرية والسياسية للمصطلح، فما المقصود بالثوابت، أثمة اتفاق بين الدول العربية على توصيف مشترك لها أم أن ما هو من الثوابت في قطر ما، هو متحول وقابل للتغيير في قطر آخر؟

لقد أطلق العرب في القرن العشرين جملة من الشعارات والمبادىء والنظريات التي بدت من الثوابت في بعض الأقطار، مثل الاشتراكية والعلمانية والجماهيرية والديمقراطية الشعبية والكفاح المسلح، بينما وجدت أقطار أخرى ثوابت مختلفة تعلي شأن قيم دينية أو تاريخية أو ليبرالية أو رأسمالية، لكن العرب اتفقوا في الظاهر على ثابت واحد يتجاوز اختلافاتهم، وهو قضية فلسطين، وقد سمتها الأدبيات العربية القضية المركزية أو المحورية، حتى باتت القضية ليست بحاجة إلى توصيف. وكانت الدول العربية تقيم علاقاتها مع دول العالم بحسب موقفها من القضية، مما جعل دولاً مهمة في العالم تحجم عن الاعتراف بإسرائيل لأنه سيعني خسارة فورية لعلاقاتها مع العرب، ولكن هذه الثوابت (ولاسيما التي أطلقتها قمة الخرطوم بلاءاتها الشهيرة) سرعان ما تعرضت لاهتزازات عنيفة وبدت قابلة للتغيير الذي تفرضه الضرورات (التي تبيح المحظورات) مما يدعو إلى تأمل نظرية الثوابت جملة، وفحصها على ضوء المتغيرات الراهنة التي تكاد تطيح بثوابت العالم كله. ويكمن الخطر الأكبر على الأمة في أن يتعرض الثابتان الرئيسان فيها إلى اهتزاز، وهما العروبة والإسلام، وقد تصاعدت محاولات هدمهما.

ويقتضي الإيمان بثابت الانتماء إلى العروبة محافظة على جوهرها اللغوي الحضاري، وهو ما سعت إليه حركات القومية العربية منذ أواسط القرن التاسع عشر حين أفاق العرب على حقيقة كونهم خرجوا من التاريخ منذ أن سقطت بغداد على يد المغول، وسقوط بغداد الراهن يدعو العرب إلى تأمل ما حدث في التاريخ، لقد مهد لذاك السقوط عاملان داخلي وخارجي، فأما العامل الداخلي فهو الضعف الذي تسلل إلى العرش العربي الحاكم منذ أواخر المرحلة الثانية من العهد العباسي، مع تنامي وتصاعد حركة القوميات غير العربية (وهو ما عرف بالشعوبية) التي نشطت لاسترداد حضورها القومي والعرقي.

وأما العامل الخارجي فهو تحالف معاد للأمة العربية والإسلامية معاً، في اجتياح من الشرق والغرب يهدف إلى القضاء على الإسلام .والمفارقة أن العامل الخارجي أسقط فاعلية العامل الداخلي، وحوله من عنصر ضعف إلى عنصر قوة، حين اضطر العرب إلى التنازل عن ثابت العروبة لصالح ثابت الإسلام بوصفه الجامع للقوميات والإثنيات التي كانت تتصارع

داخله، وأحسب أنه لم يغب عن بال العرب أن التخلي عن ثابت العروبة سيخرجهم من التاريخ قروناً طويلة، ولكنهم قالوا قديماً (مكره أخاك لا بطل) وقد خرجوا من التاريخ حقاً بوصفهم عرباً بهدف أن يعودوا إليه بوصفهم مسلمين، وهكذا تمكن صلاح الدين (الأيوبي الكردي القومية) من أن يجمع قوى الأمة وأن يحقق النصر الكبير في معركة حطين وحين انهارت الدولة الأيوبية، توالى على الحكم قادة من جنسيات مختلفة، حتى اعتلت عرش مصر امرأة جارية مملوكة يقال إنها من البلقان، لم تكن تعرف حتى اسمها الحقيقي، فقد اشتهرت بلقبها (شجرة الدر) وكانت حكيمة وقوية واستطاعت أن تحارب الصليبيين، ولكن حظها العاثر أوصلها إلى نهاية مأسوية، وتوالت الانهيارات حتى قادت إلى عرش السلطة الفارغ في مصر شاباً (يقال إن أصله من خوارزم) هو المظفر قطز، الذي حقق النصر في عين جالوت، وقد قتله شريكه في النصر الظاهر بيبرس (الذي يقال إن أصله من روسيا). أعاد الظاهر بناء الدولة، ولكنه شعر بالحرج لغياب الشرعية العربية، فأقام رمزاً للخلافة العربية في بغداد،حين استقدم رجلاً من سلالة العباسيين هو (أبو العباس أحمد) وسماه الحاكم بأمر الله، وقد اكتفى الحاكم العربي بأن يدعى له على المنابر.

ولم يجد العرب أي حرج في التغني ببطولات يوسف بن تاشفين ونور الدين وصلاح الدين وشجرة الدر وقطز وبيبرس وسواهم من كبار القادة المسلمين الذين تحتفى بهم الذاكرة العربية، لأن الإسلام موحد, ولأن العرب كانوا عدة الجيوش المقاتلة مع القوميات التي تدين بدين العرب. ولكن العرب شعروا بالحرج حين وصل الأمر إلى مماليك مماليكهم الذين تحالف بعضهم مع المغول، وبعضهم مع الصليبيين، ثم دخل العرب الغيبوبة الكبرى بعد أن سقطت دولة المماليك لتنهض دولة العثمانيين الذين أقاموا دولة الإسلام، ولكنهم أدخلوا العروبة في غياهب النسيان.

ولولا أن الدولة العثمانية انهارت أواخر القرن التاسع عشر لما حظي العرب بفرصة العودة إلى التاريخ، وحين واتتهم الفرصة بدأوا يستعيدون الذاكرة التي بقيت قوية بفضل القرآن الكريم الذي حفظ اللغة، وبدأوا يبحثون عن حق تاريخي بوجودهم كأمة تكونت قبل الإسلام، وكان لها حضورها الذي أهلها لأن يختارها الله لحمل رسالته الأخيرة إلى البشر.

ولم يكن البحث عن الرابط القومي ترفاً فكرياً، وإنما كان حاجة سياسية ماسة لإيجاد عقد اجتماعي بين المنتمين إلى العروبة يشكل أول الثوابت التي لا تقبل التغير أو التحول، وهم في هذه الدعوة القومية يعيدون للمسيحية العربية حقها التاريخي في الكينونة العربية. ولسوء الحظ، وربما لسبب من ضيق الأفق الاستراتيجي العام، أو لخوف من تكرار تجربة الضياع القومي

والانصياع تحت رايات الأمم الأخرى لمجرد كونها مسلمة، فقد حدث فصام وسوء فهم بين الثابت العربي، والثابت الإسلامي، الذي دعا إلى جامعة إسلامية بدل الجامعة العربية، فكان الشقاق النكد بين المشروعين العروبي والإسلامي، وأعتقد أن هذا الفصام المفتعل هو الذي جر على الأمة الكثير من البلاء، وأوصلها إلى الإخفاق والفشل.

لقد أراد دعاة المشروع القومي أن يعيدوا للعروبة حضورها بوصفها أمة متكونة قبل الإسلام، ولم يقللوا من شأن الإسلام في منحها البعد الحضاري، وفي كونه رسالتها الخالدة التي منحتها امتيازاً تاريخياً بين الشعوب والأمم، ولكن التجربة التاريخية في إعطاء الانتماء إلى الإسلام الأولوية التي جعلت قوميات وأمماً أخرى غير العرب تستلم السلطة بمشروعية دينية، جعلتهم يحذرون، كما أن حرصهم على أن تجد المسيحية العربية وعاء لانتمائها العروبي خارج الدين دعاهم إلى اعتبار الإسلام عاملاً مهماً من عوامل المشترك القومي، ولكنهم لم يجعلوه المؤسس الصرف، ولنا أن نذكر هنا أن بعض المنظرين الكبار لفكرة القومية العربية كانوا من المسيحيين العرب، وكانوا يعلنون انتماء إلى الإسلام حضارياً.

وعلى الجانب الآخر قلل دعاة الجامعة الإسلامية من شأن الانتماء القومي، بل اعتبر بعضهم القومية مناقضة للإسلام الذي وحد وآخى بين المسلمين، وألغى الفوارق العرقية والإثنية لصالح مفهوم الأمة الإسلامية، وحجتهم كذلك أن الدعوة القومية تثير هاجس الأقليات وتحرضها على البحث عن كينونات مستقلة، كما أن الأمم المسلمة ستعتبر الدعوة إلى القومية العربية انسحاباً من المكانة التاريخية التي أعطاها الإسلام للعرب في أمة الإسلام، وأحسب أن هذا الطموح الأممي غير قابل للتطبيق العملي.

ولم يكن التنظير القومي في منتصف القرن العشرين معنياً باستيعاب البعد الإسلامي في الفكر القومي، بل لقد بدا أميل إلى الماركسية مما جعل الهوة تتسع بينه وبين الفكرة الإسلامية, كما أنه انشغل بالسياسة والحكم أكثر مما انشغل بالنظرية، وكذلك لم يقدم للقوميات والإثنيات التي شاركت العرب تجربتهم الحضارية ما يطمئنها على صعيد عملي إلى أن القومية العربية هي اللسان ثقافة وتاريخاً، وهي إرادة عيش مشترك، وليست شوفينية أو عرقية, بل هي وعاء حضاري يتيح لكل القوميات أن تحقق حضورها الخاص في داخله، وتضيف للقومية العربية الغنى والتعددية التي نهضت بها حضارتها، كما أن الجموح العاطفي سيطر في الستينيات على الفكر القومي الوحدوي إلى حد أوشكت معه القومية أن تصير في مواجهة القطرية، وهذا ما دعا كثيرين من العرب أنفسهم إلى التمسك بمفهوم القطر والإقليم، وسمى بعضهم نفسه أمة .

كما أن الدعوة إلى الجامعة الإسلامية لم تتمكن من إعطاء الفكرة القومية تلك المكانة التي يبحث عنها العرب الذين يتوقون إلى العودة القوية إلى التاريخ بعد قرون من الانزواء والتبعية، وقد وقعت هذه الدعوة في إطار البحث عن السلطة الدينية الضائعة منذ قرون، وبدل أن تشتغل على ربط الإسلام بالإنسان وبالحياة المعاصرة، ركزت جهدها على ربط الدين بالدولة، فوقعت في خصام مع كل الدول.

وقد لقي الثابتان العربي والإسلامي معاً إنكاراً ومقاومة منذ أن بدأت دعوتهما بالصعود في مطالع القرن العشرين، حين أطلقت بعض الجماعات دعوة إلى تاريخ ما قبل العروبة والإسلام، وكان هدف هذه الردة تحرير البلاد مما سموه الاستعمار العربي الإسلامي، ولابد من الانتباه إلى تزامن انطلاق هذه الدعوات مع دعوة الصهيونية لإقامة دولة أرض المعاد.

وعلى الرغم من أن دولاً عربية عدة لم تعلن أياً من الفكرتين القومية أو الإسلامية مشروعاً لها، إلا أن الخلاف بين الفكرتين قد أصابها في التوصيف الذي كان سائداً كذلك مابين تقدمي ورجعي، ولكن هذا التوصيف لم يرمز قط إلى الثوابت، فقد تحالف العرب جميعاً في حرب أكتوبر التي عبرت عن حضور ثوابت الأمة بشكل أخاف أعداءها الذين قرروا من السبعينيات ألا يتكرر يوم مشابه ثانية في حياة العرب، وبدؤوا يخططون لاحتلال مباشر لها، كشفت عنه الوثائق التي ظهرت مؤخراً، وفضحت كون الحرب على العراق وإعادة تشكيل الشرق الأوسط لصالح إسرائيل مشروعا قديما كان من نتائج حرب أكتوبر, التي أكدت أن العرب أمة، وأن التوصيفات السياسية تعكس خلافات سطحية، وليست من الثوابت في شيء، وقد كان للخليج العربي دور لا ينسى في حرب أكتوبر، وقد قامت القوى المعادية للأمة باختراق المشروع القومي عبر صدام حسين مثلما قامت باختراق المشروع الإسلامي عبر ابن لادن، وأعتقد أن الخطر الفعلي الذي يواجه الأمة اليوم هو ما يتجه إلى الثابتين, ولا سبيل للحفاظ عليهما معاً، إلا في انفتاحهما على التعددية الديمقراطية العادلة التي تضمن التعايش للجميع، وتتيح لكل القوميات والديانات أن تجد حقها في الحضور والتعبير.

٢٠٠٤/١/٢٣

لماذا تهرب إسرائيل من السلام؟

ثمة اعتقاد قوي لدى المواطن السوري بأن إسرائيل لا تريد السلام مع سوريا، وأن حديثها عن الانسحاب من الجولان ليس جاداً. فلو كانت تريد السلام لتمكنت من تحقيقه في عهد الرئيس الراحل حافظ الأسد الذي لبى دعوة الولايات المتحدة إلى مؤتمر مدريد على مبدأ شهير هو (الأرض مقابل السلام)، وحدد للسلام صفتين فقط، هما أن يكون شاملاً وعادلاً.لقد رغبت سوريا أن يكون الطرف العربي كتلة واحدة تضم سوريا ولبنان والأردن وفلسطين كي لا نصل إلى هذا التمزق والضعف، ولكن لم يسمح الأميركان بتحقيق الشمولية، وأصر الإسرائيليون على أن يأخذوا العرب فرادى، بل تمت تجزئة الوفد الفلسطيني ذاته إلى وفدين، وبعد سلسلة من المفاوضات السورية الإسرائيلية الشاقة تعهد رابين بإعادة الجولان كاملاً إلى سوريا .واحتفظ كلينتون بهذا التعهد. لكن رابين قتل، ربما لأنه بدا للمتطرفين اليهود جاداً .ويبدو أن بيريز خاف أن يلقى مصير رابين فسارع إلى إنجاز مجزرة (قانا) في جنوب لبنان لكي يؤكد لليهود المتشددين بأنه أكثر منهم تشدداً. وحين جاء نتنياهو في مايو ١٩٩٦ مملوءاً بالغرور والغطرسة، أعلن أنه يرفض مبدأ مدريد الأرض مقابل السلام (على رغم أنه كان الناطق الرسمي لوفد إسرائيل في مؤتمر مدريد) وقد طرح الأمن مقابل السلام، وكان مستشاروه (وهم مجموعة من الصهاينة المتطرفين الذين انتقل بعضهم إلى وزارة الدفاع الأميركية في عهد الرئيس بوش الابن) يريدون نسف عملية السلام كلها، وإجبار العرب على استسلام كامل دون إعادة شيء من حقوقهم. وأعتقد أنهم منذ ذاك الوقت، كانوا يعدون لعمل كبير يقلب الموازين، وكان الرئيس كلينتون بصدد إصدار اقتراح بانسحاب إسرائيل من الضفة، ومتابعة تنفيذ أوسلو حين فاجأه نتنياهو بالرفض. ولكي يريه مَنْ الأقوى في الولايات المتحدة رئيسها أم رئيس وزراء إسرائيل؟ استعرض نتنياهو مكانته في الكونغرس وفي لجنة (إيباك) وسط تصفيق غير مسبوق، وهدد بإحراق واشنطن، وتم تنفيذ الحريق بفستان مونيكا الأزرق، وبمحاسبة هيلاري على كلمات قالتها قبل سنين شتمت فيها يهودياً. ولكن الأميركيين تعاطفوا مع رئيسهم، وقرفوا من قذارة اللعبة الإسرائيلية، وسقط نتنياهو الذي أرجع علاقة إسرائيل مع من صادقها من العرب (من دعاة التطبيع المجاني) إلى نقطة الصفر وقد سمته الصحافة المصرية (نتن ياهو).

وجاء باراك واستبشر الكثيرون خيراً، وأرسل باراك وسطاء يدعو سوريا كي تعود إلى المفاوضات، وعادت المفاوضات في مطلع عام ٢٠٠٠ في شبيرزتاون، ولكن باراك أنكر تعهد رابين بانسحاب كامل من الجولان ثم اعترف. وكان كلينتون الذي كسب مودة الأسد على صعيد

شخصي، قد خشي على نفسه من الصهيونية فجدد ولاءه لإسرائيل، وأكد التزام أميركا بكل ما تطلبه، ولهذا فإنه لم يستخدم نفوذه وموقعه كحكم وراع لعملية السلام. وأعتقد أن الرئيس الأسد لبى دعوته إلى جنيف في مارس ٢٠٠٠ لسببين، أولهما جدية الرئيس الأسد الراحل في السعي إلى السلام. وثانيهما الاحترام المتبادل والمودة الشخصية التي نشأت بينه وبين الرئيس كلينتون الذي قال له إن لديه شيئاً جديداً. وكان الجديد طلباً بالتنازل عن جزء مهم وحيوي من الجولان على شاطىء طبريا. وكان طبيعياً أن يرفض الرئيس الراحل أن يتنازل عن شبر من حق شعبه، وهو يعتبر الأمر قضية شرف وكرامة ومسؤولية أمام الأجيال، بالإضافة إلى أن ما يطالب به الرئيس الأسد هو ما أقرته الشرعية الدولية في قرارات مجلس الأمن الشهيرة. وهكذا أوقفت إسرائيل عملية السلام على المسار السوري بتعنتها وإصرارها على اغتصاب ما ليس من حقها، بعد أن أنجز من العملية ما يشكل ثمانين في المئة. وسرعان ما توقفت العملية أيضاً على المسار الفلسطيني حين انفجرت قنبلة الحل النهائي بصاعق لاءات باراك، التي لم يستطع الرئيس عرفات أن يقبل بها. ولم يعد أمام الصهيونية الباحثة عن استسلام وإذعان عربي شامل، غير أن تغير الوقائع الإقليمية والدولية، بدءاً من زيارة شارون السيئة الذكر إلى المسجد الأقصى، ومروراً بالحدث التاريخي المهم في ١١ سبتمبر، ووصولاً إلى توريط الولايات المتحدة في حروب بالنيابة عنها بدأت في أفغانستان، وبلغت ذروتها في العراق، وهي تهدد بتغيير خريطة الشرق الأوسط كله. ولم يغب عن أحد في العالم أن المستفيد الوحيد مما تورطت فيه الولايات المتحدة هو إسرائيل.

ولقد بدأ شارون باستغلال الوضع الدولي وبهدم كل شيء أنجزته مباحثات السلام الماضية من أوسلو إلى وادي عربة بل كاد يصل إلى اتفاقية كامب ديفيد حين تحدث ضباطه عن إمكانية أن يقوموا بهدم السد العالي، بل أن يقصفوا مكة، وقد حاول العرب احتواء الموقف المتدهور فقدموا عرضاً تاريخياً للسلام في قمة بيروت، وكان رد شارون اجتياحاً مدمراً للبقية الباقية من فلسطين وإمعاناً في تدمير وسحق الشعب الفلسطيني كما فعل في جنين.

هذا بعض ما جعل المواطن السوري يفقد ثقته بجدية إسرائيل. وبدل أن يعزز راعي السلام آمال أنصار السلام، زاد الأمر سوءاً حين وضعت الولايات المتحدة نفسها في موقع الخصم، وبدأت بالضغط على سوريا وتوالت تهديداتها لها، ووصل الأمر إلى فرض عقوبات.

لقد قال لي أحد أصدقائي الديبلوماسيين الغربيين: لماذا لم تقبل سوريا بما عرض باراك بدل إضاعة الفرصة التي قد لا تتكرر من أجل خمسمائة متر على الشاطئ الشمالي الشرقي لبحيرة طبريا؟ أما كان بالإمكان تعويضها من خلال تغيير خطوط الحدود المرسومة من قبل

بريطانيا وفرنسا في ١٩٢٣/٣/٧ ومن خلال عودة الحمّة وترتيب معــابر تســمح للســوريين بالوصول إلى البحيرة؟ قلت أولاً هذه أرضنا، وليس من حقنا أمام أنفســنا وأمــام الأجيــال أن نتنازل عن شيء منها مهما صغر، فإن أخذت عنوة ولم يتمكن جيلنا من استعادتها، فلا يمــوت حق وراءه مطالب، أما ترى الفلسطينيين بعد نصف قرن من التشرد والضياع جــاء أطفــالهم يحرمون إسرائيل من النوم؟ ثم إن المشكلة لا تكمن في هذه المسافة على الشاطئ من حيث البعد الجغرافي والاستراتيجي الذي يتيح لسوريا حقها بمياهها فحسب، فالمشكلة كذلك أن شعبنا كله لا يثق بجدية إسرائيل حين تتحدث عن السلام، وكيف سيقتنع الناس بأنها جــادة وهــم يســمعون تصريح نتنياهو بأنه لا انسحاب من الجولان مقابل السلام، وأن على سوريا أن تتنــازل لأنهــا تحتاج للسلام مع إسرائيل كحاجتها إلى الهواء، كما أن الشرط الذي يضــعه شــارون بعــودة المفاوضات إلى نقطة الصفر هو ما بيته القادة الإسرائيليون منذ يوم قتل رابين، أضف إلى ذلك حمى توسيع الاستيطان الذي يتم الآن في الجولان؟أما يشير ذلك كله إلى أن إسرائيل غير جادة؟

أما دعوة رئيس إسرائيل للرئيس بشار لزيارة استعراضية فهي لعب على المكشوف . لقد أحرجتهم دعوة الرئيس الأسد للعودة إلى المفاوضات، فردوا الإحراج بدعوته إلى لقاء يتم فيــه التقاط الصور التاريخية التذكارية لتصير ملهاة إعلامية، وإن كان بعض قادة إسرائيل يراهنون على خوف سوريا من تدخل أميركي عسكري يهدم الشام، ويفرض الاستسلام. فالشعب السوري ليس أقل شجاعة وكفاءة ومروءة من أشقائه اللبنانيين الذين دحروا إسرائيل من بيروت ثم مــن الجنوب، ومن الفلسطينيين الذين على ضعفهم يردون لها الرعب رعبين، ثم انظر إلى العراقيين الذين جعلوا بوش يندم على قراره بغزو العراق. ولا أعتقد أن إسرائيل يمكن أن تتورط وتقترب من حدود سوريا. فشعبنا يقول (دخول الحمام ليس كالخروج منه) صحيح أننا محاصرون بقوى قادرة على التدمير، وأننا قد نخسر الكثير. ولكن السؤال الذي سيطرحه شعبنا إن تعرض لعدوان لا سمح الله هو نكون أو لا نكون! وحقيقة لا أعتقد أن الأميركان سيقدمون على تكرار ما فعلوه في العراق، وإن تورط الإسرائيليون وقاموا بالعدوان، فإنهم إذن سيحولون المنطقة كلهــا مــن العراق إلى السعودية إلى اليمن إلى مصر والسودان، إلى جحيم يحرق إسرائيل قبــل أن يلســع العرب. فحين تعم الفوضى فإنها تطيح بصانعيها قبل غيرهم والمعضلة الصعبة التــي تواجــه إسرائيل الآن هي أنها تخاف من السلام، لأنه سيفقدها تميزها العسكري فــي المنطقــة، وهــي تفضل أن يكرهها العرب على أن يحبوها. تصور ما الذي يمكن أن يحدث لو أن العرب أحبوا إسرائيل وسامحوها، وسمحوا لها بالاندماج في محيطهم العربي والإسلامي، في إطار ديمقراطي كالذي وعد به الرئيس بوش .ماذا ستفعل إسرائيل إذاك وهي التي تبني جدار فصل عنصــري

كي لا تختلط بالفلسطينيين فكيف إذا سقطت الجدران بينها وبين سوريا والأردن ولبنان ومصر والسعودية ودول الخليج وباقي الدول العربية؟ لقد تراجع بيريز عن دعوته إلى شرق أوسطية وقال إن انسحاب إسرائيل إلى خطوط ٦٧ يعني انتحارها· والمشكلة ليست في الأرض فقط، وإنما في المحيط الذي تخشى أن يبتلعها ديمقراطياً وديموغرافياً حتى لو تزعمته عسكرياً واقتصادياً، فهي غريبة وسط أشقاء عرب ومسلمين، ومأساتها التراجيدية أنها لن تستطيع الاستمرار في البقاء الآمن بدون سلام، ومأساتها الكبرى هي أن قوتها مستوردة من الولايات المتحدة، وليست نابعة من ذاتها، وأي اهتزاز في موازين القوى الدولية أو تغير نوعي في الولايات المتحدة سيجعل زعامتها موضع شك، ولا سيما بعد تنامي العداء لها حتى في أوروبا، وعقلاء إسرائيل يدركون ذلك، وقد تحدثوا بقلق عن نهاية الصهيونية، وهم موقنون بأن سلاماً عادلاً ومنصفاً مع العرب أفضل من استسلام عربي مرحلي وكاذب ·وتجربة اليهود في السلام مع العرب والمسلمين عبر التاريخ تطمئن عقلاء إسرائيل إلى صدق مواثيق العرب والمسلمين، فهم وحدهم من قدم الأمن والطمأنينة لليهود حين كانوا يُذبحون ويُحرقون، ولكن الإسرائيليين عضوا اليد التي قدمت لهم الأمان·

٢٠٠٤/٢/٦

قناة «الحرة» والتجربة المرة

منذ الساعة الأولى لانطلاق قناة الحرة الأميركية انطلقت حملة عربية إعلامية مضادة لها، وحكم الكثيرون على بضاعتها بأنها فاسدة حتى قبل أن يروا البضاعة، وقد جعلهم أسلوب الترويج للقناة يزدادون نفوراً. فقد وصفت بأنها (قناة ردع) للقنوات العربية، مما يوحي بأنها عدوانية تجاه الإعلام العربي، ومهمتها الحد من نفوذه والتشويش على رسالته. كما أن مهمتها تحسين صورة أميركا عبر الدعاية، وليس عبر الفعل السياسي. وقد قيل إنها ستقدم التصور الأميركي للأحداث. وقيل إن من مهامها تغيير سلوك الحاكم العربي، وسلوك الشعب العربي كذلك .ولم يكن الكثيرون بحاجة إلى كل هذا التوصيف لاتخاذ موقف مسبق. فهناك حالة متنامية من الكراهية للسياسة الأميركية ليس في البلدان العربية والإسلامية فحسب وإنما في العالم كله. بل حتى داخل الولايات المتحدة ذاتها. والإدارة الأميركية تدرك خطر تنامي هذه المشاعر المعادية لسياساتها، وهذا ما يدفعها إلى تخصيص ملايين الدولارات لتحسين صورتها في عيون العرب، أولاً عبر قناة تلفزيونية اعتبرتها الإدارة الأميركية أكبر مشروع إعلامي دولي غير تجاري تدعمه الولايات المتحدة. وقد كان السؤال المباشر الذي وجهه العرب: هل ستكون هذه القناة حرة حقاً؟

ذاك أن غالبية العرب يعتقدون أن الإعلام الأميركي خاضع في أكثره لنفوذ صهيوني متطرف ينطلق من معاداة العرب والإسلام، ويرون أنه غير معني حقيقة بتحسين صورة أميركا أو تشويهها، لأن مهمته الأساسية هي تحقيق اختراق لمنظومة القيم والمفاهيم والتقاليد العربية الإسلامية، ونشر أسلوب حياة وعيش ونظم اجتماعية على الطريقة الغربية، وهذا ما يفسر الاهتمام بالموسيقى والغناء في بعض المحطات الإذاعية الأميركية الموجهة للعالم العربي أكثر من الاهتمام بالسياسة. لأن الموسيقى والغناء أقدر على النفاذ إلى الوجدان العام، بالإضافة إلى الندوات والحوارات التي تسعى إلى ترسيخ مفاهيم غربية احتفالية أو نشر قيم اجتماعية تركز على إشباع العواطف والرغبات المكبوتة وتجعل من مناقشة قضايا الحب والجنس وحقوق المثليين أولوية سابقة على الاهتمام بقضية فلسطين والعراق وحقوق اللاجئين والأراضي العربية المحتلة... وتجعل الحديث عن حرية المرأة أولى من الحديث عن حرية الوطن. وحين تتحدث عن السياسة فإنها تثير حقوق الأقليات وتهمل حقوق الأكثريات، في تجاهل لكون الجميع أقلية وأكثرية يعانون من الظروف القاسية التي يفرضها العدوان الخارجي على الأمة. وهي بالطبع تغفل الحديث عن العدوان أصلاً، وتتعامل مع الوجود الأجنبي على الأرض العربية على أنه

رسالة رسولية تنقذ الأمة من الظلم والاستبداد. ومهمتها نشر الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية، في إغفال مطلق لدور التدخل الأجنبي في دعم وتعزيز نظم الاستبداد، ومنع قوى التحرر الوطني من تحقيق تقدم ذاتي بإرادة مستقلة. وهي بالتالي تصف الإسلام بأنه دين يقدس العنف، وتصف المقاومة للاحتلال بأنها إرهاب .

ولست على صعيد شخصي ممن يخشون ظهور قناة أو قنوات أميركية تتوجه إلى مشاهدنا العربي فيما إذا كانت حرة حقاً، ولا سيما إذا أخلصت لبعض ما تعلن من شعارات مثل تحقيق أكبر درجة ممكنة من الفهم الحضاري والاحترام المتبادل، ومثل قولها إنها ستكون مثالاً للصحافة الحرة على الطريقة الأميركية، وقولها إنها ستلتزم بنشر الحقيقة، وسوف تبرز كشعاع نور في ساحة إعلامية تسودها الإثارة والتشويه. فهذه شعارات مقبولة شكلاً، إذا كانت قادرة على أن تعبر عن كل اتجاهات الرأي في الولايات المتحدة، دون أن تظهر قناة دعائية للمشروع الصهيوني وأنصاره، ودون أن تكون مهمتها تبريرية لأخطاء الإدارة الأميركية في التعامل مع قضايا العرب والمسلمين. فنحن لا نكن للشعب الأميركي وثقافته أية كراهية، ولا شأن لنا بأسلوبه في العيش والتفكير. بل إن العرب كانوا يرسلون أبناءهم بالألوف إلى الولايات المتحدة ليتعلموا، ويجلبوا لأمتهم أفضل ما لدى الحضارة الأميركية من علوم وثقافة وفنون، وقد أحزننا أن المعاملة السيئة التي لقيها أبناؤنا في الولايات المتحدة بعد ١١ سبتمبر جعلت كثيرين من الآباء يخافون على أبنائهم ويفكرون بإيفادهم إلى بلدان أخرى، وهذا ما سيشكل سلبية مستقبلية على العلاقات بين العرب والولايات المتحدة بعد عقود. ولم تكن الثقافة الأميركية غائبة يوماً عن حياتنا العربية. فنحن نشاهد ما تنتج هوليود منذ طفولتنا، وقد شاهدنا الكثير من الأفلام الصهيونية التي تسيء إلى العرب وإلى الإسلام، وكنا نغضب ونقول إن الشعب الأميركي الطيب مغلوب على أمره، فالمبدعون الصهاينة قدموا في الغرب عشرات الأفلام التي تسيء إلى السيد المسيح (عليه السلام) في عقر دار المسيحية الغربية، فمن باب أولى أن يسيئوا إلى النبي المصطفى (عليه الصلاة والسلام).

لكن المحصلة العامة لجهد مئة عام من الحملات الإعلامية ضد العروبة والإسلام كانت خائبة ومخفقة من وجهة نظر الصهيونية .لم تفلح في تغيير شيء من ثوابت الأمة بدليل أن الأجيال الشابة ازدادت تعلقاً بثوابتها القومية والإسلامية وهي التي تقود حركات المقاومة اليوم. وبوسعنا أن نستقرئ تجربة الإذاعة البريطانية التي استمرت عقوداً وحظيت بمتابعة من شرائح متفاوتة عربياً، لنجد أن هذه القناة اكتشفت بذكاء إنجليزي أنها لن تحظى بمستمعين عرب، إلا إذا اقتربت إليهم عبر ثقافتهم وثوابتهم، ولذلك تحولت إذاعة لندن بالعربية إلى منارة ثقافية

يتابعها العرب مع كامل الحذر من أخبارها السياسية. وأما إذاعات إسرائيل وقنواتها الموجهة للعرب وخاصة في لبنان وفلسطين فقد ساهمت من حيث لا تريد في تعزيز الدعم الشعبي للمقاومة لأنها كانت منفرة، وقد استخدمت كلمة المخربين وصفاً للفدائيين العرب الذين كانوا في ازدياد غير معنيين بما تصفهم به إسرائيل. ولم تكن إذاعة "صوت أميركا" غائبة عن الساحة العربية الإعلامية ولكنها في المحصلة لم تفعل كذلك شيئاً ذا بال يخدم السياسة الأميركية. وقد اضطرت لكي تكسب المستمع إلى أن تتقرب إليه عبر ثقافته، وهذا ما ستفعله لاحقاً الإذاعة البديلة "سوا" لتكسب المستمع.

والمهم أن تجارب الإعلام الصهيوني كانت مُرة وخائبة جداً، وغير قادرة على تحقيق أي اختراق للثوابت، فالعرب والمسلمون ليسوا أمة بلهاء تقاد بأغنية أو فيديو كليب أو فيلم سينمائي، وهذا لا يعني أنني أقلل من خطر تأثير وسائل الإعلام على تكوين اتجاهات الرأي والسلوكيات، فهذا يحدث ولكنه على الغالب لا يمس الجوهر والثوابت إلا لدى قلة ممن لن نشعر بخسارتهم إذا خسرناهم، ولن نحسد الصهاينة إذا كسبوهم. فهم نماذج من الإمعات المتحللين من المبادئ والقيم، وهم عبء على الأمة وليسوا طاقات فاعلة، فأما الشباب القادرون على نفع أمتهم فكثيرون منهم عاشوا في الغرب عقوداً، ومع ذلك تراهم متمسكين بهويتهم وبحقوق أمتهم وثوابتها.

إننا لا نخاف من الإعلام الغربي عامة، لأننا لا ننكر أن فيه إعلاماً منصفاً وقد استشهد إعلاميون غربيون كثر في العراق وفي فلسطين ممن كانوا يدافعون عن قضايانا. ولا ننكر أن في الإعلام الأميركي شرفاء كثيرين عارضوا سياسة الإدارة الأميركية في الحرب الوقائية التي قتلت آلاف الأبرياء في أفغانستان وفي العراق. وهناك إعلاميون أميركيون انتقدوا مديح الرئيس بوش لشارون بل سخروا من وصفه له بأنه "رجل سلام ."وهناك إعلاميون يهود يفضحون اليوم الأكاذيب الأميركية حول أسلحة الدمار الشامل في العراق، وينتقدون السياسة الإسرائيلية ذاتها، بل إن جورج سوروس ينتقد تحول ضحايا المحرقة من اليهود إلى معتدين. وهناك في الولايات المتحدة من سارع لانتقاد قناة الحرة قبل العرب. فقد قرأت العديد من المقالات التي تسخر من تسميتها حرة. وقال جون كاماو إن بعض القنوات العربية المستقلة أقل تلاعباً بالخبر من صحيفة "النيويورك تايمز" ومن قناة "فوكس"، وقال إن أميركا تفشل مرة أخرى في التعامل مع الأسباب الحقيقية الكامنة وراء نزعة العداء العالمي لأميركا وبخاصة في قضايا العنصرية والإمبريالية. وقال إن العرب يعتبرون القيم الأميركية التي ستبشر بها القناة قيماً منحلّة وغير أخلاقية، وستظل المشاعر سلبية إن وجدت الحرة أو لم توجد. ولعلي شخصياً أقل حدة من جون

في موقفه، فلست أرى أن المشاعر ستبقى سلبية بالضرورة. فما تزال أمام الولايات المتحدة فرص كبيرة لتحسين صورتها إن كانت تريد ذلك حقاً، وأول ما بوسعها أن تفعله هو أن تغلق قناة الحرة وأن تنفق ميزانيتها التي تفوق الستين مليون دولار على بناء منازل للفلسطينيين الذين هدمت إسرائيل بيوتهم مؤخراً وباتوا يعيشون في العراء. فعمل من هذا النوع يحقق مصداقية لا تحققها البرامج التلفزيونية مهما كان المتحدثون فيها بارعين، فما بالكم إذا أعلن الرئيس بوش أنه لن ينهي ولايته حتى يحقق ما وعد به أبوه العرب في مدريد، وأنه لن يغادر البيت الأبيض حتى يتحقق سلام عادل وشامل في الشرق الأوسط، وأنه يريد أن تذكر له البشرية عملاً ضخماً يكفر فيه عن كل أخطائه السابقة وهو إنهاء الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية جميعاً، والانسحاب من العراق وتمكين الشعب العراقي من حكم نفسه بنفسه مع الحفاظ على وحدته، وإجبار إسرائيل على التخلي عن ترسانتها من أسلحة الدمار الشامل، وعلى هدم جدار الفصل العنصري الذي يدينه العالم كله ويتقزز منه. ولا يفوت الرئيس بوش أنه لو فعل ذلك لأصاب كل ما يعلن من أهداف وأولها إنهاء ما يسميه إرهاباً وما نسميه نحن مقاومة، لأن إنهاء الاحتلال وعودة الحقوق للعرب ستنهي حالة المقاومة بالضرورة، وستجعل العرب يبحثون عن مستقبل آمن لأبنائهم، وسيعودون إلى سابق مشاعرهم الطيبة نحو الولايات المتحدة التي كانت تمثل لهم منارة حرية وعدالة قبل أن يقع قرارها السياسي في قبضة الصهيونية. إنني أدرك أن الإدارة الأميركية غير قادرة على إغضاب إسرائيل، وقد لجأت إلى الإعلام لتحسين صورتها فحمّلت الإعلام ما يعجز عن تحقيقه إن لم يرافقه عمل على الأرض وموقف سياسي عادل ومنصف ومقنع.

٢٠٠٤/٢/٢٠

المواطن العربي والمشروع الأميركي

يستغرب بعض الغربيين رفض العرب والمسلمين لمشاريع الإصلاح التي تقدمها لهم الولايات المتحدة مع أنها تجسد بعض مطالبهم الملحة، وقد صاغتها من رؤية بعض المثقفين والأكاديميين العرب الذين شاركوا في إعداد تقريري الأمم المتحدة حول التنمية البشرية العربية في العامين السابقين .ومن يقرأ مشروع الشرق الأوسط الكبير يجد أن كثيراً مما فيه حق ونفع وفائدة، ومن حقه أن يتساءل لماذا إذن يرفضه العرب؟

فأما سبب الرفض المباشر فهو أن العرب وكل الشعوب الضعيفة باتت تخشى من أن تتكرر تجاربها المريرة مع القيم الفاضلة التي قدمت إليها عبر التاريخ، فكانت مجرد أفخاخ هدفها الإيقاع بالفريسة. وما تزال في ذاكرة العرب وعود الحلفاء في مطلع القرن العشرين الذين قدموا رؤية مبهرة للشرق الأوسط الجديد على أنقاض الإمبراطورية العثمانية التي فرح العرب بسقوطها على أمل أن تتحقق وعود ماكماهون لهم بالسيادة وبإقامة دولة عربية مستقلة، وقد فوجئوا بأن الوعود الفاضلة كانت تخفي مشروع الحلفاء لتقسيم المنطقة واحتلالها، ولإقامة دولة إسرائيل في قلبها. ولم يكن الطامع الخارجي وحده من قام بخداع العرب وإغوائهم بالقيم الفاضلة، فقد فعل الطامع الداخلي ما هو أدهى حين ضحك على أمته بسيل من الشعارات والمبادئ والأهداف، حتى سلمته زمامها فإذا به يقودها إلى سلسلة من الهزائم والمرارات كما فعل صدام حسين. وهكذا استخدم أعداء الخارج والداخل منظومة القيم النبيلة لتكون النطع الناعم الذي تُقطع عليه أعناق الشعوب، وتستباح عنده الحرمات، وهذا ما يدعو العرب إلى الريبة والشك في الأهداف الخفية لمشاريع الإصلاح والتحديث التي تقدمها إليهم الإدارة الأميركية على أنها مبادرات رسولية، تدعو إلى الحرية والمعرفة وإلى تمكين النساء من مشاركة أوسع، وإلى مكافحة البطالة وزيادة الفرص الاقتصادية وتطوير مناهج التعليم، وسوى ذلك مما يذكرك بالمثل القديم، اقرأ تفرح جرب تحزن.

وفضلاً عن حالة فقدان الثقة بنوايا الإدارة الأميركية فإن مما يدعو العرب إلى رفض هذه الوصفات الإصلاحية البراقة كونها تتجاهل المرض الأخطر الذي يعانون منه، وهو استمرار الاحتلال الإسرائيلي لأرضهم وتصاعد الجرائم التي ترتكبها إسرائيل يومياً ضد أهلهم في فلسطين المحتلة، واستمرار الاحتلال الأميركي للعراق وتصاعد حالة الفوضى والفلتان الأمني، وانتشار كثيف لقواعد عسكرية أميركية وغربية في كل أنحاء وبوابات الشرق الأوسط الكبير قادرة على الفتك والتدمير، مما يشكل احتلالاً غير معلن. وهذا ما يدعو شعوب المنطقة (عدا

إسرائيل) إلى الشك في قدرتها على تحقيق سيادتها واستقلالها الحقيقي، فكيف بوسعها أن تمارس حرية أو ديمقراطية صحيحة وهي خاضعة لاحتلال علني أو خفي؟

لقد رأى كثيرون أن المبادرة الأميركية الجديدة التي ستطرح على قمة الثماني في يونيو القادم، هي توسيع لرؤية بيريز للشرق أوسطية، على ضوء التوسع الذي حدث في النفوذ المباشر للولايات المتحدة بعد حروبها الساحقة في أفغانستان والعراق. فقد استلهم الرئيس بوش النموذج المثالي للتغيير في الشرق الأوسط من إسقاط نظام "طالبان" ثم من إسقاط نظام صدام، وهو يرى أن الديمقراطية التي تتحقق في أفغانستان وفي العراق نموذجية. والمواطنون العرب يدركون حين يسمعون هذا الكلام أن الرئيس الأميركي لا يتوجه به إليهم، وإنما يسوّق مشاريع إدارته أمام الشعب الأميركي الذي لم يعد يسمع غير أخبار الانتصارات والمشاريع التنموية التي يزعم الإعلام الصهيوني أنها نقلت العراقيين والأفغان من الجحيم إلى جنة الحرية والديمقراطية والتقدم. لكن العرب يعرفون أن الجحيم الذي كان يعاني منه الشعبان يزداد لهيباً وسعيراً. وحسب المراقب أن يرى ما يحدث من جرائم يومية في العراق ليدرك بشاعة ما يتم التخطيط له من قبل أعداء الشعب العراقي، الراغبين بزجه في أوار حرب طائفية، ونحمد الله أن العراقيين يملكون من الوعي والحكمة ما يجنبهم الوقوع في الفخ الذي ينصبه لهم أعداء الأمة. وإذا كانت الإدارة الأميركية تفاخر بانتصارها على" طالبان" فإن العرب يعرفون أن نظام "طالبان" صنعه الأميركان، وهذا ليس سراً، فقد كان "طالبان" ومن خلفهم من سموهم العرب الأفغان، وسيلة الولايات المتحدة لجر الروس إلى (الفخ الأفغاني) ومع انتهاء المهمة التي استكملت بتقديم صورة مشوهة للإسلام عبر قتامة تجربة "الطالبان" تم التخلص من الحليف على طريقة أفلام هوليوود، وهي الطريقة التي تم فيها التخلص من صدام على رغم ما كان بينه وبين الأميركان من مودة ووئام .وهذا كله لا يغيب عن المواطن العربي الذي لا يجد أي معنى لادعاء الولايات المتحدة حرصها على تخليصه من أنظمة فاسدة أو مستبدة لأنه قانع بأن الأنظمة التي ظلمته وقهرته عقوداً كان بعضها يستمد قوته من تحالف خفي أو معلن مع المخابرات الأميركية وهي المسؤولة كما يرى عن دعم حركات التطرف وعن نشر الإرهاب المنظم حين أغرقت العالم منذ أواخر القرن العشرين بسلسلة من الحروب الإقليمية التي قتل فيها ملايين الناس في أفريقيا وأميركا الجنوبية وآسيا، وحتى في أوروبا، وكانت شعارات حروبها دائماً قيماً فاضلة تحارب الشر وتقتل البشر باسم الله.

ثم كيف سيثق المواطن العربي بحسن نوايا الإدارة الأميركية نحوه وهي تواصل تحيزاً مطلقاً إلى إسرائيل، وتواصل تهديد سوريا وإيران مفتعلة لكل يوم أكذوبة جديدة، كما تواصل

حملاتها الإعلامية ضد السعودية ومصر والسودان، وسواها من البلدان، مما يجعل المواطن العربي يعيش حالة توتر واضطراب مستمر. كان بوسع الولايات المتحدة أن تكسب مشاعر الشعب العربي وثقته لو أنها صدقت وعودها وسارعت لتطبيق قرارات الشرعية الدولية ولإنهاء الاحتلال ولإحلال السلام العادل في المنطقة.

صحيح أن المواطن العربي سيجد في تفاصيل مشروع الشرق الأوسط الكبير بعض التطابق مع مطالبه في تشجيع الديمقراطية وبناء المجتمع المعرفي وتوسيع الفرص الاقتصادية، ولكنه لا يريد أن تكون الولايات المتحدة هي المنقذ له من أزماته، بل يريد أن يأتي العلاج وطنياً صرفاً. وهو ينتظر أن تسارع الأنظمة العربية إلى تحقيق الإصلاحات السياسية والاقتصادية والإدارية والقانونية، وأن تعالج أسباب التباطؤ الذي يجعل المهمة أصعب. وينتظر المواطن العربي أن تسارع الأنظمة العربية إلى إطلاق حرية الإعلام لأن مواجهة القنوات الأميركية "الحرة "تحتاج إلى قنوات عربية حرة بالمقابل، فليس بوسع إعلام مقيد مكبل أن يصمد أمام إعلام حر طليق.

كما أن المواطن العربي ينتظر أن يسارع المسؤولون التربويون إلى إصلاح المناهج التعليمية فيعمقوا فيها التقانة والتدريب. وأقترح أن يتصاعد الاهتمام بتعليم القرآن الكريم للأجيال، فهو الحصن الذي يجعلهم أقدر على الاحتفاظ بلغتهم وبهوياتهم في عصر العولمة الثقافية الكبرى التي تهدد الثقافات القومية والوطنية بالذوبان والاندثار. وقد حفظ القرآن الكريم لغة الأمة وثقافتها عبر العصور، ومن أراد أن يعرف أي نوع من تطوير المناهج يخطط له المتصهينون، فحسبي أن أذكر له إشادة أحد الأكاديميين العرب بإصلاح اعتبره مهماً في التعليم حدث في أحد الأقطار العربية، وهو حذف كلمة الأعداء عند الحديث عن الإسرائيليين. لقد أشاد صاحب المقال بهذا التطور وقال هذا ما تحتاج إليه أمتنا، على رغم أن إسرائيل ما تزال ترفض السلام، وتبني سوراً يعزلها عن العرب والفلسطينيين، وما تزال تمعن في هدم المنازل وتشريد أصحابها بل لقد بدأت تهدم الخيام وهي تتابع مسلسل الاغتيالات وقتل العشرات من الأبرياء في كل يوم. والأستاذ الأكاديمي يهلل لشطب كلمة الأعداء، وهو يشيد بتطوير تعليمي أهم هو شطب اسم فلسطين الذي كان يوضع في الخريطة على كامل فلسطين التاريخية، وكذلك شطب النصوص التي تذكر باعتداءات إسرائيل على العرب وتحض على صد العدوان وعلى المقاومة. كان بوسعه أن يهلل لو أن العدوان انتهى، ولو أن إسرائيل أعادت للعرب حقوقهم. والأكاديمي البارع يطالب وزارات التعليم في الوطن العربي بأن تبتعد في المناهج التعليمية عن أمرين هما إيديولوجيا (القومية العربية) وإيديولوجيا (الدين الإسلامي) فهو يريد إنتاج إنسان آلي، لا يعرف

لنفسه هوية ولا علامات فارقة، وهذه هي الحالة الوحيدة التي تضمن أنه سيكون مستعداً لأن يشتغل خادماً مطيعاً عند السيد الإسرائيلي. وبالطبع لو تجرأ هذا الأستاذ الأكاديمي وطالب إسرائيل بالمقابل بأن تحذف إيديولوجيا القومية اليهودية، ومفاهيم الشريعة التوراتية من مناهجها، لأصبح على الفور معادياً للسامية وتمت المطالبة بإيقاف مرتبه من الجهة المانحة.

لقد أبدى العرب موقفاً واعياً من مشروع الشرق الأوسط الكبير الذي يغيب عنه العرب والمسلمون، والذي تستعد إسرائيل لكي تلعب دور البطولة المطلق فيه، ونرجو أن يسارع القادة العرب إلى تحقيق مشاريع إصلاحية عربية شاملة، تبدأ من إعادة الاعتبار إلى الجامعة وهي البيت العربي المهدد بالانهيار، وأن يفعلوا شيئاً ما يؤكد للعالم أنهم أمة واحدة قادرة أن تقول (لا) لمن يريد بها سوءاً وسلاحهم القوي هو شعوبهم القادرة على الدفاع عن أمتها دفاعاً مستميتاً. كما أن تمسك العرب بمبادرتهم إلى السلام وفق الرؤية التي أقرتها قمة بيروت دون أي اختراق لها سيسد الطرق والمنافذ على كل الخرائط التي تخفي أكثر مما تعلن، فإن أخفق العرب في الدفاع عن البقية الباقية من وجودهم، فقد تقع الواقعة التي تهدد الأمة بهزيمة ساحقة، فالعدو الصهيوني يهدد بحروب تدوم عشرات السنين، ولديه مشروع ومخطط آخر غير الذي تعلنه الولايات المتحدة، ويخشى المواطن العربي أن يكون في المخطط السري مشروع إقامة مملكة الرب في إسرائيل الكبرى التي تخطط لامتلاك المزيد من الأراضي العربية، ولبسط سيطرتها على العالم الإسلامي من أواسط آسيا إلى أواسط أفريقيا وغربها، ولهدم المسجد الأقصى، وبناء الهيكل، فمخططو مشروع الشرق الأوسط الكبير يخدمون مشروع الصهيونية الأكبر، ولهم فيه مآرب أخرى.

٢٠٠٤/٣/٥

ما لم يقله كلارك وكوندوليزا

وددت أن تشمل مهمة اللجنة الأميركية المستقلة التي ضمت جمهوريين وديمقراطيين للتحقيق في أحداث ١١ سبتمبر، التدقيق في صحة الأدلة التي قدمت لاتهام العرب المسلمين والتأكد من مسؤوليتهم عن تفجيرات نيويورك وواشنطن. فحتى الآن لم تنعقد محكمة قانونية تناقش الأدلة وتشفي قلوب المتشككين، ولعل بعض الموقنين سيهزؤون من العودة إلى التشكيك بصحة الاتهام. وقد يظن بعضهم أن الدافع للشك رغبة في تبرئة القاعدة التي نستنكر تطرفها الفكري وأسلوبها الدموي جملة وتفصيلاً منذ أن أشرفت على إنشائها المخابرات الأميركية. وقبل أن يتأفف أحد من الذين سيتهمونني باعتناق نظرية المؤامرة، أذكرهم بأننا نعيش أسوأ فترة شهدها العالم في تاريخه من الخداع والأكاذيب الكبرى التي وصلت إلى حد الاستهزاء بعقولنا. وقد بلغت ذروتها مع ظهور مسلسلات الأشرطة الصوتية والمتلفزة التي تنزل علينا من (سحاب). ومن يريد أن يتأكد من حجم الزيف فحسبه أن يتابع التناقضات في أقوال الشهود أمام لجنة التحقيق في أحداث ١١ سبتمبر. فقد ظهرت الفضائح على نحو مضحك أحياناً، حتى إن الرئيس بوش نفسه حوّل لعبة البحث عن أسلحة الدمار إلى دعابة حين صور نفسه يبحث عنها في البيت الأبيض ويقول ضاحكاً: لم أجد شيئاً. ولا داعي لأي شاهد إثبات على أن أهم أبطال المسرحية الترجيكوميدية التي يتابعها العالم اليوم والتي أهرقت دماء الآلاف من العرب والمسلمين من أجل أهدافها، هو صدام حسين الذي لا أستبعد أن ينصب له تمثال في تل أبيب ذات يوم تعويضاً عن تمثاله الذي أسقط في بغداد، لأن الخدمات التي قدمها للصهيونية قاصداً أو غير قاصد أهم بكثير من كل ما قدمه هرتزل وبن غوريون وشارون.

ومثلما كان دور صدام إنهاك العراق وإيران وإضعاف العرب، وتحطيم مشروعهم القومي، كذلك كانت الحركات الدينية المتطرفة تلعب دوراً موازياً في تحطيم المشروع الإسلامي. ومن يتابع تحقيقات اللجنة وما فيها من شهادات مريبة سينتابه شعور بالقهر أمام هذا الاستخفاف المريع بعقول البشر، وما قاله السيد ريتشارد كلارك في شهادته ومن قبل في كتابه (في وجه جميع الأعداء) يضع علامات استفهام خطيرة: فهو يقول إنه حذر الرئيس بوش من خطر القاعدة واحتمال قيامها بعمل إرهابي داخل أميركا، لكن الرئيس تجاهل التحذير. والأخطر قول كلارك عندما تحدثت كوندوليزا عن القاعدة أعطتني انطباعاً بأنها لم تسمع أبداً بتنظيم القاعدة.

وقال كلارك إن الرئيس اتخذ قراره بالحرب على العراق قبيل هجمات ١١ سبتمبر بفترة قصيرة، وحين وقعت الهجمات طلب الرئيس منه أن يجد صلة بين العراق وبين القاعدة. فهدف الرئيس إذن حسب كلارك هو العراق وليس القاعدة، وقد ختم كلارك شهادته بقوله لأسر ضحايا جريمة سبتمبر: لقد خذلتكم حكومتكم، وأنا خذلتكم، سامحونا.

أما التقرير المبدئي الذي أعدته لجنة التحقيق برئاسة توماس كين فهـو يؤكـد أن الإدارة الأميركية فشلت في إقناع طالبان بتسليمها ابن لادن أو ترحيله إلى بلد يمكن اعتقاله فيه من عام ١٩٩٧ وحتى عام ٢٠٠٠. وأعجب كيف يتجاهل التقرير أن ابن لادن كان في السودان وكـان بالإمكان اعتقاله، ثم أجبرته الولايات المتحدة على العودة إلى باكستان ومنعته من الإقامة فـي لندن بعد أن قرر الاعتزال (على ذمة كتاب سيرته وكما روت الصحافة الغربية فـي حـديثها الأسطوري عنه). والطريف كذلك ما جاء في شهادة رامسفيلد حين قال: إن الهجمـات كانـت ستقع سواء اعتقل ابن لادن أم لم يعتقل، قتل أم لم يقتل! وفي شهادة رامسفيلد ما يثير الانتبـاه بقوة عند قوله: لولا هجمات ١١ سبتمبر لما كان من الممكن أن نشكل تحالفاً ضد الإرهاب. وقد تساءل: كم من البلدان كانت ستنضم إلى التحالف؟ ولا أرجح أن ينضم أحد. إذن كانت هجمات ١١ سبتمبر ضرورية لخطط البنتاغون التي تستهدف احتلال أفغانستان والعراق ومن ثم إيران وسوريا والسعودية ومصر (التي سموها الجائزة الكبرى) وتغيير خريطة الشرق الأوسط كمـا أنذر رامسفيلد فور وقوع الجريمة. أما ديك تشيني فقد علق على شهادة كلارك بقوله: لقد فاتـه الكثير مما كان يدور في البيت الأبيض. ويبدو أن كلارك فاته الكثير فعلاً فهو على الرغم مـن كونه المسؤول المباشر عن مكافحة الإرهاب، فقد كان مستبعداً من المجموعة ربما لكونه مـن بقايا إدارة كلينتون رغم كون الأخير ورثه من إدارة بوش الأب. وقد وصفه سكوت مـاكليلان الناطق بلسان البيت الأبيض بأنه (انتهازي) ونحن نذكر أن كلارك كان أول مـن داس علـى القانون حين صرح للأندبندنت منذ ٢٠٠٠/٨/٢٦ بقوله: لا نحتاج إلى أدلـة حـين يتعـرض مواطنونا الأميركيون للخطر! يجب ألا يعاق عملنا من أجل دليل يحتاج للإبراز في المحكمة.

هكذا ببساطة ألغى كلارك كل إرث أميركا القانوني والحضاري، مما دعا الأندبندنت إلـى التساؤل بقولها آنذاك: أيهما أخطر على الولايات المتحدة أسامة بن لادن أم ريتشارد كـلارك؟ وقالت الأندبندنت في المقال ذاته: إن الولايات المتحدة في الحملة الصليبية التي تشـنها علـى الخطر الإسلامي تتبنى إجراءات غير ليبرالية بل وغير مقبولة. وقد فسر ماكليلان دوافع شهادة كلارك عبر إشارته إلى الصداقة الحميمة بين كلارك وبين راند بيرز مـدير حملـة (كيـري) الانتخابية، ولا أستبعد أن تكون اللجنة كلها تعمل بدوافع انتخابية، ولعل هذا مـا يفسـر خلـو

التحقيقات حول ١١ سبتمبر من أية إشارة إلى وقائع الجريمة وأدلة الاتهام. فقد تعاملت اللجنة مع اتهام العرب والمسلمين ببديهية لا تحتاج إلى أي تدقيق رغم عشرات الأسئلة التي ما تزال بلا جواب. وليس بعيداً أن يتواطأ الجميع، ما داموا يسبحون في فلك واحد هو فلك إسرائيل والصهيونية... فهم يتحاورون حول مسؤولية الرئيس وإدارته وهل فعل ما كان ينبغي أن يفعل لتجنب الكارثة؟ ولماذا ورط أميركا في حرب العراق؟ وهم جميعاً يعلمون أن الرئيس نفذ خطة مرسومة منذ زمن بعيد .

إن ما لم يقله كلارك وما لم تشر إليه كوندوليزا وكل الشهود هو السؤال الذي بات طرحه شبه ممنوع وهو: من ارتكب الجريمة حقاً؟ وأكرر التأكيد على أن هذا السؤال لا يعني استبعاداً لمسؤولية القاعدة، وإنما هو إجراء قانوني لنزع الريبة والشكوك ولا سيما أن المتهمين كانوا يسمون على مدى شهور التحقيق، المشتبه بهم. وكذلك للإجابة عن بعض الأسئلة المعلقة إن لم يكن كلها من مثل السؤال المنطقي عن سر خلو قوائم أسماء الركاب القتلى كما نشرتها مكاتب الطيران من أي اسم مسافر عربي ساعة وقوع الجريمة. فقد نشرت أسماء المسافرين جميعاً على الأنترنت ثم سرعان ما سحبت وبدأت تضاف إليها الأسماء بشكل اعتباطي إلى درجة أن أحد من أضيفت أسماؤهم كان متوفى منذ سنين، وقد أضيف اسم رجل آخر ولكنه اتصل من الرياض ليقول إنه ليس على الطائرة بل هو في مكتبه (وهذا غيض من فيض مما يظن الآخرون أن الناس ينسونه) أفليس من مهمة لجنة التحقيق تحديد مسؤولية من شطب أسماء العرب (التسعة عشر) من قوائم المسافرين قبل أن تتم إعادتها بالتقسيط؟ وكذلك أليس من عمل اللجنة طرح سؤال حول مصادفة وجود طاقم تصوير تلفزيوني متكامل صور الجريمة من عدد من الزوايا والاتجاهات وبعدد من الكاميرات وعبر عربة نقل تلفزيوني تم استئجارها قبل أيام حيث نصبت الكاميرات في زوايا تتيح التقاط المشاهد التي أصبحت تاريخية بحرفية وإتقان عاليين؟ وأليس من عمل اللجنة أن تسأل عن دوافع عمدة نيويورك آنذاك في منع التحقيق مع المصورين وفي إيصالهم إلى المطار للعودة إلى تل أبيب، والأسئلة كثيرة ولا تنتهي وهي ليست من اختراعنا وإنما هذا بعض ما رددته الصحافة الأميركية والأوروبية نفسها قبل اكتمال السيطرة على الإعلام، فهل يعقل أن تتجاهل لجنة التحقيق هؤلاء الذين شوشوا على اتهام القاعدة وحاولوا صرف الأنظار عن مسؤوليتها؟ وهل يعقل أن يكون الجميع عملوا بنصيحة كلارك حين قال: يجب ألا يعاق عملنا من أجل دليل أمام محكمة؟

ولقد أظهر التحقيق على كل حال تناقضاً حاداً بين شهادة كوندوليزا وبين شهادة كلارك، مثلما بدت التناقضات مثيرة بين أقوال بيرغر وأقوال تينيت، ثم بين شهادة أولبرايت وشهادة

وليم كوهين، وقبل ذلك كان بول أونيل وزير الخزانة قد فضح ما جعله عنواناً لكتابه (ثمن الولاء) ومثله فعل ديفيد كاي حين قال: إن لم تعترف أميركا بأخطائها فإن مصداقيتها ستتآكل. وقد علق المراقبون الأميركيون على هذه المسرحية السياسية الهزلية بقولهم: هل يعقل أن يكون كل هؤلاء كذابين؟. ولكنني أعتقد أنهم صادقون جميعاً في ولاء واحد لخصته كوندوليزا حين قالت يوماً لناحوم برنياع (معاريف ٢٠٠٣/٥/٢) إن أمن إسرائيل هو المفتاح لأمن العالم كله، ولم تقل كوندوليزا بالمقابل ماذا يعني لها أمن العرب والمسلمين أمام ترسانة إسرائيل النووية وأمام الحصار الذي يطوق بلدانهم ويهددها بأحدث أسلحة التدمير؟

وما لم يقله كلارك وكوندوليزا معاً هو ما مسؤولية الولايات المتحدة عن انتشار ظاهرة الإرهاب في العالم. لقد دعمت الولايات المتحدة الحركات المتطرفة كي تسيء إلى الإسلام المعتدل، ودعمت الاستبداد في العالم كي تكبح جماح الشعوب، ودعمت إسرائيل كي ترهب العرب، وهي اليوم تدفع ثمن أخطائها القاتلة، فقد انقلب السحر على الساحر، وبات التطرف خصمها الأشد، وباتت الأنظمة المستبدة عبئاً ثقيلاً عليها، وبات على الدم الأميركي أن يدفع ثمن مشروع إسرائيل العدواني.

٢٠٠٤/٤/١٦

حدود الاستهانة بالعرب

جسد وعد الرئيس بوش لشارون (في رسالة الضمانات الأميركية التي ذكّرت العرب بوعد بلفور) استهانة قصوى بالعرب وبالمسلمين وبالشرعية الدولية وقراراتها المتخذة من عام ١٩٤٨. فقد نسف بسطور من رسالته إلى شارون كل الجهود التي بذلها المجتمع الدولي وعلى رأسه الولايات المتحدة ذاتها لإحلال سلام وصلح بين العرب والإسرائيليين، حين أعلن بصريح العبارة أن أي اتفاق سلام في المستقبل لن يشمل عودة إسرائيل إلى حدود ٤ يونيو١٩٦٧، وأنه لاحق للاّجئين الفلسطينيين بالعودة إلى أرضهم، وأن ما حققته إسرائيل من واقع استيطاني على الأرض بات حقاً لها. وقد سمّى جدار الفصل العنصري جداراً أمنياً، كما منح إسرائيل حق تدمير البنية التحتية الفلسطينية بوصفها بنية إرهابية، وحق قتل واغتيال الفلسطينيين عبر ما سماه الملاحقة الساخنة للإرهاب، وحرية السيطرة على المجال الجوي وعلى المداخل والمعابر. كما قال بصريح العبارة:"ستحتفظ إسرائيل بحق الدفاع عن نفسها ضد الإرهاب، بما في ذلك اتخاذ إجراءات ضد المنظمات الإرهابية. والولايات المتحدة ستقود الجهود" وبما أن المنظمات الإرهابية المعنية هي منظمات المقاومة الفلسطينية، التي يقف خلفها الشعب الفلسطيني كله فإن إسرائيل مفوضة إذن بقتل هذا الشعب كله حتى لا يبقى منه غير المستعدين للتوقيع على تنازل مطلق عن كل حقوق الشعب الفلسطيني ليمنحوا إسرائيل شرعية باسم شعب فلسطين، وهذا ما يتم التلميح إليه عند ترديد عبارة (ما يتفق عليه الأطراف).

لا أعتقد أن أحداً من العرب فوجئ بوعد بوش لشارون. فقد أدرك العرب منذ أواسط التسعينيات أن راعي السلام الأميركي هو محامي الخصم، وليس وسيطاً نزيهاً أو حكماً يبحث عن مصالحة تضمن لأطراف الصراع حقوقاً أقرتها لهم الشرعية الدولية، وقد كانت لاءات باراك التي دافع عنها الرئيس كلينتون وحث العرب على مزيد من التنازلات لتلبيتها هي التي أوصلت المفاوضات إلى الطريق المسدود الذي أتاحت له تفجيرات سبتمبر أن ينفتح على الهاوية حين استغلتها إسرائيل لصالحها.

ولكن العرب استمروا في التفاؤل بالموقف الأميركي واعتبر بعضهم خريطة الطريق أفضل الممكن، على الرغم من أنهم رأوا الخريطة ولم يروا الطريق، ولم يقم أحد بإعلان اليأس العربي من الرعاية الأميركية للسلام، بل باتوا ينتظرون صحوة أميركية ترى حقوقهم، وتحفظ ماء الوجه الرسمي أمام الشعب العربي الغاضب، وحين تسرب إليهم مشروع الشرق الأوسط الكبير فوجئوا بتجاهله للصراع العربي الإسرائيلي، على الرغم من أنه يرسم مستقبلاً للمنطقة

تلعب فيه إسرائيل دور البطولة الاقتصادي والعسكري والسياسي. وكانت ردود الفعل العربية كافية لتذكير الإدارة الأميركية بضرورة إبداء نوع من الاعتبار لرأي القادة العرب وشعوبهم. لكن المفاجأة الصدمة جاءت في وعد بوش لشارون دون أي تشاور مع الطرف العربي، ودون أي اهتمام لردة الفعل العربية والإسلامية على سيل التنازلات التي قدمها الرئيس الأميركي هدية من حقوق العرب إلى إسرائيل .

لقد شعر المواطن العربي أن حدود الاستهانة الأميركية بالعرب والمسلمين قد تجاوزت كل الحدود، وبات الداعون إلى السلام محرجين ولا يملكون حجة أو برهاناً على أن الولايات المتحدة جادة وصادقة في مسعاها إلى سلام قابل للاستمرار، ولا سيما أن وعد بوش جاء متزامناً مع حملة ضارية ضد الشعب العراقي أكد رعاة حملة انتخابات الرئاسة الأميركية على تسميتها حملة صليبية دون زلات لسان، وهي مواكبة للحملة الإسرائيلية الوحشية المستمرة والمتصاعدة ضد الشعب الفلسطيني، مع انتشار مبرمج لأعمال إرهابية في العديد من البلدان العربية، لا يجد العرب مصلحة لأحد في العالم فيها غير إسرائيل حتى وإن بدت في ظاهرها داخلية أو إسلامية متطرفة.

لقد أعلن العرب أن السلام خيار استراتيجي وحيد لهم، وقدموا مبادرة للسلام قوبلت باستهانة أميركية وإسرائيلية مذهلة، فلم يعد لدى المسؤولين العرب ما يقولونه لشعوبهم التي أقنعوها بأن السلام ممكن وأنه سيعيد إليهم حقوقهم المغتصبة وسيفتح آفاق مستقبل من الأمن والرخاء الاقتصادي في المنطقة، وأن الإدارة الأميركية ليست عدواً للعرب والمسلمين.

ولم يكن الشعب العربي يكره الإدارة الأميركية قبل أن تبلغ استهانتها به هذا الحد الذي لا يطاق، بدليل تفاؤل الكثيرين بدورها يوم مدريد، على الرغم من الشكوك الشعبية بمصداقية توجه إسرائيل للسلام. لكن الكثيرين من العرب توقعوا أن تضغط الإدارة الأميركية على إسرائيل وأن تجبرها على تنفيذ قرارات الشرعية الدولية، وقد بقي هذا التفاؤل قائماً حتى منتصف التسعينيات، ولكنه بدأ يتضاءل منذ أن جاء نتنياهو ومن بعده باراك الذي أعلن لاءات أوقفت عملية السلام إلى أن جاء شارون فقضى على البقية الباقية من بصيص أمل في تحقيق السلام وكشف حقيقة ما كانت تضمره إسرائيل من السير المخادع نحو السلام، وهي تضييع الوقت ريثما تتمكن من فرض وقائع جديدة على الأرض.

وأعترف كمواطن عربي ولد عام النكبة وعاش حياته في جحيمها وسعيرها، وتداعيات حروبها منذ حرب ١٩٤٨ إلى اليوم، أنني وغالبية أبناء جيلي قبلنا بالسلام على مضض، لأنه سيجبرنا على منح إسرائيل حقاً لا تملكه في أرضنا العربية، ولكننا وضعنا الملح على الجرح،

وبتنا مستعدين لاستشراف مستقبل جديد لصالح أبنائنا ولتخليص منطقتنا من شر الحروب المتوالية التي فرضت علينا وأدخلتنا في دوامة لانهاية لها ولا خلاص منها. وقد تفاءلنا بأن نستعيد عبر الشرعية الدولية والرعاية الأميركية ما اغتصبته إسرائيل في حرب يونيو ١٩٦٧. وكانت مرجعية مدريد الشهيرة هي الأرض مقابل السلام. وكان من بديهيات الحل السلمي أن تقوم دولة فلسطينية ذات سيادة كما ضمنت قرارات الأمم المتحدة، وأن يستعيد اللاجئون حقوقهم المضمونة في الشرعية الدولية منذ القرار ١٨١ لعام ١٩٤٩ والقرار ١٩٤ وأن تتم إزالة كل المستوطنات على الأرض المحتلة كما تقضي قرارات مجلس الأمن وكما تقضي اتفاقية لاهاي١٩٠٧ فضلاً عما أكدته الإدارة الأميركية ذاتها. وعلى الرغم من كل التعقيدات التي رافقت عملية السلام بقينا متمسكين به، وكنا مستعدين لتحقيق متطلبات السلام إذا جاء عادلاً وشاملاً.

لكننا وجدنا إسرائيل تريد سلاماً دون أن تدفع أي ثمن، فهي تتكرم علينا بأنها ستمنحنا الأمن مقابل السلام. وكيف يطمئن العرب إلى أمن تحفظه لهم إسرائيل بعد أن تجردهم من كل أسلحتهم وقواهم، وتحتفظ وحدها بحق امتلاك أسلحة مدمرة ترهبهم بها حين تشاء وخلفها جحافل جيوش أميركا التي تمركزت في المنطقة كي تحمي إسرائيل وتحارب نيابة عنها؟

لقد أعاد وعد الرئيس بوش الصراع العربي الإسرائيلي إلى المربع الأول، وعلى الرغم من كونه وعداً لا يحمل أية صفة قانونية ولا يلزم أحداً من العرب، فإن إعادة الصراع إلى نقطة الصفر قد تحقق للعرب الحكمة الشهيرة القائلة (رب ضارة نافعة) فإنهاء عملية التسوية من قبل بوش وشارون بعد أن وصلت إلى هذا الوضع الهزيل والمستهجن خير من استمرار العرب في السير إلى الهاوية، وبقاء الحق مغتصباً أفضل من القبول بفتات منه، فالسارق لا هم له سوى أن يحصل على شرعية وتنازل من المسروق، لأن فعل السرقة سيبقى مؤرقاً له أبداً، وسيبقى مهدداً بأشباح أصحاب الحق، وأعتقد أن من صالح العرب اليوم أن يعلنوا أن رصاصة الرحمة التي أطلقت على بقايا الأمل العربي بالسلام تضطرهم إلى التوقف عن التعاطي مع من لا يقيم لهم وزناً ومن لا يرعى لهم مكانة، بل من لا يراهم جديرين بالحوار.

ولئن كان لابد للسياسة من أن تبقي على شعرة معاوية التي قطعها الرئيس بوش، فإن أمام القمة القادمة امتحاناً صعباً للإرادة العربية، وقد بات مخجلاً أن يطلب الأوروبيون موقفاً صارماً من العرب قبل قمة الثماني، وسيبدو من غير المعقول أن يرفض القادة الأوروبيون أي تغيير في حدود ٤ يونيو ٦٧ كما صرح بريان كوين وزير خارجية أيرلندا باسم الاتحاد الأوروبي،

وأن يعتبروه سابقة خطيرة ومؤسفة كما وصفه الرئيس شيراك، وأن يأتي الموقف العربي بارداً أو فاتراً لا سمح الله.

لقد أشرت في مقال سابق إلى أن نقطة الضعف في المبادرة العربية للسلام هي أنها أطلقت في فضاء بعيد لا يسمع منه الصدى، فهي لم تحدد موعداً للجواب أو لانتهاء العرض، ولم تقل ماذا يمكن أن يحدث لو أنها رفضت، فهل وصل الضعف العربي إلى الدرجة التي استدعت هذه الاستهانة المريعة بالأمة العربية والإسلامية معاً؟ وهل حقاً لا تملك الدول العربية والإسلامية إن اجتمعت على نصف قلب رجل واحد أن تقول للإدارة الأميركية كفاكم استهانة بنا وبشعوبنا؟

لقد قال أحدهم إن الإدارة الأميركية تعرف العرب أكثر مما يعرفون أنفسهم، وهي لذلك تستهين بهم، وهي تطرح عليهم مشاريع تشبه الفزاعة لتخيفهم من شعوبهم ومن خطر الديمقراطية التي قد تزعزع استقرارهم السياسي، ولكن الحقيقة عكس ذلك، فالإدارة الأميركية تجهل العرب تماماً، وهي إلى هذه اللحظة مخدوعة بما تزين لها إسرائيل ومن جندتهم إسرائيل، وهم ورطوها في مستنقع العراق الدموي، وقد يورطونها في المزيد، وهي ما تزال تعجز عن فك لغز مذهل، هو قدرة العرب على تحمل الموت والدمار، فما من أمة في العالم اليوم تدافع عن الحرية وعن الاستقلال غير العرب، وهاكم بلدة صغيرة اسمها الفلوجة تواجه جيوش الولايات المتحدة بصبر وصمود مدهشين، وهذه غزة الصغيرة المحاصرة تواجه جيش إسرائيل المتوحش وتصير حكاية صمودها ومقاومتها شبيهة بحكايات الأساطير. وقد تتسع المواجهة على الرغم من كونها غير متكافئة، ولكنها لن تقتلع من العرب والمسلمين إيمانهم بحقهم، وهذا ما يفزع إسرائيل وما يجعلها تستنجد بأميركا وتستدعيها للقتال نيابة عنها. وهذا ما يجعل رجال الفكر في إسرائيل يحمّلون شارون واليمين الصهيوني المتطرف مسؤولية نهاية إسرائيل ونهاية الصهيونية لأن رفضهم للسلام واستمرارهم في اغتصاب الحقوق العربية، سيجعل بقاء إسرائيل موضع شك .

ولئن كنا نحن أبناء هذا الجيل لم نستطع أن نستعيد بالسلام حقوقنا بسبب الظرف الدولي الخارج عن كل منطق، فإننا لن نتنازل عنها حتى لو بقيت في يد المغتصب، وستأتي الأجيال القادمة ربما بعد عقود، لتقرأ درس التاريخ من أول صفحة فيه ولن تجد في علوم الآثار كلها ما يشير إلى حق لإسرائيل في بلادنا.

٢٠٠٤/٤/٣٠

هل فقدت الأمة قدرتها على الغضب؟

من حق المواطن العربي المقهور أن يتساءل: ما الذي يمنع الإدارة الأميركية من أن تفرض عقوبات اقتصادية أو حصاراً على من تشاء من الدول العربية، وما الذي يمنعها من أن تدمر ما تشاء من مدن وعواصم العرب، وما الذي يمنع جيوشها من أن تقتل مئات الآلاف من المواطنين البسطاء الذين لا يملكون لصد عدوانها غير الدعاء والبكاء؟ وما الذي يمنع جنودها المرتزقة من أن يتسلّوا بتعذيب أسرى العرب والمسلمين، وأن يقوموا بامتهان كرامة وحياء الرجال والنساء، وأن يضعوا الأكياس القذرة على رؤوسهم، وأن يربطوا أعناقهم بالحبال ويجروهم كما تجر الكلاب؟ بل ما الذي يمنعهم من أن يتبولوا عليهم، وأن يدوسوا بأحذيتهم على رؤوسهم وعلى مقدساتهم؟

لاشيء يمنع، فالشريعة الوحيدة المقدسة في العصر الصهيوني هي شريعة الغاب (مع الاعتذار من حيوانات الغابة فهي تعف عن ممارسة الفاحشة مع الفريسة) وقد قال الجنود الأميركيون بشفافية لقد كنا ننفذ التعليمات. وبعضهم قال لم تكن لدينا تعليمات تمنع ذلك. وعلى كل حال لم يكن الجنود الأميركان ليمتلكوا هذه الجرأة الوقحة على ارتكاب تلك الأفعال الشنيعة لو كان لديهم أدنى شعور بأن هؤلاء الذين يجرونهم من رقابهم ويمارسون مكامن وحشيتهم ضدهم بشر مثلهم، أو لو كان الجنود الأميركان والبريطانيون يخشون غضبة أمة طويلة عريضة تمتد أرضها من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهندي، ويكاد عدد سكانها يقارب عدد سكان قارة أوروبا. وهم فوق ذلك ينتمون بالعقيدة إلى ما يقارب ملياراً من المسلمين، وهم في قلب العالم، ولديهم من الثروات البشرية والمادية والفكرية ما يجعلهم أمة عظيمة بكل المقاييس، ولكن فيهم من ارتضى لهم هذا الذل وهذه المهانة.
أعتقد أن الجنود الأميركيين كانوا يخافون أمراً واحداً فقط، هو أن تعلم شعوبهم بما يفعلون، فللإنصاف لابد لنا من أن نقدر موقف الشعوب، وبخاصة الشعب الأميركي الذي جعل الصور فضيحة، ودعا إلى أن يحاكم رامسفيلد وعصابته لكونهم شوهوا صورة أميركا الحضارية.
وكذلك نقدر الشعب البريطاني الذي فجع عندما رأى بشاعة ما يفعل أبناؤه المثقفون. وللإنصاف كذلك لابد من أن نحيي الجندي الذي التقط الصور إن كان قد فعل ذلك كي يفضح الجريمة، فهناك من التقطوا صوراً كي يتذكروا في المستقبل كم كانت المغامرة في العراق مثيرة وممتعة.
وأنا لا أنكر أن بين الجنود الأميركان، رجالاً تربوا على القيم الفاضلة، وقد أبت نفوسهم أن يشاركوا في هذه القذارة. وبعض هؤلاء المشبعين بالقيم انتحروا لأنهم لم يطيقوا أن يتحولوا إلى

قتلة وسفاحين ووحوش، ولا سيما أن العدو الذي يرتكبون الفظائع ضده، هو أناس ضعفاء عزل، تقتحم الدوريات بيوتهم وتنبشهم من مراقدهم، وتأخذهم إلى المعتقلات على الشبهة. وهذا لا ينفي أن آخرين صوروا أشرطة فيديو لحالات الاغتصاب والجنس الجماعي لكي يتباهوا بفتوحاتهم أمام أصدقائهم حين يعودون إلى الوطن، ولم يكن مصادفة أن ينشر الناقمون هذه الصور في أميركا وفي بريطانيا قبل نشرها في بلاد العرب. ربما لأنهم يعرفون أن العرب اليوم مصابون بداء الإحباط والانكسار النفسي، الذي سبق أن أصيبوا به في المرحلة الأولى من غزو التتار والصليبيين لهم، حيث يذكر بعض المصادر أن المغولي أو الصليبي كان إذا مر بمجموعة من العرب يطلب منهم أن ينتظروه ريثما يعود ليقتلهم، وكانوا من شدة الخوف ينتظرون عودته. وهذه الحال وصفها قديماً أبو الطيب حين قال (من يهن يسهل الهوان عليه، ما لجرح بميت إيلام).

لقد رأيت من الصور، ما نشر منها في الصحف وما وصلني عبر الإنترنت، وأعلم أن الصور التي لم تنشر بعد، تحمل من الشناعة والفظاعة ما لا يطاق أو ما يصعب نشره أخلاقياً، وأجزم أن ملايين مثلي اضطروا إلى أن يتناولوا حبوباً مهدئة كي يستطيعوا النوم بعد رؤية هذه الإهانة للكرامة الإنسانية، وأعترف بأنني لم أغضب لمجرد كون المعذبين عرباً ومسلمين، وإنما لمجرد أنهم بشر، فأنا أعتز بكوني ابن ثقافة عربية إسلامية يرفض نبيها الكريم تعذيب هرة، وقد ذكر أن امرأة دخلت النار في هرة حبستها فلا هي أطعمتها ولا هي أطلقتها لتأكل من خشاش الأرض، فما بالك إن عذبتها؟ وأعتز بما يروي تاريخ المسلمين عن حسن معاملتهم للأسرى، وقد شهد غوستاف لوبون بأن التاريخ لم يعرف فاتحاً أرحم من العرب. وأرجو ألا يجد أحد مبرراً لهذه الوحشية بالقول إن بعض حكام العرب المعاصرين فعلوا ما يشبه ذلك بمن اعتقلوهم، فالعهر لا يشفع للعهر، والجريمة السابقة لا تبرر اللاحقة، وما أظن الرئيس بوش يقتدي بصدام حسين وهو الذي يقول إنه دمر العراق لكي يحرره، وما زلت أذكر التقرير الذي قدمته إحدى الفضائيات عن سجن أبو غريب ذاته حين تسلمته الإدارة الأميركية فقدمت صوراً مما شهد من فظاعات، وأعلنت أن عصر إذلال العراقيين انتهى، ويومها لم يقل التقرير، إن ذاك العصر انتهى ليبدأ ما هو أسوأ منه بكثير .

إنني أعتز بأنني ابن ثقافة الرحمة الإنسانية وثقافة البر والقسط والإحسان حتى للمشركين والكافرين ما داموا لا يعتدون، ولكنني أشعر بالأسى المر لأن في أمتي من ضيعوا هذه الثقافة وتخلوا عنها، وهانوا على أنفسهم فسهل عليهم الهوان.

ويوم أمس قال لي صديق ديبلوماسي أليس عجيباً أن يكون احتجاج الغرب وغضبهم من الصور أشد من غضب العرب؟ قلت بلى هو عجيب وغريب، وذكّرته بقول أبي الطيب، وقلت إنني أخشى أن يجد بعض العرب في الاعتذار البارد ما يبرد الخواطر، وهو اعتذار تقدمه الولايات المتحدة على عيون العالم الذي احتقر هذا السلوك، وليس اعتذاراً جاداً من أمة العرب والمسلمين، بدليل أن الرئيس بوش أعلن قانون العقوبات على سوريا في ذروة عاصفة الفضائح التي تحدق بإدارته، وهو يعلم أن هذا القانون استثارة جديدة لمشاعر العرب والمسلمين، ولكنه يشعر بعنفوان القوة. فهو يعاقب من يشاء، ويقتل من يشاء، بيده أسلحة الدمار، وهو قادر على إبادة من يريد. والعجيب ما علمته (وأرجو أن أكون مخطئاً) من أن سيادته يفعل ما يفعل، تنفيذاً لأوامر إلهية، فقد نقل عنه قوله إن الله أمره أن يدمر أفغانستان، ثم أوحى له الله أن يدمر العراق، وتأتي المفارقة في قوله إن الله أمره بأن يقيم دولة للفلسطينيين وأخرى لليهود. وما أدري إن كان قد تجلى له الله كذلك، فطلب منه أن يؤجل إقامة الدولة الفلسطينية لأنها تبدو غير واقعية، أم أن شارون هو الذي أوحى؟ وما أدري كذلك إن كان سيعلن أن الله أمره بأن يعاقب سوريا وأن يجعل الشرق الأوسط بحر دماء، أم أنه سيعترف بأنه سيفعل ذلك إرضاء لإسرائيل؟

إنني أدرك أن كثيرين سيأخذون عليّ اتهامي للأمة بأنها لا تغضب وهي التي تقدم الشهداء صباح مساء، ولكنني لا أريد أن تختزل الأمة في غزة أو الفلوجة، وقد بات داء الاختزال معدياً وخطيراً، فقد اختزل الصراع العربي الصهيوني إلى صراع إسرائيلي فلسطيني، ثم اختزل إلى قضية الانسحاب من غزة، وبات كثيرون من العرب يتفرجون كأن الصراع لم يعد يعنيهم. والآن على الرغم من خطورة ما تفضح الصور فإنني أخشى أن يختزل احتلال الولايات المتحدة للعراق إلى حكاية سجن أبو غريب التي (لا تمثل الجندي الأميركي) فإذا انتهت مشكلة الأسرى، فقد انتهت القضية برمتها. وما ندري كيف سيتم اختزال الموقف الأميركي الجديد من سوريا إذا ما تطور إلى ما بعد العقوبات التي أخشى أن تكون المشهد الأول من سيناريو صهيوني قادم، لن يشمل سوريا وحدها بالطبع، فهو يصعد إلى ذروته الدرامية خطوة خطوة، ودولة دولة.

إنني مؤمن بأن على السياسي ألا يتشاءم مهما تكن الظروف قاسية. ولكنني أُطَمْئِن من قد ينتقد تفجعي إلى أنني حزين من حالة الأحياء الموتى، الذين عناهم أبو الطيب نفسه حين قال (ليس من مات فاستراح بميت.. إنما الميت ميت الأحياء). ولست أقصد الموتى الأحياء الذين هم عند ربهم يرزقون، فهؤلاء هم الذين يقدمون الدليل على حيوية الأمة وهم الذين يبعثون فينا الأمل، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وطريقهم هو الطريق الوحيد أمام الشعوب حين

تهدد بالموت، فتأبى كرامتها أن تقدم رقابها لقاتلها، وإنما تختار موت الشرفاء. وليس هناك من يريد الموت لنفسه أو لشعبه، وهذا ما يحمل العقلاء مسؤولية أن يبذلوا كل ما في الوسع لتجنب الدمار، وللإبقاء على الحوار، عسى أن ينتصر فريق دعاة الإنسانية في الولايات المتحدة، وقد بات يؤرقهم أن يشوه دعاة الحروب وجه أميركا التي كانت معشوقة الشعوب، فإذا هي تصير الغول الذي تخشاه الأمم، وتخاف أن يقود البشرية بحماقة الغطرسة والغرور إلى دمار شامل، إرضاء لأحلام وأوهام إسرائيل.

٢٠٠٤/٥/١٤

هل يرسم صراع الأصوليات مستقبل البشرية؟

كان الحديث عن صراع الحضارات نوعاً من التزييف، فأما الصراع الحقيقي الذي غرقنا في مستنقعه مرغمين فهو صراع الأصوليات الدينية، ولا شأن للحضارات بذلك، فالأديان مكونات في الحضارة التي تشمل العلوم والفنون والثقافات ولا تقتصر على الأديان. وقد تصالحت الحضارات وامتزجت في حضارة إنسانية شاملة، ولكن ما يحدث في العالم اليوم من صراعات أصولية دينية ينبئ بتراجع مخيف عما حققته البشرية من قدرة على التعايش السلمي، ويتحمل المشروع الصهيوني الأصولي المنغلق المسؤولية المباشرة عن هذا التراجع، وعن إحراق العالم بنيران صراع الأصوليات. حيث لم تنفع دعوات العقلاء إلى الحوار والتفاهم، وبات مدهشاً أن نجد بعض قادة البشرية التي وصلت إلى ما يفوق الحلم في التقدم التقني، تحكمهم أفكار وعقائد وأساطير يعود بعضها إلى أربعة آلاف سنة خلت، ويستمدون رؤيتهم للمستقبل من تصورات التوراة. ولم تكن واشنطن تمزح حين بعثت رسالة إلى شارون (على ذمة يديعوت أحرونوت نقلاً عن دوف فايسغلاس مدير مكتب شارون) تقول بصريح العبارة (نحن وأنتم نعرف أن خريطة الطريق لن تكون بديلاً عن التوراة) وأنا لا أنكر على اليهود تمسكهم بالتوراة فهم بدونها لن يكونوا قوماً. فليس ثمة ما يجمع الإسرائيليين غير الدين، خلاف كل الشعوب والأمم، ولا شأن لي كذلك بما يختار بعض المسيحيين أن يؤمنوا به، وقد اختار بعضهم الإيمان بالعهد القديم، فظهرت المسيحية الصهيونية التي يقال إن عدد أتباعها قد زاد على خمسين مليوناً في الولايات المتحدة. ولكن اعتبار القيادات السياسية في إسرائيل للتوراة منطلق رؤية استراتيجية تحدد مستقبل المنطقة العربية، واعتبارها لدى بعض قادة الولايات المتحدة مرجعية تنطلق القرارات الدولية من تعليماتها، هو ما يفسر إذن ظهور الأصولية الإسلامية، التي يعتبرها هؤلاء القادة منبع الفكر الإرهابي.

لقد حاول العرب طويلاً استبعاد التفسير الديني للصراع العربي الإسرائيلي، واعتبروا الدعاة إليه في إسرائيل مجموعة صغيرة من اليهود المتدينين، وكان العرب وما يزالون يعتبرون الصراع بينهم وبين الإسرائيليين صراعاً على الأرض التي احتلتها إسرائيل بغض النظر عن الفهم اليهودي لأرض الميعاد. وكان ظهور المنظمات والأحزاب اليهودية بأفكارها الدينية مثل حزب همزراحيالذي تأسس مع مؤتمر بال، وهو مع حزب هبوعل همزراحي أساس المفدال، وظهور أفكار جابوتنسكي مؤسس حزب الإصلاح التي تؤكد على التراث اليهودي، وعصابات الهاجاناه وأرغون وغيرها المنبثقة عن الفكر الديني والتي تقوم بعمليات إرهابية ضد

الفلسطينيين، قد اضطرت العرب إلى مواجهة الفكر الديني الأصولي التوراتي بفكر أصولي إسلامي. لذلك جاءت ثورة عزالدين القسام الذي هب من بلدة جبلة السورية ليشارك الفلسطينيين في الدفاع عن الديار المقدسة تنطلق من رؤية دينية إسلامية لمقاومة فكر الحريديم التوراتي، وهم يهودوت هتوراة وحراس التوراة المتطرفون وأمثالهم كثر،إلا أن قادة العرب سرعان ما استبعدوا الفكر الديني من الصراع كيلا يبدو صراع أديان، واعتبروا إسرائيل رأس حربة للإمبريالية العالمية. واختار الفلسطينيون الكفاح المسلح في حركات تحرير وطنية، وجبهات شعبية بعضها ذو فكر قومي أو يساري أو شيوعي أو ليبرالي، ولكن لم تظهر منظمات إسلامية فاعلة على مدى عقود من الصراع، ولم يكن النظام العربي يسمح بظهور ما يفسر الصراع دينياً، وكانت إسرائيل قد بدأت كذلك تخفي الدوافع الدينية، وتظهر الجوانب العلمانية واليسارية مما جعل بعض العرب يتفاءلون ذات يوم بوحدة عمالية تقودها الشيوعية العربية مع حزب راكاح الإسرائيلي. ولم يكن قادة الولايات المتحدة يظهرون أن التوراة هي دليل عملهم السياسي على النحو الذي يتباهى به المحافظون الجدد اليوم، كنا نسمع أن قادة الولايات المتحدة يؤمنون بنظرية هرمجيدون، ولم يهتم قادة العرب بالتوقف عند تأثير هذه الأساطير على المستقبل العربي على رغم وفرة الحديث عنها في حرب الخليج الثانية، حتى إن كتاب الصحفية غريس هالسل النبوءة والسياسة الذي تحدثت فيه عن عقيدة ريغان لم يحظ بأي اهتمام رسمي عربي،لأنه ظهر في مرحلة التفاؤل بالسلام الذي بدأت تباشيره في عهد كارتر الذي لم يتوقف أحد من العرب كذلك عند إيمانه العميق بعقيدة الولادة الثانية. لكن الشارع العربي كان يدرس ما يحدث بعمق، وكان غير مضطر للمجاملات التي تضطر إليها الأنظمة، فقد أدرك أن الأصولية اليهودية تهدد أصوله وجذوره وأرضه وثقافته وتاريخه، وكان إحراق إسرائيل للمسجد الأقصى إيذاناً بضرورة تشخيص الصراع على حقيقته، فظهرت منظمة المؤتمر الإسلامي، ثم كان انهيار الإيديولوجيات اليسارية والشيوعية أواخر الثمانينيات، قد أحدث فراغاً فكرياً وإيديولوجيا في العالم كله ومهد لانتشار الفكر الديني، ولاسيما في أوروبا التي استعادت المسيحية بقوة،مع تصاعد لدور المسيحية الصهيونية في الولايات المتحدة، كل ذلك جعل الشارع العربي (وليس الأنظمة) يردد المقولة الشهيرة (لا يفل الحديد إلا الحديد) فمن يرفع يده عليك بكتاب ديني، وبقول الله، لن ينفع معه أن تواجهه بجدل علمي أو يساري أو اشتراكي أو تفسير استعماري أو إمبريالي، لأن اللغة التي يفهمها هي اللغة التي ينطلق منها، وتستند إلى وعد الرب. ولقد فرضت الأصولية اليهودية والمسيحية على الشارع العربي الذي انهزم في سلسلة من المواجهات أن يلجأ بعضه إلى الأصولية الإسلامية، فظهر ما يسمى في الأدبيات فكر الصحوة الإسلامية وحين جسدت المقاومة اللبنانية بقيادة حزب الله انتصار العقيدة القتالية الاستشهادية،

وجدت منظمات مثل حماس والجهاد نفسها أمام تجربة تحرير كانت الإضاءة الوحيدة في عتمة سلسلة من الهزائم فاستعادت تجربة القسام، وأعلنت الدفاع عن الأقصى، واستلهمت الفكر الديني لأنه يمنح الموت دفاعاً عن الوطن قدسية خاصة.

ومن الواضح أن الأيدي الخفية امتدت إلى الحركات الإسلامية لتحاربها من الداخل، فغذت التطرف ومنحته حق اللجوء السياسي، وهذا ليس اتهاماً مطلقاً على طريقة نظرية المؤامرة التي بات التفكير من خلالها تهمة كتهمة معاداة السامية كي يجبر العرب على اتباع المذهب الظاهري في السياسة، فلا يجرؤوا على البحث عما وراء السطور. لكن المنصفين من الغرب هم الذين يقولون اليوم إن الولايات المتحدة تحالفت مع التطرف الإسلامي في أفغانستان، وتحالفت مع التطرف القومي في العراق، والأميركيون والإسرائيليون هم الذين يسربون المعلومات عن علاقة ابن لادن والقاعدة بالمخابرات الأميركية، وهم الذين يتحدثون عن علاقة صدام ونظامه بالمخابرات الأميركية.

لقد تمكنوا من اختطاف الإسلام عبر دعم المتطرفين، مستغلين جهلهم حيناً ونقمتهم وظروفهم السيئة حيناً آخر، تماماً كما اختطفوا القومية العربية عبر دعمهم لنظام صدام، فاندفع المتطرفون المجرمون لقتل الناس في الشوارع والأحياء الآمنة باسم الإسلام، مثلما اندفع صدام لحرب إيران وغزو الكويت باسم القومية، ما جعل البشرية تنظر باستغراب واستهجان لدوافع العرب القومية والإسلامية معاً. ولقد وقفنا نحن دعاة الفكر القومي ضد ما فعل صدام باسم القومية، ووقفنا نحن المؤمنين بفكر الاعتدال والوسطية الإسلامية، ضد ما يفعل المتطرفون باسم الإسلام من عمليات قتل وتخريب وترويع .

إنني لا أصدق أن أحداً من المسلمين الذين يفهون الإسلام حقاً، يمكن أن يتصرف على طريقة باروخ غولدنشتاين، الذي اعتبره الإسرائيليون شهيداً وقديساً، والمفارقة أنه قتل مسلمين يؤدون الصلاة في المسجد الإبراهيمي، بينما تقوم المجموعات الإرهابية بقتل عرب ومسلمين، فأكثر ضحايا مجازر العمليات الأخيرة هم مواطنون سعوديون أو مغاربة.لقد بات من الضروري أن نرى ما لاتراه العين وأن نسمع ما لا تنقله الأذن وبعض وسائل الإعلام، وأن نفحص الدور التحريضي للأصولية اليهودية والصهيونية، وقديماً قيل و(بضدها تتميز الأشياء) وأنا أشك في وجود منظمة القاعدة حالياً، وأشك في كل ما تقدمه وسائل الإعلام عنها وعن رسائل صوتية وتلفزيونية تتحدى الولايات المتحدة التي تقف عاجزة أمامها، وأرفض زج الأديان في الصراع، وأجد أن التأكيد على الطابع الديني للصراع من قبل بعض قادة الولايات المتحدة وإسرائيل، هو المسؤول أولاً عن تنمية التطرف الإسلامي فضلاً عن قناعتي بوجود

أسرار خفية وراء ما يحدث من عمليات إرهابية هدفها تشويه الإسلام، وتأكيد إلصاق صفة الإرهاب به، وإعطاء المبررات لحرب عالمية ضده. وقد قال القس دافيد بريكنر عن حرب العراق إنها تنفيذ لما ورد في الإصحاح ١٨ عن تدمير بابل، وقال وزير السياحة الإسرائيلي بني آلون في هآرتس من الواضح أن الإسلام أصبح في طريقه إلى الزوال، وتساءل: أما كيف سيزول الإسلام فبكل بساطة بقيام حرب صليبية مسيحية تكون الحدث الأهم في هذه الألفية ويعترف الوزير أن إسرائيل ستواجه آنذاك مشكلة بقاء ديانتين فقط هما المسيحية واليهودية ويخشى صراعهما، والطريف أن الرافضين لخريطة الطريق من اليهود عقدوا في واشنطن مؤتمراً مسيحياً يهودياً صهيونياً بتاريخ ١٩/٥/ ٢٠٠٣ أعلنوا خلاله اعتراضهم على الخريطة الأميركية بحجة كونها خرقاً لميثاق الله، وقالوا إن هذا الميثاق أبرم بين الله وبين بني إسرائيل قبل أربعة آلاف سنة، وصرح في مؤتمرهم غاري باور (الذي نافس بوش في انتخابات الرئاسة عام ٢٠٠٠) قائلاً: إن أرض إسرائيل تعود ملكيتها إلى الله، وقد أعطاها للشعب اليهودي، ودعا خمسين مليون مسيحي صهيوني في الولايات المتحدة إلى الصلاة من أجل أن يهدي الله بوش كي يحترم ميثاق الله. وهؤلاء شأن الوزير اليهودي، لم يغفلوا الحديث عن الصراع المحتمل بين اليهودية والمسيحية بعد زوال الإسلام، لكنهم وجدوا حلاً توافقياً حين قال جان وليم هويفن من السفارة المسيحية اليهودية: (ربما لدينا اختلافات حول موضوع من هو المسيح، لكنه بالتأكيد لن يعود إلى مسجد) ولقد صفق جميع الحضور لهذه الرؤية التي يبدو مفجعاً أن تكون مسيطرة على أذهان قادة كبار في العالم يرسمون مستقبل البشرية.

ترتفع أصوات طبول الحرب لتغطي على صوت الحوار الهادىء في الغــرف المغلقــة، حيث مفكرون ومثقفون وسياسيون يدركون أن الحروب تدمر البشر ولا تحسم الخلافات، بــل تزيد العداء والبغضاء، وأن الحوار وحده والقدرة على العدل (وهو نســبي) يمكــن أن يجــدا مخرجاً للشعوب من صراعاتها بعيداً عن طريق الجحيم الذي ذاقت منه البشرية الــويلات فــي القرن العشرين، حيث مات الملايين لأسباب نراها اليوم تافهة، وكــان بوســع المتحــاربين أن يجلسوا إلى مائدة العشاء كما يجلس أحفادهم الآن فــي اليابــان وواشــنطن، وفــي درســدن ونيويورك،وأن يتفاهموا، وأن يجدوا حلاً للخلافات بعيداً عن ساحات المعارك.

وقد خاض العرب والإسرائيليون حروباً دامية على مدى خمسين عاماً ونيــف، وكانــت سجالاً على الرغم من عدم التكافؤ العسكري ــ لما حظيت به إسرائيل من دعم غربي مطلــق، لم يوفر لها الأمن على كل حال – وقد أدرك العرب ما لم تدركه إسرائيل، وهو أن الحروب لن تنهي الصراع بل ستجعله مفتوحاً على جحيم لانهائي، وقد اكتشف العــالم كلــه أن العــرب لا يعرفون الحقد، فهم حين لبوا دعوة الولايات المتحدة إلى مؤتمر السلام في مدريد جاؤوا بقلوب مفتوحة للتصافي والتسامح، وسارع كثيرون منهم لتذكير اليهود بقربى الدم والنسب، ونــاداهم بعض العرب يا أبناء العم، رغم أن الإسرائيليين الغربيين، واليهود الخزر والفلاشا والروس لا صلة نسب لهم بإسحق ويعقوب وموسى وإبراهيم عليهم السلام، فهذه القربى التاريخية هي فقط مع اليهود الساميين الذين عاشوا مع أقربائهم العرب الساميين في كل الحواضر العربية آمنــين مطمئنين قروناً طويلة، وقد دخل كثيرون منهم في الإسلام، وانتشرت الأسر (اليهودية) المسلمة في كل الأصقاع العربية، ولم يشكك أحد في صحة إيمانها من عهد عبد الله بن سبأ إلى يومنــا هذا!.

كما اكتشف العالم أن العرب ليسوا أمة ضعيفة خانعة كما صورت له إسرائيل، ولئن كانت بعض الأنظمة العربية قد أعطت هذا الانطباع، فإن المقاومة اللبنانية التــي دعمهــا الموقــف السوري الصلب، قد كشفت عن أهمية القوى الكامنة لدى الشعب العربي، فقد تكمنت المقاومــة اللبنانية من الانتصار، وصعّد الفلسطينيون مقاومتهم لجنون العظمة الإسرائيلية التــي انفتحــت شهيتها على القتل والتدمير في ظمأ لا يرتوي من دم الفلسطينيين، واستخدمت أقــوى أســلحتها لمواجهة العزل من المدنيين، ولم تنجح ولن تنجح في كسر شوكة المقاومة، ورغم أن شــارون

قتل الآلاف من الأطفال والشباب والنساء والشيوخ، واعتقل الآلاف في السجون إلا أنه سيموت وهو يشهق حسرة وألماً لأن المقاومة باقية ومستمرة، ولن تتوقف حتى تتحرر الأرض العربية.

وربما كان صحيحاً ما تنبأ به توماس فريدمان في مقال له نشر قبل أيام في (نيويورك تايمز ٢٠٠٣/١/٨) حين قال إن وقع الحادي عشر من سبتمبر على العرب والمسلمين أكبر من وقعه على أمريكا، فقد اعتبر فريدمان يوم الصدمة الأمريكية صدمة أخطر للعرب والمسلمين، تعادل في أهميتها وآثارها،غزو نابليون لمصر، وإيجاد إسرائيل، وهزيمة ال٦٧ (فحين قام تسعة عشر رجلاً من أبناء العرب المسلمين بهذا الفعل باسم إيمانهم، وجدوا نصوصهم الدينية وأنظمتهم السياسية وكتبهم المدرسية وإعلامهم وحتى حقهم في زيارة أمريكا عرضة للسؤال بحق وبغير حق).

نعم، قد يكون هذا صحيحاً ولكن ليس بسلبياته وحدها، فحتى تلك الأحداث القاسية في تاريخ العرب كانت لها إيجابياتها على كل حال، فغزو نابليون لمصر في نظر الدارسين كان انطلاقة لنهضة مصرية هامة، وهزيمة ال٦٧ كانت درساً قاسياً أفاد منه العرب ما حققوه في السادس من أكتوبر ٧٣، ومن يدري ماذا ستكون نتائج إيجاد إسرائيل وتجميع اليهود في منطقة واحدة، على نحو يكرهه كثيرون من اليهود في العالم، والمهم في الأمر أن يوم الصدمة الأمريكية التي باتت صدمة عربية كذلك أطلقت كراهية عالمية شعبية ضد أمريكا وضد الرئيس بوش، وقد تساءل فريدمان بدهشة في مقالة أخرى له في ٢٠٠٣/١/١٢ (نيويورك تايمز) قائلاً (لماذا جورج بوش مكروه لهذا الحد؟) واكتشف الجواب فقال (السبب هو أن الناس يشعرون بأن الرئيس بوش وفريقه قد توقفوا عن الحوار،وبدوا غير مبالين بحل الصراع الإسرائيلي الفلسطيني حيث هناك الكثير من القتل، لقد رفضت الإدارة الأمريكية اتخاذ موقف خلاق يوقف النزاع، وسمّت شارون رجل سلام، وهذا ما زاد من شعور الشعب بالمرارة، والعرب يعتقدون أن الحرب ضد العراق هي حرب لحماية إسرائيل).ونقول، نعم هي كذلك، والعرب ناقمون حقاً لشعورهم بأن الولايات المتحدة خذلتهم بعد أن لبوا دعوتها إلى السلام. وكانوا ولاسيما في الخليج العربي متفائلين بأن تؤول رئاسة الولايات المتحدة لإبن صديقهم الرئيس بوش الذي تربطهم به صلة عميقة ومصالح مشتركة، وهو صاحب المبادرة الشهيرة لمؤتمر مدريد، فضلاً عن التحالف الذي كان بقيادته في حرب الخليج الثانية، كما تفاءل غالبية المسلمين في الولايات المتحدة بقدوم بوش الإبن وساندوه في حملته الانتخابية، حتى إن قنوات التلفزة الأمريكية نقلت صور نساء محجبات شاركن في عد الأصوات لصالحه، وقد خاب أمل العرب والمسلمين حين أهمل الرئيس بوش قضيتهم.

ومن أسباب النقمة والإحباط شعور العرب والمسلمين بالظلم الذي لحق بهم حين اتهمتهم إسرائيل والولايات المتحدة بالمسئولية عن جريمة الحادي عشر من سبتمبر حتى قبل أي تحقيق ودون بيان أدلة وقد رفضت طلبهم بالمشاركة في التحقيقات، ورغم أن بعض الأنظمة العربية تعاملت مع الاتهام على أنه إدانة، إلا أن الشعب العربي رغم كل الجهود الإعلامية التي بذلتها الولايات المتحدة بمساعدة قنوات عربية هامة لم يقتنع بصحة الأدلة ويرى الكثيرون من خلال الارتباك الأمريكي والفوضى والتناقض في التصريحات أن ثمة سراً خفياً لابد أن ينكشف ذات يوم وأن الأدلة مزيفة ومزورة وما يزال المواطن العربي غير قادر على أن يصدق أن تسعة عشر شاباً تعلموا الطيران في بضعة أيام، وحملوا معهم كراساتهم تمكنوا من اختطاف أربع طائرات ومن تحقيق (غزوة مانهاتن وغزوة البنتاغون!) ولم يكن العرب وحدهم من أضمر عدم قناعته حتى الآن فكثيرون من الأوربيين ألفوا كتباً لفك طلاسم ماحدث، ونتائج سبتمبر تعزز الشك بما قدم من أدلة، حيث بدا واضحاً أن الحدث كان ذريعة لانطلاق صقور أمريكا للاستيلاء على العالم والتحكم بمقدراته، وأن إسرائيل وجدت من خلاله الفرصة لاجتياح ما تبقى من أرض وشعب فلسطين، والعرب يدركون سر الإلحاح الإسرائيلي اليوم على أمريكا لبدء الحرب على العراق، كذلك يشعر العرب بالغضب لغياب المنطق والعدل حين تخلط أمريكا بين المقاومة الشرعية للاحتلال وبين الإرهاب الذي عانى منه العرب كثيراً حين كان المتطرفون يحظون بدعم أمريكا وبعض دوائر الغرب، كما يشعر المسلمون جميعاً بعمق الإهانة التي يلحقها الإعلام الأمريكي والصهيوني بدينهم حين يتم وصفه بأنه دين عنف وإرهاب وهو دين العدل والإحسان.

ويتنامى شعور العرب بفداحة الظلم حين تتجاهل الولايات المتحدة ترسانة الدمار الشامل التي تتباهى بها إسرائيل، في الوقت الذي تهدد فيه العراق بالحرب بزعم امتلاكه أسلحة دمار لم يثبت وجود شيء منها، وقد فرضت عليه اثني عشر عاماً من الحصار الظالم بحجة عدم تنفيذه قرارات الأمم المتحدة، بينما تسخر إسرائيل كل يوم وعلى مدى تاريخها من الأمم المتحدة، ولا تهتم في شيء لقرارات مجلس الأمن، وكان ما حدث يوم جنين فضيحة دولية، ستبقى مخزية في تاريخ البشرية.

ولقد شعر العرب بأن إدارة الولايات المتحدة تحقد عليهم وتستصغر شانهم، وهم الذين مدوا لها يد الصداقة ومنحوها التصرف بثرواتهم وأودعوا في بنوكها أموالهم واستثماراتهم، ولكنها لم تحفظ وداً لأحد ولم ترع مكانة لحلفائها، بل صادرت الأموال، واعتقلت على الشبهات وبدأت تتدخل في التعليم والإعلام والمناهج وتهدد الأنظمة العربية على النحو الذي جعل فريدمان يرى في صدمة سبتمبر معادلاً ليوم ال٦٧.

نعم، لقد شعر العرب بالإحباط والغضب حين توقفت الولايات المتحدة عن الحوار ليس معهم فقط بل مع العالم كله، ونحن نرجو أن تدرك الإدارة في الولايات المتحدة أهمية الحوار، وقد لمسنا بعض نتائجه الإيجابية في الحوار الذي دار في دمشق قبل أيام وكان متابعة لجولة حوار في هيوستن في مايو ٢٠٠٢ فرغم أن الحوار السوري الأمريكي لم يكن رسمياً فقد أسس أرضية لتفاهم ممكن، في مرحلة أولى يجسدها استعداد كل من الطرفين لسماع فكر الآخر ولوعي رؤيته، وكذلك كان الحوار مع بريطانيا في زيارة الرئيس بشار الأسد حيث كانت زيارته متابعة للحوار الذي بدأه مع الرئيس بلير في دمشق، وقد لمسنا إيجابيات هذا الحوار في مناقشات البرلمان البريطاني وفي كتابات الصحافة وفي تصريحات سترو وفي خطاب بلير الأخير الذي حذر فيه من أن ينقسم العالم إلى قسمين ومن أن تصير الولايات المتحدة في جهة والعالم كله في الجهة الأخرى.

ولم يكن الحوار الذي أقامته سورية ً قطرياً، لأن سوريا لا تبحث عن خلاص فردي، بل كان حواراً عربياً تناول أهم قضايا الأمة من الصراع العربي الإسرائيلي إلى الأزمة العراقية إلى مكافحة الإرهاب والتفريق بينه وبين المقاومة المشروعة، وإلى أهمية الحفاظ على الشرعية الدولية، والعودة إلى عملية السلام العادل والاستجابة للمبادرة العربية.

ونحن نأمل أن تتسع آفاق هذا الحوار، وأن تقتنع الولايات المتحدة بدور يعتمد على قوة حضارتها، وليس على حضارة قوتها، لأن قوة الحضارة تعني البقاء، وحضارة القوة تعني الزوال.

رسالة الجندي الأمريكي إلى العرب

أعترف أنني لا أملك قدرة الجنود الأمريكان والبريطانيين والإسرائيليين على قتل الأطفال وتدمير المنازل والأبنية فوق رؤوس السكان الآمنين،وسيصبح هذا العجز الإنساني نقطة ضعف عندي وعند ملايين من أمثالي الذين يملكون قلوباً إنسانية، ويحلمون أن تحيا البشرية في أمان وسلام، وقد صار حلمهم نوعاً من الأوهام، بعد أن أصبح التدمير والإبادة الجماعية شعار القرن الإمبراطوري الأمريكي الصهيوني الجديد، وبعد أن قتل المنطق، وأطلقت رصاصة الرحمة على الشرعية الدولية، واستعادت أمريكا شريعة الغاب البدائية في أبشع صورها، وقد تساءلت في نفسي هل على الأجيال القادمة من العرب والمسلمين وباقي البشر من المستضعفين الذين لا يملكون ما تملك الولايات المتحدة من أسلحة تدمير، أن يتعلموا فنون القتل والإبادة لكي يستطيعوا الحفاظ على حياتهم والعيش بانسجام مع قوانين العصر الأمريكي الجديد؟!

لقد رأينا من فظائع ما فعل الغزاة في العراق ما راع وأذهل البشرية كلها، وبات كل واحد منا، يتخيل نفسه مكان ذاك الرجل الذي بكى أفراد أسرته التسعة وقد قتلهم صاروخ المحبة الأمريكي الذي جاء لتحريرهم،وكل امرأة تتخيل نفسها مكان تلك الأم التي تحتضن صغارها المذعورين وتقرأ الفاتحة والصواريخ تنهمر على بيتها، ولم يسلم من هدايا التحرير الأمريكي شهوده الصحفيون، فزملاؤنا من تلفزيون أبو ظبي وقناة الجزيرة صاروا هدفاً لصواريخ الصداقة العربية الأمريكية لمجرد أنهم يصورون طرفاً من الحقيقة،بل إن الصواريخ الأمريكية قتلت صحفيين من أمم أخرى كيلا يبقى أحد منهم شاهداً على ما سيحدث من مجازر في بغداد غير الإعلام الأمريكي الصهيوني، وباتت المفارقة أن الولايات المتحدة التي جاءت إلى الشرق الأوسط لتعلم الناس دروس الحرية والديمقراطية كما تزعم، غرقت في أبشع ديكتاتورية عرفها التاريخ،حيث تحكمها مجموعة من المهووسين بالقتل والتدمير، وقد دفعتهم نوازعهم الديكتاتورية إلى الاستهانة ليس فقط بالشرعية والديمقراطية الدولية،بل إلى احتقار إرادة الشعب الأمريكي الذي أعلن بمظاهرات لا سابق لها في حجمها رفضه للعدوان على العراق، ولقد بات من مفارقات الدهر أن الشعب الأمريكي صار يحسد العرب على ما يتمتعون به من شفافية إعلامية تتيح لناطقي العربية معرفة الحقائق في الأيام الأولى للعدوان، ومتابعة ما يحدث بحرية افتقدها الأمريكيون، لأن قادة العدوان لا يريدون أن يعرف الشعب الأمريكي فظاعة الجرائم التي ترتكب باسمه، وقد فزع هؤلاء من أن تتسرب صور جرائمهم إلى العالم عبر الإعلام العربي ولهذا السبب قصفوا مكاتب قناتي أبو ظبي والجزيرة وفندق فلسطين حيث يقيم

الصحفيون،وربما قصفوهم أيضاً ليشغلوا الإعلام العالمي عن صفقة الخيانة التي يقال إنها كانت ترتب في مطار بغداد.

ولقد بات احتقار صناع الدمار لعقول البشر مثيراً للتقزز والسخرية حين يبررون جرائمهم بأنها أخطاء التكنولوجيا الذكية أحياناً،أو بأنها نيران الأصدقاء، ويبدون أكثر استهتاراً حين يقدمون الاعتذارات التي لا تعيد الحياة لمن قتلوه.

ولقد استخدم الجنود الأمريكيون الإعلام لتقديم رسائل هامة للعرب، وأحسب أن ملايين المشاهدين رؤوا ذاك الجندي الأمريكي الشاب الذي تقصد أن يهين مواطناً عربياً يتجاوز الخمسين من العمر حين أمره بالنزول من السيارة وراح يدوس على رأسه أمام كاميرات التلفزيون،في مشهد أهون منه الموت، وكان بوسع الجندي أن يمنع المصور من التقاط المشهد الهمجي، ولكن الجندي تقصد أن يفعل ذلك أمام الكاميرات مما دعاني أن أحاول تحليل الهدف،و فهم دوافع الكاوبوي،لإهانة وتعذيب رجل مدني غير متهم بشيء، على مرأى من ثلاثمائة مليون من أبناء أمته العرب، ومليار ونصف من أبنائها المسلمين، المضطجعين أمام التلفزيون يتفرجون على الرؤوس العربية كيف توضع في أكياس خيش أو بلاستيك ليس لكي يحجب عنها الهواء والرؤية فقط، وإنما إذلالاً لما فيها من فكر وعقائد وثقافة وقيم ومقدسات،وقد وضعت عدة تفسيرات لرسالة الجندي الأمريكي، وحاولت أن أنطلق من حسن النية فقلت في نفسي لعل هذا الولد الأمريكي ناقم على حكومته، كاره للمهمة التي كلف بها،غاضب لأن قادته أرسلوه إلى ما سموه حرباً نظيفة فاكتشف أنها قذرة جداً، فقد وجد نفسه غارقاً في الجحيم،وقد تحول إلى مجرم أثيم، وربما يكون لديه شعور إنساني بوصفه مسيحياً أشبعت روحه بتعاليم المحبة والتسامح التي تمنعه من قتل أطفال ونساء وشيوخ أبرياء ومن هدم منازلهم بصواريخ مدمرة بحيث يموتون تحت الأنقاض، وقد قام بإهانة العربي على الملأ لتعرية أهداف حملة الحرية الأمريكية،وليكشف أكاذيب قادته، ولكي يفجر مزيداً من الغضب في نفوس المواطنين العرب، وليقول لمن قد يصدق أن شعبه يباد تحت شعار التحرير، انظر كم نحن قساة ومتوحشون، وكيف أننا نراك لا تستحق الحياة، فنحن نقتلك، وندمر مدنك وقراك، بأعصاب باردة، ونحن قادمون لسحق كرامتك، ولسرقة ثروتك،و من أجل أن ينعم الإسرائيليون بالأمن والرخاء، ونحن لا نهدف إلى تحرير العراق من نظام الحكم فيه، وإنما نريد تحريره من العروبة والإسلام، لكي تقام مملكة الرب في أورشليم، فكن حذراً، وهأنذا أهينك أمام جميع العرب والمسلمين عسى أن تضربهم النخوة،وأن تصفعهم المروءة، وأن يدركوا أن الدور قادم عليهم جميعاً، وهم يعلمون أننا لا نقيم وزناً لتحالف أو صداقة فعقيدتنا مصالحنا فقط، وحين ينتهي دور العميل في قانون

المافيا عندنا، نقوم بقتله، وإذا أردت أن تتأكد من حقيقة هدف حملتنا اسمع تصريحات عاموس جلعاد المبتهج بزوال قوة العراق، وحذار أن تظن أننا نقيم وزناً لأحد،فقبل أن تصل رايس إلى موسكو قصفنا موكب السفير الروسي في بغداد، رغم أن الموكب أخذ منا الأمان، لنوصل رسالة واضحة للسيد بوتين الذي قال إنه ضد حربنا، وأما الذين تظاهروا ضدنا في المدن الأمريكية فسيدركون لاحقاً أننا بفضل خطط الصهيونية صرنا سادة الأرض، فهؤلاء الذين تسمونهم أمراء الظلام، هم الذين علمونا أن ترويع البشرية وتهديدها بالتدمير طريقنا إلى امتلاك العالم، وأنا أكره أن نسود العالم بقهره وتدمير شعوبه، فلدينا في الولايات المتحدة ما هو أفضل من القنابل لكي نقدمه لشعوب الأرض.

وبالطبع سيكون التفسير الآخر لرسالة الجندي الأمريكي ولهذا الطوفان من الحقد أكثر إقناعاً وهو أن قادة العدوان تمكنوا من تعبئة جنودهم بتقوى دينية تدعوهم إلى خدمة الصهيونية والموت في سبيلها بإخلاص،وقد أوهموهم عبر خديعة سبتمبر بأن العرب والمسلمين أعداؤهم، وشحنوا في الجنود دوافع وطنية للدفاع عن أمريكا المهددة بأسلحة العراق، ومن أجل أمن وسلام البشرية يجب قتل العرب وإبادتهم لأنهم متخلفون، ودينهم يدعو إلى العنف والإرهاب، وقد كشف هذه التعبئة كتاب أمريكيون يعارضون هذا الكذب والخداع للشعب الأمريكي، ومن أبرزهم اليوم بيوكانان الكاتب الأمريكي والمرشح الرئاسي السابق الذي أعلن جهاراً أن الحرب الراهنة هي من أجل إسرائيل،وأن عقيدة قادة العدوان تدعوهم إلى قتل المسلمين تنفيذاً لإرادة إلهية.تذكروا وصية الحاخام عوفاديا الذي وصف المسلمين بأنهم أفاعي وثعابين وأفتى بوجوب إبادتهم وسحقهم أجمعين.

ولا أدري كيف تغيب هذه الحقائق عن بعض أشقائنا العرب، وقد أدهشني أن أجد بينهم من يرحب بالغزاة ولا يبالي بموت شعب لمجرد الانتقام من رجل،وأن أجد من يتفاءل حقاً بعصر الديمقراطية الذهبي الذي ستنعم به المنطقة، متجاهلاً أن الاحتلال أسوأ أنواع الاضطهاد والاستبداد، ومتناسياً الهدف الصهيوني من العدوان،وغير مقدر لخطر الفوضى التي ستغرق بها المنطقة، والتي لن تدع أحداً ينعم بالأمان،وقد رأى العالم نموذج الفوضى التي يشجع عليها المحررون الذين أطلقوا يد حثالة من المجرمين جاؤوا بهم لتشويه صورة الشعب العراقي، وأكبر دليل على كون ما يحدث من نهب وسلب هو عمل إجرامي مرتب أنه يتم في جو من الطمأنينة من جانب قوات الاحتلال التي تتحرك بأمان وسط مجموعات اللصوص دون خشية من وجود شخص وطني بينهم، ومن قرائن كون عملية التشويه للشعب العراقي مرتبة أن اللصوص لا يتنازعون على المسروقات،كما أن إصرار بعض وسائل الإعلام على تكرار

صور النهب والسلب ولاسيما في الإعلام الغربي هدفه أن ترى شعوب العالم أيّ شعب كانت تتظاهر من أجله، لكن العقلاء في العالم كله يدركون أن على الجانب الآخر الذي أبعدت عنه وسائل الإعلام ثمة أبطال من شعب العراق (الذي خدع وخذل) ما يزالون يقاومون حتى الرمق الأخير، ومن يظن اليوم أن الحرب انتهت بإعلان الغزاة النصر وتشكيل حكومة أمريكية تبدأ بالاستثمار فهو واهم، لأن الحرب الحقيقية الطويلة ستبدأ بعد الحرب، وخير دليل ما حدث بعد حرب فلسطين عام ٤٨ وبعد حرب ٦٧ حيث انتصرت إسرائيل في الحربين ولكنها لم ولن تنعم يوماً بالأمان والاستقرار، فبعد أن يلتقط الشعب العراقي أنفاسه سيثأر من كل أعدائه، وستظهر عشرات المنظمات الفدائية، وقد تتصارع فيما بينها في البداية،ولكنها ستلتقي عند تحرير الوطن من عدو لا خلاف على كونه المعتدي، ولن تهدأ المنطقة كلها، وقد يزيدها اشتعالاً امتداد العدوان إلى بلدان أخرى، وسيلتقي المقاومون من كل اتجاهاتهم عند هدف واحد هو الدفاع عن العروبة والإسلام، ولاسيما أن من أهداف العدوان طمس الخصوصية الثقافية للمنطقة، لتكون مؤهلة لحلم إسرائيل بإخضاع العرب والمسلمين لمملكة إسرائيل الكبرى، وقد بدأت فرق تربوية صهيونية من الآن بوضع مناهج تعليم جديدة للعراق تستبعد التاريخ والقرآن، متجاهلة أن الثقافة العربية الإسلامية ليست برجاً يمكن قصفه وتدميره بصواريخ كروز أو توماهوك، وقد حاول الاستعمار في الماضي طمس هذه الثقافة، ولكنه فوجىء بأنها تزداد اضطراماً في نفوس العرب والمسلمين على مر السنين.

لقد قرأت لأحد الصحفيين (والمؤسف أن له اسماً عربياً) انتقاداً للتعاطف الذي أبدته بعض محطات التلفزيون العربية في الخليج مع المقاومة العراقية ــ رغم حرصها على تأكيد كونها محايدة ــ فيما سماه كيلاً بمكيالين على الطريقة الأمريكية، فهو يقول (إنها مع الحرب على العراق، ولكنها في الوقت ذاته تناصر أعداء حملة التحرير) وتتيح لهم أن يتحدثوا على شاشاتها ضد قولت التحالف، وهو ينتقد كذلك تردد دول في الخليج في إعلان ما سماه حقيقة تأييدها لحملة التحالف، ويقول إن مستقبلنا ومصالحنا في الخليج هي مع بريطانيا ومع الولايات المتحدة وليست مع العرب الذين لا يفهمون عمق علاقاتنا مع الغرب، ويقول ليس صحيحاً أن الأمريكان سرقوا عروبتنا كما يدعي القوميون، أو سرقوا نفطنا كما يزعم اليساريون،أو سرقوا تقاليدنا كما يدعي الإسلام السياسي، وأرجو من هذا الكاتب أن يقدم لي ما عجزت عن فهمه إذن، من أسباب كل هذا الحقد الأمريكي الصهيوني الذي ينصب علينا عرباً ومسلمين في كل أقطارنا التي تتجاوز ستين بلداً عربياً ومسلماً، أعلن رمسفيلد أنه سيحاربها جميعاً على مدى عشر سنين، وليت الكاتب يخبرنا كيف نجا هو من أن يشمله هذا الحقد؟وكيف وصل إلى تعامل ندي مع

الأمريكان يحقق له السيادة في بلده؟ وأرجو ألا يكون جوابه إنه اطمأن إلى محبتهم له حين أعلن أن مستقبله ليس مع العرب والمسلمين.

لقد كان هؤلاء الكتاب يجدون في عدائهم للنظام البائد في العراق مبرراً لتأييد ما سموه (حملة الحرية) التي دمرت العراق وأعادته إلى الصفر، وما تزال تدمره حتى بعد انهيار النظام، فما موقفهم الآن؟ وهل سيستمرون في تأييد العدوان؟ وهل ما يزالون يسمون ما يرون في العراق حملة تحرير؟

ومع أن الساعة ليست ساعة معاتبة ولكنني أود أن أذكر المسرفين في دعمهم للمشروع الصهيوني عن وعي أو عن جهالة، أن بعضهم كانوا يلومون سورية قبل عقدين من الزمان حين وقفنا وحدنا ضد الحرب على إيران، وحين حذرنا من أخطارها ونتائجها، وكانت بوصلتنا لا تخطىء معرفة الاتجاه الصحيح بدليل أننا وقفنا مع الكويت حين تعرضت للغزو، واليوم حين نقف إلى جانب شعب العراق، بعد عقود من القطيعة مع النظام السياسي فيه، ننطلق من وعي دقيق للفارق بين موقف من نظام سياسي، وبين موقف من شعب أخ وشقيق، ومن إدراك للنتائج المأسوية لهذه الحرب على الأمة العربية والإسلامية جمعاء،وقد حذرت سورية في مجلس الأمن من الفوضى التي ستعم في المنطقة نتيجة هذا السطو المسلح، وهاهي ذي الفوضى تصير أخطر فصول مسرحية العدوان، وهاهي عمليات السطو المسلح تبدأ على البنوك والوزارات والمدارس وحتى المستشفيات على مرأى العالم كله وبحراسة قوات الاحتلال،التي تدعي أن الحفاظ على الأمن ليس مسئوليتها،مع أن القانون الدولي يحملها المسئولية عن أمن المواطنين الواقعين تحت الاحتلال وعن ممتلكاتهم الوطنية.

ولقد انفتحت شهية الصهيونية على تهديد الوطن العربي كله، فهل يستفيق النظام العربي من غفوته، ويقدر حجم الأخطار المقبلة، وقد زال ما كانوا فيه يختلفون؟

أم هم ينتظرون أن تزحف قوات الاحتلال على البلاد العربية بلداً إثر بلد، والأمة تتفرج على مسلسل إبادة أقطارها على شاشات التلفزيون وتكتفي بالحوقلة، وربما بالبكاء؟

ومع تصاعد التهديدات للعرب، وتكرار الحديث عن التغيير المطلوب لصالح إسرائيل، تبدأ محنة جديدة أمام النظام العربي، وسيجد نفسه بلا مبرر لأن التغيير المطلوب هو إعلان التنازل النهائي عن الحقوق العربية، وتدمير حتى الأسلحة الفردية عند العرب، كيلا يقاوم الصهيونية أحد، والقضاء على البنى التحتية في الدول العربية الناهضة، وإعادتها إلى القرن التاسع عشر،

لتوسيع الفارق العمراني والاجتماعي والحضاري بينها وبين إسرائيل، ولإشغال الأمة العربية واستغلال ثرواتها بإعادة الإعمار عبر شركات صهيونية.

ولقد أهملت الولايات المتحدة كل الدعوات العربية لتطبيق قرارات مجلس الأمن المتعلقة بالحقوق العربية، وأهملت مسيرة السلام،وصمت أذنيها عن كل الغزل العربي الذي قدم لها، لأن إسرائيل تريد أن ترى في كل عواصم العرب ما يحدث الآن في بغداد، وستختلق المبررات مهما تكن واهية لأنها تنطلق من قانون الغاب الذي بدأ تطبيقه في العراق.

أحلم ـ من موقع المواطن ـ أن يجد النظام العربي خطة (استباقية) تحمي الأمة من السقوط التراجيدي التدريجي، وأن يفجر طاقات الشعب، الذي هو وحده الضحية في النهاية، فليس بوسع أعداء الأمة أن يدمروها بدون عون منها، والدليل الحي أن أم القصر وهي قرية صغيرة قاومت أعتى الجيوش وحدها خمسة عشر يوماً، قبل أن تقع النهاية المأسوية التي لن يغفرها الله والتاريخ للمسئولين عنها.

دبلوماسية سد الذرائع

يمكن القول إن الجهد الدبلوماسي الدولي الآن يقع بين دائرتين، تبحث أولاهما عن الذرائع والمبررات لتحقيق أهداف غير معلنة، وتسعى الثانية إلى سد الذرائع، وتقويض المبررات التي تقدمها الأولى. ونذكر أن القصف الأميركي زمن كلينتون لأفغانستان ولمصنع أدوية في السودان قوبل باستهجان دولي، حيث لم يقتنع العالم بالذرائع الأميركية لذاك القصف.

لكن تفجيرات ١١ سبتمبر قدمت لأميركا المبررات الكافية والذرائع السيكولوجية لشن حرب، فقد استنكرت الشعوب جميعاً جريمة الثلاثاء الدامي البشعة، ولم يكن الهياج الأميركي المندفع للانتقام لكبرياء أمة جريحة قابلاً للمناقشة حول قانونية وشرعية الذريعة التي تقضي بتحميل الشعب الأفغاني مسؤولية الجريمة التي لم يتهمه بها أحد، ولم ترد الولايات المتحدة على مطالبة الكثيرين بتحقيق دولي يثبت مسؤولية العرب والمسلمين كذلك عن الجريمة، فقد أعلنت الولايات المتحدة أنها لا تنتظر قرار محكمة وبضع أدلة تقدم لقاض حين يتعرض أمنها إلى خطر المهم أن الولايات المتحدة تمكنت من امتلاك ذريعة قوية تبرر حربها على أفغانستان أمام الشعب الأميركي أولاً، وكان إخفاقها في القبض على ابن لادن وأتباعه وعلى قيادات القاعدة موضع شك وريبة، حتى أن بعض المراقبين بدؤوا يظنون أن الولايات المتحدة لا تريد أن تلقي القبض على القاعدة كيلا تفقد الذريعة لتنفيذ مخططها في شن الحرب على ستين دولة في العالم تشكل نصف البشرية الأضعف وقد توالت التفجيرات في مواقع عديدة في مسرح الحروب القادمة لتقديم مزيد من الذرائع والمبررات، ويلاحظ المراقبون أنه كلما هدأ المجتمع الدولي قليلاً وبدأت تظهر ملامح من الاستقرار تحدث عملية إرهابية في مكان ما، لا يدري أحد من هو منفذها الحقيقي، وكلما مال الوجدان الأميركي العام إلى إعادة النظر فيما كان يحدث، يظهر تهديد جديد من الفزاعة المسماة ابن لادن، ولا أريد أن أسرف في هذا الهامش من الحديث الذي يعرف الجميع أبعاده وخفاياه، فحسبي أن أشير إلى أنه جزء من لعبة البحث عن الذرائع التي وصلت إلى حد السذاجة والسماجة بعد سلسلة الأشرطة التلفزية والصوتية التي لم تعد تثير أحداً، ولكنها تكشف حاجة الولايات المتحدة إلى مبررات لمتابعة سلسلة حروبها القادمة وأولها في العراق، حيث لم يكن شعار مكافحة الإرهاب مبرراً مقنعاً لضرب دول ذات سيادة وشعوب ذات حضارة وعراقة. ولم تكن الولايات المتحدة تريد أن تظهر أمام العالم بمظهر الكاوبوي الذي يتصرف بغطرسة، ولا سيما بعد أن بلغ أسماع الشعب الأميركي، غير المهتم بالسياسة الدولية، أن شعوب العالم تكره أميركا وأنها أصبحت في نظر الضعفاء من شعوب الأرض غولاً

يهدد بابتلاع أطفالهم، وقد واجهت الإدارة الأميركية مشكلة أخلاقية بعد انكشاف أسلوبها في التعامل مع الأبرياء من الأفغان، غير المتهمين بشيء، سوى أن بلادهم كانت مسرحاً لصراع الكبار. حتى أن السيد توماس فريدمان كتب بمناسبة حديثه عن اجتماعات حلف الناتو الأخيرة في براغ، يشير إلى مقالة لمارك باودن عن الحرب الأميركية الجوية في أفغانستان نشرتها مجلة أتلانتيك الشهرية، في عدد نوفمبر يصف فيها مشهداً لطائرة نفاثة من طراز (f51) أمرت بقصف قافلة شاحنات أفغانية، يصف، وكان الملاح القاذف في الطائرة امرأة، كيف تم تفجير القافلة، فقد صرخت الفتاة الأميركية ــ وليتهم يستطيعون سماع صوتها على ارتفاع عشرين ألف قدم ــ لقد قُتِلتم من قبل امرأة، ويتساءل فريدمان كم امرأة طيارة تقود (f51) في الدانمارك أو لاتافيا من أعضاء الناتو؟

لقد بحثت الإدارة الأميركية عن غطاء قانوني لحربها ضد العراق فلم تجد، ولم ينقذها من ورطة البحث عن الذرائع تقرير السيد بلير الذي كان البريطانيون أنفسهم أول المنتقدين له، كما كانت تصريحات سكوت ريتر مخيبة لآمال دعاة الحرب في الإدارة الأميركية.

ولقد حاولت الإدارة الأميركية اختراع ذريعة جديدة توقعت أن تلقى قبولاً دولياً وهي ربط النظام في العراق بتنظيم القاعدة، ولفقوا حكاية عن مندوبين أحدهما من السودان والثاني من الأفغان حملا رسالة إلى القيادة العراقية بخط ابن لادن، واضطر مؤلف الرواية إلى أن يقول إن الرئيس العراقي لم يهتم بالرسالة ولكن ابنه عدي تابع الاهتمام، وقد لقيت الرواية استهجاناً دوليا، وأتوقع أن يكون المؤلف قد لقي توبيخاً بسبب عقم مخيلته التي فشلت في تلفيق صلة للعراق بأحداث سبتمبر، ولم يبق أمام الولايات المتحدة غير ذريعتها الوحيدة وهي أن العراق لديه أسلحة دمار شامل وأنه لا يهدد أمن الولايات المتحدة وحدها، بل يهدد أمن العالم كله، وربما تمكن من تهديد المريخ والزهرة وعطارد؟!

بالطبع الحلفاء يعرفون الحكاية ويدركون أن هذه ذريعة فاشلة وغير مقنعة فحتى تقرير الاستخبارات الأميركية توقع أنه من الممكن أن يكون بمقدور العراق امتلاك سلاح نووي عام ٢٠١٥ وعلى افتراض أن العراق لديه أسلحة دمار حقاً، وهذا محال بعد أن تحطم العراق على مدى أحد عشر عاماً من الحصار، فإن كل أعضاء حلف الناتو يمتلكون أحدث أسلحة الدمار الشامل، والعادلون من الناتو يتساءلون في دواخلهم كيف نقنع العالم بأخلاقية وعدالة موقفنا حين نعاقب أحداً على فعل نحن اخترعناه ولم يخف الأوروبيون امتعاضهم من التسلط الأميركي عليهم وقال كثيرون كيف سنقنع البشرية بقتل ملايين البشر بذريعة امتلاك أسلحة دمار، هذا إن وجدت ونحن نعلم أنها غير موجودة أصلاً، ولو كانت موجودة فعلاً لكان للعراق موقف أقوى

في الرد على التهديدات والاعتداءات المستمرة عليه منذ أحد عشر عاماً، والعراق لا ينكر أنه سعى يوماً لامتلاك سلاح نووي بعد أن دخلت إسرائيل نادي الدول النووية، لكن إسرائيل أجهزت على المشروع قبل أن يكتمل، ثم إن الإدارة الأميركية تعلم يقيناً أن العراق لا يملك أسلحة ذات شأن فقد دمرت بنفسها بنيته العسكرية والاقتصادية والإنسانية، وقد اعترف مسؤولون أميركيون كبار أنهم عبر استراتيجية الدفاع الوقائي التي ينتهجونها، إنما يريدون ضرب العراق لأنه قد يفكر بامتلاك أسلحة دمار، وسيكون مخزياً أن تكون الذريعة مجرد نية لا دليل عليها، فأما الإحراج الأكبر للمجتمع الدولي كله في هذه الذرائع فهو في كون إسرائيل تصرح علناً بامتلاكها أسلحة دمار شامل وتصرح برفضها الانصياع لعشرات القرارات التي أصدرها مجلس الأمن ضدها، وتستخف علناً بهيئة الأمم كما فعلت في موقفها من لجنة تقصي الحقائق في جنين، وإسرائيل تتابع إبادة الشعب الفلسطيني بأسلحة تدمير أميركية الصنع، فكيف ستقنع أميركا شعوب الأرض بأنها تنشر العدالة وتحقق قيماً إنسانية وهي غارقة في مساندة الظالم والانحياز لصالح المحتل ضد أصحاب الأرض وأصحاب الحق الذي تعترف لأصحابه نظرياً به فأما المواطن الأميركي البسيط والطيب فقد انتفض في صحوة على الحقائق، وبدأ يدرك أنه مطالب بأن يخوض حرباً بالنيابة عن إسرائيل حيث لا هدف للحرب ضد العراق سوى ضمان أمن إسرائيل وتمكينها من التوسع الجغرافي على حساب حقوق الآخرين ومنحها فرصة الخلاص من الفلسطينيين حيث بوسعها أن تستغل انشغال العالم بدمار العراق فتدمر غزة وتحتل ما تسميه يهودا والسامرة، وتطرد من سيبقى حياً من الفلسطينيين إلى صحراء العراق. ورغم أن الدبلوماسية الأميركية تعتبر هذه المخاوف العربية وهماً، وتريد إشراك العرب في حربها ضد العراق كي لا تبدو حملتها صليبية، وكيلا تبدو حرباً بالنيابة عن إسرائيل، إلا أن العرب لن ينفعهم العتاب للأميركيين إذا ثبت أن هذا الوهم حقيقة، فما يزال العرب إلى الآن يعاتبون حليفتهم القديمة بريطانيا العظمى التي وضعوا زوادتهم الثورية في حضنها الدافئ حين قاموا بما يسمى الثورة العربية الكبرى ثم اكتشفوا أنها باعتهم بدون ثمن لإسرائيل ناسية كل وعودها الوردية لهم.

وقد حاولت الإدارة الأميركية تبديد هذه المخاوف الشعبية العربية عبر تصريحات رئاسية عن رؤية لدولة فلسطينية وأخرى إسرائيلية، ومن الواضح أن الرؤية غائمة كما وصفها السيد غراهام فولر حين قال بصراحة: إن الرئيس بوش لا يملك استراتيجية لحل الأزمة في فلسطين، فهو مشتت الذهن بين انقسامات معارضيه، وكانت الذرائع التي قدمها السيد تشيني في جولته على القادة العرب لإقناعهم بالانضمام إلى تحالف ضد العراق قد أخفقت في استغلال الخلافات

العربية السابقة مع النظام العراقي، وكانت المصالحات التي شهدتها قمة بيروت رداً عملياً على المراهنة الأميركية على المشاعر الخفية، وعلى إمكانية تحقيق تحالف مماثل لتحالف حرب الخليج بعد غزو العراق للكويت، فقد تبدلت المبررات واختلفت الأسباب، ولم يكن العرب وحدهم الرافضين للحرب ضد العراق، فالمجتمع الدولي كله رافض.

ولكن الدبلوماسية الأميركية انتصرت على العسكرتارية كما يبدو، منذ أن أعلن السيد باول استعداده لدراسة المقترحات الفرنسية في مجلس الأمن، وكان هدف هذه المقترحات الحفاظ على هيئة الأمم، وعلى مكانة مجلس الأمن، وعلى المرجعية الدولية، وإعطاء الدبلوماسية مزيداً من الفرص لدحض الذرائع الواهية ومنع الولايات المتحدة من الانسياق وراء دعاة التفرد، ونعتقد أن سوريا عبرت عن فهم دقيق لأهمية موافقتها على القرار ١٤٤١ وكانت بالطبع تعبر عن قرار عربي اتخذ بالتنسيق مع الأشقاء العرب ومع الجامعة العربية، فضلاً عن الجهد الديبلوماسي الذي تمكنت من خلاله من أن تحصل على تفسير دولي دقيق للقرار بأنه لا يتضمن عملاً عسكريا تلقائياً، ولقد حقق موقف سوريا اكتمالاً لحصانة الشرعية الدولية التي كانت مهددة بالانهيار، وبوسعنا أن نتصور كيف كان من الممكن أن يستغل اللوبي الصهيوني في الإدارة الأميركية موقف سوريا لو أنها رفضت القرار أو امتنعت عن التصويت، وهو الباحث عن ذريعة لتوريط أميركا والعالم كله في حرب مدمرة سيكون الرابح الوحيد فيها مشروع إسرائيل.

عصر انهيار الشرعية

إذا كان الحادي عشر من سبتمبر يؤرخ لعصر جديد، فإن هذا أهم سمات هذا العصر الجديد هي انهيارالشرعية الدولية، وغياب الديمقراطية الغربية، وموت حقوق الإنسان، وإسقاط كل ما أنجزته البشرية عبر تاريخها الطويل من انتصار لقيم الحق والعدل والمساواة، وحق الشعوب في تقرير المصير.

إنه عصر انتصار الصهيونية على الغرب المتقدم الذي باتت النخب السياسية فيه تعيش حالة من الاستلاب الفكري والثقافي لدرجة أن ينساق بعض كبار الساسة في الولايات المتحدة وبريطانيا إلى الإيمان بضرورة خوض حرب في العراق، لأنها المدخل لمعركة هرمجدون الكبرى (وهو اسم جبل في القدس الشرقية) حيث تتم إبادة الشعب الفلسطيني وإجلاء من يبقى حياً بعيداً عن أرض إسرائيل، لتمكين اليهود بوصفهم شعب الله المختار من إقامة دولتهم الكبرى، التي ستشهد عودة المسيح وإقامة حكومة الرب، وحيث يتم هدم كل المساجد والكنائس ليقام على أنقاضها الهيكل المزعوم.

هذه هي الدوافع الحقيقية لإصرار الولايات المتحدة وبريطانيا وإسرائيل على خوض حرب ضد العراق، وأما نفط العراق ونفط الخليج فهما غنائم مستباحة ولاحاجة لخوض حرب كبرى للحصول على النفط لأنه بيد الغرب دون ممانعة حتى من قبل أن تتمركز قوات التحالف عند آباره وينابيعه، ولم يهدد العرب الغرب باستخدام سلاح النفط بعد حرب أكتوبر رغم هتافات الشارع، ورغم أن العرب المالكين لثروة النفط مغبونين ومرغمين على توقيع عقود إذعان، ورغم أن حصصهم من عائدات نفطهم أقل من حقهم بكثير، وأن هذه العائدات تعود إلى الغرب ثمن استيراد يبدو الكمالي فيه أضعاف الضروري، وأهل الاقتصاد أعلم مني بثمن فواتير العطور المستوردة فما بالك بفواتيرالطائرات والسيارات وقطع الغيار والتقنيات المختلفة فضلا عن فواتير الأغذية والأدوية، وكلا الطرفين العرب والغرب يحتاجان استمرار هذه العلاقة، وأما نفط العراق فهو تحت الحصار، والولايات المتحدة هي التي تحدد المسموح بتصديره (مقابل الغذاء).

وأما دافع أمريكا إلى بسط نفوذها على أرض العرب فهو متحقق دون حرب، فهاهي ذي أراضي العرب تتحول إلى قواعد عسكرية أمريكية وبريطانية باتفاقيات مصدقة ولا حول للعرب ولاقوة في رحيلها أو بقائها، ولولا أن الولايات المتحدة أسفرت عن عداء عميق حاقد

على العرب ودعم مطلق لإسرائيل لنسي الكثيرون من العرب أن قواعد أمريكا العسكرية على أبواب بيوتهم ولبات وضعها في المنطقة مثل وضعها في ألمانيا وفي اليابان على مر عقود.

وأما دافها إلى بسط نفوذ سياسي فهو كذلك لايحتاج إلى حرب لأنه متحقق، وعين النظام العربي لا تريد الدخول في مغامرة مقاومة المخرز الأمريكي، والمفارقة أن الأمريكان يقولون في دراساتهم وأدبياتهم السياسية أن من أسباب كراهية الشارع العربي لأمريكا هو دعمها لأنظمة عربية لاتريدها شعوبها،وكذلك دوافع المصالح كلها لاتحتاج إلى حرب، لأن العرب هم الذين يذكرون أمريكا وبريطانيا بمصالحهما في المنطقة ويعلنون الخشية عليها من غضب الشارع العربي، والنظام العربي شريك في هذه المصالح ولو بنسب ضئيلة، ولكنه لايهدد ولايمانع، وحتى في الصراع العربي الإسرائيلي وضع العرب قضيتهم في السلة الأمريكية، وقبلوا أن يكون الخصم هو الحكم حين سلمت أمريكا القضية لموظفيها من اليهود وعلى رأسهم أولبرايت واستقبلهم العرب وفاوضوهم، ولو أنهم كانوا صادقين في التوجه إلى السلام لكان الأمر منتهياً الآن، وبعد إعلان أمريكا حربها على أفغانستان قدم العرب عرضاً سخياً للسلام في المبادرة العربية التي رحبت بها أمريكا ثم جاءتها الأوامر من إسرائيل برفضها.

لقد بات واضحاً ان الدافع الحقيقي لضرب العراق هو تنفيذ الوصايا الدينية بتمكين اليهود من أرض فلسطين كلها، وقد اعترف مستشارو بوش الأب (في أدبياتهم) بأنه كان شديد الإيمان بوعد التوراة بالنصر في «هرمجدون» وقد خاض حربه ضد العراق مطلع التسعينيات على أمل ان تكون هي الحرب التي وعد بها الرب، ولئن كان بوش الأب قد وجد ذريعة لحربه وللتحالف الدولي معه في غزو العراق للكويت، فإن بوش الابن لا يملك أية مبررات الآن، فهو يقول إن العراق يهدد الأمن والسلام في العالم، ويمتلك أسلحة دمار شامل، في نفس الوقت الذي يؤكد فيه الخبراء العسكريون والسياسيون وآخرهم سكوت ريدر (الرئيس السابق لفريق الأمم المتحدة للتفتيش) بأن العراق لا يملك أسلحة دمار شامل، ولا يشكل أي تهديد لجيرانه، ولا يستطيع أن يشن هجوماً خارج حدوده، ويبدو أن هؤلاء يتجاهلون الأسباب الحقيقة، ولعلهم لا يقتنعون بها، مما دعا الرئيس بوش (ومعه بلير) إلى افتعال ذريعة مضحكة هي (احتمال) امتلاك العراق أسلحة نووية، ووجود (نية) لديه تطوير أسلحته، وقد قال الوزير باول إن العراق (ينوي) الحصول على السلاح النووي ولكنه بحاجة إلى تسع سنوات قبل أن يتمكن من إنتاجه..وسيكون من طرائف التاريخ أن تنشب حرب مدمرة تحارب النوايا والاحتمالات.

وثمة ذريعة أخرى سوقها الرئيسان " بوش وبلير" هي أن العراق يتحدى المجتمع الدولي منذ عشر سنوات (ولم يقل الرئيسان كيف كان التحدي وسط حصار ظالم مات بسببه ملايين الأطفال في العراق)..

يبدو أن الرئيسين يخجلان من مصارحة المجتمع الدولي بحقيقة دوافعهما لدعم إسرائيل دعماً مطلقاً في عدوانها الهمجي الوحشي على شعب فلسطين، وهو الدافع ذاته، لضرب العراق، وتقسيمه وتشكيل خريطة جديدة في المنطقة تسمح بإقامة معتقل كبير يزج فيه ملايين الفلسطينيين وسط دول عرقية وطائفية موالية لإسرائيل تحكم الحصار على الفلسطينيين وتسد عليهم الماء والهواء وتمنعهم من أي حراك يقلق إسرائيل.

والمفجع أن الحلم الإسرائيلي دخل طور التنفيذ بعد أن تمكنت الصهيونية بدهاء خارق من زج الولايات المتحدة وتابعتها (الإمبرطورية العظمى سابقا) في حربها ضد العرب والمسلمين بعد افتعالها الأكيد لجريمة الحادي عشر من سبتمبر واتهام مجموعة إسلامية أصولية كانت على مدى عقود حليفاً للولايات المتحدة تحالف دم، حيث كان من الصعب قبل هذه الجريمة إقناع الشعب الأمريكي وشعوب الغرب، بأن مقاومة الفلسطينيين للاحتلال الإسرائيلي هي إرهاب يجب اجتثاثه، وبأن العرب يكرهون الحضارة الغربية وناقمون عليها ويريدون تدميرها، وبأن الإسلام دين يدعو إلى العنف، ويحكم بالكفر على كل من سواه، وبأنه يشكل الخطر المهدد لثقافة البشرية، وبأن الأصولية الإسلامية ستفجر عواصم الغرب واحدة تلو أخرى.

كان من الصعب على الصهيونية أن تمضي في إبادة الشعب الفلسطيني دون حدث جلل هو الحادي عشر من سبتمبر، وأياً كانت الجهة المنفذة لهذه الجريمة (حتى لو كانت منظمة القاعدة نفسها) فإنني أصر على قناعتي بأن الجهة المدبرة هي الصهيونية.. وقديماً قال شكسبير " الأمور بخواتيمها " وقد كشفت الخواتيم أسرار تلك الأمور وأفاق كثيرون من الأمريكان والأوربيين على حقيقة (الخديعة المريعة) لكن الأساليب الإرهابية التي تتبعها الصهيونية لإسكات كل من ينبس بكلمة حق، جعلت الكثيرين حتى من القادة الكبار الذين يصعب ان يصدقوا (الروايات السخيفة التي قدمت على أنها أدلة) يؤثرون الصمت، وأحياناً تفلت كلمة حق فتقيم إسرائيل الدنيا ضد من قال او همس، كما فعلت حين تورطت زرجة بلير فعبرت عن شكها في دوافع من يسمونهم انتحاريين، وكادت تسبب أزمة لزوجها.

لقد كانت الصهيونية مضطرة حقاً لذاك الحدث الجلل (الحادي عشر من سبتمبر) لأن الانتفاضة الفلسطينية حققت تعاطفاً شعبياً عالمياً، وبات محرجاً للصهيونية، وهي أعظم وأقوى

منظمة عنصرية دولية، أن ترى شوارع أوربا (صانعة إسرائيل) تكتظ بالمتظاهرين الأوربيين الذين يعلنون تعاطفهم مع الحق الفلسطيني، وكان محرجاً لها، أن تمضي الإدارة الأمريكية بجدية في العملية السلمية التي دعت إليها في مدريد..

فقد بدت الإدارة الأمريكية في عهد الرئيس بوش الأب جادة في البحث عن سلام في الشرق الأوسط رغم أن شامير لم يكن جاداً، وحين أبدى رابين تفهماً لمصلحة إسرائيل في السلام قتلته الصهيونية، ولو أن بيريز تابع دربه للقي ذات المصير، لكنه غسل يديه من ذنب رابين بدماء أطفال قانا لينال البراءة اليهودية، وسلم عرش " الرب " للحاخام الصغير " بيبي " الذي صار بفضل غطرسته وتعنته أكبر من إسرائيل كلها (كما تقول زوجته) وقد جاء متشحاً بعبادة شاس وفكرها التوراتي الأصولي، ليس من أجل أن يصفع الباكين على دم رابين ممن نسوا درس الصهيونية الأول، واقتنعوا بإمكانية السلام مع العرب، وليس لكي يمد لسانه في وجه أصدقاء إسرائيل من العرب الذين انبهروا بشرق أوسط جديد رسمه بيريز في رؤيته الشهيرة، وإنما لكي (يحرق واشنطن) كما قال علناً. ولقد ظننا في بادئ الأمر أنه أحرقها بفستان مونيكا لوينسكي، أو بسيجار الرئيس حين انكفئ مشروع كلينتون الجاد لإحلال السلام في المنطقة، وصار همّ الرجل أن يداري الموقف الحرج الصعب الذي وضعته فيه تلك الصبية اليهودية التي نصبت له شركاً، فوقع في الفخ دون أن يخطر له أن كاميرات خفية ترصد حركاته وانفعالاته في غرفة الخرائط، لتهز مكانته، وتجعله مضطراً لتجاهل الحق في كل المفاوضات اللاحقة في واي بلانتيشن وفي شرم الشيخ وطابا وفي كامب ديفيد الثانية وأخيراً في قمة جنيف مع الأسد الراحل..

وليت كلينتون يجرؤ على رواية الحقائق التي عاناها مع الصهيونية ويروي للبشرية حقيقة ما حدث، لكن الرجل مضطر للصمت ليرد الجميل لزوجته هيلاري التي ستنال من الصهيونية تعويضا مناسبا عن الأضرار النفسية التي لحقت بها، وعن صمتها هي الأخرى عن كثير من الحقائق، وليس مستبعدا أن يكون التعويض عودة ميمونة إلى البيت الأبيض، بصفة (الرئيسة) وليس بصفة (زوجة الرئيس) التي بدت في الأزمة أقوى من الرئيس.

حقا، لم يخطر على البال في أواخر التسعينيات أن يكون تهديد نتنياهو بإحراق واشنطن يتجاوز فستان مونيكا، لكن ما حدث في ١١سبتمبر يدعونا إلى أن نتأمل ما وراء الحدث وما وراء أهدافه، وأن نشك بوجود تنظيم سري داخل منظمة الصهيونية نفسها،افاق ونهض إلى الحياة حين تصدرت عناوين الصحف الكبرى في العالم عناوين مثيرة تعلن (موت الصهيونية) واستعداد المجتمع الإسرائيلي للسلام والتعايش مع الفلسطينيين، والاعتراف بحقهم في إقامة دولة

مستقلة وذات سيادة أوشك ان يقتنع بها باراك لولا ضغط جهابذة الصهيونية المجرمين الكبار من أمثال شارون، وحين بدا العالم كله مقتنعاً بمرجعية مدريد، وحين تبنت الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي ودول العالم حق العرب في استعادة أرضهم المحتلة حتى حدود الرابع من حزيران وحين دعا المجتمع الدولي كله إلى تنفيذ قرار الشرعية الدولية بحق اللاجئين في العودة، وحين أصرت الإدارة الأمريكية نفسها على تفكيك المستوطنات (حتى في تقرير ميتشل الذي نسيه الرئيس بوش بعد طول تعلق به) وحين أعلن العالم بما فيه الإدارة الأمريكية والاتحاد الأوروبي كذلك استنكاراً لاقتحام شارون للمسجد الأقصى، وحين بدأ الأوروبيون (برضا أمريكي صامت) يعدون لملاحقة شارون بوصفه مجرم حرب وحين تحرك الضمير الأوروبي مواكباً الضمير الإنساني للتعاطف مع شعب العراق، وأعلنت أمم العالم كلها دعمها للانتفاضة الفلسطينية واستنكارها لتمرد إسرائيل على قرارات مجلس الأمن وهيئة الأمم، وحين اضطر شارون لتخصيص مائتي مليون دولار لتكاليف حملة إعلامية لتبييض وجهه الأسود الذي كرهه الأوروبيون والأمريكيون واستهجنوه كما كرهه العالم كله..

بعد كل ذلك كان لابد من الحدث الجلل الذي يقلب الدنيا عقبا على رأس، وكان الحادي عشر من سبتمبر، حريق واشنطن الذي وعد به نتنياهو، والجريمة الكبرى التي اقترفها قتلة رابين، ليبدأ العالم عهداً جديداً تحقق فيه الصهيونية انتصارها على الإدارة الأمريكية التي أحسب أنها شهدت في ذاك اليوم الفاجع انقلاباً عسكرياً كذاك الذي يحدث عادة في دول العالم الثالث، ولكن على الطريقة الأمريكية.

وبشكل منظم ــ وسط ضجيج وهدير الآلة الإعلامية الصهيونية – تم اتهام العرب والمسلمين قبل أن يبدأ شرطي بالتحقيق).

وتم إذكاء مشاعر الكراهية والعداء للعرب والمسلمين، وإجبار الإدارة الأمريكية (بعد اكتشافها مكامن القوة في الحركة الصهيونية) على تجنيد كل طاقات أمريكا لصالح إسرائيل ولتحقيق حلمها الأسطوري، وتوجيه ضربات متلاحقة قاتلة للمجتمعات الإسلامية، وإعلان أن مقاومة الفلسطينيين للاحتلال الإسرائيلي هي إرهاب (رغم أن في ذلك الزعم إهانة لتاريخ الشعوب التي تحررت من الاستعمار والاحتلال الأجنبي لأرضهابفضل المقاومة) وتم قتل عملية السلام وإعلان سياسة الإرغام على الاستسلام بالقوة، والإسراع بتنفيذ خطط المشروع الصهيوني بما يسمونه الترانسفير، بإجلاء الشعب الفلسطيني عن أرضه إلى معتقل كبير وسط العراق، تحيط به دول تقام من أجل حصاره وضمان مواته حتى تنهض دولة إسرائيل الكبرى وسط دويلات صغرى تهلكها الحروب الأهلية الطائفية والعرقية، ومن أجل ذلك يتزامن

مشروعان صهيونيان كبيران أحدهما يسيطر على الفرات والثاني يسيطر على النيل ــ ولكي ينجح المشروعان تغرق تركيا في الأزمات السياسية، وتغرق السودان في الحرب الأهلية.. وأما سورية الواقعة على تخوم هرمجدون والتي لم تقع في الفخ الإسرائيلي، والتي رفضت أن تدفع ثمن الوجبة الفاسدة سلفاً، فقد أرهقت اللوبي الصهيوني عبر تمسكها بالشرعية الدولية وبمرجعية مدريد فلم يجد وسيلة لإرهاقها غير دعوة الكونغرس إلى سن قانون لمحاسبتها وتبدو حيثيات القانون أوسمة شرف على صدر كل مواطن سوري لأن التهمة الأساسية لسورية هي رفضها التنازل عن الحقوق العربية ودعمها للمقاومة في لبنان وفي فلسطين.

وسيكون من المفارقات الكبرى أن تحاسب الولايات المتحدة سورية على تمسكها بما دعتها إليه الولايات المتحدة نفسها، وبما أقرته لها الشرعية الدولية التي أعلن الرئيس بوش موتها حين أعلن تصميمه على ضرب العراق منفرداً، غير عابئ بما يسمى هيئة الأمم المتحدة، وهو بذلك يطرق المسمار الأخير في نعش الديمقراطية الدولية، ليبدأ عصر استبداد صهيوني إمبراطوري فوضوي يشمل العالم كله.

لماذا يريد العرب السلام وتريد إسرائيل الحرب؟

بات واضحاً للعالم كله أن إسرائيل تتهرب من السلام، والأوربيون والأمريكان يعرفــون هذه الحقيقة بدقة، فهم الذين تحرجهم إسرائيل حين تطلب من بعضهم أن يزيــف الحقــائق،وأن يعلن عكس قناعاته، فتحدد له من يقابل حين يزور المنطقة العربية، وماذا عليه أن يقول!ومــا حدث يوم اجتياح إسرائيل للمسجد الأقصى، ثم في مجزرة جنين سيبقى وصمة عار لن يغفرها الأحفاد للأجداد، ومن يعود إلى تصريحات الرئيس بوش تلك الأيام القريبة العهد فــي الــذاكرة سيدرك حجم الإحراج التاريخي الذي سببته إسرائيل لأولياء نعمتها الذين لن يستطيع أبناؤهم في المستقبل التهرب من تحميل آبائهم المسئولية عن مجازر لاإنسانية حدثت وتحــدث بعلمهــم أو بموافقتهم وليس بوسعهم الادعاء بأنها تحدث رغماً عنهم إلا إذا اعترفوا بأنهم مجرد مــوظفين في المشروع الصهيوني.

وكانت إسرائيل قد أحرجت الرئيس بوش الأب وفريق إدارته، حين جعلت مــن مــؤتمر مدريد ملهاة هدفها تضييع الوقت أو لنقل كسبه لصالح مشروعها التوسعي الاســتيطاني، بينمــا كان العرب أوفياء لرؤية الرئيس بوش الأب للسلام التي أجهزت عليها إســرائيل، بــل عمــل أنصارها على معاقبة الرئيس بوش الأب لأنه أجبر إسرائيل على إعلان قبولها بالسلام، وتمت إزاحته عن سدة الرئاسة في الولايات المتحدة، رغم الانتصار الساحق الــذي حققــه (أمريكيــاً وإسرائيلياً) في حرب الخليج الثانية التي خاضها متمنياً أن تكون هــي معركــة (هرمجــدون) المقدسة كما تقول الروايات الأمريكية عن تدين الرئيس وإيمانه المطلــق بمشــروع إســرائيل وبالعهد الجديد.

وحين جاء الرئيس كلينتون ظن أنه سيرضي إسرائيل من خلال تفرغه شبه الكامل لإقامة السلام في الشرق الأوسط، وقد عمل المستحيل لإجبار الجانب العربي على التخلي عن القدس، والاكتفاء بسلطة رمزية على بضعة أمتار مربعة حول الحرم، وبــالتخلي عــن حــق العــودة للفلسطينيين، مع عروض دولية لتوطين بضع مئات أو آلاف في تخوم القارات الخمس، وبغض الطرف عن المستوطنات التي أصبحت مدناً، مع الاكتفاء بتفكيك بضع مستوطنات من تلك التي لا يزيد عدد المستوطنين فيها على عشرات، ولكن كلينتون أخفق في إجبار الفلسطينيين علــى تقديم المزيد من التنازلات المجانية، كما أخفق في إجبار العرب الآخرين على تقديم رقابهم إلى الجزار الإسرائيلي، وبدا أن الرجل لم يكن مقتنعاً في داخله بمطالب إسرائيل، وربمــا اكتشــف الإسرائيليون أنه حين اقترب من العرب فوجىء بحقائق لم يكن يعرفها من قبل، ولم يعد بوسعه

أن يذهب أبعد مما يقبله العقل، ورغم أنه حرص على أن يعهد بملف الصراع العربي الإسرائيلي لمجموعة يهودية في الخارجية الأمريكية من أولبرايت إلى روس وبينهما أكثر من خمسين يهودياً حكموا الدبلوماسية الأمريكية في عهدكلينتون، إلا أن هؤلاء أيضا لم يتمكنوا من إرضاء قادة الصهيونية لأنهم عبر الدبلوماسية وحدها لم يستطيعوا سحق المنطق الذي تمسك به العرب، ولاسيما بعد أن قدم بعض العرب المزيد من الأدلة أمام البشرية على أنهم يقبلون بأقل بكثير ما أقرته لهم الشرعية الدولية،كما حدث في أوسلو مثلاً، وكانت المفارقة أن الفلسطينيين الذين رفضوا اتفاقية أوسلو منحوا إسرائيل فرصة تقديم المصداقية على ما وقع عليه قادتها، لكن الإسرائيليين عاقبوا من وقع على اتفاقية أوسلو فقتلوا رابين، ووجد بيريز نفسه يتحول من مبشر بشرق أوسط جديد يحل فيه السلام والرخاء إلى سفاح يقتل عشرات الأطفال في مجزرة قانا الشهيرة التي ختم بها تاريخه السياسي ليقدم الدليل لمن قتلوا رابين على أنه ليس أقل منهم عداء وكراهية للعرب، وقد جاء نتنياهو ليقلب الطاولة في وجه كل من دعا إلى السلام، وقدم له طاقم عمله (وكان من بين مستشاريه بعض كبار قادة البنتاغون اليوم) مشروعاً بديلاً لمبدأ الأرض مقابل السلام، هو الأمن مقابل السلام، والأمن المقصود لم يكن أمن إسرائيل وإنما هو أمن العرب الذين تريد إسرائيل أن تبيعهم حق التنفس مقابل أن يتنازلوا عن كل حقوقهم التاريخية.

ولكي يضمن نتنياهو موافقة الولايات المتحدة على هذا التعديل الخطير لمبدأ مدريد كان عليه أن يلوي ذراع قادة الولايات المتحدة، وأن يضعف موقع الرئيس الأمريكي، وقد بدأ ذلك باستعراض القوة حين وقف أعضاء الكونغرس يصفقون للسيد نتنياهو فيما يشبه التحدي لكلينتون الذي سرعان ما غرق في مستنقع فضيحة مرتبةهزت مكانته الأخلاقية والدولية، ولكن الشعب الأمريكي تعاطف مع رئيسه معبراً عن إدراك عميق لخفايا ما يحدث وأهدافه، وحين جاء الرئيس بوش الابن بدأ التحضير لمسرحية الحادي عشر من سبتمبر لمنح الولايات المتحدة المبرر الأخلاقي والذرائعي لإعلان الإمبراطورية الأمريكية الصهيونية، وقد تم إعلان الحرب على الإرهاب الذي يعتقد كثيرون أنه كان مفتعلاً، وأن حقيقة الحرب ضده كانت من أجل فرض المشروع الصهيوني، وإجبار العرب على الاستسلام لكل إملاءات إسرائيل، وتقديم المنطقة بكل شعوبها وثرواتها هدية أمريكية لإسرائيل الكبرى.

ويبدو أن إسرائيل التي جربت السلام مع بعض الدول العربية استقرأت نتائج هذا السلام فوجدت أنه لم يكن في صالحها، وهي ليست مخطئة في هذا الاستقراء لأنه كان سلاماً جزئياً منفرداً منقوصاً، ولهذا لم يحقق الأمن والاستقرار في المنطقة، وقد كان وهماً أن يصدق أحد

بإمكانية إخراج مصر أو الأردن من جسدهما العربي، وأن يضمن وقوفهما على الحياد، تتفرجان على الشعب الفلسطيني، وهو يذبح ويقتل وتهدم منازله وتستباح أرضه وكرامته، وكان طبيعياً أن تلتهب مشاعر الشارع العربي والإسلامي في العالم كله وهو يرى كراهية عمياء مشبعة بالحقد التاريخي على العرب والمسلمين، لاتراعي حقوق إنسان ولا كرامة أديان، بل تفتعل المبررات لتحقيق السيطرة المطلقة على المنطقة العربية والإسلامية، ولم يكن أحد في هذا الشارع يخفى عليه أن الحركات الدينية المتطرفة التي مارست الإرهاب هي صناعة أمريكية لا شأن للنظام أو الشعب العربي بها، ولم يكن يخفى على أحد كذلك أن صدام حسين هو مشروع أمريكي منذ يفاعته إن لم يكن منذ ولادته، وأنه قدم لإسرائيل خدمات جلى بعضها أهم مما قدم بن غوريون وجولدا مائير، كإعلان الحرب على الإسلام الصاعد في إيران، وتحطيم المشروع القومي وتمزيق جسد الأمة من خلاله غزوه للكويت، ومهما حاول أعداء نظرية المؤامرة أن يفلسفوا ما حدث فإن أحداً لن يقتنع بأن كل هذا السيناريو المحكم كان مجرد مصادفات تصب في صالح إسرائيل وحدها،وتسهم في النهاية بجر المنطقة إلى الحروب غير المتكافئة،لأن الحرب تضمن لإسرائيل بقاء تفوقها العسكري (المدعوم بشكل غير مسبوق من أعظم قوة في العالم) سيداً وقابضاً على القرار، بينما ستجد إسرائيل نفسها لو أنها قبلت بالسلام العادل والشامل مضطرة لإعادة الحقوق التي اغتصبتها إلى أصحابها،، رغم أن السلام الذي أبدى العرب استعدادهم لقبوله نسبي في عدالته، فهو يرضيهم من حقهم وليس من حق عدوهم الذي لا يملك أي حق في المنطقة لولا أن العرب والمسلمين ضعفاء مهزومون من الداخل والخارج.

لقد رفضت إسرائيل المبادرة العربية للسلام، ولم يخف قادتها حقيقة خوفهم من السلام فقد وصف بيريز العودة إلى حدود الرابع من حزيران بأنه انتحار لإسرائيل، وحذر مفكرون وباحثون إسرائيليون من أن يجعل السلام إسرائيل دولة عادية مثلها مثل الدول المجاورة، لا تنفعها ترسانة أسلحة الدمار الشامل التي تملكها في شيء إذا حل السلام، لأنه لن يكون منطقياً أن تهدد جيرانها بعد أن يسود السلام، كما حذر الباحثون الإسرائيليون من فشل المشروع الأمريكي الصهيوني الحالم بالتغيير الثقافي لمنطقة الشرق الأوسط، حيث لن يكون سهلاً أو ممكناً تهويد ثلاثمائة مليون عربي مسلم ومسيحي، فمن سيترك دينه منهم فلن يخسره الإسلام أو المسيحية ولن تربحه اليهودية، وأما الحلم بالتغيير الثقافي داخل الدين ذاته فلن يكون ممكناً إصدار قرار من أي حاكم عسكري أمريكي أو إسرائيلي بشطب آيات من القرآن الكريم أو بإضافة آيات، وقد تعاني السيدة رايس حالة اكتئاب إن صدقت وهماً بأن بإمكانها تغيير أرواح

وعقائد العرب والمسلمين، كما تشهت في مقالة أخيرة لها نسيت فيها أن تطالب بإحداث أي تغيير بالتوازي على الثقافة أو العقائد الإسرائيلية التوراتية..

إننا ندرك أن صوت القوي أعلى من صوت الضعيف، وأن من يحمل قنبلة قادرة على الإبادة والتدمير يحق له ما لايحق لمن يقف ووجهه إلى الحائط، لكننا نعتقد أن الحياة بذل أتفه من أن تعاش، وهذه الحقيقة يكتشفها ببساطة المراهقون والمراهقات الذين يدركون أنهم سيعيشون أذلاء بلا كرامة وبلا حقوق إنسانية أو حتى حيوانية في ظل الإرهاب الإسرائيلي، وهم يجدون الانسحاب من الحياة أفضل من الاستمرار في الحياة الذليلة، ولكنهم بالطبع لايقبلون الانسحاب بهدوء، بل بضجيج يشق عنان السماء، ويجعل الجسد النحيل الغض قنبلة تتفجر في وجه من يحمل قنبلة الدمار، وقد تمنينا أن تلتزم إسرائيل بالهدنة التي قبلها الشعب الفلسطيني على أمل أن تتمكن الجهود الدولية من تحقيق تقدم ما على طريق السلام، لكن إسرائيل نقضت الهدنة مرات، واستمرت في عدوانها على الفلسطينيين، وعادت من جديد إلى الاعتداء على لبنان، وإلى تهديد سوريا، غير عابئة بجهود اللجنة الرباعية، وبوعد الرئيس بوش بإقامة دولة فلسطينية رغم أن الوعد حمل في طياته وعداً بقيام دولة يهودية جديدة أيضاً لعلها أوسع مساحة من دولة إسرائيل العلمانية، لكن إسرائيل مستخفة بالعالم كله، وهي تعلم أن إحلال السلام في يدها وحدها حين تشاء، فبوسعها تحقيقه فوراً بمجرد أن تعلن التزامها بتطبيق قرارات مجلس الأمن، وبإنهاء الاحتلال، ولكنها تثبت للعالم كله أنها لا تريد السلام، وإنما تسعى إلى الحرب والتدمير والتخريب، لأنها تريد الأمن لها وحدها، وللآخر الجحيم، ولكن القوة وحدها لا تملك أن تبيد الحق ما دام وراءه مطالب، وإذا أخفقت الأجيال الراهنة في استعادة حقوقها، فإن أطفال اليوم الذين ولدوا في القهر والعذاب سيعرفون في المستقبل خطة طريق أخرى لاستعادة حقوقهم وكرامتهم، ومن يدري ربما تكون الولايات المتحدة عندها قد ضاقت ذرعاً بالتضحيات التي يقدمها الشعب الأمريكي لإسرائيل وقد باتت تتجاوز تقديم المال والسلاح إلى تقديم الأرواح، ولعلها تدرك يومذاك أن العرب والمسلمين ليسوا أعداء أمريكا بطبعهم، وإنما هم يعادون دعمها المطلق لإسرائيل، ولعل أمريكا تقتنع قبل فوات الأوان بأن العدل وحده هو الذي يحقق الأمن والرخاء والاستقرار للجميع.

غياب التاريخ والواقع عن رؤية المستقبل

كثرت التعليقات والانتقادات لخطاب الرئيس بوش، وتوالت تحليلات السياسة والصحافة وهي تشير إلى الإيجابيات فيه وإلى السلبيات، ومن وجهة نظر شعبية أستطيع القول إن أمرين غابا عن الخطاب، فكان غيابهما مصدر السلبيات كما رأتها الجماهير العربية، وهما: التاريخ والواقع.

لقد وجد العرب بعض الإيجابيات في الخطاب، ولعل منها حديث الرئيس بوش عن استحالة أن يعيش الفلسطينيون تحت الاحتلال، وتحذيره من أن يزداد وضعهم بؤساً أكثر فأكثر، ومطالبته بإنهاء الاحتلال الإسرائيلي الذي بدأ في عام ١٩٦٧على أساس قراري مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨ وحسم قضايا القدس، ومحنة اللاجئين، والتوصل إلى سلام نهائي بين سوريا وإسرائيل ولبنان وإسرائيل، وإشارته إلى رؤية لدولتين تعيشان جنباً إلى جنب في سلام وأمن، ودعوته إلى وقف الاستيطان الإسرائيلي، وإلى أن تسمح إسرائيل للفلسطينيين بحرية الحركة والعودة إلى أعمالهم، وأن تفرج عن الأموال والعائدات الفلسطينية المجمدة لديها، وإعلانه تفهمه للغضب واليأس العميقين اللذين يستبدان بالشعب الفلسطيني حين قال: (لقد عوملتم كرهائن لصراع الشرق الأوسط، واحتجزت مصالحكم رهينة لاتفاق سلام بدا وكأنه لن يتحقق).

ورغم أن هذه الإيجابيات تحتاج إلى مزيد من الإيضاح والتحديد فقد تلمس العرب ما فيها من رؤية وإمكانية تطوير، لكنهم رأوا على الجانب المقابل من الخطاب ما أفقدهم الأمل، وما بدا منطلقاً من أحكام مسبقة أبرزت حاجة الخطاب إلى الأمرين الهامين في معالجة أي موضوع وهما التاريخ والواقع.

وعلى افتراض أن الرئيس بوش طبيب يريد أن يعالج هذا المرض العضال المستعصي في الشرق العربي، فإن أول ما ينبغي عمله هو أن يستطلع القصة المرضية، وأن يتفهم تاريخ الداء، متى بدأ؟ وكيف كانت مظاهره الأولى، ثم أن يفحص الجسد والروح التي يعالجها لكي يصف علاجاً ينسجم مع تاريخ المرض ومع واقع الجسد.

لقد غاب التاريخ عن الرؤية الأمريكية للمستقبل في منطقتنا، وانتقاد المواطن العربي لغياب التاريخ لا يعني رغبة في البقاء في إطاره، بدليل أن العرب يتحدثون عن الاحتلال الإسرائيلي عام ٦٧، والتاريخ يدعوهم إلى الحديث عن فلسطين التاريخية، لكنهم يتعاملون مع الواقع والوقائع، دون أن يعني دلك نسياناً للتاريخ، فهو ضروري لفهم الحلول، ولتذكير من لا يعرف التاريخ، بأن العرب أبدوا من المرونة الكثير حين أعلنوا استعدادهم لقبول وجود إسرائيل

بينهم وعلى أرضهم التاريخية والمعاصرة، منذ أن تحدثوا عن إزالة آثار العدوان، ويقصدون عدوان إسرائيل عام ٦٧مع أن عدوان ٤٨هو العدوان الأساس، وعلى الإدارة الأمريكية أن تقدر للعرب هذه التنازلات المؤلمة التي قدموها من أجل أن يحل السلام في المنطقة ,وأن ينتهي الصراع العربي الإسرائيلي. والإدارة الأمريكية تعرف كم هو صعب إقناع اللاجئين الفلسطينيين من عرب ٤٨ بان تاريخ الصراع بدأ عام ٦٧ وقد أدرك ذلك الرئيس كلينتون في خطته حين أعلن اعتقاده بأن إسرائيل ستعترف بالمعاناة المعنوية والمادية للاجئين وحقهم في العودة إلى فلسطين (التاريخية) والتعبير له، ومرة أخرى قال: إلى وطنهم. ومن المعروف أن وطنهم هو فلسطين التاريخية التي صارت إسرائيل بناء على وعد بلفور وتعهد ترومان.

إن استذكار التاريخ أمر ضروري لمن يريد أن يكون عادلاً في الحكم بين طرفي نزاع، فالتاريخ يقول له ماذا فعل كل من الطرفين وماذا قدم؟

ولو أن مستشاري الرئيس بوش قدموا له الخلفية التاريخية للصراع لما قال إنه يستحيل أن يعيش المواطنون الإسرائيليون في رعب، وستظل إسرائيل تدافع عن نفسها، ذاك أن التاريخ سيوضح له أن الإسرائيليين هم الذين اعتدوا على الشعب الفلسطيني وشردوه وطردوه من دياره وهم الذين يحتلون البقية الباقية من أرضه وهم الذين يحاصرونه وهم الذين يهدمون منازله ويقتلون رجاله ونساءه وأطفاله، ولم يبق لديه من وسائل الدفاع عن نفسه سوى جسده العاري يقاوم به المعتدي المحتل، ويصد عن نفسه قدراً ضئيلاً جداً من العدوان المتصاعد المستمر على حقه في الحياة، لو أن مستشاريه قالوا له إن كنت حقاً تريد للمواطنين الإسرائيليين أن ينتهوا من حالة الرعب التي يعيشونها فقل لهم أن ينسحبوا من الأراضي التي يحتلونها فوراً وبذلك ينتهي الرعب ونبدأ الحديث عن السلام وتنتهي العمليات التي تسميها إرهاباً ،ولن تكون إسرائيل مضطرة للدفاع عن نفسها لأن الفلسطينيين القابلين ببعض حقهم التاريخي لن يعتدوا على إسرائيل بالتأكيد لأنهم باتوا يريدون سلتهم بلا عنب، إنهم يقبلون الآن بما كان حلماً أن يقبلوا به قبل أن تحكم الصهيونية الكون وتجعل الولايات المتحدة الجبارة تجند كل قواها وإمكاناتها لخدمة مصالح وأحلام إسرائيل.

والمنصفون من الشعب الأمريكي يعرفون تاريخ الصراع في منطقتنا ويتذكرون أن الولايات المتحدة أسهمت في ظلم الشعب الفلسطيني من البداية حين وعد الرئيس هاري ترومان عام ١٩٤٨ حاييم وايزمان بالعمل على إنشاء دولة يهودية في فلسطين والاعتراف بها، وكان من قبله روزفلت يدرك أن مساعدة الصهيونية في مسعاها كما فعلت بريطانيا هو عدوان على حقوق العرب وهذا ما دعا روزفلت أن يتعهد في ١٩٤٥/٤/٥بألا تقوم الولايات المتحدة بأي

عمل عدواني ضد العرب في قضية فلسطين، ولكن الذي حدث كان خلاف وعد روزفلت رغم كل ما أبداه العرب نحو الولايات المتحدة من رغبة في الصداقة والود، ومن ضمان لمصالحها الضخمة في المنطقة.

لقد كانت الفجوة الأساسية في الرؤية الأمريكية للصراع هي تجاهل هذا التاريخ والانسياق وراء الأساطير الإسرائيلية التي تحيي ما تعتبره حقاً لليهود في الأرض المقدسة قبل ثلاثة آلاف عام (ولا دليل في التاريخ إلى الآن على هذا الحق) مقابل طمس حق الفلسطينيين وهو حق راهن ومشهود.

ولم يغب التاريخ عن الرؤية الأمريكية للسلام فحسب، وإنما غابت كذلك عن رؤيتها لمكافحة الإرهاب، ولاسيما بعد أن نقلت الإدارة الأمريكية جهودها لمكافحة الإرهاب العالمي كله إلى المنطقة العربية والإسلامية متجاهلة ما يحدث في العالم كله من عمل إرهابي، لصالح خلط الأوراق واعتبار المقاومة الوطنية المشروعة للاحتلال عملاً إرهابياً.

وغياب التاريخ يطمس السجل الإرهابي الدموي للحركة الصهيونية التي قامت على الإرهاب، وكان حرياً بمستشاري الرئيس بوش أن يوضحوا له أن الحديث عن ما يسميه إرهاباً فلسطينياً أو عربياً أو إسلامياً سيجعل الآخرين يذكرونه بأن البادئ أظلم، وحسبهم أن يعرضوا له أن الصهاينة قاموا بنسف فندق الملك داود يوم ١٩٤٦/٧/٢٢فقتلوا فيه ٩٥ بريطانياً وعربياً وأن عصابات مناحيم بيغن الإرهابية نفذت مذبحة دير ياسين في ١٩٤٨/٤/١٠ ومذبحة قبيا بعد أربع سنين، وكانت قتلت وسيط الأمم المتحدة للسلام الكونت فولك برنادوت وفي التاريخ القريب يتذكر الأمريكيون العملية الإرهابية النكراء التي عرفت بمجزرة الأقصى في ١٩٩٠/١٠/٨ حين قام الجنود الإسرائيليون بقتل ثلاثين مصلياً وجرح مائة وخمسين، وقد كرر العملية الإرهابية بشكل أكثر إجراماً الإرهابي الصهيوني باروخ غولد نشتاين في ١٩٩٤/٢/٢٥حين اقتحم الحرم الإبراهيمي الشريف في الخليل وقتل المصلين، وبالطبع لا حاجة لأن يذكر أحد الرئيس بوش بالعمليات الإرهابية التاريخية التي نفذها شارون في لبنان فقد أدانته المحاكم الإسرائيلية نفسها ولاحقته المحاكم الدولية وبات مجرماً ضد الإنسانية أمام الضمير العالمي ولاسيما بعد إبداعه فنوناً ضخمة في الإرهاب الدولي يوم جنين ومن ينسى يوم جنين وهو ما يزال حاضراً يتكرر كل حين؟

ولست في معرض استعراض تاريخ الإرهاب الصهيوني فهو يحتاج إلى مجلدات، والمفارقة أن أبطاله هم قادة إسرائيل الآن، فإيهود باراك هو بطل العملية الإرهابية التي قتل فيها كمال عدوان ورفاقه وهو بطل العملية الإرهابية التي قتل فيها خليل الوزير في

١٩٩٥/١١/١٤ ولقد وصل الإرهاب الإسرائيلي إلى مبدعيه أنفسهم حين اغتال إيغال عمير، اسحق رابين لمجرد أنه اقتنع أخيراً أن الحلول العسكرية لن تجلب الأمن لإسرائيل ولا بد من حلول سياسية.

ولو أن الرئيس بوش استحضر في ذاكرته هذا التاريخ الطويل للإرهاب الصهيوني الإسرائيلي، لما بدأ خطابه بقوله (الموقف الراهن لا يبعث آمالاً بتحسن الحياة، فسيظل الإسرائيليون يقعون ضحايا للإرهابيين)، والمفارقة المؤلمة أن الإرهابيين الذين يقصدهم هم أولئك الذين يدافعون عن وطنهم وعن حقهم في الحرية والاستقلال، ولم يقم أحد منهم بعمل عدواني خارج إطار مقاومة الاحتلال الذي يعترف الرئيس بوش بأنه سبب المشكلة، ويدعو إلى إنهائه، وبانتهائه ستنتهي المشكلة، وباستمراره ستستمر المقاومة وهي حق دولي وقانوني مشروع في الدين والأعراف والتقاليد البشرية ولن تسميه الشعوب إرهاباً إلا حين تقرر إلغاء احتفالاتها بأعياد استقلالها وتحاكم غيابياً كل من تسميهم أبطال الاستقلال بتهمة أنهم كانوا إرهابيين، وعليها حين ذاك أن تهدم صروح الجندي المجهول وأن تلغي تقديم الزهور من قبل ضيوفها الكبار تحية لهؤلاء الذين قاموا بتحرير بلادهم من الاحتلال عبر مقاومة وطنية شريفة تعتز بها الشعوب.

لقد بات مخجلاً هذا الخلط بين العمليا ت الإرهابية التي ينفذها أحياناً بعض من دعمتهم الاستخبارات الأمريكية يوماً لتحقيق مصالح سياسية لها في العالم،وحين أهملتهم وجهوا عملياتهم ضدها، وبين مواطنين شرفاء يدافعون عن وطنهم وعن حياتهم وعن أسرهم وأطفالهم، وبات شبيهاً بمسرح العبث واللامعقول أن يتحاور رجال السياسة العقلاء حول شرعية أن يدافع المرء عن وطنه وعن نفسه فهذه بدهيات أسس عليها الرئيس بوش ذاته حملته ضد الإرهاب حين غزا أفغانستان دفاعاً عن أمريكا التي هددها الشعب الأفغاني كما قال.

ليس مقنعاً لأحد في العالم ربط ما حدث في١١ سبتمبر بالصراع العربي الإسرائيلي،فهنا نزاع على أرض وهناك اعتداء على مدنيين أبرياء في مبنى تجاري، وقد تعاطف العرب مع الأمريكان ضد ذاك العدوان، وما يزالون ينتظرون أن تقدم الولايات المتحدة ملف التحقيقات للعدالة الأمريكية ليعرف العرب إن كان المشتبه بهم مذنبين حقاً أم أنهم أبرياء أيضاً والمجرم الحقيقي طليق.

إننا نفهم أن الإدارة الأمريكية منحازة إلى الجانب الإسرائيلي وأنها لا تدعي البحث عن العدل في تعاملها مع الصراع في المنطقة، وهي تدير الصراع ولا تحله وتعلن حرصها على مستقبل إسرائيل وأمنها، وتجدد لها دعماً عير محدود، والرئيس بوش ومن سبقه من الرؤساء

الأمريكان لم يقفوا يوماً موقف القاضي العادل الذي يريد أن يحق الحق وأن يكف المعتدي ويردع الظالم، بل إنهم كانوا دائماً يحرصون على استبعاد دور القاضي العادل، حتى في اللجان الأممية التي يكلفونها بتقصي الحقائق، ونحن نعرف على سبيل المثال أن الرسالة التي وجهها الرئيس الأمريكي للجنة ميتشل نصت على استبعاد موقف القضاء العادل فقد قال الرئيس الأمريكي في كتاب التكيف (يجب ألا تكون هذه اللجنة بمثلبة محكمة هدفها تحديد المذنب أو البريء من الأشخاص بل أن تكون لجنة تقصي حقائق هدفها معرفة ما يحدث وكيفية تحاشي تكراره) ومثل هذا التوصيف لعمل اللجنة ينبئ عن معرفة الإدارة الأمريكية جيداً من هو المذنب ومن هو البريء وبالتأكيد لو أنها تتوقع أن يكون المذنب فلسطينياً لما أوصت اللجنة بالابتعاد عن الحكم، ونذكر كيف تم إلغاء لجنة تقصي الحقائق في جنين رغم قرار الأمم المتحدة بتشكيلها لمجرد أن المذنب معروف، وطالما شكا العرب من كون الإدارة الأمريكية تكيل بمكيالين، ولا فائدة، فقد أدرك العرب أن الإدارة الأمريكية وضعتهم على الهامش، ونظرت إليهم باستهانة، ولاسيما حين تجاهل الرئيس بوش الإشارة إلى المبادرة العربية التي سبق أن رحب بها، وهذا ما نرجو أن تتلافاه الإدارة الأمريكية سريعاً لأن العرب على ما هم فيه من ضعف الآن يشكلون حضوراً إنسانياً في أهم منطقة في العالم، وليس بوسع أحد أن يتجاهل هذا الحضور.

وكما غاب التاريخ عن خطاب بوش غابت رؤية الواقع، وهذا ما استنكره المثقفون الإسرائيليون الذين رأوا في الدعم الأمريكي المطلق لسياسات إسرائيل مزيداً من التوريط لها في مستنقع الدماء، فقد أشار كتاب إسرائيليون إلى حاجة اليمين الإسرائيلي إلى من يضبط حركته المنفلتة، وينقذه من آثام نفسه، فهذا الدعم الأمريكي المطلق يفقد إسرائيل عكازاً تتكئ عليه ومشجباً تعلق عليه أخطاءها الكبرى، وهذا ما دعا بعض الكتاب الإسرائيليين إلى القول بأن تغيير الواقع لن يكون بالتطلع إلى الإدارة الأمريكية وإنما إلى الواقع ذاته الذي تجاهله الرئيس بوش لأن شارون يريد القفز فوق الواقع، والواقع يقول إن الفلسطينيين لن يقبلوا بأقل من حقوقهم، ولاسيما تلك التي ضمنتها لهم قرارات الشرعية الدولية، وسيكون من العبث أن يطالب الفلسطينيون بتحقيق ديمقراطية على الطريقة السويسرية أو البريطانية في الوقت الذي يبحثون فيه عن ملجأ من القصف الإسرائيلي اليومي وعن دواء لجريح أو عن حجر يتكئون عليه تمسكاً بالوطن وهم لا يريدون تكرار مأساة الهجرة والرحيل، سيكون قفزاً فوق الواقع أن تفوض الإدارة الأمريكية إسرائيل بتقرير مصير الفلسطينيين وتحديد ما ينبغي أن يفعلوه، وسيكون مضيعة للوقت انتظار أن تقرر إسرائيل انسحاباً من الأراضي التي احتلتها، فهي لن

تقرر ذلك مطلقاً إذا توقف الفلسطينيون عن مقاومتها، وقد علق أحد الكتاب الإسرائيليين على خطاب بوش بقوله (إن العملية الاستشهادية القادمة ستظهر مدى ابتعاد الواقع عن رؤية الرئيس الأمريكي،وقال عوزي بنزيمان إن الذيل أصبح هو الذي يحرك الرأس (فقد نجح كل رؤساء حكومات إسرائيل في تجنيد الرؤساء الأمريكان لتأييد خطواتهم ضد الفلسطينيين).

والمفارقة أن بعض القادة الأمريكان باتوا أكثر ولاء للصهيونية من اليهود الصهاينة أنفسهم فقد تندر بعض الكتاب الإسرائيليين من أن يصبح بيريز رجلاً بعيداً عن الوطنية في نظر رامسفيلد وتشيني لمجرد أنه نصح بعدم إذلال شركائه الفلسطينيين الذين وقعوا معه في أوسلو لأن ذلك سيفقد إسرائيل أية مصداقية مستقبلية لها، والأكثر طرافة أن يتهم ايسي ليبلر في الجيروزاليم بوست كلاً من يوسي بيلين وشلومو بن عامي بالخيانة العظمى لأنهما يخالفان سياسة شارون.

وعلى كل حال يبدو أنه لا جدوى من كل يقال حول الإيجابيات ما دام الخطاب لم يقدم أية رؤية تنفيذية بل ربط التنفيذ كله بيد إسرائيل ورغم الترحيب الإسرائيلي بالخطاب فإن شارون اتصل بكوندليزا رايس فور انتهاء الخطاب (كما يذكر شمعون شيفر في يديعوت احرونوت) وشكرها وأبلغها أن إسرائيل لن تنسحب إلى حدود ١٩٦٧ وأن الحديث عن إقامة دولة فلسطينية ليس ناضجاً للتنفيذ، ولاندري بعد ماذا سيكون جواب بوش؟ لكننا نتفاءل بأن تتطلع الولايات المتحدة إلى دور إنساني عادل يكافىء مكانتها وكونها أطلقت في مطلع القرن العشرين مبادىء لحقوق الإنسان وجعلت من تمثال الحرية شعاراً لها، ومن غير المعقول أن تسمي المناضلين من أجل الحرية إرهابيين، وأن ترى في الإرهابي شارون رجل سلام!!!

لزوم ما لا يلزم في الإعلام

إذا كان أبو العلاء المعري قد ألزم نفسه ما لا يلزم من حدود الصياغة والقــوافي ليرينــا براعته البلاغية، فإنه خسر في اللزوميات فضاء الشاعرية، الذي كان يمكن له أن يحلــق فيــه طليقاً مما ألزم به نفسه، فصار محبساً ثالثاً له فوق محبس البيت وفقدان البصر، ولولا أنه فــي شعره المتحرر من لزوم ما لا يلزم، كما في (سقط الزند) قد أثبت شاعريته لاكتفينا من شــعره بشواهد في دروس البلاغة المصطنعة. الأمر ذاته يكرره الإعلام العربي فــي بعــض الــدول العربية ولكن للأسف بدون عبقرية أبي العلاء، فهو يحبس نفسه فــي محــبس رأي الدولــة أو الحكومة، ويلزم ثوبه بأن يكون مفصلاً على المقاس الرسمي، وشعاره في ذلك (وما أنا إلا من غزيَّة إن غوت.. غويت)، بينما يفترض أن يكون الإعلام من الشطر الثاني فقــط (وإن ترشــد غزية أرشد)، بل إن عليه أن يرشد قبلها، وأن يدلها على طريق الرشاد لأنــه يملــك بصــيرة الشعب بكل شرائحه وفئاته وآرائه المتنوعة الشاسعة. هذا على افتراض أن يكون دور الإعلام استشرافياً يسهم في رسم السياسات، وليس مجرد منفذ لما يملى عليه، فحتى لو كان مــا يملــى صواباً فإن من حقه أن يسهم في صياغته.

فإن لم يكن متاحاً للإعلام أن يلعب دور المستطلع الرائد الذي (لا يكذب أهله) فحســبه أن يلعب دور الند للسياسي، ما داما مشتركين معاً في المسؤولية، ولاسيما وقــد أصــبح الإعــلام مسرح السياسة الدولية، وصارت استديوهات التلفزيون ومسارحه في الهواء الطلــق، ملاعــب الدبلوماسية الأرحب.

ويبدو أن بعض الحكومات تخشى أن يتسلل عبر حرية الإعلام مدسوسون ممن يمكــن أن يبيعوا ضمائرهم، أو ممن هم انتهازيون (يميلون مع النعماء حيث تميــل)، لا يملكــون رأيــاً يدافعون عنه، ولا مبدأ يستبسلون من أجله. وليس بوسع أحد أن ينكــر أن الســاحة الإعلاميــة ملأى بهؤلاء الذين استفادوا من إطلاق حرية الإعلام في بعض الأقطار العربية أو في المهاجر، فجندوا أقلامهم وثقافتهم لصالح أعداء الأمة، وباتوا ينهشون في الجسد العربي، ويسخرون مــن تاريخ العروبة بل ينكر بعضهم حضورها كأمة، وبعضهم فاجأنا بكراهيته وحقده على الإسلام، فاستغل الحملة الدولية لمكافحة الإرهاب ليشهر سكينه ويغرزه في وجدان أمته. ولا أحد بوسعه أن ينكر أن الإسلام هو وجدان هذه الأمة، ولا أحد يخفى عليه الفارق بين العاملين مــن أجــل تجديد الخطاب الإسلامي وتنقيته من التطرف والجمود والمغالاة والتعنــت والتعصــب، وبــين العاملين على هدم البنيان وتقويض الأركان.

ولقد استغل حرية الإعلام في بعض الأقطار والمهاجر كتاب كبار بشرونا بثقافة السلام (التي كنا نتوقع أن تكون بحثاً عادلاً ومنصفاً عن إطار التعايش الممكن، وتوصيفاً موضوعياً لعلاقات جديدة بين شعوب المنطقة بحيث يستعيد صاحب الحق حقه كاملاً في إطار الشرعية الدولية وعبر المفاوضات الحضارية تجنباً للحروب المدمرة)، فإذا بعضهم يوظفون طاقاتهم لخدمة المشروع الصهيوني وحده، ويعادون المشروع العربي. وقد رأينا بعضهم يثير مشكلات الأقليات (على سبيل المثال) بطريقة استفزازية، بحيث يصير الطرح بحثاً عن الفتنة، وليس بحثاً عن الحقوق التي يجب أن تصان، ورأينا بعضهم يسخر من ثوابت الأمة ومن أخلاقها وتاريخها، ويهاجم لغتها وثقافاتها وأديانها.

إنني أدرك أن بعض الحكومات تخشى من أن تواجه نوعاً من هذا الاستغلال لحرية الإعلام، وقد امتلأ العالم بمنظمات دولية صار همها أن تدافع عن حقوق الشواذ فكرياً وجنسياً، وبعضها ينفق الميزانيات الضخمة لتحقيق اختراقات إعلامية للفكر والثقافة العربية عن طريق الإعلام، وقد بدأنا نلحظ انتشار برامج فضائية مكلفة جداً، همها الوحيد تحقيق هذا الاختراق، وإلهاء الشباب العربي عن قضايا أمته، وإشغاله بقضايا تافهة يقبل عليها بشوق إلى التصويت الذي حرم منه في السياسة فوجده في الفنون، بل فيما يشبه الجنون في تلك البرامج التي تقترح على الشباب أن يجلسوا أمام التلفزيون طوال الليل والنهار ليتفرجوا على من تأكل ومن تشرب ومن تجلو الصحون، في وقت بدأ الأقصى فيه يتهدم وتنهار أساساته وجدرانه. وهذا النوع من الاختراق ليس أقل شأناً من الاختراق الصريح للإعلام السياسي في كثير من الصحف والمحطات الفضائية، التي تردد مصطلحات الإعلام الصهيوني وتجعلها قيد التداول (عبر سياسة الأمر الواقع)، حتى بين الذين يرفضونها، والتي تروج لمشروع الشرق الأوسط الكبير كأنه قدر لا رادَّ له، وأنه هو الخير الذي سيعم البلاد، ويجلب الديمقراطية المنشودة، وتتجاهل أنه مجرد تعليب جديد لمشروع إسرائيل الكبرى.

ولكن الحكومات تبالغ أحياناً في الحذر من حرية الإعلام، وتلزم نفسها وإعلامها ما لا يلزم، حين تجعله كله الناطق الرسمي باسمها، وتحرمه حقه من أن يكون ناطقاً باسمه، دون أن تتحمل الحكومة أية مسؤولية رسمية عما يصدر عنه. فمن الممكن أن تكون في كل صحيفة زاوية للموقف الرسمي، تعلنه الرئاسة أو وزارة الخارجية أو وزارة الإعلام، أو وكالة أنباء حسب أهميته، ويمكن الأخذ بهذه الصيغة في الإذاعة والتلفزيون، بحيث يكون هناك برنامج معين يعرف المشاهدون أنه يحمل الرأي الرسمي، وما عداه هو مجرد اجتهاد لا يلزم أحداً،

وهذا الأسلوب متبع في الصحف الرسمية والخاصة التي تعلن أن المقالات أو التعليقات تعبر عن آراء كتابها، وأن الصحيفة غير مسؤولة عما يرد فيها من آراء.

ولقد دفعني إلى الكتابة حول هذا الموضوع، تطور مهم يعيشه الإعلام السوري الباحث منذ سنين عن وسائل الخروج من حالة لزوم ما لا يلزم، فقد فتح له الرئيس بشار الأسد بوابة الخروج الرحب الهادئ من اللزوميات، في جوابه على سؤال لصحيفة كويتية عن تعليق سياسي إذاعي لم يكن متطابقاً تماماً مع الموقف الرسمي من الحكومة العراقية الجديدة حيث قال:"التعليق السياسي فيه هامش، وليس بالضرورة أن يتطابق مع رأي الدولة"، ومرة أخرى قال في الحوار "بالنسبة لوسائل الإعلام فكل صاحب مقالة يكتب رأيه ويعبر عن وجهة نظره"، وأعتقد أن هذه الرؤية الواسعة، هي التي ستتيح للإعلام السوري أن ينطلق من محليته إلى المدى العالمي، وأن يقدم الصورة المثلى عن حالة التعددية السياسية والثقافية التي تعيش فيها سوريا. وقد فوجئ كثيرون بتنوع الآراء وتعددها في وسائل الإعلام السورية، وظنوا ذلك اضطراباً حين بدت وجهات النظر متباينة في مسائل راهنة، مثل تفسير ما حدث في مباراة كرة قدم في القامشلي، أو تفجيرات المزة، أو تحليل قانون العقوبات الأميركي على سوريا، ومثلما يحدث يومياً من تقويم لحركة الإصلاح المتصاعدة، حيث تعيش سوريا حالة غير مسبوقة من الحوار السياسي والنقاش بين كل الشرائح والاتجاهات الفكرية، حتى ليصعب على المرء أن يتابع كل ما ينشره الكتاب السوريون يومياً من مقالات ودراسات سياسية .وأعتقد أن المتابع الذي اعتاد على كون الإعلام عامة في سوريا، يعبر بالضرورة عن الرأي الرسمي قد ظن فيما يحدث نوعاً من الاضطراب. وقد قرأت من انتقد بقسوة تباين الآراء في تقدير تأثير قانون العقوبات على سوريا، ومن انتقد التصريحات المتضاربة التي استبقت التحقيق في الأحداث الأخيرة، غير منتبه إلى التطور في تحديد المسؤولية عن الرأي الرسمي حصراً في المراجع الرسمية في رئاسة الجمهورية أو وزارة الخارجية أو وزارة الإعلام، حتى إن بعض ما يقوله بعض المسؤولين الكبار الآخرين من تصريحات يبدو اجتهاداً غير ملزم، ولكنه يعبر عن رأي في الحكومة أو لدى شرائح مهمة في المجتمع.

لقد بات إطلاق حرية الإعلام مفتاحاً لعملية الإصلاح، ونحن نذكر القول الشهير "أعطني صحافة حرة أعطك مجتمعاً صالحاً"، وبوسعنا أن نضيف عليه "أعطك حكومة ومجتمعاً لا يستطيع الفساد أن يتسرب إليهما"، لأن الإعلام كاشف وفاضح، ودوره الرقابي يتيح له أن يكون عوناً للحكومة وللمجتمع في الرقابة. وقد كان الشعار الشهير" لا رقابة على الإعلام غير رقابة

الضمير" مدعاة لانطلاقة إعلامية هائلة لو أن القائمين على المؤسسات الإعلامية طبقوه بروح النص، وليس بالشكلانية التي تبطل مفعوله.

وكما أن الحرية لا تعطى وإنما تؤخذ، فإن على الإعلاميين العرب جميعاً أن يناضلوا من أجل أن تختصر كل قوانين الصحافة في الوطن العربي إلى كلمتين هما "الصحافة حرة"، وهم بالضرورة يدركون أن الحرية مسؤولية، وأنها تنتهي عند حرية الآخرين، وأن من يعتدي على ثوابت الأمة وعلى مصلحتها العليا ليس جديراً بالحرية، ولن يسمح المجتمع لصحافة أو إعلام بأن يهاجم قيمه الكبرى وأن يخون قضاياه، وما عدا ذلك، فإن اختلاف الرأي هو مفتاح بوابة الحقيقة. وعلينا أن نتعلم من حضارتنا ثقافة الاختلاف، وهي سر عظمة الحضارة العربية الإسلامية، وحسبنا أن نتأمل قول الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، حين كان يتخذ قراراً "أهو الوحي يا رسول الله أم هو الرأي والمشورة؟"، فإن لم يكن وحياً من الله، فإنهم يطالبون الرسول العظيم بحقهم في الحوار والمشاركة السياسية، وتطبيقاً لقوله سبحانه وتعالى:"وشاورهم في الأمر." ولنا أن نتأمل الفقه الإسلامي ونرى ما فيه من اختلاف وتنوع وتعدد في المذاهب عاشت به الأمة قرونها الطويلة، وكان شعار مدارس الفقه قول الإمام الشافعي" رأيي خطأ يحتمل الصواب، ورأي سواي صواب يحتمل الخطأ". وعلينا أن نتعلم ثقافة الاختلاف كذلك من الحضارة الغربية التي يقدم لنا فيها فولتير ــ مثلاً ــ سعة رؤية للاختلاف حين يقول "قد أخالفك الرأي ولكنني مستعد أن أضحي بحياتي دفاعاً عن حرية رأيك."

ولنعترف أن بعض المسؤولين في الوطن العربي يخشون حرية الإعلام لأنهم لم يعتادوا على أن يخالفهم الرأي أحد، وهم يضيقون ذرعاً بمن قد ينتقدهم في الصحافة، وهم بحاجة إلى دربة على أمرين، الأول هو اتساع الصدر وهنا نذكرهم بقول الإمام علي كرم الله وجهه "إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فسعوهم بأحلامكم" ونذكرهم بقول معاوية "لا نحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا". وأما الأمر الثاني الذي نحتاج إلى الدربة فيه، فهو مدافعة الرأي بالرأي والحجة بالحجة، أو اللجوء إلى القضاء النزيه العادل، وليس اللجوء إلى المنع أو التحريم أو الإقصاء.

وللإنصاف أقول إن الإعلام السوري "وقد عشت فيه ربع قرن" لم يكن يلزم نفسه دائماً بما لا يلزم، فثمة إضاءات مهمة، عبر الحواريات والمناقشات التي باتت شهيرة بين آراء مختلفة "كحوار المفكرين الكبيرين البوطي وتيزيني)، الذي كان بالإمكان تطوير نموذجه، أو عبر الدراما السورية التي حققت نجاحاً تصاعد منذ السبعينيات لأنها لم تلتزم ما لا يلزم. ولكن الإعلام يحتاج إلى إعلاميين يصنعون له حريته، ويقنعون المسؤولين بجدارتهم، وأعتقد أن ما

تقدمه الصحافة الإلكترونية المتطورة في سوريا اليوم، والخطوات الهادئة في فتح باب الحريــة الرحب في الإعلام الرسمي والخاص، سيكون وداعاً نهائياً للّزوميات التــي أضــافت لــرهين المحبسين محبساً ثالثاً.

٢٠٠٤/٦/١١

الدبلوماسية السورية على طريق الحرير

على الرغم من أن الدبلوماسية السورية لا تنام على وسادة من حرير، إلا أنها تدرك أهمية موقع سوريا على طريق الحرير التاريخي الذي يربط الشرق بالغرب، والذي لم يعد يعرف الكثيرون دروبه القديمة التي اكتنفتها هالة من السحر. وتعبر زيارة الدولة التي قام بها الرئيس بشار الأسد إلى الصين، عن رغبة سورية ببث الحيوية فيما يرمز إليه طريق الحرير من دور مهم للصين الدولة العظمى التي يقدرها العرب ويعتبرونها مصدر حكمة حضارية عريقة.

ولعل تأمل المبادىء التي أطلقتها الصين للتعايش السلمي، ودورها في حركة عدم الانحياز قبل خمسين عاماً يوضح الرؤية العادلة التي تحملها الصين للعلاقات الدولية، ولم يكن سعي الصين لتأسيس منتدى شنغهاي أواخر القرن العشرين بحثاً عن ملء الفراغ الذي خلفه غياب الاتحاد السوفييتي عبر السيطرة عسكرياً على مقدرات شعوب آسيا الفقيرة رغم ثرائها الجوفي، ولكنه كان بحثاً أمنياً واقتصادياً عن مستقبل شعوب آسيا، ورغبة في بناء عالم متعدد الأقطاب. وتتجلى الحكمة الصينية الراهنة في الرؤية التي أعلنها مبعوث الصين إلى الشرق الوسط وانغ شي جي، حين أكد على أنه لا سلام في منطقة الشرق الأوسط بدون سوريا، وحين أكد تأييد الصين للحقوق العربية وأهمها استعادة الأراضي المحتلة وإقامة دولة فلسطينية مستقلة. وقد دعا إسرائيل إلى وقف بناء المستوطنات والجدار العازل، وطالبها بوقف عملياتها العسكرية ضد الشعب الفلسطيني. ورأى أن بوسع المجتمع الدولي أن يمارس ضغوطاً على إسرائيل كي تنفذ قرارات الشرعية الدولية.

وقد رفضت الصين حرب العراق، وأكدت على ضرورة الالتزام بالشرعية الدولية في حل المشكلات بين الدول، ورفضت سياسة العقوبات التي تفرضها الولايات المتحدة على الدول ذات السيادة وعلى الشعوب، وكان رفضها للعقوبات الأميركية على سوريا وتأييدها لموقفها من عملية السلام، وحرصها على وحدة العراق واستقلاله، مشجعة للمواطن العربي أن يتفاءل بدور أقوى حضوراً للعملاق الصيني القادر على إعادة التوازن للعلاقات الدولية حين يستخدم مكانته البشرية والاقتصادية ورصيده التاريخي من القيم الحضارية، فضلاً عن كون الصين عضواً دائماً في مجلس الأمن. ولم يكن يغيب عن المواطن العربي أن الولايات المتحدة حشدت قواها في آسيا تحسباً لنهوض الصين مستقبلاً بدور عالمي. ولئن كانت إدارة كلينتون قد أعلنت أنها ترى في الصين شريكاً فإن الإدارة الأميركية الراهنة ترى في الصين منافساً استراتيجياً مهماً. ولم تكن الصين تريد الدخول في منافسة استراتيجية مع الولايات المتحدة عبر أهداف منتدى

شنغهاي، ولكن كثيرين كانوا يرون أن الصين وحدها المرشحة لقيادة العالم الثالث، على الرغم من كونها انتقلت من هذا العالم لتدخل منظومة الدول المتقدمة. وكان كثيرون قد رأوا بين أهداف حرب الولايات المتحدة ضد أفغانستان دخولاً من الباب الخلفي للاتحاد السوفييتي يمكن الولايات المتحدة من التمركز على تخوم الصين، ومن السيطرة على منابع النفط، ومن إحباط إمكانية تجدد العزيمة الآسيوية التي عبر عنها المنتدى، ولاسيما بعد أن وضحت قدرته على تشكيل تجمع يحافظ على ثروات القارة التي يخزن فيها بحر قزوين وحده مائتي مليار برميل نفط، وتشكل فيها كازاخستان واحدة من أكبر خمس دول منتجة للنفط في العالم بحلول ٢٠١٠ وكذلك أوزبكستان التي انضمت إلى المنتدى وعارضت قبل سنين خطط الدفاع الصاروخية الأميركية.

ولقد نجحت الولايات المتحدة في اختراق المنظومة الآسيوية كما نجحت من قبل في فرط عقد النمور، ربما لأن بوسعها تقديم دعم مالي ووعود بتنمية سريعة لشعوب آسيوية خرجت من فقر مدقع في سنوات رضوخها للاتحاد السوفييتي، وليس بوسع روسيا أو الصين تقديم هذا الدعم المالي والتنموي. كما أن عدم الاستقرار الإسلامي على حدود روسيا والصين مكّن الولايات المتحدة من ضمهما إلى حملة مكافحة الإرهاب حيث تقاربت الأهداف المرحلية، واندفع جنود البروتستانتية للفوز بالأرواح في المملكة الوسطى التي يعتقد دانيال بيس (مؤرخ المسيحية الصينية) قابليتها للنمو في أكثر من أي مكان آخر في العالم. وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة أرادت أن تستفز الصين عدة مرات في قضية تايوان، وفي ملف حقوق الإنسان، إلا أن الصين كانت حريصة على أن تكتفي بتنبيه الولايات المتحدة إلى ضرورة الإبقاء على بيئة دولية سلمية تضمن الأمن والاستقرار في العالم.

إننا نعتقد أن من أهم ما يمكن أن تجنيه العلاقات العربية مع الصين هو تمكين الصين من حضور دولي فاعل في منطقة الشرق الأوسط يوازي مكانتها الدولية، ولاسيما لكونها موضع ثقة العرب، تقديراً لقيمها ولحرصها على الحق والعدل والسلام ومساعدة الشعوب. ونحن حريصون على الاستفادة من تجربتها الإصلاحية الفريدة التي مكنتها من تحقيق تقدم تقني نوعي، ومن نهوض اقتصادي كوني، دون أن تتخلى عن ثوابتها، وعن هويتها حيث ما تزال قيم كونفوشيوس الحضارية تتعايش مع الجاني الإيجابي من قيم العولمة الثقافية والاقتصادية. وذهاب الدبلوماسية السورية إلى الصين ليس ردة فعل كما توهم بعضهم على التردي الراهن في العلاقات السورية الأميركية أو على تعثر اتفاقية الشراكة مع الاتحاد الأوربي، فعلاقات سوريا وطيدة مع الصين من خمسين عاماً، حيث لم تنقطع الزيارات الرسمية والشعبية بين

البلدين، ولكن زيارة الرئيس بشار للصين بوصفها الأولى لرئيس سوري تشكل دعماً قوياً لنمو العلاقات، وتجسد رؤية الرئيس لضرورة توسيع الخيارات وتمتين شبكة علاقات سوريا الدولية التي تزداد وثوقاً ولاسيما مع دول أوروبية تبحث بجدية عن حل عادل للصراع العربي الإسرائيلي. ولئن كانت الدبلوماسية السورية لا تنام على وسادة من حرير، فإن اليقظة الدائمة مكنتها من تحقيق نجاحات مهمة يريد بعضهم أن يقلل من شأنها، دون أن يقدم رؤيته للبديل. فهناك من رأى أن الدبلوماسية السورية أخفقت في الوصول إلى الشراكة مع الاتحاد الأوروبي دون أن يقول هل يريد من سوريا أن تقتدي بما فعلته ليبيا مثلاً، وأن تنسى أن أرضها محتلة، وأن تتخلى عن مشروعها لجعل الشرق الأوسط منطقة خالية من أسلحة الدمار، وأن توافق على تفرد إسرائيل بامتلاك القوة المهددة للعالم كله؟. وهناك من ظن أن الدبلوماسية السورية أخفقت في أدائها قبل حرب العراق وبعدها دون أن يقول هل كان يريد من سوريا أن تشارك في التحالف لمحاربة العراق (وقد وضح أن الذي دفع ثمن الحرب هو الشعب العراقي وليس النظام وحده)؟.وهناك من انتقد وصف وزير الخارجية السوري للحرب المفتعلة على العراق بأنها عملية سطو مسلحة، ولا ندري هل كان من انتقد هذا الموقف يريد من الوزير أن يثني على الولايات المتحدة آنذاك لكونها ستقوم بتدمير بغداد ومدن العراق بحثاً عن أسلحة لم يجدها أحد . والغريب أن تنطلق هذه الانتقادات للدبلوماسية السورية في مرحلة يعلو فيها الانتقاد الأميركي ذاته المعارض للحرب على العراق، وتتم فيها مراجعة أميركية للأكاذيب التي قدمت ذرائع للحرب. الموقف السوري لم يكن بالطبع دفاعاً عن نظام صدام الذي كانت سوريا أشد أعدائه حين كانت الولايات المتحدة أقرب أصدقائه، وإنما كان حرصاً على شعب العراق وسيادته واستقلاله وتأكيداً على قناعة سوريا بأن الشرعية الدولية وحدها القادرة على حل النزاعات والخلافات الدولية، ولم تكن سوريا وحدها تعارض الحرب بالطبع، بل كانت تشاركها الرؤية دول كبرى في العالم.

والغريب أن تجد من يحمّل الدبلوماسية السورية مسؤولية تردي العلاقات مع الولايات المتحدة، دون أن يقول المنتقدون هل المطلوب من وجهة نظرهم أن تطرد سوريا الفلسطينيين وأن تقوم بالنيابة عن إسرائيل بمحاربة المقاومة الفلسطينية أو بشن حرب على حزب الله أو بالتنازل عن مرجعية مدريد وعن المطالبة بانسحاب إسرائيل إلى خطوط ٤ يونيو ٦٧ كي ترضى عنها الولايات المتحدة وإسرائيل؟

أعتقد أن التاريخ سيذكر باعتزاز مواقف الدبلوماسية السورية التي يقودها الرئيس بشار، وينفذها الوزير الشرع بدقة ووعي وأمانة وطنية وقومية. وهي وإن لم تكن قادرة على تحقيق

أهدافها العادلة اليوم، فإنها قادرة على تعطيل أية أهداف معادية للعرب والمسلمين، ولو كانت سوريا تبحث عن خلاص فردي أو عن دعم لنظام الحكم فيها بغض النظر عن المبادىء والقيم أو عن المسؤولية التاريخية عن المصالح العليا للأمة لتحقق لها ذلك بأفضل مما يفعل الآخرون الذين كانوا سيتحولون إلى الهوامش. وهذا لا يعني أن سوريا تمسك سلمها بالعرض وتريد أن تناطح صخرة الولايات المتحدة برأسها الصغير، وإنما هي تريد برأسها الواعي أن تحاور عقلاء الولايات المتحدة الرافضين لسياسة المحافظين الجدد. ومن يتأمل ما يحدث من مراجعات راهنة في السياسة الأميركية يجد الفرصة واسعة لإمكانية متابعة هذا الحوار على الرغم من وجود العقوبات التي قال إليوت آنجل المتحمس لها نفسه، إنها يجب ألا تبقى إلى الأبد، وأما تعثر الشراكة مع الاتحاد الأوروبي فهي ليست نتاج خطأ دبلوماسي سوري، وإنما هي نتاج ضغوط أميركية واضحة تريد إحراج سوريا، والأوروبيون في أعماقهم يعرفون أن ما يطلبونه من سوريا بشأن الأسلحة ينبغي أن يطلب من إسرائيل لأنها هي التي تشكل تهديداً للأمن الدولي بحسب ما أعلنت استطلاعات الرأي عندهم.

إنني لا أدافع عن الدبلوماسية السورية باعتباري أحد أفراد طاقمها، وإنما بوصفي مواطناً عربياً يدرك أن التنازلات المجانية تفتح شراهة على المزيد منها، وأن الإمساك بجمر الحق يحرق الأصابع، ولكنه يمنع الجمرة من أن تصير ناراً تحرق البيت كله.

٢٠٠٤/٦/٢٥

الثقافة والفكر في الإعلام العربي

صحيح أن عصفور الإعلام العربي أعتق في كثير من البلدان العربية من قفص السلطة، وخرج مارداً يهدر بدل أن يغرد، إلا أنه وقع أو كاد يقع في قفص أكبر، تصنع شباكه منظومة اقتصادية وسياسية ذات قدرات كونية بفضل انتصار العولمة التي باتت حقيقة نعيشها لأنها لا تقبل الرفض الذي لم يعد يتجاوز حدود الممانعة النظرية، ولكنه منغمس بالضرورة في كل آلياتها، وشبكة اتصالاتها العالمية. ولكون العولمة رؤية فكرية وثقافية وسياسية تتماهى في ناديين أولهما النادي الفضائي، وثانيهما النادي الاقتصادي، وتستمد قوتها من النادي العسكري الذي أعلن عن حضور مدمر منذ أوائل القرن الحادي والعشرين، فإن الإعلام بات الواجهة الأساسية للعولمة، ولم يعد بمقدور شبكات الإعلام القومية أو الوطنية أن تحقق استقلالية كاملة، أو أن تكون في منأى عن تأثيرات التكتلات الإعلامية المركزية في العالم التي تتحكم في التدفق الإخباري والبرامجي معا. لقد حاول الإعلام الوطني في بعض الدول النامية أن يواجه غول العولمة لكنه لم يفلح كثيراً. فقد قلصت العولمة معاني السيادة للدول الوطنية، وأصدرت قوانين تخترقها، كما اخترقت الأبعاد القومية للأمم، وتسلط فيها قطب واحد على الشرعية الدولية التي أوشكت أن تصبح هامشية لولا إصرار دول كبرى على التمسك بها. وفشل القطب الواحد في تحقيق توازن لطيرانه خارج السرب الدولي، ولسوء حظ العرب فإنهم وجدوا أنفسهم بعد الحادي عشر من سبتمبر في بؤرة الهدف، وكان على الإعلام العربي أن ينهض بعبء المواجهة في حرب الصورة التي باتت ساحة صراع لا تقل أهمية عن ساحات المعارك العسكرية. وجد الإعلام العربي نفسه مطالباً بخوض معركة فكرية على عدة جبهات، أهمها الجبهة الداخلية التي يتوجه إليها الإعلام المضاد لقصف منظومتها الفكرية والثقافية، وهي في الوطن العربي وفي العالم الإسلامي مزيج من المنظومتين القومية والدينية رغم ما بينهما من فوارق واختلافات، لأنهما منفردتين أو متصلتين تشكلان الوجدان الجمعي للأمة. ولئن بدا الإسلام مرشحاً للعب دور العدو الأكبر في مسرحية صراع الحضارات، فإن العروبة باتت العدو الثاني وبدأت تتعرض للقصف المركز، لكونها تشكل الحامل التاريخي للإسلام مثلما يشكل لها الإسلام وعاءها الثقافي والحضاري.

وبما أن المعركة التي وجد الإعلام العربي نفسه مطالباً بأن يخوضها هي معركة ثقافية وفكرية في الشكل والمضمون معاً، فإن مراجعة سريعة لطبيعة علاقة الإعلام العربي بالثقافة تجعلنا نقر بأنها علاقة شكلية وباهتة جداً. فلم تكن الموضوعات الثقافية والفكرية تحظى باهتمام

يذكر في وسائل الإعلام العربي حتى نهايات العقود الأخيرة من القرن العشرين حين فرض على الثقافة العربية عامة أن تناقش قضايا النظام الدولي الجديد والعولمة وتأثيرات ثورة الاتصال والمعلوماتية ونظريات هنتينغتون وفوكوياما. وقد بدت المناقشات توافقية في مرحلة لم يكن قد اعتاد الإعلام فيها على سماع الرأي الآخر.أما البرامج السياسية فقد كانت برامج دعاية ومتابعات إخبارية تقتصر على عرض رؤية السلطات بطريقة وظيفية باردة.

عند الحدث الجلل في الحادي عشر من سبتمبر، وحين ابتليت الأمة بتهمة المسؤولية عن الإرهاب بدوافع فكرية أصولية، اضطر الإعلام العربي إلى فتح ملف الفكر والثقافة مباشِراً دراسة أصول الظاهرة العقدية التي صارت شغلاً شاغلاً للعالم كله .وقد اتجهت أنظار البشرية إلى العالمين العربي والإسلامي بوصفهما (كما روج الإعلام الصهيوني) المُصدّرين الرئيسين لفكر العنف والإرهاب. وقد جاءت معالجة الإعلام العربي لهذه المأساة التاريخية قاصرة ثقافياً وفكرياً لأسباب عديدة من أهمها الافتقار إلى الكوادر الإعلامية المؤهلة لخوض هذا الغمار الصعب. ذاك أن الغالبية العظمى من العاملين في الإعلام ليسوا رجال فكر وثقافة بقدر ما هم صحفيون مهنيون يمتلكون ثقافة عامة غير متخصصة في الشؤون الفكرية والفلسفية. وقد برز بينهم مهتمون بقضايا الثقافة والفكر، ولكن الاهتمام وحده ليس كافياً ما لم ينغمس المهتم في أعماق الثقافة والفكر والفلسفة التي أجاد توصيف حالة الاقتراب منها أحد المتفلسفين العرب حين قال: الفلسفة بحر على خلاف البحور، في شاطئها الغرق وفي أعماقها الأمان.

وإذا كانت المجلات المتخصصة بشؤون الفكر قادرة على تقديم الدراسات الجادة والأبحاث الموضوعية لقراء من النخب المثقفة، فإن الصحف اليومية أو الدورية لا تستطيع تجاوز حجم المقالة التي تختزل البحث، ولا تستطيع الإفاضة، وهي تتوجه عامة إلى القارئ المتوسط. وأما الإذاعة فهي وسيلة إعلام شعبية، ولم تعد برامجها وندواتها الصوتية قادرة على منافسة الجذب الذي يحققه التلفزيون، وهذا ما يدعوها إلى التعامل مع الشؤون الثقافية والفكرية المتخصصة بحذر وتردد، وهي تدرك أن من بين مهماتها المتنوعة مهمة تبسيط الثقافة ما دامت تتوجه إلى مجتمع ما تزال أمية القراءة والكتابة تشكل أكثر من ثلثه، وتشكل الأمية الثقافية أكثر من ثلثيه.

ومع أن التلفزيون العربي سارع إلى ميدان التخصص، فأنشئت في الإعلام الرسمي والخاص قنوات متخصصة، إخبارية ورياضية وتعليمية وترفيهية وثقافية إلا أن الفكر والثقافة الجادة ما يزالان عسيرين على الهضم الإعلامي، وما تزال برامج الفكر تلامس الأفكار عن بعد، وكثيراً ما تخلط بين التبسيط والتسطيح. والمتابع للأداء الإعلامي يلحظ الهشاشة التي تقدم بها قضايا الفكر، حيث تغلب الرغبة في الإثارة في برامج المماحكة على الرغبة في الوصول

إلى الحقائق، فيخرج المتابع مشوشاً لا يكاد يعرف من هو على حق ومن هو على باطل، لأن الطريقة السفسطائية باتت غالبة في الحوارات. كما أن الإعلام الرسمي لم يقدم إلى الآن رؤية فكرية واضحة تشكل حاملاً موضوعياً لدعوته النظرية إلى إعادة بناء النظام العربي. وغياب الحامل الفكري عن أي نظام سياسي يجعله هشاً من الداخل وقابلاً للضعف والانهيار. ولم تعد الحوامل الفكرية التقليدية قادرة على النهوض بأعباء المرحلة، ولم تنجح إلى الآن كل محاولات بناء منظومة فكرية بوصفها مشروعاً حضارياً شبه متفق عليه (في إطار الجامعة) في أن تكون دليل عمل أمام الإعلام العربي الذي يتعرض لاختراقات فكرية تتصاعد وتكشف عن وجود تشويش داخلي.

بات المشاهد العربي يعجب كيف تهاجم أمته وعروبته وعقيدته في وسائل إعلام عربية بذريعة الحوار الحر؟ هذا بالإضافة إلى ظهور العديد من وسائل الإعلام الناطقة بالعربية، والمعادية في طبيعتها وتوجهها للعروبة والإسلام معاً. وعلى الرغم من الحاجة الماسة إلى حوار حر وصريح داخل الثقافة العربية، وإلى معالجات فكرية جوهرية للقضايا الإشكالية ولاسيما المتعلقة بالخطاب الديني، وبالخطاب الليبرالي الذي يتم تقديمه باسم التجديد مناقضاً للتوجه الوطني والقومي والإسلامي، فإن الإعلام العربي مطالب بألا ينسى مهمته الكبرى في الحوار العالمي. وحتى الآن لم تفلح كل المشاريع في إقامة مراصد ومنابر إعلامية في الغرب والشرق تقوم بهذه المهمة وتتصدى للحملات التشويهية التي تتعرض لها الأمة. ومن يتابع الساحة الإعلامية العالمية لا يجد أي مبرر لهذا الغياب .وقد تمكن خصوم الأمة من اختراق أخطر وسيلة إعلامية محدثة هي الإنترنت، وهي رغم كونها ما تزال محدودة الانتشار، إلا أنها باتت واسعة الحضور في حياة الشباب بشكل خاص بالإضافة إلى النخب المتعلمة. وبالإنترنت يمكّن كل مستخدم من أن يصنع محطة إرسال إذاعية وتلفزيونية خاصة به، ومن يدخل إلى غرف المحادثة "الشات" بين الشباب يفاجأ بحجم الحملة المعادية للفكر والمعتقدات العربية والإسلامية، ويدهشه حجم التشويه الحاصل للخطاب الديني والقومي معاً، إلى درجة تدعو إلى الريبة والشك في توغل صهيوني مكثف يوجه الصراعات إلى حروب كلامية وفكرية بين المذاهب الدينية وبين الطوائف والأعراق، في لغة حاقدة حانقة لا تعرف لها سبباً مباشراً، وفي انصراف منهجي عن القضايا الرئيسة والمشكلات الحيوية التي تواجه الأمة.

ويبدو مؤسفاً أن تجد في وسائل الإعلام العربية تقليداً سمجاً لبرامج استهلاكية وإعلانية غربية تتعارض مع القيم العربية والإسلامية، مثل ما أطلق عليه تلفزيون الواقع وهو جدير بأن يسمى تلفزيون الهروب من الواقع، لأن مهمته أن يشغل الناس بمتابعة تبدو مسلية لهم تخرجهم

من قسوة الواقع، إلى نوع من التفاهة والتسطيح الذي يظنون أنه يريح الرأس من متابعة الهموم والأحزان والمآسي التي تقدمها نشرات الأخبار. وتجد من المثير أن ينصب اهتمام الملايين على التصويت عبر الهاتف لصالح فتى أو فتاة (ليسا من عباقرة الأمة ولا من نجبائها بالتأكيد) في وقت يتصاعد فيه التهديد للأمن العربي والإقليمي. ولست أنكر على أحد أن يختار ما يعجبه أن يشاهد على شاشة التلفزيون أو أن يقرأ في الصحافة ما يشاء من الموضوعات، ولكنني أنكر على بعض وسائل الإعلام العربي أن يغيّب الشباب عن قضاياهم الكبرى، وأن يقدم لمشاهديه ثقافة إعلانية استهلاكية، وأن يتعامل حتى مع الخبر السياسي والوطني على أنه سلعة، حيث بات المهم في الخبر سرعة تقديمه ومدى ما فيه من إثارة بغض النظر عن المضمون أحياناً.

والأمر يتكرر في البرامج الدينية حين ينصب سيلٌ من الأسئلة التافهة على علماء الدين الذين كما أظن يجدون حرجاً إن هربوا من الإجابة عن الأسئلة السخيفة، ولكنهم يقعون في مطب التسخيف حين يجيبون. وهكذا يتحول كثير من الخطاب الديني في وسائل الإعلام إلى ملهاة، ومن يتابع هذا النوع من البرامج يجد نفسه مضطراً لإساءة الظن في بعض السائلين وإلى العتب الشديد على المُعدِّين والمُقدِّمين الذين يسمحون باستهلاك برامجهم في الغث بدل السمين، وللحديث صلة.

٢٠٠٧/٧/٩

البعد الثالث في الفكر الإنساني

لست من هواة التفكيك الذي قد يفرّط أو ينتهي إلى العدمية، ولست كذلك من المغالين في اعتماد نظرية الشك، إلا أنني أؤمن بضرورة أن نشك في صحة ما ألِفه الفكر الإنساني من تعامل شبه يقيني مع الثنائية المطلقة التي تقسم العالم والأشياء إلى قسمين متضادين أو متقابلين، من مثل ثنائية الخير والشر، والليل والنهار، والذكر والأنثى. وقد شمل هذا التقسيم الثنائي كل حدود الفكر، فغرق العالم في ثنائيات دمر الصراع بينها أمن الإنسان واستقراره وحريته. فقد وضعت المعاصرة في مواجهة الأصالة، والحداثة في مواجهة التراث، والقومية في مواجهة القطرية. وكانت المشكلة الأكبر حين وضعت العروبة في مواجهة الإسلام، وهكذا وجدنا أنفسنا مطالبين بأن نقف على الحد، وأن نجيب على أسئلة الكون الكبرى على الطريقة الأميركية (أجب بنعم أو لا، أنت معي أم ضدي) وأن نختار بين اثنين لا ثالث بينهما، وهذا ما ترفضه الفطرة الإنسانية الحرة التي ترى تعدد الألوان والأشكال في الكون، واختلاف الرؤى والتوجهات في العقل والنفس. في الفكر الإسلامي بخاصة ينطلق المسلمون بعفوية خالصة من مفهوم يرفض التقسيم الثنائي، ويدعو إلى الثالث بينهما وهو(الوسط) لأن الله تعالى جعلهم (أمة وسطاً) وكلفهم بالشهادة على الناس، وقد بدا غريباً أن يقبل الفكر العربي تلك التقسيمات الثنائية وهو الذي يرفضها في جوهره الحضاري. وقد كان مثيراً لدهشة المسلمين أن يقال إن العالم داران دار كفر ودار إيمان، وأن يتجاهل المنظرون المتطرفون وجود دار الأمان ودار العهد والميثاق، ودار الدبلوماسية والشرعية الدولية ودار الأصدقاء من الأمم والشعوب التي تربطنا بها علاقات تاريخية قوية ومتينة. وقد نظر بعض المفكرين الإسلاميين بريبة وشك إلى دعاة الفكرة القومية، الذين نظروا هم كذلك بريبة وشك إلى دعاة الفكرة الإسلامية.

ولم تكن المشكلة كما أتصورها هي في سوء التفاهم بين طرفي الثنائية فحسب، بل كانت كذلك في صعوبة الفهم داخل الثنائية الواحدة، فحين حكم بعض مفكري الطرف الإسلامي بإخراج الفريق القومي من دائرة الإسلام، رد بعض الفريق القومي بتجاهل مطلق للأديان، وأعلن بعضهم فهماً إلحادياً للعلمانية، وطالب بإقصاء الدين عن الحياة العامة، كما أعلن بعض مفكري الطرف الإسلامي، تكفير الطرف الآخر وأهدر دمه شرعاً. شكل هذا الموقف المتبادل من التنابذ وسوء التفاهم مدخلاً لصراعات أذكتها أطراف معادية للطرفين لا تريد لهما أن يصلا إلى التفاهم والتصالح، وكان كلا الطرفين يناقضان في موقفهما حقيقة ما يعتقد كل منهما به. فدعاة القومية لا ينكرون في أدبياتهم شيئاً من الإسلام فكراً ورؤية للعالم والكون، بل إنهم يرون

الإسلام روح الأمة العربية، وجوهر رسالتها الحضارية، وكذلك يرى الإسلاميون العروبة حاملاً قومياً ولغوياً وتاريخياً للإسلام، ولم يكن أحد من المفكرين الإسلاميين ينكر على العرب أولويتهم في المسؤولية عن الإسلام (وقد أشرت في غير موضع إلى أن الكواكبي في "أم القرى" جعل السيد المكي رئيساً للمؤتمر المتخيل، وجعل نصف أعضاء المؤتمر من العرب، ولم نقرأ اعتراضاً ذا شأن على خطة الكواكبي من مسلمين غير عرب). ولكننا نعرف أن العالم الإسلامي لا يترك للعرب الأولوية في المسؤولية حين يراهم ضعفاء أو متنازلين عن دورهم. وقد حدث عبر التاريخ ما هو مخجل للعرب قومياً ولكنه عادي دينياً. فقد حكم الخدم والمماليك والجواري عروش ممالك العرب، وهذا الأمر محرج للتاريخ العربي على الصعيد القومي، ولكنه يشكل درساً بليغاً للأمة على الصعيد الديني، حيث تتساوى القوميات، أو تذوب داخل الهوية الإسلامية، كما تذوب الفوارق بين الخادم والمخدوم، وتكون مسؤولية المسلم واحدة في الدفاع عن راية الإسلام دون النظر إلى جنسية المسلم أو انتمائه القومي. وهذا ما حدث في قصة شجرة الدر ودفاعها عن مصر.

ولم تكن القضية القومية مطروحة تحت الراية الإسلامية، فكما أن كل الشعوب المسلمة كانت تنقاد لأوامر القادة العرب من أمثال عقبة بن نافع وموسى بن نصير في فتوحات المغرب العربي والأندلس، والقاسم الثقفي وقتيبة في المشرق، كذلك كان العرب يبايعون على السمع والطاعة قادة مسلمين ليسوا عرباً وقد فعلوا ذلك في ذروة قوتهم حين مضوا إلى العَدْوة بقيادة طارق بن زياد، ثم فعلوا ذلك بإيمان وعزيمة وهم في هوة ضعف حين بايعوا عماد زنكي ونور الدين وصلاح الدين الأيوبي الكردي. وكان طبيعياً أن تتقدم أمم مسلمة من غير العرب لتحمل المسؤولية القيادية حين يتراجع دور العرب، وقد فعل ذلك الأتراك الذين هزموا المماليك وحلوا محلهم في قيادة الأمة المسلمة. استمر العثمانيون في الحكم أربعة قرون حتى ضعفوا وبدأت دولتهم في الانهيار منذ أواسط القرن التاسع عشر، وكان انهيارها سبب ظهور الفصام المرير بين دعاة القومية وبين دعاة الرابطة الإسلامية .وقد ظهر هذا الخلاف في المشرق العربي ولم يكن له أي ظهور في المغرب، لأن الحساسية من حملة التتريك كانت مقتصرة على المشرق، كما أن الدعوة الطورانية حفزت العرب على البحث عن هويتهم القومية واللغوية. وقد خشي المفكرون الإسلاميون العرب آنذاك أن تحل الهوية القومية محل الانتماء الديني، وأن يقتدي العرب بدعاة العلمانية الأتراك .فأما دعاة القومية فقد كانوا يتشوقون ليوم يستعيد فيه العرب سيادتهم ويحكمون فيه أنفسهم بعد قرون من التبعية. وإذا كانت الظروف الماضية قد حجبت عن الفرقاء رؤية الأبعاد الثلاثية للفكر العربي والإسلامي معاً، فإن العرب مسلمين وغير مسلمين

يمتلكون اليوم فرصة أوسع للخروج من مأزق الثنائية، وللالتقاء في البعد الثلاثي الذي يصنع الحياة كما حين تلتقي ثنائية الذكورة والأنوثة. فلا الذكورة وحدها قادرة على بناء الحياة ولا الأنوثة وحدها قادرة، بل تكتمل الحياة في لقاء الثنائية في البعد الثالث الذي يشكل الاتصال الحي، ولهذا لابد من دفقة حياة في جسد الثنائيات عبر تزاوج بين أفضل ما في طرفيهما.

والأمر ليس مقتصراً على ضرورة البحث عن البعد الثالث في ثنائية العروبة والإسلام بل هو مفتوح أمام كل الثنائيات الملفقة، من مثل تلفيق ثنائية التناقض بين الحداثة والتراث، التي وصلت لدى فريق الحداثة إلى ما يشبه الجنون حين نادى بعض الحداثيين بالقطيعة المعرفية الكاملة مع التراث فلم يجدوا من يسمع نداءهم، بل لقد أسهموا من حيث لا يدرون في تنبيه الناس إلى ضرورة الحفاظ على التراث لأن هناك من يريد رميه في هوة التاريخ، وقد خشي بعض الناس أن تكون الهجمة على التراث تغطية لهجمة على الإسلام، وأن يكون الحديث الساخن عن ضرورة الاكتفاء بما يقر العقل، ورمي كل ما جاء في النقل مقدمة للتخلص من تراثنا الفقهي واستهانة بقرون من الاجتهاد. وإذا كانت الدعوة إلى الاستخفاف بعلوم النقل بدت مريبة لدى المحافظين التقليديين فإن الدفاع المطلق عن النقل والتشبث بكل ما فيه بات سبباً من أسباب الجمود، ووقوفاً مهيناً على باب التاريخ بدل الولوج الرحب إلى فضائه الواسع لصناعة أفق يتجدد، وهو لا يولد إلا في البعد الثالث الذي يلتقي فيه تفاعل بين طرفي الثنائية وتفاهم على أن كثيراً من النقل بات غير مقبول، وليست له أية قدسية دينية ما دام اجتهاد رجال، يمتلك عصرنا أفضل من أدواتهم في الفهم والتفسير والتحليل. وفي الوقت ذاته يعترف دعاة العقل وحده بأن العقل الإنساني لم يكتشف حتى اللحظة من الكون إلا شيئاً يسيراً وما تزال أمامه تجربة طويلة المدى مع المجهول، وهو مضطر للأخذ ببعض النقل لتفسير ما هو غيبي. ومن شاء رفض الغيبي شكلاً وموضوعاً فهو حُر فيما يريد أن يعتقد مثلما المؤمنون بالغيب أحرار فيما يعتقدون، ولا حاجة البتة إلى تبادل الاتهامات بالتهافت والتسخيف بين طرفي ثنائية العقل والنقل .

إنه على الرغم من أن جدلية العلاقة بين الثنائيات تبدو فلسفية محضة إلا أن تشكلها في النهاية سياسي محض، وها هي ذي السياسة تدفع ثمناً باهظاً للتطرف الفكري والعقائدي. وبغض النظر عن حقيقة المسؤولية الفكرية الإسلامية عن أحداث ١١ سبتمبر (لكوني أجدها موضع شك حتى يصدر حكم بالإدانة عن محكمة دولية عادلة) فإن الفكر هو المسؤول حقاً عن كثير من أحداث العنف التي وقعت في الماضي والتي تقع حالياً في بعض أرجاء الوطن العربي أو في بلدان أخرى. وبسبب غياب الحوار الداخلي المثقف بين أبناء الثقافة والعقيدة الواحدة

تفجرت عمليات العنف الذي ينذر بفوضى دامية في المنطقة، إذا ما استمر هذا التعصب وهـذا الغلو. والمؤسف أن البيئة في المنطقة تسمح بوجود التعصب والأنانية وبإلغاء الآخر بل وبقتله وإبادته، ما دامت إسرائيل تمارس ذلك متحدية كل قوانين الأرض والسماء، فإسـرائيل تشـكل وحدها قطب ثنائية حادة تقوم على النبذ والإقصاء والموت لكل ما هو فلسطيني أو عربي مسلم أو مسيحي، وهي ترفض مشاريع السلام وبخاصة المبادرة العربية لأنها ستجبرها على التخلـي عن موقعها في الحد القاسي من طرف ثنائية الصراع، حيث ينبغي بعد السلام إن حصل أن تقع إسرائيل في الوسط العربي والإسلامي وهذا ما لا تريده إسرائيل التي حافظت على أصـوليتها عبر قرون طويلة بفضل انعزالها في الجيتو وتمسكها بطرف ثنائية تنظر إلى كل مـن يقابلهـا بعدوانية .

إن البحث عن البعد الثالث في الفكر هو حل لكثير من معضلات السياسة، حيـث تبـدو الديمقراطية الوعاء الأنظف لمزج الثنائيات بهدف ولادة أفق جديد يجمع أفضل ما في طرفـي المعادلة ويحقق التوازن والاعتدال والوسطية.

٢٠٠٤/٧/٢١

أوروبا بين العرب وإسرائيل

من يتابع الحملة الإسرائيلية الشعبية على الأوروبيين بعد قرار محكمة لاهاي (٢٠٠٤/٧/٩) ضد جدار الفصل العنصري الذي تقيمه إسرائيل رغماً عن أنف العالم، سيفاجئه حجم الحقد الإسرائيلي الشعبي على أوروبا كلها. وقد تتبعت بعض التعليقات الطريفة التي اكتظت بها مواقع الإنترنت الإسرائيلية الشعبية والمثقفة، وأقتطف من طرائفها وغرائبها النماذج التالية: (إن هذه المحكمة ممثلة معاصرة لمعاداة السامية. إن الأوروبيين يناصرون الإسلام الشيطاني الذي سيستمر في سفك دمائنا. الأوروبيون هم الذين طردونا إلى إسرائيل. العالم كله ــ وليس الأوروبيين فقط ــ يتملقون العرب ولكن هذا لن يعني شيئاً فقد أصبح الجدار أمراً واقعاً. لماذا يقحم الأوروبيون أنفسهم بهذا الشأن؟. أخطأت أميركا حين أقامت هذه المحكمة. يوم صدور الحكم يوم أسود للعالم كله. الأمم المتحدة منظمة خربة، ولا يهم ما سيقولون فيها المهم ما ستفعله إسرائيل. نطالب بأن تقطع إسرائيل علاقاتها مع أوروبا كلها. يجب معاقبة القضاة الذين أدانوا إسرائيل ويجب جلدهم على مؤخراتهم .أحضروا لنا هؤلاء القضاة لكي نقوم بصلبهم على الجدار نفسه. أطالب باغتيال هؤلاء القضاة). وسيل التعليقات يملأ عشرات الصفحات، وهي بحاجة إلى دراسة نفسية لاستقراء آلية التفكير الجمعي الإسرائيلي الشعبي، وهي للوهلة الأولى تكشف شعوراً حقيقياً بالخوف من عمليات المقاومة الفلسطينية (كثير من التعليقات دعت الأوروبيين لأخذ الفلسطينيين إلى شوارع جنيف واستكهولم وباريس، ليقوموا بتفجير أنفسهم هناك كي يعرف الأوروبيون مع من يتعاطفون). كما تكشف التعليقات تطرفا عقائدياً وسلوكياً يبدو معه شارون معتدلا جداً. بعض التعليقات اتهمت شارون بأنه أكثر سوءاً من البابا لأنه قال إن وجود جيشه على أرض إسرائيل هو احتلال. فقد علق مواطن إسرائيلي بقوله: ماذا تنتظر من البابا ومن الأوروبيين إذا كان شارون يقول ذلك؟ كما تكشف التعليقات شعوراً عاماً بالغطرسة والاستعلاء على العالم كله، وتكشف عدم قدرة الإسرائيليين على التسامح ونسيان ماضي علاقة اليهود مع أوروبا. ففي كل تعليق إشارة إلى المحرقة وإلى جرائم النازية وكأنها حدثت البارحة، وتكشف نماذج التعليقات أن كتابها حاقدون تاريخياً على أوروبا يقول أحدهم:"علينا أن نقاطع منتجات أوروبا وبالذات فرنسا وألمانيا، يجب أن نهدم اقتصاد أوروبا". ويفلسف أحدهم (وهو يسمي نفسه ــ أيهود روزنبرج) أسباب العداوة بقوله: إن الأوروبيين ما زالوا يتهموننا بالرغبة في السيطرة على العالم، بل إنهم يتهموننا بأننا نستخدم دماء أطفال المسيحيين بفطيرة صهيونية، إن الأوروبيين يتجاهلون أن الذين يهددون البشرية اليوم هم المسلمون. ويكشف آخر عن ذاكرة لا تنسى بقوله: الأوروبيون هم الذين طردونا من أوروبا

إلى إسرائيل. ويدعو أحد الحمقى الموتورين إلى القيام بعمل تخريبي في قلب أوروبا لتحذير هؤلاء الأوروبيين الذين يتطاولون على الإسرائيليين ويقول: في بعض الأحيان علينا أن نظهر القوة بدل العقل

ويبدو أن الذي فجر كل هذه المشاعر الكامنة في النفس الإسرائيلية ضد أوروبا هو الاستطلاع الذي أجراه الاتحاد الأوروبي في نوفمبر الماضي والذي كشف أن قرابة ستين في المئة من الأوروبيين يرون في " إسرائيل خطراً يهدد السلام العالمي ."وقد انساق في حمى التصريحات مثقفون إسرائيليون ورسميون في مواقع مهمة عبروا عن خوفهم من أن تنزلق أوروبا مرة أخرى إلى فصول مظلمة من تاريخها كما قال الوزير الإسرائيلي شرانسكي الذي طالب الاتحاد الأوروبي بأن يعمل على وقف عملية غسل المخ ضد إسرائيل. وحتى شارون نفسه شارك في التصريحات النارية وحذر من تنامي معاداة السامية في أوروبا وربط ذلك بتنامي الحضور الإسلامي، واعتبر مسلمي أوروبا مسؤولين عن العداء الأوروبي للسامية، لكنه تجنب أن يواجه أحداً بحقائق تاريخية عن وجود عداء قديم للسامية في أوروبا قبل بروز الجالية المسلمة فيها فقال: إن معاداة السامية موجودة دائماً في أوروبا. ودعا اليهود إلى الهجرة إلى إسرائيل لإنقاذهم من الدول الموبوءة بمعاداة السامية وركز على يهود فرنسا بالتحديد لأن فرنسا بنظر الإسرائيليين من أكثر دول أوروبا كراهية لليهود على الرغم من قسوة الموقف الذي يبديه يهود فرنسا ومناصروهم من كل من ينتقد إسرائيل. وقد جعلوا منطقهم على النحو التالي: من ينتقد شارون وإن كان يهودياً فهو إذن مريض بداء كراهية الذات، فكل انتقاد لسياسة شارون هو معاداة للسامية، وكل من يدافع عما يسمى حقا للفلسطينيين هو معاد للسامية، وكل من هو ضد الصهيونية فهو إذن مع تدمير إسرائيل. وإزاء من يريد تدمير إسرائيل فإن كل شيء مسموح به، وما يفعله شارون هو دفاع عن إسرائيل لمواجهة الفلسطينيين الذين يجب أن يرحلوا، وليس لهم أي حق في إسرائيل.

ولكن هذا المنطق المتغطرس يستفز كثيرين من الفرنسيين ويدعوهم إلى الموضوعية، مما يجعل الإسرائيليين يخشون على الجالية اليهودية من الاعتداءات كما يزعمون. وهم في الحقيقة يريدون مبررات لجذب يهود أوروبا إلى إسرائيل لمواجهة الخلل السكاني الذي ينذر إسرائيل بمشكلة ديموغرافية كبرى بعد بضع سنين لن ينفع في حلها كل ما تملك من أسلحة تدمير. وقد صرح مسؤولون كثر بأن الشعب اليهودي يصلي ثلاث مرات كل يوم لتجميع يهود الشتات والعودة إلى صهيون. ويجد بعض الإسرائيليين تاريخ معاداة السامية في أوروبا مجسداً في الثقافة التقليدية وفي التراث المسيحي الأوروبي القديم. وقد شحن فيلم ميل جيبسون الكاثوليكي

عن آلام السيد المسيح ذاكرة أوروبا المسيحية بمشاعر غاضبة ضد الظلم. ورأى الأوروبيون في "آلام السيد المسيح" معادلاً موضوعياً للعذاب الذي يذوقه الفلسطينيون على يد الإسرائيليين. وقد أحرج الفيلم إسرائيل وأنصارها وخشيت أن يقول العالم إن اليهود الذي عذبوا السيد المسيح هم أنفسهم الذين صنعوا مجزرة جنين وهم الذين يذيقون الفلسطينيين ما لا يطاق من الآلام والتعذيب. ولا يزال اليهود في فرنسا يعربون عن ضيقهم من مناهج التعليم التي تعتبر يهوذا الإسخريوطي رمز الخيانة، بل إنها تسمي دريفوس الذي خان فرنسا يهودا، ولم تنفع كل محاولات بعض الأوروبيين تجديد الولاء ليهود أوروبا في التخفيف من الشعور الإسرائيلي بالاستياء. وعلى حد تعبير أحد الكتاب الإسرائيليين: لقد بدأت أوروبا القديمة تطفو على السطح، ويتكشف القبح، وبالذات من دول كنا نعتبرها ديمقراطية ومعتدلة مثل فرنسا وألمانيا، ولكننا فوجئنا بها. ومن حسن الحظ أن الولايات المتحدة موجودة على الساحة ولولاها لوقعت حرب عالمية ثالثة. ولا أدري من تأثر بالآخر في هذا القول، المواطن الإسرائيلي أم الوزير رامسفيلد الذي وصف أوروبا القديمة بالعجوز وشن حملة على فرنسا وألمانيا بالتحديد لأنهما عارضتا الانقياد الأعمى وراء الولايات المتحدة والتوقيع على بياض، وأصرتا على احترام الشرعية الدولية.

والمفارقة أن أوروبا في موقفها المضطرب حالياً من الصراع العربي الصهيوني لم ترض الطرفين. فالعرب الذين تزعم إسرائيل أن أوروبا تتملقهم وتدافع عنهم يشعرون أن أوروبا لم تقم بواجبها نحوهم. فالعرب يعتبرونها مسؤولة مسؤولية كاملة عن كثير مما أصابهم من انتكاسات وويلات ومآسٍ وتخلف اجتماعي واقتصادي في القرن العشرين. فبريطانيا هي التي زرعت إسرائيل في قلب العرب وابتلتهم بها بلاء أبدياً. وفرنسا هي التي زودت إسرائيل بالمفاعل النووي، ولم تتوقف ألمانيا لحظة عن دعم الصهيونية تقرباً وطلباً للغفران اليهودي عن جريمة هتلر. وقد نسي العرب التاريخ السيئ لأوروبا، ولم يحملوا الأبناء أية مسؤولية عما فعل الآباء من عهد الحروب الصليبية إلى اليوم. ولو جمع العرب عدد شهدائهم في حروب التحرير من الاستعمار الأوروبي من منتصف القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين، وفي مواجهة اعتداءات إسرائيل التي دعمها الغرب على مدى مئة عام ونيف، لزاد العدد أضعافاً على من يقول الإسرائيليون إنهم ضحايا المحرقة.

ويبدو عجيباً أن يغيب عن بال الأوروبيين (إن كان غائباً حقاً) أن الخطر الذي يهدد أوروبا في المستقبل هو ليس المد الإسلامي كما يروج الصهاينة، وإنما هو المشروع الصهيوني الطامح إلى السيطرة على العالم، وإلى توسيع سلطته، من خلال إضعاف العرب وإنهاكهم

(ويتوهم الإسرائيليون أن أحلامهم باتت قيد التحقيق بعد أن سقط العراق وانفرط العقد العربي، وصار الإسرائيليون قادرين على تهديد سوريا ولبنان وإيران وباكستان وكل العالم الإسلامي بعد أن تبنت الإدارة الأميركية مشروع إسرائيل الكبرى وسمته الشرق الأوسط الكبير). وعلى افتراض أسوأ الاحتمالات فإن نجاح هذا المشروع وتحققه لن يكون وبالاً على العرب وحدهم. فإذا كان العرب الخاسر الأول فإن الخاسر الأكبر هو أوروبا التي ستجد عل تخومها دولة إسرائيل النووية الكبرى، والخطر أن تواجه جزاء سنمار. إن إسرائيل لا تحتاج إلى مئات الرؤوس النووية من أجل محاربة سوريا أو لبنان، وأحسب أن الأوروبيين أقدر على معرفة الخطر الاستراتيجي الذي يجسده امتلاك إسرائيل أسلحة دمار وهي الدولة التي لا تقيم وزناً لهيئة الأمم ولا للشرعية الدولية. ووددنا في سوريا أن يساندنا الأوروبيون والعالم جميعاً لجعل الشرق الأوسط منطقة خالية من أسلحة الدمار، ولم يكن خوفنا من هذه الأسلحة على أنفسنا فقط، وإنما على العالم كله، ولاسيما أنها بيد حمقى قادرين على تدمير البشرية بأعصاب باردة.

وإذا كان الإسرائيليون يدعون إلى إبعاد أوروبا عن شؤون المنطقة، فإننا نحن العرب نريد أن تكون أوروبا حاضرة، ونريد الشراكة معها، ونريد أن نرى لها دوراً فاعلاً في إيجاد تسوية سلمية عادلة ومنصفة للصراع العربي الصهيوني، وقادرة على أن تخفف الشعور بتأنيب الضمير الأوروبي بعد عقود من دعم منهجي لإسرائيل وتجاهل للحقوق العربية، ونحن لا نطلب ود أوروبا لندير ظهورنا إلى الولايات المتحدة، وإنما لنحث الولايات المتحدة وكل الدول الكبرى على ممارسة دور فاعل لتجنيب منطقتنا أخطار امتلاك إسرائيل أسلحة دمار وإبادة.

٢٠٠٤/٧/٢٨

نحو إحياء نظرية الأمن القومي

قد يبدو التفكير بإحياء نظرية الأمن القومي نوعاً من العبث إن لم يكن من الحلم الذي يصعب تحقيقه، بعد أن تعرضت فكرة القومية العربية ذاتها إلى حملة تشكيك، وبعد أن أصبح مفهوم الأمن ذاته مختلفاً عليه بين الأنظمة العربية (فعدو بعضها صديق بعضها الآخر)، وقد نهضت في الوطن العربي بشكل قوي أصوات الإثنيات والأعراق تطالب بتميزها القومي عن العرب بعد أن أمضت قروناً في حالة من الانسجام والانصهار الثقافي الكامل في الأمة العربية، ولكن الضعف المزري الذي آلت إليه الأمة قلل من شأنها ومكانتها في نظر المنتمين إليها بالحضارة أو بالحضور، وجعلهم يبحثون عن انتماءاتهم التاريخية القديمة (ولست أنكر عليهم حقهم في الانتماء إلى أعراقهم على ألا يكون في ذلك أي تفكيك لوحدة الأمة العربية أو الدولة القطرية) ولقد كان بعض العرب يرفضون جعل القومية رابطة، ويدعون إلى الرابطة الإسلامية بوصفها أقدر على جمع الأخلاط من القوميات والأمم التي ربطها الإسلام برباطه، وقد أوقعت هذه الرؤية التي أغفلت دور العروبة وقيعة بين دعاة الجامعة العربية، وبين دعاة الجامعة الإسلامية. وبسبب الانهيار المثير الذي آلت إليه الأمة (قومياً) بات لدعاة الجامعة الإسلامية مبرر قوي للقول إن الرابط القومي لم يكن ناجحاً وإن الحل هو في الرباط الإسلامي وحده. وعلى الرغم من إيماني العميق بالروابط الإسلامية إلا أنني أجد هذا الفصل بين الرابطين إضعافاً للأمة التي هي عربية مثلما هي مسلمة. فأما نظرية الأمن القومي فقد بقيت حبراً على ورق الجامعة العربية مثل كثير من النظريات والمعاهدات والاتفاقيات العربية، ولكن صدورها في عام ١٩٥٠ بعيد نكبة فلسطين ينبئ عن وعي قومي نكاد نفتقده عند الأنظمة السياسية اليوم، وقد بقي العرب متمسكين بكون أمنهم قومياً (وليس قطرياً) عقوداً، وكانوا في كل وثيقة من وثائق الجامعة يؤكدون على كونهم أمة واحدة فلا يعترض على ذلك أحد منهم. بل إنهم جددوا الوثيقة في ١٥/ ٩/ ١٩٦٥ في ميثاق التضامن العربي بعد قمة الدار البيضاء ١٩٦٥ وقد جسدت نكبة يونيو ١٩٦٧ كون العرب أمة حتى في الهزيمة. فقد ضعفت الأمة جمعاء، مما دعاها إلى أن تحقق نظرية أمنها القومي في حرب أكتوبر١٩٧٣، ولعلها كانت المرة الوحيدة التي حقق فيها العرب نظريتهم الأمنية القومية في العصر الحديث، حيث ساهم الجميع في الحرب، بعضهم بجيوشه وعدته، وبعضهم الآخر بماله ونفطه، ولئن كانت بعض المشاركات رمزية بالقياس للدور العسكري الضخم لسوريا ولمصر، فإن دور النفط انتقل إلى الأولوية وحقق من أسباب النصر ما جعل الغرب يخشى أن يكرر العرب تجسيد نظريتهم الأمنية على صعيد قومي مرة أخرى.

ويبدو أن من أسباب إصرار الولايات المتحدة على طرح الحلول الفردية والجزئية في عملية السلام بعد حرب أكتوبر هو إنهاء المفهوم القومي عند العرب وإنهاء النظر إليهم على أنهم أمة واحدة، وإخراج قضية فلسطين من كونها محورية ومركزية ومن كونها قضية العرب الكبرى وتحريرها هدف عربي جماعي لا يختلف عربيان حوله. فقد تكثفت الجهود الأميركية وبعض الأوروبية لجعل قضية فلسطين (فلسطينية محضة) تحت راية براقة هي أن (منظمة التحرير ممثل شرعي ووحيد للشعب الفلسطيني)، وقد حملت هذه الراية قمة الرباط عام ١٩٧٤ وهي القمة التي تجدد فيها الالتزام بنظرية الأمن القومي لكونها وضعت أسساً واضحة للعمل العربي المشترك، وأكدت التزام الأمة جمعاء باستعادة حقوق الشعب الفلسطيني، حيث لم يكن غائباً عن كثيرين من القادة خطورة الإقرار بأن منظمة التحرير هي ممثل شرعي ووحيد للشعب الفلسطيني. ولكن هذا الإقرار كان آنذاك انتصاراً للقضية الفلسطينية لكونه يمنح شعبها حضوراً سيادياً، ويبرز الشخصية الفلسطينية السياسية على صعيد دولي، ويخلص الفلسطينيين من تدخل أطراف عربية غير مريحة تفرض وصايتها على القضية، ولكن من أخطاره التي حاولت القمة تجنبها، أن تصير القضية الفلسطينية قطرية، وأن يصير الصراع العربي الصهيوني صراعاً فلسطينياً إسرائيلياً، وهذا ما حدث للأسف بعد بضع سنوات، حيث ارتاح بعض العرب من الهم الفلسطيني.

ولقد رأى كثيرون في تجزئة الحلول منذ معاهدة كامب ديفيد التي وقعها الرئيس السادات ضربة قاسية لمفهوم الأمن القومي، واعتبروا خروج مصر من حلبة الصراع إنهاء أولياً للنظرية التي فقدت بخروج مصر برهانها الرياضي، فكيف يكون الأمن قومياً والأمة تختلف حول العدو؟. فبعد المعاهدة لم تعد مصر تعتبر إسرائيل عدواً بينما بقيت كل الدول العربية تعتبر إسرائيل عدواً، ومصر ليست قطراً عربياً عادياً، إنها العمود الفقري للأمة والحامل الرئيسي للمسؤولية القومية، وقد رفضت قمة بغداد في مايو ١٩٧٨ اتفاقية كامب ديفيد ونقلت مقر الجامعة إلى تونس، وعلقت عضوية مصر وحدثت قطيعة محزنة بين مصر والبلدان العربية. ولكن كامب ديفيد لم تلغ يوماً حالة العداء النفسي بين الشعبين المصري والإسرائيلي. فالعرب المصريون لا يستطيعون أن يديروا ظهورهم للقضية الفلسطينية وأن يقولوا نحن استعدنا حقنا وحصلنا على الأمن والسلام مع إسرائيل، وهم يرون ما تفعل إسرائيل التي تتابع إبادة الشعب الفلسطيني وتدمير قدرته على الحياة بل لقد بقي شعب مصر في واجهة المقاومة الشعبية حاملاً الهم الفلسطيني ببعديه القومي والديني، وهذا ما جعل مصر تعود بقوة إلى دورها

القومي في عهد الرئيس مبارك، حيث لم تفلح اتفاقية كامب ديفيد في عزل مصر عن مسؤولياتها القومية والإسلامية وإن كانت قد حدَّت من سعة وحيوية وفاعلية هذا الدور.

فأما الضربة القاضية التي أنهت أو كادت تنهي نظرية الأمن القومي فقد جاءت بيد صدام حسين حين غزا الكويت فقصم العمود الفقري للأمن القومي وقدم دليلاً على أن الخطر ليس خارجياً بالضرورة، فقد جاء هذه المرة من داخل الأمة، ومن قائد يقدم نفسه ممثلاً للمشروع القومي.

وقد حاولت الأمة أن تطبق الفقرة الأولى من اتفاقية الدفاع المشترك، وهي إنهاء الخلافات والنزاعات العربية بالطرق السلمية، ولكن صدام حسين لم يستجب لكل الدعوات العربية والدولية، بل أصر على استمراره بغزو الكويت ريثما تنتهي قوات التحالف من التمركز في الأرض العربية (وهذا ما جعل موقفه مريباً كما بدا مريباً في عام ٢٠٠٣ حين رفض التخلي عن الحكم وكان بوسعه لو فعل وسلم السلطة للشعب أن يفقد التحالف مبرراً للغزو). والمهم أن العرب وجدوا أنفسهم مضطرين لتطبيق اتفاقية الدفاع المشترك ولكن ضد عدو داخلي هو عضو مؤسس في الجامعة وهو من الموقعين الأوائل على اتفاقية الدفاع المشترك ولكنه أصبح خطراً على الأمن القومي العربي كله. ثم أطلقت رصاصة الرحمة على مفهوم الأمن القومي في حرب العراق ٢٠٠٣، حين أسقط في يد العرب، وبات من يعلن تعاطفه مع العراق شعباً وأرضاً وعروبة وأكراداً، وإسلاماً ومسيحية يتهم بأنه من أنصار صدام.

والمصيبة الراهنة أن نظرية الأمن القومي التي انهارت بعد هذه الأحداث المفجعة تركت الأقطار العربية بدون غطاء قومي، مما دعا دول مجلس التعاون إلى إنجاز اتفاقية دفاع مشترك خاصة بها في قمة البحرين عام ٢٠٠٠ مشيرة إلى أنها لا تتعارض مع اتفاقية الدفاع المشترك في إطار الجامعة.

وقد حاول المؤتمر الإسلامي أن يعيد صياغة نظرية الأمن إسلامياً، وهذا جهد طيب وينبغي أن يكون سريعاً في وقت تكبر فيه الهجمة على الإسلام، ويخشى فيه المسلمون أن يواجههم خطر سريع كانهيار المسجد الأقصى أو كتوجيه ضربة حمقاء لأماكن مقدسة أخرى. ولو حدثت مثل هذه الأخطار الفاجعة (لا سمح الله) دون رد أو دفاع، لفقد المسلمون مكانتهم بين الأمم، ولكن هل يمكن أن تنجح دول المؤتمر الإسلامي فيما تخفق فيه الأقطار العربية، والعرب أولى بإعادة الحيوية لمفهوم أمنهم ولا سيما أنهم دول المواجهة الرئيسة مع المشروع الصهيوني الذي يشهد ذروة قوته وانتصاراته الكبرى التي تغريه بمزيد من التوسع على حسابهم؟

أعتقد أن المسؤولية تقع في الأولوية على العرب فهم المهددون أولاً، وهم مسؤولون عن الإسلام مسؤولية أدبية أكثر من سواهم (بحكم كون القرآن عربياً والرسول الكريم عربياً وكونهم أول من حمل الرسالة وقد أعزهم الله بها وعليهم أن يثبتوا دائماً أنهم جديرون بحملها). ولئن كان في الأمة من يريد تثبيط الهمم، وإعلان العجز أمام قوى جبارة لا تستطيع الأمة نزالها أو مقاومتها، فإن مفهوم الأمن العربي لا يعني دعوة إلى حرب عالمية شاملة، بل إن أول ما يمكن أن يكون عنصراً مهماً من عناصر الأمن القومي هو التنمية المشتركة الشاملة، وتحقيق التكامل الاقتصادي الذي يضمن للأمة أمناً اقتصادياً يجنبها مخاطر أي حصار يمكن أن يواجه قطراً عربياً أو أية عقوبات يمكن أن تفرض على قطر آخر. والممكن القومي كذلك هو إعداد قوة عربية (على غرار الناتو) والردع بها دون الضرب، ويستلزم ذلك قيام الصناعات العسكرية الاستراتيجية التي لا يمكن أن تنجح بشكل فردي، فهي تحتاج إلى تعاون كبير وإلى تقنية عالية يصعب أن يوفرها قطر بمفرده، ولابد من نسيان التجربة المريرة التي كبد بها صدام حسين أمتنا خسائر ضخمة ولكن هذه الخسائر ستكون أشد وأمر إذا ما بقيت عقدة صدام جاثمة على صدر العمل العربي المشترك. لابد أن نعتبر ما فعله صدام جزءاً من خطر خارجي لبس لبوساً داخلياً ليقدم المبرر والذريعة لقدوم قوات أجنبية من أجل الاستيلاء المباشر على منابع النفط كي لا يتكرر استخدامه ثانية في اتفاقية دفاع مشترك كما حدث عام ٧٣، وكي تكون القوى الأجنبية قادرة على التصدي للإسلام المعتدل، الذي أخفقت حركات التطرف في تشويهه والقضاء عليه، ولكي تتمكن إسرائيل من تحقيق مشروعها التوسعي دون أن يتمكن العرب من صدها. إن الخطر وحده هو القادر على أن يعيد للأمة وحدتها وأن يلمَّ شملها، فتستعيد شعورها بأهمية وضع استراتيجية عربية موحدة لمواجهة التحديات التي لا تهدد قطراً بعينه وإنما تهدد الأمة جمعاء.

٢٠٠٤/٨/١١

لماذا صرنا ضعفاء؟

لابد من مراجعة جادة لأسباب الضعف العربي الذي بلغ هاوية لا نكاد نجد لها مثيلاً إلا في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، حين سقطت بغداد بيد المغول عام ٦٥٦ هجرية وقد وصف ابن الأثير بدايات ذاك السقوط بأنه "حادثة عظمى ومصيبة كبرى، لو قال قائل إن العالم منذ خلق الله آدم وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً". وكان ابن الأثير يتحدث عن بدايات السقوط في اجتياح جنكيز خان ممالك المسلمين الخوارزمية في طريقه إلى بغداد، فقد مات ابن الأثير قبل سقوط بغداد بنحو ستة وعشرين عاماً، وقد ظن أن الخلق لن يروا مثل هذه الفظائع التي حلت بالمسلمين حتى ينقرض العالم، لهول وبشاعة ما حدث، فكيف لو أنه رأى سقوط بغداد وتدميرها من قبل جحافل "جنكيز خان" ومقتل أكثر من مليون وثمانمائة ألف عربي ومسلم في مذبحة جماعية كبرى؟ ثم كيف لو أنه رأى سقوط بغداد الراهن في أبريل ٢٠٠٣ ودمارها بعد أن تم قصفها بآلاف الصواريخ التي جربت فيها لأول مرة؟ وثمة صلة واضحة بين الدمارين (وكل دمار تعرضت له بغداد وسواها من البلاد)، رغم مرور القرون نلحظها في تقصي أسباب الضعف حيث نجد أن الحماقة والترف والاستبداد هي الأسباب الرئيسة المؤدية إلى الدمار وإلى الهلاك. فأما الحماقة فمأساة العرب معها قديمة عريقة، وحسبنا أن أشهر ما في تاريخ العرب قبل الإسلام حماقة عجيبة قادت إلى حرب داحس والغبراء، وجعلت العرب يتفانون فيما بينهم، وقد تخلصوا من حماقات الجاهلية بالإسلام، لكنهم سرعان ما استعادوها بعد انتهاء الحقبة الراشدة من الخلافة. وأحسب أن المؤرخين سموها راشدة لأنهم افتقدوا الرشد فيما بعدها إلا في فترات قصيرة، فقد بدأت أسباب الضعف تتسل إلى الأمة حين انتصرت شهوة الاستبداد على رجاحة العقل والعدل، وكان المستبدون على مر الزمان يكرهون الشرفاء ويستبعدونهم ويرونهم عبئاً على نظامهم السياسي، ويقربون الفاسدين أو من لديهم استعداد للفساد ويجعلونهم السادة والأمراء، ولكن هؤلاء الفاسدين سرعان ما يصبحون عبئاً على الأنظمة حين يطفو الفساد إلى حد لا يطاق وحين يعتبر الفاسدون أنفسهم شركاء في الحكم. ولعل حادثة هارون الرشيد مع البرامكة ستبقى شاهداً حياً وملهماً لكل الحكام على مر الزمان. ولكل عهد برامكته، ولكن ليس بالضرورة أن ينتصر كل حاكم على برامكته، فكثيرون من الحكام تمكن منهم برامكتهم واختطفوا الحكم منهم، وهذا ما حدث بعد سقوط بغداد حين آل أمر العرب إلى الخدم والمماليك، بل لقد وصل الأمر في بعض الحالات إلى الماجنين والفاسقين جهاراً. وكان من نتائج سيادة الجُهال في العصر العباسي أن استعجل المعري الموت في قصيدته الشهيرة التي يقول فيها (إذا عيّر الطائي بالبخل مادرٌ، وعير قِساً بالفهاهة باقل، فيا موت زرْ إن الحياة ذميمة، ويا نفس جدي إن دهرك هازل) وقد بدا دهر بغداد هازلاً في السقوطين

الشهيرين، حيث بلغ الاستبداد أشده، وتولى الأمر السفلة والقتلة والمارقون الذين تمكنوا في العصرين من التسلل إلى سدة الحكم، ولو راجعت السيرة الذاتية لرجال المرحلتين لأدهشك التطابق من حيث الجهل والحماقة والضعة، ولذلك جاء الانهيار سريعاً ومدوياً. وقد تكرر الانهيار في تاريخ العرب، فقد سقطت كذلك غرناطة ومدن الأندلس العربية واحدة تلو أخرى، فبعد أن بنى عبدالرحمن الداخل دولة متينة صارمة، سرى الاستبداد والترف، وانسلت الحماقة حتى سادت في عهد الخليفة المستكفي، فكان ذلك سبباً في انهيار الصرح الأموي، وقد تولى الحكم إلى حين قضاة بني جهور، لكن المعتضد بن عبّاد تمكن من الحكم بروح مستبدة، دعته إلى أن يقتل ابنه حين شك بأنه يريد أن يأخذ الحكم منه. وقد تضافر الاستبداد مع الترف والحماقة في عهد ابنه محمد الذي فتنته جارية اسمها اعتماد فسمّى نفسه (المعتمد) من أجلها، وقد جر عليه الترف ضعفاً وهواناً أنقذه منه بادئ الأمر يوسف بن تاشفين الذي تمكن من تحقيق قوة إسلامية عظيمة في المغرب لأنه لم يكن مترفاً ولم يدعْ للحماقة طريقاً إلى نفسه، وقد استجار به المعتمد فأجاره، لكن يوسف رأى في ترف ابن عباد ما يهدد مستقبل البلاد، فطرد المعتمد وسجنه. ولقد غرق ملوك الطوائف بعد ابن تاشفين في الترف والحماقات التي دعتهم إلى الاقتتال فيما بينهم، فاستعان بعضهم على قومه بعدوهم، ودفع الآخرون الجزية لأعدائهم فكان السقوط المريع للجميع. إنني أريد من هذا الاستعراض التاريخي السريع لحالات السقوط أن نتأمل الأسباب وأدرك أنها عديدة ومتشابكة وبعضها مرتبط بالوضع الإقليمي أو الدولي، وبعضها يتعلق بالأمة من الداخل حين ينسل إليها استرخاء حضاري أو كسل فكري أو قابلية للخضوع المعنوي لأمم أخرى، كما حدث حين خضعت الأمة للمماليك ومن بعد للعثمانيين. ولكنني أجد أن أخطر أسباب الانهيار هي الاستبداد المترافق بالضرورة مع الحماقة والترف، وهذا التلازم منطقي لأن المستبد أحمق، فلو لم يكن أحمق لما استبد وطغى، وستدعوه حماقته وطغيانه إلى الغرق في الترف (وبوسعنا أن نذكر ما بنى المستبدون عبر الزمان من قصور وما أنفقوا من مليارات في احتفالاتهم الشخصية التي يمجدون بها أنفسهم)، وقد حذرنا الله سبحانه وتعالى من الترف في الآية الكريمة "وإذا أردنا أن نهلك قرية أَمَرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا" وفي قراءة (أمَّرنا) أي جعلناهم أمراء، والترف مدعاة للفسق والفجور. ولست أبحث عن تفسير ديني للكارثة التي حلت بالأمة (على الرغم من إيماني العظيم بأن وعد الله حق) لكن تأمل التفسير التاريخي السياسي وحده يكفي لتحديد أسباب الضعف والانهيار، وقد آن للأمة أن تستقرئ هذه الأسباب لتبحث عن مخرج مما هي فيه، وقد تكالب عليها أعداؤها واستصغروا شأنها، وبات رعاع الغرب ومرتزقتهم يسرحون ويمرحون في ديار العرب، ويقتلون ويهدمون ويسفكون ويهددون ويتوعدون. وما من مخرج إلا بإزالة الأسباب والتخلص من كل ظواهر الاستبداد، والخروج من حالة الترف، والاحتكام إلى العقل والعدل، فقد

فعل الحمقى بالأمة أخطر مما فعل بها أعداؤها، والعرب يكرهون ظلم ذوي القربى ويجدونه أشد مضاضة على نفوسهم. ولا يحد من سطوة الحمقى الذين يرتجلون قرارات يبتلى بها الناس، إلا الديمقراطية التي تتيح للعقلاء أن يعترضوا وأن يناقشوا، فكم من قرار دفع الناس ثمنه باهظاً من المعاناة والضيق لأنه جاء ارتجالياً لم يناقش ولم ينظر فيه المتخصصون، وكم من معالجة لأزمة جاءت مرتجلة قاصرة الرؤية مستندة إلى القوة بدل الحكمة فزادت الطين بلة، وجعلت الأزمة تكبر بدل أن تضمر. والديمقراطية هي العلاج الوحيد للحماقة التي قال عنها الشاعر (لكل داء دواء يستطبُّ به، إلا الحماقة أعيت من يداويها). وإذا كانت الديمقراطية لا تملك شفاء الحمقى من حماقاتهم، فإنها على الأقل لا تتيح لهم أن يستبدوا وأن يصدروا الأحكام المطلقة التي لا تقبل استئنافاً ولا نقضاً. وقد يقلل أحد من شأن اعتبار الحماقة سبباً من أسباب الضعف إذا غاب عنه أن أخطر الكوارث التي ابتليت بها البشرية عبر التاريخ كله كانت من صنع الحمقى، من قبل "نيرون" إلى ما بعد "هتلر"، مروراً بشارون وبعصابة الحرب في البنتاغون التي دشنت القرن الحادي والعشرين بسلسلة من الحروب التي قتلت شعوباً ودمرت بلداناً مطمئنة آمنة، حتى إن أحد حمقى الحروب هدد بأن تشمل الحرب التي يزمع الاستمرار بها ستين بلداً إسلامياً، فلعل روحه لا تهدأ ولا ترتاح قبل أن يرى صواريخه وطائراته تحصد مئات الآلاف من البشر. وشركاء هؤلاء الحمقى في بلداننا من (عن قصد أو من غير قصد) هم الذين قدموا للعدو مبررات الغزو، وهم الذين أرهقوا الأمة بما ارتكبوا من جرائم ومن مظالم. وإذا كان ثمة استفادة عربية مما حدث في العراق، فهي أن تضع الأمة الموانع القاطعة التي تضمن عدم وصول حمقى من أمثال صدام إلى السلطة، وأن تحث الخطى نحو الديمقراطية العادلة التي تضمن ألا يستبد أحد بمفرده بقرار، وألا يصادر حق أحد في التعبير والحوار، وألا ينتهك القضاء، وأن تبقى سلطته مستقلة تضمن للناس حقهم في مقاضاة نزيهة يتساوى فيها المتقاضيان، وتنتفي فيها المحاباة والجور، فالظلم في الصغائر مفتاح الظلم إلى اقتراف الكبائر، والعدل سر القوة في المجتمع، وسر قوة الانتماء إلى المواطنة العميقة الراسخة التي تدفع صاحبها إلى الموت دفاعاً عن الوطن. لقد أساء الحمقى إلى الأفكار النبيلة حين قدموها أسوأ تقديم، فهل ثمة أسوأ من تقديم صدام حسين للفكرة العربية القومية؟ لقد جعل كثيرين يكفرون بالقومية من أجله حين جعلها ستاراً لرغبته بالاستيلاء على ثروات الكويت، وجعلها غطاء لظلمه للأكراد، وسواهم من الأعراق والقوميات. وهل ثمة أسوأ من تقديم الإسلاميين المتطرفين لفكر الإسلام الوسطي السمح المعتدل؟ أما جرّت على الأمة حماقات المتطرفين في قتلهم الأبرياء أصنافاً من البلاء وكانت إساءتهم للإسلام غير مسبوقة عبر الزمان؟ وهل ثمة أسوأ من تقديم اليسار العربي لفكرة الاشتراكية التي كانت بحثاً عن العدالة في توزيع الثروة، فإذا بها تأتي بوابة لصنع طبقة جديدة من الأثرياء الذين فاقت ثرواتهم بكثير ما كانت تملكه البرجوازية الوطنية

التي ثاروا عليها، بينما ازداد الفقراء بؤساً وشقاء. وحتى الليبرالية لم تسلم من الحمقى، فهل كـــان ثمة أسوأ من تجربة الليبرالية التي أفضت إلى حروب طائفية ومذهبية خطط لها الحمقى فـــأغرقوا البلاد بالدماء؟ ويبقى أن نذكر تعريفاً مهماً للحماقة يقول إنها فساد الرأي، كي نفهم سر قول المتنبي (الرأي قبل شجاعة الشجعان).

٢٠٠٤/٨/١٨

هل الوحدة العربية ممكنة؟

يبدو الحديث عن الوحدة العربية نوعاً من الحنين الرومانسي إلى أجواء ستينيات القــرن العشرين حين كانت الجماهير العربية تعيش حالة انبعاث وزهو قومي، بينما تعيش الأمة اليــوم حالة انكفاء وشعور قاس بالإحباط، وبات جلّ هدفها أن تحافظ على الوحدة الوطنية في كل قطر على حدة، بعد أن بدت بعض الأقطار مهددة بتمزق داخلي، وبعد أن عزفت جوقة الصــهيونية على نغم الأقليات في الوطن العربي، وبدأت بتحريض بعضها على التمرد والعصيان. وأقــول "بعضها"، لأنني أعتقد أن بعض الأقليات تقدمت بمطالــب جــادة ولا شــأن لهــا بمخططــات الصهيونية، لكن المطالب الانفصالية عند بعض الأقليات والدعوة إلى الخروج عــن الانتمــاء الحضاري إلى الأمة العربية عامة، لا يمكن تفسيره في الإطار الوطني، فهو هدف صــهيوني يسعى إلى التفكيك وإلى فرط العقد الاجتماعي الذي هو في اعتقادي بحاجة ماسة إلــى رؤيــة جديدة تنصف كل من يشعر بأنه لم يأخذ حقه الوطني كاملاً، ولكن فرط هذا العقد ينذر الأمــة بالانهيار.

وقد يبدو الحديث عن الوحدة العربية كذلك تعلقاً بأمل يجد فيه المحبطون مخرجاً نفسياً من قسوة النفق المظلم الذي دخلت فيه الأمة ولم يعد واضحاً ماذا يخبئ في آخره، حيــث يخشــى كثيرون من أن يقود إلى دمار شامل كما حدث في العــراق، وأن يمهــد لاحــتلال أميركــي وإسرائيلي مباشر لبعض الأقطار. أو أن يمهد لتسلط غير مباشر عبر إقامــة أنظمــة سياســية ضعيفة موالية للصهيونية.

والمتحدثون عن الوحدة هم دعاة المشروع القومي (وقد عقدوا في الشهر الجــاري آب ــ أغسطس ــ ٢٠٠٤ ــ اجتماعاً في بيروت تحدثوا فيه عن (الدولة القومية وإمكانية قيامها فــي الوطن العربي) وقد يقول قائل: عن أية وحدة يتحدثون والنظام العربي الراهن يبحث عن حــد أدنى من التضامن فلا يجده، وها هي ذي القمم العربية قريبة العهد تكشــف عــن حالــة مــن الضعف المريب، وعن فقدان الثقة وعدم القدرة علــى اســتجابة عربيــة موحــدة للتحــديات المصيرية، فهل يريد القوميون إطلاق صرخة في واد حسبهم أن يتردد صداها فتسجل موقفــاً للتاريخ يريح الضمير من مساءلة أخلاقية ذاتية؟

قد تدعو دراسة واقعية للوضع العربي والإقليمي والدولي إلى الشك بإمكانية استعادة حلــم الوحدة، وقد تطرح مزيداً من التساؤلات من مثل: من سيتحد مع من؟ وهل ثمة إمكانية لاستعادة التجربة المخفقة في وحدة مصر وسوريا مرة ثانية؟ وهل يمكن نفخ الحياة في مشروع الاتحــاد

المغاربي؟ وهل بوسع بلاد الشام أن تجد لنفسها إطاراً يلمّ شكلها ويعيدها إلى ما كانت عليه عبر القرون؟ وهل بوسع مجلس التعاون أن يقدم النموذج الأمثل لاتحاد عربي عملي قادر على تجاوز الحساسيات، وتحقيق المصالح العليا مستفيداً من تجربته التي تعثرت ولكنها تخرج الآن إلى نتائج مرضية؟ وهل بوسع العراق أن يلعب دوراً قومياً وهو يعاني مأساته التاريخية والراهنة؟ والأسئلة كثيرة، وبعضها يتعلق بالمنطقة وهي المدعوة من قبل الولايات المتحدة إلى اتحاد من طراز مختلف رابطته الجغرافيا وليس التاريخ أو الثقافة، بل هو مجرد انتماء إلى حيز مكاني هو الشرق الأوسط الذي تم توسيع مداه الحيوي ليضم أمماً شتى من أفغانستان إلى موريتانيا. وبالطبع يمكن أن يقول قائل: كيف نتجاهل الرابط الضخم بين أمم وشعوب هذا الشرق الأوسط الكبير فهو شرق مسلم في الأغلبية العظمى، ولن يتمكن أحد من تغيير علاماته الفارقة حتى لو اندست إسرائيل في جوفه، فالدين اليهودي ليس جديداً على العرب والمسلمين، فقد سبق لهم أن تعايشوا مع اليهودية قروناً، وهم يؤمنون بأنبياء بني إسرائيل وبصحف إبراهيم وموسى. وقد أطلقت التجربة الإسلامية الحضارية العرب من صحرائهم فباتوا أكثر شعوب التاريخ انفتاحاً على الحضارات والثقافات. وبسبب طبيعتهم وعقيدتهم فإنهم لم ينغلقوا قط حتى في فترات الضعف والهوان، ولو كانوا منغلقين لما انتشر دينهم في الأرض، ولم يغفل دعاة الشرق الأوسط الكبير عن قدرة الإسلام على تشكيل رابط معنوي متين بين أممه وشعوبه، ولذلك اقترنت دعوتهم إليه مع دعوة إلى تشكيل حضاري وثقافي يستبعد الإسلام ليُحلّ محله قيم العولمة، وليجعل المصالح الاقتصادية وحدها الرابط بين الأمم، وليجعل الانتماء إلى الشركات والمؤسسات الكبرى بديلاً عن الانتماء إلى الثقافة وإلى التاريخ. وأعتقد أن دعاة مشروع الشرق الأوسط الكبير أدركوا استحالة أن يخرج الناس من جلودهم، وأن يبدلوا وجوههم وأن يجردوا نفوسهم من مكنوناتها. ولعلهم اقتنعوا بالرد العربي والإسلامي بأن الإصلاح الذي جعلوه عنواناً براقاً لما يرمون إليه لن يتم ولن يتحقق إلا وفق إرادة الشعوب وفي حفاظ قوي على الهوية العربية والإسلامية.

و إذا كان من الواقعي أن تدعى شعوب المنطقة إلى تكتل برابط جغرافي أفلا تكون الدعوة إلى تكتل قومي بدوافع لا حصر لها أكثر واقعية ولديها كل مقومات النجاح؟ ولئن كانت إسرائيل هي العائق الحقيقي أمام الحلم العربي بتحقيق أي مستوى من الوحدة مهما بدا ضئيلاً بفضل النفوذ الأميركي والصهيوني أفليس وجود هذا العائق ذاته مبرراً ودافعاً للإصرار العربي على الوحدة؟

٢٠٠٤/٨/٢٥

المراجعة الفكرية للمشروع القومي

يشهد الوطن العربي نشاطاً فكرياً مهماً يشمل مراجعة نظرية للمشروع القومي عبر حوار سياسي يشارك فيه المفكرون العرب من مختلف التيارات الثقافية والسياسية، حيث يتلمس المفكرون آفاقاً جديدة للمشروع القومي بما يحقق تفاعلاً مع القرن الحادي والعشرين، ويلحظ علاقاته مع المشاريع الأممية وبخاصة المشروع الأميركي والمشروع الأوروبي والمشروع الصيني وكل مشاريع الأمم الكبرى.وبالمقابل نقرأ في الصحافة العربية مقالات يطالب أصحابها بالتخلي عن المشروع القومي بدعوى أنه أخفق في تحقيق أهدافه، ويرون أن العقد القومي قد انفرط على صعيد الأمة منذ أن غزا صدام الكويت فانهارت نظرية الأمن القومي، وباتت الجامعة العربية ذاتها مهددة بالانهيار. ويرون أن غالبية الأقطار العربية تمارس العمل العربي المشترك على نحو شكلاني مجامل لكنها في قراراتها وسلوكها العملي تتصرف بدوافع قطرية محضة، وبعض الأقطار العربية أعلن شعار (الوطن أولاً) بما يوحي بتراجع مصلحة الأمة العليا عن الأولوية، ولقد كان مؤلماً أن نجد بعض دعاة القومية الكبار أنفسهم يعلنون الخروج من عباءة القومية ويبحثون عن رداء من عالم آخر. والرافضون لرابطة القومية يرون أن عصر القوميات قد انتهى في عصر العولمة حيث بات الانتماء إلى الروابط والتكتلات الاقتصادية أقوى من التمسك بالروابط الثقافية الخصوصية في العالم كله، بل باتت اللغات القومية مهددة بالتنازل عن مكانتها لصالح اللغة الإنجليزية التي أصبحت لغة السياسة والاقتصاد والتقنية في العالم كله؟. ولكن هل يبرر الضعف والوهن والإخفاق الراهن أن يحكم على المشروع القومي بالموت وأن ينكر أحد على العرب أنهم أمة واحدة عبر التاريخ؟ لكن العداء للفكرة القومية ليس جديداً، فقد بدأ مع نموها في أواخر القرن التاسع عشر، ولكنه تراجع وانكفأ في فترات الصعود القومي من الخمسينيات حتى أوائل السبعينيات من القرن العشرين، حيث كانت حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ذروة التفاعل القومي الذي واجه مشكلة كبرى بعد الحرب حين تمكنت الولايات المتحدة وإسرائيل من تجزئة الحلول السلمية للصراع العربي الصهيوني، فبدأ التشظي في الجسد العربي. ويحرص بعض أعداء الفكرة القومية على إحياء تاريخ ما قبل العروبة والإسلام ليس بهدف الإثراء الحضاري للأمة وإنما ليقولوا إن العروبة حالة طارئة في المنطقة، وإن العرب المسلمين قاموا باحتلال بلاد الشام والعراق ومصر والشمال الأفريقي، وقد آن أن تعود هذه البلاد إلى أنساب ما قبل الإسلام، ويبدو الهدف واضحاً من وراء ذلك وهو إيجاد حضور تاريخي لإسرائيل في المنطقة. والعجيب أن يتحدث هؤلاء الباحثون عن حقوق شعوب سكنت المنطقة فترات قصيرة وبعضها بادت ولم يبق منها إلا مجموعات سكانية صغيرة، وبعضها اندمجت في الحضارة العربية والإسلامية وشاركت بعمق في كل إنجازاتها، وفي الوقت ذاته

يرفضون أن يتحدث العرب عن كونهم أمة وهم السكان الأصليّون لهذه البلاد جميعاً، وحضورهم مستمر فيها منذ قرون بعيدة. ويركز بعض الباحثين في تحليلهم لأسباب انهيار المشروع القومي على الأمراض الداخلية من أخطاء في النظرية أو فواجع في التطبيق، وهي أسباب وجيهة لا يمكن إنكارها ولكن ليس من الإنصاف أن يتجاهل الباحث أن المشروع القومي خسر معركته أمام المشروع الصهيوني لأن العرب لم يواجهوا إسرائيل وحدها في كل الحروب التي خاضوها، وإنما كانوا يواجهون دولاً عظمى من أوروبا الغربية إلى الولايات المتحدة الأميركية، بل إن المعسكر الاشتراكي الذي اطمأن إليه العرب على مدى عقود كان مزدحماً بمن يدعمون إسرائيل في الخفاء بأفضل مما تدعم دولهم العرب في العلن، فقد كانت الدول الاشتراكية مخترَقة من قبل الصهيونية اختراقاً مريعاً أدى في النهاية إلى سقوطها وانهيارها المثير. ومن المعروف أن المشروع الصهيوني ليس مشروع إسرائيل وحدها، وإنما هو مشروع أوروبي تاريخياً ثم صار مشروعاً أميركياً مباشراً في أواخر القرن العشرين دون أن تتخلى دول أوروبا الكبرى عن التزاماتها أمام الصهيونية. وقد بات ضمان تفوق المشروع الصهيوني استراتيجية أميركية معلنة، وعلينا أن نتأمل أبعاد قول زبيغنيو بريجنسكي، مستشار الأمن القومي الأميركي الأسبق: يجب أن تكون في الشرق الأوسط في القرن الحادي والعشرين مجموعات عرقية ودينية تتحول إلى كانتونات يجمعها إطار فيدرالي يسمح للكانتون الإسرائيلي بأن يبقى في المنطقة بعد تصفية فكرة القومية العربية. أليس ما يحدث في بلادنا اليوم هو تنفيذ عملي لهذه الرؤية التفكيكية؟

٢٠٠٤/٩/٣

نحن والأميركان

في بداية القرن العشرين كانت أميركا حلماً وملاذاً للعرب الباحثين عن الحرية، فقد تدفق إليها المهاجرون ولا سيما من بلاد الشام، وصار لهم حضور ثقافي واجتماعي واقتصادي، وما يزال طلابنا يدرسون أدب المهجر، ويجدون فيه نموذجاً للمثاقفة الحضارية بين العرب والأميركان. وبعد أن تحرر العرب من الدولة العثمانية بدؤوا يواجهون احتلال أوروبا لبلادهم وما يحمل من خطر صهيوني، ولم تكن لأميركا مطامع في بلاد العرب والمسلمين، ولم يكن العرب الأوائل يتوقعون أن تتحول الولايات المتحدة يوماً ما إلى موقف معادٍ لأمتهم، لأنها بلاد مفتوحة لجميع شعوب العالم، ولأن بطل الاستقلال الأميركي "فرانكلين" حذر الأجيال الأميركية في خطاب شهير له أمام المجلس الشرعي عام ١٧٨٩ من أن يصبح اليهود حكاماً لأميركا، وقال "إنهم سيمحوننا في أقل من مائتي عام ويبدلون صورة أميركا رويداً رويداً". ولم يكن لدى العرب أي شعور معادٍ لليهود لأنهم اعتادوا على العيش مع اليهود الشرقيين منذ قرون في كل البلاد العربية، وكان العرب هم الذين احتووا اليهود بعد الخروج من الأندلس كما احتووا هجراتهم من الظلم الذي لحق بهم في أوروبا، مع أن القلق من ازدياد هجرة اليهود إلى فلسطين بدأ يكبر منذ أن طلب "هيرتزل" من السلطان عبدالحميد دولة لهم، ودفع الإمبراطور العثماني ثمن رفضه، وصدق قوله "لا يدخلونها إلا على جثتي". ولم يدرك عرب أميركا أهمية أن يكون لهم حضور فيها مثل الحضور الصهيوني الذي اتضحت قوته حين موّل اليهود حملة "ويلسون" الرئاسية، وكانوا هم الذين دفعوه إلى دخول الحرب الأولى والوقوف إلى جانب بريطانيا وفرنسا، وكان من نتائج الحرب الأولى اتفاقية "سايكس ــ بيكو" التي فصلت فلسطين عن سوريا، وجعلتها تحت الانتداب البريطاني الذي كانت مهمته تنفيذ وعد بلفور، وحين جاء "روزفلت" لم ينتبه العرب إلى أنه جعل شعار حملته الانتخابية "إنشاء دولة يهودية في فلسطين". لكن المفاجأة التي ابتلعها العرب بمرارة كانت في التأييد الحماسي الذي أبداه "ترومان" لإقامة دولة إسرائيل، والغريب أن الأوراق التي تركها الرئيس ترومان بخط يده كشفت مفاجآت مثيرة، لأنها عبرت عن كراهيته الدفينة لليهود على الرغم من كل الحماس الذي كان يبديه لإسرائيل، ويبدو أنه كان مقتنعاً في داخله، بموقف وزارة الخارجية الأميركية التي عارضت الاندفاع نحو تأييد إسرائيل على حساب العرب، وكان على رأسها القائد القوي "جورج ماريشال"، الذي لم يخضع للضغوط التي خضع لها ترومان، وفي الوثائق نقرأ موقف السفير "هندرسون" الذي

فضح الأمر حين قال:"كل ما يريده الرئيس هو أن نقول له إن إقامة دولة يهودية في جزء من فلسطين يتماشى مع مصالح الولايات المتحدة، لكن برغم كل الضغوط على وزارة الخارجية لم نستطع أن نقول له ذلك". وكان "ترومان" هو الذي منح إسرائيل قوة الانطلاق لحظة تأسيسها، وكان يقول لمن يذكره بحقوق العرب:"ليس لدي هنا عدد كاف من الناخبين العرب" وكان من أقسى الردود الأميركية على هذا الموقف قول ماريشال:"إن المصالح الاستراتيجية لدولة عظمى كالولايات المتحدة يجب ألا تخضع لطموح متدنٍ بإعادة انتخاب رئيس". وحين أعلن "ترومان" عن مبدئه في إعطاء أهمية استراتيجية للخليج العربي من أجل المصالح النفطية، لم تجد غالبية العرب خطراً كبيراً في ذلك لأن الدول العربية النفطية كانت تريد شريكاً قادراً، وحين قامت ثورة مصر لم يكن العرب يعتبرون أميركا عدواً رغم تراجعها عن تمويل السد العالي، ولم تكن ثورة يوليو بعيدة عن الرضا الأميركي كما أكد السادات في مذكراته، ثم جاءت معارضة "إيزنهاور" للعدوان الثلاثي على مصر وطلبه من إسرائيل الانسحاب من سيناء لتعدِّل الموقف العربي القلق من مبدأ إيزنهاور الذي مزج النفوذ السياسي للولايات المتحدة بقوة ردع عسكرية، وتجاهل العرب أن "إيزنهاور" كان يرى في شخصية إسرائيل القومية عصارة نقية للقوة والعظمة، وأنه أخرج البريطانيين والفرنسيين من المنطقة ليبدأ عصر أميركا، وكان مشروع "إيزنهاور" هو سد الفراغ، وكانت وصيته لـ"جون كينيدي" أن يلتزم بأمن إسرائيل، وهذا ما أكده "كينيدي" فقد قال بعد تسلمه الرئاسة "لقد وُجدت إسرائيل لتبقى". ولكنه ربما لسبب في مذهبه الديني لم يمتلك الاندفاع الكافي لتلبية طلب "بن غوريون" بعقد (اتفاقية أمن مشترك بين إسرائيل والولايات المتحدة) ولم يوافق على طلب «بن غوريون» بأن تقوم إسرائيل بضربة قاسية ضد العرب، وقد قتل كينيدي، وجاء "ليندون جونسون" ليحقق ما لم يقبل به "كينيدي" وكانت حرب ١٩٦٧ أول ضربة كارثية نبَّهت العرب إلى أنهم لا يحاربون إسرائيل وحدها وإنما هم يواجهون الولايات المتحدة مباشرة.

وحين جاء "نيكسون" بدأ يخطط لتنفيذ توصية المؤتمر الصهيوني عام ١٩٦٠ بجمع العرب والإسرائيليين على طاولة صلح، وكانت مهمته كذلك أن يقنع العرب بتوطين اللاجئين الفلسطينيين خارج فلسطين، وكان "كيسنجر" هو المسيطر على القرار الأميركي، وقد تكمن العرب من تحقيق نصر نوعي في حرب أكتوبر٧٣ وجد فيه الرئيس السادات طريقاً للصلح المنفرد، وكان ما كان من شقاق عربي ولاسيما بعد أن نجح "كارتر" بعد سنوات تمهيد مضطربة في مرحلة رئاسة "فورد" في أن يحقق اتفاقية "كامب ديفيد". ولم ينتبه العرب كثيراً

إلى عقيدة "كارتر" الدينية التي وضحها حين قال:"كنت على قناعة بأن إيجاد وطن قومي لليهود هو من تعليمات الرب وذلك نتيجة قناعتي الدينية والأخلاقية، والتزامي بإسرائيل ثابت لا يتغير". وقد حمل ذات الرؤية بعده الرئيس "ريغان"، فقد خاطب اللوبي الصهيوني بقوله:"إنني أعود إلى قراءة النبوءات التي في التوراة فأجد أنها تخبر باقتراب المعركة الفاصلة بين الخير والشر، وأتساءل هل نحن الجيل الذي سيشهد هذه المعركة؟ إن النبوءات تصف الزمن الذي نعيش فيه الآن". وقد تغاضى العرب عن هذه العقائد التي بدأت تتضح أكثر في عهد الرئيس بوش "الأب"، وتؤكد أن المشروع الصهيوني بات مشروعاً أميركياً ولا سيما بعد زوال الاتحاد السوفيتي، وإطلاق النظام العالمي الجديد بقيادة منفردة للولايات المتحدة،. ووجد العرب أنفسهم مضطرين للحاق بموكب بوش، وتجاهلوا قول "شوارزكوف" للإسرائيليين:"إن الحرب التي خاضها رجالنا في الخليج هي من أجلكم، من أجل إسرائيل". فقد كانت الحرب في ظاهرها دفاعاً عن العرب، وكان صدام هو الذي قدم لها الذريعة في عدوانه الوحشي على الكويت، وقد تفاءل العرب بأن تبدأ الولايات المتحدة رؤية جديدة لمصالحهم بعد حرب الخليج، ولا سيما بعد أن قبلوا دعوة الرئيس بوش إلى مؤتمر مدريد، لكن التفاؤل سرعان ما تبدَّد حين وجدوا أكثرية الطاقم الأميركي لمفاوضات السلام مكونة من شخصيات اللوبي الصهيوني في أميركا. ولم تحقق المفاوضات ما وعدت به الولايات المتحدة من سلام عادل، فقد جُزّئت عملية التسوية، وأُخذ العرب فرادى، وأجلت في اتفاقية "أوسلو" القضايا الرئيسية التي أعلن عليها "باراك" في عهد "كلينتون" لاءاته الشهيرة، وكان "كلينتون" قد بالغ في دعم إسرائيل، ولكنه لم يصل في دعمه لها إلى الحد الذي وصل إليه الحال في عهد الرئيس بوش اليوم.

كل ذلك والعرب لم يعلنوا قط أن الولايات المتحدة عدو لهم، فما يزالون يأملون أن تنصفهم الدولة الأعظم في العالم، وقد فوجئوا بتهمة المسؤولية عن جريمة ١١ سبتمبر، وقبل النظام الرسمي التهمة، ودخل مع الولايات المتحدة حرباً على "الإرهاب" العالمي الذي لا جنسية له ولا دين، على الرغم من أن الغالبية العظمى من المواطنين العرب والمسلمين (كما كثيرون من شعوب الأرض) يرون في الأمر خدعة كبرى قد يكشفها الزمن. فقد شن العرب حملة ضخمة ضد "الإرهاب"، ولكنهم تمنوا على الولايات المتحدة ألا تخضع لابتزاز إسرائيل واستغلالها لجريمة سبتمبر فتخلط المقاومة بـ"الإرهاب"، ودعوا العالم إلى عقد مؤتمر دولي للتفريق بينهما، ولكن الولايات المتحدة أصرت على اعتبار المقاومة إرهاباً، واعتبرت الشرفاء الذين يدافعون عن حقوقهم الوطنية في لبنان وفلسطين مجرمين، حيث بدا واضحاً أن المقصود

من هذا الخلط غير المنطقي هو اجتثاث أية قوة يمكن أن تشكل عائقاً أمام المشروع الصهيوني، وبعد أن تم احتلال العراق وتدمير قوته العسكرية والاقتصادية طرحت الولايات المتحدة مشروعها لتغيير جذري في الشرق الأوسط، وفهم العرب أن الشعارات المطلقة في هذا التغيير من ديمقراطية ودفاع عن حقوق الإنسان وتمكين المرأة وسوى ذلك ما هي إلا واجهات لأربعة أهداف رئيسة هي أولاً: تمكين إسرائيل في المنطقة وجعلها القوة العظمى وسط مجموعة من دويلات ضعيفة وممزقة إلى أعراق وطوائف وإثنيات. وثانياً: الاستيلاء المباشر على الثروة العربية من النفط وغيره من الثروات. وثالثاً: إنهاء فكرة القومية العربية بوصفها جامعة لجملة ضخمة من مكونات الأمة. وأخيراً: كسر شوكة الإسلام باعتباره وقود حركة المقاومة لأي عدوان على الأمة، وعقيدة ترفض الإذعان والخضوع لإسرائيل.

ولقد قدم العرب للولايات المتحدة حلولاً وسطاً تحقق لهم ولإسرائيل وللولايات المتحدة مصالح مشتركة، عبر المبادرة العربية للسلام، وحملت المبادرة رؤية عملية وواقعية لعلاقة مستقبلية بين العرب وإسرائيل، ولكن الولايات المتحدة وإسرائيل تجاهلتا المبادرة العربية، بل إن إسرائيل رفضت الدعوات إلى متابعة المفاوضات، مما عمَّق القناعة العربية بأنها تريد من العرب استسلاماً ولا تريد سلاماً.

وإزاء التهديدات الراهنة لسوريا ولبنان، وبعد دفع مجلس الأمن إلى التدخل في الشؤون الداخلية لدولة ذات سيادة عبر القرار ١٥٥٩ يجد العرب أنفسهم أمام امتحان عسير، فإسرائيل تريد تحريض الولايات المتحدة للقيام بتدمير شامل لكل طاقات العرب حتى وإن عمت الفوضى التي يجد "الإرهاب" الدولي فرصته الضخمة فيها. ولعل إسرائيل التي تمارس "الإرهاب" المنظم والمبرمج ضد الفلسطينيين تظن نفسها قادرة على أن تحمي نفسها من أخطار هذه الفوضى مع أنها ستكون الغارقة الأولى في مستنقع الدماء،. وما أظن أحداً في العالم غيرها يريد أن تتكرر مأساة العراق في أي بلد كان، فالعالم كله يعيش النتائج المؤلمة لهذا الدمار، ولكن إسرائيل مفتونة بغرور القوة إلى درجة الاستهتار، وهي تتجاهل أن القضاء على العرب كأمة، أو القضاء على الإسلام كدين أو ابتلاع الحقوق العربية، وهمٌ ينبغي أن يصحو منه الواهمون.

إننا نرجو أن تعيد الولايات المتحدة النظر في سياساتها نحو العرب، وأن تنظر إليهم بعيون أميركية وليس بعيون إسرائيلية، وأن تستعيد معهم تاريخاً من العلاقات الشعبية الطيبة، فقد كانت الهدايا التي تقدمها الولايات المتحدة للشعوب النامية تقدماً وعلماً وثقافة وغذاء وأدوية،

وليست صواريخ دمار شامل أو رسائل تهديد ووعيد، وشعبنا العربي لا يملك أية مشاعر سيئة ضد الشعب الأميركي الذي نريد منه أن يبحث عن مصالحه ومصالح الآخرين، ولـــيس عـــن مصالح إسرائيل وحدها.

لقد كررنا في سوريا دعوتنا إلى تعميق الحوار مع الولايات المتحدة، ونحن متفائلون بأننا سنجد من خلاله الحلول المُنصفة، ونحن مثل كل شعوب العـــالم مؤمنـــون بـــأن أول ضـــحايا الحروب هو السلام.

٢٠٠٤/٩/١٧

الأصولية اليهودية في مواجهة السلام

لم يكن مفاجئاً أن يعلن وزير الخارجية الإسرائيلي في خطابه أمام الجمعية العامة لهيئة الأمم أن الأصولية الإسلامية تهدد أمن العالم بأسره، فهذا جزء من الهجمة الضخمة على الإسلام من بوابة الأصولية و"الإرهاب" الذي يلصق بالإسلام. ولست في معرض الدفاع عن أية أصولية من الأصوليات باختلاف تسمياتها، ولكن التركيز الدائم على الأصولية الإسلامية دون الأصوليات الأخرى يطمس الحقائق أمام المجتمع الدولي، فقد كان أوْلى أن تصارح إسرائيل العالم في الجمعية العامة لهيئة الأمم بأنها باتت هي ذاتها تعاني من خطر الأصولية اليهودية فيها، إلى درجة أن شارون الذي تقطر يداه أنهار دم فلسطيني يكاد يبدو أقل غلواً من زعماء الأصولية اليهودية الذين يلعنونه اليوم ويهددونه بالقتل لمجرد أنه أعلن عن خطة فك الارتباط.

ومن يتابع الصحافة الإسرائيلية يجد في عناوينها ما يؤكد ضخامة الخطر الأصولي اليهودي على مستقبل إسرائيل وعلى المنطقة وعلى العالم كله. فإذا كان الأصوليّون اليهود يهددون بقتل شارون الذي حقق لإسرائيل ما لم يكن يحلم به آباؤهم المؤسسون الأوائل لفكرة الدولة اليهودية، فما الذي يمكن أن يفعلوه إذن لدعاة السلام وهم على قلتهم وندرتهم في إسرائيل يبدون وحدهم الذين يقرؤون مستقبل إسرائيل والمنطقة قراءة حكيمة ويرون أبعد مما تراه العين، ويدركون أن مشكلة إسرائيل الكبرى تكمن في أن قوتها ليست في ذاتها، وإنما هي قوة من الخارج، وهي خاضعة للمتغيرات. ولعل هؤلاء يريدون أن يعيش أبناؤهم في أمن وسلام وتفاهم وتعاون إنساني داخل البيئة العربية والإسلامية الحاضنة كما عاش اليهود الشرقيون قروناً قبل نشوء إسرائيل، فهم يعتبرون الجدار العازل سجناً لإسرائيل (جيتو جديد) سيعزلها وسيحد من حضورها المتوسطي لأن أوروبا أعلنت شعبياً أن إسرائيل خطر على السلام والأمن في العالم، وسيجعلها إصرارها على سياسة القوة والردع أسيرة الدعم الأطلسي الذي لا يضمن أحد دوامه، فلا شيء أبدي. وهؤلاء الإسرائيليون العاقلون (وأنا أريد أن أتحدث عنهم قبل أن أتحدث عن الأصوليين) لا يغرهم أن تكون الدول العربية اليوم ضعيفة منهكة، فهم يشعرون بما تحت الرماد، ويعلمون أن شدة الضغط تولد الانفجار، وهم يرون أن إسرائيل على جبروتها وما تلقى من دعم أميركي غير مسبوق يرعبها وجود بضعة رجال ممن بقوا على قيد الحياة من رجال المقاومة الفلسطينية ولذلك تجدها تلاحقهم في شعاب الأرض وتظن أنها بقتلهم تقتل الحق الذي ينادي به الفلسطينيون، وتتجاهل أن القتل لا يحل قضية وإنما يورث الأحفاد مزيداً من الأحقاد.

ولا يغيب عن بال العقلاء في إسرائيل أن سعي الجنرالات من غلاة الأصولية الصهيونية العالمية إلى جعل إسرائيل الدولة الوحيدة التي تمتلك أسلحة دمار شامل في الشرق الأوسط (وهم يزودونها اليوم بأحدث القنابل الذكية) يعني أن يكون الردع النووي ضمانة تحقيق المشروع الصهيوني في طموحاته المستقبلية، وهذا ما حذر منه "فعنونو" بحس إنساني، ونتذكر هنا قول "إسرائيل شاحاك": إن الخطر هو أن يمتد تأثير الأصولية الراهن على الحكومة الإسرائيلية إلى تأثير على سياسات إسرائيل النووية". ونتذكر كذلك تساؤل "ديفيد هيرست":"ماذا لو وقعت الترسانة النووية الإسرائيلية بيد الأصولية اليهودية؟" وقد يقول قائل هذا تضخيم لدور الأصولية اليهودية في إسرائيل العلمانية، ولكن قراءة ما حدث منذ مؤتمر مدريد إلى اليوم تؤكد أن الأصولية اليهودية هي الآمرة الناهية في إسرائيل. وقد قرأت قبل أيام في صحيفة "هآرتس" ٢٠٠٤/٩/٢٣ مقالة صريحة لـ"يوسي ساريد" بعنوان "جريمة بلا كفارة" يقول فيها:"يريدون التخلص من لعنة غزة ولكن الأمر ليس ممكناً بسبب المستوطنات. يرغبون بإقامة جدار عازل في مسار منطقي ولكن الأمر غير متاح بسبب المستوطنات. يريدون التأكد بصورة جدية من إمكانية التوصل إلى سلام مع سوريا ولكن الأمر ليس ممكناً بسبب المستوطنات في الجولان".

والمستوطنات في إسرائيل كما يعترف الإسرائيليون هي قلاع إيديولوجية يسكنها الأصوليون بخاصة، وهم يعتقدون أن السعي من أجل السلام عبث لأن السلام مستحيل، ومهمة الأصولية اليهودية تخريب أي مشروع يتجه إلى السلام. لقد نجحوا في تخريب "أوسلو"، ونجحوا في تمزيق "خريطة الطريق"، وهم اليوم يزاودون على شارون (وهو أبو المستوطنات) ويهددونه بالقتل إذا هو مضى في خطة فك الارتباط، وتذكرنا الصحافة الإسرائيلية فيما تكتب هذه الأيام بقول الحاخام "يائير درايفوس" عن "أوسلو" (إنها كانت ردة، واليوم الذي يسري فيه مفعولها هو نهاية العهد اليهودي) ونتذكر أن الأصولية اليهودية دفعت بالطبيب الشاب المجرم "باروخ غولدشتاين" لقتل تسعة وعشرين فلسطينياً وهم يؤدون الصلاة في الحرم الإبراهيمي عام ١٩٩٤ لمنع اتفاقية "أوسلو"، مثلما دفعت شاباً آخر هو "ييغال عامير" لقتل "رابين"، وكان قتله إنذاراً لكل من سيأتي بعده. وهذا ما فهمه "بيريز" فسارع إلى ارتكاب جريمة "قانا" كي يبرئ نفسه من خطيئة "رابين"، وعلى الرغم من أن "نتنياهو" لم يكن أقل أصولية من الحاخام "شاخ" فقد رفض الحاخام أن تشارك طائفته الأصولية في حكومة "نتنياهو" حتى اطمأن إلى أنه غير جاد في مسيرة السلام. ثم جاء "باراك" أكثر خوفاً أو إخلاصاً للأصولية اليهودية، وها هو ذا اللواء "يوري ساغي" رئيس فريق المفاوضات مع سوريا في عهد "باراك" يكشف في مقابلة أجرتها معه "يديعوت أحرونوت" قبل أسبوع تفاصيل مدهشة من مواقف "نتنياهو" و"باراك" في

المفاوضات مع سوريا في مثل قوله:"كلاهما توقف قبل النهاية بدقيقة" ويقول عن باراك: "أنا لا أعرف لماذا تنكر باراك لوعوده، يبدو أنه قد جبن، وإسرائيل لم تف بتعهداتها هذه حقيقة ثابتة"، وقد أكد هذه الحقائق "كلينتون" في مذكراته و"روس" في كتابه. ويعلق "ساغي" علـــى أســـباب التوقف بقوله:"برزت ظاهرة إسرائيلية قبيحة ما تزال تكرر نفسها حتى اليوم، عندما أقرأ كيف يهدد ضباط جيش الدفاع وإدارة فك الارتباط أتذكر تلك الأيام الظلامية التـــي وردتنـــي فيهـــا تهديدات علنية وشوهت سمعتي، بعضها جاء من مستوطني الجولان ولكن التهديد الأساسي كان من سكان يهودا والسامرة"، وتهديد الأصولية اليهودية لشارون جدي، ولكنه يعـــرف أن المـــال يحل الإشكال، ولكن اللعنة اليهودية حلت عليه ولم يشفع له قتله آلاف الفلســـطينيين منـــذ بـــدء الانتفاضة حتى اليوم، وهدمه مئات المنازل. فالأصوليون يرفضون أن يفكوا المستوطنات أو أن يمس أحد من الجيش قبور أبنائهم (المستوطن حسداي الذي قتلت ابنته قال: إذا تجرأ أحـــد مـــا على لمس قبر ابنتي فسأطلق النار عليه حتى لو كان رئيس الأركان) نفترض إذن أن "حسداي" يفهم لماذا يفجر فلسطيني نفسه، فالجيش الإسرائيلي لا ينبش قبور الفلسطينيين فقط، وإنما يدفنهم أحياء تحت منازلهم. ولا أدري كيف يتم تفسير موقف المستوطنين على أنهم مواطنون صالحون يدافعون عن أرض احتلوها قبل بضع سنوات، بينما يفسر موقف الفلسطينيين الذين يدافعون عن أرض عاشوا فيها عشرات القرون فيسمون إرهابيين؟ وكيف يفهم قادة العالم حنين اليهود إلـــى الأرض المقدسة التي تركوها (كما يقولون) قبل ثلاثة آلاف عام، ولا يفهمون حنين اللاجئـــين الفلسطينيين إلى بلادهم التي طردوا منها قبل خمسين عاماً فقط!

والأصوليون ليسوا عدداً محدوداً في إسرائيل، فهم يحتلون أكثر من عشرين مقعـــداً فـــي "الكنيست"، ويتم استرضاؤهم من كل الحكومات، وتشير الإحصائيات الإسرائيلية إلى أن ثلـــث أطفال إسرائيل يدرسون في مدارس دينية "الشيفوت" وهي التي تخرج الحاخامـــات، وهـــؤلاء بالطبع لا يقبلون السلام مع العرب، وهم إما أصولية الخلاص التي تمثلها "غوش أمونيم" التـــي تسعى إلى مملكة إسرائيل الكبرى، وإما الأصولية الأرثوذوكسية اليهودية القائمة على التلمـــود البابلي ويسعون إلى تطبيق "الهالاخـــاه" أي الشـــريعة اليهوديـــة، أو الأصـــوليون العلمـــانيون المتمسكون بالحلم الصهيوني والذين يسعون إلى امتلاك الشرق الأوسط الكبير، يدفعهم غـــرور القوة والاستعلاء العرقي. والأصوليون اليهود جميعاً يريدون أن يكون "الترانسفير" الذي اعتبره الحاخام "مائير كاهانا" فرضاً دينياً وليس عملاً سياسياً، ترحيلاً إلى القبور وليس إلى الأردن أو إلى بلد آخر، وهذا ما ينفذه شارون ومع ذلك لم يرض نهم الأصولية اليهودية إلى قتل المزيـــد من العرب والمسلمين. والمصيبة أن الأصولية المسيحية الصهيونية باتت أكثر حماسة لإسرائيل

من الأصوليين اليهود أنفسهم. فهناك أصوليون يهود مثل حزب "ناطوري كارتا" يرفضون قيام دولة إسرائيل ويعتبرون الحكومة الإسرائيلية كافرة، والمفارقة أن الأصولية اليهودية لا تبادل الأصولية المسيحية مشاعرها، فما يزال المؤمنون اليهود يرددون في صلوات الأسبوع لعناتهم على المسيحيين والمسلمين معاً. وهم ينتظرون مجيء المسيح، ويتجنبون تحديد الجهة التي سيمضي إليها، أهي إلى الهيكل الذي يستعجلون بناءه مكان الأقصى أم إلى كنيسة القيامة، وإن كان الحل الذي فض الخلاف أن (بوسع الرب أن يذهب حيث يشاء، ولكنه بالتأكيد لن يمضي إلى المسجد الأقصى) فإن الخلاف مؤجل لأن الأصولية اليهودية لا تعترف بالسيد المسيح، كما تفعل الأصولية الإسلامية التي تعترف بكل الأنبياء والمرسلين.

كان الإنصاف يقضي بأن يعترف وزير الخارجية الإسرائيلي كما فعل "شاحاك" (المنصف) بأن الأصولية اليهودية "ستهدد أمن العالم كله إن تمكنت يوماً من السيطرة على سياسة إسرائيل النووية".

لقد حرصنا ألا يأخذ الصراع العربي الإسرائيلي طابعاً دينياً لأننا نحترم كل الأديان ونؤمن بكتبها السماوية وأنبيائها تصديقاً لقوله تعالى "لا نفرق بين أحد من رسله" ولكننا نعتقد بأن توجيه الاتهام إلى الأصولية الإسلامية وحدها واعتبارها خطراً على العالم تزييف للحقيقة، وإغفال لخطر الأصوليات الأخرى، لأن الأصول الإسلامية هي الاعتدال والوسطية، والقرآن الكريم وأحاديث الرسول الأعظم، وسيرته الغراء متاحة لمن يريد أن يتأكد أو يتثبت، وسيجد الأدلة القاطعة على أن الإسلام في أصوله دين اعتدال وأن المسلمين أمة وسط. فأما التطرف الذي يرتدي عباءة الأصولية الإسلامية فهو خروج عن الأصول وإنكار لها، وأذكياء العالم يعرفون جيداً أن المتطرفين الذين يختطفون الإسلام صنعهم أعداء الإسلام ودعموهم وخططوا لهم كي يقدموا المبرر للهجوم عليه. ولا يغيب عن الأذكياء أن وسائل الإعلام الصهيونية وبعض العربية تسارع إلى اتهام المسلمين (بعناوين ضخمة مثيرة) بالمسؤولية عن أي انفجار أو اختطاف أو جريمة تقع دون أن تقدم دليل إدانة، وأحياناً تنشر الصحافة ذاتها بعد شهور في زاوية هامشية (تعبر عن الخوف من الأصولية الصهيونية) أن التحقيقات لم تثبت إدانة المسلمين المتهمين، أليس العالم كله ما يزال ينتظر أدلة الاتهام القاطعة على إدانة العرب والمسلمين بجريمة سبتمبر؟.

الاتحاد ـــ ٢٠٠٤/٩/٢٩

في غياب المنطق

كيف بوسعنا أن نطمئن إلى المستقبل في ظل غياب شبه مطلق لمنطق الحق وانتصار شبه مطلق لمنطق القوة؟ فالولايات المتحدة تستخدم حق الفيتو لمنع إدانة الجرائم الوحشية التي ترتكبها إسرائيل في غزة ومخيم جباليا وخان يونس وسواها من ملاجئ الفلسطينيين، وأنصار إسرائيل يقولون إن الشعب الفلسطيني يشن عدواناً ضخماً على إسرائيل، وإن أهل مخيم جباليا يهددون أمن الدولة الأكثر تفوقاً من الناحية العسكرية على العرب مجتمعين، وهم يتحدثون عن صواريخ القسام وكأنها رؤوس نووية من طراز ما يملكون، ويزعمون أن الفلسطينيين يلاحقونهم كيلا ينسحبوا من غزة، بدعوى أن انسحاب إسرائيل من غزة سيجعل وضعها أفضل... لماذا يقاتل الفلسطينيون إذن إن كانوا لا يريدون من إسرائيل أن تنسحب؟ ثم يستدركون فيقولون بل إن الفلسطينيين يريدون أن يبدو انسحاب إسرائيل من غزة قهراً وقسراً، وأنصار إسرائيل يتجاهلون أن شارون يريد في حملته الأخيرة أن يفك رؤوس الفلسطينيين عن أجسادهم قبل أن ينفذ خطة فك الارتباط، والرؤوس التي يريد فكها هي الرؤوس العنيدة التي ترفض الذل والخنوع والقبول بما يريد أن يرمي من فتات، وهي التي جعلته يستقبل السنة الخامسة من الانتفاضة هائجاً لا يعرف ما بوسعه أن يفعل غير مزيد من القتل والتدمير معلناً إيمانه العميق بمبدأ يهودي خطير هو: ليس مهماً ما يقوله الآخرون،المهم هو ما يفعله اليهود فقط. ويتجاهل أنصار منطق القوة أن شارون عطل خارطة الطريق وقتل جهود الرباعية، وأصر على إقناع العالم بأنه لا يجد شريكاً للسلام، والعالم يعلم أن شارون في الحقيقة لا يجد من يقبل الاستسلام، ولهذا فهو يريد تصفية كل منظمات المقاومة، وقد قتل من قياداتها المئات، ولكنه يفاجأ بظهور جيل جديد يطور أساليب المقاومة ويتشبث بالأرض كيلا يكرر غلطة الآباء الذين هاجروا في النكبتين، وقد نسيهم العالم على مدى ستة وخمسين عاماً قضوها لاجئين بائسين، ينتظرون يوماً ينفذ فيه مجلس الأمن قراراته الخمسين التي رمتها إسرائيل في سلة المهملات.

ويتجاهل أنصار إسرائيل أن الهجوم الأخير على غزة والمخيمات يحمل عنوان أيام الندم، وأن الإسرائيليين يتقربون إلى الله بقتل المزيد من العرب والمسلمين، فليس هناك تفسير لقيام ضابط إسرائيلي بإفراغ طلقات مسدسه في جسد طفلة فلسطينية بعد أن قتلها سوى حرصه على دخول الفردوس ودم الطفلة يقطر من يديه، وهذا الضابط لا يسمونه إرهابياً لأنه يدافع عن نفسه أمام طفلة كانت في طريقها إلى المدرسة، وأحسب أنه قتلها ومزق جسدها بعد موتها لمجرد أنه

تخيل أنها لو بقيت حية وكبرت، فستلد شباناً ينضمون إلى المقاومة وينفذون عمليات استشهادية ولعله اقتدى بمبدأ الرئيس بوش فسحقها بضربة استباقية. وغياب المنطق يتجلى مرة أخرى في أن إسرائيل تكرر في تحريضها الراهن للولايات المتحدة ضد سورية، ذات الذرائع التي استخدمتها لدفع الولايات المتحدة لاحتلال العراق، ولا يهتم الصهاينة بما آلت إليه تلك الذرائع الواهية. لقد نجحت ذريعة اتهام العراق بوجود أسلحة دمار شامل لديه حين تم تحطيم ما أنجز العراقيون على مدى سنوات القرن العشرين من بنى تحتية وتدمير قوى الشعب وإغراقه بمآس وفواجع لن ينهض منها بسهولة، فإن لم يجد أحد بعد ذلك أثراً لأسلحة الدمار فبوسع الرئيس بوش أن يحول الأكذوبة المأساة إلى نكتة وأن يتساءل ضاحكاً أين هي أسلحة الدمار؟ هل هي تحت طاولتي؟ والصهاينة اليوم يبحثون عن تهم لسورية، ولكنهم يجدون صعوبة بالغة في إقناع العالم بما يفبركون، فقد كانت صورة صدام حسين الدكتاتورية تساعدهم إلى حد ما في تمرير الذرائع والمبررات، فحتى الرافضون للحرب كانوا ينطلقون في رفضهم من الخوف على العراق وليس من الحرص على صدام ونظامه. لكن الأمر مختلف مع سورية. ففي سورية رئيس يحمل قيماً إنسانية نبيلة، ويدعو إلى السلام العادل والشامل، ويقود مشروعاً وطنياً لتحديث بلده وتطويره، وهو ملتزم بقضايا أمته، ويتعامل مع المجتمع الدولي من خلال احترام عميق لمبادئ الشرعية الدولية، وليس في سجله الشخصي أو الرئاسي ما يمكن أن يستغله الصهاينة، سوى تأييده القضية الفلسطينية ورفض الاستسلام والتنازل عن الحقوق العربية. يتهمون الرئيس الأسد بدعم حزب الله، وهذا شرف يفخر به كل عربي ومسلم، لأن حزب الله حزب مقاومة وطنية حققت انتصاراً ابتهج به كل العرب والمسلمين والشرفاء في العالم، وهم يتجاهلون أن حزب الله حزب سياسي مشارك في البرلمان اللبناني، وليس ميليشيا مسلحة كما يصفونه. وقد أكدت سورية مرات أن حزب الله ليس ورقة في يدها كما يتوهمون، فسورية تتعامل مع هذا الحزب ومع سواه من القوى السياسية اللبنانية الوطنية من معايير الأخوة والتعاون والمصير المشترك الذي يربط سورية ولبنان بقوة التاريخ والجغرافيا. والهدف الإسرائيلي الواضح من الدعوة إلى تفكيك حزب الله الآن، هو إعادة إشعال الفتنة في لبنان، فإن كانت إسرائيل تريد الأمن والاطمئنان حقاً فالأمر متاح وهو بيدها، وحسبها أن تعترف بالحقوق العربية وأن تعيدها إلى أصحابها الشرعيين منفذة بذلك قرارات الشرعية الدولية، ولكنها تريد من العرب جميعاً إذعاناً واستسلاماً وهذا هو المحال.

٢٠٠٤/١٠/١٥

نحن وفرنسا

أحسب أن الكثرة من السوريين لم يفاجأوا بالموقف الفرنسي الجديد من سوريا ولبنان، فقد استشعروا تمهيداً مثيراً لهذا التحول منذ أن صرح الوزير "دومينيك دوفيلبان" قبل عام ونيف بأن على سوريا أن تتابع انسحابها من لبنان، ولم يشر يومذاك إلى احتلال إسرائيل للجـولان فـي وقت كان يتردد فيه حديث في الأوساط الدبلوماسية عن رؤية فرنسية لخريطة طريق خاصـة لسوريا ولبنان، تفتح الباب للعودة إلى مفاوضات التسوية للصراع العربي الإسـرائيلي. ولكـن العرب والمسلمين ارتابوا في تحولات الموقف الفرنسي حين أثيرت قضية الحجاب في ظـرف كانوا فيه يشيدون بمواقف فرنسا العادلة والمناهضة للسياسات المعادية للإسلام، وكان العـرب (وما يزالون) يقدرون حرص الرئيس "شيراك" على تعزيز دور أوروبا وجعلها قـادرة علـى إعادة التوازن للعلاقات الدولية التي أرهقها تفرد قطب واحد في تقرير مصير الشـعوب. وقـد شجع الموقف الفرنسي دولاً مهمة مثل ألمانيا على اتخاذ مواقف رحب بها العـرب، وغضـب منها صقور البنتاغون إلى حد التهجم على أوروبا العجوز وتهديدها. وقد عبـر العـرب عـن حفاوتهم بالرئيس "شيراك" في مناسبات كثيرة من أهمها الاستقبال الحافل المثير الذي لقيه مـن الشعب الجزائري مطلع مارس عام ٢٠٠٣ تحية لمواقف فرنسا المساندة للقضايا العربية، وكان العرب جميعاً قد أغضبتهم المضايقة التي تعرض لها الرئيس "شيراك" من الإسرائيليين يوم زار القدس، فاستقبلته دمشق بترحيب غامر، ولا سيما أن السوريين قد غفروا منذ أمد بعيد لفرنسـا احتلالها لبلادهم في مطلع العقد الثالث من القرن العشرين، وفتحوا صفحة جديـدة معهـا بعـد الاستقلال عنوانها الصداقة والتعاون، وقد نما هذا التعاون بشكل خاص مع "الديغوليين" الـذين يعرفون معنى المقاومة الشريفة للاحتلال لأنهم حرروا فرنسا بالمقاومة يوم غزاها النـازيون. وكان الرئيس الراحل حافظ الأسد يشعر بمودة كبيرة وخاصة نحو الرئيس "شيراك"، ويحـرص على إشراك فرنسا في القضايا العربية يوم كان الآخرون يريدون استبعادها، وقد استقبل الرئيس حافظ الأسد صديقه "شيراك" في دمشق باهتمام ملفت، وعبّر الرئيس "شيراك" عن وفـاء لهـذه الصلة الوطيدة في استقباله الحافل للرئيس حافظ الأسد في باريس، ثم في استقباله للدكتور بشار قبل أن يصبح رئيساً، ثم في الزيارة المهمة التي استقبلت بها باريس الرئيس بشار الـذي تـابع توطيد الصداقة والتعاون مع فرنسا حتى أنه استعان بها لدعم مشروعه التحديثي ولا سيما فـي الجانب الإداري.

ولا يغيب عن البال ونحن نتحدث عن الصداقة أن السياسة على الأسلوب الغربـي تهـتم بالمصالح أكثر من اهتمامها بالصداقات، عكس موقفنا نحن العرب والمسلمين المتمسكين بـالقيم

التقليدية السامية، فنحن نغضب ونثور على من يعتدي علينا، ولكننا سرعان ما نغفر ونسامح حين يزول العدوان، وإذا قدم لنا أحد مساعدة أو مساندة فإننا لا ننسى فضله، ومن المعيب في قيمنا أن نتنكر له، وخير دليل على غفران العرب والمسلمين لمن أساء إليهم هو موقفهم المعاصر من فرنسا، فقد غفروا جرائم الحروب الصليبية التي كانت كما يسميها آرنست باركر "مشروعاً فرنسياً" قاده البابا الفرنسي "آربان". وغفر المصريون والسوريون غزو "نابليون" لبلادهم، بل باتوا يفتعلون لحملته دوراً تنويرياً في النهضة المعاصرة، وهذا موقف مجامل لفرنسا الحديثة التي لا يريد العرب تحميل أجيالها الراهنة مسؤولية عن أخطاء آبائهم وأجدادهم. وتناسى السوريون إنذار "غورو" عام ١٩٢٠ لكن الدور الفرنسي في القرار ١٥٥٩ أعاده إلى أذهان من يرون في الحملة الفرنسية على سوريا ولبنان بعد انهيار الدولة العثمانية استعادة للحملات الصليبية القديمة، وهم يتذكرون أن أول عمل قام به «غورو» (بعد أن قتل شرفاء السوريين الذين خرجوا لمقاومته في ميسلون بقيادة الوزير الشجاع يوسف العظمة) هو رفس قبر صلاح الدين بقدمه وقوله المغرور «هيا انهض يا صلاح الدين فقد عدنا»، ولم يكن «غورو» قد وقع آنذاك في زلة لسان كالتي وقع بها الرئيس بوش حين أعلن الحرب الصليبية على الإسلام بعد ١١ سبتمبر حتى نبهه مستشاروه إلى خطورة إقحام الأديان في الصراع فاعتذر. وقد تناسى السوريون كذلك أن «سايكس وبيكو» هما اللذان مزقا جسد بلاد الشام، وبات بعض المواطنين السوريين مضطرين إلى أن يطرحوا أسئلة قلقة من مثل: هل علم الفرنسيون أن مشروع الشرق الأوسط الكبير الذي بات استراتيجية أميركية سيغير الخريطة التي رسمها سايكس وبيكو، فهبوا للبحث عن دور وموقع لفرنسا في الخريطة الجديدة؟

وهل استشعرت فرنسا خطر أن تبقى مناهضة للسياسة الأميركية، فبدلت موقفها من منطلق مصالحها وليس من منطق مبادئها، بعد أن خسرت الكثير من مواقعها في أفريقيا، وأوشكت أن تصبح خارج الشرق الأوسط؟ وهل تفاهم زعماء الدول الصناعية الثماني على قسمة جديدة للعالم العربي والإسلامي بقيادة الولايات المتحدة حين تدارسوا مشروع الشرق الأوسط الكبير؟ وهل تصالح الفرنسيون والأميركان على حسابنا؟ لئن حدث ذلك فلسوف تفقد فرنسا مكانتها المتميزة في عالمنا العربي، وهذا ما لانريده.

٢٠٠٤/١٠/٢٩

السلام مسؤولية دولية

ما دام الجميع يتحدثون عن السلام ويعلنون أنه هو الهدف الوحيد فمن الذي يصنع الحروب إذن؟ وما دامت الولايات المتحدة قد بشرت الشعوب بانتهاء الحروب حين أعلنت عام ١٩٩١ عن نظام دولي جديد تطمئن فيه البشرية إلى الأمن والاستقرار وإلى التطبيق الصارم لمبادئ القانون الدولي وما يتضمنه من قيم العدالة وسيادة الدول واحترام حقوق الإنسان فمن وراء ابتلاء العالم منذ ذلك الإعلان إلى اليوم بسيل من المآسي والفواجع البشرية الوحشية؟

يقولون إن عصر الحروب الباردة قد انتهى بحرب الخليج الأولى وبغزو السوفييت لأفغانستان، ولكن النظام الدولي الجديد باشر تطبيق وعوده الخيرة للبشرية بسلسلة من الحروب المدمرة فقد تم وداع القرن العشرين بأكثر من ثمانين بؤرة توتر ونزاع في العالم، وشهدت القارة الأفريقية أفظع المآسي عبر حروب الماس والعاج والنفط والصراع على السلطة والنفوذ حتى إن دولة من كل أربع دول أفريقية حل بها الدمار في عصر النظام الدولي الجديد الذي أصبحت الحروب الاقتصادية فيه أخطر بكثير من الحروب الإيديولوجية في سابقه، فقد قتل أكثر من ثلاثين مليون إنسان أفريقي في أقل من عقد في نهاية القرن العشرين عدا شعوب كاملة تشردت في الصحارى تبحث عن طعام أو شربة ماء، ولم يكن ذلك في غفلة من العالم المتحضر وإنما كان لأول مرة (تقنياً) على مسمع العالم وبصره عبر الفضائيات، وكان حسب أفريقيا مقتل الملايين فيها بسبب الإيدز وسواه من الأمراض المستعصية، ولم تكن الحروب الأخيرة بعد الإعلان الشهير عن انتهاء عصر الحروب مقتصرة على العالم الثالث بل لقد شهدت القارة الأوروبية ذاتها أسوأ أنواع القتل والتدمير، فالمذابح المريعة التي جرت ضد المسلمين في البوسنة بدأت عام ١٩٩٢، كما أن القارة الآسيوية تحولت بعد انهيار الاتحاد السوفييتي إلى غانية يتيمة حسناء يتطلع الأقوياء إلى افتراسها بدل البحث لها عن مأمن. فقد صار حوض بحر قزوين محط أنظار الطامعين لكونه يحتوي على خمس احتياطي العالم من البترول لأن فيه كما يقولون أكثر من ٢٧٠ مليار برميل من الاحتياطي المحقق في العالم وفيه أكثر من ٦٦٥ تريليون متر مكعب من الغاز وقد تكون معلوماتي قديمة لأن الاكتشافات تتوالى، ولم تكن الحرب على أفغانستان بعيدة عن الأطماع في ثروات آسيا والنفوذ فيها قبل نهوض نمور آسيوية جديدة بعد أن تم تحطيم القديمة وبخاصة بعد أن نبه منتدى خماسي شنغهاي إلى خطورة قيام تجمع آسيوي. أما الحروب ضد العرب والمسلمين فقد انطلقت في عصر النظام الدولي الجديد لتنفذ بالقوة ما عجزت عن تحقيقه بالضغوط والعقوبات. ولم تكن الحرب على

العراق في نظر كثير من المحللين أكثر من (بروفة) كما سماها نعوم تشومسكي. وقــد فســر كثيرون اختيار العراق ميدان تجربة لكون النظام العراقي بالغ الهشاشة ولكون الشعب العراقي منهكاً ولن يدافع عن نظام مستبد عانى منه الظلم والاضطهاد. ولكن الولايات المتحدة فوجئــت بأن الشعب العراقي لا يقبل الاحتلال حتى ولو كان المنقذ من صدام، ولا سيما وقــد وجــد أن الحرب المدمرة للعراق بدأت بعد انهيار النظام العراقي حيث حلت الفوضى ونهبــت ثــروات الشعب وسرقت ممتلكاته ودمرت منشآته تحت عين وبصر قوات التحالف التي قالت يومها إنها ليست شرطياً مطالباً بحفظ النظام مع أنها حلت الشرطة والجيش لتكون هي المسؤولة المطلقــة عن كل ما يحدث في العراق. ويرى المحللون أنه لن يكون مفاجئاً أن تتابع الولايات المتحــدة شن حروب جديدة في العالم، فقد قال رامسفليد حين أعلن الحرب على أفغانســتان إن الحــرب طويلة جداً وقد تطال ستين بلداً مما دعا بعض المحللين حينها إلى أن يظنوا أنه ربمــا يقصــد بلدان منظمة المؤتمر الإسلامي مع تصاعد ظاهرة معاداة الإسلام مع أن المسلمين في العالم كله استنكروا كل الجرائم التي ارتكبت باسم الإسلام وتبرؤوا منها، وهم واثقون من أن مرتكبي هذه الجرائم بما فيها جريمة ١١ سبتمبر هم أعداء العروبة والإسلام، وأنهم يرتكبون هذه الجــرائم باسمه لتقديم الذرائع لضربه وحصاره. ولقد انتشر القلق والرعب في العالم كلــه خوفــاً مــن العمليات الإرهابية الإجرامية التي تقتل الآمنين ومن الحروب الاستباقية التي تدمر الشــعوب، وطال انتظار البشرية لتحقيق الوعد الأميركي القديم بحل النزاعات الدوليــة وفــق الشــرعية الدولية.ونحن اليوم على مفترق جديد مع الولاية الثانية للرئيس بوش وقد جرب الحروب ورأى أنها بدل أن تقضي على الإرهاب منحته أرضاً خصبة للنمو والانتشار. ولابد أنــه يــدرك أن حروبه قد أفقدت الولايات المتحدة محبة الشعوب التي كانت تتطلع إلى أن تكون أميركا راعيــة للعدالة والحرية والديمقراطية وأن تقدم للبشرية فيض إنجازاتها العلمية والتقنيــة وأن تســاعد الشعوب الضعيفة على تحقيق التقدم والتخلص من الفقر والأمراض والتخلــف. لكــن البشــر يتابعون اليوم إنجازات أميركا في قصف المدن وتدميرها بحجة مكافحة الإرهاب، وهي بــذلك تقوم بإرهاب للشعوب أخطر من الإرهاب الذي تكافحه، لأن صواريخها لا تقتــل المجــرمين وحدهم بل هي تنهال على رؤوس المدنيين الأبرياء.

٢٠٠٤/١١/٢٦

لماذا يتحاملون على سورية؟؟

لا أدري أكان الرئيس بوش يقصد إثارة استياء السوريين حين قال: إن سورية بلد ضعيف جداً ولا يعتمد عليه. أم لم يخطر له أن هذه الكلمات تغضب كل مواطن سوري، بل كل مواطن عربي يقول في نفسه: إذا كان الرئيس بوش يرى سورية ضعيفة ولا يعتمد عليها فكيف إذن يرى البلدان العربية التي هي أضعف من سورية؟ وما ميزان الضعف والقوة عنده؟ أهو ما وصلت إليه الولايات المتحدة من قوة؟. إن كان الأمر كذلك فليست سورية وحدها ولا الدول العربية مجتمعة بلداناً ضعيفة فقط، بل إن دولاً عظمى تملك أسلحة نووية تبدو ضعيفة جداً بالقياس لما تملك الولايات المتحدة من القدرة على تدمير البشرية؟.

والضعف مؤسف ومفجع ليس لسورية وحدها بل للعرب والمسلمين في العالم كله، لأنهم لو وقفوا لحظة واحدة على قلب رجل واحد لمواجهة من يستهين بهم ويسخر من ضعفهم، واكتفوا بأن يبلغوه عتباً رقيقاً لطيفاً، لأعاد النظر فيما قال، فما بالك إذا أبلغوه رسالة جادة تذكره بأن الاستهانة بسورية هي استهانة بأمتهم جميعاً وتهديدها هو تهديد لآخر معاقلهم. فسورية ليست جارة لهم غريبة في المنطقة وإنما هي قلب عروبتهم وصرح تاريخهم، وحاضنة نضالهم، وهي تحمل سلمهم بالطول وليس بالعرض، وقضيتها قضيتهم، ولو كانت تريد خلاصاً فردياً لكان بوسعها أن تذهب إلى تل أبيب قبل أن يذهب السادات، ولكنها كانت تصر حين ذهبت إلى مدريد على أن يكون العرب أمة واحدة، وأن يعقدوا سلاماً شاملاً وعادلاً، وألا يؤخذوا فرادى فيضيعوا وتضيع حقوقهم. وقد صح منها العزم ولكن الدهر أبى، فإذا هي تهمل إلى آخر الطابور، ويصير عليها أن تنتظر حتى يرى الرئيس بوش ماذا سيفعل بشأنها بعد أن ينتهي من القضية الفلسطينية.

وأرجو ألا يفهم أحد أنني كمواطن سوري أريد أن يتفرغ الرئيس بوش لقضية سورية أولاً قبل أن ينهمك في حل سلمي للقضية الفلسطينية، بل نحن نرجو أن يكون الرئيس بوش جاداً في وعده بأن يتفرغ في ولايته الجديدة لإحلال السلام، ونتمنى ألا يكون تصريحه نوعاً من اللعب على المسارات وفق السيناريو الإسرائيلي المعتاد. ونتمنى أن يجد حقاً حلاً عادلاً لقضية شعبنا في فلسطين. وعندها سيجدنا أكثر قوة وليس أكثر ضعفاً، فنحن واثقون من أننا سنحصل على حقنا، لأن السلام في المنطقة لا يكتمل بدون سورية، ولكننا نستغرب أن يطلق الرئيس بوش تهديداته لسورية بحيث تبدو وكأنها رد على نداء سورية للعودة إلى المفاوضات، مما قد يفهم منه أن السلام مؤجل وقد طوي ملفه إلى أجل غير مسمى. كان شعبنا ينتظر أن يرحب الرئيس بوش باستعداد سورية للبدء بالمفاوضات فوراً ويتوقع أن يعرب الرئيس بوش عن تقديره لما

قدمته سورية من دعم للعملية السياسية في العراق، وأن يقدر تعاونها مع الحكومة العراقية المؤقتة بما يخدم استقرار العراق وأمنه والحفاظ على وحدته، وأن يثني على حضورها مؤتمر شرم الشيخ، واستنكارها لما يمكن توصيفه بعمليات إرهابية (مما نعتقد في سورية أنه مدسوس على شعبنا العراقي لتشويه نضاله ومقاومته الشريفة للاحتلال)، وأن يقدر استجابة سورية لإيجاد حل عملي سريع لمشكلة الأموال العراقية، وأن يثني على تعاونها الأمني الجاد لضبط الحدود، وأن يقدر تأكيدها احترام القرارات الدولية، وأن يساعدها على تحقيق ما تسعى إليه من تطور وتحديث (إن كان حقاً معنياً بتحقيق الإصلاحات في المنطقة)، بدل أن يفرض عليها العقوبات ويهددها بالمزيد مما يشكل عوائق أمام برامجها التحديثية، ومما يصرف جهدها عن التفرغ للتطوير والإصلاح. وأحسب أن المواطن السوري البسيط قد يحتار إزاء تصريحات الرئيس بوش. أتراه يحزن لأن سورية ضعيفة جداً ولا يعتمد عليها أم يزهو لأن سورية وصلت من القوة إلى درجة القدرة على إرباك الولايات المتحدة في العراق كما يقول الرئيس بوش، وإرباك إسرائيل في حربها الوحشية ضد الفلسطينيين كما يقول شارون؟

ألا يعكس هذا التناقض في تقدير القوة والضعف، والتصعيد في توجيه الاتهامات لسورية حالة ارتباك لدى الإدارة الأميركية وهي تواجه ما لم تقدره جيداً حين قامت بغزو العراق؟ وكيف نفسر هذا التحامل على سورية في الوقت الذي تطلق فيه نداءات السلام وتقدم كل ما بوسعها من تعاون لإنجاح الحلول السياسية في المنطقة؟ وهي تتهم بدعم الإرهاب في العراق بينما يعرف الجميع أن سورية أكثر دول المنطقة حاجة ماسة إلى الأمن والاستقرار في العراق، وأكثرها تضرراً مما يحدث من فوضى فيه. لقد بدأ شعبنا يشعر إزاء هذه التصريحات المتصاعدة ضد سورية بأن ثمة أمراً يدبر ضده ضمن خطة استراتيجية أميركية إسرائيلية موضوعة سلفاً. كما أن الكثيرين من أبناء شعبنا يعتقدون أن من أدلوا من المسؤولين العرب بتصريحات يكيلون فيها الاتهامات الباطلة لسورية مغلوبون على أمرهم، وربما طلب منهم أن يطلقوا هذه التصريحات بالتزامن مع حملة صحفية أميركية وصلت إلى حد المطالبة بعمل عسكري ضد سورية وبتصعيد العقوبات الاقتصادية، وكان ذلك تمهيداً للتهديدات الأخيرة التي أطلقها السيدان أرميتاج وبوش.

أعتقد أن إنكار أهمية وجدية ما قدمته سورية سيجعل الشعب السوري كارهاً لأي تعاون يمكن تقديمه في المستقبل، حيث سيقول لقد قدمنا الكثير ولم ينفعنا شيء، ونحن لا نريد أن يشعر شعبنا بمزيد من لإحباط، وأن يفقد ثقته بجدوى العمل السياسي. وبالعودة إلى حديث القوة والضعف نعترف بضعف العرب والمسلمين جميعاً، ولكننا نتمنى على الولايات المتحدة ألا تتباهى بقوتها أمام الضعفاء، فلا فخر لها على الإطلاق بانتصارها على شعب أفغانستان

المسكين أو على شعب العراق المنهك، وأعتقد أن كثيرين من الناضجين في الشعب الأميركي يشعرون بسخافة أن يكتب مؤرخوهم مستقبلاً عن حروب دولتهم العظمى في العالم ضد ابن لادن والظواهري وثلة رجال من أعوانهما، واستمرار هذه الحرب المجنونة التي شغلت الدنيا كلها دون أن تصل رغم فظاعتها إلى شيء، حري بأن يدعو الرئيس بوش إلى إعادة النظر في مقاييس الضعف والقوة.

إننا نرجو أن يوظف الرئيس بوش قوة بلاده العظمى لنصرة الضعفاء الذين يطالبون بحقوق مشروعة يقرها العالم كله، ولإحلال السلام وإنهاء الحروب، ونتساءل ألم ترتو إلى الآن نفوس الكارهين للعرب وللمسلمين من دماء الأطفال والنساء والأبرياء وهي تراق ظلماً في العراق وفلسطين؟ وليت أحد أصدقاء الرئيس بوش من العرب أو المسلمين ينصحه بأن يوجه للضعفاء خطاباً غير التهديد لأنه لا يليق بقوته. وأن يتمنى عليه أن يُسمِع العرب ولو لمرة واحدة كلمة طيبة لعلها تفتح بوابة الخلاص والأمل بحياة آمنة أمام ملايين الأطفال الذين تهدد الولايات المتحدة بقتلهم وبقتل آبائهم وأمهاتهم وهدم بيوتهم وتدمير مدنهم، إننا نخشى أن يتحول هؤلاء الأطفال إلى إرهابيين حين لا يجدون غير الموت مستقبلاً لهم.

٢٠٠٤/١٢/٢٧

نحو عقد اجتماعي جديد

لا بد للعرب من أن يجدوا عقداً اجتماعياً وسياسياً جديداً يعيد بناء أمتهم التي تعرضت لتفكيك وتخريب يكاد يشمل كل مقومات وجودها. وقد أصبحت الأمة مهددة بما هو أخطر من الاحتلال العسكري لبعض أقطارها وأراضيها، وهو احتلال مساحات واسعة من العقل العربي الذي فقد بعضه التوازن والاتزان ولم يعد يعرف مصلحة أمته من مصلحة خصومها.

ولم يكن جديداً على العقل العربي أن يواجه حملات التشكيك بالأمة وبقدرتها على إبداع نموذجها الحضاري. ولكن الهجمات الماضية كانت أقل حدة وجرأة عليه مما يتعرض له اليوم. ولم يكن المهاجمون يمتلكون التقنيات الضخمة التي تمتلكها الهجمة المعاصرة.

فحين قادت الشعوبية حملتها الشهيرة على العروبة في أواسط العصر العباسي كان المهاجمون يحتمون بالإسلام وهذا ما كان يجعل العرب مطمئنين لأن خصمهم يدين بدينهم بل يبدع حملته الأدبية بلغتهم وشعرهم. وكانوا يتداولون مفردات الحملة على أنها من الطرائف كما فعلوا في ترديدهم لقول أبي نواس مثلاً: قل لمن يبكي على رسم درس ـــ واقفاً ما ضر لو كان جلس.

وحين هاجم المغول الأمة العربية، غزا العرب عقول المغول بالإسلام، فعاد الجيش الغازي إلى قواعده مسلماً. وحين غزا الفرنجة الأمة في الحملات الصليبية، تشبث العرب بدينهم، وتمكنوا بقيادة صلاح الدين الأيوبي الكردي من تحقيق النصر في حطين، وعاد الصليبيون إلى أوروبا يحملون معهم الحسرة ومعها الثقافة العربية الإسلامية التي أسهمت بقوة في بناء الحضارة الأوروبية المعاصرة. ولم يجد العرب أية غضاضة في أن يحكمهم قادة كبار من غير العرب ما داموا مسلمين. فقد سلموا قيادتهم للمظفر قطز، ومن بعده للظاهر بيبرس الذي أعاد للخلافة رمزها العربي مجاملة. ولكن الأمة تمادت في التراخي حتى وجدت نفسها رعية عند صغار مماليكها، إلى أن طردهم العثمانيون، ليبدؤوا حكم الأمة قروناً باسم الدين.

وفي القرن العشرين ومع بداية تشكل الدولة العربية الحديثة، وقع شرخ كبير في العقد الاجتماعي العام بسبب الفصام بين المشروع العربي والمشروع الإسلامي، نتجت عنه صراعات شغلت الأمة على مدى سنوات القرن، وبدأت الحملات المعادية للأمة تلعب على إذكاء نار الخصام، مع أن فكرة القومية العربية لا تصطدم مع الإسلام في شيء. كما أن الإسلام لا ينكر أهمية موقع العروبة منه، ولكن بعض النظريات الإسلامية المتشددة اعتبرت

المجتمع جاهلياً ونادت بالدولة الدينية الخالصة، مما عمق الخلاف بينها وبين التيارات القومية التي نادت بالعلمانية أو الماركسية أو الليبرالية.

وكانت الحملات المعادية للأمة تقذف نيرانها على كل التيارات الفكرية ذات السمة الوطنية. فقد واجه الفكر القومي حملات التشكيك بالعربية لغة وثقافة ومكانة حضارية، بل إن بعض كبار منظري الثقافة العربية المعاصرة ممن انخرطوا في هذه الحملات متأثرين بدراستهم في جامعات أوروبا في مطلع القرن العشرين وجدوا أن السبيل الوحيد لنهوض الأمة هو التوجه المطلق إلى الغرب. ولكن الفكر القومي أصر على أن سبيل النهوض هو بعث الأمة العربية من جديد، كما أن الفكر الإسلامي أصر على أن السبيل هو بعث الأمة الإسلامية.

وقد تمسك الفريقان القومي والإسلامي باللغة وبالتراث وبالثقافة العربية، واستعادا في كل الأدبيات والإبداعات تاريخ وإنجازات الحضارة العربية الإسلامية، واعتبرا تحرير فلسطين والأراضي العربية المحتلة واجباً قومياً أو فرضاً دينياً متفقين على أن الصهيونية هي العدو الذي ينبغي صد عدوانه.

وفي مواجهة الحملة الراهنة على الأمة وجد العرب والمسلمون أنهم في الهم شرقُ. فالحملة الراهنة لا تفرق صواريخها وقنابلها بين تيار وآخر، وهي تريد تغيير المنطقة بدءاً من اسمها، حيث حلّ اسم الشرق الأوسط محل اسم العالم العربي، وباتت إسرائيل الدولة الأقوى في المنطقة وهي المرشحة غربياً لقيادة الشرق الأوسط الكبير. ولكي تتمكن من قيادته بسهولة عليه أن يخلع رداء العروبة وقفطان الإسلام، وأن يتمثل قيم وأنماط الحياة في الغرب.

وعلى الرغم من جدية التهديد للأمة التي باتت الجيوش المدججة بأحدث وأعتى الأسلحة تحاصرها من كل صوب، فإنها تزداد تمسكاً بهويتها وخصوصيتها. ولكن لابد من الاعتراف بأن الخلل في بنية العقد الاجتماعي العربي يكبر ويتسع. فقد اضمحلت أحلام الوحدة وقبل الجميع أن يحل محلها طموح عملي تحت شعار التضامن العربي، ولكن هذا التضامن يقع في أدنى مستوياته، ويعجز عن الانتقال من المشاعر إلى الفعل، وهو مهدد بأن يتحول إلى تضامن بعضهم مع إسرائيل بذريعة المصالح الاقتصادية والسياسية المرحلية على حساب مصالح الأمة الاستراتيجية.

والمشكلة الخطيرة اليوم أن يتسع بعض الصدر العربي لإسرائيل وأن يحتضنها على الرغم من أنها تمعن في العدوان على الشعب الفلسطيني، وترفض السلام، حيث لم يعد لديها ما يدعوها إلى أن تدفع ثمناً للسلام ما دام العرب يقدمون لها ما تريد رغبة أو رهبة. وإذا فقدت

الأمة العربية، إحساسها بالتضامن الجاد وبالأمن المشترك فإنها مهــددة بمزيــد مــن التفكــك والتشتت وبانفلات مريع للفوضى تدمر كل ما بنت عبر القرون.

٢٠٠٥/١/٧

العيد والوعد والوعيد

مليار ومائتا مليون مسلم يتبادلون بمناسبة العيد دعاء بالخير واستبعاداً للشر. والخير أننا ما نزال بحمد الله نمتلك هذه (الخصوصية) الثقافية التي تجعل يوم الجمعة يوم العروبة، ومعناها الدلالي (الرحمة) كما يذكر القدامى، ومعناها الوظيفي الاجتماع والجَمعة (بفتح الجيم أو بضمها). ويقال إن أول من جمع إليها هو كعب بن وائل قبل أن يؤمر بها المسلمون، وإن أهل يثرب أرادوها تميزاً وخصوصية حين رأوا اليهود يختارون السبت والنصارى يختارون الأحد. وقد ترسخت خصوصية الجمعة حين أمر بها التنزيل وباتت منتدى أسبوعياً يلتقي فيه الرجال والنساء يذكرون الله ويصلون له ركعتين ويخطب فيهم الإمام بما يشبه البيان الأسبوعي حول شؤون حياتهم. وقد أمر الرسول الأعظم بخصوصية أخرى للمسلمين في يومين جعلهما عيدين للأمة قدمت عليكم ولكم يومان تلعبون فيهما في الجاهلية، وقد أبدلكم الله خيراً منهما: يوم النحر ويوم الفطر). كما أقر في الحج خصوصية رمزية ثقافية كبرى في الوقوف على عرفة، حتى إنه اختصر تعريف الحج بأنه عرفة حيث الاجتماع السنوي الذي يتوحد فيه المسلمون في لباس الإحرام، وفي التوجه إلى الله. وقد ألهم هذا الاجتماع السنوي الضخم المفكر الإصلاحي عبد الرحمن الكواكبي فكرة المؤتمر الإسلامي المتخيل في كتابه (أم القرى). وتشكل الخصوصيات الثقافية في الأعياد ملامح هوية الأمة، وتعزز شعورها الوجداني بالانتماء، وهذا ما ينبغي الحفاظ عليه، والتصدي لكل دعوات إلغاء الخصوصيات بذريعة الاندماج في العولمة الثقافية التي جعلت بعض العرب والمسلمين يحتفلون بأعياد الآخرين، ويعتبرون أعيادهم يوم عطلة وإجازة فقط دون تحقيق المقاصد منها في التواصل والتعايد والتراحم. والمؤسف أن ما نردده من تحية العيد بالخير في كل عام يختلف مع ما نسعى إليه في مستقبل أمتنا. فكيف سنضمن الخير لأبنائنا وأحفادنا إن لم نضمن لهم الاستقلال والسيادة. وليس بوسع أحد اليوم أن يتعامى عن الخطر المحدق بالأمة من كل صوب. وهو أشد وأعتى من الأخطار التي تعرضت لها الأمة في مطلع القرن العشرين، فلم تكن البشرية قد أنجزت قبل مائة عام هذه الأسلحة الهائلة القادرة على تدمير الحياة، ولم يكن العالم كله في قبضة واحدة، بل إن أميركا الناهضة إلى دور عالمي آنذاك كانت تبشر بحقوق الإنسان، وكان العرب والمسلمون يتفاءلون بالوعد الأميركي الذي تحول في القرن الحادي والعشرين إلى وعيد. والعرب يستقبلون اليوم العيد وهم قلقون بين الوعد والوعيد. فأما الوعد فقد جدده الرئيس بوش حين أعلن أنه سيتفرغ هذا العام لإحلال السلام، ونحن سنتفاءل بهذا الوعد ونرجو أن تجد القيادة الفلسطينية الجديدة شركاء حقيقيين للسلام، وألا يعطل الصهاينة المتطرفون ما يمكن أن يتحقق من تفاهم حول المستقبل. فقد نشط

سريعاً دور متصاعد للصهيونية الدينية يشكك ويحذر من اقتلاع اليهود من أرضهم (والطريف أن بعض المستوطنات التي يتشبث بها المتدينون ويعاني شارون مشكلة في إخلائها لايزيد عدد سكانها على أحد عشر شخصاً قيل إنهم سيدعمون بثمانين مستوطناً إيـديولوجياً)، فمـا الـذي سيفعله الإيديولوجيون إذن مع استحقاقات السلام التي توجب الانسحاب الكامل إلـى حـدود ٤ يونيو ١٩٦٧ كما تقضي قرارات الشرعية الدولية؟ وكيف يتفهم القادة الأميركيون مشكلة بضع عشرات من المستوطنين يقتلعون من أرضهم كما يقولون، ولا يتفهمون مشكلة ملايين اللاجئين الفلسطينيين الذين أقرت لهم الشرعية الدولية حقهم في العودة، وقد تم تهجيرهم واقتلاعهم مـن أرضهم بالقوة العسكرية على مرأى العالم ومسمعه، ولا أحد في العالم اليوم غير الصهاينة ينكر عليهم هذا الحق في العودة إلى وطنهم؟ ونتفاءل بوعد الرئيس بوش للعراق بالحرية والاستقلال، ونرجو أن تصل الانتخابات في العراق إلى بر الأمان، فتؤسس عراقاً جديداً يتمكن فيه الشـعب العراقي من تحقيق سيادته الكاملة، حيث الوعد الأميركي بالانسحاب. كما نود أن يحقق الرئيس بوش وعده بإحلال السلام العادل والشامل بين العرب وإسرائيل وأن تعود الولايات المتحدة إلى دور الراعي والوسيط النزيه لا أن تصبح طرفاً يدعم أحد المتنازعين علـى حسـاب الطـرف الثاني.

ونحن نقدم مع أشقائنا العرب في كل يوم ما يؤكد للولايات المتحـدة مصـداقية توجهنـا للسلام، ولكننا لا نجد صدى لدعواتنا، بل المؤسف أننا نجد التهديد والوعيد، وقد كان من حلقاته الجديدة تلك الحملة الإعلامية المسعورة للتشويش على زيارة الرئيس بشار الأسد إلى موسـكو. والغريب في هذه الحملة أنها تكشف اختلالاً مريعاً فيما وصل إليه الحال الدولي. فهل أصبح من حق إسرائيل أن ترسم للآخرين حدود صداقاتهم وعلاقاتهم الدولية؟. والعجيب في هذه الحملـة أن إسرائيل اخترعت قصة بيع أسلحة وصواريخ روسية لسوريا (رغم نفي البلدين لهذه الصفقة المتخيلة) كي تثير اللوبي الصهيوني العالمي ضد أي دولة تقيم علاقات حسـنة ومتينـة مـع سوريا. ولكن إسرائيل تتصرف وكأنها صدقت الكذبة التي اخترعتها. وقد أثـارتني تفاصـيل الحملة حيث وجدت من خلالها هشاشة القوة التي تدعيها إسرائيل. وهذه التفاصيل جديرة بـأن يتأملها العرب برؤية مستقبلية واعية. فقد أثيرت إسرائيل من مجرد قصة تسلح وهمية، وبدا كل غرور قوتها مزعزعاً أمام وهم احتمال مفبرك بتبدل صغير في موازين القوى فـي المنطقـة. ومن يقرأ الصحافة الإسرائيلية في الأسبوع الماضي يفاجأ بهشاشة الثقة في هذه الدولة الأقـوى عسكرياً في الشرق الأوسط. لقد جن جنون القوم، فوضعوا السيناريوهات، ورسموا الاحتمالات، وقيل إن شارون أرسل رسالة شديدة اللهجة إلى بوتين (وهذا إن صح، فهو من عجائب الـدنيا

ومفارقات الأزمان)، وقد وصف المحلل الإسرائيلي أمير أورون الوضع (في مقالة له في معاريف) بصيغة مصغرة لما فعل عبد الناصر يوم زار بريجينيف في نهاية حرب الاستنزاف. وقد تعامى المحلل عن كل التغيرات الدولية التي حدثت بعد خمسة وثلاثين عاماً، محذراً من قيام تحالف روسي سوري جديد.

والطريف أن الإسرائيليين الذين ارتعدت فرائصهم من أكذوبة اخترعوها هم، باتوا يطمئنون أنفسهم بأن فريق الخارجية الأميركية الجديد (بقيادة كوندليزا رايس والمرشح لمساعدتها روبرت زليك والسفير نيكولاس بيرنز) سيكون أكثر حزماً مع سوريا وأكثر وداً مع إسرائيل من الثلاثي المنصرف باول وأرميتاج وغروسمان، الذين لم ينالوا الرضا الصهيوني على ما يبدو رغم كل ما قدموا من إخلاص لمجرد أنهم لم يورطوا الإدارة الأميركية في حرب ضد سوريا، ولأنهم تجاوبوا مع دعوة سورية إلى الحوار. وقد حذر المحللون الإسرائيليون من ثغرة تخترق الاستراتيجية الإسرائيلية وتخيلوا قدرة نووية إيرانية ستمد سوريا، ودرسوا احتمال أن تصل الصوايخ التي يمكن أن تحمل باليد إلى حزب الله، واحتمال أن تتحول الصواريخ التي تحتاج إلى آليات خفيفة إلى يدوية. والعجيب حقاً أنهم يصنعون الأكذوبة ويصدقونها. ونحن كعرب من المحيط إلى الخليج لدينا مثل يقول" صيت غنى ولا صيت فقر"،

فليت لدينا حقاً صواريخ تمكننا من ردع من يعتدي علينا. ولكننا بشهادة الرئيس بوش ضعفاء جداً كما وصفنا. حتى إن المحللين الإسرائيليين يقولون صباح مساء إن سوريا ضعيفة جداً، ولكنهم يتخيلونها في الوقت نفسه قوة عظمى. ونحن في حقيقة الأمر لسنا ضعفاء إلى الحد الذي يتوهمون، ولكن قوتنا وقوة أمتنا العسكرية باتت ضعيفة حقاً أمام ما يمتلكه الإسرائيليون من أسلحة نووية قادرة على تدمير قارة بحجم أوروبا. وقوتنا في سوريا ليست عسكرية بالمعايير التقنية الحديثة بل هي قوة الشعب وقوة إيمانه بحقه في الدفاع عن نفسه وعن أرضه وكرامته حين يتعرض للعدوان. وقد أعلنت سوريا أنها اختارت طريق السلام واستبعدت طريق الحروب، وهي تدعو صباح مساء إلى إحلال السلام في المنطقة كلها، ولكنها لا تسمع صدى، ولا تجد شريكاً. ونستغرب كيف يصمت العالم على هذا النحو من التهديد والإرهاب الإعلامي اليومي لشعبنا الذي اختار السلام.

٢٠٠٥/١/١٢

نريد ساحة حوار لا ساحة حرب

ما تزال استجابة الولايات المتحدة لدعوة العرب إلى الحوار معها في حدودها الدنيا، فما تم من حوارات مع نخب سياسية أو ثقافية لم يدخل بقوة إلى دائرة صناعة القرار، ذاك أن غالبية المشاركين في الحوارات التي جرت في ندوات ومؤتمرات عقدت في الوطن العربي أو في الولايات المتحدة لم يكونوا من صناع القرار، ولم تجد تقاريرهم سبيلاً إلى التنفيذ الدقيق عدا بعض الاستثناءات التي تتعلق بضرورة تحسين صورة أميركا ورفع كفاءة الخطاب الإعلامي الأميركي الموجه إلى العرب والمسلمين ومنحه ميزانيات إضافية كما جاء في تقرير لجنة دجيرجيان إلى الكونغرس قبل عامين، وربما كان من نتائج تلك التوصيات إطلاق قنوات إذاعية وتلفزية تخاطب العرب وتستضيف النخب، وتسوق الأفكار الأميركية، وهي أحادية الجانب لأنها لا تتجه بذات الرسالة الإعلامية إلى الشارع الأميركي. فأما المعنيون بصناعة القرار في دوائره الضيقة فلم يشاركوا في الحوارات، ولم يستمعوا إلى وجهات نظر النخب العربية وقد اكتفوا بما يسمعون من خطاب رسمي يقول أحياناً في الغرف المغلقة عكس ما يقول في القنوات الفضائية. وقد أسعدني ما حملت الأنباء قبل أيام حول تكليف الرئيس بوش لوزارة الخارجية الأميركية في قيادتها الجديدة بمتابعة الحوار مع سوريا، وهذا ما نرحب به ونرجو أن يكون مؤشراً إلى بداية شك الإدارة بصحة ومصداقية التقارير التي يعدُّها دعاة الحروب في المنطقة، من الذين يعملون لصالح إسرائيل وليس لصالح الولايات المتحدة أو البشرية، وهم يثيرون الزوابع الإعلامية بإطلاق اتهامات كاذبة حول تورط سوريا في أعمال إرهابية في العراق، ويزعمون أن محاولة إقناع سوريا بالتعاون وصلت إلى طريق مسدود، وينصحون القيادة الأميركية بالقيام بمهمة عسكرية وقائية ضد سوريا، فتارة يطالبون بضرب البوكمال على الحدود، وتارة يطلبون ضرب الساحل السوري، أو تدمير أهداف اقتصادية، مما يجعل الشارع العربي كله يشعر باليأس من جدوى العمل السياسي. ولكن عدداً من القادة العسكريين الأميركيين الميدانيين أنفسهم يستغربون الدعوة إلى توريط الجيش الأميركي بمهمات إضافية ومعهم مندوبون من الاستخبارات العسكرية يؤكدون أنهم لا يملكون أية أدلة جادة على تورط سوري في الشأن العراقي أو في الشأن الفلسطيني. ولقد كانت النتائج المقبولة لزيارات بيرنز وأرميتاج إلى دمشق قد أغضبت دعاة الحروب وجعلتهم يدعون إلى تأجيج نيران التهديد، وإلى فرض المزيد من العقوبات على سوريا، لكننا نعتقد أن في الإدارة الأميركية من يؤمنون بأن تكرار الأخطاء لن يكون مجدياً وأن الحوار وحده هو الذي يحقق النتائج المرضية ويضمن بقاء المصالح المشتركة.

ويبدو أن صناع القرار الأميركي لم يهتموا في الماضي القريب بفاعلية الحوار، ولست أقصد هنا حواراً مع أفغانستان أو مع صدام فقد رجحت كفة دعاة الحروب في حل تلك النزاعات، وما زال العالم كله يعاني من التداعيات المأساوية لتلك الحروب، ولكنني أقصد فاعلية الحوار حول قضايا فكرية ذات مساس مباشر بالسياسة مثل قضايا الحرية والديمقراطية. فقد كان حرياً بالإدارة الأميركية أن تبحث عن تفسير سر نفور العرب والمسلمين من دعوة الولايات المتحدة إلى شعارين براقين هما الحرية والديمقراطية ومن إعلان الرئيس بوش عزمه على تحرير المرأة العربية وتمكينها، ومن دعوته إلى إصلاح الشرق الأوسط الكبير، مع أن الشعوب العربية تناضل منذ عقود من أجل تحقيق هذه الأهداف ومن أجل الإصلاح. وتفسير هذا النفور هو فقدان الثقة بنزاهة موقف قيادة الولايات المتحدة من قضايا الوطن العربي وانحياز بعض قادتها المطلق إلى إسرائيل.

وقد يكون أكثر حاجة أميركية إلى التفسير موقف الغالبية العظمى من عامة العرب من دعوة الولايات المتحدة إلى مكافحة الإرهاب، فما يزال الشارع العربي يشك في نزاهة دوافع هذه الحملة التي ألصقت الإرهاب بالعرب وبالمسلمين ظلماً واتهاماً باطلاً. ويعتقد عامة العرب أن ما يحدث من جرائم ضد الإنسانية هو عمل إجرامي منظم تقوم به أجهزة متخصصة معادية للعرب والمسلمين تمتلك ميزانيات ضخمة وتقنيات دقيقة، وقد تستخدم عرباً ومسلمين من ضعفاء النفوس، لأن مهمتها تشويه صورة الإسلام الذي أعلن مفكرون صهاينة منذ سنين أنه العدو اللدود للحضارة الغربية، ورأوا خطر انتشاره في أوروبا وأميركا خلال النصف الأخير من القرن العشرين، كما رأوا أنه هو الذي حمل راية المقاومة ضد المشروع الصهيوني، فوجدوا أنه لابد من محاصرته ومن توجيه ضربة استباقية له قبل أن ينهض ويحتل موقعاً في العالم بعد انهيار الشيوعية. والعرب الذين يعتقدون بأن الإرهاب مصنع ومفبرك، يقدمون حججهم من وقائع نشوء حركات التطرف مثل القاعدة وطالبان وظاهرة الأفغان العرب التي حظيت بدعم مخابراتي أميركي يصعب إنكاره.

وتعتقد غالبية العرب أن الحرب على القاعدة سرعان ما أصبحت هامشية في حين صارت الأولوية لمحاربة حركات التحرير الوطنية التي تناضل ضد الاحتلال الإسرائيلي للأرض العربية وتسهم بصد عدوان إسرائيل المتصاعد على الشعب الفلسطيني، وهي حركات شعبية لا شأن لها بجريمة سبتمبر، وليست متهمة بها أصلاً، ولم تمارس قط إرهاباً دولياً، ولم تقم بأية أعمال خارج نطاق الدفاع عن حقوقها، وكانت تحظى باحترام دولي رسمي فضلاً عن تأييد شعوب العالم. فأما حركات التطرف الإرهابية فقد كانت منبوذة من الوطن العربي ومن

الاعتدال الإسلامي، ولم يكن يدعمها أحد غير الذين يحاربونها اليوم حين انتهت مصالحهم معها، وباتت تشكل خطراً على صانعيها أنفسهم.

ولقد حاول العرب على الصعيد الرسمي وحاول معهم قادة عالميون إقناع الولايات المتحدة بضرورة عقد مؤتمر دولي لتعريف الإرهاب وللتمييز بينه وبين المقاومة، لكن الولايات المتحدة ما تزال ترفض هذا الحوار الضروري الذي نثق بأنه لابد سينجح في إسقاط الاتهامات الظالمة لحركات المقاومة بأنها إرهابية حين يستند إلى منطق العقل وليس إلى منطق القوة.

إننا ندعو القادة الأميركيين إلى تعميق الحوار لأنه ساحة التقاء المصالح، ونحن لا نبحث فيه عن مصالحنا فقط، بل ندرك أهمية أن تتحقق مصالح الآخرين، ونؤمن بأن العمل السياسي هو وحده القادر على إخراج منطقتنا العربية من مستنقع الويلات الذي يتسع ويكبر، فإن لم يتم تجفيفه بالحوار الهادف الهادئ فإن أوحاله ستمتد إلى مناطق مجاورة ليست بعيدة عن روسيا وعن القارة الأوروبية.

ولقد بدأت العملية السياسية بتحقيق تقدم نوعي في فلسطين وفي العراق، وهو تقدم نسبي نرجو أن يكبر عبر رؤية شاملة لجدوى العملية السياسية في المنطقة كلها، ونحن نأمل بعد الانتخابات في العراق التي أسهمت سوريا في إنجاحها، أن يصل الشعب العراقي الشقيق إلى الحفاظ على وحدة العراق وعلى أمنه واستقراره وسيادته، وأن تنتهي الفوضى التي حذرنا منها، وهي التي أتاحت للإرهابيين أن يقوموا بعمليات إجرامية كان هدفها إغراق العراق بالدمار وقتل أبنائه، وهي عمليات مدبرة من أعداء العراق ومن الحاقدين على العروبة والإسلام، فلا يمكن أن يقوم عراقيون أو عرب أو مسلمون بهذا النوع الفظيع الوحشي من الجرائم ضد أهلهم وشعبهم إلا إذا كانوا عملاء مأجورين فقدوا ضمائرهم، كما أننا نريد للعمل السياسي الذي تتابعه القيادة الفلسطينية الجديدة أن يصل إلى نتائج إيجابية، وننتظر دفعاً أميركياً أكثر جدية للعملية السياسية في إنهاء عادل وشامل للصراع العربي الإسرائيلي.

إننا نرجو أن تدرس الخارجية الأميركية بقيادتها الجديدة الأسباب الجادة لكراهية العرب للسياسة الأميركية وأن تسعى إلى علاجها عبر الانحياز إلى الحق وحده وعبر السعي إلى تنفيذ قرارات مجلس الأمن بعدالة وإنصاف وليس بانتقاء أو تحيز إلى طرف من أطراف الصراع، لأن الانحياز المطلق إلى تحقيق مطامع إسرائيل هو السبب الرئيس في فقدان العرب ثقتهم بنزاهة القيادة الأميركية. ونحن نخشى أن يترسخ الشعور بفقدان الثقة عند الأجيال العربية التي تحمل مشاعر طيبة نحو الشعب الأميركي وتذكر له مواقفه الشجاعة في رفضه لشن الحروب باسمه، وتقدر دعوة حكماء أميركا إلى ضرورة إجراء عملية جراحية عميقة للسياسة الأميركية،

وهذا ما نرجو أن تقوم به السيدة كوندوليزا رايس فتحقق نقلة نوعية فـــي العلاقـــات العربيـــة الأميركية، وتفتح أبواب العرب بالحب وليس بالحرب.

٢٠٠٥/٢/٤

دعوة إلى الحذر من الفتنة!

لم يكن مفاجئاً أن يتم توظيف الفاجعة المذهلة باغتيال الرئيس الشهيد رفيق الحريري للضغط الأشد على سوريا، مما جعل السوريين يعيشون فاجعتين معاً، الأولى فاجعة فقدهم للحريري الشقيق والصديق الذي بادلته دمشق حباً بحب ووفاءً بوفاء، والفاجعة التي لا تقل مرارة عن الأولى أن تتهم سوريا بالمسؤولية عن مقتل صديقها الكبير الذي لم يكن الخلاف السياسي الأخير معه أبعد من وجهات نظر تختلف وتلتقي في إطار معتاد في الحوار السياسي المستمر بين سوريا ولبنان، لم يتجاوز قط حدود المسؤولية الوطنية المتزنة لدى المتحاورين وكانت تحتويه رحابة الصداقات الضخمة التي تربط الحريري كما تربط كثيرين من رموز المعارضة اللبنانية الوطنية مع قيادات سورية في كل مستوياتها، وأهمها صداقة الشهيد الحريري العميقة مع الرئيس بشار الأسد وهي امتداد واستمرار لصداقة عريقة ربطت الحريري لعقود مع الرئيس الأسد الراحل، وهذا ما كان يؤكده الحريري، بل ألح على تأكيده في حواراته التلفزية الأخيرة. وأحسب أن روح الحريري التي تطوف الآن وتحوم حول الزمان والمكان تستنكر أن يستغل أحد مصرعه لضرب أصدقائه، ولضرب الوفاق الوطني اللبناني، ولجعل مصرعه فخاً لسوريا، وإنذاراً بعودة الفتنة التي أخمدتها سوريا قبل ثلاثة عقود حيث استشهد الآلاف من الشباب السوريين في لبنان، ومزجوا دماءهم السورية بالثرى اللبناني وكان الإنجاز الضخم، إحباط المخطط الصهيوني الهادف إلى تقسيم لبنان، وإيقاف الحرب الأهلية التي استنزفت دماء شعب لبنان، وإعادة بناء الدولة، والمؤسسات وتمكين هذه الدولة من سيادتها الكاملة، ثم مساعدة الأشقاء اللبنانيين في المقاومة الباسلة التي مكنتهم من تحرير الجنوب. لم تكن المهمة السورية سهلة، فقد جلبت لها مشاعر الكراهية والبغضاء من كل من تضرر من إحباط المخطط الصهيوني، ومن كل من فشل في محو عروبة لبنان وإلحاقه بإسرائيل، ومن فشل في وأد المقاومة اللبنانية، ومن أغاظه أن تنتصر المقاومة. كما كان على سوريا أن تواجه بصبر كل من سولت له نفسه أن يصير زعيماً على حساب وحدة لبنان، وكل من تشهىّ أن يصير رئيس حكومة منشقة ولو على حساب الشرعية والسيادة اللبنانية. وقد تمكنت سوريا بفضل نضال اللبنانيين الشرفاء من تحقيق الأهداف اللبنانية الوطنية، ودعمت بكل طاقاتها الحكومات اللبنانية التي أعادت إعمار لبنان وبناء مؤسساته، وأهمها حكومات الحريري رجل البناء والاعتدال والوطنية بكل جدارة، الذي كان يجد في دمشق كل العون، وكان من أشد المحافظين الأمناء على عروبة لبنان، وعلى صمود المقاومة اللبنانية.

ولكي لا تأخذني العصبية لكوني سورياً فتبعدني عن الموضوعية، أعترف بــأن الجنــود الذين أرسلتهم سوريا إلى لبنان لم يكونوا من صنف الملائكــة، بــل كــانوا بشــراً يخطئــون ويصيبون، وفيهم من قد لا يعي جيداً خطورة تصرف فردي سيئ، وفيهم من أفسدته الحــرب، ولكن فيهم من قاتل واستشهد دفاعاً عن لبنان وعن سوريا. والكثرة المطلقة من الضباط والجنود السوريين في لبنان، شباب شرفاء مخلصون لوطنهم ولقوميتهم قضوا سنوات شبابهم متربصين يتعرضون للعدوان الإسرائيلي شبه اليومي، ويقفون على المعابر، يدافعون عن أمــن المجتمــع اللبناني. ومنذ أن هدأت الحرب الأهلية ابتعدوا عن المدن، وباتوا يعيشون في الثكنات البعيــدة، وقد عقدوا مع أكثرية الشعب اللبناني صداقات أخوية تشهد بها دمشق وبيروت اللتين هما أكثر عاصمتين عربيتين تواصلاً يومياً بين شعبيهما، وقد باشرت سوريا الانسحاب من لبنــان منــذ بضع سنين بعد أن اشتد ساعد الدولة اللبنانية، ولم يبق من الجيش السوري في لبنان إلا عــدد محدود ينتظر العودة إلى سوريا حين تعلن الحكومة اللبنانية انتهاء المهمة.

ومن المفارقات المريبة أن سيناريو الفتنة الفاجعة انطلق بوضوح قبل يــوم واحــد مــن حدوثها، حيث نشرت صحيفة لبنانية شهيرة إنذاراً تحت عنوان "تحذير جديد من التعــرض لأي من رموز المعارضة اللبنانية" قالت فيه مراسلة الصحيفة: إن تعرض وليد جنــبلاط أو رفيــق الحريري لأية محاولة اغتيال سيشكل نقطة القطيعة النهائية بين سوريا والأسرة الدوليــة. وقــد أذهلني أن يتم اتهام سوريا باغتيال الحريري قبل أن يستشهد الرجل بيوم، حيث بدا واضحاً أن هناك من يخطط لقتل أحد الرجلين "الحريري أو جنبلاط " فقط من أجل أن يتهم سوريا بارتكاب الجريمة، ولكي يصعد الضغط عليها، ولكي يفجر المنطقة كلها، ولكي يمنع الحوار السوري مع رموز المعارضة اللبنانية من أن يحقق مزيداً من النتائج الإيجابية التي جسدتها زيارات الســيد وليد المعلم لبيروت. وكان (المعلم) قد زار الحريري في منزله قبل أسبوع من الفاجعة، وكــان اللقاء أخوياً وودياً. وقد علمت أن الحريري الراحل تحدث هاتفياً مع السيد المُعلم ثلاث مــرات خلال الأسبوع الذي سبق رحيله، وكان في المحادثة الثانية يهنئه برأس السنة الهجرية، وكانت المحادثة الثالثة تتعلق بترتيب زيارته إلى دمشق في الأسبوع القادم، حيث وصل الحــوار إلــى إعلان الحريري تفهمه للموقف السوري وتجاوبه مع هذا الموقف واستعداده للتنسيق مع سوريا لاستعادة اللحمة بين اللبنانيين تحت سقف الطائف ومعاهدة الأخوة. كما أن صــديق الحريــري القديم السيد عبدالحليم خدام نائب الرئيس السوري زار الحريري في منزله قبل أيام من رحيلــه زيارة ودية، حيث لم تكن الجفوة السياسية بين الحريري وسوريا تمنع من التواصل اليومي، بل لقد زالت أسباب الخلاف السياسي نهائياً في صباح يوم اغتياله حين أعلن الحريري في جريــدة

"السفير" التزامه بسقف الطائف. وكان الأسبوع الذي سبق جريمة الاغتيال ينبئ بانفراج كبير، ولا سيما بعد أن أكد مبعوث الأمم المتحدة تيري رد لارسن قلق اللبنانيين من الانقسام الخطير الذي أحدثه قرار مجلس الأمن ١٥٥٩ ومحاولات بعض الجهات الدولية فرضه بمعزل عن قرارات مجلس الأمن الأخرى. وكان من دواعي التفاؤل وصف لارسن لمحادثاته في دمشق "بأنها كانت مشجعة للغاية وبأننا منخرطون في تعاون وشراكة عميقة لمصلحة لبنان وسوريا، آخذين بعين الاعتبار الروابط التاريخية بين سوريا ولبنان، وكذلك اتفاقية الطائف لعام ١٩٨٩ ومعاهدة الأخوة والتنسيق الموقعة بين البلدين عام ١٩٩١".

بدا الهدف من قتل الحريري إثارة الفتنة الطائفية في لبنان من جديد، وتحقيق ما أخفق الإسرائيليون في تحقيقه قبل ثلاثة عقود، مستفيدين اليوم من الخلل في التوازن الدولي، ومن وجود القوات الأميركية على الأبواب السورية، ومراهنين على أن الضغط الأشد على سوريا سيجعلها تفضل الرحيل من لبنان على الوقوع في مواجهة مع الولايات المتحدة ومع حلفائها، ومتوقعين أن تغلق سوريا الباب اللبناني على نفسها كي لا تهب عليها منه رياح الفتنة، فلا يبقى أمام لبنان غير الباب الإسرائيلي مفتوحاً، وهو باب جربه بعض اللبنانيين الذين شكلوا جيشاً لحماية إسرائيل، فلم يحصدوا غير الخيبة وسواد الوجه. وإن كان بعض المعارضين الوطنيين قد أدلوا بتصريحات غير لائقة بكونهم أشقاء لسوريا وهم في دوامة الصدمة والانفعال، فإن صوت الحكمة أجدر بأن يعلو، وأن يرتقي الجميع إلى مستوى الحكمة التي ميزت الشهيد الحريري الذي كان يعلن دائماً أن سوريا هي عامل حاسم في استقرار لبنان وأمنه، وهي التي حلت الميليشيات المتقاتلة، وهي التي ساعدت على بناء الجيش اللبناني وزودته بما يحتاج إليه لكي يصبح قوياً وقادراً.

وكان الشهيد الحريري يؤكد دائماً أن الخطر الذي يتهدد لبنان وسوريا خطر واحد لأن العدو واحد. ويستدعي صوت الحكمة إيقاف الاستغلال البشع للجريمة بهدف اصطياد سوريا والإيقاع بها في فخ مرسوم بدقة، وإغلاق الأبواب أمام العملية السياسية التي استبشرنا بها خيراً في رؤية دبلوماسية في مقالنا السابق "نريد الحوار ولا نريد الحرب" وكنا نخاف دائماً من حدوث انفجارات حين تجد إسرائيل نفسها مضطرة لمواجهه الاستحقاقات وقد أرهقتها مؤخراً دبلوماسية أبو مازن في فلسطين حين استطاع أن يقنع المقاومة بإعطائه فرصة للعمل السياسي ولبَّت المقاومة طلبه. كما أن انطلاق العملية السياسية في العراق فتح نوافذ أمل أمام العراقيين، وكانت دمشق قد أعلنت استعدادها للعودة إلى مفاوضات السلام بدون شروط مسبقة، وللتعامل بإيجابية مع القرار ١٥٥٩ على أن يطبق مع كل القرارات الدولية التي ترفض إسرائيل تطبيقها منذ عشرات السنين. كما أن ابتعاد دمشق عن أي تدخل في الشؤون اللبنانية الداخلية، ونجاح

التعامل الرسمي الدبلوماسي الذي حققته زيارات السيد المُعلم شكل أرضية جيدة لتحقيق الوفاق الوطني في لبنان، وكل ذلك يفوت على إسرائيل أن تستمر في تحريض الولايات المتحدة علـــى سوريا ولبنان، ويجهض مخططات من يريدون تهديم البنى الاقتصـــادية والسياســـية العربيـــة، وتدمير كل ما أنجزه العرب، وتحويل مدنهم إلى خرائب، وإقامة دويلات ضعيفة إلـــى جـــوار إمبراطورية الصهيونية.

٢٠٠٥/٢/١٨

القادم أعظم!

لم يكن مفاجئاً أن يصل الضغط على سوريا إلى هذه الدرجة من التصعيد، ولن أفاجأ إذا ما تصاعد إلى عدوان إسرائيلي على أهداف في سوريا ولبنان، فما يحدث الآن هو تنفيذ دقيق لسيناريو معلن تحدث عنه كثير من الباحثين الغربيين الذين يسمح لهم أن يتحدثوا بحرية عن المخططات، بينما يعاب على العرب أن يتحدثوا عنها لأنهم إذا فعلوا فهم إذن ما يزالون يفكرون بعقلية قديمة وعفنة تؤمن بنظرية المؤامرة التي تجعلهم يتوهمون أن إسرائيل تحيك المؤامرات ضدهم. بل إن هذه النظرية التي يريد أذكياء العرب أن يخلصوا منها أغبياءهم تدعو العرب إلى الظن بأن الإدارة الأميركية تضمر الشر للعرب، وتريد السيطرة على مقدراتهم، وتسعى إلى جعل إسرائيل أقوى دولة في الشرق الأوسط مع أن الولايات المتحدة هي صانعة السلام وهي التي تخطط لإدخال العرب إلى جنة الديمقراطية، وهي التي ستنقذ العرب من حكامهم المستبدين لتضع مكانهم قادة ليبراليين يؤمنون بحرية الشعوب، ويمكنون المرأة العربية المشلولة من النهوض. كما أن الولايات المتحدة تريد أن تنقذ العرب من الأفكار الظلامية التي يقدسها دينهم الذي يدعوهم إلى العنف والإرهاب، وتريد أن تخلص العرب من المشاعر العنصرية التي تجعلهم يعادون السامية، والهدف الأهم للولايات المتحدة هو تأهيل العرب والمسلمين للانخراط في العالم المتقدم الذي تخلفوا عن موكبه طويلاً. وإن كنت لا أنكر دور العرب أنفسهم في صنع مأساتهم، إلا أنني لا أستطيع أن أصدق بأن الحلم العربي بالحرية والتحرير سيصنعه للعرب صقور البنتاغون الذين كانوا على مدى عقود قوة داعمة للفكر الظلامي ومسند ظهر للمستبدين في الأنظمة العربية. قرأنا قبل الحادي عشر من سبتمبر ببضع سنوات ملامح الخطة التي يعلنها الباحثون من الغرب، وقد بدأت ملامحها تتضح منذ أن قتل رابين وتحلق حول نتنياهو مستشارون صاروا فيما بعد مستشارين في البنتاغون، كانوا أول من انقلب على أوسلو، وأعلنوا انتهاء شعار مبدأ مدريد "الأرض مقابل السلام" ليضعوا مكانه شعار "السلام مقابل السلام" فهم لا يجدون مبرراً يدعو إسرائيل للتنازل عن أراض احتلتها بالقوة، وهي بحاجة إلى المزيد من الأراضي، وما دام العرب غير قادرين على استعادة حقوقهم بالقوة فما الذي يدعو إسرائيل إلى إعادتها طوعاً. إن كان ذلك من أجل الحصول على السلام، فالعرب هم المضطرون للسلام لحفظ أمنهم وأنظمتهم السياسية، أما إسرائيل فبوسعها أن تطمئن لأمنها ومستقبلها وتوسعها عبر استراتيجية أخرى تعتمد على ضمان التفوق العسكري بفوارق ضخمة، تجعل الجيوش العربية عاجزة عن أية مواجهة نظامية، وعبر سد كل الطرق أمام أية محاولة لتحقيق توازن قوة، وإنهاء ما لدى العرب أو ما لدى إيران من طاقات عسكرية قائمة أو محتملة. وأما ما يمكن أن

يظهر من توازن رعب تحققه منظمات المقاومة (ولا سيما بعد أن أصبح انتصار المقاومة الإسلامية في لبنان ملهماً للفلسطينيين في انتفاضتهم الثانية) فيمكن احتواؤه في إطار حملة مكافحة الإرهاب. وقد واجهت إسرائيل صعوبات ضخمة لتحقيق هذا الانقلاب على مدريد وأوسلو، حيث كانت الإدارة الأميركية السابقة غير مقتنعة (كما يبدو) بإمكانية إعلان (شعار السلام مقابل السلام) وبإمكانية تحقيق التطابق بين مشروع القرن الأميركي ومشروع القرن الصهيوني. فقد كانت لدى الإدارة الأميركية السابقة تحفظات على الجموح الإسرائيلي لم يخفه كلينتون الذي كان مستاءً من نفوذ نتنياهو الذي وصل إلى حد التهديد بإحراق واشنطن. ويبدو أن مخططي المشروع لم يكتفوا بإحراج الرئيس بفضيحة مونيكا، حيث لم تنجح في دفع كلينتون إلى زج الولايات المتحدة بكل طاقاتها وثقلها النوعي لتنفيذ المشروع الصهيوني، فكان لابد من أن تشهد الولايات المتحدة حدثاً مريعاً مثل الحادي عشر من سبتمبر لإقناع الشعب الأميركي بأنه لا يدخل المعركة من أجل إسرائيل وإنما دفاعاً عن نفسه بعد أن وصلت النار إلى ذقنه. وطبيعي أن يُتهم العرب والمسلمون بالمسؤولية عن الجريمة، وقد شرب العرب المقلب. ولولا أن سيناريو اغتيال الشهيد رفيق الحريري يقتضي اتهام سوريا لتم التركيز على أبي عدس الفلسطيني، وأما اتهام سوريا بجريمة قتل الحريري فإنه يبدو وكأنه تنفيذ حرفي لمقترحات تقرير أمير الظلام المقدم إلى مجلس سياسة الدفاع الأميركي، فقد اقترح المستشار (استهداف سوريا عبر ملف اتهامي بعلاقتها بالإرهاب، وباحتلالها للبنان، وبامتلاكها أسلحة تدمير، فضلاً عن الملف الإصلاحي) وقد واكب هذا التقرير قانون العقوبات على سوريا، ولعله وجد سبيل التطبيق السريع حين تمكنت الولايات المتحدة من تحقيق تفاهم مع الأوروبيين حول مستقبل الشرق الأوسط الكبير في مؤتمر الثماني في "سي آيلاند"، وهذا ما قد يفسر التحول المفاجئ في الموقف الفرنسي. فقد بدا بعد هذه القمة أن "تروست" القرن الحادي والعشرين (كما سماه السيناتور ريتشارد لوغار) قد انطلقت عرباته الأوروبية خلف قمرة القيادة الأميركية. ويقضي تفاهم التروست، بأن تعتبر سوريا وإيران الهدفين التاليين بعد العراق، وأن تتولى إسرائيل ضرب سوريا وفلسطين بينما تتولى الولايات المتحدة ضرب إيران. وتقتضي الخطة حملة لتشويه صورة سوريا (وهذا ما ينفذه الإعلام وبعضه عربي) حيث يتم اتهام سوريا ليس فقط بقتل صديقها الحريري، وإنما بدعم الجرائم التي تنفذ في العراق ضد العراقيين البسطاء، وبأنها المسؤولة عن عمليات المقاومة الفلسطينية التي تنفذ داخل الأرض المحتلة، ولا سيما الأخيرة المصطنعة التي تبرأ منها الفلسطينيون الذين ما كانوا سيخجلون من الاعتراف بها لو أنهم فعلوها. وكان لابد للصهيونية من أن تقوم بحدث جلل كي يتم إجبار سوريا ولبنان على تنفيذ القرار ١٥٥٩ بضغط دولي، في وقت تمسك فيه غالبية اللبنانيين بسقف الطائف، وهذا ما أكده

الحريري الشهيد في موقف معلن رفض فيه الانضواء تحت سقف القرار المشؤوم الذي انـدفع بعضهم إلى المطالبة بتنفيذه متجاهلين أنه لا يقضي بانسحاب سوري فقط، وإنما يقضي بنـزع سلاح المقاومة واللاجئين الفلسطينيين، ولا يقدم أية رؤية نحو حل للصراع العربي الإسرائيلي، بحيث يصبح نزع السلاح مبرراً.

ولن أقول لقد بدأ تنفيذ الخطوات التالية من المـؤامرة الكبـرى علـى الأمـة العربيـة والإسلامية، مع أنني أعتنق نظرية المؤامرة دون أن أرفض نظرية المسؤولية عـن الأخطـاء الذاتية القاتلة. سأقول بدأ تنفيذ المرحلة المتقدمة مـن مخططـات تروسـت القـرن الحـادي والعشرين، وأذكر مرة أخرى بمقدمة تقرير بيرل الشهير:"إن العرب يعيشون في كارثـة منـذ قرنين، فقد فاتهم قطار الثورة الصناعية، واليوم يفوتهم قطار الثورة الرقميـة وهـم يفتقـدون الدوافع الداخلية للتأقلم مع العالم الجديد، وأزمتهم هي المسؤولة عن الهجوم الذي تعرضت لـه الولايات المتحدة التي بات عليها أن تتولى التغيير الشامل في العـالم العربـي عـدا سـوريا وفلسطين اللتين تتولاهما إسرائيل".

والمفجع أننا نحن العرب نقدم لخصومنا فرصاً ذهبية لتنفيذ مخططاتهم، أحياناً حين نبـالغ بالخوف منهم ونسعى إلى استرضائهم بطريقة مذلة، وأحياناً بغباء سياسي، وبعدم القدرة علـى التصرف السريع والحكيم. وأحياناً بإصرارنا على أخطاء تفتح الثغرات والمنافذ وبفقداننا الثقـة بعضنا ببعض وبدعائنا المستمر اللهم أسألك نفسي، فإن كانت المأساة تصيب جاري فلا شأن لي بما يحدث، دون أن ندرك أن النار حين تضطرم في بيت فإنها سرعان ما تمتد لتحـرق الـدار والجار.

إن ما تتعرض له سوريا اليوم من ضغوط ليس شأناً سورياً داخلياً، ولـن ينتهـي عنـد الانسحاب السوري من لبنان الذي سيتم سريعاً تنفيذاً لاتفاق الطائف، فالقادم أخطر وأعظم. إنه مخطط يستهدف الأمة بلداً بعد بلد، ليشعل الحرائق في كل أقطار العرب ولن يكون أحد بمأمن، فلنسارع إلى إطفاء النار قبل أن تلتهم بقية حضورنا كأمة.

٤/٣/٢٠٠٥

الديمقراطية مشكلة أم حل؟

منذ أن تم الإعلان عن مشروع دولي تقوده الولايات المتحدة لتغيير الشرق الأوسط وفرض الديمقراطية (قمة الثماني يونيو ٢٠٠٤) على غرار معاهدة هلسنكي عام ١٩٧٥ لتغيير أنظمة الاتحاد السوفيتي ودول أوروبا الشرقية بدأ العرب يتخوفون من هذه الديمقراطية التي يراد فرضها عليهم ولا سيما بعد أن رأوا النموذج الذي قدمته الولايات المتحدة لدعوتها في العراق، وقد بدأ بناء العهد الديمقراطي الجديد (بعد زوال نظام صدام) بتدمير البنى التحتية والمؤسسات وتسريح الجيش والشرطة، ثم نهب المتاحف والمكتبات وما فيها من كنوز حضارية، ثم قدم رؤيته الليبرالية المدهشة لحقوق الإنسان في سجن أبو غريب وفي سواه من سجون الاحتلال، وقد رافق عملية تقديم النموذج انتشار مريع للمافيات والعصابات الإرهابية المشبوهة، التي بدأت تمارس الجريمة المنظمة، وتقتل أبناء الشعب باسم المقاومة، كل ذلك جعل المتشوقين إلى الديمقراطية في الوطن العربي يفضلون الاستبداد ألف مرة على هذه (الفوضى الخلاقة) التي ابتكرها المحافظون الجدد لتخلق عالماً يضيع فيه الحق والمنطق والعدل، وتسود فيه القوة المطلقة التي تتيح لإسرائيل أن تصبح الدولة الأعظم في الشرق الكبير الذي سيتكون من دويلات صغيرة إثنية وعرقية ومذهبية وطائفية متصارعة.

صحيح أن العراق نعِم لأول مرة بانتخابات ديمقراطية كانت مخرجاً سياسياً ممكناً من مستنقع الدماء، إلا أن الثمن الذي دفعه الشعب لهذه الديمقراطية كان باهظاً جداً، وأخطر ما فيه بعد الضعف وفقدان الأمان تهديد عروبة العراق ووحدته وسيادته.

وليس خافياً على الأنظمة العربية على اختلاف أنماطها ودرجات استبدادها أن الهدف الحقيقي من التبشير الأميركي بالديمقراطية هو جعلها فزاعة لتهديد هذه الأنظمة بالرحيل إن هي لم تذعن للمطالب الأميركية التي تتلخص في (إرضاء إسرائيل وتمكينها من تنفيذ مخططها التوسعي) فمن سارع وأذعن ونال شهادة حسن سلوك من إسرائيل يتم إعفاؤه من الديمقراطية حتى لو كان نظامه متحفياً، ومن تردد أو تلكأ فإن سيف الديمقراطية سيشهر في وجهه.

والعرب يدركون أن الشعب الأميركي بات مغلوباً على أمره مثلهم، ومثقفوه يعرفون أن بلادهم اختطفت لصالح الصهيونية حيث تحققت نبوءة (لنكولن) التحذيرية الشهيرة، وقد وصف يوري أفينيري (داعية السلام اليهودي) حالة العالم اليوم بقوله «أميركا تسيطر على العالم وإسرائيل تسيطر على أميركا».

وعلى الرغم من إيماني الكبير بالديمقراطية إلا أنني أجدها مثل سواها من النظريات التي ينطبق عليها المثل الشهير (اقرأ تفرح.. جرب تحزن) فحتى الولايات المتحدة التي تبشر العالم بالديمقراطية لم تجرؤ إلى اليوم على متابعة التحقيق في أخطر جريمة تعرضت لها في تاريخها (١١ سبتمبر) ونذكر صرخة النائبة في الكونجرس سنتيا مككيني بوجه من قال لها "اجلسي واخرسي" حين قالت "لن أجلس ولن أخرس حتى تتكشف الحقيقة أمام الشعب الأميركي". لكن مككيني اتهمت بأنها من أنصار نظرية المؤامرة، ولم ينقذها دفاع فاليري لابروس بكتاب عن مؤامرة الصمت، فقد خرجت من الكونغرس وحذرت العرب مما يخبئه لهم الداعون إلى الديمقراطية. وأما السيناتور ديفيد ديوك فقد أطلق كتابه "الصحوة" ولكنه وصف بأنه مجنون لأنه قال الحقيقة. ولم يغير الكثير تجرؤ (بول فندلي) على الكلام، فديمقراطية أميركا الخارجة من جذور (إلكس هالي) لا تتسع لأي رأي يخالف الصهيونية العالمية، وفيها يتداول الحكم حزبان بينهما اختلافات شكلية طفيفة، ولا يجرؤان على انتقاد إسرائيل حتى لو أبادت شعب فلسطين، وفي إسرائيل التي تتباهى بالديمقراطية يتم تداول السلطة منذ خمسين عاماً بين أعضاء نخبة سياسية محدودة تسيطر على كل شيء وتنفذ تعاليم الصهيونية في مجتمع يزعم أنه علماني. ولكن لابد من الاعتراف بأن ساسة الغرب ومعهم ساسة إسرائيل يتقنون اللعبة الديمقراطية التي يضيق بها صدر العرب، لأنهم يسمحون بتشكيل الأحزاب المعارضة وبحرية التعبير عن الرأي وبالتظاهر وبتنظيمات المجتمع المدني وبحرية الإعلام، فكأنهم يطبقون حكمة الداهية العربي معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه الذي تجاهل العرب قوله "لا نحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا".

والكثرة من العرب اليوم يواجهون إشكالية كون الديمقراطية مشكلة وحلاً في آن واحد، فهي مشكلة إذا جاءت على الهوى الصهيوني الهادف إلى نشر (الفوضى الخلاقة) وتفكيك البنى الاجتماعية، وهدم الثوابت الفكرية، وإثارة الكوامن من الصراعات العرقية والطائفية وإتاحة الفرص لأعداء العروبة والإسلام كي ينهشوا في الجسد العربي، ويقدموا القيم الغربية بديلاً عن القيم العربية والإسلامية مثل إنهاء نظام الأسرة والدعوة إلى الإباحية والمثلية والشذوذ وحق المراهقين بممارسة الجنس الآمن خارج إطار الشرعية. والهدف الصهيوني من هذه الدعوات تحطيم المقدسات وهدم القيم المسيحية والإسلامية والقومية، وبث الفوضى التي تضعف المجتمع وتنشر فيه الانحلال والضياع.

ولكي تصير الديمقراطية حلاً للمشكلات العربية بدل أن تصير مشكلة كبرى حين تفرض عنوة، فإن الفرصة ما تزال سانحة للعمل بالحكمة العربية الشهيرة (بيدي لا بيد عمرو) حيث بوسع العرب أن يستفيدوا من نظرية بوش حول الحرب الاستباقية، فيسبقوه إلى تحقيق

ديمقراطية وطنية تسد الطريق على الفوضى الهدامة، وتسد الذرائع، وبوسعهم أن يسارعوا إلى الإصلاحات السياسية والاقتصادية عبر فهم حيوي لأهمية الزمن الذي لم ينجحوا قط في استخدامه، فهم يصلون متأخرين دائماً ويتجاهلون حكمة أجدادهم القائلة "لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد" وأنا لست من أنصار الإصلاح التدريجي البطيء لأن الزمن يتسارع، ولا وقت فيه للتردد أو التلكؤ، ولا وقت كذلك للإسراف في التنظير، فقد امتلأت المكتبات كتباً ومقالات ودراسات عن الإصلاح من عهد الكواكبي والتونسي والأفغاني ومحمد عبده وسلامه موسى إلى عهد الجابري وعروي وحنفي وغليون وتيزيني وسواهم، لكن ما تم إنجازه ضئيل بالقياس إلى الممكن، بل إن ثمة تراجعات مؤسفة تجعل ما كتبه الكواكبي صالحاً للتداول في الساحة الفكرية، كأن شيئاً لم يحدث عبر العقود العربية.

وكان بوسع العرب وحكامهم أن يفيدوا من فهم النبي محمد عليه الصلاة والسلام للزمن، فقد غير العالم في ثلاثة عشر عاماً، بينما تمر السنون بل القرون على أنظمة العرب، ولا شيء في دنياهم يتغير، مع أن الإسلام أنكر على الآباء أن يربوا أبناءهم على ما تربوا عليه من عادات وأخلاق متحركة. فقد قال الإمام علي كرم الله وجهه "لا تخلّقوا أولادكم بأخلاقكم فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم" وقد تناسى العرب والمسلمون أهمية فهم الزمن وتحولاته، وضرورة الاستجابة لمعطياته، فتخلفوا عن الآخرين الذين سبقوهم في كل مجالات وميادين التقدم.

والعرب اليوم يملكون من الذكاء والفهم التحليلي لموقعهم من العالم ما يمكنهم من حضور دولي أفضل، فهم قوة بشرية واقتصادية وفكرية مهمة، وستكون معهم حين يجدّون كل الأمم المسلمة والشعوب المقهورة، وليس بوسع أية دولة مهما عظمت قوتها العسكرية أن تلتهمهم. فلو اتفقوا في القمة القادمة على قلب رجل واحد، أن يوقفوا الطوفان القادم، لبدلوا كل الواقع المزري الذي يعيشونه، بدل أن يتفرج بعضهم على بعض حين يواجه تهديداً، ويكتفي بالأسى ويقول اللهم أسالك نفسي، متجاهلاً أن الدور قادم عليه، وأن المخطط الصهيوني لن يبقي ولن يذر.

والشعب العربي ينتظر إصراراً من الأنظمة على حقوق الأمة، وبه نشجع على مساندتنا شعوباً في الشرق وفي الغرب تضيق بالتسلط وبغياب الديمقراطية الدولية، والعالم يدرك أننا لا نسعى إلى حرب مع الولايات المتحدة ولا إلى قطيعة مع الغرب، بل على العكس نريد شراكة متوازنة، وتحقيق مصالح مشتركة، وتفهماً حضارياً للخصوصيات الثقافية، ونطلب السلام مع إسرائيل، ونعلن الاستعداد للتعايش مع اليهود كما فعلنا عبر القرون. ولكن على أن تحقق الولايات المتحدة شيئاً من العدل، فكيف بوسع العرب أن يقتنعوا بعدالة مطالب الولايات المتحدة وهم يرونها تقيم الدنيا من أجل نزع أسلحة حزب الله، وتهدد سوريا رغم أنها لا تخالف القانون

الدولي في شيء، ولا تطلب أبعد من حقوق صانتها لها الشرعية الدولية التي أكـدت سـوريا احترامها لقراراتها، بينما تغمض الولايات المتحدة عينها عن ترسانة أسلحة الدمار الشامل التي تملكها إسرائيل، والتي باتت تهدد بها السلم الدولي، وهذا ما أكدته اسـتطلاعات الـرأي فـي أوروبا. فإذا كانت الولايات المتحدة تريد من العرب أن يصدقوا أنهـا تريـد السـلم والأمـن والاستقرار للمنطقة، فلتقدم لهم خطوة عادلة، ولتطلب من إسرائيل أن تنفذ القرارات الدولية كما طلبت من سوريا تنفيذ القرار ١٥٥٩، وأن تجبرها على التخلص من ترسانتها التدميريـة كـي يطمئن العرب إلى أنها تريد السلام، ولا تضمر التوسع والعدوان.

٢٠٠٥/٣/١٨

قميص عثمان وقميص الحريري

إذا كان ما يزال من ألف وأربعمائة عام ينزف دماً وقد صار علّة تفرق وتمزق ما تـزال الأمة تعاني منه، فإن قميص الحريري النازف دماً بات ذريعة لتمرير مشروع صهيوني لإضعاف لبنان وسوريا، ولفرض ما تريده إسرائيل على المنطقة كلها. ومع الاحتفاظ بالفارق بين الرجلين في المكانة الدينية، لكون عثمان رضي الله عنه ثالث الخلفاء الراشدين وصهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن ثمة مواضع للتشابه أهمها أن الرجلين جاءا إلى السياسة من عالم المال والأعمال، وكلاهما تحمل مسؤولية في مرحلة فتنة حرجة، وكلاهما قتله رجل واحد هو عبد الله بن سبأ الصهيوني، وكلاهما استُخدِم قميصُه لتحقيق مآرب سياسية ضد مصلحة الأمة.

وقد تتهم هذه المقاربة بأنها قراءة دينية للحدث، ولكنني سأصد التهمة بالإشارة إلى حالة النفاق السياسي التي تعيشها المنطقة، والتي تدعونا إلى تسمية الأشياء بغير مسمياتها، وإلى استبعاد الدين من الصراع مع أننا نعيش أزمتنا الراهنة مع الولايات المتحدة لكونها باتت دولة دينية بامتياز، لدرجة أن رئيسها يرى الله في نومه ويأخذ منه التعليمات. وقد قال مرات بأن الله أمره شخصياً أن يغزو أفغانستان، ثم تجلى له وأمره أن يغزو العراق، ثم أوحى له الله أن يقيم دولة للفلسطينيين. ونخشى أن يراه من جديد ويأمره بتنفيذ معركة هرمجون وإقامة مملكة الرب في إسرائيل. وسر خشيتنا هذه أن تسارع وتصعيد التهديد لسوريا ولبنان لا مبرر له غير ما يخدم مستقبل الإمبراطورية الإسرائيلية التي ما يزال شعارها الشهير (حدودك يا إسرائيل من الفرات إلى النيل). وقد كشف الوضع الراهن في العراق رغبة الولايات المتحدة بإذكاء الكوامن وتفتيت المجتمع إلى طوائف مذهبية ودينية وإثنية بعد أن كان الشعب كله عراقياً فقط. ولقد حذر كثير من قادة العالم قبل الغزو من خطر حدوث فوضى في العراق وفي المنطقة، ولم يكن يخطر على البال أن الفوضى هي الهدف. ولم يكن أحد يتوقع أن يكون ما يحدث جزءاً من الخطة لإشاعة ما يسمونه اليوم "الفوضى الخلاقة" التي تمهد لنسف كل قيم المجتمع وثوابته واستقراره، وتخلط الحابل بالنابل ولا تتيح فرصة لصوت العقل والحكمة. واليوم تتجسد في لبنان أخطار التشظي الاجتماعي إلى طوائف ومذاهب بعد أن كاد اللبنانيون يخرجون من إطار الطائفية إلى ولاء خالص للوطن وللأمة بفضل نجاح الوطنيين اللبنانيين بدعم معلن من سوريا بإعادة بناء الدولة العلمانية الديمقراطية وتحقيق السيادة والشرعية. ويشعر المجتمع العربي كله بالخوف من وجود خطة لاستعادة مشروع تقسيم لبنان إلى دويلات طائفية، أو إلى محو السمة

العروبية عن لبنان وربطه بدوائر النفوذ الأجنبي. وكانت سوريا قد تمكنت بفضل القوى الوطنية اللبنانية من إفشال هذا المخطط، ولكن دعاته يستعيدونه اليوم مستفيدين من تداعيات ١١ سبتمبر ومن تنامي النفوذ الأميركي في المنطقة ومن غياب الديمقراطية الدولية، وبالطبع لا يمكن تحقيق هذا المشروع إلا عبر إشاعة الفوضى التي بدأت نذرها بمحاولة اغتيال الوزير حمادة، ثم كانت الجريمة الثانية الأكثر هولاً وهي اغتيال الحريري، وقد نجحت الجريمة في تحقيق أهدافها السياسية، ومنها أن يمضي بعض الوطنيين الذين هزتهم فاجعة الاغتيال إلى تصديق أبواق الإعلام العربية الصهيونية التي اتهمت سوريا حتى قبل أن يصل شرطي إلى مكان الجريمة، مما يؤكد أن من رسم الجريمة تابع رسم تداعياتها. وكان من أهم نتائج الجريمة إجبار سوريا على تنفيذ القرار ١٥٥٩.

ولم تكن سوريا تنوي التمسك بالبقاء في لبنان لأنها قامت بخمسة انسحابات منذ أن تم تحرير الجنوب، ولم يكن أحد في سوريا يريد أن يبقى جنودنا في لبنان بعد أن تعافى وبعد أن تم تنفيذ المهمة التي دخل من أجلها. ولم يكن في نية سوريا أن ترفض ما يتعلق بها من القرار الدولي، لكنها كانت حذرة مثل كل العرب مما في بنوده الأخرى. ولكن أعداء سوريا ولبنان أرادوا أن يتم الانسحاب بطريقة أثارت غضب الشرفاء اللبنانيين الذين خرجوا في تظاهرة الوفاء وقدموا الاعتذار عن الإساءات التي لقيها السوريون من بعض الأشقاء. وقد أصاب الرئيس مبارك حين وصف عملية الاغتيال بأنها فخ نصب لسوريا. ولقد كان من نتائج الفخ سعي بعض أطراف المعارضة إلى تسليم القضية اللبنانية للمندوب السامي الأميركي، والكيد لسوريا وإطلاق الاتهامات لها فضلاً عما تم تلفيقه من كلام على لسان الرئيس بشار. وكان الشهيد على وشك اللقاء به في ذات الأسبوع لو قدرت له الحياة.

لقد شعرت من موقع المواطن السوري بأن الاستخفاف بسوريا قد وصل حداً لا يطاق، ولا سيما حين انطلق الاتهام لها بتدبير التفجيرات في الأحياء المسيحية في بيروت، وكان مخزياً أن يتجاهل أصدقاء الأمس أن سوريا قدمت آلاف الشهداء من زهرة أبنائها كي توقف التفجيرات التي دمرت لبنان منذ منتصف السبعينيات وكان يصنعها أعداء سوريا ولبنان. والمخجل أن تنطلق هذه الاتهامات لسوريا بألسنة عربية تتجاهل أن المستفيد من الفوضى والتفجير والتدمير هو إسرائيل ومشروعها الصهيوني الشرق أوسطي الكبير الذي لا يمكن أن يمر إلا إذا تمت إبادة المقاومة وتم تسليم الأسلحة بما فيها سكاكين المطابخ، كي لا يملك أحد قدرة على الدفاع عن نفسه وعن وطنه، وإلا إذا تم إضعاف سوريا وإنهاكها وتغيير وجهها العروبي.

ومع أنني على صعيد فكري لست من دعاة التجييش والتعبئة لأنني أتمنى أن نستطيع تجاوز الأزمة بالحوار والتفاهم مع الولايات المتحدة وفرنسا، وأتمنى أن نصل إلى حل سلمي عادل للصراع العربي الإسرائيلي وأن تستجيب إسرائيل للمبادرة العربية، وأعتقد أنه ليس من مصلحتنا في الأمة العربية أن تعادينا أكبر قوة في العالم، وأؤمن بأن من أهم مسؤولياتنا الوطنية أن نجنب شعبنا الدمار، والوقوع في الأفخاخ، إلا أنني مثل كل السوريين أجد في نفسي غضباً من أن يستخف بسوريا أحد، وأن يشمت بضعفها عسكرياً أمام الولايات المتحدة ضعفاء النفوس الذين بدؤوا العد التنازلي وهم يبشرون بسقوط دمشق وبقدوم الإسرائيليين أو وكلائهم لتحرير سوريا ولبنان من العروبة والإسلام، دون أن يسألوا أنفسهم تحت أي حذاء سيكونون إذّاك، فقد عودنا التاريخ أن الغزاة يحترمون من يدافع عن وطنه ويحتقرون من يخون بلاده.

إننا من موقع المواطنة السورية ندرك حاجتنا الماسة جداً إلى الإصلاح السياسي والاقتصادي والإداري، وإلى ديمقراطية وطنية شفافة تتيح أوسع مشاركة للمواطنين في تحمل المسؤولية، وإلى تعميق الحوار الوطني لصياغة رؤية جديدة لمستقبل سوريا، وإلى إعادة النظر بالموروث الفكري لكل الأحزاب التي نشأت أفكارها في أوائل أو منتصف القرن العشرين ولم تعد قابلة للتفاعل مع المتغيرات والمستجدات، كما نؤمن بضرورة حل المشكلات التي باتت خلفنا، وورثنا تداعياتها من فتن تجاوزناها وبضرورة إنصاف كل ذي حق، ونخص من له حق من أهلنا الأكراد الذين امتزجوا بالعروبة والإسلام وكانوا على مر التاريخ قدوة في الدفاع عن الأمتين من قبل الحروب الصليبية إلى عصر الانتداب الفرنسي. وأعترف بأنني لم أسمع في حياتي إلا قبل بضع سنين عن مشكلة لبعض الأكراد في سوريا لأنني أعرف أن فيهم قادة كباراً تسلموا أعلى مواقع المسؤولية في الدولة السورية منذ تشكلها، ولكننا مطالبون بمناقشة كل مشكلات أبناء وطننا وإنصافهم ولا أحد في السوريين يضيق بحق أحد ما دام مطلبه يعمق الوحدة الوطنية ولا يشقها أو يخرج عليها.

إننا نؤمن بحاجتنا إلى إنهاء كل ما يشكو منه الشعب من فساد، ولكننا لا نقبل أن تتخذ الأخطاء ذريعة للانقضاض على سوريا الوطن والتاريخ والحصن العربي الأخير، وأن يتخذ قميص الحريري ذريعة لإيقاع سوريا ولبنان في فخ منصوب من قبل مجرمين محترفين.

ولقد وعد الرئيس بشار شعب سوريا بقفزة إصلاحية نرجو أن تكون نهوضاً شاملاً لمشروعه الذي بدأه دون ضغوط من قبل أن يتسلم سدة الرئاسة، وقد تعثر تنفيذ هذا المشروع، ونأمل أن يجد اليوم سبيلا لانطلاقة ضخمة، ونرجو من بعض أشقائنا العرب الذين يطالبون

سوريا بفهم المتغيرات حولها، أن يتأملوا بدورهم هذه المتغيرات جدياً لأن فيها ما يهددهم بتغيير جلودهم وعروبتهم ودينهم وأسمائهم وبضياعهم في الدنيا وفي التاريخ.

الديمقراطية المستبدة

يبدو أن أخطر صاروخ سيقصف العواصم العربية والإسلامية الممتدة في أرجاء الشرق الأوسط الكبير هو صاروخ الديمقراطية، وهو أخطر من الصواريخ ذات الرؤوس النووية، لأن رؤوسه القادمة صهيونية محضة، مهمتها تهيئة العالم العربي والإسلامي لإعلان الإذعان والاستسلام الكامل لدولة إسرائيل العظمى. وسيستاء من هذا التوصيف كل الحالمين بالديمقراطية على الطريقة الأميركية من عشاق الألوان الوردية والبرتقالية والدموية، والذين يتجاهلون التناقض الصارخ بين الدعوة الأميركية إلى الديمقراطية، وبين شعار الاستبداد الأميركي (من ليس معي فهو ضدي). هذا الشعار ــ المبدأ ينسف الديمقراطية من جذورها، وقد أعجب به بعض دعاة الديمقراطية العرب المحدثون فباتوا يمهدون لنسف كل الثوابت العربية والإسلامية ويهددون من يتمسك بها بأنه ماضٍ إلى زوال.

وقد يظن أنني ضد الديمقراطية عامة. إلا أن حقيقة موقفي هي أنني قلق من الديمقراطية التي يعدنا بها الأميركان وطلائعهم من العربان، ليس تعلقاً بالديمقراطية الشعبية التي جربها بعض العرب فكان في التجربة أسوأ ما عرفت الشعوب وما عانت من كذب وخداع في مسرحيات الانتخابات الهزلية المأساوية التي يصوت فيها الأموات قبل الأحياء، وتستبد بها قوائم تفرض على الناس، ويصل من خلالها إلى قبة البرلمان نخب من العباقرة في الجهل، ولكن موقفي الحذر من الديمقراطية الأميركية القادمة إلى الوطن العربي سببه يأسي من تحقق الديمقراطية العادلة، وقناعتي بأنها وهم كاذب. فأين الديمقراطية في عالم تسيطر عليه عصابة من عتاة الصهاينة، ولا يكاد يصل فيه رئيس في دولة كبرى ما لم يقدم قرابين الطاعة والولاء لأمراء الظلام، وينفق له أعوانه ملايين الدولارات في حملات ترويج كالتي تنفق لترويج البضائع الكاسدة، ويؤتى به ليكون صورة يحكمون من خلالها، وحين يجلس إلى طاولة الرئاسة يجد عليها برنامجاً ما ينبغي عليه عمله، فإن أخل أو تقاعس أو اجتهد خرجت له من أدراج الطاولة ملفات فضائح جاهزة تجعله يرتعد، وقد يقتل كما قتل رابين في دولة الديمقراطية المثالية التي يتنافس فيها حزبان رئيسان منذ تأسيسها إلى الآن، وهما في الحقيقة حزب واحد، تماماً كما هو الحال في كل أحزاب الغرب الكبرى التي تتداول السلطة ولكنها على الغالب تنفذ البرنامج الاستراتيجي ذاته بما يتضمن من تسلط على الشعوب ونهب لثرواتها وتمركز في أراضيها وتدخل في شوؤنها. ولا شأن للديمقراطية عندهم بموقف ملايين الناس الذين يملأون الشوارع مستنكرين رافضين سياسات بلدانهم من رفض للعولمة الجائرة إلى رفض للحرب على أفغانستان والعراق وفلسطين.

وأرجو ألا يقول لي أحد هل ما يحدث عندنا في العالم العربي أفضل مما عند الغرب الديمقراطي؟ فلا حاجة بي إلى القول إننا أوشكنا أن نخرج من التاريخ لأننا بتنا (فرجة)، وانتقادنا للديمقراطية لا ينفي أنها على كل علاتها تبقى أفضل الحلول السيئة. وهي ليست سيئة في بعدها الفكري أو منظومتها القيمية، إنما هي سيئة في التطبيق والتنفيذ العالمي كله وهذا السوء لا علاج له، لأن الديمقراطية بطبيعتها قابلة لهذا السوء. ومن أسوأ ما فيها أنها تتيح الغلبة للأقوياء في الثروة والجاه والمكانة، وتساوي في التصويت بين مثقف عبقري وبين جاهل أمي، فلكل منهما صوت وهما به يتساويان. والجهلاء على مر العصور أكثر عدداً من العلماء، ولعل هذا ما جعل الأذكياء يتسترون بالديمقراطية ويسوقون الدهماء إلى الانتخابات بدوي إعلامي، وإغواء مادي، وينفذون باسمهم ما يخططون. وقد تكون المزية الكبرى للديمقراطية أنها تتيح للصوت المعارض أن يعبر عن رأي يخالف رأي الحكومة أو رأي الأكثرية دون أن يعتبر ذلك جريمة كبرى أو خيانة وطنية. وهذه المزية وحدها تجعلني أميل إلى الديمقراطية على علاتها. وأجدني مصراً على توصيفها بالسيئة لأنها في الوقت ذاته، تتيح لأعداء الأمة أن يشنوا حروبهم المريبة على الثوابت وقيمها، ولكن لا حيلة لمنع ذلك، ما دام هؤلاء تمكنوا من التسلل إلى مواقع القرار في أكثر الأنظمة شمولية كما حدث في العراق زمن صدام حسين حين ركبوا على الثوابت ذاتها حتى دمروها. ويبدو أن الديمقراطية الموعودة ستكون أكثر خطراً على البلدان العربية التي تعاني من خلل سكاني ومن زيادة كبرى في عدد الوافدين والمقيمين الأجانب الذين نخشى أن تطالب منظمات حقوق الإنسان بمنحهم الجنسية، وعندها ستواجه بعض هذه البلدان أخطر مشكلة عبر تاريخها، حيث ستتيح الديمقراطية لشعوب أخرى غير عربية أن تكون صاحبة القرار في البلد العربي.

وفي بعض البلدان التي تعاني من خلل سكاني واضح، نخشى أن يصبح العرب أقلية برلمانية، وأن يصبح الإسلام دين الأقلية، وأن تصير اللغة العربية لغة ثانية أو ثالثة أو منسية. وليس بعيداً أن يتمكن الأخلاط (كما كانوا يسمونه قبل انهيار الدولة العباسية على أيديهم) من السيطرة على البرلمانات وسن قوانين عولمية كتلك التي طالبت بها قمة المرأة في بكين كالسماح بالزواج المثلي (بهدف القضاء على بنية الأسرة كنظام اجتماعي) وبحق الإباحية الجنسية أو ما سموه في الوثيقة حق ممارسة الجنس الآمن، وسوى ذلك مما تتكره الأديان السماوية كلها، وبأن يجبر المسلمون على حذف آيات معينة من القرآن الكريم في مناهج التعليم قد يعتبرها الصهاينة معادية للسامية وما إلى ذلك. وأرجو ألا يستاء من هذا التخوف الوافدون الأجانب (من غير العرب) المقيمون في البلدان العربية منذ سنين طويلة، فهم ليسوا موضع شك

أو ريبة، بل إنهم يتمتعون بمحبة الناس جميعاً وبعرفان شعبي وحكومي لما قدموا من جهد عبر مسيرة التنمية، ولكنه الخوف من أن يستغلهم أعداء العرب والإسلام، وأن يتم إغراؤهم بالسلطة والثروة، فتقع الواقعة التي يخشى الناس مواجهتها صراحة مع أنها حدس وترقب لدى كثير من العرب الذين هم مثلي يخشون أن تكون الدعوة إلى الديمقراطية حقاً يراد به باطل. ودليل هذه الشبهة أن الغرب نفسه وقف ضد ما جاءت به صناديق الاقتراع حين وجد الأمر ليس لصالحه في أحد البلدان العربية، ولكن على مبدأ الحكمة القائلة (شيء خير من لا شيء) فإن الديمقراطية باتت هي الحل الممكن للأزمات الراهنة، ولابد من أن يترافق معها عزم وإيمان بالعدالة الاجتماعية بعد أن أخفقت الاشتراكية في تحقيق مجتمع العدل والمساواة، وأفرزت بدلاً منه مجتمع العسكرتاريا والتسلط والفساد والرشوة ورأسمالية الدولة وتوظيف الفلاحين والعمال وبسطاء الناس جميعاً لخدمة الشعارات بدل أن توظف الشعارات لخدمتهم. بل إن المشكلات الاقتصادية الناجمة عن تطبيق الاشتراكية لم تكن أقل قسوة على الفقراء من المشكلات التي جلبتها النظم الرأسمالية، وأعتقد أن الديمقراطية وحدها لا تكفل عدلاً بدليل أن العالم الرأسمالي الديمقراطي لم ينه قط مشكلة الظلم والاستغلال الاجتماعي والاقتصادي. فما يزال عشرون في المئة من سكان العالم الرأسمالي يحرمون ثمانين في المئة من حقوقهم في توزيع عادل للثروة، وما يزال الفقر أخطر مشكلات البشرية جمعاء. وفي وطننا العربي تشير تقارير التنمية إلى ضخامة الثروة العربية المهاجرة (نحو ألفي مليار دولار) سيضطر العرب إلى نسيانها مرغمين، بالإضافة إلى ضخامة الثروة المنهوبة من قبل شركات الدول الديمقراطية الكبرى، وهذا يزيد شك العرب بمصداقية دعاة الديمقراطية الذين يمارسون استبداداً عالمياً وهم يرفعون شعارات العدالة. وكيف نطمئن إلى الدعوة الديمقراطية العادلة وهي تأتي من قطب واحد ينفرد بحكم العالم ولا يقبل حواراً أو نقاشاً, فمن ليس معه فهو عدوه الألد. وبصعود هذا القطب الأوحد انتهى زمن الديمقراطية الدولية والتوازن العالمي وفقد مجلس الأمن ذاته ميزان التوازن بعد أن سيطرت عليه قوى معينة تتحكم في قراراته، فتعفي من تشاء من التنفيذ وتجبر من تشاء على ما تشاء، دون خجل من الانحياز الفاضح والتمييز العرقي والقومي والديني. ولكن شكنا بمصداقية الدعوة إلى الديمقراطية، وحذرنا من كونها أفضل الحلول السيئة لما قد ينتج عنها من تكريس للطائفية السياسية (كما فعلت ديمقراطية لبنان وكما نخشى أن يحدث في العراق) وخوفنا من أن تكون الديمقراطية ستاراً جديداً لأصحاب الثروة والنفوذ القادرين على ضخ المال في رحم الديمقراطية فلا تلد الخير إلا لهم، كل ذلك لا يمنعنا من أن نجد في الديمقراطية الوطنية الخالصة حلاً وحيداً للخلاص، حين تحترم ثوابت الأمة ومقدساتها وعقائد الناس وحريتهم في التعبير، وتتيح لهم أوسع مدى من المشاركة في القرار، وتناهض التفرد في

السلطة وتؤكد سيادة القانون دون استثناء لأحد، وهذا ما نتفاعل أن نمضـــي إليـــه اختيـــاراً لا يفرضه علينا أحد.

٢٠٠٥/٤/٢٩

مأدبة حوار في سورية

أستعير العنوان من تعبير جميل أطلقه الصديق الكاتب عمر الكوش في مقالة له عن "ربيع دمشق" يختمها بالإشارة إلى أن الفرصة متاحة بعد مؤتمر الحزب في دمشق للدعوة إلى مأدبة حوار يجتمع حولها مختلف النشطاء لتدارس الأوضاع. وقد استوقفني استخدامه كلمة المأدبة وحسن اختياره لها مكاناً وأسلوباً للحوار، ذاك أن للكلمة صلة بالأدب الذي لابد من أن يكون شرطاً لنجاح أي حوار. والأدب والتأديب هنا بمعنى التهذيب، والطريف أن من معانيه كذلك العدل، حيث يقال "ملأ البلاد أدباً أي عدلاً". والتأديب كذلك تعليم رياضة النفس ومحاسن الخلق. فأما المأدبة فهي ما صنع من طعام إذا تناوله المجتمعون حوله نمت بينهم صلة الخبز والملح. ولا أريد أن أسرف في الشرح اللغوي لأن الصلة واضحة بين المأدبة وبين شروط الحوار، وقد قيل إن القرآن "مأدبة الله"، وفي القرآن الكريم ذروة من ثقافة الحوار بما تعني من اعتراف بالآخر وحقه في الاختلاف، ومن تأديب وتهذيب، حسبنا أن نذكر منهما قول الله سبحانه وتعالى لموسى وهارون عليهما السلام حين يأمرهما بالذهاب إلى حوار مع فرعون الذي طغى (فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى).

وكثير مما يدور من الحوار الذائع اليوم على صفحات الجرائد العربية وفي مواقع الإنترنت يحتاج إلى مأدبة يتهذب الناس فيها، ويتشاركون الخبز والملح، فتصفو نفوسهم من الضغائن التي لا يمكن أن يصل الحوار معها إلى تشارك وتفاهم. وثقافة الحوار ليست كمية من المعلومات تحشى بها ألأذهان، بل هي لطف ودماثة وصبر وتسامح وسعة صدر ونفس. وقد لاحظت أن اللغة الأكثر انتشاراً في الحواريات الدائرة هي لغة التشتاتم والتنابذ والذم والقدح والإقصاء، ولهذا وددت التوقف عند الدعوة الكريمة إلى مأدبة حوار أشارك صديقي عمر التأكيد على حاجتنا إليها، ولو أنها تمت بما تفرضه من احترام للخبز والملح والدم والهوية التي يتشارك فيها كل السوريين، لوجد المختلفون أن ما يتفقون عليه أكبر بكثير مما يختلفون حوله، وربما فوجئ كثير منهم بأن في مواقع السلطة أكثرية يضيقون بالفساد مثلما يضيق به المعارضون. وليس حلاً أن يترك الناس مواقعهم المسؤولة أو أن يقول قائلهم "اللهم هذا منكر لا أرضى به ولا أقدر على رده", بل أن يكافحوا الفساد ما وسعهم ذلك وأن يقدموا الصورة الأفضل لما ينبغي أن يكون عليه المسؤول، وأن يساهم كل حسب وسعه في الدفاع عن الوطن وفي صد الهجمة الظالمة عليه، وهي تستغل حاجة البلاد إلى الإصلاح، لتحقيق حاجة إسرائيل إلى هدم آخر القلاع العربية، وإلى إيقاف قلب دمشق النابض بالعروبة والإسلام. ومما يجعل الحوار الدائر بين السوريين اليوم ذا خصوصية غير مسبوقة جملة من العوامل, منها أنه يستفيد

لتحقيق سعته وشموليته من توفر تقنيات الاتصال، حيث تشكل الفضائيات ومواقع الإنترنت ساحته الأرحب، بل تكاد تنوب عن الحضور المباشر، لما تحقق من مواجهة بين المتحاورين على الرغم من تباعدهم. ومنها كذلك أن الحوار لم يعد نخبوياً، بل هو حوار شعبي يسهم فيه كل الناس، من الذين يتحدثون في منابر إعلامية فضائية، أو يكتبون في منتديات النقاش الإلكترونية. وأهم العوامل أنه يحدث على الغالب في مأمن، وبرعاية من الدولة حيث تجد أشد الكتابات انتقاداً للسلطة تظهر من الداخل، وهذه ظاهرة صحية تدعو إلى الشعور بالطمأنينة وإلى إنهاء حالات الاستدعاء أو التوقيف العرفي بسبب التعبير عن الرأي ما دام تحت سقف الوطن.

وما أوجهه من انتقاد لغياب ثقافة الحوار لا يخص المعارضة وحدها، بل يخص المتحاورين جميعاً، وكي لا أقع في فخ التعميم فإنني أشيد بكتابات معارضة كثيرة تفوح منها رائحة الشعور الوطني النبيل، والخوف على الوطن من أعدائه المتربصين به، وبعض هذه الكتابات تكوي بنارها، ولكن شاعرنا الضخم نزار يقول: ومن الكي قد يجيء الشفاء. وبوسع القارئ أن يميز بين النار التي تكوي صاحبها حباً، وبين النار التي تشتعل حقداً وكراهية، وأخطر ما أخشى أن يقع فيه المتحاورون هو سيطرة الشعور بالحقد والتعصب في وقت تحتاج فيه سوريا الوطن إلى فيض من المحبة والألفة والالتفاف حول الوحدة الوطنية. ولعل الخطوات التي اتخذت على طريق العفو الشامل الذي نرنو إليه عن كل خطايا الماضي، تؤسس لبناء جسور متينة للتواصل بين أهل البيت الواحد، ولا سيما أن الخطر الذي يحيق به لا يهدد أحداً دون آخر، وفي الشدائد يدع الناس كل ما بينهم من خلافات، ويتجهون يداً واحدة لمقاومة الخطر. ونحن في سوريا ندرك خطورة ما يحاك حولنا، ونفهم أنه ليس ضد سوريا وحدها، فهو خطر يدق أبواب العرب باباً بعد باب، وهو ما زال يتوعدنا على الرغم من كوننا نزعنا الذرائع والأسباب، ولكن المتربصين بأمتنا يخترعون لكل يوم ذريعة، ولا يعنيهم أن تكون ذات شأن أو وضيعة، فهم يرون الحق إلى جانب ما يمتلكون من قوة، وقد أغفلوا حقائق العقل والمنطق، معتزين بما لديهم من قدرة على إشاعة الفوضى وعلى الحصار والهدم والتدمير. وشعبنا في سوريا يدرك أن اختلاط الحق بالباطل يستدعي مزيداً من التعقل. فالإصلاح أمر ضروري وحتمي، والديمقراطية مطلب شعبي، ولكن ما ينتظره المتربصون هو إضعاف الجسد السوري كي يكون واهناً ضعيفاً إلى حد أن يتجرع السم بيده، وقد بدأت بعض الأفكار تبث عبر الدعوة إلى التغيير. إنها سموم لقتل الشعور العروبي، ولتشويه الفكر القومي، ولترويج خلط الإرهاب بالإسلام، وما إلى ذلك مما يسعى إليه أعداء الأمة الذين لا يؤرقهم شيء كما يؤرقهم عمودا

الأمة "العروبة والإسلام". فهما الثابتان القادران على حمل البناء، فإذا انهار أحدهما تصدع الآخر. وأرجو ألا يفهم احد أن اعتبار العروبة عمود أساس، يعني إنكارا لدور الأعراق غير العربية. فالعروبة التي نقصدها ليست نقاء عرق، وإنما هي ثقافة انتماء، وهي تتسع لكل الشعوب التي عاشت مع العرب قروناً وتكلمت العربية. وللأقليات حقوقها الكاملة، فلا ضرر ولا ضرار، كذلك الأمر مع عمود الإسلام، واعتباره عموداً لا يعني إهمالا لدور المسيحية العربية الأصيلة في حضارتنا أو سواها من الأديان في المنطقة العربية، فالإسلام الذي نعنيه هو ثقافة أمة، وحاضن تجربتها الحضارية، وقد شارك في صنعها كل من عاشوا في رحاب الإسلام عبر القرون. وللأقليات الدينية كامل حريتها المصانة عبر التاريخ، وقد أثبتت تجربة الاحتلال في المنطقة أن أول ما يسعى إليه أعداء الأمة هو تمزيقها إلى طوائف ومذاهب وأعراق وأديان وأقليات، وإضعاف العوامل المشتركة الموحدة بين المواطنين.

وإذا كان الحوار يحتاج إلى تهذيب وتأديب، فإنه أشد حاجة إلى الجرأة والشجاعة في مواجهة الحقائق، والاعتراف بالأخطاء، والقدرة على العفو والصفح الجميل، والسمو إلى مستوى المصلحة العليا للأمة، بعيداً عن المصالح والمكتسبات الشخصية. وعيون العرب تتطلع اليوم جميعاً إلى سوريا بمشاعر يمتزج فيها الخوف على الشام، بالقلق من القادم في مخطط يدرك الجميع أنه يشملهم، ولهذا فإن الدفاع عن سوريا هو دفاع عن الأمة التي نخشى أن تؤكل تباعاً. وإن كان ثمة شامتون بما تتعرض له بعض أقطار الأمة من أزمات وتحديات، ويراهنون على سقوطها فرحين بالخلاص من أنظمة حكم يخالفونها الرأي أو يضيقون بما فيها من فساد، فإن عليهم أن يفرقوا بوعي بين طموحاتهم الإصلاحية التي يعلنون أنها هي الدافع، وبين ما يطمح ويخطط له أعداء الأمة، الذين يدرك العرب أنهم غير معنيين بالنهوض بالعرب والمسلمين، بل هم معنيون بتقوية إسرائيل وحدها. وهم على الرغم من كل ما يعلمون عن ضعف العرب، ومن كل ما يبذلون لتمكين إسرائيل قلقون على مستقبلها، ويتساءلون هل يعقل أن تكمل إسرائيل مئة عام؟ والمفارقة المؤلمة لهم أنهم يعجزون عن تمكينها عبر الحروب التي تتيح مساحات أوسع لانتشار الإرهاب، وخائفون من أن تحد طموحاتها معاهدات السلام، ولهذا فهم يخططون لفرض سلام الإذعان والاستسلام عبر مزيد من إضعاف العرب ومن إغراق كامل للمنطقة في الفوضى التي يسمونها صراحة مبدعة وخلاقة.

١٣/٥/٢٠٠٥

القرآن والأميركان

حسناً فعلت الوزيرة كوندوليزا حين استنكرت جريمة الجنود الأميركان الذين قاموا بتدنيس القرآن الكريم. ولكنها طالبت بعدم التحريض على العنف، مع أنها تدرك بالتأكيد أن تصرف الجنود الأميركان هو أعظم تحريض على العنف، وخاصة أن القرآن الكريم أغلى على المسلمين من أنفسهم ومن أموالهم ومن أبنائهم، وأن الدفاع عن مكانته فرض ديني مقدس. ولكن حقيقة القرآن الكريم غائبة عن ثقافة الأكثرية من الأميركان، فحتى المتعلمون منهم لا يعرفون عنه غير ما تروجه وسائل إعلام معادية للعرب والمسلمين قدمت القرآن على أنه كتاب من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم يقدس العنف ويحرض على الكراهية ويدعو إلى قتل الناس أجمعين. وهذا ما ردده بعض المثقفين الأميركان في الحملة الضارية على الإسلام. ويؤكد حقيقة الجهل بالقرآن قول المدير العام لمجلس العلاقات الأميركية الإسلامية "كير" إن وسائل إعلام أميركية مهمة اتصلت بالمجلس تسأل عن "سر المظاهرات التي احتجت على تدنيس القرآن، وأبدت عدم فهمها لما يحدث، ودهشتها حين علمت بمكانة القرآن في العالم". وإذا كان هذا الجهل ناجماً عن تقصير العرب والمسلمين على الصعيد الثقافي والإعلامي. أما الجنود الذين ارتكبوا جريمة تدنيس القرآن فهم يعرفون أهميته تماماً، ويدركون أن رمي المصحف الشريف في المراحيض كما نقلت الـ"نيوزويك" الأميركية هو إهانة علنية لكتاب يقدسه المسلمون، وإذلال للأسرى الذين يراد استفزازهم والتنكيل بهم. الجنود ينقمون على القرآن لأن قادتهم أعلموهم أن هذا الكتاب هو الذي يحرض المسلمين على الجهاد، وهو الذي يرفع من معنوياتهم ويجعلهم قادرين على صد العدوان وعلى الدفاع عن النفس والأوطان. وقد تساءل بعض المثقفين العرب عن سر توقيت نشر الإعلام الأميركي أنباء عن جريمة تدنيس القرآن في هذه الآونة بالذات، فرأى بعضهم أن الهدف هو إحباط الجهود الدبلوماسية التي تبذلها الخارجية الأميركية لتحسين صورة أميركا في العالمين العربي والإسلامي. فهذه الأنباء عن تدنيس القرآن الكريم تشعل نيران الغضب وتصعد مشاعر الحقد والكراهية عند العرب والمسلمين ضد الولايات المتحدة، في وقت أوشكت هذه المشاعر أن تفتر، وأن ينمو بدلاً عنها نوع من مشاعر الرغبة بالتفاهم عبر الحوار.

وكانت العقلانية التي واجهت بها سوريا الضغوط الأميركية قد أسهمت في إطفاء الحرائق المراد إشعالها في المنطقة، وهو ما لا يريده أصحاب نظرية الفوضى المبدعة الذين أغرقوا العراق بالويلات، وهم الذين يخططون وينفذون العمليات الإرهابية التي يقتل فيها العراقيون

الأبرياء، وهم الذين ما يفتئون يتهمون سوريا اتهامات باطلة لا دليل عليها ولا برهان، ويسعون إلى الإيقاع بها تحت يافطة الدعوة إلى الديمقراطية التي بات العرب يخـــافون مـــن نموذجهـــا العراقي الذي قسم العراق إلى طوائف وعشائر وقبائل وأعراق.

وأحسب أن الدبلوماسية الأميركية تدرك أن ما فعله الجنود من تدنيس للقرآن الكريم هـــو تحريض مبرمج على تأجيج العنف. فقد قالت رايس: إن ما حدث أساء إلى صـــورة الولايـــات المتحدة في العالم الإسلامي ولم يتسبب بمقتل ستة عشر شخصاً وبجرح العشرات فقط، وإنمـــا أساء إلى الجهود التي تبذلها الولايات المتحدة لإثبات حسن نواياها نحو المسلمين. وبوســـعنا أن نضيف أن الجريمة تهدف فيما تهدف إلى زج المسيحية العالمية كذلك في خلاف مـــع الإســـلام بعد قرون من التعايش والتفاهم ــ هذا على افتراض أن من ارتكبوا جريمـــة تـــدنيس القـــرآن يدينون بالمسيحية التي هي منهم براء، لأن القرآن الكريم أعظم كتاب يمجد السيد المسيح ويعلن أن أمه البتول مفضلة على نساء العالمين ــ ولهذا كان موقفاً مشرفاً أن يجتمع علماء المسلمين ورجال الدين المسيحي في سوريا معاً ليستنكروا الجريمة وليصدروا بياناً بإدانتها من المســـجد الأموي الذي زاره البابا الراحل رحمه الله تقديراً منه لمكانة الإسلام العظيم، وتعزيزاً للأخـــوة الدينية بين المسلمين والمسيحيين، وهذا ما يزعج الذين يكرهون الإســـلام والمســـيحية معـــاً، ويسعون إلى تعميق الهوة بين العرب والغرب عامة.

نحن نريد علاقات ودية وحضارية مع شعب الولايات المتحدة الذي بات يبحث عن الحقيقة حين شم رائحة الزيف في كل ما يقدمه له الإعلام الصهيوني من معلومات كاذبة، وقـــد أقبـــل بعض المثقفين الأميركان على اقتناء القرآن واكتشافه بأنفسهم بعد ١١ سبتمبر مما أثار اســـتياء أعداء الإسلام فقاموا بتشويه القرآن وقدموا نسخة مزورة منه، لكن جريمتهم افتضحت، وأدرك المثقفون أن الحملة على الإسلام مغرضة وعدوانية، وهي تتخذ أشكالاً متعددة بعضـــها يتســـتر باسم الإسلام نفسه, كتلك الدعوة المشبوهة لإمامة امرأة صلاة الجمعة حيث كان هدف التشـــويه والتشويش واضحاً. ونحن نعتقد أن الذين يحقدون على القرآن هم فئة قليلة تسللت إلـــى مواقـــع القرار والنفوذ في الولايات المتحدة وهي تعمل لصالح إســـرائيل فقـــط، ولا تعنيهـــا مصـــالح الولايات المتحدة وصداقاتها العريقة مع العديد من البلدان العربية والإسلامية. وقد صرح أحـــد أعضاء الكونغرس من هذه الفئة بقوله في مؤتمر دافوس الأخير "يخطئ من يظـــن أننـــا لســـنا منحازين إلى إسرائيل".

والعرب يعلمون أن هذه الفئة منحازة إلى إسرائيل وأن مشاعرها بالولاء للصهيونية أكبر وأصدق من مشاعرها بالانتماء إلى أميركا. وهذه الفئة المزهوة بالقوة وحدها هي التي دمـــرت

الديمقراطية الدولية، وحولت الولايات المتحدة في نظر الشعوب إلى وحش كاسر، يخافه الناس. هو القادر على تدمير المدن وإبادة الناس، وهو يحتقر ثقافات البشر وأديانهم، وبالتأكيد ليست هذه هي الصورة التي تريد الولايات المتحدة تقديم نفسها بها إلى شعوب الأرض. إنني لا أمني النفس بيوم يثور فيه الشعب الأميركي على هذه الفئة الصهيونية التي اختطفت القرار الأميركي، فعامة الناس في أميركا غير معنيين بالسياسة الخارجية إلا حين تؤثر على مصالحهم، وقد حرصت الصهيونية الأميركية على أن تسد منافذ الإعلام كي لا يعلم الأميركان البسطاء بحقيقة ما يجري في العراق وفي فلسطين، وباتت وسائل الإعلام تلعب على الأميركان وعلى السذج من العرب، وفي وسائل إعلامهم حيث باتت تردد أنباء مضحكة موجهة أساساً إلى المتلقي الأميركي الذي يحب أنباء المطاردات على الطريقة الهوليودية. ومن ذلك سلسلة الأنباء التي توالت حول إصابة الزرقاوي وما إلى ذلك من أخبار لا أدري سر اهتمام الإعلام العربي بها. فالزرقاوي لا يعني لأحد في الأمتين العربية والإسلامية شيئاً، وغالبية الناس وأنا منهم لا يصدقون بوجود الزرقاوي أصلاً، وقد سمعت على الفضائيات عراقيين ثقاة من الفلوجة والموصل وسواها يقولون إنهم لم يسمعوا بالزرقاوي. لكن الإعلام الصهيوني يدرك أن الشعب الأميركي يحب المطاردات وصراع الديكة، وقد أصبح مسلسل مطاردة ابن لادن مملاً، فكان لابد من اختراع شخصيات جديدة. إحياء أسطورة الزرقاوي في الإعلام الأميركي تم في ذات الفترة التي شهدت فورة الغضب من تدنيس القرآن، حيث كان مفيداً إلهاء الأميركان بأنباء إرهابي مطارد ممن يدفعهم القرآن إلى الإرهاب، ويبدو مفجعاً أن ينساق إعلامنا العربي إلى ترديد هذه الأنباء السخيفة على أنها حقائق، وأن يكون موقفه من تدنيس القرآن محايداً أو في الحد الأدنى من الاحتجاج. ولقد كان مفجعاً أكثر أن أقرأ لكتاب يحملون أسماء مسلمين يهاجمون من غضبوا لتدنيس القرآن، ويعتبرون أن للقرآن رباً يحميه وأن الدفاع عنه هو مسؤولية الله، وليس مسؤولية المسلمين، ولقد تعهد الله بحفظ القرآن، ولكن الدفاع عنه وعن مكانته مسؤولية كل مسلم.

إنني أرجو أن تدرك الدبلوماسية الأميركية أن ملايين الدولارات التي تنفقها لتحسين صورة أميركا عبر وسائل الإعلام، يبددها في لحظات تصرف طائش أحمق، يسيء إلى عقيدة مليار ونصف المليار من البشر. ومشكلة المسلمين أنهم لا يستطيعون الرد بالمثل. فالمسلمون وحدهم يقدسون كل الكتب السماوية ويؤمنون بكل الرسل إيمانهم بنبيهم محمد عليه الصلاة والسلام، ولو أن أحد الجنود أساء إلى الإنجيل المقدس لغضبنا ذات الغضب الذي نغضبه لتدنيس القرآن الكريم.

٢٠٠٥/٥/٢٧

قراءة في فهم المتغيرات

ينتقدنا الساسة الأميركان بأننا لا نفهم المتغيرات، وقد أكدت الوزيرة رايس في زيارتها لبعض عواصمنا العربية على ذلك. لاشك في أننا نحتاج من منطلق وطني إلى فهم أعمق للمتغيرات الدولية. فما كان يصلح في الستينيات من أفكار وشعارات لم يعد يصلح كله أو بعضه لهذا القرن الجديد. فلم يعد ممكناً في إطار عملي أو واقعي أن يطالب أحد بالوحدة العربية الشاملة. وليس صحيحاً أن نفهم القومية العربية فهماً ضيقاً يتجاهل خصوصيات وثقافات المواطنين من غير العرب. إننا أمام معطيات دولية وعالمية جديدة على الصعد الفكرية والسياسية والعسكرية. وعلينا أن نعيد النظر بفكرنا وأساليبنا العملية في الحكم وفي تنظيم المجتمع. وأن نمضي نحو الديمقراطية بخطى حثيثة, وأن نعزز التعددية ونمكنها من أن تكون إغناء لثقافة الوطن بدل أن تكون إضعافاً له. وقد بدأ هذا الفهم للمتغيرات بالظهور في الواقع العربي كله بنسب متفاوتة, ولابد أنه سينمو وتتسع دائرته.

إلا أن هذا الفهم لا يعني أن نتخلى عن ثوابت أساسية هي قوام حضورنا كأمة. فالكف عن حلم الوحدة الشاملة، لا يعني أن نتوقف عن السعي إلى تحقيق التضامن العربي والتنسيق السياسي، والحفاظ على الجامعة العربية ومؤسساتها، وعن العمل المستمر لإقامة السوق العربية المشتركة وتحقيق التكامل الاقتصادي. ولا يعني أن نضع القطرية في مواجهة القومية. فالمتغيرات ذاتها تتطلب تجمعاً في كتل كبيرة لأن الكينونات الصغيرة غير قادرة وحدها على مواجهة المشكلات الراهنة. وعلى صعيد الفكر القومي لابد من توسيع الرؤية ومن التعامل بموضوعية مع الحقائق الراهنة، ومن الاعتراف بحقوق كل الأقليات والجماعات القومية التي عاشت قروناً داخل الأمة وامتزجت بالنسيج الوطني في كل أقطار الوطن العربي، وهذا الاعتراف ليس بدعة حديثة، وإنما هو سمة الحضارة العربية الإسلامية التي اتسعت لكل الأعراق والملل والنحل.

إن فهم المتغيرات يعني الاستجابة الإيجابية والموضوعية لها، وليس الانصياع والانقياد الأعمى لشروطها ومطالبها التي يمكن أن تكون مناقضة لمصالح الأمة. فما تطلبه الإدارة الأميركية من فهم للمتغيرات هو أمر آخر. إنها تطالبنا بأن نفهم أن الولايات المتحدة باتت على حدودنا, وأنها قادرة على قصفنا واحتلال بلادنا وتدميرها، وهذه حقيقة ينبغي أن نفهمها حقاً.

ولكن الاستجابة لها لا تعني أن نرفع الرايات ونطأطئ الأعناق ونقول لجيش الأميركان أهـلاً وسهلاً تفضلوا لقتل وتدمير شعبنا.

كما أن من المتغيرات التي تعنيها السيدة رايس هي كون إسرائيل أقوى دولة في المنطقـة عسكرياً، وهي وحدها التي تملك أسلحة تدمير شامل، ولا يحق لأحد أن يطالبها بحق. وفهم ذلك يعني من وجهة نظرها أن نعلن الخضوع المطلق للإرادة الإسرائيلية، وأن نضع كل إمكاناتنـا لتحقيق هدف إسرائيل في التوسع والتسلط، وأن نكف عن المطالبة بالأراضـي المحتلـة عـام ١٩٦٧ وبحق العودة للاجئين، وبكون القدس مدينة عربية، وبحـق المسـلمين فـي المسـجد الأقصى. فعلى العرب أن يفهموا كما تريد الوزيرة أن مبادرتهم للسلام رفضت لأنهم ما يزالون يرددون هذه الأوهام التي يطالب بها الإرهابيون الفلسطينيون.

إن تأمل ما حددته السيدة رايس للنجاح في امتحان فهم المتغيرات يكشف عن تناقض بين المقدمات والنتائج. فالسيدة رايس ترى مثلاً أن الشعب السوري يستحق حياة أفضل، ولتحقيـق ذلك ينبغي على سوريا أن تكف عن دعم الإرهابيين الفلسطينيين، وأن تمنع الإرهابيين الأجانب من التسلل إلى العراق. وبالطبع يصعب فهم كيف بوسع الشعب السوري أن يحقق حياة أفضـل بمجرد أن يغلق مكتباً فلسطينياً أو أن يطرد مواطناً فلسطينياً بتهمة أنه إرهـابي، أو أن يلقـي القبض مثلاً على مجموعة ما تعمل لصالح الموساد متجهة لتفجير قنابل في سوق شـعبي فـي إحدى مدن العراق أو في معسكر للشرطة.

والواضح أن الوزيرة رايس تطلق اتهامات عشوائية وبدون أدلة، والعرب عامة يستقبلون هذه الاتهامات بفهم مختلف عما تريد الوزيرة. إنهم يتذكرون قول الوزير رامسـفيلد بعـد ١١ سبتمبر إن الحرب التي بدأت ضد أفغانستان ستمتد إلى ستين بلداً في العالم، وهي حرب طويلة ومستمرة. وقد انتقلت إلى العراق والآن جاء دور سوريا، وقد تكون ثمة وجهات نظر مختلفـة حول طريقة إخضاع سوريا بين تدخل عسكري يلوح به المحافظون الجدد، وبين حفـر تحـت النظام، وزعزعة لوحدة المجتمع، وتفتيت للنسيج الوطني، وبين عمليات قصف وتدمير للبنـى التحتية، وبين مزيد من الضغط والعقوبات والعزل السياسي والاقتصادي، وذلـك كـي يحقـق الشعب السوري حياة أفضل كالتي ينعم بها شعب العراق الآن في عصر الديمقراطية الأميركية!

إن الهدف الواضح من استهداف سوريا هو أن تجد نفسها مجبرة على تقديم صك تنـازل أبدي عن الجولان وأن توقع اتفاقية إذعان مع إسرائيل التي تريد أن تضـمن تفتـت الجـيش

السوري وتدمير قوى الشعب الدفاعية كي تطمئن إلى أمنها المستقبلي، وتحقق وجودها كدولـــة عظمى وسط مجموعة من الدول المفككة الضعيفة المنشغلة بحروبهـــا الطائفيـــة وصـــراعاتها الداخلية. يبدو أن مستشاري السيدة رايس يخفون عنها أو يتجاهلون رصد ردة الفعـــل العربيـــة على صعد شعبية لهذه التهديدات، ولعلهم يكتفون برصد الترحيب الإعلامي الذي يعبـــر عنـــه بعض المتصهينين العرب الذين لا تكتمل فرحتهم حتى يروا سوريا غارقة بما غرق فيه العراق من دماء. لكن العرب كأمة يفجعهم أن تستباح بلادهم وأن تمتهن بهذه الطريقة الاستفزازية. وقد تعجز الأنظمة العربية عن صد الهجمة العاتية، وقد تتلقى الشعوب الضربات بمزيد من القهـــر والإحباط، ولكن ذلك لن يحقق غير شيء واحد, هو توسيع دائرة المقاومة التي تسميها إسرائيل والولايات المتحدة إرهاباً، وفي حالة الانهيار العربي والوقوع تحت الاحتلال المباشر، لن تجـــد الشعوب وقتاً لمناقشة الفوارق بين المقاومة المشروعة والإرهاب غير المشروع.

كنا نأمل من الوزيرة رايس أن تقدر فهم سوريا للمتغيرات عبر إصرارها علـــى الســـلام خياراً استراتيجياً، وهو ما سيرفضه الشعب رفضاً قاطعاً في حالة تعرض سوريا لعدوان، حيث ستعود المطالبة الشعبية باعتبار الصراع صراع وجود وليس صراع حـــدود، وستنشـــأ مئـــات المنظمات المقاومة التي سيكون هدفها اقتلاع إسرائيل من المنطقة، وستجد الشعوب في الشهادة سبيلاً لتحقيق الحرية والسيادة. واليوم يفهم كثيرون أن تعنت إسرائيل ورفضها للسلام هو فـــي المحصلة لصالح العرب على صعيد استراتيجي. فقد اضـــطرت الأنظمـــة العربيـــة أن تقـــدم لإسرائيل فرصة بقاء أبدي في المنطقة من خلال فهم العرب للمتغيـــرات، ولكـــن إذا حـــدثت متغيرات جديدة كأن يجد العرب أنفسهم في مواجهة الفناء والخروج الأبدي من التاريخ فـــإنهم سيجدون فرصتهم للعودة إلى صراع البقاء والوجود.

ويخطئ من يظن أن بالإمكان تغيير الشعوب واقتلاع العروبة والإسلام من قلوب وعقول السكان وإقناعهم عبر التربية والإعلام بأنهم شرق أوسطيون وأن دينهم الجديد هو الديمقراطية والليبرالية والمصالح الاقتصادية وسوى ذلك مما نؤمن بـــه, ولكـــن داخـــل ثوابتنـــا العربيـــة والإسلامية وليس بديلاً عنها. كنا نأمل أن تجد الوزيرة رايس في إصرار سوريا على الحـــوار مع الولايات المتحدة مناسبة لتحقيق الاستقرار في المنطقة ولإيقاف شلال الـــدم الـــذي بدأتـــه الولايات المتحدة في العراق وتريد إيصاله إلى سوريا ومن بعدها إلـــى دول أخـــرى. فالـــذي يزعزع الاستقرار في المنطقة هو الاحتلال الأجنبي لبلادنا العربية، وإصرار إســـرائيل علـــى احتلال أراضٍ فلسطينية. والذي يقتل العراقيين واللبنانيين وينفذ الاغتيالات اليومية ويهدد الأمن

في سوريا هو صاحب المصلحة في تفتيت المنطقة وإضعافها لكي يبقى القوي الوحيد. وأما اتهام السيدة رايس لسوريا بزعزعة الاستقرار في لبنان أو في العراق فهو كلام يخالف المنطق البسيط، لأن سوريا أحرص دول الأرض على الاستقرار في لبنان وفي العراق وفي المنطقة كلها، لأن أي انفجار فيها يهدد أمن سوريا واستقرارها، وفي النهاية نحن شعب واحد وأمة واحدة يا سيدتي، فأما الغرباء فهم القادمون من وراء المحيطات.

٢٠٠٥/٦/٢٤

تقسيمات إسلامية

يستدعي مصطلح الإسلام السياسي وجـود مصـطلح الإسـلام الاجتمـاعي والإسـلام الاقتصادي ثم الفكري والأخلاقي إلى آخر ذلك من تقسيم للإسلام. إن الغلط الواضح هو إلحاق "ال" التعريف بكلمة "السياسي" لأنها تجعل الصفة شاملة للموصوف، وهو أوسع مـن أن تحـده الصفة المقيدة، لأنها جزء منه وليست كلاً فيه. من المعروف أن مصطلح الإسلام السياسي الذي تلقفه بعض الباحثين العرب ووضعوه قيد التداول، هو تسمية أطلقتها مراكز الأبحاث الغربيـة والأميركية بخاصة في أواخر السبعينيات وقصدت بها البعد السياسي من الإسلام، وقد انتشرت هذه التسمية بعد قيام الثورة الإسلامية في إيران. حفزني إلى الحديث عن هذا الموضوع تقرير عن تقسيمات الإسلام صدر قبل شهرين ونيف عن مجموعة من الباحثين في بروكسـل تهـتم بدراسة الأزمات الدولية (أنترناشيونال كراسيس غروب). ويشير هذا التقرير إلى تقسيم الإسلام إلى إسلام سياسي وإسلام دعوي وإسلام جهادي، ولكنه ينطلق من ضرورة تجـاوز مصـطلح الإسلام السياسي إلى مصطلح الإسلام الحركي، وهو يفصل بين حركي سني وآخر شـيعي... ويرى أن مصطلح الإسلام السياسي يخلط كل الحركيين في إطار واحد، ويتجاهل الـدعويين، كما ينبه التقرير إلى ضرورة إعادة النظر في ثنائية الإسلاميين والمسلمين، وهذا التفريق نهـج اصطلاحي غربي له دلالاته عند بعض الباحثين الغربيين, فهم يرون أن الإسلاميين هم الـذين يدعون إلى العنف، فأما المسلمون فهم الذين يدعون إلى السلام.

وينبه التقرير إلى خطأ هذا التقسيم، لأنه يتجاهل حقيقة كون الإسلام دين قـانون ولـيس مجرد صلة روحية بين الخالق والمخلوق، وهو بهذه السمة الحقوقية أقرب إلى اليهودية منه إلى المسيحية. كما يتجاهل كون المسلمين يعتقدون أن الإسلام شأن عام، وليس شأناً خاصاً للمسلم. وعلى هذا الفهم فإن المسلمين عامة يميلون إلى مقولات الإسلاميين حين تؤكـدها النصـوص المقدسة، وعلى الغالب لا يعبر المسلمون العاديون عن حقيقة ميولهم.

ويشير التقرير إلى أن الأميركان خالفوا الحقيقة التاريخيـة حـين اعتقـدوا أن الإسـلام السياسي ولد مع ثورة الخميني، وأنه لم يكن للإسلام حضور في السياسة قبـل ذلـك. فتـاريخ الإسلام منغمس في السياسة منذ ظهوره، والأميركان أنفسـهم اسـتخدموا الإسـلام لمقاومـة الحركات التي أرادوا محاربتها فدعموا ما يسـمونه الإسـلام السياسـي لمجابهـة الشـيوعية واستخدموه من قبل لمواجهة المد القومي العربي في الستينيات.

ويعيد التقرير تقسيم الإسلام إلى ثلاثة اتجاهات: أولها, الإسلام الحركي الذي يعمل في إطار الدولة الوطنية عبر حركات أو أحزاب، وهو يرفض العنف، وينادي بالإصلاح بدل الثورة، ويقبل القيم الديمقراطية. ثم الإسلام الدعوي الذي يدعو إلى صيانة النظم والقيم الأخلاقية. ثم الإسلام الجهادي الذي ينقسم بدوره إلى ثلاثة تيارات. أولها تيار يدعو إلى مقاومة الاحتلال حيث يوجد في العالم العربي والإسلامي. وثانيها, تيار يدعو إلى محاربة الأنظمة السياسية الكافرة. وثالثها, يدعو إلى محاربة الغرب كله, والتياران الأخيران متطرفان ومحدودان وينظر إليهما المسلمون عامة نظرة ريبة وشك. ويخلص التقرير إلى القول إن فهم انقسام العالم الإسلامي إلى تيار يميل إلى التفاهم مع الغرب والقبول به، وتيار يرفض الغرب ويدعو إلى محاربته، هو فهم خاطئ، لأن مجرد رفض توجهات القاعدة لا يعني قبولاً بموقف الغرب عامة من الإسلام.

من الواضح أن هذا التقرير وأمثاله من تقارير مراكز الأبحاث الغربية يتجه إلى أصحاب القرار الذين أوشكوا أن يفيقوا من وهم نظرية صراع الحضارات بعد أن قوموا تجربة ثلاث سنوات مضت من الصراع الدامي باسم مكافحة الإرهاب, دون تحقيق أية نتيجة تذكر بوصفها رصيداً للمستقبل. وقد انتبهت النخب في الغرب إلى ضخامة الأكاذيب التي تم ويتم ترويجها لمنح هذه الحرب ذريعة أخلاقية، ولم يعد خافياً على مثقفي الغرب أن الإسلام السياسي الذي يدعو إلى محاربة الغرب الكافر, هو ذاك الذي دعمته استخبارات غربية وأميركية بشكل خاص. وأما الإسلام العام الذي يدين به مليار وأكثر من ربع مليار من البشر، فقد تعامل مع الغرب على مدى قرون، ولم تكن كل الحروب التي نشأت بين المسلمين وأوروبا حروباً دينية، بل إن المسلمين سموا الحروب الصليبية حروب الفرنجة، ليبعدوا الطابع الديني عنها لولا إصرار الغرب على جعل المسيحية في مواجهة الإسلام في تلك الحروب. وقد وقفت المسيحية العربية مع الإسلام لصد ذاك العدوان. ولم يعلن المسلمون حروباً دينية على حملات الغرب من حملة نابليون إلى آخر الحملات الأوروبية التي شملت العالم العربي والإسلامي منذ القرن التاسع عشر وحتى أواسط العشرين. وإن كانت الأمة قد استنهضت الهمم في حروب الاستقلال والتحرير عبر دوافع القوى الروحية والدينية. وسنجد من المفارقة التاريخية أن البلدان العربية والإسلامية التي تحررت من استعمار الغرب لها, كانت شديدة الحرص ــ بدافع من التسامح والنظر إلى المستقبل ــ على تمتين صلاتها مع البلدان التي خاضت حروب التحرر منها.

ولولا أن الولايات المتحدة قادت حملة عنيفة ضد الإسلام إثر تفجيرات سبتمبر ــ التي ما يزال التحقيق حولها غائماً وغامضاً ــ لكانت العلاقات الأوروبية العربية المتوسطية قد قطعت

شوطاً كبيراً من التقدم والتفاعل الثقافي والاقتصادي. ولو أن الولايات المتحدة كانت صادقة النية في مؤتمر مدريد ولو أنها حرصت على تنفيذ قرارات الشرعية الدولية، وحلت الصراع العربي الإسرائيلي بشكل عادل وشامل، لكانت المنطقة اليوم تعيش في حالة من الأمن والسلام والنمو الاقتصادي والاجتماعي. وربما كانت الولايات المتحدة قد تجنبت خوض حرب ضد الإرهاب الذي وجد تربة صالحة للنمو في بيئة مضطربة غير مستقرة، حيث ما يزال الاحتلال الإسرائيلي والأميركي والتهديد اليومي للبلدان العربية والإسلامية وفرض الوصاية عليها، يجعل أغلب شباب العرب والمسلمين يميلون إلى مواجهة القوة بالقوة والإرهاب بالإرهاب. وهؤلاء الشباب هم أنفسهم الذين كان من الممكن أن يحققوا تفاعلاً متميزاً مع حضارة وثقافة الغرب لو أنهم وجدوا الأمن والطمأنينة. إنني أعتقد أن تقسيم الإسلام, إلى إسلام سياسي وآخر صوفي وثالث أخلاقي وسوى ذلك، هو تصنيف مفتعل. فلا يوجد إسلام خالٍ من السياسة، وليس بوسع السياسة في الشعوب المسلمة أن تتجاهل الإسلام. وأما الحركات الإسلامية التي تلح على جدلية الدين والدولة فهي نتاج تاريخ من الصراع حول السلطة، بين مرجعيات دينية وأخرى مدنية تعاقدية.

وقد آن لهذا الصراع أن ينتهي إلى تفاهم عبر إطار ديمقراطي يدرك أن الدولة في الإسلام هي دولة البشر. وآن للحركات الإسلامية التي تعمل على هذه الجدلية أن تنتقل إلى العمل على جدلية الدين والأمة. لقد تكاتف جميع العرب لصد تهمة الإرهاب والعنف عن الإسلام، وهم جميعاً مسلمين ومسيحيين متدينون في لحظات المواجهة التي تستدعي طاقات روحية. ومن يظن أن الصوفية مثلاً شيء آخر مختلف عن الإسلام السياسي كما يفهمه، نذكره بأن عبدالقادر الجزائري وعمر المختار كانا صوفيين، ولكنهما قادا حركتي تحرير يعتز بهما العرب والمسلمون. كما أن ملايين المسلمين الذين نزلوا إلى شوارع العالم الإسلامي لنصرة الانتفاضة وللدفاع عن قدسية الأقصى كانوا مسلمين عاديين, ويصعب حصرهم في تيار الإسلام السياسي. وكان أولى بمن يعدون الدراسات والأبحاث أن ينصحوا أصحاب القرار، بإنهاء الاحتلال لأراضي العرب والمسلمين, وبالكف عن العدوان عليهم، وأن ينبهوهم إلى أن الإسلام جوهر واحد، وهو في المحصلة دين يدعوهم إلى الحياة بأمن واطمئنان وتعايش مع الآخرين. ولكنه يدعوهم كذلك إلى الموت والشهادة حين يعتدي أحد على أرضهم وأمنهم وحريتهم وحضورهم. إن تدخل الغرب في الإسلام ودخول الشركات الأميركية إلى ميادين الفقه الإسلامي، ودعم بعض الحركات المتطرفة لتشويه صورة الإسلام ـــ كما حدث في تجربة

القاعدة وطالبان ــ سيسيء إلى صورة الإسلام حقاً وسيسيء إلى الغرب كذلك، حــين ينقلــب السحر على الساحر.

٢٠٠٥/٧/٨

أحكام بلا أدلة

أثارني عنوان مقال السيد توماس فريدمان "أين صوت الإدانة الإسلامية؟", الذي نشـرته "وجهات نظر" وفيه تعليق على تفجيرات ميترو الأنفاق في لندن. فالعنوان يوحي بأن المسلمين راضون عن العملية الإرهابية، ولو أن كاتب المقال صحفي آخر غير السيد فريدمان ممـن لا يعرفون حقيقة موقف المسلمين وعلمائهم لعذرنا جهله وعدم متابعتـه لمئـات الفتـاوى التـي أصدرها كل فقهاء ومفكري ومثقفي المسلمين، وقد أعلنوا فيها براءة الإسلام من أيـة جريمـة إرهابية ترتكب باسم الدين. لقد تجاهل السيد فريدمان سيل الإدانات الإسلامية الشعبية والرسمية والفقهية لجرائم الإرهاب. وقد صدرت كما يعلم من الأزهر الشريف ومن المرجعيات الإسلامية الكبرى في مصر وسوريا والسعودية وفي كل الدول المسلمة. بل سمعها فريدمان بنفسـه مـن العلامة القرضاوي حين زاره وأجرى حواراً معه. ولا بد أنه قرأ فتاوى الشيخ الجليـل سـعيد رمضان البوطي والعلامة الكبير الراحل الشيخ أحمد كفتارو، فضلاً عن فتاوى مجـامع الفقـه الإسلامي والجامعات الإسلامية والمعاهد الشرعية، ولابد أنه يتابع مقـالات كبـار المفكـرين المسلمين الذين يستنكرون كل يوم أن يستخدم أحد الإسلام ستاراً لجريمة قتل، بل إنهم يـدينون ما يحدث من جرائم في العراق باسم المقاومة. والمؤسف أن الإعلام الغربـي يتجاهـل هـذه الإدانات، ويركز على بعض ما تنشره مواقع مشبوهة على الانترنت، يكتب فيهـا مدسوسـون على الإسلام، ويتبنى بعضهم باسم الإسلام هذه العمليات الإرهابية كما فعل ما يسـمى جنـاح القاعدة في أوروبا أو كما فعلت كتائب أبي حفص التي يبدو أنها تسـتخدم مواقـع للانترنـت خارجة عن نطاق مزود الخدمة الذي تديره شبكة واضحة العنوان في الولايات المتحدة بوسعها أن تعرف مصدر ومضمون كل "إيميل" يرسله شخص لآخر بين شرق الأرض وغربها. وأرجو أن يوضح لنا مختص بمواقع الانترنت سر عجز الاستخبارات عن كشف مواقع القاعدة العلنية على الشبكة. كما أرجو بالمناسبة أن يوضح لنا مختص آخر سر عجز المخابرات الدولية عـن ضبط مصادر الأشرطة الصوتية والسمعية التي كان يوجهها ابـن لادن أو الظـواهري عبـر قنوات تلفزية شهيرة كلما احتاجت الإدارة الأميركية إلى تخويف الشعب الأميركـي وتصـعيد اهتمامه واستجداء دعمه. والحقيقة أنه لم يعد خافياً على أحد من المسلمين أن المدسوسين علـى الإسلام ممن ينتحلون أسماء وهمية مثل أبي حفص وأبي حمزة وأبي قتـادة وأبـي مصـعب وسواهم من الآباء هم موظفون لدى جهات مجرمة تنظم وتمول الجرائم الإرهابيـة وتسـتخدم عملاءها لإلصاق التهمة بالعرب وبالمسلمين. والمؤسف أن القادة السياسيين يتجنبون مواجهـة الأسئلة الحادة التي تؤكد وجود اختراقات خطيرة في أجهزتهم الأمنية لا تقدر عليها إلا جهـات

دولية لها من النفوذ في أوروبا وأميركا ما يمكنها من فعل ما تريد دون أن يجرؤ على مساءلتها أحد. ونلحظ أن بعض من يعرفون الحقيقة لا يجزمون ولكنهم يوحون بـأن المسـؤولية علـى المسلمين حتى وإن لم تكن هناك أدلة. وها هو السيد فريدمان يقرر مسؤولية المسلمين لمجـرد احتمال أن تكون العملية جهادية انتحارية. وهو يقرر ذلك لأن العملية تحمل بصمة القاعدة كما يقول. وأنا لا أبرئ القاعدة رغم شكي باستمرار وجودها حتى الآن، فقد تكون القاعدة فرخـت أنصاراً وأزلاماً لها دربتهم الجهات نفسها التي دربت الأفغان العرب.بعض هؤلاء أقاموا سنين طويلة في بلاد الغرب يتقاضون مرتبات من استخبارات غربية وكانوا ينشـطون علنـاً منـذ الثمانينات وعلى مدى التسعينيات ويظهرون باستمرارعلى فضائيات أوروبية وأميركية يدعون فيها إلى محاربة الكفار, ولم يسائلهم أو يوقفهم عند حدهم أحد. أتساءل عن مواصفات بصـمة القاعدة التي تحدث عنها الكاتب؟ فهل المقصود بها العبقرية الخارقة التي تمكن بها أبوحفص أو سواه من "الأبوات" من تهيئة أطنان من المتفجرات في قلب العاصمة الكبرى لندن، في غفلة عن كل الحراس والشرطة والمارة، والتي استطاع بها اختراق كل النظم الأمنية، تماماً كمـا فعـل تسعة عشر عبقرياً اخترقوا الولايات المتحدة وسيطروا على المطارات الأميركية وتمكنوا وهم هواة طيران شراعي أن يتعلموا قيادة "البوينج" في خمس دقائق مستخدمين كتاباً بالعربية نسـوه في سيارة على باب المطار, ومع ذلك حلقوا بدونه في سماء نيويورك وواشنطن ببراعة مذهلة, اعترف كبار الطيارين الأميركان المحترفين أنهم يعجزون عنها. والغريب أن عبقرية المنفذين لم تجد حلاً عبقرياً لمهمة تصوير العملية, فقد اضطر المنفـذون للاسـتعانة بفريـق تصـوير محترف من إسرائيل، واستأجروا سيارة نقل تلفزيونية من شـركة أميركيـة وقـاموا بنصـب الكاميرات قبل أربعة أيام من العملية. وحين ألقي القبض عليهم قام عمـدة نيويـورك آنـذاك بإيصالهم إلى طائرة "العال" ليعودوا إلى إسرائيل وقد نفذوا التصوير بمستوى عال. إنني أشـك في كثير مما أرى على شاشات التلفزة وبما أسمع أو أقرأ من أخبار. وحسبي تأمل ما حدث منذ مقتل الشهيد الحريري وما تبع ذلك ضمن سيناريو الحملة المضادة لسوريا وقد اقتضـى قتـل بعض السياسيين والصحفيين لإثارة الشعب اللبناني وتوجيهه عبر الإعلام المتربص إلى اتهـام سوريا والحكم عليها بلا أدلة. وهدف الحملة على السوريين واضح ومعلن وهو إبعادهـا عـن لبنان لإنهاء قوة المقاومة فيه، وإعادته إلى ساحة صراعات طائفية ومذهبية، ومن ثم إضـعاف سوريا وإنهاء دورها القومي، وإجبارها على التنازل عن حقوقها المشروعة لصالح إسـرائيل, وهو ما ستخفق القوى المعادية لسوريا في تحقيقه إن شاء الله، كما تخفق اليـوم فـي تحقيـق أهدافها في العراق. لقد أصبح توجيه الاتهامات والأحكام بلا أدلة تقليداً سياسياً شرعته الولايات المتحدة منذ أن وقعت جريمة سبتمبر، والولايات المتحدة توجه اليوم إلى سوريا سيلاً من التهم

دون أن تكلف نفسها عناء تقديم الأدلة. فهي تتهمها بالسماح بتسلل إرهابيين إلى العراق، وتتهمها بالمسؤولية عن الاغتيالات التي حدثت في لبنان بل لقد اتهمتها مؤخراً بالمسؤولية عن تأخر إعلان تشكيل الحكومة اللبنانية الجديدة، ثم اتهمتها بحصار لبنان لمجرد أن سوريا أرادت أن تحمي نفسها من تسرب المتفجرات إليها بعد سيل من التهديدات من الحاقدين عليها، وبعد أن ضبطت أجهزة الأمن عناصر تخطط للقيام بالتفجيرات. وكل الدول في العالم تفعل الشيء ذاته حين تشك بوجود خطر يهدد أمنها، بل إن الأميركان بالغوا في تفتيش العرب واحتجازهم في المطارات بعد أحداث سبتمبر لمجرد التأكد من أنهم لا يحملون في ملابسهم الداخلية أحزمة ناسفة. وبالعودة إلى مقال السيد فريدمان وإيحائه باتهام المسلمين بتفجيرات لندن التي لم يعد أحد ينتظر الأدلة كي يقتنع بأن المسلمين هم المجرمون الفاعلون فيها، فإن المأساة الراهنة هي أن العرب والمسلمين باتوا مجبرين على ابتلاع الطعم وعلى قبول المسؤولية عن أية تفجيرات إرهابية تحدث في العالم كله لأن رفض التهمة سيبدو وكأنه دفاع عن القاعدة وتبرئة لها، بينما يعني قبول التهمة والاعتذار عنها وقوفاً مع الحملة الدولية على الإرهاب الذي أصبح في نظر العالم إرهاباً إسلامياً محضاً. وليس بوسع أحد من العرب أو المسلمين أن يقول لقادة الغرب, نرجوكم أن تطلعونا على مجريات التحقيق كي نتأكد من أن أبناءنا العرب والمسلمين هم المجرمون حقاً، مع أنه من حق العرب والمسلمين أن يطالبوا بتحقيق دولي على غرار التحقيق الذي يتم حول جريمة مقتل الشهيد الحريري، فليت الأمم المتحدة تسارع لتشكيل لجنة تحقيق دولية للتأكد من حقيقة اتهام العرب والمسلمين. نحن في أمس الحاجة إلى التأكد بعد أن أرهقنا الشك بمصادر الإعلام الغربي والعربي معاً. ويزيد من ألمنا أننا نحزن لما أصاب الشعب البريطاني وفي الوقت ذاته يدفع أبناؤنا من الجاليات المسلمة في الغرب أثماناً باهظة لجرائم هم غير مسؤولين عنها. وينبهنا السيد فريدمان إلى ذلك في قوله "إن كل مسلم سيصبح مشتبهاً به وسينظر إليه على أنه قنبلة بشرية تمشي على قدمين"

٢٠٠٥/٧/٢٢

ما بين سوريا ولبنان

لعل أجمل ما يمكن أن توصف به العلاقة بين سوريا ولبنان هو قول نزار قباني "اعتيادي على غيابك صعب، واعتيادي على حضورك أصعب". وهذا ما حدث بين سوريا ولبنان حيث لم يكن الغياب أقل صعوبة من الحضور. وقد قرأت سخرية أحد الكتاب اللبنانيين من قول السوريين إن علاقة سوريا ولبنان محكومة بالجغرافيا وبالتاريخ فقد قال معلقاً:... فلمَ لا تكون العلاقة بين سوريا وتركيا محكومة كذلك بالجغرافيا وبالتاريخ؟. وقد فاته أنها محكومة بهما حقاً وهذا ما يفسر التواصل الحميم القائم بين سوريا وتركيا وقد تسامى فوق كل المشكلات. ولكن صلة سوريا بلبنان أعمق من أية صلة أخرى بين بلدين جارين لأن الشعبين أبناء أسرة عربية واحدة، وقد كان لبنان على مر الزمان (وحتى قبل أن تصير سوريا الكبرى بلاد الشام) قطعة من نسيج المنطقة المتوحد, لغة وثقافة تشمل بلاد الرافدين معه، وهي بلاد سكنها العرب قبل ظهور الإسلام بقرون عديدة، خلاف ما يزعم بعض المستشرقين الذين يروجون أن العرب جاؤوا مع الفتوحات الإسلامية من شبه جزيرة العرب واحتلوا سوريا. فحقيقة ما حدث أن المسلمين جاؤوا لتحرير سوريا من الاحتلال البيزنطي, وهذا لا ينفي وجود شعوب غير عربية في سوريا، بعضهم اعتنق الإسلام واندمج في الحياة العربية، وبعضهم ما يزال محتفظاً بخصوصيته العرقية والثقافية التي تعهد العرب المسلمون بالحفاظ عليها والدفاع عنها. ولم يفرق الدين الجديد بين أبناء الأسرة العربية الواحدة قط. ففي معركة اليرموك وقف المسيحيون العرب من الغساسنة إلى جانب إخوتهم العرب المسلمين وطردوا معهم المحتلين البيزنطيين، وبقي الغساسنة وسواهم من المسيحيين العرب على دينهم إلا من شاء الدخول في الإسلام. وقد احتضنت المسيحية العربية الإسلام منذ ظهوره. وحين فتح معاوية بن أبي سفيان لبنان، حافظ على خصوصية جبل لبنان. وكان للمسيحيين العرب مكانة رفيعة في الحياة السياسية والثقافية في الدولة الأموية الناشئة. وفي مرحلة لاحقة في العصر العباسي اتسع هذا الدور وكبر. وحين انهارت الدولة العربية وتعرضت لغزوين في آن واحد هما الغزو المغولي والصليبي, وقف المسيحيون العرب مع بني قومهم، وما يزال مسيحيو الغرب يستغربون وقوف المسيحيين العرب مع المسلمين تحت لواء صلاح الدين في حرب حطين وما بعدها. وقد عاد الغرب إلى التدخل في المنطقة باسم الدين لإحداث شرخ في الأسرة العربية مستغلاً غياب التوازن في العلاقة مع العرب جميعاً خلال الفترة العثمانية. وراح يذكي نيران الفرقة بين الطوائف والمذاهب، فكانت فتنة ١٨٤٠ – ١٨٦٠ في لبنان. وقد انتهت باتفاقية اسطنبول التي قضت باستقلال جبل لبنان. وكبر التدخل الإيطالي والفرنسي والبريطاني والروسي والنمساوي حتى

التحق الجبل بالثقافة الأوروبية. وقد استمر الحال حتى وقع لبنان تحت الانتداب الفرنسي عــام ١٩٢٠ حيث عمقت فرنسا إلحاق الجبل بثقافتها. وقد تبدل الحال قليلاً بعد الاستقلال حــين تــم اتفاق لبناني ضمني على الحفاظ على وحدة لبنان وعلى الانتماء إليه، بما يعني تخلي الجبل عن الولاء للغرب مقابل تخلي الأقضية الأربعة الشهيرة عن المطالبة بالوحــدة أو الانضــمام إلــى سوريا. وفي فترة الصعود القومي الوحدوي السوري المصري أوشك التفاهم أن يختل, فعــادت الفتنة في لبنان في أواخر الخمسينيات، وتم إطفاؤها عبر اتفاق ضمني جديد سرعان ما زعزع توازنه تنامي الحضور الفلسطيني المقاوم في لبنان مطلع السبعينيات. ولقد كانت سوريا حريصة منذ الاستقلال على استمرار الاستقرار في لبنان على صيغة التوافق أو الميثاق الوطني الذي تم في عام ١٩٤٣ لخوفها من عودة النفوذ الأوروبي إلى المنطقة، ومن إعادة تســييس الطوائــف لصالح الغرب. وأحسب أنه لولا التدخل السوري عام ١٩٧٦ لكان هناك تدخل غربي كما حدث عام ١٨٦٠. وقد أدرك العرب جميعاً خطورة غياب التوازن ولهذا أجمعوا على أن تقوم سوريا بردع من يخل بالميثاق ويمنح الغرب ذريعة التدخل. وقد أقر المجتمع الدولي كله مهمة سوريا التي بذلت دماء أبنائها كما بذلت مالاً وجهداً ضخماً للحفاظ على التوازن لصالح لبنان بما بــدا أحياناً وكأنه ليس لصالحها أو ليس منسجماً مع مبادئها. فقد كانت سوريا تقف ضد كــل مــن يزعزع الاستقرار والوحدة الوطنية. ومن لم يدرك طبيعة المهمة السورية لن يفهم ما قد يبــدو تناقضاً في مواقفها. فقد كانت تنقل خنادق تحالفاتها بما يضمن ردع كل من يخرج عن التوافق ومن يهدد الاستقرار. وهي لم تتحالف مع أحد بدوافع طائفية أو مذهبية. ولم يكــن ممكنــاً أن تحظى سوريا بإجماع في لبنان، لكن التاريخ سينصف المهمة القومية الكبرى التــي أنجزتهــا سوريا وسينصف موقفها من الشهيد الحريري الذي لقي تأييداً ودعماً كبيراً منهــا علــى مــدى سنوات رئاسته للحكومات اللبنانية. ولم يكن الخلاف في وجهات النظر في المرحلــة الأخيــرة مستعصياً على الحل، بل لقد بدأ الحل كما بات معروفاً وكان الحريري يستعد لزيــارة ســوريا ولكن المجرمين الذين يخططون منذ أمد بعيد لإنهاء مقولة المسار الواحد والمصير المشــترك، اصطادوا لحظة مضطربة وسارعوا لقتل الحريري، لكي يتهموا سوريا بقتله, فيتدخل الغــرب من جديد ويعود إلى تمزيق الأسرة العربية الواحدة. كانت المفارقة أن الذين أطلقــوا عاصــفة الحقد على سوريا هم النخبة التي كان بعضها في مواقع السلطة والمسؤولية قبل حين. وأنــا لا أعترض على نقمة اللبنانيين على الفساد أو على الظلم حين يقع، ولكن كان عليهم ألا يعممــوا شعور الحقد على كل سوري، لأن ما يكرهونه من السلوك السيئ هو ذاته ما يكرهه السوريون جميعاً. لقد كان من سوء حظ سوريا ولبنان أنهما لم يتمكنا من إقامة علاقة متكافئة تماماً، فقــد كان الحضور السوري بوصفه عسكرياً يستدعي الشعور بالقوة لدى بعض السوريين، ويستدعي

بالطبع شعوراً بالضيق من بعض اللبنانيين. الحضور اللبناني في حياة السوريين كان اقتصادياً، وقد طغى في السنوات العشر الأخيرة على الحضور العسكري السوري. وبــدا كــأن ســوريا تتقرب إلى لبنان بمنافع اقتصادية. ولم يكن الحضور العسكري أو الاســتخباراتي قمعيــاً كمــا صور الإعلام اللبناني الذي أطلق نيران الحقد على سوريا، وقد شهدت بنفسي كيف يتم التعامل مع السياسيين اللبنانيين وما يلقون من فيض المحبة والمودة وما بنوا من صداقات عريقــة مــع كبار الضباط وكبار المسؤولين السوريين. وهذا لا ينفي وجود خلل مثير هنا أو هناك لكن سيل المبالغات أذكى مشاعر خاطئة عند بعض اللبنانيين، حتى وصل الأمر إلى البينونة الكبرى التي لم تكن في صالح البلدين، وكان لابد من أن تنتصر الحكمة والروية على الانفعال والنزق. وهذا ما يجعلنا نشعر بالارتياح للبيان الذي صدر بعد زيارة الرئيس السنيورة إلى دمشق ونتمنــى أن يجد البلدان الشقيقان حلولاً أخوية وعملية لكل المشكلات بما يحقق مصالح الشــعبين، ويفــوت على الحاقدين عليهما ذريعة تمزيق الأسرة العربية وزعزعة أمنها واســتقرارها ولا ســيما أن صقور الغرب لا يخفون مشاريعهم، بل هم يعلنون أنهم يسعون إلى إغراق المنطقــة العربيــة بالفوضى, وهذا ما فعله المجرمون عبر سلسلة الاغتيالات التي أرادوا أن تكــون بــذور فتنــة جديدة تتيح لهم التدخل العسكري المباشر. إنني واثق من أن الذين راهنوا على القطيعــة بــين سوريا ولبنان وسعوا إليها سيخسرون الرهان، وعليهم أن يتذكروا أن النهضة العربية القوميــة انطلقت من سوريا ولبنان منذ أواسط القرن التاسع عشر. وقد بات من المفارقــات أن يناضــل العرب على مدى سنوات القرن العشرين كي يتخلصوا من حدود سايكس وبيكو، ليبدأوا القــرن الحادي والعشرين بنضال جديد لترسيخ اتفاقية سايكس وبيكو.

٢٠٠٥/٨/٥

نحو إعلام عربي بديل

يشكل الإعلام الخاص تحدياً متصاعداً للإعلام الرسمي في العديد من الدول العربية التي باتت تشعر بإخفاق إعلامها وعجزه عن المنافسة، وهي تدرك أن شروط التنافس غير متكافئة، فالإعلام الخاص يمتلك حرية كاملة في التعبير ومرونة إدارية وميزانيات كافية، بينما يكبل الإعلام الرسمي بالقيود القانونية الإدارية والمالية التي يصعب التحرر منها، كما أنه ملزم بالتعبير عن رؤية سياسية أحادية، وكثيراً ما يتم اختيار قياداته بمواصفات غير مهنية، كما أن التوظيف العام فيه لا ينطلق من تلبية الاحتياجات الفنية بمقدار ما ينطلق من احتياجات الدولة لإيجاد فرص عمل للخريجين الجدد. ومنذ أواخر الثمانينيات حيث شهد العالم مرحلة التغيرات الدولية الكبرى التي جسدها انهيار الاتحاد السوفييتي والدعوة الأميركية إلى نظام دولي جديد، وما رافق ذلك من ترويج لفكر وثقافة العولمة التي عززتها ثورة الاتصال والمعلوماتية، منذ ذلك الحين بدأت الدول العربية تستشعر خطر بقاء إعلامها الرسمي في حالة سكونية، وأدركت أنه غير قادر بمواصفاته الراهنة على مواكبة هذه التغيرات وعلى الاستجابة الإيجابية للمستجدات، وقد بات عاجزاً عن تحقيق الحد الأدنى من التفاعل مع المتلقي. ولم تكن الحكومات العربية قادرة على إحداث هزات فورية تقلب أسس الإعلام ونواظمه الساكنة، وتُحدث فيه ثورة قد تأتي غير ناضجة سياسياً، ولهذا سارعت بعض الدول العربية إلى مواجهة المشكلة وحلها خارج الحدود حين أقدمت على صنع إعلام بديل مستعينة بلبوس القطاع الخاص. وقد ظهرت في أوائل التسعينيات أولى القنوات الفضائية العربية التي تبث من أوروبا متحررة من قيود الإعلام الرسمي، وقد زاد نجاح هذه القنوات من حجم التحدي أمام الإعلام الحكومي الذي دخل ساحة منافسة بشروط غير متكافئة. وكانت الحكومات العربية قد استجابت للتحديات ضمن إطار قدراتها المالية أو رؤيتها السياسية أو مرونتها الإدارية في اتخاذ القرار، فقد تمكنت المملكة العربية السعودية من تأسيس ما يشبه إمبراطورية إعلامية عبر شبكة من الأقنية التلفزيونية والصحف والمجلات الخاصة، بينما اتجهت مصر، وهي العاصمة التاريخية للفن والإعلام العربي، إلى تقوية البنى التحتية للإعلام المصري، فكانت مدن الإنتاج التلفزيوني الضخمة، وكان مشروع القمر المصري "نيل سات"، وبعيد منتصف التسعينيات فجرت قطر سواكن بحيرة الإعلام العربي حين أطلقت قناة "الجزيرة"، وبدأت بعض الدول العربية تتخلى عن وزارة الإعلام لتمنح وسائل الإعلام صفة الخصوصية. ولكن الأقنية الرسمية لم تتمكن من المجاراة إلا في بعض القنوات التي وازنت بذكاء وإتقان بين التبعية الحكومية والتحرر من القيود الحكومية، وأعتقد أن تلفزيون أبوظبي الحكومي قدم حالة شبه استثنائية بين القنوات العربية فيما حقق من

نجاح في الاستفادة من شروط القطاع الخاص مع الإبقاء على السمة الرسمية. وكانت سورية قد نجحت منذ مطلع الثمانينيات في تحرير قطاع الإنتاج الدرامي من القيود والروتين الإداري، وقد أتيح لي أن أعايش تلك التجربة من موقع المسؤولية، حيث قام التلفزيون السوري بدعم القطاع الخاص وتمكينه من تأسيس لجنة خاصة لصناعة السينما والتلفزيون، وقد لقيت دعماً حكومياً كبيراً مكنها من تحقيق قفزة إنتاجية أتاحت للدراما السورية أن تنطلق إلى مستويات فنية عالية ورواج تجاري ناجح. ولقد كان حرياً أن يستفيد الإعلام السوري ذاته من تجربته الرائدة في تحرير قطاع الإنتاج التلفزيوني، وأن يحقق ذات الشروط لكل فعالياته، لكن الأمر لم يكن سهلاً لأن للإنتاج الدرامي سوقاً اقتصادية، بينما ما تزال بقية أنشطة الإعلام ذات صفة خدمية. وقد جاءت استجابة بقية الدول العربية للتحدي متفاوتة بين نجاح مبهر وبين سكونية قلقة أو تحفز للانطلاق، وتجسد مدينة دبي الإعلامية حالة من النجاح والتفوق تتجاوز التوقع، فقد وصل عدد المؤسسات الإعلامية القائمة في مدينة دبي نحو تسعمائة وثلاثين مؤسسة بينها أكثر من اثنتين وأربعين قناة فضائية على ما أعلم. وتجربة دبي فريدة في الوطن العربي، فقد تمكنت من تحقيق الهجرة المعاكسة للإعلام العربي المهاجر، وتمكنت من استقطاب إعلام أجنبي يجد في الوطن العربي نافذته إلى العالم كله، وأتوقع أن تستفيد الحكومات العربية من تجربة دبي لإيجاد إعلام بديل أو رديف للإعلام الرسمي خارج القيود الروتينية والسياسية. إن أخطر المشكلات التي يواجهها الإعلام الرسمي هي فقدانه للحرية والحيوية في اتخاذ القرار، ومطلب الحرية ليس غائماً أو مطلقاً، فالحرية المطلوبة هي حرية مسؤولة تأخذ في الحسبان ضرورة الحفاظ على الثوابت والقيم العامة، وتتحرر من مواصفات شكل الخطاب الرسمي والمسؤولية الحكومية المباشرة عنه، فالقيد الأكبر الذي يكبل الإعلام الرسمي هو لزوم ما لا يلزم من مسؤولية عن كل كلمة تُكتب في الصحافة أو تُبث في الأقنية الإذاعية والتلفزيونية الرسمية واعتبارها مُعبرة بالضرورة عن رأي الدولة. وقد تبدو مغامرة أن يُعطى الإعلام الرسمي حرية التعبير خارج قيود المسؤولية الحكومية، فقد تتسرب إلى المؤسسات الإعلامية آراء تناقض الثوابت، أو تقدم خطاباً لا ينسجم مع التوجه الرسمي أو الشعبي، وقد يسف بعض الإعلاميين أو يتجاوزون حدود المسؤولية، ولكنني أعتقد أنه لابد من خوض غمار هذه المغامرة، ومعالجة نتائجها بصبر وحلم وروية حتى تنضج التجربة ويتمكن الإعلام الرسمي من التمرس والارتقاء إلى أداء متوازن وفهم مسؤول للحرية. لقد اتُّهم اعلامنا الرسمي العربي بأنه يستخدم لغة خشبية في خطابه السياسي، وقال آخرون عنه إنه أسوأ محام لأعدل قضية، ويبدو لي أن سبب هذا الانطباع السيئ لدى بعض المتلقين يتعلق بالشكل أكثر مما يتعلق بالمضمون، فلو تأملنا مفردات هذا الخطاب لوجدنا أنه يتمسك بثوابت الأمة وقيمها على صعيد الخطاب العام ويعلن العروبة بديلاً

عن العولمة، ويؤكد على الحوار بين الثقافات بديلاً عن الصراع، ويدعو إلى نبذ العنف ويحارب الإرهاب، ويفرق بينه وبين المقاومة المشروعة للاحتلال، ويدعو إلى الاعتدال والوسطية في الفكر والدين، ويدعو إلى تمكين المرأة، إلى آخر ذلك مما يتفق عليه الرأي العام. ومع ذلك نجد الرأي العام يشكك في نجاح هذا الخطاب، ويدعو إلى تجديده وتحديثه، وهذا ما يؤكد أن المشكلة تبدو في الشكل أكثر من كونها في المضمون، وتؤثر في سمات الشكل اللغة الإخبارية الغالبة، والتي تبدو لغة قرار وليست لغة حوار، ويضعف من حميمية الخطاب غياب التنويعات السياسية التي ينبغي أن تُعنى بالآراء الأخرى وألا تتجاهل ما لا يتفق معها. وإذا كان مطلوباً من الإعلام الرسمي أن يجد البديل عن واقعه القاسي على صعيد الشكل كأولوية، فإن الإعلام العربي الخاص في جله بات مطالباً بأن يجد البدائل على صعيد المضمون، فقد باتت بعض القنوات الإخبارية والسياسية الخاصة متهمة عند كثرة من المتلقين بأنها تسعى إلى الإثارة أكثر مما تسعى إلى الحقيقة، وبوسع الباحث أن يجد الأدلة على هذه التهم إذا ما قام بفحص مضمون الرسالة الإعلامية لبعض البرامج الشهيرة، كما أن بعض القنوات السياسية تردد عن علم أو غير علم ما يقوله الإعلام الغربي وتبدو كأنها مجرد صدى له. ويصعب على الحكومات العربية أن تحدث تغييراً جذرياً في إعلامها الرسمي، لأن الإعلام فيها مثقل بالأعباء الاجتماعية قبل السياسية، فلا أحد يستطيع تسريح المئات من الموظفين الذين يشكلون ترهلاً في جسد المؤسسات الإعلامية، ولا أحد يستطيع أن ينفخ روحاً إبداعية لدى مئات الموظفين الذين قد يصلحون لأي عمل آخر لا يحتاج إبداعاً ولكنهم إعلاميون بالتواتر وبقوة الحضور الإداري، وليس بوسع الحكومات منح الحرية المطلقة للإعلاميين عامة، وما أشير إليه هو بعض من المشكلات العملية التي يواجهها المسؤولون، وقد بات إصلاح وتطوير الإعلام الرسمي هماً وهاجساً حكومياً لدى البلدان العربية بخاصة، لأنها تدرك جيداً خطورة حرب الصورة، وأهمية دبلوماسية التلفزيون، وأرجو ألا يفهم من حديثي عن نجاح الإعلام الخاص بأنه تعميم، فليست كل القنوات الخاصة ناجحة، وليس كل الإعلام الرسمي مخفقاً على الإطلاق، وحسبنا دليلاً فشل القنوات الأميركية في تحقيق ما كانت تتوقعه من نجاح واستقطاب في الساحة العربية والإسلامية.

٢٠٠٥/٨/١٩

عصر الأكاذيب في السياسة والإعلام

بات الوصول إلى الحقيقة أمراً صعباً في عالم يضج بالأكاذيب التي وجدت منابر ضخمة لها عبر ما وفرته ثورة التقنية والاتصالات من فضائيات وصحف ومواقع أنترنت تملأ أرجـاء الدنيا بالأنباء والأشرطة والصور، وتديرها عقول ماهرة متخصصة في فن الإقناع والتـرويج الذي هو علم كذلك يستفيد من شكلانية الحقيقة دون مضامينها، ويقوم بصناعة تجميلية وتقنيـة للشبهات حتى تصير بديلاً عن الحقائق وسرعان ما تتلقفها أذرع الأخطبوط الإعلامي لتنشـرها في العالم كله، واحذر إن كنت ممن يحرصون على التدقيق والتحقق من أن تشـك بمصـداقية الأكذوبة، فقد تواجهك تهمة جاهزة هي أنك من فريق عقلية المؤامرة المتخلف والعـاجز عـن قراءة العصر واكتشاف حقائقه. وصناعة الأكاذيب عريقة جداً في الإعلام الغربي والصهيوني، وقد سمى "جور فيدال" عصر الأكاذيب (العصر الذهبي) وهو عنوان كتابه الذي يفضـح فيـه ثلاث أكاذيب كبرى غيرت مجرى التاريخ في منتصف القرن العشرين، وهي أكذوبـة بيـرل هاربر، وأكذوبة هيروشيما، ثم أكذوبة الحرب الباردة. وفيض الأكاذيب يتدفق اليـوم، ونحـن ندرك مع "كيفين فيليب" صاحب كتاب (سلالة أميركيـة) أن التـداخل بـين السياسـة العامـة والمصالح الشخصية بات عملاً إجرائياً ومعيارياً في الإدارة الأميركية، ولسنا نشكو من خطـر ذلك بأكثر مما يشكو الأميركان أنفسهم. وحسب القارئ أن يتأمل عناوين بعض الكتـب التـي اشتهرت في الولايات المتحدة وهي تحاول مناهضة الأكاذيب، ومنهـا كتـاب (ثمـن الـولاء) لـ"رونسا سكيند"، وكتاب (بوش المهزوز) لـ"مـولي إيفنـز"، وكتـاب (أكاذيـب كبيـرة) لـ"جوكوناسون"، وكتاب (أكاذيب بوش) لـ"ديفيد كورن"، وغيرها كثير مما حفلت به المكتبات عدا ما ظهر في أوروبا وفي بريطانيا. فقد طفح كيل الأكاذيب ولم يعد الكتـاب والصـحفيون الغربيون الشرفاء يستطيعون هضم وجبات الإعلام المسمومة، بل إن كثيرين أصيبوا بالتسـمم وبعضهم قتل نفسه كما فعل (ديفيد كيلي) خبير الأسلحة البريطاني الحكومي لأنه كان مصـدر المعلومات التي اعتمد عليها فيلم (البي بي سي) الشهير عن التقارير الأمنية الملفقة. وبعض من تورط وقال الحقيقة واجه السجن كما حدث لـ"كـاترين جـن" التـي كشـفت تجسسـاً علـى الدبلوماسيين في الأمم المتحدة. أما "جوزيف ويلسون"، فقد دفعت زوجته "فاليري بـلام" ثمـن كشفه زيف الادعاء بأن صدام حصل على يورانيوم من النيجر. ولعل من الطرائف أن يكشـف الإعلام ذاته أكاذيبه، فقد اعترف إعلاميون أميركان بأن فيلم العثور على صدام في حفـرة تـم تصويره لاحقاً وقد لعب صدام دور الأسير، وأطرف من ذلك قول ساجدة الذي ردده الإعـلام الكاذب ذاته (إن الذي وراء القضبان ليس زوجي). وفي مقالة طريفة لـ"نعومي كلاين" إشـارة

فاضحة إلى أن ثمانين في المئة من متابعي قنوات إمبراطورية "ميردوخ" كانوا يعتقدون أن لدى صدام أسلحة دمار قبل أن يسمعوا اعترافات "باول" على القنوات الفضائية الأميركية وهو يبدي أسفه أمام الشعب الأميركي لنقله أكاذيب لمجلس الأمن لفقتها المخابرات الأميركية. ويبدو أن تقديم الاعتذار هو الحقيقة الوحيدة التي يقدمها الإعلام الصهيوني بعد انتهاء فاعلية الأكذوبة، وهذا لا يعني أن كل الصحافيين الأميركان متورطون بالكذب، فكثير منهم يصرخ، وقليل منهم من تجد صرخاته صدى، فإن وجد فسينال الاحترام الذي ناله "سيمون هيرش" الذي فجر حقيقة "أبو غريب"، وسيسخر من رجال فقدوا هيبتهم بافتضاح أكاذيبهم، كما سخر "روبرت فيسك" من المحقق الدولي اللواء كينيث ديل الذي هلل لاكتشافه وثائق تقود إلى سر أسلحة صدام، وسرعان ما افتضح كون الوثائق المزعومة ترجمة لرواية تايلور (الكفاح من أجل الإتقان) مما دعا "فيسك" إلى أن يقول بأسى (كم من السخافات يراد لنا نحن الجمهور أن نبتلع؟). لقد أصبح الكذب السياسي والإعلامي جرثومة أخطر من جرثومة أكذوبة الجمرة الخبيثة، وأكاذيب الإعلام تنتقل اليوم بسرعة وتقنية عالية نحو سوريا التي حان دورها، وكانت جريمة اغتيال الشهيد الحريري الحدث التراجيدي الأخطر الذي يبدأ معه التصعيد، ومع بالغ احترامي للمحقق "ميليس" وفريقه الدولي، ولا سيما حين أصر على أن التفجير لم يحدث تحت الأرض كما رغب الباحثون عن اتهام سوريا وليس عن الحقيقة (وقد فضحهم الوزير سليمان فرنجية وأيده تقرير ميليس) إلا أنني أستغرب أن يفتعل المحقق اتهاماً لسوريا بعدم التعاون والكتب بين يديه تؤكد حرص سوريا على نجاح مهمته وعلى وصوله إلى الحقيقة، وأستغرب (من موقف شخصي) أن يوجه اتهام لنائب لبناني عروبي أصيل بأنه مشتبه به لمجرد أنه صديق لسوريا ومدافع عن عروبة لبنان. وأما حكاية أنه بعث كتاباً لسوريا يحرضها على التخلص من الحريري فهي فبركة مضحكة، وأحسب أن الأمر لا يعدو كونه تصفية حسابات مع رجل أصر على أن تستمر علاقة لبنان بسوريا طيبة ومتينة، وقد أحزنني أن يتهم الرجل بحبه لسوريا وكأنه وحده في لبنان من يحب سوريا، فإن كان حب سوريا تهمة فالمتهمون إذن هم الغالبية العظمى من شعب لبنان ممن خرجوا في مسيرة الوفاء. وأما وصفه بأنه كان وديعة سوريا عند الحريري فهذا الوصف يسيء للحريري الحر، الذي كان يحب ناصر ويقدره وقد ضمه لكتلته النيابية ضمن اعتبارات انتخابية وطنية رواها لي ناصر قبيل أسابيع معبراً عن إعجابه الكبير بالحريري وكنا نتحدث عن فجيعتنا المشتركة بغيابه وعن كون اغتياله اغتيالاً للعروبة في لبنان. والحريري كما يعلم الجميع هو من وثقت به سوريا على مدى سنوات رئاسته لحكومات متتالية، ومن السخف ادعاء بعض الإعلاميين الحاقدين بأن الحريري كان مرغماً على ادعاء المحبة لسوريا بينما هو يكن حقداً عليها وعلى من يحبها في داخله. ولو أن الحريري ينطق لصرخ في وجه هؤلاء

المزايدين وأعلن أنه سوري قبل أن يكون لبنانياً، فهو لم ينكر قط أن عائلة الحريري عائلة سورية عريقة رحلت إلى لبنان من حوران، ولم ينكر قط أن سوريا هي التي شجعته على الانتقال من عالم المال إلى عالم السياسة، ووثقت به، وهو لم يشكل حكوماته المتتالية رغماً عن سوريا، ولم تقبل به سوريا رئيساً لوزارات لبنان رغماً عنها، بل لقد كان الحريري أقرب إلى سوريا من أي لبناني آخر، والخلاف في الرأي في بعض المسائل السياسية ووجهات النظر أمر عادي، وحسب المدعين أن يتذكروا آخر ما كتبه الحريري في جريدة السفير، وأن يتذكروا زيارة السيد وليد المعلم له، وكانت تمهيداً لزيارته إلى دمشق، وقد قلت في مقال سابق أحسب أن الحريري كان هو الذي سيشكل الحكومة اللبنانية بتوافق سوري لبناني لولا أن يد الغدر سبقت إليه. ولن أعلق على توقيفات المشتبه بهم ما دام الأمر قيد التحقيق ولن نستبق نتائجه، وأنا أكتب مقالتي هذه قبل أن يعقد ميليس مؤتمره، ولا أعلم ماذا سيقول، وكل ما نخشاه هو أن نفقد ثقتنا بنزاهة التحقيق إذا اتجه إلى تنفيذ أهداف سياسية بدل الاتجاه إلى كشف الحقائق، ونخشى أن تستعيد ذاكرتنا تجارب المحققين السابقين في العراق، ونرجو من السادة الإعلاميين الذين يهللون لتوجه التحقيق نحو اتهام أصدقاء سوريا أن يدركوا خطر ما يحاك ضد سوريا ولبنان معاً، وخطر أن يكون هناك تكرار للسيناريو الذي تم تنفيذه مع ليبيا قبل سنين. وأجد مفيداً أن يتأمل القارئ ما قاله المفكر اللبناني الحكيم الرئيس سليم الحص حين ذكّر العرب بأن القوى الكبرى في العالم ذات مآرب في لبنان وفي غيره في منطقتنا، وأن روح الشهيد الحريري لن تكون راضية في عليائها عن أي تفريط بالوحدة الوطنية. وأضيف بأن روح الحريري سيفجعها أن تغتال بلده سوريا باسمه، فليتق الله في روح الحريري من يدعون محبته.

٢٠٠٥/٩/٢

فخاخ في طريق الأمة

كان الفخ الضخم الذي وقعت فيه الأمة مع مطلع القرن الجديد هو إلصاق جريمة ١١ سبتمبر بها، وقد ابتلعت الأمة الطعم، وبات عليها أن تدفع الديات سلسلة من التنازلات السياسية التي لا حدود لها، مع أنه لم يكن يغيب عن بال أحد، أن استراتيجية الغرب في القرن الجديد قضت بأن يكون الإسلام هو العدو الجديد، وأن يتم إبعاده من بلاد الغرب، وحصاره في موطنه. وكان لابد من إيجاد ذريعة ضخمة لذلك، ولم يستفد أحد من جريمة سبتمبر غير الصهاينة، حيث تمكنوا من تحويل موقف الولايات المتحدة من كونها راعية للسلام، وباحثة (كما أعلنت) عن حل عادل للصراع العربي الإسرائيلي، إلى طرف رئيس في الصراع، وقد حاول العرب والمسلمون أن يتجنبوا الصدام معها وناشدوها أن تقبل بالحوار بدل الصراع، وقبلوا الاعتراف بجريمة أبنائهم، دون أن يطالبوا بتحقيق دولي أو محاكمة، لأن الضعيف لا يملك أن يطلب أدلة من القوي، ولكن الولايات المتحدة أصرت على تصعيد الصراع. ثم كان الفخ الثاني الذي قبل به العرب هو حرب الولايات المتحدة على أفغانستان انتقاماً من شعب لا ذنب له فيما حدث، بل لم يوجه أحد إليه تهمة عن جريمة سبتمبر غير إيوائه لابن لادن الذي أرسلته الولايات المتحدة ذاتها إلى أفغانستان، ثم كان الفخ الأضخم استغلال كراهية العرب لصدام حسين ونظامه، لجرهم إلى الموافقة على احتلال الولايات المتحدة وحلفائها للعراق، وقد وجدها بعض العرب فرصة للخلاص من تهديدات صدام المستمرة لهم، ولم يكن الرافضون لحرب العراق محبين لصدام أو مشفقين عليه، ولكنهم كانوا يرون خطر ما سيحدث لشعب العراق حين يقع تحت الاحتلال، وخطر أن يمزق العراق إلى شيع وطوائف وقوميات، وأن يُسلخ وجهه العربي، وأن تستبيحه الصهيونية وتسرح وتمرح فيه، وخطر أن تتمركز الولايات المتحدة بقوة عسكرية ضخمة في قلب الوطن العربي. واليوم تواجه الأمة فخاً جديداً في جريمة اغتيال الشهيد الحريري، فقد تم توظيف الجريمة النكراء لتفتيت التلاحم بين سوريا ولبنان، ولإنهاء مقولة المسار الواحد والمصير المشترك، وقد نُصب الفخ بدهاء بارع واتهمت سوريا بارتكاب الجريمة على الفور، وقبل أن يصل شرطي إلى مكان الجريمة، لأن هدف الجريمة هو تمزيق اللحمة السورية ـ اللبنانية التي شكلت ممانعة قوية للمخطط الصهيوني. وقد جاءت الجريمة بعد أن فشلت كل الضغوط على سوريا ولبنان، فكان لابد من حدث كبير يخلط الأوراق ويقلب المائدة السورية ـ اللبنانية، ويهز مشاعر الناس، ويجعل سوريا وأنصارها في لبنان في موقع شك وريبة، في استغلال للحظة اختلاف في الرأي السياسي الراهن، التقطها القاتل ليوجه التهمة لسوريا رغم أن الاختلاف انتهى إلى توافق قبل وقوع الجريمة وهذا ما تشهد عليه

الحقائق، فقد كان الحريري يستعد لزيارة دمشق ولقاء الرئيس الأسد، ولكن خطة اغتياله سبقت ذاك اللقاء، وقطعت الطريق على مستقبل آمن ورحب يناضل من أجله قادة البلدين، وهم يواجهون قوى سياسية حاقدة نسيت انتماءها إلى العروبة، وراحت تبحث عن انتماءات وهمية للغرب، وتسعى لوضع لبنان تحت مظلة الفرنسيين والأمريكان، وقد ضخت في وسائل الإعلام طوفاناً من الحقد والكراهية لسوريا، على أمل أن تقنع اللبنانيين بأن عدوهم هو السوري وليس الإسرائيلي. والمفجع أن بعض اللبنانيين هاجت مشاعرهم الغوغائية ضد سوريا فقاموا بقتل العمال السوريين البسطاء، وتم الاعتداء على سيارات السوريين من الطلاب والعابرين، وكان يقود الحملة ضد سوريا شعباً ودولة سياسيون يدركون خطر ما يفعلون، ورغم ذلك كانوا يهتفون بمكبرات الصوت (توت توت سوريا عم بتموت) وكان مؤسفاً أن يكون حلمهم وهدفهم أن تموت سوريا. وقد ضبطت سوريا أعصابها وأبدى شعبها روية وانتظاراً لصحوة الضمير، وتقبل بامتنان مسيرة الوفاء التي شارك بها ملايين اللبنانيين الذين أدركوا خطر ما يحدث، وعبروا عن حرصهم على سوريا، واستنكارهم أن يستغل الحاقدون ما كان من أخطاء في علاقة مديدة وفي ظروف غير عادية. لقد كان استحضار الأخطاء في تلك اللحظة الفجائعية مبرمجاً، وقد زج به في مسار شائعات الاتهام، وبدأت ماكينة الإعلام الصهيوني أو المرتبط بالصهيونية تلفق الأخبار والأكاذيب، وبات واضحاً أن المطالبين بدم الحريري لا يبحثون عن قاتله، وإنما يبحثون عن إيقاع سوريا في فخ الجريمة، وعن تصفية حسابات شخصية، لأن الأكثرية ممن يسمون أنفسهم معارضين لسوريا كانوا قبل شهور أعوان سوريا، ولن يمنحهم ابتعادهم عن الحكم بضعة شهور ذريعة الادعاء بأنهم كانوا مضطهدين مظلومين، وفيهم تجار سياسة من الوزن الثقيل، رغم أنهم كانوا يسعون خفافاً إلى دمشق ويقحمونها في مشكلاتهم التي ضاقت بها سوريا ورجتهم أن يحلوا خلافاتهم بينهم. ولطالما أعلنت سوريا أنها تريد أن تكون خارج دوائر خلافات السياسيين اللبنانيين، وأعلنت أنها على مسافة واحدة من الجميع، وسعت إلى تعامل رسمي مع لبنان وعقدت الاتفاقيات من موقع الاعتراف الكامل بسيادة لبنان واستقلالية قراره، وكانت زيارة الرئيس بشار الأسد للبنان زيارة رسمية بكل المواصفات البروتوكولية، وكذلك كانت زيارة الرئيس لحود، رغم أن الشكل البروتوكولي لا ينفي خصوصية العلاقة بين البلدين. ولقد كان الشهيد الحريري أبرز القادة اللبنانيين الذين يحرصون على عروبة لبنان، وقد تابعت قبل يومين حواراً أجراه تلفزيون "المستقبل" مع سماحة السيد حسن نصر الله تحدث فيه عن علاقته الوطيدة بالحريري، وروى ما كان خفياً من دعم الحريري للمقاومة، وأشاد بحرصه على مواجهة أخطار تقسيم لبنان، واستغلال مخطط توطين الفلسطينيين ليكون ذريعة للعودة إلى خطط التقسيم، وإلى إنهاء حضور المقاومة السياسي،

والإسرائيليون لا يغيب عنهم خطر عروبة الحريري ودفاعه عن المقاومة. وليس خفياً على أحد أن الحريري يشكل دعماً قوياً لكل التوجهات السورية القومية، فلم يكن ثمة خلاف مع الحريري في شيء يمس الثوابت والقضايا المبدئية، وهذا سر حرص سوريا على أن يكون الحريري رئيساً لحكومة لبنان عدة مرات، فقد كان الرئيس الراحل حافظ الأسد يحرص على إنجاح مشروع الإعمار الذي مضى فيه الحريري، وكان عجيباً أن يفبرك الإعلام المعادي لسوريا حكاية أن الرئيس بشار كان يكره الحريري، والمفارقة أن تلفزيون "المستقبل" ذاته بث مقابلات مع الحريري في فترة الحداد كان يتحدث فيها عن علاقته الوطيدة بالرئيس بشار وعن إعجابه به، وعن دماثته وخلقه الرفيع. ويبدو أن العاملين في الإعلام نسوا أنهم قدموا هذه المقابلات قبل بضعة شهور، وبالتأكيد لن يقولوا إن الحريري كان ينافق للرئيس بشار لأن رجلاً في وزنه السياسي والأخلاقي غير مضطر لأن يكذب أو ينافق في مشاعره. إنني أستغرب موقف أسرة الحريري التي تعرف جيداً موقع الحريري عند الرئيس بشار ومن قبله عند الرئيس الراحل، وكنت أتمنى أن تقود موقف العائلة السيدة الفاضلة بهية الحريري فهي أنضج بكثير من الشباب الذين لا خبرة لهم في السياسة، وقد وقعوا في فخ المحنكين من تجار المواقف الذين يسعون إلى مال الحريري وليس إلى معرفة قاتله، ويسعون إلى استغلال دمه لتحقيق مآرب ضد سوريا بلد الحريري الأم، ولو أن روحه تنطق لصرخ من قبره أنقذوني ممن يريدون أن يجعلوا دمي معبراً للإيقاع بسوريا، وآمل أن يصحو أنصار الحريري الشرفاء على حقيقة انتماءاتهم، وألا يجروا الدب إلى كرمهم، وألا ينسوا أن سوريا هي الملاذ الطبيعي للبنانيين، رضي الكارهون أم غضبوا، والعكس صحيح. ولن أدخل في أي تعليق على مسار التحقيق رغم أن الشارع العربي كله بات يستغرب ما يفبرك، ولا سيما ما يقال من أن الاشتباه يقوم على معلومات قدمها مشعوذ هارب من سوريا. فقد رحبت سوريا بمهمة المحقق لأن كشف الحقيقة سيكون من صالحها إذا وفى المحقق بوعده بأن يكون تحقيقه جنائياً، غير خاضع لأهداف سياسية، تعيد إلى الذاكرة العربية ما فعله المحققون في ملف أسلحة الدمار العراقية. إن شعبنا العربي أذكى من أن تنطلي عليه الأكاذيب الإعلامية الرخيصة التي تسعى إلى تشويه صورة سوريا، وهو يدرك أن المطلوب هو رأس الشعب السوري وليس رأس القاتل الحقيقي، لأن الشعب السوري يقبض على جمر عروبته ومبادئه، وهو شعب كما كل شعبنا العربي خرجته الشدائد والملمات الكبار، وهو واثق من أن كل ما يحاك ضد بلده هدفه إخضاعها للمخطط الصهيوني، وطرد العروبة والإسلام من نادي القرن الجديد، وهذا وهم إسرائيلي، تبدده الحقائق كل يوم.

٢٠٠٥/٩/١٦

سوريا وأمتها العربية

رغم معرفتي الوثيقة بأن بعض وسائل الإعلام العربية تعرضت لاختراقات صهيونية خطيرة فإنني أشعر بالذهول أمام طوفان مشاعر الحقد والكراهية التي أطلقها بعض الإعلاميين العرب ضد سوريا وشعبها، دون أية مراعاة أو حتى مجاملة للدم الذي يسري في العروق والذي نفترض أنه دم عربي، فمن كان يتصور أن يعبر إعلاميون عرب عن تلهفهم لرؤية الشام غارقة في بحر دماء؟ ولكي لا أُتهم بأنني أرى الصورة القاتمة من الإعلام العربي، فلابد لي من الإشادة بمواقف الشرفاء وهم ما يزالون الأكثرية الغالبة بحمد الله، وأنا واثق من أنهم لا ينتظرون من الشعب السوري شكراً أو امتناناً، فهم لم يتخذوا موقفهم الشريف الشجاع مجاملة لسوريا، وإنما اتخذوه تعبيراً عن وعيهم لإبعاد المخطط الذي لا يستهدف سوريا وحدها، وإنما هو حلقة من مسلسل تدمير وإرهاب وإضعاف وإنهاك للأمة كلها. وهذا ما يخطط له المحافظون الجدد وفيهم المخططون الكبار من أمثال ريتشارد بيرل وجيمس كولبرت ودوغلاس فيث وبول وولفوفيتز وروبرت بورك وويليام بينيت وسواهم ممن وضعوا استراتيجية جديدة لإسرائيل منذ عهد نتنياهو أواسط التسعينيات، بدأ تنفيذها بجريمة اغتيال رابين، ثم قتل فيها شعار مدريد "الأرض مقابل السلام". وأعلن الاستراتيجيون الصهاينة يومها ما سموه الفسحة النظيفة أو "الاختراق النظيف" وقد جاء التنفيذ قذراً للغاية لأنه تم عبر تحويل المنطقة العربية كلها إلى ساحة إرهاب وقتل وسفك أطلقوا عليه كذلك اسم التدمير المبدع أو "الفوضى الخلاقة" كما بات معروفاً في بياناتهم ودراساتهم المعلنة. والمؤسف أن الإعلاميين العرب الذين ينتظرون لحظة سقوط دمشق كي يبتهجوا ويفرحوا ويصبغوا أكفهم بالدم السوري لا بالحناء، هم رغم قلة عددهم يتمركزون (بفضل الدعم المنظم) في عدد من أهم منابر الإعلام العربية، وهم يدّعون أنهم لا يعادون شعب سوريا، وإنما هم يعادون النظام السوري وحده، وهذه خدعة يبررون فيها أحقادهم وهم يعلمون أن حقيقة ما يخطط له المحافظون الجدد هو إجبار سوريا على السير في المشروع الصهيوني. فإن كان الإعلاميون العرب الوالغون في الحملة ضد سوريا يحقدون على نظامها السياسي لأنه لا يلبي مطالب المشروع الصهيوني فإن ذلك شرف للنظام، فلو كان نظاماً متواطئاً مع الصهيونية لفتحت له القلوب والأبواب، ودبجت فيه المدائح، وتوالى له الدعم، وقديماً قيل (إن أردت أن تعرف صحة موقفك فانظر إلى موقف عدوك منه)، وسيكون سخيفاً أن يصدق أحد أن الولايات المتحدة أو دول الغرب عامة منزعجة من النظام السوري لأسباب غير رفضه الإذعان للمخطط الصهيوني. وشعوب العالم جميعاً تدرك أن القرار الدولي أصبح في قبضة الصهيونية بعد أن تمكنت من هدم التوازن الدولي، وسيطرت على مؤسسات القرار

في دول عظمى، وبدأت تتخلص من كل الذين يقاومون مشاريعها، فمن قبِل الرضوح نال الرضا، ومن رفض جاءه العقاب، وليس سراً أن الرئيس بشار يتعرض لامتحان النار، كما سماه "فلينت ليفيريت". ولا يغيب عن أي مواطن عربي أن كل التهم التي توجه إلى دمشق اليوم هي تبريرات ضعيفة للهجوم عليها، لأن هذه التهم لا تصارح بحقيقة الهدف، فهم يطلبون شيئاً ولكنهم يضمرون شيئاً آخر، يقولون إنهم يريدون من سوريا أن توقف تسلل الإرهابيين إلى العراق، وحقيقة الطلب أنهم يريدون من سوريا أن تقدم لهم المساعدة للخلاص من مأزقهم مع الشعب العراقي الرافض للاحتلال. فأما الإرهابيون المتسللون فقد عرف العالم هويتهم، وتم لصق هذه الجرائم بالإرهابيين العرب القادمين من دول الجوار كما يتهمون، وقد كنا نحذر دائماً من خطر أن يصدق أحد أن عربياً مسلماً أو مسيحياً يمكن أن يفجر نفسه في عراقيين مسلمين أو مسيحيين، حتى لو دفع له مرسلوه ملايين الدولارات، فماذا سيفعل بها وقد تناثرت جثته؟ إن من يقومون بهذه التفجيرات ضد الشعب العراقي هم عملاء الموساد الذين أعلن عن كشف اثنين منهم ولكنهم متخفون مستورون بالمئات، وهم يسعون في أرض العراق تدميراً وقتلاً وتحريضاً على إيقاع الفتنة بين طوائف العراق وأعراقه. ومن يتهم سوريا فإنه يتعامى عن حقيقة حرص سوريا على أمن العراق لأن أمنها من أمنه، ولأنها تخشى أن يتسلل الإرهابيون من العراق إليها، وقد دعمت سوريا العملية السياسية في العراق واستقبلت عدداً من المسؤولين العراقيين. والمدهش أن المخترقين من السياسيين والإعلاميين العرب يتجاهلون (باستغباء للمتلقي) ذكر أية إشارة لإسرائيل ودورها الإرهابي في المنطقة. إنهم يظنون أن الناس سذج ولا يفهمون سر تجاهل إسرائيل، وسر الاندفاع إلى اتهام سوريا فوراً عند وقوع أية جريمة، فمن الواضح أنهم يريدون أن يصرفوا الأنظار عن أية شبهة بإسرائيل. ومثال ذلك الإسراع باتهام سوريا مؤخراً بمحاولة اغتيال المذيعة اللبنانية مي شدياق التي فجعنا بما أصابها، والمؤسف أن وزيراً لبنانياً (كان صديقاً حميماً لسوريا) سارع باتهام سوريا وغاب عنه وهو الحصيف حتى مجرد احتمال أن يكون الموساد وراء هذه العمليات الإرهابية المتكررة في لبنان، فهو يعلم جيداً ما الذي تخطط له إسرائيل وما الذي تريده من لبنان. وكان مثيراً أن يأتي خبر جريمة محاولة اغتيال مي موصوفة بموقف مي (المعادي لسوريا) مثلما جاء يوم اغتيال سمير قصير في صياغة تذكر بأنه (المعروف بموقفه المعادي لسوريا)، في إغفال لموقف مي أو لموقف سمير من إسرائيل (على الأقل لكونه كاتباً ومثقفاً فلسطينياً). والطريف أن بعض الإعلاميين أنكروا على الوزير السبع أن يشير إلى ضلوع إعلاميين لبنانيين بعمليات الإرهاب في لبنان، ويبدو أن صدره ضاق كما بدا من التواطؤ في الكذب والتزييف، عكس ما فعل الوزير المر الذي ضاق صدره بحمل مبادئ مكلفة الثمن قد تبعده عن السلطة مستقبلاً، فبق بحصة ارتدت على وجهه الذي ينبغي أن

يحمر خجلاً من نفسه وهو يفقد مصداقيته أمام ذاته أولاً، وقد بدا مضحكاً أن يعلن أنـــه كـــان مهدداً بالقتل من سوريا وهو الحليف لها وقد قدم نفسه لها على أنه صاحب مبادئ، ولكنه يبحث عن مبرر لما سيقبل عليه من انقلاب في موقفه قبل أن تمشي العربة ويظل واقفاً حاملاً مبـــادئ ثقيلة على كتفيه.. وبالعودة إلى تبرير بعض الإعلاميين العرب كراهيتهم لسوريا بأنهـــا ضـــد النظام وليست ضد الشعب، فإنني لا أعترض على حرية الناس في أن يكرهوا نظاماً سياسياً في بلد ما أو أن يحبوه فهذا شأنهم، ولدينا في سوريا معارضة توجه للنظام نقداً قاسياً صباح مساء، ومع ذلك نعتبرها معارضة وطنية لأنها تنطلق في نقدها لأداء الحكومة والسلطة مـــن حـــرص على الوطن، ولا تخرج عن سقف ثوابته. فأما الخارجون عن الثوابت من المرتمين في أحضان المشروع الأميركي الصهيوني الذين يستقوون على بلدهم بإسرائيل وبجيوش الولايات المتحدة، فهم فئة قليلة جداً ولا نسميهم معارضة كي لا نسيء للمعارضة الوطنية. إنهم ثلة من المخترقين الذين باعوا أنفسهم للشيطان، وعقابهم عند شعبهم وعند ربهم، ولشتان ما بين معارض أو منتقد لسلوك أو أداء حكومي أو سياسي أو أمني، وبين محرض على شعبه ووطنـــه بـــدعوى أنـــه يعارض النظام. فالوطن اليوم يتعرض لتهديد جاد، وفي مثل هذا الظرف الوطني الاســـتثنائي، يتوقف الخلاف على القضايا الإجرائية، وتتسع دائرة التلاحم الوطني، ويصير الكل في واحـــد، هو التوحد والصمود. ولابد لتحقيق المزيد من التلاحم الوطني من أن تضـــيق المســـافة بـــين المعارضة والسلطة كي تتسع الرؤية، وحين تتسع الرؤية تضيق العبارة كمـــا يقـــول النفـــري، وضيق العبارة يعني على الصعيد السياسي أن تضيق دوائر المختلـــف عليـــه لنكتشـــف ســـعة ورحابة ما نتفق عليه جميعاً وهو الوطن والعروبة والإسلام. فنحن مهددون لأننا في سوريا ما نزال نقبض على جمر هذا الانتماء الذي نعتز به وندافع عنه، ونحن في الوقت ذاته نمد أيـــدينا لكل المجتمع الدولي، لنتعاون في مقاومة الإرهاب الذي يوجه ضد أمتنا أولاً، وندعو إســـرائيل إلى تطبيق قرارات الشرعية الدولية التي نلتزم بها، ولو أنها فعلـــت لانتهـــت كـــل مشـــكلات المنطقة، ولتفرغ العالم لقضايا التنمية ومكافحة الفقر والمرض والجهل. ألا ترون أن العالم كله مشغول بتنفيذ طلبات إسرائيل؟

٢٠٠٥/٩/٣٠

سوريا في مواجهة الإعصار

يدرك الجميع في سوريا، نظاماً ومعارضة وشعباً مقهوراً غاضباً أن الهجمة الأميركية عليهم لا علاقة لها باتهامات تقرير ميليس للنظام الأمني في سوريا ولبنان بمقتل الحريري، وإذا كان ميليس يسأل عمن قتل الحريري فإن الجواب المطلوب سماعه في أميركا هو إعلان سوريا الإذعان الكامل لإسرائيل التي أعلنت أنها لن تتنازل عن الجولان، ويقتضي ذلك بالطبع الإذعان للمشروع الأميركي الصهيوني الذي بدأ تنفيذه في المنطقة باسم الشرق الأوسط الكبير وتم التفاهم عليه مع الدول الأوروبية التي كانت مترددة تبحث عن موقع لها فيه مثل فرنسا، وليس سراً أن سوريا تجسد الرفض لهذا الإذعان، وهي بذلك تتماهى مع موقف الشعوب العربية. والإدارة الأميركية لا تنكر أن الباب الرئيسي للدخول إلى رضا البيت الأبيض يقع في تل أبيب، وقد صرحت السيدة كوندوليزا بأن مشكلة سوريا ليست مع الولايات المتحدة بل هي مع جيرانها، وهذا تهرب دبلوماسي من فجاجة القول إن مشكلة سوريا هي مع إسرائيل وحدها، ولكن كان لابد من جمع جيران آخرين بهدف التعمية وكان أول الجيران لبنان، وكان لابد من التضحية بكبش ضخم من وزن الحريري رحمه الله لإحداث فاجعة ضخمة تكون مبرراً لتوتير العلاقة بين سوريا ولبنان، واغتيال الحريري بالذات يحقق سلة أهداف صهيونية بضربة واحدة. فهو أولاً يحول سنة لبنان قبل غيرهم من موقع الحليف التاريخي الصامت لسوريا إلى موقع الكاره لها في استغلال لحالة الضيق اللبناني عامة من الفساد المريع الذي سقط فيه سوريون ولبنانيون كانوا شركاء في الفساد. كما أن اغتيال الحريري مع اتهام سوريا بقتله على الفور وقبل وصول أي شرطي لساحة الجريمة، يقدم مادة تحريض قوية ضد سوريا يستخدمها أعداؤها المتربصون الذين أعلنوا حالة مدهشة من الحقد الدفين في مثل هتافاتهم التي حفرت في ذاكرة السوريين (توت توت سوريا عم تموت) والمفجع أن الهتاف يتعلق بموت سوريا كلها شعباً وتاريخاً وحضوراً، ومثل هذا الهتاف لا يمكن بحال أن يكون هتافاً لبنانياً شعبياً استراتيجياً، لأن الوجدان اللبناني يرفضه وهذا ما عبرت عنه مسيرة الوفاء الشهيرة لسوريا، وستثبت الأيام القادمة أن اللبنانيين جميعاً ومعهم تيار المستقبل نفسه سيقولون لسعد الحريري «على مهلك، نحن معك لمعرفة القاتل، ولكننا لسنا مع موت سوريا وتدميرها، فأرواحنا فداء لها مثلما كانت أرواح عشرات الآلاف من السوريين فداء للبنان» ومن يراهن على عداوة تستمر بين سوريا ولبنان فهو واهم، لم يقرأ التاريخ ولا يجيد قراءة المستقبل. إن المشكلة الراهنة ليست في مضمون تقرير ميليس فهو لم يقدم أية إدانة لسوريا، وإنما استخدم ذريعة لممارسة مزيد من الضغط وتضييق الخناق عليها، وقد فندت سوريا زعم ميليس بأنها لم تتعاون، وأكدت

حرصها على استمرار التعاون لأن من مصلحتها كشف الحقيقة، فأما المشكلة فهي في صـياغة موقف سوريا من مستقبل المنطقة، ونتذكر التهمة المستمرة لسوريا بأنها لا تقـرأ المتغيـرات بمعنى أنها لا تدرك أن الولايات المتحدة أصبحت على حدودها، وأنها باتت محاصرة من البـر والبحر. الحقيقة أن سوريا تدرك أن العالم تغير، وأن شعارات الستينيات لم تعد تصلح اليـوم، فقد انهار التوازن الدولي الذي كان يوفر للشعوب المظلومة جداراً استنادياً، وأصـبحت الـدنيا اليوم بيد الصهيونية المنتصرة، ولم يعد مسموحاً في عالم المحـافظين الجـدد أن ينتقـد أحـد تصرفات هذا المارد الذي لا يقبل صوتاً يعارضه، ولكن هل أصبحت الأمة العربية ومن خلفها الأمة الإسلامية وشعوب الأرض التي تعد بالمليارات هشة وضعيفة لا تملك غير أن تهز الرأس أو أن تطأطئه؟ صحيح أننا لا نريد حرباً مع الولايات المتحدة فهي أقوى دولة في العالم، ولكن هل نقبل أن تفتت أوطاننا العربية إلى دويلات وأن ندخل بأيدينا عصر الفوضى المدمرة التـي يريدون لنا أن نغرق في بحار الدم فيها؟ إننا نبحث عن حلول وسط عبر ما نـدعو إليـه مـن حوار، لقد أعلنت سوريا أن السلام هو خيارها الوحيد، ومضت في مباحثات السلام عشر سنين عجافاً، ولكن الولايات المتحدة أوقفت مساعيها نحو السلام، وحين خاضت دول التحالف حربـاً لتحرير الكويت كانت سوريا مع تحرير الكويت، ولكن كان طبيعياً أن تقف سوريا ضد الحرب الراهنة على العراق ليس حباً بصدام وهو خصمها اللدود حين كان حليفاً لأميركا، وإنما خوفـاً مما حدث في العراق من تدمير لقوى الشعب، ومن تشـتيت لوحدتـه الوطنيـة عبـر تنميـة الانتماءات العرقية والطائفية فيه. مع ذلك سارعت سوريا لدعم العملية السياسية فـي العـراق حرصاً على استقرار وأمن شعبه، وأعلنت أنها ضد العمليات الإرهابية وهي تخشى أن ينسـل الإرهاب إليها من الجوار، وقد استقبلت القيادات العراقية الجديدة، وأبدت استعدادها لتقديم كـل التعاون الأخوي المطلوب والممكن، وعلى الصعيد الفلسطيني أعلنت سوريا أنها تـدعم العمـل السياسي الذي تقوم به السلطة الفلسطينية، ولم تتدخل في شأن من شؤون الفلسطينيين الداخليـة إلا ما كان مساهمة في دفع الحوار الفلسطيني وإنهاء الخلافات. وقد جـددت سـوريا تمسـكها بالسلام عبر المبادرة العربية التي أهملها الأميركان وكانت فرصة نادرة لإحلال السلام والأمن في المنطقة، ولكن ذلك كله لم يعجب الإسرائيليين، فهم يرفضون السلام لأن له ثمناً هو إعـادة الحقوق إلى أصحابها، وهم ينوون التمسك بالجولان، ولذلك يريدون إضعاف سـوريا وإنهـاك شعبها، وضرب بنيتها التحتية، وإغراقها بالدماء والفتن الداخلية. والخروج من الأزمة الراهنـة ليس سهلاً في غياب الدور العربي والإسلامي، فسيكون كارثة كبرى أن تتعامل بعض الـدول العربية والإسلامية مع سوريا على أنها مدانة بدم الحريري على شـبهة المحقـق كمـا تريـد الولايات المتحدة فتتيح لإسرائيل أن تحقق أهدافها كاملة. ويخطئ من يظن أن سوريا ضـعيفة

ولا تملك أن تفعل شيئاً غير الاستسلام، فالشعب السوري ليس أقل قدرة على التضــحية مــن الشعب اللبناني الذي حرر بالمقاومة أرضه، أو من الشعب الفلسطيني الذي أدهش الدنيا بقدرته على الصمود، أو من الشعب العراقي الذي أغرق الولايات المتحدة في مستنقع لا تعرف كيــف ستخرج منه، أو من الشعوب العربية كلها التي قدم أبناؤها دماءهم ثمنا للحريــة، ولكننــا فــي سوريا نريد أن نجنب شعبنا الدمار، وأن نتجنب تحول المنطقة كلها إلى جحــيم، فالمحــافظون الجدد يتطلعون إلى استكمال مشروعهم الذي بدؤوه في العراق وقد سموها هدفاً تكتيكياً، وسموا السعودية هدفاً استراتيجياً، وسموا مصر جائزة كبرى، حسب وثيقتهم الشهيرة، وهم يضــعون إيران في دائرة الشر، ويعلنون أنهم يريدون خلق فوضى في الشرق الأوسط الكبير تتــيح لهــم إعادة تشكيله على مقاس الحلم الإسرائيلي. إننا ندرك خطر هذا الجنون الذي سيوســع دائــرة الإرهاب، ونرجو أن يفيق الضمير الإنساني على خطورة أن يتحول مجلس الأمن الذي ينبغــي أن تجد الشعوب من خلاله أمنها، إلى مجلس حرب، تحاصر من خلاله الشعوب، ويقتل بــأمره الأطفال والنساء والشيوخ، وتقصف المدن وتدمر البلدان، ولا يجد الشباب بعد ذلك وسيلة للعيش غير مهنة القتل والتدمير والإرهاب. إنني أناشد عقلاء وحكماء أميركا وأوروبا أن يوقفوا هــذا الطغيان، فهو يحدث باسمهم وعلى حساب تاريخهم وحضارتهم. إننا ندعو إلى متابعة الحــوار حول كل القضايا في المنطقة، ونعلن في كل حين أننا دعاة سلام ولسنا دعاة حــروب، ونحــن نحتاج إلى مساعدة العالم لكي ننهض ببلدنا، وننمي قدرات شعبنا، ولنتابع مسيرة الإصلاح التي يعيقها في الداخل هذا الهجوم الذي يشيع حالة من الاضطراب، وأنا أدرك حاجتنا الماسة إلــى إصلاحات سريعة مبهرة في كل مناحي الحياة، رغم ما نحن فيه من قلق عام، فاللحظة الراهنة تحتاج لجهد وطني ضخم تشارك فيه كل قوى الشعب بلا استثناء لأحــد غيــر أولئــك الــذين يستقوون بالخارج على بلدهم، وأرجو أن تنتهي سريعاً كل الخلافات الشكلية أو المزمنة التــي تشتت الجهد بين القوى السياسية الوطنية، لينصهر الكل في واحد، هو الــوطن، ومــن فضــل الشدائد على الشعوب أنها تقوي اللحمة الوطنية وترتقي بهم إلى أعلــى مســتويات المســؤولية التاريخية، وهذا ما أرجو أن تحققه الأمة كلها قبل أن تؤكل البلدان العربية واحداً تلو الآخر.

٢٠٠٥/١٠/٢٨

سوريا في مواجهة السؤال الصعب

لأول مرة يطرح على سوريا سؤال صعب على الطريقة الأميركية (أجب بلا أو بـــنعم؟) دون أن تترك لها منطقة وسطى للتفاهم، والسؤال الذي أعنيه يتعلق شكله باتهامها بعدم التعاون مع لجنة ميليس، ولكن جوهره يتعلق بالقضايا الجوهرية في المنطقة، وبموقـــف ســـوريا مـــن المشروع الأميركي فيها. والمفارقة أن ميليس (ومن خلفه السيد بولتون) صار المفوض المطلق والمرجعية الوحيدة في تقرير صحة ومصداقية الجواب السوري على سؤال التعاون، فبوسعه أن يقول متى شاء إن سوريا لم تتعاون فتقع على سوريا غضبة دولية متربصة لتحكم عليها بســـيل من العقوبات التي فتح آفاقها إصدار إنذار مجلس الأمن لها تحت الفصل السابع. ولقد واجهـــت سوريا الموقف بعقلانية وحكمة، فقبلت بالقرار على الرغم من الإحساس الشعبي العارم بالظلم، وليس بوسعها توجيه اللوم للأسرة الدولية التي تمكنت الولايات المتحدة مـــن الحصـــول علـــى موافقتها الجماعية، لأن كثيراً من الدول الصديقة لسورية فاوضـــت الولايـــات المتحـــدة التـــي تصرفت بدهاء حين طالبت بالأشد كي تحقق إجماعاً حول الأقل بعد التنازل، علـــى أن يبقـــى القرار مفتوحاً على الأصعب. ولم تخف الولايات المتحدة حقيقة كونها تريد معاقبة سوريا دولياً لأنها تمتنع عن الدخول في بيت الطاعة الأميركي، فالتصريحات التي سبقت إعـــلان الإنـــذار أوضحت المطالب الأميركية التي لا شأن لها بقضية الحريري. وكانت الإدارة الأميركيـــة قـــد أنذرت الرئيس السوري بأنه سيواجه ما سماه فلينت ليفيريت (امتحان النـــار). وقـــد حرصـــت الأسرة الدولية على تقييد القرار ١٦٣٦ بقضية التعاون مع التحقيق الدولي، لأن التخوف مـــن تحقيق أهداف سياسية لاعلاقة لها بقضية مقتل الحريري كان (وما يزال) قائماً. ولكن المجتمـــع الدولي الذي وافق الولايات المتحدة على توجيه الإنذار لايوافـــق بالإجمـــاع علـــى أن تحقـــق واشنطن سلة أهدافها كاملة تحت غطاء دولي وتحت يافطة عدم التعاون السوري مع المحقـــق ميليس. ولكن السوريين يتذكرون أن الولايات المتحدة لم تنتظر قرار مجلس الأمن حين قررت غزو العراق، ويدركون أن الهدف الواضح من حشر سوريا في الزاوية هـــو إجبارهـــا علـــى التقوقع ريثما تنهي إسرائيل أهدافاً في لبنان أهمهـــا القضـــاء علـــى "حـــزب الله"، وتـــوطين الفلسطينيين، ثم تتفرغ بعد إنهاك سوريا لإجبارها على نسيان المطالبة بالجولان، وقبول مبـــدأ السلام مقابل السلام (وليس الأرض)، وهذا ما عنته السيدة كوندوليزا حين قالت إن على سوريا أن تغير استراتيجيتها. لقد استُخدمت جريمة اغتيال الحريري بدهاء بارع وحقق مرتكبوها جملة أهداف منها التخلص من حضور الحريري الذي يتعاطف مع "حزب الله"، ولا يسمح بتمريـــر أهداف إسرائيل، ولا بالضغط على اللاجئين، أو تدويل لبنان أو احتضـــانه لقاعـــدة عســـكرية

أميركية، أو بعقد صفقة منفردة مع الإسرائيليين ومن أهداف الجريمة أيضا توجيه اتهام لسوريا بدمه، وإجبارها على تنفيذ الإملاءات عبر الابتزاز· والشارع السوري المحقون باضطراب قلق تتنازعه مشاعر شتى، فهو لا يريد لبلاده أن تخضع لهذا الابتزاز الصهيوني الواضح، ولكنه لا يريد لها أن تواجه قوة عظمى تريد تدميره، وهو يرى ما يحدث في العراق، ويرغب أن ينجح العمل السياسي في تجاوز الأزمة الحالية، فإن لم ينجح فإنه سيواجه قدراً مفجعاً، ولن يكون أمامه غير الإذعان لمواجهة مصيره والتصدي لمن يعتدي عليه بكل ما يملك من قوة إيمان بحقه في الدفاع عن وطنه، وسيعني ذلك بالضرورة اضطراباً يعم المنطقة كلها، وهذا ما لايريد أحد أن يصل إليه الحال! من هنا يتعلق الشعب في سوريا بالحل السياسي العادل والمنصف الذي يحقق له الاحتفاظ بكرامته الوطنية، وهو يعرف أن هدف الضغط الحالي على النظام هو إيصال البلاد إلى حالة الفوضى، لذلك تحرص كل القوى السياسية، بما فيها قوى المعارضة الوطنية، على الارتقاء إلى مستوى الشعور بالمسؤولية الجماعية، وقد أطلقت القيادة السورية مشروعاً للإصلاح السياسي عبر الدعوة إلى مناقشة قانون الأحزاب، وأعتقد أن هذا النقاش سيقود إلى حوار وطني شامل حول كل القضايا الإشكالية، وقد أعلنت سوريا أنها وطن يتسع للجميع، وكان قرار العفو الأخير عن المعتقلين السياسيين متابعة لإنهاء حالات الاعتقال وإطلاق حرية التعبير عن الرأي الآخر تحت سقف الثوابت الوطنية· ويدرك الشعب السوري أن الأزمة الراهنة ليست إلا حلقة متصاعدة من سلسلة أزمات مستمرة تحاصر بها سوريا، وستتبعها حلقات قد تكون أشد وأقسى، فالمطالب الأميركية لا تنتهي، والمشروع الأميركي يهدف أساساً إلى تمكين إسرائيل التي ترفض المبادرة العربية للسلام، وتعلن أنها لن تعيد الجولان، وتريد من العرب إعلان الطاعة والإذعان، وهذا ما لايمكن أن تقبل به الشعوب العربية حتى لو قبلت به بعض الأنظمة! ويأمل شعبنا أن يرتقي الإعلام العربي كله إلى شعور بالمسؤولية، فقد بات مخزياً أن تجند بعض الصحف إمكاناتها لتشويه صورة سوريا ولتصفية حسابات قديمة، بعضها شخصي، ونحن نرى أن سوريا تتصرف بحكمة وليس فيها من يتخذ قرارات هائجة، وأن ثقتها بالبراءة هي التي تدعوها إلى إعلان التعاون المطلق مع لجنة التحقيق لأن من مصلحتها كشف المجرمين· وقد بادرت سوريا بتشكيل لجنة تحقيق وطنية لمساعدة التحقيق الدولي الذي نرجو أن يبقى هدفه إظهار الحقيقة وليس استفزاز سوريا، ونرجو من الإعلام العربي أن يكون منصفاً في إظهار حقيقة أن سوريا لا تتدخل في أي شأن لبناني، بل نفذت ما عليها من القرار الدولي ١٥٥٩ ولا صحة لما يشاع عن وجود أمني سوري في لبنان، وهذا ما أكدته بيانات رسمية مسؤولة، ولن تنفعل سوريا بكشل سلبي من مواقف بعض الإخوة اللبنانيين، فسوف تبقى وفية للبنان، حريصة عليه، وستعمل بجد مع الحكومة اللبنانية من أجل المصالح المشتركة،

وهي لا تمانع في ترسيم الحدود! وما تزال بعض وسائل الإعلام تروج للزعم بوجود متسللين من سوريا إلى العراق، رغم أن سوريا اتخذت كل الإجراءات الممكنة بشرياً وهندسياً لضبط الحدود، بل إنها قيدت أخيراً دخول الشباب العرب إليها تجنباً لأي تسرب محتمل، وهي مستعدة تماماً للتعاون مع الإخوة في العراق للتنسيق الأمني، وقد أعلنت مراراً أنها تدعم العملية السياسية الجارية هناك بهدف الحفاظ على وحدة العراق أرضاً وشعباً· وليس سراً أن سوريا فتحت بوابة واسعة للتعاون مع السلطة الفلسطينية، وهي واثقة من أن الإخوة في فلسطين قادرون على إدارة شؤونهم بأنفسهم، وسوريا تؤكد في كل مناسبة استعدادها لاستئناف محادثات السلام وتمسكها بالمبادرة العربية ودعمها لخريطة الطريق· وأنا واثق من أن الموقف السوري الحكيم سيجنب سوريا والمنطقة كلها خطر التهور الذي يدفع إليه بعض المخططين في الإدارة الأميركية التي نرجو أن يبادر الحكماء فيها إلى إيقاف هذا الجموح وقد بات يقدم أميركا لشعوب العالم على أنها شبح الموت والدمار، بعد أن كانت حلم الشباب في العالم كله، وواحة الحرية والأمان، وأمل الشعوب الضعيفة في العون والمساعدة· لقد أعلنا مراراً اننا لا نريد علاقات سيئة مع أقوى دولة في العالم، ولكننا نريد علاقات منصفة عادلة، تحتكم إلى الشرعية الدولية ذاتها التي وجدت لكي تحمي الضعفاء من خطر الحروب، ولهذا سمي مجلسها الآمر مجلس الأمن وليس مجلس الحرب، لأن مهمته أن يوفر الأمن للعالم كله عبر العدل والإنصاف والتطبيق الشامل لكل قراراته وألا تكون فيه محاباة لدولة معينة تفعل ما تشاء وتقتل من تشاء وتبيد مدناً وتهدد شعوباً ولا أحد يسائلها، بل ترفض بشكل علني تطبيق قرارات مجلس الأمن، ويتم التغاضي عن تجاوزاتها، ويسمح لها بأن تمتلك أسلحة دمار بينما لا يسمح للآخرين حتى أن يقاربوا المنطق العقلاني في عالم منطق القوة القائم حاليا!

٢٠٠٥/١١/١١

هل نفهم ما يحدث خطأ؟

من سوء حظ البشرية أنها باشرت القرن الجديد في ٢٠٠١/٩/١١ بعملية إرهابية مريعة وجهت مسار البشرية إلى الغرق في مستنقع دم، رغم أن السنوات الأخيرة من القرن العشرين كانت بشرت الناس بولادة نظام جديد تنتهي فيه الصراعات والحروب، وتحل فيه المشكلات الدولية بالتفاهم والتفاوض، ويكون شعاره السلام والأمن، وتنتشر فيه مبادئ الديمقراطية الدولية، وتنهض مجتمعاته على مبادئ العدل والمساواة، وتصان فيه حقوق الإنسان، وحقوق الشعوب. وقد نهضت الولايات المتحدة في مطلع العقد الأخير من القرن العشرين لمواجهة أضخم مشكلات القرن، وهو الصراع العربي الإسرائيلي، وتوجهت إلى حله عبر التفاوض وصولاً إلى السلام، واستجاب العرب لندائها ووضعوا رحالهم في ركابها، ولكنها تجاهلت أن على الوسيط أن يكون نزيهاً ومحايداً وألا يعمل لصالح طرف دون الآخر، ووجد العرب أن وسيطهم إلى السلام لا يعنيه شيء غير تحقيق طموحات إسرائيل، وتقديم كل طاقاته لتنفيذ مخططاتها، وهي التمسك بالأرض العربية المحتلة، وإقامة كيان هش هزيل للفلسطينيين يحمل اسم دولة، ورسم خريطة جديدة للمنطقة، بشكل يضمن أمن إسرائيل ويحقق لها النفوذ المطلق، ويتطلب ذلك إضعاف العرب والمسلمين عامة، وليس سراً أن العروبة والإسلام هما اللذان تدور حولهما كل الأفكار في دنيا العرب، وهما يمثلان النسيج الداخلي للهوية في المنطقة. كان شيمون بيريز قد وجد الحل حين أطلق رؤيته للشرق أوسطية التي تذوب فيها الانتماءات لصالح انتماء جغرافي واحد، هو المكان الذي تشطب من عنوانه ومضمونه كلمتا العروبة والإسلام، لتحل محلهما انتماءات للشركات والمؤسسات العابرة للقارات بشكل يتجاوز الانتماءات العرقية والدينية. وقد هلل بعض المثقفين العرب لهذه الدعوة الإنسانية الأممية ووجدوا فيها خلاصاً من مآسي الانتماءات الصغيرة إلى الأديان والقوميات والأعراق والإثنيات الضيقة المتصارعة على قضايا عصبية. وقد تزامنت هذه الدعوة الشرق أوسطية مع نهوض سريع وحثيث لعالم جديد يدعو إلى تجاوز الأعراق والأديان في كل العالم الذي تتم صياغته في عولمة معرفية جديدة توحد الناس على أسس إنسانية محضة بحيث تجمعهم سمة الإنسان وحقوقه المصونة ومن ثم المصالح المشتركة، وتحكمهم قيم الديمقراطية. وقد تشكك العرب عامة في أهداف هذه الدعوة كما تشككت شعوب الأرض في أهداف العولمة، ولكن أحداً لم يصدر رفضاً حازماً في البداية، حيث فضل القادة السياسيون والمفكرون الوطنيون التريث حتى قراءة ونقد مظاهر وتجليات الطريق التي يُدعون إلى السير فيها، وكانت أولى تجلياتها عولمة الاقتصاد عبر اتفاقية "الجات" التي بدأ الإعداد لها منذ عام ١٩٤٧ في جولة جنيف لتعلن بعد جولات عديدة في جولة الأورغواي عام ١٩٩٤ عن ولادة منظمة التجارة العالمية. وكانت الصدمة الأولى للشعوب النامية أنها وجدت نفسها ضعيفة كسيحة أمام دول عظمى لها وحدها حق التصرف في

ثروات البشرية، ووجد القادة السياسيون في البلدان النامية أنهم مجبرون على تقديم طلبات انتساب إلى النادي الاقتصادي الدولي الجديد، لكن شروط العضوية فيه تنتقص السيادة الوطنية، وتجبرهم على تقديم تنازلات تتعارض مع مصالح بلادهم التنموية. فالمنظمة لا تضم أكفاء أو أنداداً،فالدول الصغيرة باتت لا وزن لها أمام دول الأغنياء الأقوياء الذين يملون على الضعفاء الأوامر، ولا يحفلون بأسس الديمقراطية الدولية، ولم تكن الدول الصغرى وحدها هي التي تخوفت من عملاق عولمة الاقتصاد بل إن دولاً كانت كبرى في الماضي القريب باتت تشعر بالقلق أمام التفوق الأسطوري للولايات المتحدة، مما دفع بدول عديدة لمواجهة الخطر عبر التكتلات، وسرعان ما وسع الاتحاد الأوروبي حدوده وزاد عدد أعضائه، وأصدر عملته الجديدة "اليورو" ليكون له حضور قوي أمام الدولار. وسارعت دول أميركية إلى تأسيس "النافتا" ولكن الولايات المتحدة ابتلعتها بحضورها الطاغي، كما تم من قبل ابتلاع تجمع نمور آسيا ومنتدى شنغهاي. ولم تشفع للبشر مظاهراتهم المعادية للعولمة الظالمة، ولا سيما حين باتت قدراً محتوماً لا مفر منه، ولا سيما بعد أن تجلت ظاهرة العولمة الفضائية بطابع ثقافي أحادي ليس أقل خطراً على الخصوصيات من التجليات الاقتصادية. فمع انتشار الأقمار الصناعية سقطت حدود الحماية الثقافية التقليدية وبات التدفق الإعلامي باتجاه واحد يضرب الجذور الثقافية للشعوب النامية، ويجعل لغاتها المحلية مهددة بالتراجع بل الموت لصالح اللغة الإنجليزية، حتى أن الفرنسيين أنفسهم أعلنوا قلقهم على مستقبل الفرنسية، وراحوا يصعدون اهتمامهم بتجمع الفرانكفونية، وبدأت الأمم الكبرى تبحث عن وسائل حماية لخصوصياتها الثقافية أمام الحوت الأميركي الذي بات قادراً تقنياً على ابتلاع الكرة الأرضية. كانت ثورة المعلوماتية والاتصالات قد أسهمت عبر انتشار الإنترنت الذي تسيطر على خزاناته الولايات المتحدة حصراً، في هز عروش الثقافات بل الحضارات التقليدية، وبات الأمر مقلقاً للعرب حين وجدوا أنفسهم مهددين بالخروج من التاريخ ولا سيما حين أعلن هنتينغتون إنذاره عن صراع الحضارات مذكراً بنبوءة "برنارد لويس" عن صراع الثقافات، وممهداً لإعلان فوكوياما المضطرب عن نهاية التاريخ. وكان بعض العرب مطمئنين إلى علاقاتهم القديمة مع الغرب، وإلى صداقة مقَنّعة مع الولايات المتحدة التي لم يكن قد برز العداء العربي لها بشكله الدراماتيكي، فقد كان كثير من القادة السياسيين ما يزالون يأملون أن تجد الولايات المتحدة حلاً سلمياً للصراع العربي الإسرائيلي، لأن ذلك سيفتح الآفاق أمام تعاون حميم بين العرب والأميركان. وقد تضاءلت لبضع سنوات أواسط التسعينيات حدة التشكك، حتى أن الرئيس حافظ الأسد الذي تمكن من عقد صلة طيبة مع كل الرؤساء الأميركان الذين كان يلتقي بهم في جنيف أو في دمشق، أدخل صلته مع بيل كلينتون إلى الإطار الشخصي حين شعر كل من الرجلين بمودة حقيقية نحو الآخر، وكان من الممكن أن تتم في عهد كلينتون تسوية سلمية تاريخية لولا أن أعداء السلام في إسرائيل قاموا بانقلاب صامت على مبادئ مدريد، فقتلوا رابين وأنكروا وديعته، وأغرقوا بيل

كلينتون في فضيحة مونيكا، وحركوا اللوبي الصهيوني الإعلامي ضده، وأظهروا له ضعفه عبـر التصفيق المريب لنتانياهو حين دخل الكونغرس في تظاهرة احتفالية مدهشة، وأعلن أنه سـيحرق واشنطن وكان مستشاروه يستعدون لتسلم مناصبهم في الإدارة الأميركية الجديدة. كان واضـحاً أن الزمام قد أفلت من أيدي الحكماء الراغبين في إحلال السلام حقاً، والمفارقة أننا اليوم نجد في مـن كنا نرتاب منهم من أمثال "أولبرايت" و"روس" وحتى "مارتن إنديك" مفاوضين معتدلين وجـادين بالقياس إلى من جاء بعدهم من "المحافظين الجدد" الذين رفضوا البحث عن السلام، وصار همهم إرغام العرب على قبول الخريطة الجديدة للشرق الأوسط وقد سمي الكبير لأن رقعته الجدية باتت تشمل العالم الإسلامي كله إن وضوح هذا الهدف الأميركي الإسرائيلي الاستراتيجي يفسر خفايا ما يحدث الآن من أجل تحقيقه، فغزو أفغانستان واحتلال العراق والتهديـدات المسـتمرة لإيـران، والضغوط المتصاعدة على سوريا ولبنان كلها تتم بهدف الوصول إلى هذا الهدف. وبالطبع لابد من إيجاد ذرائع ومبررات لإقناع الشعوب عامة والحلفاء بخاصة للمشاركة في تنفيذ هذه الاستراتيجية التي يقضي تنفيذها القضاء التدريجي على الركنين الأساسيين الذين تنهض عليهما المنطقة وهمـا (العروبة والإسلام)، فكان لابد من تفجيرات سبتمبر مثلاً، لكي تمتلك الولايات المتحـدة مبـرراً للهجوم على الإسلام باسم مكافحة الإرهاب، مع أن العالم كله يعرف أنها هي التي أنشأت منظمـة «القاعدة»، وساعد الغرب كله حركات التطرف الهاربة من الأنظمة العربية حين وفر لها الملجـأ والعون المادي ومنابر الإعلام التي قدمت هؤلاء السذج أو العملاء بشكل ينفر السامع والرائي من الإسلام كله. وكان لابد من ذريعة لاحتلال العراق فتم الترويج لأسلحة الدمار التي تتيح للعراق كما قال الإعلام يومذاك أن يدمر العالم كله، واليوم يتم التخويف من قنابل إيران، وقريباً قد يفتح ملف قنبلة باكستان، وأما سوريا فلن يكون مقنعاً تكرار سيناريو الاتهام بوجود أسلحة دمار عنـدها ولا سيما أن البيت الأبيض يعاني من افتضاح الكذبة ويخفق في لفلفتها، لذلك كان لابد منبتكار ذريعـة دراماتيكية جاءت في اغتيال الحريري، وترافق اتهام سوريا بها مع إنذار دولي لسوريا بأن عليها أن تغير من استراتيجياتها وأن تقدم التعاون المطلوب مع دول الجوار. وبالطبع تفهـم سـوريا أن المطلوب منها التنازل عن أرضها المحتلة لإسرائيل التي أعلنت أنها متمسكة بـالجولان، وتقـديم الدعم والمساهمة في تنفيذ مشروع الشرق الأوسط الكبير الذي يتيح لإسرائيل أن تكون سيدة الشرق الكبير، المقسم إلى دويلات صغيرة تقوم على أسس عرقية وطائفية ومذهبية متصارعة. إنني أفهم المشكلة على هذا النحو، وأتمنى أن أكون مخطئاً، وأرجو أن يوضح لنا الداعون لتغييـر أفكارنـا العربية والإسلامية مكامن الخطأ في هذا الفهم، فقد تكون ثمة حقائق لا نعرفها، فإن كنا واهمـين تعمى عيوننا عن رؤية الخير العميم الذي تدعونا إليه الإدارة الأميركية حين تطالبنا بالسير خلـف أهدافها في المنطقة، فمن المفيد أن نتخلص إذن من سوء الفهم والظن. ونحن بالتأكيد لن نرفض ما هو خير لنا حين نطمئن إلى أنه خير، ولا سيما أننا لا نكره الشعب الأميركي بل نحـن نشـاركه

الضيق والتذمر من إدارته التي تشوه وجه أميركا الحضاري، وتجعله عدوانياً مخيفاً حين تســـيطر على إرادة الشعوب، وتهدد البشر بالحصار والحروب.

٢٠٠٥/١١/٢٥

حاجة الأمة إلى الانتقاد في مجال الاعتقاد

تستدعي القمة الإسلامية التي انعقدت في مكة المكرمة طيف الكواكبي إلى الذاكرة، لأنه كان أول من دعا إلى قمة إسلامية دولية في أم القرى، والطريف أن الأسئلة التي طرحها المفكر السوري الحلبي عبدالرحمن الكواكبي (قبل مئة عام وست سنين) ما تزال هي ذاتها التي يطرحها المشاركون في القمم الإسلامية، وبخاصة في قمة مكة الراهنة. ومع أن قمة الكواكبي كانت افتراضية فإن وقائعها شديدة الدقة والضبط، فقد بدأ مؤتمر الكواكبي يوم الخامس عشر من ذي القعدة عام ١٣١٦ هجرية الموافق ٢٨ مارس سنة ١٨٩٩ ميلادية واستمر خمسة عشر يوماً، وأقيمت فيه اثنتا عشرة جلسة، وشارك فيه ممثلون عن كل البلدان الإسلامية، وحدد ثمانية وأربعين قضية للحوار، أهم ما يعنينا منها اليوم ما سماه الكواكبي (حاجة الأمة إلى الانتقاد في مجال الاعتقاد) وهذا هو جوهر ما تناقشه القمة الإسلامية الاستثنائية الراهنة. فقد انتقد الكواكبي استفحال الجهل وغلبة المدلسين، وانتشار الغلو والتطرف في الدين، ولئن كان عصر الكواكبي قابلاً لظهور الغلو والتطرف بسبب الجهل المطبق في مجتمع مغلق سدَّت عليه منافذ العلوم قروناً فإن تفسير ظاهرة التطرف في أواخر القرن العشرين يحتاج إلى دراسات تبحث عن سر بواعث هذا الغلو المنافي لطبيعة الإسلام داخل الخطاب الديني وخارجه، وهذا ما لا يغفل عنه الباحثون بالطبع. ولكن التركيز على الخطاب الديني وحده يهمل أسباباً ذات شأن من أهمها خطاب السياسة العربية وعجز المفكرين عن بناء جسر متين يصل بين الفكر الإسلامي والفكر القومي أو العلماني أو الليبرالي عبر مئة عام من التفكير سادت فيها حالات من النبذ والإقصاء بين الفرقاء، واستبعدت الديمقراطية التي تتيح لكل ذي فكر أن يعبر عن فكره، وباتت المشاركة السياسية في العديد من الأقطار العربية ذات طابع شكلاني بينما كبرت صلاحيات السلطة المطلقة التي هي مفتاح الفساد، وفي بعض البلدان أهمل التعليم الديني وترك للعمل في الخفاء، فنمت في الظلمة أفكار انتقامية ثأرية، تكفر المجتمعات الإسلامية. وأعتقد أن أعداء الإسلام وجدوا في تلك النزعات العدوانية قوة قادرة على الفتك من الداخل، فأمدتها بالسلاح، وساعدتها في إيجاد المنابر، حتى انقلب السحر على الساحر. ويضاف إلى البعدين السياسي والديني بعد ثالث مهم هو البعد الاقتصادي، فقد تسبب إضعاف الطبقات الوسطى في المجتمعات العربية والإسلامية بظهور طبقتين أولاهما قليلة العدد، ترتبط بالسلطة ومصالحها على الغالب، وهي وحدها التي تمتلك معظم الثروة الوطنية، وأما الثانية فهي الكثرة الساحقة من المواطنين الذين تحولوا إلى مهمشين يعانون من الفقر ويعيشون ظروفاً صعبة معقدة، بسبب فشل السياسات الاقتصادية وسوء التخطيط الإداري والظلم في توزيع الدخل القومي حتى في البلدان الأكثر

غنى في منظومة البلدان الإسلامية. ولقد شكل غياب الطبقة الوسطى حالة من الضعف الفكري والثقافي العام، لأن هذه الطبقة هي الحامل الوطني للقضايا الكبرى وللنهضة والثقافة والتقانة والإبداع، وغيابها أو ضعفها وتراجعها إلى طبقة فقيرة شبه معدمة ترك آثاره الواضحة في تخلف الأدب والفن والصناعة والتجارة وما إلى ذلك مما كان ناهضاً ومبشراً بتقدم مطرد حين كانت هذه الطبقة حاضرة بقوة في المجتمعات العربية والإسلامية. لقد مر حين في القرن العشرين أصبح فيه المفكرون والمثقفون والمتعلمون في أدنى درجات السلم الاجتماعي مع صعود مفاجئ لفئة من الجهلاء والمنتفعين والمتسلقين والمهربين وسماسرة الفساد، الذين استولوا على ثروات البلاد، ووجد الشباب أنفسهم بلا قضية وطنية، حتى إن الأدبيات الشابة في بعض البلدان العربية كانت ترد أسباب فقرها الإبداعي بالقياس إلى ما قدم الآباء إلى كونها تعيش بلا قضايا كبرى حيث بات جل همها تأمين فرصة العمل ولقمة العيش، ولا سيما بعد أن تمت خصخصة القضية الفلسطينية بعد اتفاقات السلام التي لم تحقق السلام، وبعد أن بات الحديث عن الوحدة العربية مدعاة للسخرية مع بدء تفتيت المفتت وتجزئة المجزأ. وبعد أن فقد كثير من الشباب أملهم في الحصول على مواقع مسؤولية قيادية في أوطانهم حين طال أمد بقاء الأجيال السابقة في مواقعها القيادية، وصار العمل السياسي محتكراً في بعض البلدان، بل استاتيكياً لا يتيح فرصة لإبداع أو تغيير، وهذه الحالات بما فيها البطالة والعوز والشعور بالعدمية واللاجدوى كلها تقدم البيئة المناسبة لولادة أفكار انتقامية أو خاطئة. إنني أدرك أن هذا النوع من التوصيف السريع بما تقتضيه مساحة مقال في صحيفة يختزل المشكلة ولكنني أود أن أشير فقط إلى أهمية إعادة بناء حضور فكري وثقافي للطبقة الوسطى التي أنتجت عبر عقود من القرن العشرين نهضة ثقافية مهمة، نما فيها الحراك الفكري الحضاري الذي باشرته الأمة منذ أواخر القرن التاسع عشر، ووصل في الستينيات إلى ذروة فكرية لكنه سرعان ما تراجع مع انهيار دور الطبقة الوسطى التي فهمتها الثورات والحركات الشعبية فهماً خاطئاً، ورآها بعضهم برجوازية ظالمة، وتجاهل دورها في تحقيق الاستقلال، وفي بناء أسس النهضة للدولة النامية، وقد بدأت بعض الدول العربية والإسلامية التي شهدت تراجعاً لدور هذه الطبقة بمراجعة نقدية لما حدث، ولا سيما في مرحلة صدور قرارات التأميم المستعجلة التي لم تفرق يومها بين الرأسمالية الكبيرة وبين البرجوازية الصغيرة الناشطة. ولعل اسم الطبقة (الوسطى) يذكر بما يدعو إليه اليوم علماء الدين المتنورون مما يسمونه (الوسطية) فقد كانت هذه الطبقة وسطى حتى بالمعيار الديني، فهي طبقة تكره الغلو والتشدد وتميل إلى اليسر والتسامح، وتغض الطرف عن الذنوب واللمم، وتدرك أن الدين على شموليته الاجتماعية هو حالة فكرية تقوم على القناعة العقلية والنفسية وأنه لا إكراه في الدين، وهي تفهم أن التمسك به أو التفلت منه على

صعيد فردي هو حالة وجدانية مرتبطة بالفرد الذي يقوى إيمانه ويضعف· وهي تهتم بالشكل العام، وتأخذ بالظاهر، وتدرك أن الإسلام لم يأمر بأن تشق قلوب الناس كي يعرف المؤمن من الكافر، فقد يصبح المرء مؤمناً ويمسي وهو كافر، والعكس ممكن، ولا وسيط بين العبد وربه· وهي لكونها طبقة وسطى فهي طبقة جامعة، تأتلف فيها كل الأديان التي يؤمن بها المواطنون· إن المراجعة النقدية ضرورة مهمة لتفحص النتائج وتقويمها، وأجد أن تقوية حضور الطبقة الوسطى سيحقق الوسطية التي تنشدها المجتمعات الإسلامية بشكل عفوي، لأن هذه الطبقة الواعية حاملة القضايا الوطنية لا تقبل بطبيعتها الانفتاحية وقابليتها الديمقراطية ظهور أية أفكار متطرفة أو عنيفة، بل هي سرعان ما تواجهها بالفكر والرأي الآخر، وليس بالعنف الذي يولد عنفاً، وهي تقضي على الظاهرة بسد الذرائع، وكبح الأسباب· وأؤكد على أن ظهور التطرف الفكري أو الديني في تجلياته السياسية لا مبرر له ولا حجة، فهو حالة شاذة، وانحراف يجب أن يقوّم بقوة الفكر السليم وبقوة القانون العادل، وبالحذر من تدخل خارجي يدعمه ويدفعه إلى تحطيم الأمن الاجتماعي، وأؤيد دعوة الشيخ محمد بن زايد إلى ضرورة نبذ المجرمين من المتطرفين من الإسلام والفتوى بإخراجهم من الملة، لأنهم صاروا أعداء الإسلام، يشوهون صورته، ويهددون أمن المجتمع ومستقبله، بل هم يجعلون الناس ينفرون من الإسلام ما دام في نظرهم مسؤولاً عن الظاهرة وهو منها براء· لقد كان من مفارقات مؤتمر الكواكبي الذي نذكره بمناسبة انعقاد مؤتمر مكة أنه يقدم مداخلات تصلح أن يأخذها المؤتمرون شعارات لهم من ذلك قوله "إذا لم تحسن أمة سياسة نفسها أذلها الله لأمة أخرى تحكمها" وقد انتقد المقولة المتخلفة الشهيرة "التسليم أهون من التبصير، والتقليد أستر للجهل" وحمّل المسلمين صراحة مسؤولية ما آلوا إليه من ضعف وهوان "فهم المتسببون بما هم فيه، فلا يعتبون على الأغيار ولا على الأقدار"· إن الحاجة ماسة لقيام حركة نقدية واسعة للخطابين الديني والسياسي يشارك فيها علماء الدين ومثقفو القومية والليبرالية والعلمانيون وكل المسؤولين عن صنع الغد، وهم جميعاً بناة الطبقة الوسطى التي تنتج الوسطية في كل شيء، وقد جعلنا الله سبحانه وتعالى أمة وسطاً".

٢٠٠٥/١٢/٩

بين معاداة السامية ومعاداة الإسلام

لم أفاجأ بأن يدخل في الإسلام أكثر من خمسين دانماركياً خلال هذه الأيام القريبة الماضية التي تنبه فيها عامة الدانماركيين إلى أن محمداً نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم شخصية فذة فريدة يلتف حولها ويقدسها مليار ونصف المليار من المسلمين في العالم.

وعلى ذكر الضارة النافعة أعتقد أن الحاقدين على نبينا محمد عليه الصلاة والسلام يقدمون من حيث لا يدرون ولا يريدون فرصة لأهل الغرب عامة ليروا حجم تعلق المسلمين بنبيهم العظيم. وقد سمعت بعض المسؤولين في دول إسكندنافية يقولون إنهم لم يكونوا يقدرون أن صوراً كاريكاتورية تنشرها صحيفة غربية يمكن أن تحدث ما حدث من ردة فعل قوية مستنكرة.

ولأنني من المؤمنين بنظرية المؤامرة الصهيونية على الأمتين العربية والإسلامية حتى وإن أنكر عليّ ذلك من يرون التاريخ مجرد مصادفات، فإنني أشك (والشك طريق ديكارتي لليقين) في أن نشر الرسوم لم يكن حدثاً صحفياً عادياً بين منشورات الصحيفة، بل هو حلقة من الحملة المنظمة والمبرمجة لمعاداة الإسلام، وهي ليست حملة جديدة ولكنها أخذت طابعاً رسمياً ودولياً مقلقاً منذ أن تولى اليمين المتطرف مقاليد الحكم في الولايات المتحدة، وواكب ذلك صعود المتطرفين وعلى رأسهم شارون إلى سدة السلطة في إسرائيل، وقد بدأ عهده باقتحام المسجد الأقصى مما أثار مشاعر المسلمين في العالم كله، وكانت انتفاضة الأقصى تعبيراً عن رفض ذاك العدوان.

ولقد كتب الكثير عن حملة معاداة الإسلام، ونوقشت بعمق آراء برنارد لويس في صراع الثقافات التي ورثها هنتينغتون في تنبئه المبرمج بصراع الحضارات، ونادى المسلمون بحوار الحضارات بديلاً عن الصراع وقد استجاب لهم كثير من المفكرين الغربيين المعتدلين وشخصيات ذات مكانة من رجال الدين المسيحي واليهودي وتحققت مناظرات مهمة في حوار الأديان أو التقارب بينها، لكن الاستجابة السياسية الرسمية للحوار كانت ضعيفة جداً، حيث ما يزال فريق من المتطرفين يحلمون بأن يفيقوا يوماً فلا يروا مسلماً على وجه الأرض. ويبدو أن هذا الحلم المستحيل يشبه الحلم الذي كان يراود رابين بأن يصحو يوماً فلا يرى غزة، ولكن رابين صحا من حلمه على واقع أن الفلسطينيين موجودون رغم أكذوبة مائير، وحين حاول أن يعترف بالواقع وكاد يصنع السلام قتله المتطرفون، وقتلوا بعده عرفات. وكانت المفارقة أن شارون ذاته هو الذي أمر بالانسحاب من غزة (وقد اعتبر المتطرفون مرضه وشلله غضباً من

الرب عليه لأنه خالف إرادته وتنازل عن غزة) بل المفارقة الأهم أن شارون "بطل" إسرائيل التاريخي هو الذي أمر بأن يسجن الإسرائيليون خلف الجدار أو السور، متنازلاً على صعيد عملي عن حلم إسرائيل الكبرى، ومغلقاً الأبواب على "غيتو" إسرائيل الصغرى التي كان بيريز يحلم بأن يفتح أبوابها على شرق أوسط كبير.

وكما أن وهم إسرائيل الكبرى تبدد وصار من أساطير الحالمين، يتبدد يوماً بعد يوم حلم الواهمين بأن يفيقوا يوماً فلا يروا مئذنة يرتفع منها صوت مؤذن يكبر باسم الله، أو أن يسمعوا قرآناً يتلى، وهم قلقون لأن الإسلام يزداد حضوراً في أوروبا، وقد بدؤوا يحاصرونه بتهمة الإرهاب، ولكن فاجعتهم أن الإسلام يزداد انتشاراً رغم كل التشويه الذي يلحقه به أعداؤه. والمؤسف أن فريقاً كبيراً من أعداء الإسلام هم ممن يدعون بأنهم مسلمون، فمع أنني مازلت غير متأكد من أن عرباً أو مسلمين هم الذين ارتكبوا جريمة ١١ سبتمبر (وسأبقى مُصراً على براءتهم حتى تظهر الأدلة القاطعة) إلا أنني أعتقد أن الفكر المتطرف الذي يروج له من يسمحون لأنفسهم باحتكار الدين أو بتكفير الناس وهدر دمائهم لأنهم يخالفونهم الفكر أو المعتقد هم أخطر على الإسلام من أعدائه الصريحين، ومع أنني كذلك غير متأكد من صحة اتهام عرب أو مسلمين بتفجيرات لندن أو مدريد أو سواها من التفجيرات لكن احتمال تورط مسلمين متطرفين بذلك وارد، وهذا يشوه الإسلام ويقدم الأدلة لمن يبحث عنها على أن الإسلام دين يقدس العنف، ويمهد لقبول بعض الأوروبيين بمثل هذه الإساءات لنبي الإسلام، كما أن الجرائم المريعة التي تحدث في العراق من خطف وقتل للأبرياء، أو تلك التي حدثت في فنادق عمان تسيء إلى الإسلام إن كان حقاً قد قام بها مسلمون، وأنا لا أستبعد ذلك، ولكنني لا أبرئ أعداء الإسلام من احتمال كونهم يرتكبون الجرائم ويرمون بها الإسلام بهدف تبرير الحملة ضده. وقد كبرت الحملة ضد الإسلام مع فوز "حماس" في الانتخابات الفلسطينية ويأتي انتصارها رداً شعبياً صارخاً على حملة معاداة العروبة والإسلام، وتعبيراً واضحاً عن يأس الشعب الفلسطيني (بل العربي كله) من مسيرة السلام التي لم تصل إلى شيء، وتأكيداً على التمسك بحق المقاومة المشروعة للاحتلال.

وقد بدأت المراهنات على أن "حماس" ستفشل وتتنازل وأنها لن تستطيع التمسك بمبادئها، وأنا واثق بأن الإخوة في "حماس" يملكون رؤية واسعة للعالم، وقدرة على التلاؤم أنضج من كل الذين يظنون أنفسهم عباقرة سياسة ممن لا يملكون من القدرة والخبرة غير تقديم التنازلات المجانية. والعجيب أن بعض دعاة ما يسمى الليبرالية الجديدة من العرب المرابطين في واشنطن أو العاملين في إعلامها العربي الصهيوني بدوا أكثر قلقاً على إسرائيل من اليهود أنفسهم، وقد

بدؤوا يطالبون "حماس" بأن تعترف بإسرائيل فوراً وأن تلغي تمسكها بالمقاومة، وقد يطلبون منها أن تلغي انتماءها للإسلام أيضاً كي تطمئن إسرائيل!! إنني واثق من أن الإخوة في "حماس" سيقدمون تجربة ناجحة تكرس قيم الديمقراطية التي أوصلتهم إلى السلطة (وهذه مناسبة لأحيي الأخ الرئيس "أبو مازن" لحرصه على النزاهة الديمقراطية التي سيذكرها التاريخ له ولـ"فتح") وواثق من أن المجتمع الدولي سيجد نفسه أمام جدية في البحث عن السلام العادل والشامل لأن الشعب الفلسطيني لن يقبل مزيداً من إضاعة الوقت والمماطلة والوعود الخادعة، ولن ترهبه تهديدات إسرائيل باغتيال قادة "حماس" فقد زادتها حملة اغتيالات قادتها إيماناً وثباتاً على الحق.

إن الحملة ضد "حماس" و"حزب الله" هي الحلقة الأبرز في حملة معاداة الإسلام، ونحن نؤكد أن حرصنا على قيم ومفاهيم الإسلام السمح تعزز رفضنا للتطرف الذي لا ينحصر في دين أو ثقافة أو عرق أو جنسية، ونحن ندعو إلى انفتاح وتفاعل عالمي مع كل الأفكار والثقافات واحترام العقائد والأديان والخصوصيات، ولكننا نكره أن يستمر المجتمع الدولي في حالة من اختلال الموازين، فكيف يمكن تبرير حرص الرئيس بوش على وضع قانون يلزم وزارة الخارجية الأميركية بتقديم تقرير سنوي عن معاداة السامية في العالم كله بينما يصمت العالم على معاداة الإسلام؟ وكيف نفهم موقف فرنسا التي أكد وزير خارجيتها أنه لن يتسامح مع معاداة السامية في الوقت الذي تتم فيه يومياً معاداة الإسلام دون أن ينزعج لذلك قادة الغرب، بل يقال إنها ديمقراطية وحرية تعبير، فلمَ إذن قامت قيامة العالم ضد مهاتير محمد لمجرد أنه أشار إلى تنامي نفوذ اليهود في العالم؟ وكيف يمكن تفسير إصرار قادة المجتمع الغربي تحديداً، على أن أي انتقاد سياسي لدولة إسرائيل هو معاداة للسامية؟ إننا ندرك أن في أوروبا والغرب عامة علمانيين ملحدين لا يؤمنون بالأديان كلها، ولكن هل يجرؤ أحد منهم على أن يقلل من عدد ضحايا "الهولوكست" أو أن ينتقد إسرائيل لكونها دولة دينية تحمل اسم نبي؟ ألم تقم قيامة زعامات الغرب حين كشف استطلاع للرأي أن غالبية الأوروبيين يعتقدون أن إسرائيل تهدد السلام العالمي؟ إننا ندعو قادة العالم إلى الإنصاف، وإلى سن قوانين دولية تعاقب من يعتدي على المقدسات الدينية عامة، ومشكلتنا التي نعتز بها أننا لا نستطيع أن نرد على الإساءة بمثلها حين يشتم نبينا أو يذم، فنحن وحدنا نتفرد بين أتباع الديانات السماوية بأننا نؤمن بالرسل جميعاً، ولا يكتمل إيمان أحدنا حتى يؤمن بكل الأنبياء كإيمانه بنبينا العظيم محمد، ونحن نغضب ذات الغضب الذي نغضبه لمحمد عليه الصلاة والسلام، حين يساء إلى مريم أو يسوع أو موسى عليهم السلام فهم أنبياؤنا جميعاً لأن نبينا جاء مصدقاً لما بين يديه من كتب ورسالات سماوية.

لقد قال هنتينغتون في كتابه "من نحــن؟" إن العــداء للإســلام وللحضـــارة الإســلامية ضروريان لأنهما يساعدان على تحقيق التفاف الأميركيين حول هويتهم الأميركية، وإنه يحقــق صحوة مسيحية جديدة في أميركا، ويسانده عدد كبير من المثقفين الأوروبيين الذين باتوا يخشون تنامي حضور الإسلام في أوروبا، ولكنهم يتجاهلون أن عداء الإســلام وكراهيتــه ومحاربتــه بالعنف والإرهاب الفكري ستولد عنفاً مضاداً، كما أن دعوتهم إلى محاربة الإســلام وعدائــه، تكشف زيف ادعائهم بأنهم يبشرون بقيم الديمقراطية وحقوق الإنسان، فمن أبسط حقوق الإنسان حرية معتقده واحترام الآخرين لهذا المعتقد، وهذا ما حققه الإسلام العظيم حين أعلــن حريــة الاعتقاد حتى إنه سمى الكفر به ديناً واعترف به (لكم دينكم ولي دين).

٢٠٠٦/٢/٣

مفجع ما وصل إليه الحال بين سوريا وبعض لبنان، ولكنه ليس مفاجئاً، فحين أطلق الشعبان شعارهما الغنائي الفيروزي الراسخ في الوجدان "سوا ربينا" كان هناك من تهكم على الشعار بترديد أغنية "لا أنت حبيبي ولا ربينا سوا"، ولم تكن الكثرة المطلقة من السوريين واللبنانيين تجهل هوية المتهكمين، فالذاكرة البعيدة والقريبة ما تزال مثخنة بالجراح، تحاول أن تتخفف من أحزان الأمس الفاجعة، حين دمرت حروب الطوائف لبنان وكادت تخرجه من عروبته. يومها استجار الوطنيون اللبنانيون بالجار الشقيق فأجارهم، ولم تكن تلك النصرة لفريق ضد فريق بل كانت نصرة للبنان كله، لإطفاء الحرائق فوق الرماد وتحته، وكان لابد لسوريا من أن تردع من يشعل النار حتى وإن كان يرد على النار بنار، إلى حد تعرضها لإساءة الظن ممن لم يفهموا لغز مواقف دمشق التي جعلت بعض السوريين يتساءلون يومها بحدة "نحن مع من وضد من في لبنان؟". وكان على المرتابين أن ينتظروا بضع سنين حتى يطمئنوا إلى أن هدف سوريا هو ردع المعتدي كائناً من كان، وإطفاء حرائق الفتنة، والحفاظ على سمة التوازن في المجتمع اللبناني. ومع أن المهمة السورية كانت تلبية لنداء الشرعية اللبنانية، فإنها كانت كذلك إغلاقاً لنوافذ قد يتسرب منها الشر إلى الشام، وتصير ثغرة لإسرائيل العريقة في النفوذ في ليل بيروت، فليس سراً أن "الموساد" ركز نشاطه على بيروت، ومصادر "الموساد" تباهي بنجاحاتها، غير آبهة بانكشاف الأسرار، وحسبك قصة "شولا كوهين" المثيرة وصاحبها ضابط الارتباط الإسرائيلي "إدوار هيس" الذي هيأ لها بدء مهمتها الناجحة، وقد كشفها السوريون قبل أن يظهر عندهم "كوهين"، لكن انكشاف شبكة لا يعني توقف "الموساد" عن زرع الشبكات التي تجد في توجهات بعض الانعزاليين بيئة لمزيد من النشاط، بهدف تحقيق حلم إسرائيلي معلن في العديد من الأدبيات الإسرائيلية، وقد عبر عنها "موشي شاريت" في مذكراته عام ١٩٥٢ حين قال "إن إخراج لبنان من دائرة العالم العربي ودمجه مع إسرائيل أمر مشجع للغاية، فهو يفتح الباب أمام إعادة اصطفاف بعيدة المدى في التركيبة السكانية للشرق الأوسط".

ومن يريد استزادة في المعلومات فسوف يفاجأ بأسماء الشخصيات التي عقدت اتفاقات مع الصهيونية العالمية لتحقيق هذه الرؤية، والأمر ليس سراً فقد فضحته تفاصيل وأهداف الحرب الأهلية التي يخشى الوطنيون اللبنانيون أن يكون مسلسل الاغتيالات الراهنة تمهيداً لتحقيق أهدافها القديمة التي أفشلها التحالف اللبناني الوطني مع السوريين، وبعضهم يستعيد مأساة مستصغر الشرر الذي أذكى النار الكبرى، فقد كان اغتيال النائب اللبناني معروف سعد بداية أحداث صيدا

الدامية وكرت سبحة الاغتيالات في لبنان لتذكي الأوار ولتكبر ساحة الدم حتى صارت حرباً مدمرة، فأما المفارقة الكبرى بين ما حدث في أواسط السبعينيات وبين ما يحدث اليوم فهو أن الوطنيين اللبنانيين عامة كانوا أشد وعياً لأهداف ما يحدث وللمخبوء من المؤامرات فيه، وهذا هو سر انتصارهم وقدرتهم على إفشال مخططات وأهداف مجرمي الحرب وصناعها، وبفضل هذا الوعي، وبفضل الدخول السوري إلى الميدان تم الحفاظ على وحدة لبنان، وحين وجدت إسرائيل نفسها تخسر مشروعها قامت باجتياح لبنان، ونفذت جرائم بشعة كتلك التي كانت في مخيم صبرا وشاتيلا، وتمازج الدم السوري واللبناني ليعقدا معاً ما سماه الحريري الشهيد فيما بعد "وحدة المصير بين بيروت ودمشق" وتصاعد الدعم السوري لاستقلال لبنان ووحدته حتى نهضت دولته، واستقرت مؤسساته، وأمن مجتمعه، وتمكنت مقاومته من تحقيق انتصار الإرادة الصلبة. وقد غابت عن كثير من الناس حقيقة أن إسرائيل التي هزمت في ظرف لم يساعدها على تحقيق مآربها، لم تتنازل عن مشروعها، وهي تعلم أن لها في لبنان من أعداء العروبة من يشجعونها على معاودة الكرة، وقد نضجت لها الظروف، ولا سيما بعد أن ابتلي العرب بتهمة ١١ سبتمبر فبات همُّ الغالبية منهم أن يدرؤوا التهمة عن أنفسهم باسترضاء الأميركيين، وبات بعضهم يتشهى لو أنه يتخفف من عبء الإسلام كله، بل إن بعضهم تخفف من عبء العروبة.

والمفجع أن بعض النخبويين من كتاب ومفكرين يتعامون عن حقيقة اغتيال الحقيقة، وأقول يتعامون لأنني لا أستطيع أن أصدق أنهم فقدوا البوصلة واقتنعوا بما يروج الإعلام الصهيوني وذيله العربي، وقد يقع في تلك التعمية من لا يجيدون قراءة آية من القرآن، أو رواية بيت شعر عربي، ولكن المذهل أن يقع في الفخ كتاب محترمون من وزن الدكتور رضوان السيد مثلاً، فقد ذهلت حين قرأت مقالته المنشورة في "الاتحاد" (وجهات نظر)، بتاريخ ١٨/ ١٢/ ٢٠٠٥ تحت عنوان "قتيل لبناني آخر فما العمل؟"، وعجبت كيف تغيب إسرائيل عن رؤية باحث لبناني من طراز السيد، أهي عنده فوق الشكوك والشبهات؟ وهو إذ يستعرض ما يدور من تكهنات حول من قتل (الشهيد) جبران تويني يلف ويدور ليوحي بأن سوريا وبقايا أعوانها في الأجهزة الأمنية هم الذين قتلوه، وتكاد تغيب كلمة إسرائيل عن مقالته، بل عن رؤيته، ولو أن غيره يقول ذلك لفهمنا حرصه على ألا نقع فيما يسمونه لنا فخ "نظرية المؤامرة" التي باتت تصلح فقط لاتهام سوريا أما حين يكون الحديث عن إسرائيل فإن أي احتمال شك بدور لإسرائيل هو غيبوبة الفكر العربي الغارق في نظرية المؤامرة التي تجعل "المتخلفين" من العرب يرمون كل أخطائهم على شماعة إسرائيل وما يزالون يتصورون أنها لهم عدو!

ولعل هؤلاء يستبعدون إسرائيل لأنها اعتادت أن تغتال العرب في وضح النهار، وأن تلقى الدعم والتأييد والتهاني من سادة المجتمع الدولي حين تقتل عربياً شريفاً كما حدث يوم اغتيالت الشيخ أحمد ياسين وبعده الرنتيسي، ولكن المفكر العربي يستبعد أن تكون يد مجرمة غريبة قتلت جبران تويني صباح اليوم الذي تستعد فيه سوريا لمواجهة في مجلس الأمن، ولعل أعداء سوريا، حتى من بعض اللبنانيين، كانوا يخشون أن تفتر همة مجلس الأمن ضد سوريا، وأن يكتشف المجتمع الدولي فراغ تقرير ميليس من أدلة أو حقائق، فكان لابد من حدث جلل يعيد الزخم ضد سوريا، وكان اختيارهم لجبران مع إسراع جنبلاط وجوقته في اتهام سوريا واضح الهدف، لكنه واضح التلفيق كذلك. فجبران يكتب ضد سوريا منذ أن ولدته أمه، ولو كانت سوريا تضيق به إلى حد التفكير باغتياله لما انتظرت سنين طوالاً كي تتخلص منه، فقد كان في حمايتها، ولم نكن في الشام نشعر بأبعد من العتب على جبران، ولعله تحدث إلى أبيه عن هذا العتب اللطيف، وقد حملته إليه بنفسي ذات يوم قبل نحو عامين حين دعاني إلى عشاء كريم وناقشت معه موقفه وأسبابه، ويومها قلت لجبران، إننا عاتبون عليك لأنك لم تحفظ سيرة جدك جبران، ونعجب كيف تنسى أن دمشق هي التي حفظت للبنان هويته واستقلاله ووحدته. ويومها كان الرجل سمحاً لطيفاً، وكان قبل يوم قد كتب مقالة عنيفة ضد فاروق الشرع، فقال لي هاتِ مقالة ضد مقالتي وسأنشرها في "النهار"، وكان ذلك، وقد نمت العلاقة بيننا، واتفقنا على أن ثمة سوء فهم لدور سوريا، وأننا في الشام لا ننكر ما يقع فيه بعض السوريين واللبنانيين من أخطاء فادحة تسيء إلى البلدين، وبالطبع لم يتوقف جبران عن كتاباته ضد سوريا حين كانت قواها الأمنية على مقربة منه. ولم نتوقف عن العتب عليه، ولكننا كذلك لم نتوقف عن احترام كل ذي قلم وفكر حتى وإن خالفناه الرأي، وحسبنا دليلاً أن كتاب المعارضة السورية الوطنية كانوا يكتبون في "النهار" ليل نهار، وهم جميعاً على صلة حميمة بجبران، فإن لم يصدق أعداء لبنان أننا أسوياء، فالعجب كل العجب أن يقع في الفخ مثقفون كانوا حتى الأمس القريب أصدق الأصدقاء لسوريا كما كانوا يدعون!

٢٠٠٥/١٢/٢٣

ما يحدث بين سوريا ولبنان

كان ضرورياً أن تتنبه الدول العربية إلى خطورة أهداف الحملة الضارية على سوريا، وما يمكن أن تجر إليه من احتمالات مريعة، فليس مصادفة أن يصعّد جنبلاط حملته بالتزامن مع حملة خدام، ومع تزاحم زيارات مسؤولين أوروبيين وأميركان إلى بيروت لتوزيع الأدوار وتضييق الخناق على سوريا، ومع انقلابات دراماتيكية في الأحلاف اللبنانية، من أخطرها خروج بعضهم على ما كان ثوابت لا جدال فيها. وقد جاء رفض بعض الأطراف اللبنانية للمبادرات العربية لإصلاح الموقف ودعوتهم لتدخل أجنبي منذراً بوجود خطة لإشعال الحرائق عبر استفزاز الحركة الوطنية الواسعة المتمسكة بعروبة لبنان والرافضة للتدخل الأجنبي والحريصة على حضور المقاومة وعدم السماح لإسرائيل وأعوانها في الداخل بأن تقتص من المقاومين الشرفاء فتنال بالسياسة الخادعة ما لم تستطع نيله بالحروب الفاجعة.

ولست مطمئناً لسيل التصريحات التي تؤكد أن الولايات المتحدة تستبعد العمل العسكري في المنطقة، فقد حرصت الولايات المتحدة على أن يصدر مجلس الأمن قراراته ضد سوريا تحت البند السابع، لتكون لها حرية التصرف حين تشاء، وهذا لا يعني أنني أتوقع أن تشن الولايات المتحدة حرباً جديدة، ولكنني لا أريد أن نستبعد هذا الاحتمال الذي يسعى إليه كثير من قادة "المحافظين الجدد" الذين لم يعد لهم هم في الكرة الأرضية غير التخلص من وجود "حزب الله" في لبنان ومن حضور "حماس" في فلسطين، وغير إخضاع سوريا وإجبارها على السير في خدمة المشروع الأميركي.

ولست أطمئن إلى تبرير استبعاد احتمال قيام الولايات المتحدة أو إسرائيل بعمل عسكري بكونهما أخفقتا في العراق، أو بالقول إن الطرفين لا يرغبان بالمزيد من الفوضى والتدمير وقد جاءت نتائجهما مزيداً من الإرهاب، فقد يكون هذا صحيحاً، ولكن قد يكون خديعة كذلك، فالذين هدموا العراق ودمروا شعبه وسرحوا الجيش العراقي والشرطة كانوا يسعون إلى إحداث الفوضى. ومما يدعو إلى الريبة بالمخطط القادم هو احتمال صعود فريق نتانياهو إلى الحكم في إسرائيل وهو الفريق الذي خطط لإفشال عملية السلام في مدريد، وقلب مبدأ العملية السلمية من (السلام مقابل الأرض) إلى (السلام مقابل أمن العرب) و"الصقور" الذين يستعدون اليوم لوراثة شارون ليسوا أقل دموية منه، وهناك من يدعو بينهم إلى ضرب سوريا وجنوب لبنان، وإشاعة الفوضى في المنطقة كلها لأنها الوسيلة الوحيدة التي تتيح تفتيت البنى الاجتماعية والسياسية المستقرة، وإثارة النزعات الطائفية والعرقية وإنهاك الدول العربية بالصراعات العرقية والإثنية والدينية والمذهبية. وليس أفضل لإسرائيل كي ترسخ كونها الدولة القوية الوحيدة الآمنة

المستقرة من أن يغرق العرب والمسلمون في حروب أهلية طاحنة، وتكون مهمة إسرائيل توفير السلاح لهم، وتأجيج الصراع بينهم، كي تتاح لها سيطرة مطلقة على الشرق الأوسط الكبير إن رفض إسرائيل للمبادرة العربية للسلام (وهي فرصة ذهبية تحل كل مشكلات المنطقة)، دليل على أن الحرب ما تزال الخيار المفضل عند إسرائيل، وقد بات واضحاً أمام المجتمع الدولي أنها تهرب من السلام لأنها لا تريد أن تدفع ثمنه، وقد قال بيريز يوماً (إن انسحاب إسرائيل إلى حدود الـ٦٧ يعني نهاية إسرائيل) ويبدو أن حكماء الصهيونية يدركون أن إسرائيل لا تستطيع العيش في بيئة سلام، لأن طبيعتها عدوانية، فهي دولة تأسست على سرقة أرض وتهجير شعب وقتل أبنائه وقد سعت إلى إبادته بدعم أوروبي غربي ثم أميركي على مدى مئة عام ونيف، ولكنه شعب ولود مناضل عنيد في تمسكه بحقوقه، وقد جرب معها مسيرة السلام فلم يصل إلى شيء، بل إنها قتلت رابين ثم قتلت عرفات لكي تقتل عملية السلام، ولم يفلح معها غير المقاومة التي أجبرتها على الهروب من جنوب لبنان، ثم على الهروب من غزة، وهي اليوم تتمسك بالقوة المطلقة كي لا تواجه استحقاقات السلام.

إن دعاة الحرب وإشاعة الفوضى في المنطقة لا يدعون إلى ذلك جزافاً، فالفوضى والدمار هما البيئة المناسبة لنمو المشروع الصهيوني الذي يواجه انكفاء وتراجعاً وعزلة خلف الجدار العازل، والصهاينة المتطرفون الذين يحملون أحقاداً تاريخية من عصر بابل ثم من عصر خيبر يخشون أن يبدد السلام أوهامهم، لأن استقرار المنطقة لن يسمح لإسرائيل بأن تحقق أحلاماً تاريخية ودينية على حساب العرب والمسلمين، بل إن السلام سيفرض على إسرائيل الاندماج في المنطقة وهذا ما يخشاه المتطرفون لأنه يهدد الهوية الدينية والعنصرية لإسرائيل التي ستكون نشازاً في بيئة تعددية إنسانية مسالمة .

ولقد بدأت أطراف معينة في لبنان بتصعيد حملتها على سوريا واعتبارها عدواً للبنان تمهيداً وتحريضاً لإشعال الفتنة، ومن يسمع تصريحات جنبلاط الأخيرة يدرك خطر ما يتم التحضير له، وليس صحيحاً ادعاؤه بأنه يفرق بين الشعب السوري وبين النظام لأنه وأعوانه قتلوا العشرات من العمال السوريين البسطاء الذين كانوا يسهمون بسواعدهم في بناء لبنان وعمرانه.

لقد قال جنبلاط في إحدى مقابلاته على قناة "الحرة" قبل أيام إن مشكلته مع "حزب الله" و"أمل" ومع كل أصدقاء سوريا أنهم يرفضون اتهام سوريا في الجرائم التي حدثت ويريدون ألا تستبعد إسرائيل وجواسيسها الذين يصولون ويجولون في لبنان من الاتهام، بينما يرفض جنبلاط

أي سوء ظن بإسرائيل، فهي عنده فوق الاتهام! والعجيب أن يكشف عن عدائه للمقاومة وهو الذي كان يدعي أنه من أنصارها ·

إنني شخصياً لم أفاجأ بموقف جنبلاط، فلم أثق يوماً بما كان يزعم ويدعي من وفاء وولاء لسوريا وللأمة العربية، ولقد كانت سوريا مضطرة أن تتعامل مع مجرمي الحرب، وربما كانت غلطتها أنها كرست زعاماتهم، وإذا كان علينا أن نعترف بوجود أخطاء لسوريا في لبنان فهي ليست في قيام بعض الجنود بتهريب علبة جبنة سويسرية أو تيلفزيون ملون وما شابه ذلك أيام كان الحصار مفروضاً على سوريا من الداخل والخارج، أو قيام بعض النافذين من سوريا ولبنان بتصرفات لاأخلاقية نستنكرها ونضيق بها ونحاربها في سوريا وفي لبنان وندعو إلى محاسبة مرتكبيها، إن الخطأ الأهم في نظري هو ما كان من قبول بالأمر الواقع الذي فرض تكريس مجرمي الحرب ومهندسي الطائفية السياسية زعماء في لبنان، وتوزيرهم واسترضائهم بالمناصب والمغانم·

إن أبرز الشرفاء في لبنان هم الذين استفادوا من وجود سوريا لكي يبنوا مقاومة تحرر بلدهم، وهم كذلك الذين استفادوا من الاستقرار الذي أسهمت سوريا في تحقيقه، فأعادوا بناء لبنان وإعماره، وهم الذين حرصوا على أن تكون العلاقة بين سوريا ولبنان أخوية واستراتيجية، تتجاوز حالات الفساد التي قامت بسبب تغاضي من كانوا يديرون الشأن السوري ــ اللبناني من بدايته ومن تحالفوا مع الفساد أو أوجدوه وجاءوا اليوم يعلنون ندمهم ويبرؤون مما كانوا يفعلون· وأنا لا أوزع هنا شهادات حسن أو سوء سلوك على الآخرين، ولكنني أبدي رأياً شخصياً لا يستثني من دائرة من أحترمهم (وإن كنت أخالفهم الرأي) أولئك الذين جاهروا بعدائهم لسوريا ووقفوا ضدها مثل العماد ميشيل عون، بل إن الذين أعلنوا أنهم مع إسرائيل ضد سوريا وضد العرب وضد الإسلام ودافعوا عن كونهم فينيقيين لا يمتون للعروبة بنسب مع أنهم لا يتكلمون اللغة الفينيقية، فإنهم أصدق في موقفهم مع أنفسهم من جمهرة المنافقين الذين كانوا يهتفون لسوريا ويدعون أنهم أوفياء لها، وكان جل أحلام بعضهم أن ينال رضا ضابط أمن صغير، وكان بعضهم يبيعون كرامتهم بالرخيص مقابل منصب أو تقرباً من صاحب منصب، وهؤلاء هم الفاسدون المفسدون ولن يقنعوا أحداً اليوم بأنهم وطنيون·كان على السوريين واللبنانيين الشرفاء أن يبنوا للبنان الجديد نخبة سياسية غير مدانة وغير محقونة بأحقاد طائفية، وأن يستبعدوا هؤلاء الحاقدين، وأرجو من جيل الشباب اللبناني الذي أسس تيار "المستقبل" على أسس وطنية وقومية صرفة، تحمي المقاومة وتصون مستقبل العلاقة اللبنانية ــ السورية، أن يؤكدوا وفاءهم لمبادئ الشهيد رفيق الحريري رحمه الله، وألا يسمحوا لثلة المنافقين بأن يرسموا

لشباب لبنان اتجاهاته وأن يخرجوه عن مبادئه وأهدافه، وأن يجعلوه مطية للفتك بالفلسطينيين في مخيماتهم، والانتقام من "حزب الله" لأنه ألحق الهزيمة بالإسرائيليين، وهؤلاء المنافقون يستغلون اليوم رحيل قائد التيار، وضعف الخبرة السياسية والفكرية عند ورثته الذين وقعوا أسرى فجيعتهم، ووجدوا أنفسهم فور حدوث الجريمة محاصرين بالذين كانوا حتى الأمس القريب أعداء الحريري. وأتمنى على شبان تيار "المستقبل" أن يتحملوا مسؤولياتهم التاريخية فلا يدعوا أحداً ينهش باسمهم في جسد المقاومة التي كان الحريري يحميها برموش العين، وأتمنى عليهم أن ينضموا إلى أقرانهم من الشباب اللبناني الذي نهض بقوة لإعلان موقفه الرافض لوقوع لبنان تحت الوصاية الأجنبية، التي يستدعيها بعض محترفي السياسة وتجارها. وأرجو أن يطمئنوا جميعاً إلى أن سوريا هي العمق الأخوي لهم، ولم تكن لها قط أطماع في لبنان، ولن تكون لها أطماع، وكان حسبهم أن ينصفوا دورها في الدفاع عن وحدة لبنان وعن استقلاله وحرصها على بناء دولته وسيادته، وألا تعميهم الأخطاء التي نستنكرها معهم عن رؤية الحقيقة الأعمق.

٢٠٠٦/١/٢٠

هل صدقت نبوءة هنتنغتون؟

ما زلت أرى أن ما سمي نبوءة هنتنغتون في مقالته الشهيرة عن حرب الحضارات لم تكن نبوءة وإنما كانت تسويقاً لخطة مبرمجة بهدف القضاء على الميراث الثقافي الشرقي، فقد طالب هنتنغتون صراحة بأن يغلق حلف الناتو أبوابه أمام الدول ذات الميراث الشرقي، وقد سمى هذا الحلف منظمة أمنية للحضارة الغربية، يجب ألا تنضم إليه ثقافتان شرقيتان هما الثقافة الإسلامية والثقافة المسيحية الأرثوذوكسية. ومع أن العداء للإسلام لم يتوقف منذ أن ظهر الإسلام، إلا أنه لم يأخذ قط عبر التاريخ المضطرب في علاقة المسلمين مع الغرب المسيحي هذا الطابع الاستفزازي الذي نشهده اليوم، ومن الواضح أن نشر الرسوم التي أساءت للرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم، كان جزءاً من حملة مبرمجة اخترعت لها الأسباب وهذه الرسوم تذكرنا بقصة الفتاتين اليهوديتين الفرنسيتين اللتين دخلتا الإسلام وارتدتا الحجاب وبقي أبوهما على دينه، ولكنه انتصر لابنتيه حين رفضت المدرسة حجابهما وأقام دعوى ضد المدرسة كانت الشرر الذي أشعل فتنة الحجاب. وأحسب أن أحداً لم يسأل بعد عن الفتاتين فقد انشغل الناس بفتنة الحجاب التي دعت الشارع الإسلامي المحب لفرنسا أن يتظاهر ضدها رغم أنه كان شديد الحرص على علاقة حميمة مع فرنسا التي كان العرب والمسلمون يقدرون لها مواقفها الداعمة لكل القضايا العربية، ولم يكن أحد في العرب والمسلمين يكره الدانمرك أو النرويج أو الدول الاسكندنافية فليس في الذاكرة العربية ما يثير كراهية لها، ولكن فتنة الرسوم المفتعلة التي نسي الناس اسم من رسمها ولم يهتموا بمؤلف الكتاب الذي رسمت من أجله وهو كتاب يهدف إلى تشويه صورة النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام، فقد انشغل الناس بفتنة الرسوم التي أقامت الدنيا ولم تقعدها في العالم الإسلامي ولم تحقق أي انتصار أوروبي لما زعموا من حرية التعبير، ولكنها حققت شرخاً جديداً في العلاقات العربية الإسلامية مع الغرب المسيحي والليبرالي. ولم يكسب الغرب من هذه الإساءة غير إعلان حرب ثقافية ضد الإسلام يسعى إليها متطرفون يريدون إنهاء الحضور المسلم في أوروبا، وقد أخفقوا في تحقيق ذلك عسكرياً رغم عمليات الإبادة المنظمة للمسلمين في البوسنة والهرسك قبل تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر بعدة سنوات حيث كان واضحاً أن هناك من يريد تدمير الحي أو الجيب المسلم في القارة الأوروبية، مثلما كان واضحاً أن التردد الأوروبي في قبول تركيا في المنظومة الأوروبية كان لأسباب ثقافية ودينية محضة رغم كون نظام الحكم في تركيا علمانياً. ولكي لا ننظر إلى ما يحدث بعين واحدة فلا نرى من الصورة إلا جانباً واحداً فإننا مطالبون بأن نتذكر أن الولايات المتحدة في عهد الرئيس كلينتون هي التي أوقفت الحرب على المسلمين في أوروبا التي بقيت

شبه صامتة تتفرج عشر سنين. وعلينا أن نتذكر أن عدداً كبيراً من المفكــرين والمثقفــين فــي الغرب كانوا ضد التمييز الديني والعرقي والعنصري وأن منظمات الدفاع عن حقوق الإنســان نشطت كثيراً وما تزال تطالب بالمفقودين وتبحث عن مواقع القبور الجماعية للضحايا المسلمين، وأن أوروبا شهدت إقبالاً كبيراً على اعتناق الإسلام خلال عقد التسعينيات، وبنيت فيها مســاجد كثيرة ومراكز إسلامية، دعمتها بعض البلديات في المدن الأوروبية. ولكن اليمــين المتطــرف المتحالف مع الصهيونية كان يحذر دائماً من خطر انتقال الإسلام إلى أوروبا، وقد بالغ بعــض الكتاب العرب والمسلمين في التهليل لإنجازاتهم بل إن بعضهم بشر بأن تصبح أوروبا مســلمة في عشر سنين، وما أدري أكانت مثل هذه الإعلانات ساذجة أم أنها كانت ضمن الخطة بهــدف لفت النظر الرسمي إلى سرعة وخطورة تنامي الطيف الإسلامي في أوروبا العلمانية التي تتيح أنظمة بلدانها الكبرى حرية واسعة للتعبير والمعتقد أتاحت للمسلمين أن ينشروا ثقافتهم ودينهم؟ وإذا كانت الدول الإسلامية لا تملك إحصاء رسمياً لعدد المسلمين في أوروبا فلابــد أن الــدول الأوروبية تملك هذا الإحصاء، فالباحثون العرب يقدرون عدد المسلمين في أوروبا الغربية بنحو عشرين مليوناً، وفي أوروبا الشرقية والبلقان بنحو ثلاثين مليوناً، أي أن عــدد المســلمين فــي أوروبا عامة يبلغ نحو خمسين مليوناً، بينهم نحو عشرة ملايين من العرب وأكثرهم مــن بــلاد المغرب العربي، ومثل هذا الرقم يدعو المتشددين إلى الريبة والحذر، لاسيما إذا أضاف هؤلاء أعداد المسلمين المتنامية في الولايات المتحدة وقد زاد العدد فيها على ثمانية ملايين مسلم. ومع أن الجاليات المسلمة في العالم كله تعيش في حالة من الفقر والعزلة والشــعور بالضــيق بــل بالحصار إلا أنها تشكل حالة ثقافية مختلفة عن سياق الحضارة الأوروبية أو الأميركية، وتبــدو ملامح الاختلاف في الشكل أكثر مما تبدو في المضمون .إنني أخشــى أن يترســخ الاعتقــاد العربي والإسلامي بأن مكراً خبيثاً أسهم في تنمية نزعة التطرف الفكري عنــد بعــض دعــاة المسلمين حين أفردت وسائل الإعلام الغربية لهم منابرها وأعطتهم الراحة والحرية والطمأنينــة في التعبير عن رؤية أحادية للعالم كي يخرجوا ما في مكنونهم من معتقدات تتجاهــل كــونهم ضيوفاً في الحضن الغربي المسيحي، فبات بعضهم يطلق شعارات تدعو إلى أســلمة أوروبــا، وتقول إن الإسلام هو الحل الوحيد لمأزق الحضارة الغربية التي يصفونها بالمنحلة أخلاقياً بعــد أن انهارت فيها القيم المسيحية ذاتها ولاسيما مع سيطرة النزعة التحررية من كل القيم التي تتفق عليها الأديان السماوية والتي يجسدها في الشكل والمضمون الاجتماعي نظام الأسرة ومؤسســة الزواج التي نادت بعض المؤتمرات الدولية العولمية بإلغائها كما حدث في قمة المرأة في بكين حيث طالبت القمة بحرية جنسية خارج مؤسسة الزواج، وأباحت الزواج المثلي. ولا أنكر على الدعاة المخلصين رؤيتهم لقدرة الإسلام على تقديم مخرج أخلاقي لأزمة الحضارة الغربية على

صعيد القيم، ولكنه حل لمن يريده دون أن يفرض عليه، لأن أهم قيم الإسلام هي الحريــة فــي المعتقد، ومع أن واجب الأمة أن تدعو إلى الإسلام وأن توضح مبادئه وأن تنشره فــي العــالم بالكلمة والفكر، ولكن من واجبها كذلك أن تكون الدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة دون أن تثير حفيظة أحد أو أن تتهجم على معتقده وهذا ما لا يغيب عن قيم المســلمين جميعــاً. لــذلك أجدني مرتاباً في أمر أولئك الذين يدعون إلى الإسلام بأسلوب عدواني ينفر الآخر، وثمة شواهد عديدة تؤكد الريبة من أقربها تناولاً أن نجد الغرب الآن يحاكم بعض الدعاة الإسلاميين الــذين كانوا نجوم القنوات الأوروبية والمتحدثين المعتمدين باسم الإسلام فيها وهم مرفوضون في العالم الإسلامي، وكانوا يتقاضون رواتبهم من مؤسسات استخباراتية، لكنهم بعــد انتهــاء أدوارهــم يقدمون إلى المحاكم. إننا في العالم الإسلامي نتطلع إلى علاقات متوازنة مع الغرب تقوم علــى الاحترام المتبادل، وندرك أن اليمين المتطرف المتحالف مع الصهيونية هو الذي يذكي نيــران الخلافات الثقافية والإثنية ويسعى إلى جعل خطة هنتنغتون نبوءة تتحقق. وهنا أتذكر ما كتبه قبل سنوات ديفيد هاريس (المدير التنفيذي للجنة اليهودية الأميركية) في جريدة" جيروزاليم بوست" حين قال: "علينا أن نعمل مع إسرائيل لمقاومة الإسلام"! ونتذكر بالمقابل قول الكاتب الأميركي جور فيدال قبل الحرب على العراق: "لقد كان رد الفعل العسكري الأميركي على ١١ ســبتمبر بالهجوم على أفغانستان وقتل آلاف الأبرياء كارثة، وهذا ما أضرم مشاعر الكراهية لدى مليار مسلم. كان يجب أن نفكر في محاصرة أسباب الكراهية، فنحن نستحق الحقــد، لأننــا نــزدري الإسلام، ونمنع الديمقراطية في البلدان الإسلامية، ونجند مرتزقة ليحاربوا باسمنا". إننــا فــي العالم العربي والإسلامي لا نريد أن تتحقق رؤية هنتنغتون ليس لأننا نخاف أن يتم القضاء على الإسلام كما تم القضاء على الشيوعية، فالإسلام موعود بالحفظ والصون مع القــرآن الكــريم، ولكننا أمة الإسلام أمة السلام والمحبة والدعوة الرحبة إلى العيش المشترك. لقد جاء نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام بدعوة إنسانية شعارها (كلكم لآدم، وآدم من تراب) وألغى الفوارق اللونية والعرقية بين الناس وقد جعل الله العمل الصالح والتقوى فيه معيار التفاضل الوحيد (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وطالب أهل الكتاب أن يقيموا التوراة والإنجيل، مصدقاً بما بين يديه من كتــب سماوية. إن مهمة المثقفين العرب والمسلمين أن يتصدوا لهذه الهجمة بالوعي والحكمة دون أن يجرهم أحد إلى ساحات صراع الثقافات لأننا مصرون على الحوار، وعلينــا أن نفــوت علــى الآخر المتطرف فرصة إضرام المزيد من الحرائق بين ثقافات الغرب وثقافات الشرق. ومن هذا المنطلق أعترف بأنني شعرت بأسى بالغ لما قام به بعض المنفعلين مــن إحــراق للســفارات والأعلام في الشارع الإسلامي، فقد حققوا لخصمهم أهدافه دون أن يدروا، وعلينــا أن نتوقــع مزيداً من الإساءات المبرمجة لثقافتنا وديننا، وأن نتجنب وصول الانفعال إلى حالة غوغائيــة،

دون أن يعني التجنب رضوخاً أو قبولاً بالذل والهوان، فلدينا من وســائل الحكمــة المحمديــة العقلانية دليل عمل حضاري أثبت قدرته في الحفاظ على هوية الأمة وخصوصــيتها، وعلــى النصر على كل الأعداء على مر العصور.

٢٠٠٦/٢/١٧

هل تصلح الثقافة ما أفسدته السياسة؟

قد يعترض بعض الساسة على العنوان، ويقولون إن الثقافة هي التي تفسد العلاقات السياسية بين الشرق والغرب، فاختلاف العقائد والقيم والذهنية والسلوك ودوافع التاريخ وطموحات التوسع للجغرافيا الثقافية هي التي تدعو إلى التصادم، وما يحدث اليوم من صراعات سياسية هو تجليات لصراع الثقافات والقيم، أو لدوافع الإرث التاريخي من العقائد، وهذا صحيح، ولكنه يشكل مادة الصراع حين تصوغ منها السياسة غطاء لدوافع التسلط، وواجهة تخفي خلفها نزعة العدوان والطمع في ثروات الشعوب والتحكم بمقدراتها وهذه دوافع سياسية أحسب أن بوسع الثقافة ذاتها أن تشذبها وتحد من انحرافاتها السلوكية التي قادت البشرية عبر العصور إلى الحروب، وما تزال رغم كل ما حققته الإنسانية من تقدم وتفوق قائمة في طموحات الحمقى القادرين على تدمير كل ما أنجزه العقلاء. وفي أيدي القادة السياسيين الكبار من أسلحة الدمار ما ينذر العالم بالخراب حين يفتن أحدهم غرور القوة، وهم يرهبون بهذه الأسلحة ضعفاء العالم، ويمنعونهم من التسلح ولو بأبسط ما يتوفر من سلاح يمكنهم من الدفاع عن أنفسهم أو من التصدي للعدوان.

إن استخدام الثقافة قناعاً يستر الطموحات العدوانية للسياسة هو ما ينبغي أن تفضحه الثقافة، كما أن بوسعها أن ترتقي بوعي الشعوب، وتبصيرها بخطر استخدام اختلاف عقائدها وتنوعها الثقافي وسيلة للصدام، رغم كون هذا التنوع غنى وثراء إنسانياً، يفيض على البشرية أمناً وطمأنينة حين يجيد عقلاء السياسة استخدامه لصالح الإنسانية.

ولقد كانت التجربة العربية الإسلامية أنصع ما في التاريخ من تجارب التعايش والتفاعل والحفاظ على الخصوصيات الثقافية، ولسنا بحاجة إلى تذكير الآخرين بأن العرب من أكثر شعوب الأرض قدرة على التفاعل مع ثقافات الكون، ولكنهم كذلك من أكثر شعوب العالم قدرة على الحفاظ على خصوصياتهم الثقافية.

فحين اتسعت مساحة الدولة الأموية بعد الفتوحات، وامتد سلطانها على معظم رحاب العالم القديم، كان بوسع العرب أن يفرضوا عقيدتهم على الأمم التي وصلت إليها فتوحاتهم، وأن يحاربوا العقائد الأخرى، وأن يحرموا الصغار والضعفاء من خصوصياتهم، لكن العقلية العربية القائمة على مبدأ حرية الاعتقاد والاعتراف الكامل بالآخر دفعتهم إلى صون حقوق الآخرين والحفاظ على أديانهم ومعابدهم وطقوسهم ولغاتهم وثقافاتهم.

ولقد أثبت التاريخ فشل كل محاولات الطمس الثقافي للشعوب، ولم تنجح عبر التاريخ تجربة كما نجحت تجربة العرب المسلمين التي قدمت أفضل نماذجها في دمشق يوم كانت عاصمة العالم القديم، ثم في بغداد حين انتقلت إليها الخلافة، ثم في الأندلس حين نهضت دولة بني أمية فجمعت كل الثقافات القائمة في عصرها في بوتقة إنسانية ما تزال شواهدها قائمة إلى اليوم، ولم يحظ اليهود مثلاً عبر تاريخهم الطويل بسعة ورحابة من الآخر كما وجدوا لدى العرب المسلمين، فأما المسيحية فقد مثلت في الوجدان العربي والإسلامي نسيج العقيدة حيث لا يكتمل إيمان المسلم بالإسلام ما لم يؤمن برسالة السيد المسيح، وما لم يعتقد أن مريم العذراء هي المفضلة على نساء العالمين كما يقول القرآن الكريم.

وقد وصل العرب المسلمون في عقيدة حرية الاعتقاد والاعتراف بالآخر إلى حد السماح للخصوصيات الثقافية بممارسة ما لا يوافق عليه الإسلام ديناً وشرعاً، ولم يتدخلوا قط في شؤون الآخرين فيما يحبون أو يختارون من حرية المأكل أو الملبس أو السلوك أو الطقوس، وقد كان مفجعاً أن يقوم "طالبان" بهدم تماثيل حافظ عليها المسلمون عصوراً، كما كان مفجعاً أن يتعرض المبشرون للمساءلة، وربما سيكشف المستقبل أسرار ما حدث لأنه جاء ضمن المبررات الثقافية للحرب على أفغانستان التي كانت التماثيل فيها مصونة في عصور الإسلام مثلما كان المبشرون يحظون بالمحبة والاحترام وهم يقدمون الخدمات للمواطنين. لكن التعبئة للحرب كانت تقتضي القيام بأعمال تخالف شرعة الإسلام بل تشوه صورته لكي يتهيأ الرأي العام العالمي لقبول الحرب وتأييدها.

وما يقوم به المتطرفون من المسلمين اليوم من تفجيرات واعتداءات على المجتمعات يندرج في إطار هذه التعبئة ضد العرب والمسلمين حيث تستغل القيم الثقافية لتكون قناعاً يستر الطموحات السياسية ويقدم المبررات للحرب على الإسلام، وأحسب أن كثيراً من المتطرفين ينفذون مخططات ضد دينهم وعروبتهم، وهم يعلمون أنهم يخدمون عدوهم بما يفعلون.

إن من أهم ما ينبغي أن يفعله المثقفون العرب المسيحيون والمسلمون هو البحث عن نقاط اللقاء مع قيم وثقافات الحضارة الغربية، وإيجاد ساحات رحبة للحوار، لقطع الطريق على دعاة الصدام والصراع، وأجدني واثقا من أن الكثرة المطلقة من مثقفي الغرب لا يريدون أن تجرهم دوافع السياسة الغربية (التي تندس فيها طموحات الصهيونية) إلى الصراع مع الشرق الأرثوذكسي أو مع الإسلام، فقد بذل هؤلاء المثقفون الكبار جهداً ضخماً للتواصل مع الشرق المسيحي والمسلم، وتحققت في القرن العشرين مثاقفة ذات شأن كبير في تاريخ الإنسانية، تلاقحت فيها الثقافة العربية الإسلامية مع الثقافة الغربية.

حتى بات المحافظون من المسلمين يرون في قيم الغرب النبيلة مـا دعـا شـيخ الإسـلام الإصلاحي الكبير محمد عبدة أن يقول (وجدت الإسلام في الغرب ووجدت المسلمين في بلادنـا، وما دعا كاتبًا عربيًا ضخمًا هو طه حسين يجد مستقبل الثقافة في مصر عبر انفتاحها على ثقافـة الغرب، وقد رفض العرب في سورية ولبنان والجزائر وتونس (على سبيل المثال) غـزو فرنسـا لبلادهم، ولكنهم لم يرفضوا ثقافة فرنسا، بل إنهم تمسكوا بها بعد أن حققوا الاستقلال، ولم يجد أحد من المسلمين ما يمنعه من إرسال أبنائه إلى فرنسا للتزود بالعلم والمعرفـة، قـد نسـي العـرب المسلمون بسرعة ما كان يغتلي في نفوسهم من كراهية وغضب على المحتل الفرنسي، وعـادوا سريعًا إلى مشاعر المودة والمحبة

والتواصل الثقافي، حتى بات العرب جميعًا يجدون في فرنسا داعمًا لقضاياهم، وهم يغضون الطرف كثيرًا عن دعمها الطويل لإسرائيل، وعن مشاركتها في العدوان الثلاثي على مصر، وعن كون صانعة السلاح النووي لإسرائيل، وهو السلاح التدميري الذي تهدد بـه إسـرائيل العـرب والمسلمين اليوم، ولكنها ستهدد به أوربا والعالم كله ذات يوم.

ولقد آن للطامحين في عوالم السياسة الغربية أن يقتنعوا أن الحروب التي خاضـوها ضـد العرب والمسلمين منذ أن هدم أورليان بالميرا، وهدم آرابان القدس، لم تحقق أهدافها رغم مقتـل الملايين من البشر، وآن لهم اليوم أن يروا ما وصلت إليه مخططات الصهيونية العدوانية من فشل وإخفاق في سعيها المحموم لإلغاء الحق العربي والفلسطيني بخاصة، فقد صمد هذا الحـق، ولـم تستطع كل قوى التدمير التي استخدمتها إسرائيل لسحقه كما سحقت جنين، أن تزيله من الوجـود، وآن للجميع

أن يقتنعوا أنه لا بد مما ليس منه ب د، وهو الإذعان للحق، ونشر ثقافة قوة المنطق بديلاً عن ثقافة منطق القوة، وأن يتنازلوا عن غرور العظمة، وعن الاعتداد بقوة السلاح، والعودة إلى قـوة الحق، لأن إنكار الحق وإشاعة الظلم ستحول المقهورين إلى قنابل تتفجر فـي وجـه القـاهرين، والفرصة متاحة اليوم لمصالحة ثقا فية يلتقي عليها الجميع في إطار من الحفاظ على الحقوق التي يقرها المجتمع الدولي، وفي إفادة عقلانية من الاختلاف الذي يصنع التنوع الثقافي بوصفه ثـروة الإنسانية وقاعدة التشارك في الحياة والطبيعة والثروات وفي كل ما ينفع أبناء البشرية جمعاء.

إننا نقدم دعوة لكل مثق في الغرب للمبادرة لإطفاء الحرائق التي يشعلها المتطرفـون مـن الطرفين، ولقطع الطرق أمام الراغبين في إحداث شرخ بين الشرق المسيحي والمسلم من جهـة، وبين الغرب المسيحي والليبرالي من جهة أخرى، ونعتقد أن من واجـب المثقفـين أن يفضـحوا نزعات العدوان عند الساسة الغربيين الذين يظنون أن بوسعهم إخلاء العالم من العرب وإخراجهم

من التاريخ، وإجبارهم على طمس هويتهم الثقافية وإلحاقهم برؤية جديدة تنتمي إلى الجغرافيا التي يرسمونها على الورق، وهي تلغي التاريخ الراسخ في الوجدان.

إن ثقافتنا تدعونا إلى مخاطبة الآخرين بلغة السلام، حتى وإن كانوا مـــن الجـــاهلين بنـــا، وتدعونا إلى الاعتراف بالآخر حتى وإن لم يعترف بنا، وتأمرنا أن نواصل الدعوة إلـــى الكلمـــة السواء، لأننا أمة الكلمة الطيبة، التي تخرج صادقة من القلب تبحث عن قلب صادق يتلقاهـــا، ولا يملك هذه الكلمة الطيبة أحد كما يملكها المثقفون في الشرق والعرب وفـــي كـــل أنحـــاء العـــالم، ومسئوليتهم اليوم كبيرة،

لإنقاذ للبشرية من ويلات حروب مدمرة، لن يقتصر شرها وخطرها على العرب والمسلمين وحدهم، فالبلاء حين يقع يعم، ونحن نريد أن نجنب أنفسنا وأن نجنب الآخـــرين خطـــر انفـــلات الحمقى وفي يدهم أسلحة الدمار، وما أحوجنا إلى نهوض الثقافة بدور الإطفائي في وقت تشتعل فيه الحرائق عند كل حادثة مفتعلة تهدف إلى إضرام النار التي نتمنى أن تكون بردًا وسلامًا يفـــيض على كل البشر.

٢٠٠٦/٣/٣

العودة إلى الجذور

أخطر ما تتعرض له الأمم هو انقطاعها عن جذورها، وتنكرها لأصولها، وقد بات مريعاً أن نجد بين العرب من يشكك بوجود العرب كأمة، ومن يسخر من مقومات الانتماء إليها، ومن يجعل القطر بديلا عن الأمة، ومن يدعو إلى الكف عن الاهتمام بالقضايا العربية المشتركة، ومن يرى الانتماء العروبي وهماً، ومن يبحث عن انتماء يمكنه من الانخراط في تشكيل جديد يطمح إلى قطع الجذور العربية، وغرس مكونات جديدة تتيح لإسرائيل أن تتجاوز عجزها عن اختراق المحيط الثقافي العربي الذي نبذ كل مشاريع التطبيع ورفض تقديم التنازلات المجانية التي يقدمها بعضهم تقرباً من الولايات المتحدة، وتتقرب بها الولايات المتحدة من إسرائيل على حساب العرب.

ويتجاهل الساعون إلى الرضا الصهيوني كون إسرائيل ما تزال تحتل الأرض العربية، وتمعن في العدوان على الشعب الفلسطيني، وتصعد من تهديدها بالإبادة والاغتيالات للوطنيين الشرفاء، وتمارس سياسة الغطرسة والاستعلاء حتى في تعاملها مع الأمم المتحدة وقرارات الشرعية الدولية، وهي توسع من قدراتها النووية والتدميرية في الوقت الذي تمنع فيه شعوب المنطقة من حق الدفاع عن النفس.

والتنكر للجذور ليس بدعة حديثة في الحياة العربية، فقد شهدت الأمة هجمة غربية قوية منذ أواخر القرن التاسع عشر، كان هدفها قطع الجذور التي تمد الأمة العربية بنسغ الحضور المميز لها بين الأمم، وقد حملت هذه الهجمة عناوين براقة، وتسللت إلى أدبيات النهضة التي كانت تدعو الأمة إلى اليقظة بعد طول سبات في العهد العثماني، وقد تنبه كثير من رواد النهضة العربية إلى خطر هذا التسلل الذي كان يسعى إلى إبعاد العرب عن جذورهم عبر تغريب مبرمج يتصدى لتيارات التعريب التي كانت تبحث عن الجذور لتسقيها بماء العصر وروائه.

كان بعض العرب المبهورين بإنجازات الغرب العلمية والتقنيّة يحيلون التخلف العربي إلى عجز الثقافة العربية عن استيعاب تلك العلوم التي مكنت الغرب من التقدم، ويزعمون أن سر التخلف هو التمسك بجذور الثقافة العربية التي يدعون أنها تكبح انطلاقة الأمة إلى آفاق المستقبل وتحد من قدرتها على الانغماس في العصر، وكان السؤال الذي يجسد ذاك التحدي: "لماذا تقدم الغرب وتخلف العرب؟"

لقد استدعى هذا السؤال المفتوح إجابات شديدة التناقض، فهناك من رأى سر التخلف العربي كامناً في التمسك بالجذور اليابسة كما رآها، ودعا إلى اقتلاعها، وبعض المثقفين العرب أشادوا بعظمة هذه الجذور ولكنهم وجدوا طريق النهضة في الانغماس الكلي في الحضارة الغربية المعاصرة، حتى أن طه حسين، وهو الأزهري المتعمق بدراسة التراث والفكر العربيين، عاد من فرنسا ليرسم "مستقبل الثقافة في مصر« فإذا به يجعله مرتبطاً بقدرتها على الوصول السريع إلى الضفة الأخرى من المتوسط. وقد أثارت هذه الإجابة الحادة ردة فعل من المحافظين جعلتهم يبالغون في الانفعال رافضين كل ما هو غربي، فضاعت تلك الرؤى المعتدلة الداعية إلى التمسك بالجذور، مع ترك الأغصان تنمو وتعلو وتراقص النسائم التي تهب عليها من كل صوب واتجاه.

ومن يتأمل مسيرة السياسة العربية منذ انهيار الدولة العثمانية إلى يومنا هذا، يجد عمق تأثر السياسة بتلك الرؤى الثقافية المتناقضة؛ فقد ظهرت أحزاب سياسية عديدة تعبر عن رفض شعبي عارم لسياسة التغريب التي رافقت قدوم الجيوش الغربية لاحتلال واستعمار الأمة العربية، وعبرت تلك الأحزاب عن تمسكها بالجذور عبر رؤى مختلفة، فمنها من دعا إلى التمسك بالجذور الأبعد تاريخا من العروبة والإسلام، وإلى إحياء الثقافات الموغلة في القدم التي شكلت الجذور العميقة لثقافة الشعوب التي استوطنت المنطقة، وفي هذا الاتجاه جاءت دعوات إحياء الفينيقية في سوريا ولبنان، ودعوات إحياء الفرعونية في مصر.

ولكن التيارات الأهم والأقوى تأثيراً كانت تلك التي انقسمت إلى مشروعين حضاريين أولهما المشروع القومي الذي دعا إلى إحياء العروبة، والتمسك بجذرها الثقافي لغة وتاريخاً دون التنكر للثقافات القديمة في المنطقة، وقد وجد المشترك العربي حياً وقائماً بين العرب تجسده منظومة القيم والتقاليد وتحييه الإرادة المشتركة في العيش معاً.

ولقد تأثرت الأحزاب القومية العربية بالأفكار القومية الأوروبية، وبحثت عن تشكيل قومي لبنية الدولة الحديثة، وبعضها تأثر بالفكر الماركسي فاستقى منه رؤية محلية للاشتراكية دون أن يأخذ منه دعوى الأممية التي تتعارض مع الفكرة القومية.

وبالغت بعض التوجهات القومية حين أغفلت العناية بالقوميات والأعراق التي تشاركها العيش في الوطن العربي، ولكن بعضها كان واسع الطيف في تفسيره للقومية إذ استقى المفهوم من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (ليست العربية لأحد منكم بأب ولا أم، إنما العربية اللسان) أي الفكر والانتماء الثقافي.

أما المشروع الإسلامي فوجد في الدعوة القومية ما يتعارض مع شمولية وأممية الإسلام، ولم يتقبل فكرة قيام الدولة الحديثة، وراح يطالب باستعادة دولة الخلافة الإسلامية، وقد ثار جدل طويل وحاد على مدى القرن العشرين حول نظام الحكم في الإسلام، وحول البنية الجديدة للدولة، وحول نظرية الحاكمية، وكان هذا الخلاف الفكري العقائدي من أهم أسباب اتساع الشرخ والهوة بين المشروعين القومي والإسلامي، ولكنهما كانا معاً يتفقان من حيث المبدأ على رفض التنكر للجذور، وعلى إعطاء العربية المكانة السامية، وعلى التصدي للمشروع الصهيوني.

قد انطلقت مشاريع فكرية عديدة في الوطن العربي تحاول الخروج من العروبة والإسلام، ولكنها جميعاً لم تستطع أن تحقق حضوراً أو أن تجمع أنصاراً، ولم يستطع المشروع الصهيوني أن ينال أي انتصار فكري أو ثقافي، إذ كانت انتصاراته عسكرية صرفة استخدم فيها العنف والإرهاب والتدمير، وظن بعض قادته أنهم أوشكوا على الخلاص من العروبة والإسلام بعد الخامس من يونيو ١٩٦٧، فإذا هم يفاجأون بالأمة العربية تنهض سريعاً. وتحقق حضوراً ضخماً في حرب أكتوبر ١٩٧٣، وأدركوا حينها أن الحروب التي خاضوها بدعم غير محدود من الغرب، لم تحقق لهم أمنا، ولم تضمن لهم مستقبلاً، فبدأوا التفكير بتحقيق ما عجزت عنه الحروب عبر السير في طريق السلام، والدعوة إلى التفاعل الثقافي والاجتماعي الذي سموه تطبيعا، متفائلين بقدرتهم على التسلل إلى نسغ الثقافة العربية والوصول إلى الجذور لقطعها، لأن تلك الجذور هي ما يفشل سعيهم إلى إضعاف الأمة والسيطرة عليها، لكنهم سرعان ما اكتشفوا ضخامة الجذور العربية والإسلامية وقوتها ومتانة ارتباط الأمة بها، رغم ما توحي به مظاهر الحياة العربية المعاصرة من ارتخاء في التمسك بالجذر الأصيل. ألم يكن مفاجئا لقادة المشروع الصهيوني أن تنهض الأمم العربية والمسلمة في ثورة غضب عارمة ملأت الدنيا حين اقتحم شارون قدسية المسجد الأقصى؟ وبالتأكيد كانت مفاجأة من يخططون لإنهاء قدسية الجذور عند العرب والمسلمين أكبر وأضخم مما يتصورون، حين رأوا الهبة الشعبية الواسعة احتجاجا على رسوم كاريكاتورية تسيء لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.. إن أمتنا مطالبة اليوم بمزيد من التمسك بجذورها، ولكن ليس على نحو عصبي، وإنما بوعي معرفي يفرق بين ما يجب أن يودع في المتاحف مما تجاوزه العصر، وبين ما ينبغي أن يبقى فاعلاً وحياً في الوجدان. والفصل بين التالف من الجذور وبين الحي منها مسؤولية المفكرين والمثقفين والمبدعين، وهم مطالبون بدراسة شاملة لأصول الفكر العربي ولتجديد معطياته، وبالتصدي لمن يطالبون بنسفه، وباستعارة ثوب فكري غربي يقطع الجسد العربي حتى يكون على مقاس

الثوب. ولابد من أن يعيد بعض مثقفينا العرب فحص كثير من المقولات الجديدة وخاصة ما يرتدي منها لبوس الليبرالية، وهي التي تبدو براقة في ظاهرها، مغرية في عصريتها وانسجامها مع أطروحات الفكر العالمي، لكنها في المضمون تجعلهم أمة تابعة للغرب لا هوية لهم ولا خصوصية.

٢٠٠٦/٣/١٧

الاعتراف بالآخر

يدرك عقلاء الغرب أن ما حدث ويحدث من فتن واعتداءات على قيم ومعتقدات العرب والمسلمين في أوروبا، هو نتاج حملة مبرمجة قادتها قوى صهيونية ذات نفوذ في المجتمع الغربي، وكنا نتوقع أن نشهد هذه الحملة منذ أن فجع الإسرائيليون بنتائج الاستفتاء الذي أجراه الاتحاد الأوروبي عام ٢٠٠٣ في أوروبا، وجاءت نتيجته مذهلة للإسرائيليين حين اكتشفوا أن نحو ٦٠% من شعوب أوروبا يعتبرون إسرائيل أكبر الدول التي تشكل خطراً على السلام العالمي. يومها كتبت "يديعوت أحرونوت" تقول: "إن صورة إسرائيل في عيون الأوروبيين انزلقت نحو حضيض غير مسبوق". وفي حقيقة الأمر لم يفاجأ الإسرائيليون بالموقف الذي يعبر عن رأي عام يشمل ربع مليار مواطن أوروبي؛ فقد كانت إسرائيل تدرك ضيق المجتمعات الأوروبية بتحميلها وزر ما عاناه اليهود من اضطهاد ومذابح في العديد من الدول الأوروبية في الماضي، حيث ما يزال الأحفاد الأوروبيون يقدمون سيل الاعتذارات ويدفعون الديات بالمليارات دون أن يصدر قرار غفران أو نسيان أو تسامح، وما يزال سيف قانون "معاداة السامية" مشهراً على رأس من يخطر له أن يشكك حتى بأرقام الضحايا من اليهود. ويبدو أن كل ما قدمته بعض دول أوروبا من معونات ضخمة ودعم غير محدود لـ"القضية اليهودية" لم يرو غليل إسرائيل. وباتت أجيال الأوروبيين، من الشباب المثقفين، تدرك أن بعض أبنائهم وقادتهم أخطأوا مرتين: مرة حين اضطهدوا اليهود بدوافع دينية أو عرقية وطردوهم من أوروبا فلم يجد اليهود ملاذاً آمناً إلا في بلاد العرب والمسلمين، ومرة أفظع حين كفّروا عن ذنوبهم بارتكاب جريمة أشد قسوة حين دفعوا دية الغفران من حساب العرب الذين تفاعلوا بدعم أوروبا لهم بعد انهيار الدولة العثمانية!

لقد أدركت الأجيال الأوروبية الجديدة حقيقة ما حدث في منتصف القرن العشرين، وافتضحت أكذوبة غولدا مائير الشهيرة بأن فلسطين أرض بلا شعب وأن اليهود شعب بلا أرض، فقد تمكن الشعب الفلسطيني من أن يقدم للبشرية كلها أمثولة الدفاع عن الحق وعن الأرض. وقد برز التحول الكبير في موقف الشباب الأوروبيين بشكل واضح منذ الانتفاضة الأولى، ثم جاءت الانتفاضة الثانية لتعزز قناعات العالم كله بأن الباطل لا يستطيع أن يغلب الحق مهما طال الزمن، ولسوء حظ إسرائيل جاءت ثورة المعلوماتية والاتصالات لتحقق للشعب الفلسطيني فرصة نادرة لتعريف العالم بقضيته، وليرى العالم على الفضائيات جرائم إسرائيل، وهذا ما دفع كثيراً من الشباب في أوروبا وأميركا للقدوم إلى فلسطين للتضامن مع شعبها، ولن تنسى الضمائر الحية ذكرى الناشطة الأميركية راشيل كوري التي قتلتها جرافة إسرائيلية. وثمة

آلاف الأوروبيين والأميركيين من حركة التضامن مع الشعب الفلسطيني التي كانت راشيل إحدى أعضائها، وهم يمثلون هذا الجيل الذي لم يقبل الإذعان للأكاذيب، وهؤلاء هم الذين واجهوا إسرائيل عبر الاستطلاع بحقيقة كونها خطراً على أوروبا وعلى السلام في العالم، وهم الذين طالبوا بمحاكمة شارون في بلجيكا. وقد عرف قادة إسرائيل أن أجيال الغرب الجديدة لن تستمر في الإذعان للابتزاز الإسرائيلي. ونذكر أن شارون دعا لجنة وزارية مصغرة لمواجهة ما سماه "عودة معاداة السامية إلى أوروبا"، وقد رصدت اللجنة ميزانية ضخمة لتحسين صورة إسرائيل في أوروبا، ساهمت فيها قوى اليمين الأوروبية المتطرفة، وكان من أهداف الحملة إثارة المشاعر العدائية ضد المهاجرين العرب والمسلمين، أما الأهداف الاستراتيجية الكبرى فكانت تشويه صورة المقاومة العربية والإسلامية وتقديمها كمنظمات إرهابية.

ما يدعوني إلى الحديث عن تلك البديهيات (والتي باتت للأسف بحاجة إلى برهان) هو حالة الاستهانة الغربية العامة بالحق العربي؛ فقادة الغرب الكبار يعرفون أن العرب قبلوا بما لم يكن ممكناً أن يقبلوا به قبل بضعة عقود، وحسبنا أن نتأمل الفارق بين قمة لاءات الخرطوم الشهيرة، وبين قمة التأكيد على المبادرة العربية للسلام في الخرطوم، والتي عقدت الثلاثاء الماضي، مما يؤكد كون العرب يتعاملون مع الوقائع، إذ أعلنوا استعدادهم للاعتراف بوجود إسرائيل حين تنفذ قرارات الشرعية الدولية. ولكن المفارقة المؤلمة أن تبقى المبادرة العربية للسلام دعوة مفتوحة بلا صدى، وهنا تقع المسؤولية في اعتقادي على أوروبا التي ضاعت منها "خريطة الطريق" رغم أنها خريطة مبعثرة الخطوط، ولن يعفي أوروبا من المسؤولية التاريخية أمام العرب قلقها من الموقف الأميركي الداعم لإسرائيل، فالأوروبيون هم جيران العرب، وشركاؤهم التاريخيون، وعليهم أن يتابعوا دورهم في التفاعل الحضاري العريق مع العرب والمسلمين، وألا يتركوا الساحة العربية لنفوذ إسرائيلي يضع أوروبا في مواجهة ساخنة مع أصدقائهم العرب الذين غفروا لهم سنوات الاستعمار والاحتلال وتجاوزوا كل عثرات الماضي من أجل الاستقرار والاستمرار في العيش المشترك الآمن.

إن العالم الذي يطالبنا بالاعتراف بالآخر مدعو إلى ممارسة هذا الاعتراف بنا، ونحن نكاد نكون وحدنا في العالم من يعترف بالجميع، بل إن موقفنا الديني الإسلامي يضعنا في موقف الإذعان في الاعتراف بحق الآخر حتى لو كان كافراً بكل الأديان السماوية، فالقرآن الكريم يعلمنا أن نقول للكافرين (لكم دينكم ولي دين) معتبراً الكفر ذاته ديناً، ويأمرنا أن نبرهم ونقسط في تعاملنا معهم حين لا يعتدون علينا. فأما أهل الكتاب فالقرآن الكريم يأمرنا أن نجد معهم الكلمة السواء التي نتفق عليها معاً، وما أكثر ما يتفق عليه المسلمون مع أهل الكتاب، لأن الإسلام يأمرنا أن نؤمن بكل الكتب السماوية وبكل الرسل (لا نفرق بين أحد من رسله)، وعلينا

أن ندع معاً ما نختلف عليه. فالمسلمون يقبلون بالآخر غير معنيين بدينه ومعتقده، وهنا نتذكر قول الإمام علي كرم الله وجهه (الناس إما إخوة لنا في الدين أو نظراء لنا في الخلق)، ومرجعية ذلك إيمان المسلمين بأن الله كرم الإنسان بإنسانيته.

إننا عرباً، مسيحيين ومسلمين، نعتقد أن على أوروبا أن تلعب دوراً أكثر فاعلية، وأن تنصف العرب ما دامت دولها العظمى هي التي ابتلتهم بإسرائيل، وزودتها بالسلاح النووي، ومكنتها من طرد الشعب الفلسطيني الذي لن يتنازل عن حقه في العودة إلى وطنه وأرضه وقد قبل الدعوة الغربية إلى السلام في مدريد ثم في أوسلو، وقبل المبادرات والوساطات الغربية كلها، ولكنه لم يجد إلى الآن من يعترف له بكامل حقه، وكذلك الأمر مع الأمة العربية كلها، فقد استجابت لدعوات السلام وقدمت المبادرة العربية الشهيرة ولكن إسرائيل غير آبهة بل إنها لا تكلف نفسها عناء الرد، فهي ما تزال تعتقد أنها قادرة على أن تحقق حضورها ومشروعها الاستيطاني بالقوة المطلقة، رغم أنها تزداد عزلة وانغلاقاً خلف الجدار الذي سيتحول إلى سجن كبير لها ولن يخرجها منه غير الاعتراف بالحق والإذعان له.

٢٠٠٦/٣/٣١

حوار مع الغرب

أتيح لي في زيارة لأوروبا أن أحاور عدداً من كبار المثقفين الغربيين وأن أتأمل حجم الهوة الثقافية التي حفرها لنا الإعلام المعادي للعروبة والإسلام، وخطر نقص المعلومات في الذهن الغربي العام عن الإسلام، وحجم الزيف الذي يمارسه الحاقدون على الأمة وهم يرسمون لبلادنا صورة قاتمة تشوه الحقائق، وتجعل الباطل حقاً.

وفي الوقت ذاته استقرأت عن قرب لهفة بسطاء الناس في الغرب إلى معرفة الحقيقة، واستعدادهم لتصويب الآراء التي يبثها الإعلام عبر تدفق برامجي وإخباري لا يقابله أي حضور يذكر للثقافة العربية والإسلامية في الشارع الأوروبي. فالجاليات العربية أو المسلمة لا تملك وحدها أن تقدم أنشطة ثقافية قادرة على مقاومة الإعلام المتدفق من كل صوب وهو يثير العواصف والزوابع ضد العرب والمسلمين، فليس بوسع ندوة فكرية أو محاضرة محدودة الحضور في منتدى عربي أو إسلامي أن تؤثر في الرأي العام الأوروبي كما يمكن أن يفعل فيلم سينمائي ناجح أو حفل موسيقي راقٍ أو معرض فني مبهر، كما أن غياب الإعلام الناطق باللغات الأوروبية يضعف الحضور الفكري والسياسي للأمة. وقد أدركتُ أهمية الأنشطة الثقافية الضخمة وحجم تأثيرها الإيجابي على الرأي العام حين زرت مدينة "ليوبن" النمساوية قبل أيام، لأحضر افتتاح معرض فني عن الشرق والإسلام، تشارك فيه سوريا وبعض الدول العربية والإسلامية، وأسعدني الترحيب الشعبي الذي لقيه المعرض والاهتمام الرسمي الذي أحيط به، ولفت انتباهي احتفاء الصحف النمساوية بالأغنيات العربية التي قدمها فنانون سوريون ومصريون في حفل الافتتاح. وكان واضحاً أن باب الثقافة أوسع من باب السياسة للدخول إلى الوجدان الغربي ومحاورته، وهو على الصعيد العام وجدان حي، قابل للحوار، ولم يكن مفاجئاً بالطبع أن أجد الكثرة من بسطاء الناس يكادون لا يعرفون شيئاً عن حضارة العرب والمسلمين. والتقصير في تقديم المعلومات ليس مسؤولية شعبية فحسب، بل هو تقصير رسمي، ينبغي أن تفطن له الحكومات العربية والإسلامية وأن تسارع إلى حملة ثقافية مكثفة ونشيطة تقدم خطاباً ذكياً يوضح للغرب أننا نملك في بلادنا ثقافات وديانات متنوعة تتعايش بسلام وأمن وطمأنينة منذ قرون، وأن ما يحدث اليوم من فتن طائفية أو إثنية هو أمر مصطنع، يفتعله ويحرض عليه الساعون إلى تمزيق نسيج الأمة، ليحققوا مشروعاً معادياً أخطر ما فيه هو رسم خريطة جديدة لبلاد العرب والمسلمين، يتم فيها القضاء على الانتماء القومي والإسلامي وعلى العلامات المميزة للهوية العربية والإسلامية.

لقد كشفت فتنة الرسوم المعادية للرسول العظيم صلى الله عليه وسلم، حجم التقصير في تعريف الغرب بنبي المسلمين، وينبغي أن يفيد العرب والمسلمون من الحادثة للقيام بنشاط جماعي حضاري يقدم الصورة الصحيحة الصادقة عن أعظم رجل عرفته الإنسانية، وعن الرسالة الحضارية التي دعا إليها. والعرب يقولون رب ضارة نافعة، والنفع هنا هو استغلال تشوق الغرب إلى معرفة الحقيقة، ولاسيما حين فوجئ الغربيون بطوفان الغضب الذي كشف للمتجاهلين عمق تقديس المسلمين لنبيهم العظيم عليه الصلاة والسلام. وكان من الممكن أن تفيد الأمة من ذكرى المولد بإقامة احتفالات دولية يتم فيها تصحيح الصورة التي شوهها الحاقدون، وإلقاء الضوء على الرسالة المحمدية التي وضعت أول نص لحقوق الإنسان، وأنصفت المظلومين وحررت العبيد وكرمت المرأة والطفل، ومجدت إنسانية الإنسان وحفظت له حريته وكرامته، وجعلت شعارها الذي يردده ملايين المسلمين صباح مساء: السلام عليكم. وليس لدى غير المسلمين في حضارات العالم كله، من يجعل دعاء السلام شعاراً وتحية يتبادلها الناس في كل لقاء أو وداع.

إنني أدرك أن بعض الناس قد ينتقدون هذا التبسيط الذي أقصده للمسألة، وسيرون أن القضية أشد تعقيداً، حيث يعتقد بعضهم أن العداء الغربي للعرب والمسلمين متأصل وتاريخي، وأن الغرب ما زال يعيش تحت الرماد الدبلوماسي المصطنع وتحت وهج الجمر الذي أذكى الحروب الصليبية قبل ألف عام، وأن التصريحات التي جاءت زلات لسان على ألسنة كبار القادة في الغرب، كشفت أن الجمر ما يزال ملتهباً تماماً. كما بدا ملتهباً في مطلع القرن العشرين حين تقاسمت أوروبا بلاد العرب والمسلمين، وسعت إلى إقامة إسرائيل في قلب الوطن العربي لتضمن بقاء العرب في حالة حروب وصراعات دامية تستنزف طاقتهم وثرواتهم.

وقد يرى بعضهم كذلك أن الغرب يخشى نهضة العرب والمسلمين من هوة التخلف، لأن هذه النهضة تثير قلقاً في أوروبا، ولاسيما بعد أن أصبح الإسلام حاضراً فيها، وقد تقدم شواهد ما حدث على مسمع العالم وبصره من إبادة منظمة للجيوب المسلمة في البوسنة والهرسك، وستكون الحجة أقوى حين لا يجد المرء تفسيراً لغياب المنطق والعدالة في السياسة الدولية التي ترسمها بعض دول الغرب التي تصمت عن جرائم إسرائيل اليومية، بل تتعاطف مع السياسة الإسرائيلية وتقف حتى ضد الديمقراطية التي جاءت بـ"حماس" إلى السلطة. لكنّ ذلك كله لا يحجب حقيقة كون الشارع العام في الغرب حضاري، وأنه وقف ضد الحرب.

٢٠٠٦/٤/١٤

حوار الحضارات في حلب

اختتمت أمس الندوة الدولية لحوار الحضارات التي عقدت ضمن فعاليات احتفالية حلب عاصمة للثقافة الإسلامية، وقد باتت الدعوة إلى الحوار نداء يطلقه العرب والمسلمون ولكن دون أن يسمعوا صدى من الآخر، ودون أن يستجيب إلى دعوتهم أحد من القادة الكبار المعنيين في الغرب باتخاذ القرارات التي ترسم السياسة الدولية، فأما المثقفون في الغرب فلابد لنا من أن نذكر بإنصاف رغبة كثير منهم بأن تتجه البشرية إلى الحوار بدل الدمار الذي يخطط له من يريدون أن يشعلوا الحرائق في العالم، وأن يخلقوا فيه ما يعترفون بأنه فوضى، والمفارقة الساذجة أن تسمى الفوضى المدمرة بناءة.

إنني مقتنع بأن الحديث عن صراع الحضارات لم يكن نبوءة أواسشرافاً وإنما كان خطة فكرية تمهد عبر برنامج زمني محدد لما حدث في مطلع القرن الجديد من إعلان حرب كبرى على العرب والمسلمين، ويذكر الجميع تلك التصريحات النارية التي أطلقها السيد رامسفيلد بعد فجيعة ١١ سبتمبر التي لم يحسم إلى اليوم وضع المتهمين بها بشكل قانوني، وما تزال موضع شك وريبة، فقد أطلق السيد رامسفيلد إنذاره بالحرب على ستين دولة (هي في الغالب الدول الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي) وهدد بأن تلك الحرب ستمتد إلى عشرات السنين، وقد فهم كثير من العرب والمسلمين أن الولايات المتحدة تريد أن تنتقم من العرب ومن المسلمين جميعاً في ردها الغاضب على أحداث سبتمبر حتى قبل أن تتشكل محكمة تدين عرباً أو مسلمين، مما دعا العالم كله أن يفهم أن الولايات المتحدة تريد أن تتخذ من جريمة سبتمبر ذريعة لتنفيذ خطة مبرمجة، وفي هذا السياق جاء الحديث عن صراع الحضارات تعبئة فكرية وإعلامية لتقوية المبررات ولحشد تأييد الشارع الغربي في الولايات المتحدة ثم في أوربا، وقد فضحت الخطة زلات اللسان التي ذكرت العرب والمسلمين بالحروب الصليبية.

ولقد رفض الشارع الغربي المثقف والعفوي أن تجره قياداته نحو حرب عالمية تتجه إلى إبادة الإسلام وإخراجه من التاريخ الإنساني وإلى إلغاء الهوية العربية لأنها الحامل الرئيس للإسلام، ولكن الرئيس الأمريكي أعلن مبدأه الشهير (من ليس معي فهو ضدي) فذعرت الغالبية العظمى من القيادات السياسية في العالم ولم تستطع أن تعلن أنها ضده، وهو رئيس أكبر قوة عسكرية عرفها التاريخ، وحين بدأت الحرب ضد أفغانستان كان المبرر أنها رفضت تسليم ابن لادن، وحين أعلنت الحرب على العراق كانت الذريعة أن العراق يمتلك أسلحة دمار شامل، وقد دفعت الشعوب ثمن تلك الحروب دماراً وقتلاً وحشياً دون أن تجد الولايات المتحدة ابن لادن،

ودون أن تجد ألسحة الدمار، بل لقد جاء اعتذار باول عن أكاذيب مبررات الحرب على العراق فضيح لاتليق بالدولة الأعظم في التاريخ.

وقد رشحت الولايات المتحدة دولاً أخرى مهدت لشن حروب ضدها، كان منها السعودية ومصر، ولكنها اتجهت سريعاً نحو سورية التي هددت بعمل عسكري ضدها مرات عديدة بحجج واهية كشفت ضعف اهتمام الإدارة الأمريكية بتقديم الذرائع المقنعة لشن حروبها، فقد زعم دعاة الحرب أن سورية مسئولة عن عمليات المقاومة في فلسطين ثم زعموا أن سورية لاتضبط حدودها مع العراق، ولم يقتنع أحد بالطبع بهذه المبررات الواهية للضغط على سورية فجاءت جريمة اغتيال الحريري حدثاً مروعاً يحقق لإسرائيل والولايات المتحدة وضع سورية في قفص الاتهام بدون أية أدلة ضدها (كالعادة).

ولم تكن تسمية مصر (بالجائزة الكبرى) في الخطة الصهيونية لهواً إعلاميا، فما يحدث في مصر من تفجيرات ومن إثارة فتن دينية لايخرج عن كونه جزءاً من الخطة، وإلا فإن السؤال البسيط (ماسر أن تُهاجم اليوم كنائس عاشت قروناً إلى جوار المساجد يحافظ عليها المسلمون مثلما يحافظ عليها المسيحيون؟ وما سر أن يتعرض التعايش التاريخي العريق بين المصريين على اختلاف دياناتهم إلى هذه الفتن المفتعلة؟ وما أظن أحداً يغيب عنه أن ما يحدث هو مفاصل في السيناريو المرسوم بدقة لتفكيك العروبة والإسلام، ولم تكن خارج هذا السيناريو آيات سلمان رشدي الشيطانية، مثلما لم تكن خارجه الرسوم التي أساءت إلى النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام، والهدف دائماً إشعال نار الحرب بين المقدسات، وليس اكتشافاً أن نقول إن المستفيد الوحيد من تمزيق وتفكيك أمة العرب والمسلمين هو إسرائيل التي بدأت تتخبط منذ أن توجه رابين نحو السلام، وقد أدركت أن السلام يحد من طموحاتها ويجبرها على أن تنفذ قرارات الشرعية الدولية، الأمر الذي اعتبره بيريز نهاية لدولة إسرائيل.

لقد أخفقت اتفاقية كامب ديفيد الأولى في إخراج مصر خارج أمتها، وأخفقت أوسلو في تحقيق أهدافها،و فشلت مفاوضات الحل النهائي وازداد الفلسطينيون تمسكاً بحقوقهم وإصرارهم على حق العودة وعلى تفكيك المستوطنات وعلى كون القدس عاصمة لفلسطين، وحين وصلت إسرائيل إلى هذه الطريق المسدودة، وواجهت موقفاً مبدئياً عنيداً من الفلسطينيين يدعمهم فيه كل شرفاء الأمة، وبشكل خاص سورية التي لم ينجح الإسرائيليون في جرها إلى اتفاقيات تتنازل فيه عن شيء من حقوقها أو حقوق أمتها، كما لم ينجحوا في إخراج الشعب الأردني الشقيق عن ثوابته، وعن تلاحمه مع الشعب الفلسطيني، حينذاك لم يعد أمام إسرائيل غير اعتماد القوة المفرطة التي استعادها شارون حين اقتحم المسجد الأقصى في اختبار مقصود لمدى حضور قدسية هذا المسجد الرمز لدى مسلمي العالم، فجاءت النتيجة مذهلة في انتفاضة فلسطينية كسبت

تأييداً شعبياً دولياً، بدا فيه حضور قوي للعرب والمسلمين في العالم بوصفهم أمة، ولاسيما حين اضطر كل من عقد مع إسرائيل صفقة أو قبل لها تمثيلاً أن يلغي أو يستر ما فعل، وأخفق التطبيع الذي كان من قبل بعض الدول العربية تعبيراً عن حسن النية أو لنقل تشجيعاً لإسرائيل كي تمضي نحو السلام، ولم تستطع إدراة الرئيس كلينتون أن تجبر إسرائيل على تنفيذ القرارات الدولية رغم أن كلينتون بذل جهوداً مضنية لدعم إسرائيل، ولكنه لم يكن يميل إلى طمس حقوق العرب بشكل عدواني أو إلى إعلان حرب شاملة على العروبة والإسلام، فواجه فضيحة مدبرة، وخرج من الحكم ليحل محله فريق المحافظين الجدد، وفيهم عدد من الصهاينة الكبار، وكان لابد لجر الولايات المتحدة لكي تدخل بكل ثقلها لصالح المشروع الإسرائيلي من حدث ضخم من وزن جريمة سبتمبر، كي يوفر للولايات المتحدة مبرر فرض المشروع الصهيوني على العالم كله.

ولكون سورية تشكل ممانعة قوية للمشروع الصهيوني ولأنها رفضت الحرب على العراق، ولأنها أسهمت في بقاء لبنان قلعة من قلاع العروبة، فلم يكن أمام إسرائيل سوى أن تفك ارتباط لبنان بسورية وأن تفصم وحدة المسار والمصير، وفي هذا السياق جاء اغتيال الحريري المدوي ليكون ذريعة لإنهاء الدور السوري الوطني والقومي في لبنان، ومن ثم لإعادة لبنان إلى ساحة فوضى، ولكسر شوكة المقاومة التي تمكنت من إنجاز التحرير، وقد ترافق ذلك مع خطة مبرمجة لتشكيل دولي جديد باسم الشرق الأوسط الكبير، تضيع فيه الهوية العربية والإسلامية ليحل محلها انتماء شكلي لثقافة أمريكية صهيونية تدعي الديموقراطية والدفاع عن حقوق الإنسان.

وكان من حسن حظ العرب والمسلمين أن النماذج التي قدمتها الولايات المتحدة لحفاظها على حقوق الإنسان في سجون العراق وفي سجون غوانتانامو وحشية وبدائية ومنفرة جعلت شعوب العالم تزداد كراهية ورفضاً لسياسة الولايات المتحدة في العالم كله.

إن الحوار الحضاري الذي دعونا إليه في حلب كان متابعة لدعوة العرب في مبادرتهم الشهيرة إلى السلام والتفاهم والتعايش بين الشعوب، واتخاذ حلب مثالاً لتاريخ غني من التفاعل والتعايش بين مختلف الحضارات، كان اليهود جزءاً منه، مثلما كانت شعوب شتى سكنت حلب وامتزجت بثقافتها دون أن تفقد خصوصياتها الثقافية، مثل الأرمن مثلاً، وقد كان تعايش المسيحية واليهودية في حلب منذ أن دخل الإسلام إليها نموذجاً فذاً يجسد سمة الإسلام في الاعتراف السمح بكل الثقافات والحضارات، واتساعه لمن يخالفه العقيدة الدينية،وهذه التجربة السورية ليست وحيدة أو فريدة، فهي سمة المدن الإسلامية كلها، وقد أردنا أن نذكر العالم كله بعظمة تجربتنا في التفاعل الإيجابي مع كل حضارات العالم، وأن نؤكد أن أهم شروط الحوار

هو الاحترام والاعتراف بحقوق الآخر، ولسوء حظ البشــرية تــرفض الولايــات المتحــدة أن تستجيب إلى هذا الحوار مثلما ترفض إسرائيل مبادرة السلام العربية رغم إعلاننا أن المرجعية التي نعتمدها هي شرعة الأمم المتحدة، والقانون الدولي، والخطر أن يصر أصــحاب القــرار الدولي على لغة الدمار، وأن تقع البشرية في مطالع القرن الحادي والعشرين في بحر الدم الذي غرقت فيه في مطالع القرن العشرين ولم تجن منه غير المآسي المخزية.

٢٠٠٦/٢٨/٤

لكي نفهم ما يحدث

بعض الأمثال الشعبية تلخص ببراعة حكمة الشعوب وقراءتها للواقع والتاريخ، يقولون مثلاً (حساب السوق غير حساب الصندوق) ويقولون (ليس في كل مرة تسلم الجرَّة)، وحسبي هذان المثلان تعبيراً عما يحدث في عالم السياسة الدولية، فالحسابات التي وضعها أمراء الظلام الذين تحلقوا حول نتانياهو بعد مقتل رابين، قامت على أسس استراتيجية لا تخطط لمستقبل دولة إسرائيل فحسب، وإنما تخطط للعالم كله في القرن الحادي والعشرين الذي لم يبدأ بمأساة ١١ سبتمبر مصادفة، فالدراسة التي أعدها مكتب الدراسات الاستراتيجية والسياسية العالية عام ١٩٩٦ جاءت تحت عنوان "استراتيجية لصون العالم" ومن عناوينها الشهيرة "خطة نظيفة، تحول جذري إلخ"، ولعل ورقة بيرل كانت أهم أوراقها كما تقول الدراسات حول هذا الموضوع، لأن فيها دقة في وضع الخطة ورؤية بعيدة المدى لتغيير العالم لصالح إسرائيل، بدءاً من الانقلاب على مبدأ مدريد "الأرض مقابل السلام" تحت فلسفة تقول "إن عملية السلام التي قادتها حكومات إسرائيل السابقة قوضت شرعية إسرائيل، وقادتها نحو شلل استراتيجي"، وقد رأت الدراسة أن إسرائيل جذبت الولايات المتحدة لبيع سياسات وصلت إلى حد التفاوض على عاصمتها، وإلى الإذعان أمام الإرهاب (وهذا هو الاسم الإسرائيلي للمقاومة). ومن المعروف أن الاستراتيجيين من الصهاينة "المحافظين الجدد" يريدون فرض السلام من مبدأ القوة وحدها، لأنهم يعتقدون أن إعادة الأرض التي احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧ هو تنازل عن حلم، بل عن حق لليهود اكتسبوه قبل ألفي عام، وهم يرون (أن الأساس الوحيد للسلام هو قبول العرب غير المشروط بحقوق إسرائيل). ولن أسرف في استعراض الدراسة التي باتت معروفة للعرب منذ عشر سنين، ولكن قلة من المثقفين العرب من الذين وصفتهم الدراسة بأنهم (أصدقاء إسرائيل الذين لا يشكون بمتانة هذه الصداقة) لا يحبون أن يربط أهلهم العرب بين هذه الخطط الاستراتيجية وبين ما حدث ويحدث في العالم (كله) وليس في الوطن العربي فحسب، بل يسخرون ممن يحاول أن يربط أو يحلل أو يبحث عن استقراء أو استنتاج، ويتهمونه بالاستسلام لعقلية المؤامرة التي باتت تهمة ينفر منها المثقفون ليحمِّلوا أمتهم وحدها مسؤولية مصائبها، متجاهلين حجم الهجمة الدولية عليها. وهذا لا يعني إعفاء للأمة من المسؤولية، لكن إعفاء الحركة الصهيونية من مسؤولية التدمير المبرمج يسهم في تغييب الوعي العربي، وهذا ما حدث عند شرائح متعلمة ولكنها مغيبة الوعي السياسي، وقد بدأت تقول في لبنان مثلاً "إن إسرائيل ليست العدو وليست المحتل، بل سوريا هي العدو". وقد وصل الأمر عند بعض هؤلاء الغائبين عن الوعي إلى درجة استبعاد أي احتمال لدور إسرائيلي لما حدث في لبنان منذ أن قتل إيلي حبيقة الذي كان يستعد للشهادة ضد شارون في بلجيكا، مروراً بالجريمة المروعة التي ذهب

ضحيتها رفيق الحريري ورفاقه، وما تلاها من جرائم زعزعت استقرار لبنان، وكانت ذريعة لمحاولة فك الارتباط بين سوريا ولبنان، وهذا الرباط هو وحدة المسار والمصير بين شعبين شقيقين. كما كانت الجريمة ذريعة لاستعادة لحظة الحرب الأهلية التي دمرت لبنان ربع قرن، ولم يكن ممكناً أن تتوقف تلك الحرب لولا التدخل السوري لمساعدة الشرفاء اللبنانيين في حفاظهم على عروبة لبنان ووحدته وسيادته ومن ثم تحرير أرضه من الاحتلال الإسرائيلي. وما يدعوني إلى استعادة هذا الحديث هو ظهور كتاب مهم تحت عنوان "اغتيال الحريري أدلة مخفية" ألفه باحث ألماني متخصص في علم الجريمة يدعى يورغن كاين كولبل، وقد أتيح لي أن أتعرف على المؤلف عن قرب وأن أسمع منه أوسع مما جاء في كتابه. وقد وصفت جهده بأنه تمثيل للضمير الأوروبي والغربي الشعبي الحي الذي يرفض أن يرى الظلم ويصمت. وهو يذكرنا بحركة المثقفين الأميركيين الذين قادوا حركة تقول "ليس باسمنا" حين اعترضوا على غزو العراق وكان بينهم أكثر من ألفي مثقف أبرزهم نعوم تشومسكي ورامزي كلارك وآخرون من مشاهير الثقافة الأميركية. وقد استعرضت في الحوار الشخصي مع "كولبل" صلة ما حدث ويحدث بتلك الاستراتيجية التي رسمها أمراء الظلام. ولست الآن في معرض الحديث عن التفاصيل رغم كونها مثيرة وينبغي أن يعرفها كل مواطن عربي كي يفهم ما حدث ويحدث، وكي ينتهي طوفان التعمية الإعلامية وحركة غسل الدماغ العربي التي نجحت وسائل الإعلام الصهيونية، وبعضها عربي اللغة، في صرف الأنظار عن المسؤولية الإسرائيلية فيما حدث ويحدث، وجعلت بعض الأشقاء يستسلمون لقبول التوجيه الإعلامي بتهمة مقتل الحريري نحو سوريا فقط، واستبعاد أي احتمال آخر. ولعل من المفارقات المؤسفة أن يقبل بعض العرب بهذه التعمية التي تستغبي العقول بينما يرفضها الألمان وكثير من الأوروبيين والأميركيين. وفي الهوة العميقة بين حساب السوق وحساب الصندوق، وفي انكسار الجرَّة التي ظن أمراء الظلام أنها لن تنكسر، حسب القارئ أن يتأمل ما يحدث اليوم من غرق قادة الولايات المتحدة في مستنقع الدم والفوضى في العراق وهم الذين صنعوه، وإخفاقهم في مكافحة الإرهاب الذي دعموه منذ أن احتضنوا "القاعدة" وما شاكلها من حركات دينية متطرفة كانوا يريدون من خلالها تشويه صورة الإسلام وتقديمه على أنه دين وحشية وقتل وإجرام. كما أخفقوا في سياسة التزوير والتزييف التي حاولت الخلط بين المقاومة والإرهاب، فجاءت نتيجة حملتهم الإعلامية المكثفة والمبرمجة بدقة مهنية واحتراف، أن العرب وشرفاء العالم ازدادوا تأييداً لـ"حزب الله" ولـ"حماس" ولحركات المقاومة أينما وجدت، بل إن "حماس" التي اعتبروها منظمة "إرهابية" حصدت نجاحاً مدهشاً في الانتخابات الديمقراطية جداً في فلسطين.

وأما الإخفاقات المتوالية فقد حصدها كل من رضي لنفسه موقع التبعية لسياسات أمراء التدمير، وكان أول من خسر مكانته أمير الظلام "بيرل" نفسه، ثم توالت الإخفاقات في سيل من

الفضائح، من قصة كيلي إلى اعتذاريات باول، ثم إلى إخفاق حكومة أزنار، والمطالبة بإقالة رامسفيلد، ثم إلى الاضطراب المتصاعد في القيادات الأمنية الأميركية حيث تتلاحق الاستقالات، ثم تصل في بريطانيا إلى إقالات تطال سترو ووزير الداخلية، تليها مطالبات برحيل حكومة بلير الذي نفى أن يكون سبب إقالة سترو رفضه لسياسة الولايات المتحدة نحو إيران وتهديدها بضربة عسكرية. ولعل أخطر مفاجأة في حساب السوق أن تنال الأفكار الراديكالية شعبية غير مسبوقة في بعض البلدان الإسلامية ليس حباً شعبياً لها، وإنما تحدياً لسياسة الولايات المتحدة التي لم تقنع الشعب الأميركي نفسه.

أما الإخفاق الأكبر الذي منيت به استراتيجية التحول الجذري أو الانطلاقة النظيفة (وقد جاءت قذرة بكل المعايير)، فهو أن إسرائيل التي أذعن مفكروها ومثقفوها حتى من دعاة السلام، إلى نظرية سلام القوة والإذعان، والتي دعت إلى تعميم شعار (إسرائيل الفخورة القوية المتينة هي وحدها الأساس لشرق أوسط كبير وجديد فعلاً) باتت اليوم سجينة خلف جدار صنعته بنفسها، واضطرت مرغمة أن تتخلص من كابوس غزة كما اضطرت من قبل إلى الهرب من جحيم جنوب لبنان. ورغم أنها تنفذ اليوم في فلسطين ذات الخطة التي تنفذها في لبنان بعد انسحابها من الجنوب، حيث تخرج من الباب لتدخل من الشباك، وتبث سموم الفتنة بين الأهل والأشقاء مستغلة معرفتها الدقيقة لمستصغر الشرر العربي، فإن ذلك لن يحقق لها مخرجاً من مأزقها.

ومهمة المثقفين اليوم أن ينبهوا أمتهم إلى خطورة ما يحدث، فسيل الدم اللبناني الذي أجرته جرائم إسرائيل عبر سياسة الاغتيالات للتحريض على حرب أهلية ولإبعاد سوريا ومنعها من تقديم أي عون للبنان حتى تسد أمامه السبل، فلا يجد منفذاً غير إسرائيل، هو ذاته سيل الدم الفلسطيني الذي تريد إسرائيل أن يغرق فيه المناضلون من "حماس" و"فتح". وهو ذاته السيل من الدم العراقي الذي تريد إسرائيل أن يصير طوفاناً في العراق بين سُنة وشيعة وعرب وأكراد! ولن أراهن على الوعي العربي وحده، رغم أن أهلنا في العراق يقدمون مثلا أعلى فيه، فقد سقط في الفخ من كنا نظن أنهم يعون مصالح أمتهم، فإذا هم يتجهون إلى البيت الأبيض بدل أن يتجهوا إلى البيت العربي، وهم يتجاهلون أن البيت الأبيض تخلى عن كل أصدقائه حين لفظتهم شعوبهم.

إن ما يحتاج إليه العرب اليوم هو صبر ساعة، فإن فقدوا هذا الصبر فسيخرجون من التاريخ حقاً، وقد أنذرهم شاعرهم مظفر النواب "سنصير يهود التاريخ وسنعوي في الصحراء بلا مأوى"، ولكن ذلك لن يحدث بإذن الله لأن المشروع الصهيوني يشهد نهاياته، بينما يشهد المشروع العروبي الإسلامي صعوداً رغم كل محاولات التشويه للعروبة والإسلام، ورغم

دسائس المتطرفين قومياً ودينياً. فالعروبة المنفتحة على كل القوميات والأعــراق والأجنـــاس، والإسلام المتسع لكل الثقافات والأديان، يرتكزان معاً على تجربة حضارية عميقة وعريقة، ليس بوسع خطة قذرة أن تقتلعها من جذورها الراسخة.

٢٠٠٦/٥/١٢

الأندلس بوابة الحوار العربي ــ الأوروبي

أتيح لي أن أحضر حفل افتتاح معرض ابن خلدون الذي أقيم برعاية ملك أسبانيا خوان كارلوس في القصر الملكي في إشبيلية يوم ١٨/ ٥/٢٠٠٦، وقد ألقى الملك خطاباً في حفل الافتتاح يعتبر أهم اعتراف رسمي بالتشاركية الثقافية بين العرب والإسبان في الأندلس منذ سقوط غرناطة إلى الآن.

في تلك الليلة الأندلسية كانت الثقافة العربية تعيش لحظة ألق وتوهج بعد قرون من الموات، يعود ابن خلدون إلى القصر الملكي بعد ستمائة عام، لقد دخل القصر الملكي أول مرة سفيراً يحاور الملك بطرس الأول، ولكنه اليوم يدخل القصر محتفى به من ملك أسبانيا المثقف الكبير الذي أدرك ببعد نظر أهمية ثقافة الأندلس وكنوزها الأثرية السياحية وكونها بوابة العبور إلى حوار الحضارات والثقافات، حيث تمنح الأندلس أوروبا كلها فرصة حوار هادئ مع الإسلام الذي قدم في الأندلس نموذجه الفذ المتميز في المثاقفة الإنسانية، وقدم نماذج مدهشة في التفاعل الحضاري في فن العمارة والشعر، وفي العلوم والفكر والفلسفة، وحسبنا من فيض ذلك الإبداع العربي الإسلامي تأمل نتاج ابن رشد الذي قدم خلاصة فلسفة اليونان عبر رؤية إسلامية ما تزال مرجعية فلسفية حتى اليوم.

ولم يكن المعتمد بن عباد غائباً عن الاحتفال، ففي القصر الملكي الذي أقيم فيه الحفل كان المعتمد ماثلاً في الأذهان وهو يردد خلاصة تجربته عسى أن يفيد منها أحفاده المعاصرون حيث يقول (قالوا الخضوع سياسة فليبد منك لهم خضوع، وألذ من طعم الخضوع على فمي السم النقيع، شيم الأولى أنا منهمو والأصل تتبعه الفروع). لكن بعض الفروع اليوم لا تحب الأصول، فهي تبدي من الخضوع والتذلل ما يجعها مزدراة دون أن تحقق أي كسب سوى الخضوع. وأحسب أن الأمة اليوم في أمسِّ الحاجة إلى تأمل الدرس الأندلسي، فبعد أن أنشأ العرب المسلمون دولتهم العظيمة في الأندلس تفرقوا ودبت بينهم الخلافات، فإذا هم يخرجون من التاريخ وتباد أجمل آثارهم، وتطمس هوية أعظمها، وقد كان محزناً أن يكون عنوان معرض ابن خلدون "سقوط الإمبراطوريات"، لأن كلمة السقوط ما تزال تلاحق الأمة منذ أن سقطت بغداد وغرناطة، ولابد من الاعتراف بأن كل محاولات الصعود العربي إلى منصة الريادة بعد ذلك السقوط المثير قد باءت بالفشل، ولئن كان الإسلام قد صعد في المرحلة العثمانية فإن العنصر العربي كان ضعيفاً وتابعاً، وقد حاول الصعود بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية، لكنه سرعان ما سقط في فخ "سايكس ــ بيكو"، الذي ناضل العرب عقوداً للخروج

منه، لكن المفارقة الكبرى أنهم اليوم يتمسكون به ويدافعون عن حدوده بعد أن أنذرهم مشروع "الشرق الأوسط الكبير" بتمزق جديد أخطر، يعيد تاريخ ملوك الطوائف الأندلسي، ويجعل كل مدينة أو منطقة صغيرة كياناً طائفياً يضرم فيه صانعوه نار الأحقاد المفتعلة!

والمشهد العربي اليوم ينذر بفواجع تهدد العرب بالخروج من التاريخ ثانية، فقد تمزق العراق وبات حديث الطائفية فيه أمراً عادياً، وهذا لبنان تتكرس فيه الطائفية التي ذاق منها الويل، وبعض دعاة المستقبل فيه يريدون قطيعة مع سوريا ويقدمون ولاءهم للولايات المتحدة، بل إن بعضهم يدعو الولايات المتحدة علانية وبإلحاح إلى احتلال سوريا وإلى كسر شوكة المقاومة اللبنانية التي حققت للبنان تحرير أرضه المحتلة، ويدعو إلى تجريد الفلسطينيين من أية إمكانية لتفادي مجزرة من نموذج صبرا وشاتيلا، وفي فلسطين يتم حصار الشعب الفلسطيني عقاباً له لكونه صدق دعوى الديمقراطية فاختار من يلبي إرادته، وقد بدأت نيران الفتنة الداخلية المصطنعة تهدد الوحدة الفلسطينية وتوشك أن تجر إلى قتال أهلي. وفي مصر يتم افتعال لمشكلات الأقليات التي عاشت قروناً في انسجام ووئام، ولكن دعاة التقسيم والتفكيك يستلهمون ما نجحوا في تحقيقه في السودان ليضعفوا مصر لأنها الدولة العربية الكبرى التي يقوى العرب حين تكون قوية صامدة، ويضعفون حين تضعف. وفي الخليج العربي مخاوف مقلقة لا تخفى دواعيها على أحد، وهي تهدد الهوية والحضور، وقد أحاطت بالخليج كله قواعد عسكرية أجنبية تجعل الأرض العربية مستباحة وميداناً لصراعات فوق طاقته.

وأما التهديد لسوريا فهو يتصاعد، وتستخدم فيه الولايات المتحدة مسمى الشرعية الدولية التي خرجت في بعض قراراتها عن الشرعية، كما في القرار الأخير ١٦٨٠ الذي يطالب سوريا ولبنان بزواج بالإكراه بعد أن طالبهما القرار الدولي ١٥٥٩ بطلاق تعسفي، والخطر في هذا القرار كما أراه ليس في كونه يطلب من سوريا أن تقيم علاقات دبلوماسية مع لبنان، فسوريا لم ترفض ذلك قط كي يطلب منها ذلك بالإكراه، بل هي تفتح الباب لأي شكل من العلاقات يحقق مصالح البلدين، وثمة في سوريا منذ سنين سفير لبناني يمثل البلدين معاً، هو الأمين العام للمجلس الأعلى السوري اللبناني السيد نصري الخوري. وثمة اتفاقية أخوة وتعاون هي أرقى وأوسع من كل اتفاقيات التبادل الدبلوماسي، وثمة إصرار سوري علني وعملي على وحدة لبنان وعلى استقلاله وسيادته، فمن غير سوريا دفع مع اللبنانيين دماء أبنائه دفاعاً عن وحدة لبنان كي لا يقسم أو يستباح؟ ومن غيرها دفع بجيشه لإنهاء الحرب المدمرة، ومن مثلها يحرص على عروبة لبنان وعلى استقلاله كي لا يقع فريسة للنفوذ الأجنبي الرامي إلى تقطيع أوصاله؟

إن خطورة قرار مجلس الأمن تكمن في كونه يؤسس لأمر غير مسبوق في العلاقات الدولية هو التدخل في الشؤون الثنائية بين الدول، ويخرج بذلك عن الاتفاقيات المبرمة لتنظيم التبادل الدبلوماسي بين الدول الأعضاء في هيئة الأمم، وهو يدعو إلى الارتياب في كونه يمهد لإمكانية أن يتدخل مجلس الأمن في شؤون سيادية أخرى في الوطن العربي، فقد يطلب مجلس الأمن من إحدى الدول العربية أن تقيم علاقات دبلوماسية مع إسرائيل، وأن يحدد شكلها وعمقها قبل إنهاء الصراع، ولم يعد الأمر مستبعداً بعد أن نسي المجتمع الدولي أو كاد أهمية السلام في المنطقة ولم يعد أحد يعنى به، بل صار الهدف الواضح لدى قادة الولايات المتحدة، ومن يمضي في ركابهم، هو تحطيم سوريا لأنها القلعة الصامدة المتمسكة بالحق العربي، والرافضة للسير في موكب المشروع الصهيوني، والتي يجد فيها المناضلون الشرفاء من العرب ملاذاً ودعماً.

وفي العودة إلى حديث الأندلس، وقد أثاره عندي تأمل الأسباب التي جعلت هذه الحضارة الضخمة تصير مجرد آثار، أجد الخطر الراهن وقد جسده ارتماء بعض العرب في حضن عدو أمتهم، ألم يذهب بعض اللبنانيين لتحية بولتون الذي اعتبره مندوب إسرائيل عضواً سريًا في بعثته؟ لكأن التاريخ يعيد نفسه؛ فقد سبق لبعض العرب في الأندلس حين شغلتهم صراعاتهم الصغيرة عن وحدتهم وعن الحفاظ على هويتهم وكرامتهم، أن استعانوا على أشقائهم بعدوهم فسلموه أمرهم وقيادتهم، وكانت النتيجة خروجاً مؤلماً من التاريخ.

إن درس الأندلس جدير بأن يفاد منه على صعيد عربي داخلي، وجدير أن يفاد منه على صعيد حواري بين العرب وأوروبا، حيث بوسع العرب أن يستعيدوا ما بينهم وبين الإسبان من تشاركية ثقافية، وأن ينطلقوا إلى حوار الغرب من القاعدة المتينة التي أسسوها في ثقافة أوروبا منذ قرون، وهي ما تزال حية في الوجدان.

٢٠٠٦/٥/٢٦

لصالح من تحاصر المقاومة؟

كل الأمم تمجد أبطالها الذين قاوموا العدوان عليها، وحققوا لها حريتهـا، وتعبـر عـن احتفائها بهم عبر نصب تذكاري للجندي المجهول، واحتفال بعيد الاستقلال، ولا نعرف أمة في التاريخ ناقشت شرعية المقاومة، واكتشف بعض عباقرتها أن مقاومة العدوان عليهـا إرهـاب يزعج المحتل أو المعتدي. إنني أستطيع أن أفهم موقف إسرائيل من المقاومة التي أطلقت علـى الفدائيين اسم المخربين قبل تداول اسم الإرهاب عالمياً، وأستطيع أن أتفهم دوافع بعـض قـادة الولايات المتحدة من الصهاينة الذين استولوا على المشروع الأميركي ووظفوا كل طاقات أقوى دولة في العالم لصالح إسرائيل. ولعلي أجد تفسيراً لموقف أوروبا التـي تبـدو بعـض دولهـا العظمى ضعيفة أمام إسرائيل وأنصارها، إلى حد أنها تناقض مبادئها بل تخالف أبسط قواعـد المنطق حين تقف ضد المقاومة العربية والإسلامية مع أنها ما تزال تمجد جنـديها المجهـول وتحتفل بمقاومتها للنازية ولكل مقاومة للاحتلال والعدوان عليها في تاريخهـا. ولكـن بعـض الحكومات اليوم (ولا أقول الشعوب) تبيع مبادئها لصالح حسابات تجارية أو أطماع اسـتعمارية تجعلها تخشى أن يفوتها نصيب من عوائد الولوغ في دم العرب. وأستطيع أن أتفهـم موقـف بعض الدول الضعيفة التي لا تملك الوسع الذي أتاح الله للمرء ألا يتجاوزه، ولاسيما أن بعضها لا يملك من الوسع شيئاً، فهي تخشى غضب الأقوياء ونقمتهم، فتضطر إلى تقبيـل اليـد التـي تصفعها وقد تدعو عليها بالقطع سراً كما يقول المثل البراغماتي. ولكنني لا أستطيع أن أتفهـم على الإطلاق أن يقف ضد مشروع المقاومة من يتلقى العدوان من عدوه كل يوم، ومن تحـوم طائرات العدو في سمائه صباح مساء، ومن يرى وطنه يستباح، ومع ذلك يقف ضد أبناء شعبه، ويتبنى منطق الأعداء، والعجب العجاب أن تجد من بات يعتبر المقاومين أعداءه ويتقرب بالود والتذلل لعدو وطنه وأمته.

إن ما يحدث في بعض مواقع الساحة العربية الساخنة من حوار أو نقاش حول مشروعية المقاومة، وحول ضرورة أن تلقي سلاحها وتسلمه إلى عدوها، وحول ضرورة أن تنسحب من الحياة السياسية وأن تقعد في الملاجئ وتكتفي بتلقي الضربات والعدوان اليومي علـى شـعبها وأرضها، أمر لا سابقة له في التاريخ، فقد كان يقوم بهذا الدور في تاريخ كل الشـعوب مـن تسميهم الأمم طابوراً خامساً يجنده العدو للضرب من الخلف، ولم يكـن دعـاة هـذا المنطـق المخالف لقواعد المنطق الإنساني يجرؤون على الظهور العلني أمام شعبهم، لكن المفجـع فـي الحياة السياسية اليوم أن يكون هذا الحوار العجيب حول شرعية المقاومة وشـرعية سـلاحها موضوع نقاش علني، وأن يجد أنصاراً ممن يسمون أنفسهم وطنيين.

لقد عجزت الصهيونية العالمية عن تدمير المقاومة العربية لمشروعها، واضطرت إسرائيل أن تنهزم أمام المقاومة الشعبية البسيطة رغم كل انتصاراتها على العرب في الحروب النظامية التي تقوم على حسابات الضعف والقوة العسكرية، وكانت إسرائيل تتلقى من الدعم الأوروبي والأميركي ما لا يجده العرب مجتمعين، لكن العرب الذين لم تهن عزيمتهم يوماً رغم كل الهزائم الرسمية وجدوا نقطة قوتهم في قدرتهم على مواجهة الموت بشجاعة، وكانت دوافع هذه القوة المعنوية دوافع وطنية أو قومية أو منطقية، وقد امتزجت هذه الدوافع جميعاً مع دافع عميق الحضور في الوجدان العربي هو الدافع الديني الذي تعرف إسرائيل أكثر من سواها أهمية حضوره بين الدوافع، لأنها تستمد كل قوتها منه وهو أساس حضورها لدرجة أن اسم دولتها اسم نبي، وهي الدولة الوحيدة في العالم التي تعتبر الدين قومية جامعة، فشعب إسرائيل هو الشعب اليهودي في العالم على اختلاف قومياته وجنسياته. ورغم أن الصهيونية تدعي العلمانية إلا أنها لم تكن تملك وسيلة لجمع شتات اليهود في العالم غير الدافع الديني. ورغم كل ادعاءات قادتها للعلمانية فقد كانوا جميعاً يبحثون عن الهيكل ويحفرون تحت المسجد الأقصى ويخططون لهدمه، وينتظرون أن يتحقق الوعد الإلهي كما يعتقدون بإقامة مملكة الرب، وهزيمة المسيحيين والمسلمين وكل "الغوييم"، وقد خططت الصهيونية طويلاً لإبعاد الدافع الديني عن الصراع العربي ـ الصهيوني، وقد نجحت بفضل رغبة العرب بإبعاد الدين عن ساحات الصراع، لأنهم لا يريدون خوض حروب دينية، وهذا الموقف نابع من قناعات المسلمين وعقائدهم، فهم يحترمون الأديان السماوية ويؤمنون بأنبيائها، فالمسيح عليه السلام مقدس في العقيدة الإسلامية وأنبياء بني إسرائيل عليهم السلام مقدسون، لأن نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل، ولهذا السبب سمى لعرب المسلمون الحروب الصليبية "حروب الفرنجة"، ولم يقبلوا تسميتها "صليبية"، لأنهم يحترمون الصليب لكونه رمزاً لدين يقدسون نبيه، كما يقدسون أمه التي اصطفاها الله وطهرها وفضلها على نساء العالمين جميعاً، وهي المقدمة على أمهات المسلمين كما في القرآن الكريم، وبذات الرؤية استبعد العرب المسلمون الدين من صراعهم مع الصهيونية، وما يزالون يعلنون أنهم لا يعادون اليهودية بوصفها ديناً، ولكنهم يعادون المشروع الصهيوني العدواني الاستيطاني. ومن ذات المنطلق العقائدي أبدى العرب استعدادهم للسلام مع إسرائيل إذا هي كفت عن العدوان واكتفت بما احتلت من الأرض العربية عام ١٩٤٨ بوصفه صار واقعاً دولياً، ولكن العرب الذين أعلنوا دوافع وطنية محضة للمقاومة وجدوا أن استبعاد الدافع الديني من الصراع لا يعني استبعاده من الدوافع للتعبئة، ولاسيما أنه يشكل الدافع الأقوى الذي استخدمته كل المقاومات عبر التاريخ، بل استخدمه المعتدون، وقد رأينا كيف استخدمته الولايات المتحدة في حربها على العراق، حين

عبأت جيوشها بعقيدة كونهم أخياراً يقومون بمهمة مقدسة هي قتل الأشرار وتدمير محور الشر، ومفهوم الخير والشر الذي استخدمه الخطاب الأميركي هو مفهوم ديني محض، وقد نجح العرب في استخدام الدافع الديني أكثر مما نجحوا في استخدام سواه من الدوافع، حتى لم يبق في ساحة المقاومات سواه صامداً، وقد جاءت انتصارات "حزب الله" و"حماس" وسواهما من منظمات المقاومة التي تعلي شأن الدين بين الدوافع، لتجعل إسرائيل تدرك خطورة أن يستخدم العرب الإسلام في الصراع، فكانت الخطة أن تقضي على الإسلام وأن تشوه صورته في العالم، وأن توعز للمفكرين والمثقفين الذين يشتغلون لصالحها أن يوظفوا كل طاقاتهم الفكرية لإعلان حرب الأديان وصراع الحضارات والثقافات. ومهما اختلفت المسميات فإن الدائرة تدور حول الإسلام، لأنه الدافع الأشد إرعاباً لإسرائيل، وقد خطط الصهاينة بشكل عبقري للخلط بين مفهوم المقاومة ومفهوم الإرهاب بعد أن نجحوا في توظيف جريمة ١١ سبتمبر ضد الإسلام عامة مستفيدين من تنظيم "القاعدة" الذي أسسته الولايات المتحدة في أفغانستان ثم استخدمته لتشويه صورة الإسلام عبر التركيز الإعلامي على الأفكار المتطرفة التي أطلقها الحمقى ممن ينتمون إلى الإسلام ويدعون في خطابهم المزيف الخارج عن عقائد الإسلام لقتل الأبرياء ولاستخدام التفجيرات في المجتمعات الآمنة، وهم بذلك ينفذون مآرب أعداء الإسلام. وحين اختلط الحابل بالنابل، كما يقول العرب، ضاعت الحقيقة وبات الإسلام يتهم على الشبهة بعد كل جريمة تقع في العالم، وقد ترافق ذلك مع هجمة إعلامية يساندها خطاب ديني مصنوع في ذات الدوائر الصهيونية، والهدف كله هو القضاء على المقاومة التي تستخدم الدافع الديني، وتجريمها، واعتبارها إرهاباً يهدد أمن العالم، ولئن كانت إسرائيل تخدم أهدافها في هذه الحرب المنظمة ضد المقاومة فأي هدف يخدم العرب أو المسلمون الذين يقف بعضهم ضد المقاومة؟ ولصالح من يدعو بعضهم إلى إلقاء سلاح الدفاع الوحيد عن الوطن ضد أي عدوان قائم أو مرتقب؟ وما الذي يبقى للأمة من قوة إن توقفت "حماس" عن مشروعها التحرري، أو توقف "حزب الله" عن الدفاع عن لبنان؟ أو توقفت المقاومة العراقية عن مقاومة الاحتلال الأميركي؟ إننا نخشى أن يحقق العدو هدفاً خطيراً على العرب هو جرهم إلى حروب أهلية، وأن يحارب بعضهم المقاومة نيابة عن إسرائيل فيحققون لها ما عجزت عن تحقيقه.

٢٠٠٦/٦/٩

العالم يرانا أمة... فكيف نرى أنفسنا؟

شعرت بنشوة بالغة حين تآلف العرب جميعاً تحت راية الجامعة العربية في وفـد واحـد مضى إلى الصين أواخر شهر يوليو الماضي ليقيم مهرجان الفنـون العربيـة فـي الصـين، وليشارك في المائدة المستديرة للحوار العربي ــ الصيني، وقد ضم وفدنا العربي عـدداً مـن وزراء الثقافة العرب (السودان، العراق، الأردن، فلسطين، وسوريا)، إضافة مسؤولين سـامين من وزارات الثقافة العربية في بقية بلداننا. وكان ممتعاً أن ينصهر الجميع في بوتقـة الثقافـة العربية الواحدة، وأن يتفاعل الجميع مع نظرة أهل الصين لنا بوصفنا أمة واحـدة، فلـم يكـن المسؤولون الصينيون أو مرافقونا، يميزون بين سوري وعراقي أو بين فلسطيني وأردني، ولم نكن نحن كذلك نشعر بأي فارق قطري لأن الثقافة التي نحمل رايتها وشعارها هي ثقافة واحدة، لغة وسلوكاً ومعتقداً واتساعاً رحباً للمختلف حوله بوصفه نتاج حراك فكري هو سمة أساسـية للثقافة العربية عبر العصور.

ولقد قلت بدعابة لأصدقائي وزراء الثقافة العرب (وقد نمت بيننا صداقات عميقـة): لقـد وحدتنا الصين، فها نحن هنا نجلس إلى مائدة الحوار العربي ــ الصيني لنمثل جهة واحدة هـي الثقافة العربية، ولنوضح قضيتنا الواحدة، ولنقدم رؤية متشابهة وموقفاً موحـداً مـن القضـايا العالمية، وها نحن هنا جميعاً يتحدث باسمنا وزير الثقافة السوداني، لكون السودان ترأس القمة العربية هذا العام، وهؤلاء هم أهل الصين يخاطبوننا بقولهم أنتم العرب، ولو أنهـم خاطبونـا فرادى لشعر أحدنا بضعف موقفه وصغر حجم موطنه أمام الصين التـي تكـاد تشـكل قـارة بمساحتها الشاسعة، وبعدد سكانها الذي يتجاوز مليار نسمة.

والمفارقة أن دول الغرب كذلك تخاطبنا على الصعيد الثقافي بوصفنا أمة، رغم إصرارها على تفرقتنا؛ فحين يتحدث المسؤولون في الغرب عن الحوار الثقـافي أو الحضـاري معنـا، يجدون أنفسهم أمام وحدة حضارية عربية أو إسلامية لا يمكن تجاهلها أو القفز فوقهـا، فلـيس ممكناً أن يحاور الغرب الثقافة المصرية وحدها، أو أن يحاور الثقافة السورية أو الأردنيـة أو العراقية كلاً بمفردها، ولو أنه فعل لوجد نفسه يحاور الثقافة العربية كلها حين يحاور أي قطـر من أقطارها، لأن مكونات هذه الثقافة متحدة اتحاداً لا فصام فيه، ولأن تجلياتها متداخلة متشابكة إلى أبعد الحدود. وقد يزيد المفارقة تألقاً أن نجد المغرب العربي، وهو الأقرب إلـى الغـرب ثقافياً، قد أنجز منذ أواخر القرن الماضي أعمق التجليات الفكرية للثقافة العربية، وكانت (ومـا تزال) الدراسة الفكرية التي تصدر من المغرب تجد أصداءها على الفور في دمشق وبيـروت

والقاهرة وعمان وسواها من عواصم العرب، وتتم مناقشتها بوصفها فكراً عربياً يناقش واقع ما يحدث في كل هذه العواصم العربية دون استثناء.

وحين يطالبنا الغرب بمناقشة موقف من المواقف الفكرية، فإنه لا يطلب ذلك من الأقطار منفردة، وإنما يطلبه من المثقفين العرب ككل، وهم يجتمعون على صعيد واحد في كل موائد الحوار، دون أن يمنع ذلك من ظهور خلافات في الرؤى والمواقف والتصورات، لكن هذه الخلافات دليل على حيوية الثقافة وغناها، حيث لا تعني الوحدة الثقافية تطابقاً مطلقاً في الآراء، بل إن الاختلاف سنة كونية في كل الحضارات والثقافات، ولكن الوحدة الثقافية هي في ضخامة حجم المشترك ورسوخه، وهو في الثقافة العربية أوسع كثيراً مما هو عليه الحال في الثقافات الكونية الأخرى، ولاسيما في عالم الغرب حيث تشمل الفوارق اختلافاً ضخماً في اللغات والقوميات والإثنيات، وكذلك الأمر في الصين التي تضم نحو ست وخمسين قومية، ولكن الهوية الصينية الواحدة هي التي يحملها الجميع.

أما القومية العربية التي باتت عند بعض المستغربين منّا، موضع ريبة وشك بدوافع خارجية، فإن سمتها الأساسية أنها قومية اللسان وليست قومية النسب (إنما العربية اللسان)، واللسان هنا دلالة فكرية وليس دلالة تعبيرية فحسب. وهذا ما جعل العربية واسعة الطيف، تنضم إليها عبر التاريخ الحضاري للأمة كوكبة ضخمة من العباقرة والمبدعين الذين قدموا إنتاجهم الثقافي في رحابها وهم ليسوا عرباً، لا في المولد ولا في النسب، لكنهم عربوا أنفسهم باللغة انتماء فكرياً. وما أظن أحداً ينكر على الثقافة العربية أنها هي التي أنجبت ابن سينا والبيروني والرازي وسيبويه والبخاري... ومن يماثلهم فكراً وثقافة، وعلى الصعيد العسكري والقيادي، لا ينكر أحد كذلك حق العرب بالاعتزاز بنور الدين الزنكي أو بصلاح الدين الأيوبي، أو بالمظفر قطز أو بالظاهر بيبرس... ومن يماثلهم ممن جسدوا حضور الأمة في سعتها الإسلامية لكل القوميات والثقافات التي انضمت إليها أو نشأت في رحابها الشاسعة.

وأعود إلى حديث الصين، لأثني على نجاح الدبلوماسية العربية التي حققت في بكين ذلك التوحد الثقافي العربي، فما يحدث اليوم من تقارب كبير بين العرب وبين الصين هو نتاج جهد بذله زملاؤنا الدبلوماسيون العرب الذين قدموا أنفسهم إلى الدبلوماسية الصينية بوصفهم سفراء أمة واحدة، وكان مجلس السفراء العرب في بكين هو الذي أعلن مبادرته حول تأسيس "المنتدى العربي ـ الصيني" تحت راية الجامعة العربية، فحقق حوار الحضارتين العربية والصينية، ثم حقق اللقاءات الوزارية التي اجتمع فيها وزراء الخارجية العرب ثم وزراء الثقافة العرب على

صعيد واحد مع الخارجية الصينية أو مع وزارة الثقافة وكبار مسؤولي الدولة في المجال الثقافي في الصين.

وأحسب أن وفدنا الثقافي كان أضخم وفد عربي رسمي زار الصين على مر التاريخ، ولم يتخلف عنه قطر من الأقطار العربية، وكان من سوء الحظ أن تواجهنا ونحن في الصين ملامح الضعف العربي المهين، فقد جاءتنا أنباء العدوان الإسرائيلي على غزة، فبتنا نتفرس موقف الأمة فلا نكاد نجد صدى لما يحدث في فلسطين، في وقت كنا نباهي فيه بعظمة أمتنا التي تمتد حدودها الجغرافية ما بين محيطين هما الهندي والأطلسي، وهي في حدودها الإسلامية تمتد إلى كل بقاع الأرض، ولكننا نتابع أنباء العدوان على إحدى مدنها الأثيرة وكأن الأمر يحدث في المريخ، وإسرائيل تستهين بها وتستبيح، بل يصل بها غرور القوة وهمجيتها إلى الاعتداء على كل القيم والأعراف الدولية حين تعتقل وزراء السلطة الوطنية الفلسطينية، وتهدد بمحاكمتهم، بل توجه تهديداً بالقتل والاغتيال علناً إلى شخصيات فلسطينية يعرف العالم كله أنها تحظى بشرعية جاءت بها انتخابات ديمقراطية أشاد الغرب كله بنزاهتها!

لقد أفسد عدوان إسرائيل على غزة وعلى الأرض الفلسطينية كلها، متعة إحساسنا بكوننا أمة ذات حضور قوي، فقد أعادنا الصمت العربي إلى هوة الواقع، ونحن نرى العرب عامة يتابعون ما يحدث من حصار لاإنساني لشعب فلسطين، ومن قصف يومي، ومن تهديد وترويع... فلا يملكون غير الأسى أو الأسف يقدمونه لأشقائهم وإخوتهم في فلسطين، بل إن الدبلوماسية العربية ذاتها (وهي التي تشكل في أغلب الأحيان أضعف الإيمان)، بدت الآن أضعف منها في أي وقت سابق.أليس هذا الضعف العربي، والذي لا نرى مبرراً له، هو الذي يجعل إسرائيل تتباهى بتهديداتها اليومية ضد سوريا؟ لقد قامت الدنيا ولم تقعد من أجل جندي إسرائيلي، بينما لا تحرك أمتنا عجيزتها من أجل شعب هو القلب فيها، يتعرض للقتل والقصف والتدمير! بل إننا لم نلمح مظاهر الغضب حتى في الإعلام العربي، وهو يمثل الحد الأدنى من التعبير عن مشاعر التضامن، فمتى نرى أنفسنا أمة واحدة حقاً كما يرانا الآخرون؟

٢٠٠٦/٧/٧

وداعاً... أيها السلام!

رغب العرب أن يقولوا "وداعاً أيها السلاح" وقدموا مبادرة تاريخية للسلام، لكن إسرائيل أصرت على أن تجعلهم يقولون "وداعاً أيها السلام" حين أطلقت رصاصة الموت على أوهام عملية السلام التي تبددت منذ أن تخلى عنها الأمريكان، وبدؤوا يلهون شعوب المنطقة باتفاقيات هزيلة ومشاريع بائسة ويجزئون الحلول فيما أدركنا أنه "ضحك على اللحى"، بما في ذلك "أوسلو" و"خارطة الطريق" التي ضاع منها الطريق، ومنه اجتماعات "اللجنة الرباعية" وسوى ذلك من السيناريوهات التي تشبه السراب في الصحراء حيث يتبدى الماء وهماً. وكان لابد من أن تسقط ورقة التوت عن هذه الأكاذيب التي كان كل هدفها إضاعة الوقت وإعطاء إسرائيل فرصة كي تقوى أكثر، وليضعف العرب أكثر. وقد كشفت السنوات الخمس الأخيرة سلسلة من الحقائق لم تكن تعمى عنها أعيننا نحن الذين لاحقنا الكذاب إلى الباب ولم نكن نصدق أكاذيبه، ولكننا كنا مضطرين أن نصغي بحذر إلى ما يسمى "المجتمع الدولي" الذي تقوده للأسف الشديد قيادات مصنوعة في مطبخ الصهيونية، تفتقد إلى النكهة الوطنية وإلى سمات الرجولة والشهامة والشجاعة والمروءة وما إلى ذلك من قيم رفضتها معايير العولمة الصهيونية الأميركية التي تريد أن تدجن الشعوب, وأن تجعل قياداتها تابعة لا شخصية لها ولا إرادة.

وتجلت عن الحرب الوحشية التي تشنها إسرائيل على لبنان مفاجآت عديدة صدمت العدو ومن يقف خلفه داعماً لمشروعه الهمجي، منها أن المقاومة ليست لقمة سائغة لتلتهمها إسرائيل متى شاءت، فهذه اللقمة شوكة في حلق إسرائيل، ستختنق بها، وهمجية إسرائيل في هجومها على لبنان عبأت قلوب الناس بحقد وكراهية كاد ينساهما بعض العرب في سنوات المفاوضات، لكن الأجيال الشابة التي تشاهد وحشية ما تفعل إسرائيل لن تقبل صلحاً في المستقبل ولن تمد يداً إلى عدو تقطر من يديه دماء الفلسطينيين واللبنانيين، حتى أنصار إسرائيل في الوطن العربي من المتأمركين الذي يتفاءلون بالرخاء الذي سيجلبه السلام معها، باتوا يدركون أنها تخونهم وتشوه دعاواهم أمام مجتمعاتهم، بل هي في لبنان تقصفهم ولا تستثنيهم من وحشيتها، وأرجو أن يفطنوا اليوم إلى أن إسرائيل وعملاءها هم الذين ارتكبوا جرائم القتل والتفجير في لبنان واتهموا بها سوريا ضمن مخطط وصل ذروته الآن، وهو يقضي بإبعاد سوريا عن لبنان وإحداث شرخ نفسي بين البلدين، كي يتم الاستفراد بالمقاومة، وتقوم إسرائيل الآن بمتابعة السيناريو لإحداث شرخ آخر بين الشعب اللبناني والمقاومة، حيث تصب إسرائيل حممها الهمجية على الشعب اللبناني كله وفي كل مناطقه كي يضيق بالمقاومة ويحملها المسؤولية عما يتعرض له، لكن

إسرائيل تعيش خيبة أمل مريرة، فالشعب اللبناني يزداد وعياً وصبراً والتفافاً حول مقاومته وهو يدرك أن النصر صبر أيام، وأن المقاومة هي التي ستحفظ للبنان حريته وكرامته، فإن انهزمت لا سمح الله فلا بقاء للبنان الذي تريد إسرائيل تفتيته وتحويله إلى دول طائفية لا شغل لها غيـــر الحروب الأهلية. أليس هذا هو ما تريد الولايات المتحدة أن يحدث في العراق وما توفر له كل الوسائل وما تسعى إلى إضرامه في سوريا ومصر والسعودية والمغرب العربـــي... حيـــث لا شغل لها سوى التحريض الطائفي والإثني وتهييج الأقليات، ليس بهدف إنصافها كمـــا تـــدعي، وإنما لزعزعة الاستقرار في المنطقة، تماماً كدعواها الخادعة حول إقامـــة الديمقراطيـــة فـــي الوطن العربي، لكن بعد أن وصلت "حماس" إلى السلطة، عبر أنظف انتخابات بشهادة المراقبين الدوليين، رفضت الولايات المتحدة نتائج الديمقراطية النظيفة لأن إرادة الشعوب لا تلبـــي إرادة الصهيونية! لذلك أحسب أن الولايات المتحدة لن تغامر بطلب الديمقراطية ثانيـــة بعـــد أن رأت نموذجاً من إرادة الشعوب العربية قدمه الشعب الفلسطيني، بل تريد في بلادنا ديمقراطية تتـــيح لأنصارها أن يصلوا إلى السلطة وينفذوا مخططاتها ويكونوا خدماً لإسرائيل.

لقد أعطت الولايات المتحدة الضوء الأخضر لإسرائيل كي تقضي على "حماس"، وكـــان واضحاً أن الخطة تتضمن القضاء على "حزب الله" بعد "حماس"، والمخجل أن دولاً محترمة في العالم أغمضت أعينها عما تفعله إسرائيل في غزة ومن بعد في لبنان، ووافقـــت علـــى إبـــادة المقاومة، ولم يكن يخفى على العارفين في المجتمع الدولي أن الخطة قديمة وأن مقتل الحريري كان تمهيداً للتنفيذ، حيث حققت إسرائيل بنجاح جزءاً ضخماً من الخطة التمهيدية، فقد تمكنـــت من أن تثير بلبلة في العلاقات السورية اللبنانية حين وقع في أتون الخدعة المريبة بعض أشقائنا اللبنانيين الذين أعمى عيون بعضهم عن رؤية الحقيقة هول المصاب آنذاك، وبعضـــهم أعمـــاه فراغ نفسي وفكري وضعف في الانتماء إلى الأمة، وكان الهدف من جرائم إسرائيل عبر سلسلة الاغتيالات التي نفذها عملاؤها إضعاف لبنان اقتصادياً وسياسياً، مع الضغط علـــى المجتمـــع الدولي كي يتخذ قراراً دولياً بنزع سلاح المقاومة وإخلاء لبنان من أية وسيلة للدفاع عن النفس أمام أي عدوان إسرائيلي في المستقبل، ولم يكن خافياً على أحد أن اســـتغلال جريمـــة مقتـــل الحريري لاتخاذ قرار بنزع سلاح المقاومة يكشف أهداف الجريمة، وهذه الأهداف تظهر اليوم، كما يظهر لكل اللبنانيين موقف سوريا الأخوي المؤازر والمساند حيث لم يتغير شيء في الصلة بين السوريين وأشقائهم اللبنانيين، لأن سوريا كانت مدركة لأبعاد المخطط وتعرف أن المطلوب وراء كل الجرائم التي شهدها لبنان منذ مطلع العام الماضي كان الوصول إلى عزل دمشق عن

بيروت بهدف الاستفراد برأس المقاومة، ونحمد الله أننا تمكنا من الصبر والصمود ولم ندع إسرائيل تزعزع موقفنا العروبي.

ومن المفاجآت التي تتحول إلى علقم في حلق الإسرائيليين اليوم أن "حزب الله" يملك قدرة على المقاومة وعلى الصبر وعلى النفاذ إلى العمق الإسرائيلي وعلى الإيمان بالله وبأن النصر من عنده، صمد أمام الترسانة العسكرية الإسرائيلية. ومع أن المعركة مستمرة ونتائجها النهائية رهن الأيام القريبة القادمة، فإني متفائل بأن إسرائيل التي شنت الحرب بهدف تغيير قواعد اللعبة كما قال مسؤولوها، ستندم لأنها دخلت لعبة نارية لن تحترق أصابعها فيها فحسب وإنما ستجعلها تفقد كل المكاسب السياسية التي حصدتها نتيجة الضعف العربي على مدى عقود، وأهمها إعلان العرب موت عملية السلام، ولعلهم يوثقون هذا الإعلان الصادر عن الأمين العام للجامعة العربية، وسيكون تجريباً للمجرب أن يقبل العرب بأي مشروع سلام تقدمه الولايات المتحدة أو أوروبا التي بدا موقفها من تدمير لبنان مخالفاً لكل ما تدعيه من صداقة ومحبة للبنانيين، حيث بدا أن الجندي الإسرائيلي أغلى عندهم من شعب لبنان كله، فأوروبا لم تحرك ساكناً من أجل عشرة آلاف أسير عربي، بينما تجد حقاً لإسرائيل أن تبيد لبنان بأسره من أجل جندي أو جنديين. أحسب أن شعبنا العربي في كل أقطاره يتمنى أن يسحب القادة العرب مبادرتهم للسلام لأنها لم تلق قبولاً ولم تجد أية استجابة من إسرائيل ومن أميركا، وبات مخجلاً أن يستجدي العرب سلاماً ممن يشن حرباً عليهم ويمعن في القتل والتدمير، والشارع العربي يرجو أن يقطع بعض العرب علاقاتهم مع إسرائيل، وأن يستخدموا ما لديهم من قوة سياسية ماداموا لا يمتلكون قوة عسكرية، فأضعف الإيمان الاستنكار باللسان، وما أظن أحداً من العرب يخفى عليه أن انتصار المقاومة سيعزز مكانة الأمة العربية كلها وسيجعل أميركا وأوروبا تعيدان النظر في سياساتهما في المنطقة، وأتوقع أن تعلنا احترامهما للعرب بعد عقود من الاستهانة والاستهتار، وسيجعل إسرائيل تنكفئ إلى ما وراء الجدار وتختبئ خلفه مرغمة على ألا تعتدي على أحد، وأن تذعن لقرارات الشرعية الدولية وتعيد الأراضي التي احتلتها بالقوة لأصحابها، وتعطي للشعب الفلسطيني حقوقه التي أقرتها الأمم المتحدة والتي تقف الولايات المتحدة ضد تنفيذها.

أتمنى على أشقائنا العرب جميعاً أن يثقوا بالمقاومة وأن يحذروا مما يشيعه البعض في الإعلام العربي والعالمي ممن يريدون إضعاف الروح المعنوية عند العرب وحشد رأي عربي ضد "حزب الله"، وتصويره على أنه هو العدو الإرهابي وليس إسرائيل التي تجاوزت النازية

والعنصرية في هجومها على لبنان ودخلت مرحلة جديدة من الوحشية لتثبت مصـــداقية رؤيـــة الشعوب الأوروبية لها بأنها خطر على السلم العالمي.

آن للأمة العربية أن تصحو من وهم السلام الكاذب، وآن للولايات المتحدة التـــي تـــدعم إسرائيل أن تدرك أن إسرائيل مذعورة من المقاومة ولن تجد لنفســـها مســـتقبلاً فـــي المحـــيط العربي، وبعد جرائمها الوحشية لن تجد عربياً ينسى فظائع ما فعلت وتفعل، وآن لقادة أوروبـــا أن يدركوا أن مصالحهم معنا أكبر وأهم من مصالحهم مع إسرائيل (ولينصرن الله من ينصره) وسيرى الظالمون أي منقلب سينقلبون.

٢٠٠٦/٧/٢١

عودة الوعي العربي

كشف العدوان الإسرائيلي الأخير المستمر على لبنان عن خطورة ما حدث للوعي العربي من غيبوبة، فقد كان مثيراً ومدهشاً أن يصبح الموقف العربي من المقاومة موضع ريبة وشك ونقاش يحتدم، وكان مريعاً كذلك أن يباهي إيهود أولمرت بدعم عربي لمشروع الإبادة ضد المقاومة اللبنانية، والذي ينفذه جيش الوحشية الإسرائيلي، إذ زعم أولمرت أنه تلقى دعماً وتأييداً سياسياً عربياً، وأرجو أن يكون تصريحه مجرد نوع من الحرب النفسية كيلا يسجل التاريخ سابقة لهوان عربي معلن بعد أن سجل الكثير من المواقف السرية المخزية. ولقد وددت أن أحسن الظن بمن وقف ضد عملية المقاومة حين أسرت جنديين بهدف تذكير العالم بأن لدى إسرائيل أكثر من عشرة آلاف أسير عربي، وقلت لعل المعارضين للعملية خافوا على المقاومة من أن تنقض عليها إسرائيل بذريعة هذه العملية فتعرضها للسحق والتدمير، ولكن الأدبيات الصحفية والمواقف الإعلامية التي رافقت هذا الحذر، كشفت عن غياب مفجع للوعي العربي، حسبنا دليلاً عليه أن أحد الصحفيين العرب لم يرضه كل ما ألحقت إسرائيل بلبنان من تدمير فكتب مقالة (هي واحدة من فيض من المقالات المشابهة) يدعو فيها إسرائيل ألا تكتفي بضرب لبنان وإبادة "حزب الله"، فهذا الحزب كما سماه هو (ذيل الأفعى) ولابد من أن يضرب رأسها الموجود (حسب الكاتب) في دمشق وفي طهران.

هذه المقالة ومثيلاتها تكشف حجم الاختراق المريع في بعض وسائل إعلامنا العربي وقسوة الاستهانة بالوجدان والناموس والقيم العربية والإسلامية، وبؤس ما وصلت إليه بعض السلطات العربية من عجز عن حماية الثوابت التي باتت مباحة؛ فالعدو يغزونا بأقلام عربية تعلن أنها ليست منا، وتعمل علانية بيننا لصالح العدو، ولا أحد يسألها أو يعترض رسمياً على خيانتها المعلنة.

ونحن ندرك أن هذه المقالات لو بلغت آلاف الصفحات فلن تترك أي أثر يذكر عند المتلقي العربي أكثر من الشعور بالاحتقار لأولئك الذين باعوا شرفهم الوطني مقابل حفنة من الدولارات. وقد كان مفجعاً أن يضرب بعض المخترقين على نغم الطائفية البغيض في هذه المرحلة الدموية ليزيدوا الأوار ويضرموا الفتنة في الشارع العربي الذي عبر عن وعي افتقده هؤلاء الكتاب الذين كشفوا أنهم مدسوسون يعملون لصالح العدو وينبغي أن يقدموا للمحاكمة حيث تقضي القوانين في كل الدول العربية بعقابهم بجرائم الخيانة العظمى .

ولئن كان بعض المثقفين العرب من المتأمركين الحالمين بالرخاء الأمريكي الذي ستجلبه لبلادنا صواريخ الولايات المتحدة، لم يخجلوا من دم أطفال قانا ومن جثث الموتى تحت الأنقاض في لبنان وقبلها في فلسطين، فإن الصمت عليهم والسماح لهم بممارسة هذه الديموقراطية المزيفة الخادعة يبدو ضعفاً غير مبرر، وحسناً فعلت المقاومة حين ألقت القبض على أمثال هؤلاء في لبنان ممن يقومون بدور الدليل للجيش الإسرائيلي ويرشدونه إلى الأهداف التي يبحث عنها.

صحيح أننا لم نفاجأ بهذا الاختراق في الإعلام العربي فقد كان يطبخ على نار هادئة منذ عقود طويلة حيث تم تأهيل جوقة المتصهينين في الإعلام العربي تحت يافطات الديموقراطية والدفاع عن الأقليات وسوى ذلك من الشعارات البراقة التي انكشف زيفها حين اختار الشعب الفلسطيني" حماس" فوقف هؤلاء الديموقراطيون ضد خيار الشعب لأنه لا يرضي الرغبة الصهيونية، وبدا واضحاً أن دفاع هؤلاء المتأمركين عن حقوق الأقليات لم يكن بهدف إنصاف المظلومين وإنما بهدف تأهيل المجتمع العربي لمزيد من التفكك تلبية للرغبة الأمريكية الإسرائيلية ببناء شرق أوسط، "كبير" مرة و"جديد" مرة أخرى، يضم دولاً طائفية وعرقية على غرار ما تهكم به أحدهم حين تحدث عن "دولة شيعستان" و"دولة سنيستان" على غرار كردستان الكبرى، فضلاً عن دول للمسيحيين بحسب مذاهبهم وأخرى للدروز وغير ذلك مما تشتهي كونداليزا أن تقيمه في الشرق الأوسط المفكك لصالح إسرائيل التي يخطط الأمريكان أن يجعلوها دولة كبرى بين مجموعات من الدول الصغيرة الضعيفة المتناحرة، غير مدركين أن ما يخططون له هو نوع من الأوهام لا يمكن أن يتحقق، لا سيما بعد أن بدأت الصهيونية تلفظ أنفاسها وتتكفىء خلف جدار الخوف على مستقبلها، لأن الوعي العربي الذي رسخته المقاومة في نفوس الشباب العربي هو الذي سيرسم خريطة الشرق الأوسط العربي الجديد الذي تنكمش فيه إسرائيل خلف جدارها وترتد عنه السياسة الأمريكية التي تعمقت كراهية الأجيال الشابة لها بعد سيل جرائمها في العراق، وبعد انفضاح أكاذيب دعواتها الديمقراطية في فلسطين، وبعد التهتك الأخلاقي المفجع الذي وصلت إليه في إصرارها على استمرار إسرائيل في السفك والقتل والتدمير في لبنان، وفي سيطرتها المريعة على القرار الدولي في مجلس الأمن... الأمر الذي يثير حفيظة دول كبرى باتت تشمئز من هذا الفلتان الأخلاقي في الموقف الدولي الذي ما يزال مرتبكاً عاجزاً عن اتخاذ موقف حازم من جرائم تقشعر لها الأبدان مثل جريمة قانا الثانية .

إن ما ارتكبته إسرائيل في لبنان من جرائم يصمت عنها المجتمع الدولي هو وصمة عار على جبين الإنسانية التي تقودها اليوم الولايات المتحدة التي ما انفكت تطالب دول العالم باحترام

حقوق الطفل، وهي وحدها التي تقتل الأطفال بأسلحة أمريكية الصنع يسفك دم الطفولة بها جنودها الإسرائيليون الذين ماتت ضمائرهم، وهم يحاولون إيهام العالم بأنهم أبرياء يدافعون عن أنفسهم ضد صواريخ الكاتيوشا التي تقصفهم بها المقاومة !وإذا كانوا يتجاهلون حقيقة أنهم هم المعتدون الذين احتلوا جنوب لبنان وأسروا من العرب الآلاف، فكيف يتجاهل ذلك قادة العالم الذين يعرفون جيداً أن الحرب الوحشية التي تشنها إسرائيل على لبنان، هي استمرار للعدوان الإسرائيلي على الأمة العربية كلها منذ أن أقيمت إسرائيل عنوة على الأرض العربية ومنذ أن شرد شعب فلسطين ليحل محله شعب آخر لا صلة له بهذه الأرض؟! لقد قبلت الأمة العربية بالأمر الواقع، وقدمت فرصة تاريخية لإنهاء الصراع عبر تسوية واقعية على مبادئ تضمن إمكانية التعايش، لكن إسرائيل تريد من العرب استسلاماً ولا تريد معهم سلاماً، وهذا ما لن يتحقق لإسرائيل، بل إنها ستندم كثيراً لتجاهلها المتغطرس لمبادرة السلام العربية، لأن الأجيال القادمة التي تزداد اليوم كراهية لإسرائيل، وهي ترى جرائمها القذرة، لن تقبل التعايش مع السفاحين والمجرمين .

ويبقى السؤال على الصعيد العربي، أترانا نحتاج إلى أن تقوم إسرائيل بمزيد من القتل والتدمير في عواصمنا العربية، واحدة تلو أخرى، كي نقنع بعض مثقفينا العرب بأن عدوهم ليس "حزب الله" المقاوم، وليس "حماس" الصامدة أمام أشرس نوع من أنواع الاحتلال؟ !

إنني أرجو أن يستعيد الكتاب المتوهمون الحالمون بـ"شرق أوسط جديد" ترسمه رايس، وعيهم الوطني، فهي لا تعمل لصالحهم أو لصالح الشعب الأمريكي الذي لا شأن له ببلادنا كي يرسم خارطتها، وإنما تعمل لصالح إسرائيل فقط. وهي وأمثالها من قادة الغرب سينساهم التاريخ وسيلفظهم، كما لفظ الذين كانوا قبلهم ممن قتلوا وسفكوا ودمروا ولكنهم لم يحققوا شيئاً من أهدافهم، وحسبنا شارون الذي ارتكب أقذر الجرائم في مطلع القرن العشرين حيث بوسعه اليوم أن يموت كمداً وهو يرى "حماس" تصل إلى السلطة في فلسطين رغم كل ما ارتكب من جرائم بهدف إبادتها، وحسبنا كذلك شيمون بيريز الذي ظن حين ارتكب مجزرة قانا الأولى أنه قضى على المقاومة اللبنانية بضربات ماحقة، ولكن عناقيد غضبه تحشرجت في حلقه وهو يرى المقاومة تشتد وتكبر وستزيدها مجزرة قانا الثانية إصراراً وتصميماً على تحقيق النصر، وإنهاء لهذا الصلف الإسرائيلي الذي تشمئز منه نفوس البشرية كلها. وسيموت الخونة بغيظهم وحسبهم أنهم باتوا يسلمون مرغمين بانتصار المقاومة.

٢٠٠٦/٥/٣

عصر النصر

هنيئاً للأمة بما حققته المقاومة الإسلامية اللبنانية من نصر أزاح عن كاهل الأجيال شعوراً واهماً بالهزيمة والضعف أمام إسرائيل التي سبق أن أذاقتها المقاومة الباسلة مرارة الهزيمة عام ٢٠٠٠، وقد عادت إسرائيل اليوم لتنتقم لكنها فوجئت بأن المقاومة باتت أقوى وأشد، وأن شعب لبنان العظيم الذي خبر الشدائد والمحن بات أقوى عوداً وأصلب مكسراً وأكثر قدرة على الصبر والتضحية. ومع أن النصر لم يفاجئنا، فقد كنا مطمئنين إليه من اللحظة الأولى التي تعرض فيها لبنان للعدوان، واثقين بقدرة شعبه على الصمود وبقدرة "حزب الله" على المقاومة، إلا أن الأمة مدعوة إلى تأمل أسباب هذا النصر، وإلى دراسة مقوماته. لقد كان من أهم أسباب النصر، موقف الشعب اللبناني الذي تمسك بوحدة وطنية متينة وخيَّب ظن إسرائيل التي توهمت أن شعب لبنان سوف يتخلى عن المقاومة، وقد أوجعته إسرائيل بضرباتها الوحشية كي يعلن الاستسلام، ويقف ضد المقاومة ويحمِّلها مسؤولية ما أصابه من ويلات، لكن هذا الشعب العظيم، كان يزداد قوة وصلابة كلما ازدادت الضربات، وهو يدرك أن المقاومة هي التي تصد عنه الذل الذي تريد إسرائيل أن تسم به الأمة كلها، وأنه لولا المقاومة الباسلة التي ردت ضربات العدو بضربات أشد إيلاماً وأقوى تأثيراً، لدمرت إسرائيل لبنان وأبادت شعبه وأعادته قروناً إلى الوراء في بنيته التحتية والاجتماعية، ولوصلت إلى بيروت منذ اليوم الأول وارتكبت من المجازر ما يفوق مجزرة صبرا وشاتيلا ومجازر قانا، لكن إسرائيل واجهت مقاومة فوجئت بها وبقدراتها القتالية والتنظيمية حيث لم تتمكن استخباراتها من اختراقها على الرغم من براعتها في اختراق الأنظمة العربية، ولقيت رجالاً مدربين مؤمنين أقوياء يحبون الشهادة دفاعاً عن الوطن أكثر مما يحب الإسرائيليون الحياة. والدرس الأهم الذي قدمه انتصار "حزب الله"، كان للأمة العربية، حين أكد لها أنها ليست أمة عاجزة كما يشيع الضعفاء (المستغربون) فيها، وقد أدركت الأمة أنها تمتلك سلاحاً، إذا ما أحسنت استخدامه تحقق لها من القوة والنصر ما يدهش العالم كله، هذا السلاح هو الإيمان بعقيدة صلبة متينة، وفكر متماسك واعٍ، وثقافة رحبة تملأ العقل رجاحة وتتسع لرؤية كونية متوازنة، وتدعو إلى سلوك رصين مهذب في التعامل مع الذات ومع الآخر، وتفرض على صاحبها صدقاً في القول والعمل (لقد اكتسب السيد حسن نصرالله مصداقيته أمام شعوب العالم من الصدق السياسي والعسكري، ومن التزام حزبه بأخلاقيات المقاومة، وحرصه على عدم الوقوع في فخاخ الخلافات الصغيرة أو الكبيرة التي تحاول إبعاده عن خطه الوطني، وهذا ما جعل كل الشرائح والطوائف تتجاوز العوائق المفتعلة وتجد لدى المقاومة مصداقية الشرف الوطني والقومي والديني). وأحسب أن من أهم ما ينبغي

أن نتأمله من درس النصر، هو هذا الانصهار الوطني الذي تجاوز تلك الخلافات الهلامية ما بين "سُني" و"شيعي"، أو ما بين مسلم ومسيحي، وقد ذابت تحت وهج نيران المقاومة جدران الجليد التي كانت حجاباً من الوهم يفرق بين أبناء الشعب والأمة، حيث توحَّد الكل في واحد، ولم تفلِح بعض الدعاوى التي حاولت أن تعزف على لحن التفرقة أن تجد من يصغي إليها، فقد كان صوت التوحد أقوى. ولولا تمسك الشعب اللبناني ومن خلفه جماهير الأمة كلها بهذا الموقف المتوحد، لما تمكنت المقاومة من تحقيق النصر الذي يستدعي أن يعيد النظام العربي بعامته النظر في رؤيته السياسية المستقبلية وأن تؤمن بعض قياداته بأن شعوبها أقوى مما تظن، وأن التزامها بقضاياها هو الذي يجلب لها الأمن والاستقرار والقوة، وهذا الالتزام بالشعب والأمة أهم من كل الالتزامات والاتفاقات الدولية التي عقدت في فترات ضعف وانهيار. ومن أهم ما ينبغي أن تفعله الأمة اليوم، مواجهة الاستحقاقات الكبرى، وأهمها قرارات مجلس الأمن التي لم تطبق المنظمة الدولية منها إلا ما هو لصالح إسرائيل، أما ما على إسرائيل أن تنفذه فلا أحد يجرؤ على مطالبتها به، لأن إسرائيل تعيش فوق القانون الدولي وتعيث فساداً في المجتمع الدولي دون رادع أو مانع، ويحق لها أن تقتل المدنيين، وأن تهدم المنازل والبنى التحتية دون أن يسائلها أحد. ولكن زمن الخنوع العربي انتهى إن شاء الله، وآن للعرب أن يطالبوا المجتمع الدولي بموقف عادل، كما آن لهم أن يعيدوا النظر بالمبادرة العربية للسلام التي قدموها في مرحلة ضعف وإذعان، حيث جاءت دون شرط زمني يحدد مهلة الاستجابة، وكان أولى أن تحدد مدة زمنية معلومة تنتهي بعدها صلاحية عرض السلام، فهل يعقل أن تقدم الأمة عرضها السخي للسلام ليبقى عرضاً أبدياً يتيح لإسرائيل ألا تجيب عليه عقوداً من الزمن ثم لا يجد العرب صدى ولا يسمعون جواباً، لا من إسرائيل ولا ممن يدعون أنهم رعاة السلام؟ لقد آن للأمة أن تتخلص من ثقافة الخوف والضعف والهزيمة والاستسلام، وأن تتمثل ثقافة المقاومة الأصيلة فيها، وخيار المقاومة لا يعني رفضاً للسلام، بل إن المقاومة هي التي تجبر العدو على أن ينصاع للسلام العادل والشامل، فما الذي يجبر إسرائيل على أن تفاوض ضعفاء مهزومين لا يملكون أن يدافعوا عن حقوقهم؟ وعلامَ يصغي العالم لصوت الحق العربي الضعيف الخافت ويغضِب صوت القوة الأميركية الهادرة التي تكاد تسيطر على الكون كله؟ إننا نعتب على من شكك بقدرة المقاومة وصمودها، وعلى من أراد أن يصادر حقها في المطالبة بأسراها، ونعتب على من صدَّق أن عدوان إسرائيل على لبنان كان رداً على أسر جنديين، متغافلاً عن خطط الولايات المتحدة وحلفائها ممن اتفقوا على إقامة "شرق أوسط جديد" تنهار فيه الدول الراهنة وتنشأ فيه دول صغيرة، دينية وإثنية وطائفية، يستقوي بعضها على بعض بإسرائيل وجيشها! ونعتقد أن جميع أشقائنا يدركون اليوم حقائق المرحلة، ولكننا نخشى أن نجد في الأمة من يريد

أن يحقق لإسرائيل مكاسب سياسية بعد أن أخفقت بتحقيق مكاسب عسكرية، وها نحن بدأنا نسمع دعوات مريبة هي ذات أهداف الحرب التي شنتها إسرائيل على لبنان وأخفقت في تحقيقها. إننا نريد للأمة أن تجتمع على كلمة حق، وأن تكافئ المقاومة الباسلة بالتأييد والتمكين، وليس بالضغط كي تسلم مكامن قوتها وتعتزل الفعل المقاوم، وتترك الساحة لإسرائيل وأعوانها ومن يتشهون أن يقيموا دويلاتهم الصغيرة على أشلاء ودماء الشهداء. لقد علمنا درس حرب أكتوبر أن الحفاظ على النصر أهم من النصر، فقد تمكنت إسرائيل أن تفكك عقد الأمة الذي كان متيناً أيام الحرب، وقادت بعض أمتنا إلى حلول سلمية انفرادية جزئية، أفقدت الأمة وحدتها ونزعت منها أهم عناصر قوتها، وهو ما تدفع الأمة ثمنه اليوم من عجز عن اتخاذ موقف صارم من جرائم إسرائيل ووحشيتها، حتى أن فنزويلا، البلد الصديق، صعدت إلى موقف أعلى بكثير من مواقف بعض العرب، وهذا ما يدعونا إلى العتب المُر بل إلى الضيق بما وصلت إليه الأمة من هوان. إننا نخشى أن تتسلل إسرائيل إلى الموقف العربي فتحقق بالغدر والالتفاف من الداخل ما عجزت عن تحقيقه بالعدوان العسكري الخارجي، وأعداء الداخل أخطر على الأمة من العدو الظاهر، وهذا ما يدعو كل مواطن عربي إلى الحذر، فإسرائيل، وأمامها وخلفها صناع سياسة الولايات المتحدة الطامحون إلى شرق أوسط تصول فيه إسرائيل وتجول على هواها، وتدوس كرامة شعوبه وتحولهم إلى خدم لمصالحها... لن تقف صامتة بعد هزيمتها في لبنان، بل نتوقع أن تستعد لعدوان جديد، وأن تنسلَّ إلى داخل البيت العربي لتفتك به من الداخل، وهدفها المستمر هو اجتثاث روح المقاومة من الجسد العربي كي يسهل عليها تمزيقه، ونزع كل سلاح يمكن أن يدافع عن الوطن، أو يشهر في وجه العدوان. إنها تريد أن ترى العرب خاضعين خانعين، يستمدون أمنهم من قوتها. ومن المفجع أن نرى لإسرائيل أنصاراً في بعض الساحات العربية يلبسون الباطل لبوس الحق! إننا لا نريد أن تنساق الأمة إلى تبادل الاتهامات، ولكن أعداء المقاومة سارعوا يوم النصر إلى مطالبة المقاومة بما عجزت إسرائيل عن تحقيقه، رغم أنها استخدمت أفظع ما لديها من قوة تدمير وعنف. ولئن كنا نجد مصلحة لبنان فيما يختاره شعب لبنان، فإن صموده المدهش أيام الحرب والتفافه حول المقاومة، أوضح أي خيار يريد هذا الشعب.

٢٠٠٦/٨/١٨

هل انتهت الحرب؟

لا أحد منا نحن العرب يحب الحرب، ولكنها حين تفرض علينا نقبل التحــدي ولا نقبــل الاستسلام، ونستعد لتقديم التضحيات دفاعاً عن وجودنا وعن أرضنا. ونحن متسامحون لا نحقد ولا ننتقم ولا نحمل في نفوسنا عداوات قديمة ولا ضغائن وهذا ما يشهد بــه التــاريخ القــديم والقريب. فقد تسامحنا مع كل الدول والأمم التي وجهت جيوشها لاحتلال أرضنا وتدمير مــدننا عبر التاريخ، ولم نحمل الشعوب مسؤوليات الدمار الذي لحق بنا، ولكننا لا ننكر أننــا خــلال دفاعنا عن حريتنا واستقلالنا نكبِّد العدو خسائر فادحة، ونضطره إلى التراجــع عــن أطماعــه وتسلطه وإن طال بقاؤه فينا. فقد صدت أمتنا غزوة أبرهة الذي أراد أن يهدم الكعبة وأن يسيطر على بلاد العرب، ثم صدت أطماع الفرس في العراق في معركة "ذي قار" الشهيرة التي تعتبر من أهم أيام العرب في التاريخ القديم، ثم صدت غزو بيزنطة لبلاد الشام، وكان أورليان قد هدم تدمر "بالميرا" التي ما تزال وسط البادية السورية دليلاً على وحشــية الغــزو الغربــي الــذي تعرضت له بلادنا، وما تزال قصة المقاومة الصلبة التي أبداها شعبنا بقيــادة الملكــة العربيــة زنوبيا ملهمة للكتاب والمسرحيين. وقد تمكنت الأمة العربية بعد الإســلام أن تحــرر العــراق فكانت معركة القادسية، ثم حررت بلاد الشام فكانت معركة اليرموك، ثم انطلقت جيوش الأمــة لتتابع تحرير الشمال العربي الإفريقي ولتدعو إلى الدين الجديد، ولكنها كما يشهد التــاريخ لــم تدمر مدناً، ولم تبدْ شعوباً، وإنما كانت تقدم صورة الدين الجديد عبر السلوك الحســن والخلــق القويم. وهذا ما يفسر بقاء الإسلام في كل الدول التي غادرها جيش المسلمين الذين شــهد لهــم التاريخ بأنهم نشروا العدل والحق حيث حلوا، وقد قال جوستاف لوبون:"لم يعرف التاريخ فاتحاً ارحم من العرب". وقد انكفأت الأمة بعد هوان الدولة العباسية، فتعرضت لغزوين في آن واحد، غزو من الشرق يقوده هولاكو، وغزو من الغرب يقوده الصليبيون، وقد دحر الغــزوان فــي حطين ثم في عين جالوت، ولكن الأمة سرعان ما وقعت بيد العثمانيين الــذين قبــل العــرب خلافتهم لأنهم مسلمون. ولم تكد الأمة تفيق من سبات طويل في العصر العثماني حتى سارعت دول الغرب الأوروبي إلى غزوها واحتلالها، فقد هاجم البرتغــاليون ســلطنة عُمــان الناشــئة الناشطة، وهاجم الفرنسيون الجزائر وتونس والمغرب العربي، ثم غزوا سورية ولبنان، وكــان البريطانيون قد غزوا مصر والسودان والعراق والأردن وفلسطين والخليج العربــي وغــزت إيطاليا ليبيا، ودخلت الأمة في صراع مرير مع الأوروبيــين الــذين أرادوا إخضــاع العــرب

والمسلمين لسطوتهم. وكان أخطر غزو واحتلال هو ما فعله البريطانيون حين احتلوا فلسطين وقدموها هدية لليهود كي يقيموا دولتهم على أرضها بذريعة وهم ديني أسطوري يزعم (أن اليهود شعب الله المختار، وأن فلسطين أرض المعاد، وأنها بلا شعب، وهي حق إلهي لليهود الذين يحق لهم أن يبيدوا أهلها وسكانها وأن يسيطروا على كل ما حولها). وقد تمكنت الأمة من صد الغزاة الأوروبيين فتحررت كل البلاد العربية من احتلالهم الكريه البغيض، ولكن بقيت فلسطين بيد الاحتلال الصهيوني الاستيطاني الذي لقي من دعم أوروبا ما مكنه من البقاء رغم خمسة حروب مريرة خاضها العرب لاسترداد فلسطين ولم يفلحوا لأن حجم الدعم الذي تلقاه إسرائيل كان يفوق إمكاناتهم، ولأن الأوروبيين ومن بعدهم الأميركان تمكنوا من ترتيب البيت العربي على نحو يضمن لإسرائيل استمرارها في العدوان. وأنا هنا لا أتوجه بهذا الاستعراض السريع لتاريخ الصراع إلى الدارسين والعارفين، ولكنني أتوجه إلى الأجيال الجديدة التي تحاول بعض قنوات الإعلام الصهيونية والمتصهْينة أن تشوِّه الحقائق عنده، وأن تقنعه بأن لإسرائيل حقاً في بلادنا. وقد كان مثيراً ومدهشاً أن نجد وسائل إعلام تدعي أنها عربية، تقزم أسباب الحرب الأخيرة على لبنان وتصور "حزب الله" معتدياً حين خطف أسيرين، متجاهلة وجود آلاف الأسرى العرب عند إسرائيل. وقد لاحظنا كيف تعامل الإعلام الصهيوني العالمي مع الحرب حين ألغى تاريخ هذا الصراع الطويل، واعتبر نقطة البداية أسر جندي إسرائيلي من قبل "حماس" واثنين من قبل "حزب الله"، وقد أكدت الحملة الإعلامية التي شارك بها بعض العرب على تحميل "حزب الله" مسؤولية الحرب في تجاهل مؤسف لتاريخ مرير يريد أعداؤنا المغتصبون طمسه، وتشويه المعلومات حوله عند الأجيال الجديدة. لكن حجم الجرائم التي ارتكبتها إسرائيل في لبنان أفشل الحملة الإعلامية الصهيونية التي أرادت تبرير العدوان، فحين رأت شعوب العالم حجم الدمار الذي ارتكبته إسرائيل وقتل الأطفال والنساء والشيوخ والمرضى والعجزة وقصف المواقع المدنية والبنى التحتية فهمت أن الادعاء بأن إسرائيل تريد استرداد الأسيرين مجرد ذريعة لحرب مبيتة، وأن الهدف الحقيقي هو إبادة للجنوب اللبناني وتدمير لسكانه، فموضوع الأسيرين كان يمكن أن يعالج بالطرق الدبلوماسية كما حدث سابقاً، ونحمد الله الذي منَّ على لبنان بالنصر بفضل الصمود الذي كان مكلفاً بالطبع، ولكنه قدم لإسرائيل نموذجاً عما يمكن أن تلقاه من مقاومة إذا اعتدت على الشعوب العربية. وأخطر التحولات الراهنة هو انتقال الحرب إلى الداخل الإسرائيلي الذي لم يكن يتأثر كثيراً حين تدخل إسرائيل في حروب نظامية تقليدية ضد العرب وهي مزودة بدعم أوروبي وأميركي غير محدود. إننا نرجو أن

تكون الحرب السادسة آخر الحروب بين العرب وإسرائيل، لأننا نريد أن تعيش منطقتنا وأمتنا والعالم كله بأمان وسلام، ولأننا نومن أن بوسع البشر أن يجدوا حلولاً لمشكلاتهم مهما كانت كبيرة إذا هم حكَّموا العقل والمنطق، وأذعنوا للحق ولو على أنفسهم. ولكن الأصوات التي تدعو إلى التسوية السلمية والحل الجذري ما تزال خافتة واهنة، مقابل الأصوات الهدارة التي تدعو في إسرائيل إلى شن عدوان شامل جديد تستعيد فيه المؤسسة العسكرية الإسرائيلية هيبتها التي تحطمت أمام صمود المقاومة اللبنانية، وتجد فيه مخرجاً من الأزمة الراهنة التي جعلت إسرائيل تواجه أخطر موقف في تاريخها القصير، فقد تحول عجزها عن إبادة المقاومة الشعبية في فلسطين ولبنان رغم كل الجرائم التي ارتكبتها وما تزال ترتكبها ضد الشعبين اللبناني والفلسطيني إلى أزمة وجود وبقاء. وقد عبرت جرائمها عن عمق شعور قادتها بالأزمة التي جعلتهم يتصرفون بجنون وفقدان أية رؤية مستقبلية، وقد كشفت ضرباتهم للمواقع المدنية (مثل القاع التي قتل فيها عمال زراعيون بسطاء هم وأطفالهم ونساؤهم) عن حالة من الهيجان الوحشي الجنوني، وهو مشابه لما يفعلون في غزة وفي الأراضي الفلسطينية حين يهدمون المنازل على رؤوس سكانها، وحين تلاحق طائراتهم سيارات المواطنين الفلسطينيين ويقصفونها بالصواريخ على شبهة أن فيها مقاومين. إن هذه التصرفات الحمقاء تكشف حالة الجنون التي تواجهها إسرائيل التي تلقى دعماً لم تلقه دولة في العالم، فقد وضع قادة الولايات المتحدة كل ما يملكون من أسلحة تدمير تحت تصرف إسرائيل، وهبَّ العديد من قادة أوروبا لدعم إسرائيل والتغاضي عن كل جرائمها، بل إن بعض قادة فرنسا الذين كانوا يدعون عبر القرون بأن لبنان عزيز عليهم، صمتوا عن كل الجرائم التي ارتكبتها إسرائيل ضد لبنان، وكاد مجلس الأمن يتحول إلى مجلس حرب وإدارة عمليات يقودها "بولتون" لصالح إسرائيل، وتمت المماطلة في عقد اجتماع لمجلس الأمن لمنح إسرائيل مزيداً من الوقت عسى أن تحقق شيئاً من أهدافها، ولكن ما وجدته من قوة صمود المقاومة لم يكن في حسبانها أو في حسبان من يدعمها. إن الفرصة ما تزال سانحة أمام دعاة السلام، وعلى أوروبا التي دعمت إسرائيل على مدى سنوات الصراع، أن تحسِّن صورتها أمام العرب، وعلى قادة بريطانيا بشكل خاص (لأنهم هم الذين ابتلوا العرب بوجود إسرائيل في قلب الأمة العربية) أن يعيدوا النظر في موقفهم المعادي للعرب والمسلمين، وأن يلبوا موقف شعوبهم التي رأت الحق وأدركت أن كل ما تزعمه حملة مكافحة الإرهاب أكذوبة مفضوحة هدفها القضاء على المقاومة، والقضاء على الإسلام لأنه هو الدافع الضخم لملايين الشباب العرب والمسلمين كي يقدموا أرواحهم رخيصة دفاعاً عن أمتهم

وعن حقوقها وعن مكانتها في العالم. لقد وصف بوش الإسلام بأنه "فاشي"، في الوقت الذي كانت فيه الطائرات والصواريخ الأميركية الصنع تغير على الأطفال في قانا، ولم يخجل الرئيس الأميركي من شعوب الأرض التي تتابع على الفضائيات وحشية ما تفعل أسلحته التدميرية في لبنان والعراق وأفغانستان، بل هو ما يزال يهدد سوريا وإيران، في الوقت الذي يملك فيه قادة الولايات المتحدة مفاتيح الحلول لكل المشكلات الدولية لو أنهم توجهوا إلى العدل وأرادوا إنهاء الحروب في العالم ونشر الأمن والسلام.

٢٠٠٦/٩/١

في ذكرى الجريمة

يتجدد الحديث عن جريمة ١١ سبتمبر، وتتوجه معظم وسائل الثقافة والإعلام في العالم للتذكير بالحدث الخطير الذي بدأ به القرن الحادي والعشرون وأغرق بآثاره الدموية مستقبل البشرية، والمؤسف أن ذكرى الجريمة باتت مناسبة سنوية لتجديد بواعث الحقد والكراهية للعرب والمسلمين ولتعبئة مشاعر بسطاء الناس في كل الأمم ضد "الهمجيين" الذين يهددون مستقبل الإنسانية حيث يتم وصفهم بأنهم يعشقون الدماء ويحقدون على الحضارة الغربية ويريدون فرض الإسلام على المجتمعات الأوربية والأميركية. ومع أن العرب والمسلمين في العالم كانوا من أوائل من أدان الجريمة القذرة التي كان من ضحاياها عرب ومسلمون، إلا أن التهمة التي وجهت إليهم كانت جاهزة قبل أي تحقيق قانوني، وقد تمت إدانة عرب ومسلمين بقوة الإعلام وليس بقوة الأدلة التي ما تزال موضع ريبة وشك. وقد كتبت آلاف الصفحات التي تناقش القرائن التي قدمت ولم تعطِ الإدارة الأميركية بياناً قانونياً قاطعاً للشك بعد سيل الفضائح التي واكبت لجان التحقيق التي لم تنه عملها ولم تعد لديها حاجة لإنهائه لأن الإدانة باتت مسلَّمة (إعلامياً) لدرجة أن بعض الكتاب (العرب) باتوا يهزؤون ممن يرتاب في صحة الأدلة المقدمة ويتهمون من يطلب تحقيقاً دولياً بأنه يريد تبرئة "القاعدة". وثمة كتاب عرب آخرون يصرون على القناعة التامة بصحة الاتهام دون مناقشة منطقية من باب التفاخر بالعبقرية العربية التي أنجزت ما سموه غزوات نيويورك ومانهاتن، وهم يدافعون عن حق العرب والمسلمين في دحر الطاغوت الأميركي ومهاجمته في عقر داره، ويبدو أمراً غير مستغرب أن تحدث جريمة بهذا الحجم اضطراباً وفوضى فكرية وسياسية في العالم كله. لكن استمرار الاضطراب والفوضى الفكرية وعدم القيام بمراجعة موضوعية لما حدث على الرغم من مرور خمس سنوات على الجريمة يبدو أمراً مستغرباً. صحيح أن الإدارة الأميركية التي أعلنت في ساعة الغضب حرباً صليبية على العرب والمسلمين سرعان ما تراجعت عن هذا التعبير وأطلقت تصريحات تحدد العدو بأنه "القاعدة" فقط والتطرف الإسلامي. إلا أن الانتقام الذي قامت به الولايات المتحدة لم يكن ضد "القاعدة" التي ما يزال قادتها طلقاء تلاحقهم جيوش أميركا إعلامياً وهم يتصدون لها ويهددونها في ذات وسائل الإعلام التي تشرف عليها الولايات المتحدة. فقد شمل الانتقام عالمنا الإسلامي كله، بدءاً من أفغانستان التي تعرض شعبها لقتل وسفك وتدمير دون أن يرتكب ذنباً سوى أن الولايات المتحدة فرضت عليه "القاعدة" وابن لادن ذات يوم كي يسهم معها في طرد الاتحاد السوفييتي، وأنها فرضت عليه حكومة "طالبان". ولم يقف الانتقام عند حدود أفغانستان بل لقد أعلن وزير الدفاع الأميركي يومها أن الحرب على الإرهاب ستطال ستين بلداً (ويبدو أنه

يقصد دول منظمة المؤتمر الإسلامي) وأن هذه الحرب ستمتد إلى أكثر من عشر سنوات، وقــد بدأت الولايات المتحدة تنفيذ هذا الوعيد، فبدأت حربها على العراق وكان من بين الذرائع التــي قدمت افتعال صلة للنظام العراقي مع "القاعدة" (والطريف أن الولايات المتحدة أعلنت مــؤخراً بعد خراب العراق عدم وجود صلة لصدام مع "القاعدة"، وانهارت هذه الذريعة المفتعلة مثلمــا انهارت ذريعة أسلحة الدمار) ولم يبق من الذرائع غير نشر الديمقراطية التي رأينــا نماذجهــا المرعبة فيما يحدث في العراق من فوضى ودمار. وقد حاولت الولايات المتحدة أن تقدم ذريعة للتدخل في الشؤون الداخلية للدول العربية والإسلامية تحت عنوان الإصلاح، فرفضت الــدول هذا التدخل فجاء الإعلان المثير عن إقامة شرق أوسط كبير كان واضحاً للعرب والمسلمين أنه مشروع تقسيم للدول العربية وتفتيت لها إلى دول صغيرة تقام على أسس إثنية وعرقية وطائفية، والهدف محو الهوية العربية، والقضاء على الإسلام لأنهما معاً (العروبة والإســلام) يجســدان الأرضية الفكرية والعقائدية التي تنهض عليها المقاومة. وقد أيقن الاســتراتيجيون فــي الفكــر الصهيوني أنه لا يمكن القضاء على مقاومة العرب والمسلمين لمشاريع الصهيونية في التوســع والسيطرة على الشرق الكبير إلا بالقضاء على ينبوع الفكر المقاوم، وهو في الدرجــة الأولــى (الإسلام) الذي تنهل منه "حماس" و"حزب الله" والمقاومة العراقية عقيدة الاستشهاد دفاعاً عــن الوطن وعن الحرية وعن الكرامة والسيادة. ونحن لا ننكر أن هناك استخداماً ســيئاً وإجراميــاً للدوافع الدينية، ولكننا نحمل الصهيونية المسؤولية عن انتشار التطرف والإرهاب، لأن الجرائم التي يقوم بها الاحتلال الأميركي للعراق، والجرائم التي يقوم بها الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين، وجرائم العدوان الوحشي على لبنان، والتهديد المستمر لسوريا وإيــران ولكــل دول المنطقــة العربية والإسلامية، كل ذلك يخلق حالة من الاضطراب المريع في المنطقة، ولابد أن يستدعي هذا الإرهاب المنظم التي يمارسه الاحتلال إرهاباً من ذات النوع، تكاد تفقد الــدول ســيطرتها عليه. وما حدث قبل أيام في دمشق من هجوم مسلح على السفارة الأميركيــة دليــل علــى أن الإرهاب ينتشر بدل أن يتضاءل، ولولا أن أجهزة مكافحة الإرهاب في ســوريا تمكنــت مــن مواجهة المهاجمين لكانت نتائج الجريمة ضخمة ومريعة، ولاسيما أن المنطقة التي تقــع فيهــا السفارة هي حي سكني مكتظ بالناس والمارة، ومبنى السفارة مليء بالمراجعين من المــواطنين والأجانب الذين يعيشون في بلداننا بأمان واطمئنان. ويصعب عليَّ أن أفهم الدوافع التي تجعــل شباناً عرباً أو مسلمين يهاجمون الولايات المتحدة في حي أبو رمانــة الســكني فــي دمشــق ويفجرون أنفسهم وينتحرون على باب سفارة تقع مسؤولية حمايتها وحماية العاملين فيها علينا، وأخطر ما في الأمر أن تكون دوافعهم دينية وأن تعمى عقــولهم وأعيــنهم، فيقتلــون أنفســهم وأشقاءهم من مواطنيهم ويظنون أنهم يجاهدون. ولا أنكر أنني أشك في انتمــاءات الإرهــابيين

الذين يقومون بأعمال إجرامية فيقتلون الأبرياء، كما يحدث في العراق باسم المقاومة حين يتم تفجير سيارة في سوق شعبي أو اعتداء على حي سكني، فمثل هذه الجرائم لا يمكن أن تقوم بها المقاومة الوطنية الشريفة التي تعرف عدوها وتعرف كيف تقاومه. والدليل أن كل عمليات المقاومة اللبنانية الإسلامية لم تستهدف قط أبرياء، ولم تهاجم سفارات ولم تقم قط بتفجيرات في شوارع أو أحياء سكنية، فكل عملياتها كانت في الأرض المحتلة وضد الجنود المعتدين الذين يوجهون أسلحتهم ضد الشعب اللبناني، وكذلك كانت المقاومة في العراق وفي فلسطين ضد الجنود الذين يقتلون الناس ويهدمون منازلهم. إننا نخشى أن تزداد جرائم الإرهاب حيث يستدعيها إرهاب دولة منظم، ونرجو أن تقوم الولايات المتحدة بدراسة نتائج حملتها على الإرهاب الذي تصر على أن تخلط بينه وبين المقاومة الشرعية. ونرجو أن تفحص وسائلها وأدواتها في حملتها الدولية التي جاءت حتى الآن بعكس ما هو معلن من أهداف، فبدل أن تقضي على الإرهاب زادت من حدته ومن حجم انتشاره، وأحسب أنه بات ضرورياً أن تكف الولايات المتحدة عن تهديد الدول الآمنة المستقرة بالحرب والحصار لأن ذلك يزيد من حجم الغضب الشعبي الذي لا يمكن للدول أن تسيطر على تداعياته. إننا في ذكرى الجريمة التي تعرض لها شعب الولايات المتحدة نريد من كل دول العالم أن تقف بقوة ضد كل أنواع الإرهاب ولاسيما ضد الإرهاب المنظم مثل الذي قامت به إسرائيل في لبنان، وقد بات مخزياً أن يجد بعض القادة في العالم مبررات لجرائم إسرائيل المستمرة، وأن يعتبروا ما ارتكبته من جرائم في قانا والقاع وسواهما وما ترتكبه في فلسطين دفاعاً عن النفس، لأن مثل هذا التبرير يجعل الإرهاب شريعة. وإن كانت الولايات المتحدة جادة في القضاء على الإرهاب الدولي فلابد لها من أن تذعن لإرادة الشعوب جميعاً وتقبل بعقد مؤتمر دولي لتعريف الإرهاب حتى وإن كانت نتائج هذا التعريف ستزعج إسرائيل.

٢٠٠٦/٩/١٥

ملامح الخطر القادم

كشفت الحرب الأخيرة أن إرادة المقاومة كامنة في أعماق الأمة وفـي وجـدان الشـعب العربي الذي بدا متلهفاً إلى لحظة حسم عسكرية، بعد أن فقد أمله في السـلام الـذي انتظـره طويلاً، مستبعداً ارتيابه في مصداقية الولايات المتحدة راعية السلام، وفـي موقـف أوروبـا المترددة بين حرصها على العلاقة الاقتصادية والثقافية التاريخية مع العرب وبـين حرصـها الأشد على مصالح إسرائيل وعلى مشروعها التوسعي الذي بات موضع شك بعـد أن انكفـأت إسرائيل إلى ما وراء جدار الخوف الذي بدأ يكبر ويسيطر على مشاعر الإسـرائيليين بعـد أن ذاقوا مرارة الفشل وأدركوا أن ما ارتكبوه من جرائم ضد الفلسطينيين لم يضعف المقاومة، بـل زادها قوة وحضوراً إلى درجة الوصول إلى السلطة عبر انتخابات ديمقراطيـة شـهد العـالم بنزاهتها.

واليوم تقف إسرائيل حائرة أمام انتصار المقاومة التاريخي في لبنان، وتجد نفسها مجبـرة على الاعتراف بأن زمن الانتصارات المجانية في الحروب النظامية الخاطفة قـد ولّـى، وأن الأنظمة الصديقة للولايات المتحدة لم تعد قادرة على ضمان أمن إسرائيل، وأن كل الإنجـازات التي تحققت لإسرائيل في سنوات التسعينيات من تطبيع ثنائي وعلاقات اقتصادية ودبلوماسـية، اعتبرها بعض العرب في مرحلة المفاوضات عربون سلام ورسائل تطمين أو إغراء لإسرائيل، كي تمضي في طريق التسوية السلمية. كل ذلك قد تبدد وانتهى زمنه ولم تعد الدول الصـديقة للولايات المتحدة أو لإسرائيل، قادرة على كبح جماح روح المقاومة التي ازداد توهجهـا مـع الانتصار الذي تحقق وجعل العالم كله منبهراً بقدرة شعب لبنان على الصمود والانتصار علـى جيش إسرائيل الذي يستمد قوته العسكرية من أقوى دولة في العالم ومـن الـدول الأوروبيـة الملتزمة بأمن إسرائيل ولو على حساب الأمن العربي والمصالح العربية.

وهذا لا يعني أن إسرائيل ستقبل بهذه الحقيقة وتنصاع لتنفيـذ قـرارات الأمـم المتحـدة ومجلس الأمن، وتنسحب من الجولان ومن شبعا ومن الأراضي الفلسطينية وتجنح للسلم، وتقبل بالمبادرة العربية للسلام التي تقدم لإسرائيل فرصة تاريخية للبقاء والعيش بأمن وطمأنينة وسط البيت العربي. فإسرائيل مقتنعة (دون مبرر منطقي) بأن الانسحاب من الأراضي العربية التـي احتلتها عام ١٩٦٧ يعني نهاية إسرائيل، وهو في الحقيقة لا يعني نهايتها ولكنه بحـق، يعنـي نهاية قدرتها على العدوان وعلى استمرارها في مشروعها الصهيوني التوسعي، الـذي تسـعى الولايات المتحدة لفرضه على العرب وعلى البلدان الإسلامية عبر ما سمته الشـرق الأوسـط

الكبير، وهو حلم لن يتحقق، فالعرب جميعاً متفقون على أن هذا المشــروع مرفــوض مهمــا حاولت الولايات المتحدة تجميله وتزيينه بالشعارات البراقة مثل الديمقراطية والإصلاح السياسي والاقتصادي، ومهما حاولت زركشته بأحلام الرخاء والرفاهية التي تعد بها المنطقــة إذا هــي أذعنت وسلمت قيادها لإسرائيل. فحتى الدول العربية والإسلامية التي تحرص علــى علاقــات حسنة مع الولايات المتحدة تدرك أن ثمة خدعة كبرى في ثنايا هذا المشروع الصــهيوني، وأن مضمونه الخفي سيفضي إلى طمس العروبة وإلى إضعاف الإسلام، وإلى تشكيل جديد للمنطقــة يزيدها انقساماً وتفتتاً عبر إذكاء المشكلات الإثنية وبث الصراعات الطائفية وافتعال مشــكلات جديدة لا تغيب عن ذهن القادة العرب. ومهما تباينت مواقفهم من سياسة الولايات المتحدة فــي المنطقة، فإن موقفهم من المشروع الصهيوني المسمى مشروع الشرق الأوسط الجديد أو الكبير، موقف موحد رافض لمشاريع التقسيم والهيمنة.

والقادة العرب جميعاً يدركون أن وجدان شعوبهم معلق بالمقاومة، وأن هذه الشعوب يمكن أن تقبل بالسلام العادل والتعايش مع إسرائيل إذا أذعنت إلى الحق والعــدل، ولكنهــا لا تقبــل إطلاقاً أن تساوم على انتمائها الأصيل إلى العروبة والإسلام، وقد جست إسرائيل النبض العربي والإسلامي عدة مرات، فحين اقتحم شارون المسجد الأقصى انتفض الشعب العربي والإسلامي واستمرت الانتفاضة الفلسطينية في التصاعد حتى أجبرت إسرائيل على الرجوع إلــى المربــع الأول في دائرة الصراع، ولم يكن أمام إسرائيل سوى أن تزج بالولايات المتحدة في حربها ضد المقاومة بشكلها العربي والإسلامي، وقد توفرت لها الذريعة في جريمة ١١ سبتمبر التي أعطت للولايات المتحدة مبرر إعلان حرب طويلة ضد ما سمته الإرهاب، وهي فــي حقيقــة الأمــر تخوض حرباً ضد العرب والمسلمين الذين بدؤوا يفهمون أن الحملة على الإرهاب تحولت إلــى مجرد ذريعة لمتابعة حرب صهيونية ضد العروبة التي تشكل حاجزاً نفسياً ضخماً يمنع العرب من الإذعان لإسرائيل، وضد الإسلام لأنه يحث المسلمين على صد العــدوان وعلــى رفــض الاحتلال، ولأنه يمد المقاومين بطاقة روحية تجعل الموت شهادة.

ولقد بشرت الخارجية الأميركية مع بدء الحرب على لبنان، بإعلان قريب للشرق الأوسط الكبير (أي بإبادة المقاومة وإنهاء أي تمرد على إرادة إسرائيل) ولكن النصر الذي تحقق بعــون الله، خيب آمال الصهاينة، مما جعلهم يمعنون في تأجيج الفتنة الدولية في إطار ديني وعقائدي.

إن الخطر الذي تبدو ملامحه مقلقة اليوم، هو في محاولة الصهيونية زج المسيحية العالمية في صراع مع الإسلام، حيث لا يغيب عن بال العرب والمسلمين أن إسرائيل التي تعاني قلقــاً مريراً حول مستقبل مشروعها التوسعي وتواجه ظرفاً قاسياً يجبرها على الانكفاء والتقوقع خلف

الجدار، باتت تجد المخرج من أزمتها أن تجر أوروبا المسيحية كما جرت الولايات المتحدة إلى ساحة حرب ضد المسلمين، وبوسع الباحث أن يفتش عن مثيري فتنة الحجاب في باريس وعن مثيري فتنة الرسوم في الدانمرك، وعن كتاب المقالات التي تهاجم الإسلام ونبي المسلمين، وسيجد أن وراء كل هذه الفتن أنصار إسرائيل، وكل ما نخشاه أن تكون تصريحات البابا ضمن هذا السياق الذي سبق أن مضى فيه بوش فيما سماه زلة لسان، وما زل به برلسكوني وكثير من مثقفي الغرب المسيحي.

ولابد من السؤال عن سر توقيت الهجوم على الإسلام متزامناً مع حرب تفتيت ضروس في العراق، ومع عدوان إسرائيلي همجي على لبنان، ومع تصاعد العنف الإسرائيلي ضد الشعب الفلسطيني ومع افتعال مشكلات طائفية في دارفور، بل مع افتعال أزمات طائفية في مصر وعدد من البلدان العربية.

لقد عاشت المسيحية في انسجام ووئام مع الإسلام منذ ظهوره، وقد عبرت المسيحية العربية عن انتمائها العربي الأصيل في موقف تاريخي نعتز به ونفخر حين وقف الغساسنة المسيحيون في معركة اليرموك مع أهلهم العرب المسلمين ضد الاحتلال البيزنطي المسيحي لبلاد الشام، وقد استمر هذا الموقف الموحد للمسيحيين والمسلمين العرب عبر القرون، وحتى حين أعلن الغرب المسيحي حرباً على منطقتنا سماها صليبية رفض المسلمون والمسيحيون العرب هذه التسمية، وسموها حروب الفرنجة كيلا يزجوا الأديان في الحروب وفي الصراعات، ولم تفلح كل محاولات إثارة الفتنة بين المسلمين والمسيحيين، فسرعان ما كان الوعي يطوق الفتنة كما حدث في لبنان عدة مرات. وقد أظهرت الحرب الأخيرة أن المجتمع اللبناني أشد وعياً مما يظن الإسرائيليون، فقد وقف متماسكاً ملتفاً حول وحدته الوطنية أيام الحرب، وكان هذا التماسك سبباً مهماً بين أسباب النصر. وعلى العرب مسلمين ومسيحيين أن يتنبهوا إلى خطر ما يحاك، فسيل المواقف المعادية للإسلام وللعروبة لا يتدفق بشكل عفوي، بل هو مندرج في سياق خطة مبرمجة تهدف إلى جر الغرب المسيحي إلى حرب دينية ضد الإسلام لا يفيد منها الغرب غير منح إسرائيل فرصة استعادة هيمنتها على المنطقة. ومن يدرس التاريخ جيداً يدرك دور الصهيونية في إشعال نيران الحرب العالمية الأولى في مطلع القرن العشرين، وقد كسبت من نتائجها قيام دولة إسرائيل، ولن تدخر الصهيونية جهداً كي تجر العالم إلى حرب عالمية في مطلع القرن الحادي والعشرين كي تضمن استمرار هيمنتها على المنطقة العربية والإسلامية.

إننا ندرك أبعاد هذا المخطط الصهيوني، ولا نستبعد أن تكون الولايات المتحدة وبعض الدول الأوروبية مستعدة لخوض حرب كبرى ضد العرب مسلمين ومسيحيين، بهدف إنقاذ إسرائيل من ورطتها، وعلينا أن نبذل كل ما في وسعنا لتجنب هذا النوع من الصراع الذي سيلبس لبوس الدين لتحقيق أهداف سياسية واقتصادية، وأن نوضح لشعوب العالم أن صراعنا هو مع إسرائيل وهو محدد بحدود حقوقنا العربية، وهو ليس صراع أديان أو إيديولوجيا، فكل شرائع السماء ولدت في بلادنا، ونحن نراها ديناً واحداً قد تختلف برامجه ومناهجه، ولكن لا تختلف وجهته إلى الله الواحد.

٢٠٠٦/٩/٢٩

ما بعد الحرب على لبنان

سيكون مفجعاً ألا يفيد العرب من النصر العظيم الذي حققه لبنان، وأن يدعوا الفرصة التاريخية تفوتهم وهي سانحة الآن للتأسيس على هذا النصر باعتباره حدثاً فذاً يمكن اعتباره بداية جديدة في مسار الصراع العربي ــ الإسرائيلي.

لقد ضيع العرب على أنفسهم فرصة الاستفادة التاريخية من نصر نوعي تحقق في حرب أكتوبر ١٩٧٣، بل إنهم حولوا ذاك النصر إلى هزيمة حين تمكنت السياسة الأميركية من أن تحقق ما لم تحققه القوة العسكرية الإسرائيلية. كان هدف المعسكر الغربي الداعم لإسرائيل بعد حرب تشرين هو إقناع العرب بالاعتدال، وجرهم فرادى إلى مفاوضات سلام، مع أن من وصفوا بالمتشددين آنذاك لم يكونوا يرفضون السلام، ولكنهم يريدون سلاماً عادلاً (يستعيدون من خلاله حقوقهم المشروعة)، و(شاملاً) (يضم كل أطراف الأمة)، ولم يكن ثمة أحد بين أقطاب السياسة العربية يدعو إلى إبادة إسرائيل أو محوها من الوجود. وكان خروج مصر إلى حل سلمي منفرد مفترقاً في مسيرة العمل العربي، فقد أسس لمسيرة الحل الجزئي التي وصلت إلى طريق مسدود بعد اتفاقيات أوسلو التي ولدت ميتة.

كان ثمة فريق من العرب (الذين وصفوا بالمتشددين) ينتظرون أن نتائج جهود (المعتدلين) وقد طال الانتظار سنين طويلة، لم يكن فيها من وصفوا بالمتشددين قاعدين أو معرقلين، وحسبنا أن نذكر أن سوريا التي توصف بالتشدد دخلت المفاوضات في عقد التسعينيات رغم الريبة العامة في كون إسرائيل تريد إضاعة الوقت لتحقيق وقائع جديدة على الأرض العربية.

كانت إسرائيل تتوسع في بناء المستوطنات في الوقت الذي كان فيه جيمس بيكر ما يزال يحمل مطالب العرب بإزالة المستوطنات، وقد سئم العرب الوعود الكاذبة الأوروبية والأمريكية من تقرير ميتشيل إلى تقارير الرباعية، وكل التقارير كانت أحادية الرؤية، تحمل وجهة نظر إسرائيل فقط، حيث تجتمع الدول الساعية إلى السلام لكي تضغط على السلطة الفلسطينية وحدها، ولكي تطالبها بمشاركة إسرائيل بحصار المقاومة وتقديم العون لإسرائيل التي تحلم بنزع سلاح الفلسطينيين.

ولم تستطع كل اللقاءات السياسية التي اعتمدت اللف والدوران والهروب من مواجهة الحقائق بشجاعة وصدق أن تحقق أهدافاً ذات شأن... ولم تستطع كل أساليب العنف والقسوة بل أساليب الإبادة المبرمجة للشعب الفلسطيني أن تحقق شيئاً ذا بال من أهداف إسرائيل. فإذا كانت الأمور تقاس بخواتيمها فإن اعتلاء "حماس" سدة السلطة في الوقت الذي يصارع فيه شارون

جنون النهاية وهو يحجز مقعداً في ذات المشفى لخلفه فأكبر ظني أن أيهود أولمرت سيقضي بقية حياته صريع دماء ضحاياه التي ستلاحقه وستحاصره أشباح مئات الأطفال الذين قتلهم ظلماً وعدواناً في لبنان. وستهوي فوق رأسه كلما أوى إلى فراشه بيوت فقراء لبنان التي هدمها وشرد سكانها بينما ستزداد المقاومة اللبنانية ألقاً وشعوراً بالطمأنينة والأمان. إن أتباع إسرائيل من قادة كبار في الغرب يدركون خطر أن يؤسس العرب مستقبلهم على منعطف تاريخي جوهره النصر والاعتزاز. ولسنا نعيب على العدو أن يسعى لقهر أهدافنا فهو يعلن العداء لنا لكننا نعتب على بعض أشقائنا أن تغيب عنهم خطورة وهم الاعتدال إلى درجة تسليم أوراق التوت.

إننا نرجو أن يفيد أشقاؤنا العرب من التاريخ المعاصر وألا يدعوا عوامل القوة في موقفهم تتحول إلى عوامل ضعف... نريد ألا يخسروا في السياسة ما كسبوه في المقاومة .

لقد أسست المقاومة اللبنانية موقفها الصاعد على لحظة انتصارها التاريخية عام ٢٠٠٠، يوم انهزمت إسرائيل وتحرر الجنوب، وكان لهذا التأسيس دوره الرائع في صمود المقاومة وانتصارها في يوليو ــ أغسطس عام ٢٠٠٦ الأمر ذاته حققه الشعب الفلسطيني، فقد أسس صعوده السياسي على لحظة انتصاره التي بلغت ذروة نسبية في تحرير غزة، ورغم أن هذا التحرير لم يكن كاملاً بسبب حصار البحر والجو، إلا أن الإفادة منه أوصلت "حماس" إلى كرسي السلطة الذي تحاول إسرائيل وأنصارها أن يقصوا أرجله كي يهبط بـ"حماس" لتقع في جحيم الحرب الأهلية التي يخططون لإيقاع فلسطين في حمأتها.

إننا نرجو الأمة العربية أن تتأمل أبعاد النصر الذي تحقق في لبنان، وألا تقبل دعاوى الذين يشككون بقدرة الأمة على تحقيق النصر... فقد أثبتت الأمة أنها ضعيفة عسكرياً على المستوى الرسمي ولكنها أمة قوية جبارة على الصعيد الشعبي، وحسب المقاومات الشريفة في العراق وفلسطين ولبنان أنها تبهر العالم كله بقدرتها على التصدي لأخطر ما عرفت البشرية من وحشية وهمجية، وهذه المقاومة هي التي ستخلص الإنسانية من بحر الدم الذي تريد إسرائيل إغراق كل آمال البشرية فيه ليتحقق لها الوهم التوراتي الذي تعيش عليه، وهو السيطرة المطلقة على العالم وإقامة مملكة الرب وتحطيم المسيحية والإسلام.

إننا نتجنب الحروب الدينية ونرفض أن يجرنا أحد إليها، ولكننا نريد من العالم أن يتأمل بنية دوافع إسرائيل وجوهرها، ليدرك أنها هي المسؤولة عن تفجير الصراعات الدينية في المنطقة، ولا يغيب عن أحد في العالم كله، أن اسم" إسرائيل" هو اسم نبي .

إن ما نطلبه من تأسيس على حدث النصر الراهن، هو أن تستعيد الأمة ثقتها بنفسها وبأبنائها وبقدرتها على الحضور في عالم الأقوياء، وأن نطوي كل ملفات الخلافات القائمة

لاسيما تلك التي سبقت الحرب على لبنان، فقد شغلت الأمة بجدل وتصريحات أوشكت أن تحدث شرخاً في الجسد العربي الواهن أصلاً وأن تثخن جراحاته وجدير بالنصر أن يرمم هذا الشرخ وأن يضمد تلك الجراح

وأعجب من بعض الإعلاميين العرب الذين يستهويهم إذكاء نار الخلاف حين تصير مصالحهم الإعلامية الصغيرة أكبر من مصالحهم الوطنية والقومية، ونرجوهم أن يجعلوا الإعلام العربي مصدر قوة لا مصدر إضعاف.

إن أكبر خطر يمكن أن تنجر إليه الأمة هو إهداء إسرائيل مكاسب النصر، عبر تمكينها في السياسة من تحقيق ما عجزت عن تحقيقه بكل ما تملك من قوى الدمار. لقد كان على العرب أن يرفضوا محاولة كوندوليزا رايس الالتفاف على مكاسب انتصار العرب الكبير بتقزيم الصراع وكأنه صراع بين فتح وحماس في الوقت الذي يصرح فيه أولمرت بتمسك إسرائيل بالجولان. ويهدد بعض قادتها بإعادة العدوان على لبنان.

٢٠٠٦/١٠/١٣

بوابة الحوار مع الغرب

لم أفاجأ بما رأيت من تقدير واعتزاز الشعب الإسباني الصديق بالتاريخ العربي الإسلامي في الأندلس في الوقت الذي عبر فيه خوسيه ماريا أثنار رئيس وزراء إسبانيا السابق عن موقف مغاير لموقف الغالبية العظمى من الإسبان حين قال: إن المسلمين لم يدخلوا الأندلس من أجل إنزال السلطان عن كرسي العرش ولكنهم دخلوا من أجل نزع الصليب والمسيحية من الأندلس, وهذا هو منتهى الجنون' واستغرب أثنار أن يطالب المسلمون البابا بيندكيت بالاعتذار عن تصريحاته المسيئة (للرسول الأعظم) بينما هو(أي أثنار) لم يسمع أي مسلم يعتذر عن احتلال المسلمين لإسبانيا ثمانية قرون!!

والمفارقة أن تصريحات أثنار جاءت في الوقت الذي تحتفل فيه نخبة هامة من مفكري ومثقفي إسبانيا بذكرى مرور ألف وثلاثمائة سنة على دخول العرب المسلمين إلى الأندلس، بينما تحتفل مدينة المنكب (المونيكار) بعد ألف ومائتين وخمسين سنة بكونها المدينة الأندلسية الأولى التي دخلها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الملقب بالداخل وبصقر قريش وقد شمخ تمثال ضخم له في أهم ساحة في المدينة نحته فنان إسباني تخليداً لذكرى الأمويين في الأندلس.

وكنت قد لبيت في الأسبوع الماضي دعوة كريمة من عمدة مدينة المنكب الدكتور خوان كارلوس بينابيدس للمشاركة في ندوة بعنوان (أمويو قرطبة ودمشق) وقمت بافتتاح الحدائق النحتية السورية في المنكب وقد قدم فيها عشرون فناناً وفنانة سورية منحوتاتهم هدية للشعب الإسباني الصديق وهي أعمال مستوحاة من التاريخ الأندلسي وفيها تعبير فني رفيع عن أهمية التواصل بين الحضارات والثقافات، وقد أسعدني أن نبدأ مراسم الاحتفال بتقديم الزهور لتمثال صقر قريش بحضور لفيف كبير من رجال الفكر والثقافة والإعلام الإسباني الأندلسي، وقد رد عدد من المحاضرين الإسبان في الندوة الأموية على تصريحات أثنار ورفضوا الأفكار اليمينية المتعصبة وأشادوا بالمأثرة الإسلامية الضخمة في الأندلس، وهم يرون كما يرى عدد من كبار مؤرخي إسبانيا وأوربا أن الفتح الإسلامي كان هبة المسلمين لأوربا وقد أسهم في نهضتها المعاصرة.

وأعتقد أن أخطر ما جاء في تصريحات أثنار قوله (إن الغرب والإسلام حالياً في حالة حرب فإما نحن وإما هم) وليس أقل خطراً من ذلك وصفه لتحالف الحضارات بأنه (سخافة) وهذه التصريحات التي تتمم تصريحات البابا التي وصفها أثنار بأنها (ذكية ومحكمة) تعزز شعور المسلمين في الغرب بالقلق، ويبدو قول أثنار بأن الغرب (يعيش حالة خوف من الإسلام)

نوعاً من التبرير لما يتم الإعداد له بشكل استراتيجي لهجوم أشد شراسة على الإسلام تتبىء عنه سلسلة الأحداث التمهيدية التي تتوالى في عدد من عواصم الغرب، وحسب القارىء أن يتصفح عناوين الأخبار ويربط بينها ليجد أن ما يتم من أعمال وتصريحات ضد الإسلام ليس عفوياً أو فردياً ,وإنما هو أمر مبرمج يهدف إلى تعميق الهوة بين المسلمين والغرب، وهو في ذات الوقت يحاول ردم الهوة التاريخية بين المسيحية واليهود وتعميق التحالف بينهما، ففي الوقت الذي هاجم فيه البابا نبي المسلمين سارع إلى امتداح العلاقة التي تربط المسيحية الكاثوليكية باليهود، ونحن المسلمين لسنا ضد أن تتحسن علاقة المسيحية باليهود لأننا لسنا ضد اليهودية التي أنقذناها من محاكم التفتيش حين استضفنا يهود الأندلس في بلاد المسلمين ولاسيما في المغرب العربي آمنين مطمأنين، ولكننا لا نريد أن ينقسم العالم إلى تحالفات دينية أو عرقية أو عصبية، وقد أخطأ أثنار حين زعم أن المسلمين دخلوا الأندلس كي ينزعوا الصليب والمسيحية ونحن لا ننطلق في حوارنا مع أصحاب هذه الأفكار من كراهية أو انفعال أو غضب بل نجادل بالتي هي أحسن كما أمر القرآن الكريم (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن) وواضح أن السيد أثنار دلل بكلامه عن جهل بالإسلام وبتاريخه، فكيف ينزع المسلمون المسيحية في الأندلس وهي العزيزة المكرمة في بلاد المسلمين التي هي من قبل بلاد المسيحية ومهدها، وأخشى أن يكون السيد أثنار ومن يرددون هذا الكلام يجهلون كذلك أن المسيحية ولدت في بلادنا العربية، وأن السيد المسيح سوري فلسطيني ولد في الناصرة، وأن المسيحية انطلقت إلى أوربا من سورية، ولو أن السيد أثنار قرأ شيئاً من تاريخ الإسلام لاعتذر عن جهله بهذا التاريخ العظيم، وحسبه أن يقرأ العهدة العمرية لأهل القدس وفيها إعلان صريح (يا أهل إيلياء إن لكم ما لنا وعليكم ما علينا) وقد نصت العهدة على ألا يضار المسيحيون في أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، لا تهدم ولا ينتقص منها شيء،ولا يكرهون على دينهم) ونص الوثيقة مشهور، وهو من صلب الدين الإسلامي الذي اعتبر الإيمان بالأنبياء والكتب السماوية شرطاً لدخول الإسلام، وكما ولد الإسلام في رحاب المسيحية السمحاء متمماً لما فيها من مكارم الأخلاق، فإن المسيحية العربية عاشت مع الإسلام في طمأنينة وسلام دون أي صراع ديني يذكره التاريخ، ولا ينكر أحد في العالم أن أعظم تمجيد للسيدة العذراء مريم وللسيد المسيح (كلمة الله) عليهما السلام هو تمجيد القرآن الكريم لهما، وأما أن العرب المسلمين احتلوا الأندلس فهو صحيح وقد احتل اسبانيا قبلهم الرومان، وقبل الرومان احتلها السوريون الفينيقيون، والمفارقة أن السوريين القدامى دخلوا إلى الأندلس من مدينة المنكب ذاتها وسموها (سكسي) وهي كلمة فينيقية تحمل ذات معنى المنكب لأن المدينة تتنكب الجبال، وكان الفينيقيون هم الذين حملوا الدم السوري العربي إلى الشمال الأفريقي حين أسسوا إمبراطوريتهم العظيمة وبنوا المدن التي ما تزال عامرة إلى اليوم ومنها قرطاجة في تونس ومرسليا في فرنسا وطرسوسن وكورنثوس في اليونان فضلاً عن

المدن الضخمة في إيطاليا حيث بقيت الجيوش بقيادة هانيبعل، وقد قال لي أحد أصدقائي الإسبان (أعجب لماذا يدرسوننا في التاريخ الإسباني المرحلة الفينيقية والمرحلة الرومانية بينما يسمون المرحلة العربية الإسلامية الاحتلال الإسلامي!!) وبوسعنا أن نشير إلى أن القوط كانوا يحتلون مناطق من الشمال العربي الإفريقي وحين وصلت جيوش الفتح بقيادة موسى بن نصير تم تفاهم مشهور مع جوليان حاكم سبته لتقديم عون لوجستي لجيش المسلمين ويذكر المؤرخون الإسبان أن معركة (لكة) لم تكن معركة ضخمة ولم تحدث فيها مجازر، فالناس سرعان ما أحبوا أخلاق المسلمين ورحبوا بهم وهذا هو سر الاستمرار ثمانية قرون بل إن أحد الأصدقاء المؤرخين الإسبان الجدد وهو الدكتور خوسيه لويس كورال لافونتي ذكر في محاضرة له في الندوة الأموية يوم ١٩/١٠/ ٢٠٠٦ في المنكب أنه من بلد مسيحي صغير في وسط إسبانيا اسمه (آراغون) لم يكن فيه أكثر من ستين شخصاً في الحامية، وكان بوسع المسلمين بسهولة أن يضموه إليهم وأن ينهوا المسيحية فيه، ولكنهم لم يفعلوا مثل ذلك أبداً، فقد كانوا لا يكرهون أحداً على اعتناق دينهم، ولايعتدون على كنيسة أو معبد أو على أحد من الناس، وأثبت الدكتور خوسيه أن العرب في الأندلس لم تكن لديهم نزعة توسعية، وأنهم انشغلوا بالعمل الثقافي والحضاري، وأسسوا دولة علم ومعرفة وكانوا يحاربون لصد الهجمات المتوالية عليهم.

ونحن لا نعود إلى هذا التاريخ لنبرئه تماماً من أي عمل غير لائق، فللتاريخ أحكامه، ولكننا اليوم بالتأكيد لا نطالب اليونان بالاعتذار عن احتلالهم لبلادنا العربية، ولا نشعر بأي حقد على الرومان رغم أن يوليان ترك تدمر (بالميرا) وسط سورية خراباً وقتل ملكتها زنوبيا، بل ننظر اليوم إلى المثاقفة التاريخية مع الشعوب التي عبرت بلادنا وجعلتها أهم موقع للتعايش الإنساني والتحالف الحضاري، وهذا التحالف هو ما نريد التأكيد عليه في حوارنا في أوربا، ولئن كان السيد أثنار قد عبر عن رأي شائع لدى بعض أوساط أوربا، يرى بأن الغرب لم يهاجم الإسلام وإنما الإسلام هو الذي هاجم الغرب، فإن ذلك يخرج عن سياق التاريخ بدءاً من حملة الإسكندر ومروراً بالحملات الصليبية على بلاد الشام ومصر ثم مروراً بعقود من الاستعمار الأوربي الحديث لبلادنا وأخشى ألا يكون انتهاء بحملة بوش وبلير الراهنة، وسيكون أمراً غاية في الخطورة على البشرية كلها أن يفكر أحد في اليمين المسيحي المتطرف بإنقاذ الصهيونية من مصير فاشل لا مفر لها منه على حساب المسلمين، وبالعودة إلى الحروب الصليبية، وهذا ما جعل المسلمين يربطون بين تصريحات البابا بيندكيت وبين تصريحات البابا آرابان، ويتذكرون زلات لسان بوش وسواه كثير في الغرب ممن يضرمون نيران الحروب.

لكن الشعوب في أوربا تدرك أنها تقاد إلى حروب لا تريدها، وهذا ما عبرت عنه مظاهراتها، ويعلمون أن الإعلام الصهيوني هو الذي ينفخ في كير البغضاء والكراهية، ويوهم

المجتمعات الغربية بفوبيا الإسلام، ولهذا كنا وما نزال نؤكد أننا نريد أن يكون حوض البحر الأبيض المتوسط بحيرة سلام لا بحر دماء، وهذا ما يريده أصدقاؤنا وشركاؤنا الثقافيون الأندلسيون، وعندهم وهم أصحاب تجربة عريقة مع الثقافة الإسلامية بوابة رحبة للحوار مع الثقافة الأوربية.

٢٠٠٦/١٠/٢٦

أين يكمن الخطر؟

تساؤلات حارة وحائرة يطرحها بعض المثقفين العرب، وأهمها: أين يكمن الخطر الذي ينبغي أن تتنبه له الأمة أكثر من سواه؟ أهو من الغرب الذي تسيطر أساطيله على كل بحار العرب ومنافذها؟ أم هو من مركز القلب من جسد الأمة وقد استبدّ به داء عضال خبيث اسمه إسرائيل؟ أم هو من الشرق حيث تطمح إيران إلى أن تصبح قوة إقليمية ودولة قوية الذراع؟

ولا يخفى على المثقفين العرب أن تنوع الأخطار التي تحيط بأمتهم هو نتاج الوهن المريع الذي أصاب جسد الأمة حتى بدت عجوزاً غير قادرة على الحراك، وباتت ثرواتها نهباً، وكرامتها مهانة، وقد استبيحت في حالة مرضية "مازوخية" حين أسهم بعض العرب في جلب المآسي لأمتهم، وحسبُنا نموذجاً منهم" صدام" الذي دمر الأمة مرات كان أخطرها حين لبى رغبة الأميركان فشنّ حرباً "عربية "ضد إيران.. ثم حين أوحى له من أوحى بأن يغزو الكويت لإيجاد ذريعة لتمركز قوى الغرب في أرضنا العربية ولإعطاء المبرر للولايات المتحدة بأن تنشر قواعدها التدميرية في شرايين الأمة .

وكان ظهر الأمة قد انقصم منذ أن تمكن الإسرائيليون من فرض الحلول السلمية الجزئية، فتشرذمت الأمة حين صار بعضها صديقاً لإسرائيل لا يمكن أن يستنكر جرائمها حتى وهي تقصف فلسطين ولبنان وتقتل وتدمر وتبيد، وقوى الأمة الساكنة تتفرج، وحسبها أداء أضعف الإيمان حين تقدم المساعدات لتسهم في ترميم بعض ما تدمره إسرائيل.

أما بعض العرب الآخر فقد استفردت بهم الولايات المتحدة وإسرائيل وباتت تحاصرهم ليل نهار، وترفض السلام الذي جعلته الأمة في مبادرتها الشهيرة الأخيرة مفتوحاً بلا سقف ولا أمد، مما شجع إسرائيل على مزيد من الاستهانة، بل وصلت الوقاحة بقادتها أنهم باتوا يشكرون بعض الدول العربية على دعمها لهم وهي تقصف لبنان وفلسطين، لتوقع مزيداً من الفتنة بين العرب.

لكن المفاجأة الكبرى التي أذهلت الغرب كله، أن هذه الأمة العربية التي يشكو أهلها من ضعفها وهوانها، أخرجت من تحت الرماد قوى لا يستهان بها، شكلت ممانعة ومقاومة عجزت عن إخضاعها الولايات المتحدة وهي أعظم قوة ضاربة في العالم، وقد تمكنت هذه المقاومة من أن تحظى بتأييد شعبي عالمي في الانتفاضة الفلسطينية المباركة التي صمدت رغم كل أنواع الوحشية التي استخدمها شارون. وقد حاولت إسرائيل أن تشوه المقاومة وأن تصورها على أنها إرهاب، وبذلت الولايات المتحدة جهداً ضخماً لتشويه المقاومة العراقية في العراق، ودست من

يرتكب الجرائم الإرهابية "حقاً" باسم المقاومة العراقية، ولكنها اليوم تعلن عجزها وتحاول تغطية فشلها بتصوير ما يحدث في العراق على أنه حرب أهلية بين شيعة وسُنة، وبين عرب وأكراد.

ويبدو أن الولايات المتحدة العازمة على مزيد من تفتيت الأمة العربية وشرذمتها، وجدت أن قواها العسكرية على ضخامتها، غير قادرة على فرض مشروعها التدميري المسمى "الشرق الأوسط الكبير" الذي تحلم بأن تكون إسرائيل أعظم دولة فيه، فلجأت إلى تنشيط الميكروبات الكامنة داخل الجسد العربي، فباتت تضرب بقوة على أوتار الطائفية الدينية والإثنية العرقية، وهدفها الواضح هو نشر الحروب الأهلية في أقطار الوطن العربي، حتى إذا ما تحول هذا الشرق العربي إلى بحر دماء، باتت إسرائيل فيه آمنة مطمئنة يستقوي بها المتحاربون ويشترون منها السلاح كي يقتل بعضهم بعضاً.

ولكي تزيد بلاء الأمة، أثارت فينا اختلافاً عجيباً حين يطرح بعض المثقفين سؤالاً مدهشاً: "من عدونا"؟ والهدف الواضح أن نلتفت إلى عدو نصنعه بأنفسنا حين نصرُّ على أنه عدو، فيرتاح العدو الإسرائيلي الذي يطمح إلى تحالف مع العرب ضد إيران المسلمة، ولم يعد بعيداً أن يتوهم بعض العرب أن تكون دولة عربية ما عدواً آخر لهم إذا قررت الولايات المتحدة أنها واحدة من دول الشر التي تزعج إسرائيل أو تهدد مشروعها الصهيوني.

إنني واثق من أن المثقفين العرب يتفقون جميعاً على أن الأمة العربية ليست بحاجة إلى صنع أعداء جدد، وإذا كنت أتفهم قلق بعض دول الخليج العربي من أن تصير إيران الدولة الجارة المتاخمة (وقد خاض بعض العرب ضدها حرباً في الثمانينيات) ولها أشياع بين العرب المسلمين، فإنني أجد دواء هذا القلق في الضغط على الولايات المتحدة وعلى الغرب كله، كي يجبر إسرائيل أولاً على نزع ترسانتها النووية التي تهدد العالم كله وعلى رأسه أوروبا التي كشفت شعوبها عن قلقها من أسلحة التدمير الإسرائيلية حين صوتت في استطلاع أوروبي شهير على أن إسرائيل خطر على الأمن والسلام العالمي.

إننا نريد شرقنا العربي والإسلامي خالياً تماماً من كل أسلحة التدمير، ولكن إصرار إسرائيل على تطوير قدراتها النووية يجعلنا نجد الحق لأمتنا وللأمم التي تخشى على نفسها من ترسانة إسرائيل النووية، بأن تفكر بالردع وبالتوازن العسكري والدفاع عن النفس.

إن علينا جميعاً أن نعمل لإخلاء المنطقة كلها من أسلحة التدمير، فإن لم نستطع ذلك فعلى الأمة العربية أن تفكر كذلك وأن تسعى لامتلاك قوة ردع، ولن يكون العرب حين يجتمعون بما يملكون من قوى علمية وإبداعية ومالية، أقلّ قدرة من إيران أو باكستان أو الهند .

ولئن كان بعض أشقائنا المثقفين ينتقدون من لا يقدّر أخطار إيران علـــى العـــرب، فإننـــا نرجوهم ألا يضخموا المشكلة، وألا يقطعوا الجسور المتينة التي تصل بين العـــرب وإيـــران، ونرجوهم أن يعملوا على إحياء المشروع العربي وعلى إحياء مفهوم الأمن العربي، فخواء أمتنا من مشروع تلتف حوله يجعلها مسرحاً لمشاريع الآخرين، وأخطر مـــا تواجهـــه الأمـــة هـــو المشروع الصهيوني. ونحن في سوريا لا نتحالف إلا مع أمتنا، ولكننـــا نريـــد أن تكـــون دول الجوار وأخص إيران وتركيا، عوناً لنا، وبيننا وبين شعوبها صـــلات قربـــى دينيـــة وثقافيـــة وتاريخية، تشكّل بنية قوية ينهض عليها التعاون الذي نطمح أن يزداد لصالح شـــعوبنا جميعـــاً، ولطرد الغزاة والمحتلين، ولإرغام إسرائيل على أن تكف عن عدوانها، وأن تلتزم بمبادئ الأمم المتحدة، وأن تقبل بالسلام الشامل والعادل الذي ما يزال مطلبنا رغم إصرار إســـرائيل علـــى الحروب، الأمر الذي يدعونا إلى مزيد من التمسك بمشروع المقاومة، لأن إفلات هذا المشروع يعني الهزيمة والخروج النهائي من التاريخ .

٢٠٠٦/١١/١٠

التهم الجاهزة ضد سوريا

لم يكن مفاجئاً للسوريين أن تُتهم سوريا باغتيال الوزير الفقيد المغدور بيار الجميل، وكنت من موقع المواطن السوري أضع يدي على قلبي منذ أن انطلقت التكهنات المتتالية من البيت الأبيض قبل أسبوعين بتوقع أن تقوم سوريا وإيران بانقلاب في لبنان (على حد تعبير جون بولتون)، قلت في نفسي: الله يحمينا ويحمي لبنان مما يخططون لحدوثه، ولاسيما بعد النجاحات الدبلوماسية التي حققتها سوريا، وبعد أن بدأ تحرك أوروبي لفتح آفاق جديدة للحوار معها، ولبدء سياسة أوروبية جديدة ساهم في إطلاقها كما يبدو السيد بلير الذي تعرض لانتقاد شديد من الصحافة الموالية لإسرائيل بسبب التفاتته التي وصفتها الكاتبة برونين مادوكس في "التايمز" بأنها "سخية أكثر من اللازم نحو سوريا". وبعد أن بدأ تحرك أوروبي إيجابي نحو تجديد رؤية للسلام الشامل مستمدة من المبادرة العربية للسلام، ويمكن أن نسميها رؤية السيدين "ثباتيرو" و"موراتينوس". وبعد سلسلة من تصريحات قادة أوروبيين دعوا إلى معاودة الانفتاح على سوريا، وبعد إخفاق مريع لطاقم "المحافظين الجدد" في انتخابات الكونجرس، وبدء انهيار عصبة متعهدي الحروب بسقوط رامسفيلد، وبعد الصيحات العاقلة التي ضجت بها الصحافة الأميركية وهي تدعو قادة البيت الأبيض إلى إيقاف نهر الدم في العراق، وتعترف بإخفاق الولايات المتحدة في مكافحة الإرهاب الذي ازداد بدل أن يتوقف، وتدعو إلى مراجعة شاملة لسياسة الولايات المتحدة ضد العرب والمسلمين، وإلى معاودة الحوار مع سوريا منبهة إلى استحالة تجاهلها. وقد أدرك أعداء سوريا وأعداء المقاومة الوطنية أن الحرب التي خاضتها إسرائيل بدعم أميركي ضد لبنان في الصيف الماضي لم تحقق أهدافها باجتثاث المقاومة ونزع سلاحها كما كانوا يحلمون، بل جعلت موقف المقاومة أقوى وأشد، وقد تعاطف معها كل الشرفاء في العالم وأعجبوا بأدائها وصبرها وبسالتها في صدِّ العدوان وبالتفاف الشعب اللبناني حولها بكل شرائحه وطوائفه وفئاته، ولم تجنِ إسرائيل من الحرب سوى الهزيمة وترسيخ سمعتها البشعة أمام الرأي العام الدولي بوصفها دولة إرهابية لا تتقن غير القتل وهدم المدن وإلقاء أطنان من القنابل والصواريخ على الآمنين. وكان بدهياً أن تتابع إسرائيل حربها على لبنان بأشكال أخرى بعد انتهاء الحرب المباشرة، وأهم أهدافها أن توقع لبنان في حرب أهلية كي تحقق عبر دم اللبنانيين ما عجز جيشها عن تحقيقه، ولم يكن سراً تدفق أسلحة من إسرائيل لمجموعات عملائها الجاهزين الذين جندتهم منذ عقود كي يكونوا ذراعها الضارب لأي توجه وطني عروبي في لبنان. وهؤلاء يحقدون على المقاومة وعلى "حزب الله" وعلى سوريا بخاصة لأن دخولها إلى لبنان أفشل حلمهم بتقسيمه، وكانوا يحلمون عبر الحرب الأهلية التي دمروا فيها

لبنان عقوداً بأن يقيموا دولاً طائفية صغيرة تقودها إسرائيل يصبحون فيها رؤساء وقادة ويتاح لهم إطلاق أحقادهم المترسّخة في وجدانهم المريض. ولست بحاجة لأن أسمي أحداً منهم لأنهم مشاهير وتاريخهم معروف لا يجهله أحد من اللبنانيين، وقد ازداد حقدهم على سوريا لأنها تدعم المقاومة التي تقض مضجع صديقتهم إسرائيل، ولقد كنت أخشى وقوع كارثة جديدة مع تصاعد النجاح السياسي الذي حققته سوريا عبر زيارة وزير الخارجية السيد وليد المعلم إلى العراق، الأمر الذي يقلق الإسرائيليين وأنصارهم، فهم يريدون إشعال الحرائق بين أقطار الوطن العربي وبخاصة بين سوريا ولبنان وبين سوريا والعراق، ويفزعهم أن يروا سوريا والعراق تتجهان إلى الوفاق بعد ربع قرن من القطيعة. والمفارقة أن أشهر صحيفة بريطانية معروفة بولائها لإسرائيل علقت على جريمة بيار بقولها "إن على بلير فصيح الكلام ألا يتصور بأن الحوار يؤتي أكله دائماً، وأنه إذا توافق العراق مع سوريا فإن ذلك قد يخدم مصالحه، ما حدث بالأمس يظهر درجة العدوانية التي تضمرها سوريا" وهذا التعليق يكشف أن التهمة جاهزة لسوريا بل هي في نظر أنصار إسرائيل حكم مُبرم غير قابل للنقض، ولا يحتاج إلى أدلة. ولعل بعضهم خشي أن يكون الصمت السوري وعدم الالتفات إلى الضجيج المفتعل ضدها في لبنان والسفر إلى العراق بحكمة ورؤية سورية استراتيجية يعني إدارة الظهر لخصومها في لبنان، ولاسيما بعد أن اعتذرت سوريا عن التدخل في أي شأن لبناني داخلي بعد أن خرجت بآخر من بقي من جنودها في لبنان بعد سلسلة انسحابات طوعية مبرمجة، وقد كان تنفيذها للقرار الدولي سريعاً لأنها كانت تتابع خطتها للخروج من لبنان بعد أن ساهمت مع أبنائه الشرفاء بإعادة سيادته واستقلاله وأسهمت في بناء جيشه ودولته، بل وفي تنميته، وتقوية بنيته التحتية، وكان وما يزال كل ما تريده سوريا من لبنان أن يكون قوياً منيعاً ضد الاختراقات الصهيونية التي تريد تقسيمه وتفتيته طائفياً. ولئن كان مرتكبو جريمة اغتيال الشهيد الحريري قد نجحوا إلى وقت قصير في زعزعة العلاقة بين سوريا ولبنان، فإن الشعب اللبناني عبَّر عن موقف أصيل حين وجد أمنه وطمأنينته في سوريا حين وقعت الحرب الأخيرة. ويبدو أن الموقف الأخوي بامتياز، الذي عبر عنه الشعبان في شهر "الوعد الصادق" قد أثار مزيداً من الحقد لدى أنصار إسرائيل في لبنان، وقد رأوا أن سلسلة الاغتيالات التي ارتكبوها على مدى عام ونيف واتهموا بها سوريا لم تحقق مآربهم في قطع الصلة الحميمة بين الشعبين والبلدين، بل إن الصلات لم تنقطع حتى على الصعيد الرسمي، ولم يصل التحقيق في جريمة اغتيال الشهيد الحريري مع كل ما رافقه من ضجيج إعلامي إبان فترة ميليس إلى أي شبهة ضد سوريا، فكل ما كان من اتهامات لا تعدو كونها تمثيلية رديئة التأليف، وقد تابع المحقق "براميتز" مهمة التحقيق بصمت وإتقان، فلم يعجبهم أنه لم يصل إلى ما يريدونه، وقد بات بعضهم يلحُّ على إحالة القضية إلى محكمة دولية

قبل الوصول إلى أدلة قاطعة بالاتهام، كي يجد وسائل للضغط على سوريا، وكي يطول أمد القضية ويبقى المتهمون بلا أدلة في السجون. ولقد كان بدهياً أن يربط المحللون بين توقيت اغتيال الجميّل وبين موعد انعقاد مجلس الأمن لبحث قضية المحكمة قبل انتهاء التحقيق، كما ربطوا من قبل بين توقيت اغتيال الشهيد جبران تويني وبين انعقاد مجلس الأمن من أجل تقرير "براميتز"، وفي التوقيتين تحقق الجريمة هدفاً واضحاً بفضل حملات إعلامية مكثفة توجه الاتهام سريعاً ضد سوريا لخلق رأي عام ضدها دولياً، ولخلق حالة عاطفية تؤثر على مواقف الدول أثناء المناقشة. هل خشيَ المجرمون من أن يُنهي الاحتكام السلمي إلى الشارع في لبنان مخططاتهم في جعل لبنان واقعاً تحت الوصاية الأجنبية مهدداً بالانقسام والحرب الأهلية، ومطالباً رسمياً بالقضاء على المقاومة، فسارعوا إلى إهراق الدم في الشارع في وضح النهار؟ وهل خشيَ أعداء سوريا من وفاق عربي جديد بدأت تبشر به الوقائع فسارعوا إلى إشعال الفتنة؟ أرجو أن تتمكن السلطة في لبنان من كشف المجرمين، ولاسيما أنهم لم يكونوا مُلثمين أو متسترين، فتتكشف عصابة القتل والفتنة في لبنان، وكان الله في عون سوريا التي تكسَّرت النصال فيها على النصال، وباتت دريئة لكل هدف أعمى، والسر في ذلك مكشوف. ولسوف تبقى سوريا في دائرة الاتهام والتهديد والضغوط لأنها ترفض التنازل عن حق الأمة في مقاومة الاحتلال والتسلط على السيادة العربية، ولأنها أسهمت علانية في تحقيق انتصار المقاومة على إسرائيل، ولأنها مصرة على حقوقها وحقوق الشعب الفلسطيني، ولأنها لم تقبل ولن تقبل أن تمضي في ركب المتخاذلين الذين يتاجرون بدم الشرفاء والشهداء.

٢٠٠٦/١١/٢٤

تعالوا إلى كلمة سواء

حسناً فعل توماس فريدمان حين وجد الحل الأمثل لمشكلة الولايات المتحدة في شرقنا العربي والإسلامي في أن تستلهم السياسة الأميركية تجربة إسرائيل في الصراع العربي ـــ الإسرائيلي (وهو بالطبع يسميه الصراع الفلسطيني ـــ الإسرائيلي)، ويقول في مقالة بعنوان: (جدار افتراضي بين أميركا والعالم الإسلامي) "توصلت الدولة العبرية إلى استحالة الدخول في أية شراكة فلسطينية. وبالنتيجة شيدت تل أبيب جدارها الأمني، ونفذت انسحاباً أحادي الجانب من قطاع غزة، بينما كان لسان حالها يقول للفلسطينيين: حسناً سنواصل الاشتباك معكم، ولكن من موقع القوة والحصانة الأمنية ضدكم، فهل ثمة خطوة مكافئة لهذه يمكن اتخاذها إزاء العالم الإسلامي؟ هل نبني جداراً أمنياً عازلاً بيننا وبينه؟". يرى الصحفي المتخصص بقضايا منطقتنا أن بناء هذا الجدار يتم حين تكف أميركا عن إدمان النفط الشرق أوسطي. يقول "إن هذا الإدمان مدمر لنا ولهم على حد سواء، ولا سبيل لمعالجته، إلا باتخاذنا التدابير الحازمة اللازمة التي تمكننا من تعزيز استثماراتنا في مجال الطاقة البديلة المتجددة" ويرى أن المعضلة العراقية باتت على قدر من الفوضى يصعب على المرء أمامها تحديد موضع قدميه، وما ينبغي فعله في الخطوة التالية ليس مجرد الانسحاب والمغادرة فحسب، وإنما استلهام ما فعلت إسرائيل حين بنت الجدار العازل.

أعترف أنني من موقع المواطن العربي سأكون سعيداً جداً إذا أخذ الساسة الأميركان بنصيحة فريدمان، فليتهم حقاً يبنون جداراً عازلاً بينهم وبين العالم الإسلامي، وليتهم يكفون عن إدمان النفط العربي والإسلامي، وليتهم يسحبون كل قواعدهم العسكرية التي تحيط بوطننا وتسيطر على ممراتنا وبحارنا، وينكفئون إلى محيطهم الواسع الذي يكفيهم خيرنا وشرنا، ليكفونا هم كذلك خيرهم وشرهم. وأنا أطمئن الكاتب إلى أن العرب والمسلمين بالأكثرية المطلقة سيرحبون بمثل هذا الجدار، وسيعتبرون يوم إعلانه عيداً قومياً. بل إن أصدقاء أميركا أنفسهم سيطلبون الطلاق البائن منها لأنهم تعبوا من صداقتهم معها، ورأوا كيف أنها تخذلهم أمام شعوبهم، فقد جاءت إلى العراق بذريعة البحث عن أسلحة الدمار الشامل، ولكن الفضائح التي كشفت الأكذوبة باتت مخزية لمن صدقها. ثم زعمت أنها تريد تحرير الشعب العراقي فاحتلته وسلبته حريته وسيادته. ثم زعمت أنها تريد نشر الديمقراطية فيه، وها هو ذا كاتبها الذي بشر طويلاً بفضائل غزو العراق يعترف بأن المعضلة في العراق باتت على قدر من الفوضى لا يعرف أمامها أين يضع قدمه. والحقيقة أنه يعرف أن لا موطئ قدم لمحتل في أي أرض فيها

شعب مقاوم، يرفض أن تسلب منه حريته وسيادته على أرضه ووطنه، ويعرف أن الانسحاب هو الحل الوحيد، والعقلاء من الساسة الأميركان يقرون بضرورة الانسحاب، ويزيد عليهم فريدمان حين يطلب بناء جدار عازل افتراضي مع العالم الإسلامي كله!

والتفسير الافتراضي لهذا الاقتراح المفاجئ في موقف الكاتب الذي عهدناه مبشراً بالقرن الأميركي في العالمين العربي والإسلامي هو سيطرة شعور قوي بالخيبة والفشل والإخفاق وهو ما عبرت عنه مذكرة رامسفيلد التي أنهى بها عمله. وسيسري هذا الشعور بالفشل في البيت الأبيض الذي تحاصره الانتقادات التي ضاق بها عقلاء الولايات المتحدة وهم يرون كيف تحولت الولايات المتحدة من بلد يحلم به شباب العالم لما فيه من حرية ورخاء وفرص عمل وعلم وتقنية وتقدم، إلى وحش يهدد الشعوب ويتسلط على الأمم، ولا يعنيه من العالم كله سوى أن ينال رضا إسرائيل ولو على حساب القيم والمبادئ التي نهضت عليها الولايات المتحدة. وقد يكون تفسير الموقف أمراً آخر يمكن فهمه في كون الكاتب يتوجه بهذا الاقتراح إلى القارئ الأميركي ليوهمه بأن غزو الولايات المتحدة لأفغانستان وللعراق كان من أجل النفط فقط، وهو بذلك يستجدي تعاطف بسطاء القراء الذين يدركون حاجة بلادهم إلى النفط، وسيغفرون إذن لقادتهم ما يرتكبون من جرائم ضد الإنسانية في حروبهم النفطية ما دامت لتحقيق مصالحهم. فأما الأذكياء من القراء فسوف يتساءلون: هل كان العرب والمسلمون يمنعون أميركا من شراء نفطهم حتى اضطرت لغزوهم؟ أليست الشراكة قائمة بين العرب والمسلمين من جهة وبين الغرب كله من جهة أخرى منذ أن تم استخراج النفط إلى اليوم؟

لقد استخدم العرب سلاح النفط مرة واحدة في تاريخهم المعاصر حين وقفت أميركا ضدهم في حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ونسيت أن العرب شركاؤها وأصدقاؤها وبعضهم حلفاؤها، وراحت تمد إسرائيل بترسانة من أسلحة التدمير، معربة بوضوح أن إسرائيل أهم عندها من العرب ومن المسلمين والمسيحيين معاً.

ولكن العرب سرعان ما غفروا للولايات المتحدة هذا الموقف العدائي ضدهم وهذا الانحياز الفاضح لإسرائيل، واستعادوا علاقتهم الوطيدة بها وبالغرب كله. وحين دعت الولايات المتحدة إلى حل سلمي للصراع العربي ــ الإسرائيلي لبى العرب دعوتها جميعاً وقبلوا أن تكون هي الوسيط النزيه العادل على مبدأ أعلن في مدريد (الأرض مقابل السلام)، ولكن الولايات المتحدة لم تستطع إلى اليوم أن تكون وسيطاً نزيهاً، لأنها تبنت المشروع الصهيوني الإسرائيلي الذي يسمى اليوم "مشروع الشرق الأوسط الكبير"، وشنت حروبها ضد العرب والمسلمين من أجل أن يتحقق الحلم الصهيوني، في أن تصبح إسرائيل دولة قوية متمكنة عسكرياً واقتصادياً

وسط مزق من دويلات عرقية وإثنية وطائفية متحاربة متصارعة، وفي أن تستل العروبة والإسلام من العرب والمسلمين فتوهمهم بأنهم شرق أوسطيون، لا تاريخ لهم ولا هوية وليس لهم من نسب غير موقعهم الجغرافي الذي يحدده الغرب الأوروبي والأميركي. ولا أدري كيف يسمينا أهل آسيا، هل سيعتبروننا الغرب الأوسط، أم أن الجهات لا تحدد إلا من حيث تنظر الولايات المتحدة؟

لقد تجاهل فريدمان كل حقائق الصراع العربي ــ الإسرائيلي واختصرها في كون إسرائيل لم تستطع أن تجد شريكاً للسلام، لأن "القادة الفلسطينيين ــ كما يقول ــ كانوا من الشقاق والعجز، بحيث لم يكن في وسعهم وضع حد للاعتداءات الانتحارية المتكررة على الإسرائيليين"، إذن جوهر الصراع كما يقدمه الكاتب هو في العمليات الانتحارية التي عجز القادة الفلسطينيون عن إيقافها، وليس في الاحتلال الإسرائيلي لأرض فلسطين وحصارها المرير لشعبها الأصيل، وقتلها اليومي للأطفال والنساء والشبان والشيوخ، والكاتب يتجاهل سنوات من الانتظار قضاها الشعب الفلسطيني في مسرح صموئيل بيكيت وليس في مسرح برودواي (كما يقول) حيث صار انتظار (غوديت أوسلو) عبثاً وملهاة تراجيدية.

ويتجاهل الكاتب كذلك احتمال سؤال القارئ الأميركي له: لماذا ينتحر هؤلاء الفلسطينيون؟ وما الذي يدفع إنساناً ما لأن يفجر نفسه ويموت ويقتل معه آخرين؟ إننا نشعر بالفجيعة إزاء هذا الموت، ولكننا ندرك أن إسرائيل هي المسؤولة عن هذه الفواجع كلها، فلو أنها نفذت قرارات الشرعية الدولية وانسحبت من الأراضي التي تحتلها، وأوقفت الحصار الذي تسجن فيه شعباً بأسره، وأطلقت سراح آلاف الأسرى من سجونها ومعتقلاتها، وقبلت بالسلام الذي طالما روج له السيد فريدمان، فإن هذه العمليات التي يسميها انتحارية ستتوقف بشكل طبيعي لانتفاء الدوافع. لقد رحبت بالجدار الافتراضي بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامي حسب اقتراح فريدمان لأننا لا نعرف شيئاً من خيرات أميركا لنندم على فقده، فلم تجد شعوبنا منها غير التسلط والغزو والدعم المطلق لإسرائيل ضدنا. وهذا الحل المقترح دليل عجز مطلق عن التفاعل مع شعوب العالم من موقع التشاركية أو الندية أو الاحترام والمصالح المتبادلة، فالكاتب لا يقبل كما يبدو حلولاً وسطاً، فإما أن تكون الولايات المتحدة مسيطرة على العالم الإسلامي مستبدة فيه، وإما أن تنسحب منه وتبني جداراً عازلاً بينها وبينه، وتستلهم تجربة إسرائيل التي يقول لسان حالها (حسناً سنواصل الاشتباك معكم، ولكن من موقع القوة والحصانة الأمنية).

أما من كلمة سواء نجدها في القانون الدولي وفي احترام مواثيق الأمم المتحدة التي تريـد إسرائيل أن تنهيها لأنها تتخذ قرارات تؤيد الحق العربي رغم "الفيتو" الذي تمارسـه الولايـات المتحدة ضد الحقوق العربية؟

هل أطلق فريدمان رصاصة الرحمة على المبادرة العربية للسلام ونسي ما كتب عنها؟ إن كان يريد نسيان السلام فالشارع العربي مل انتظار "غوديت" وأدرك أنه مجرد أكذوبة، وها هو ذا الشارع العربي يصنع مستقبله بيده.

٢٠٠٦/١٢/٨

احذروا صفِّين جديدة!

مفجع أن يقع العرب في فخ الحرب الأهلية التي ذاقوا منها الويلات عبر تاريخ تراجيدي قد لا تكون حرب البسوس الشهيرة أول أحداثه الدموية في التاريخ القديم. وأعتقد أن تلك الحروب هي التي فوتت عليهم فرصة تكوين أمة قوية ذات شأن قبل ظهور الإسلام. فقد ظهرت دويلات عربية صغيرة على تخوم الإمبراطوريتين الضخمتين بيزنطة وفارس، ودفع الغساسنة والمناذرة من دمائهم ثمن صراع الدولتين على النفوذ. ثم غزاهم أبرهة الأشرم وكاد يهدم كعبتهم، ولم يتمكنوا من التحرر حتى جاء الإسلام فنقلهم من موقع التبعية إلى موقع القيادة بين الأمم. ولكن الصراع على السلطة لم يتوقف حتى في صدر الإسلام، فقد كانت موقعة الجمل، وبعدها موقعة صفين أخطر نتائج الصراع الذي بلغ ذروته بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه. وما تزال الأمة إلى اليوم تعاني من نتائج وآثار ذاك الصراع الذي تفرقت بسببه الأمة إلى شيعة وسُنة. وقد تحول هذا الخلاف السياسي إلى خلاف فقهي مذهبي، وجدت فيه الأمة في مراحل قوتها نوعاً من التعددية والثراء، ولكن الفاجعة أن مستصغر الشرر بقي كامناً تحت الرماد حسْب العدو أن ينفخ فيه حتى يشب ويستعر. والمفارقة أن المسلمين يعرفون خطة عدوهم ولكنهم ينفذونها كأنهم يجهلون. فلا أحد من العرب المسلمين يخفى عليه أن خطة الولايات المتحدة وأنصارها لتغيير البنية السياسية والاجتماعية والفكرية للشرق الأوسط الكبير هي تفتيت هذا الشرق إلى مسلمين ومسيحيين وسُنة وشيعة، وعرب وأكراد، وسوى ذلك من تكوينات طائفية وعرقية. وكل الحكام والمحكومين يعرفون أن الصهيونية أنفقت مالاً وجهداً كبيرين في دعم حركات التطرف الديني وإن كانت تتظاهر بأنها تحارب الإرهاب، وقد تمكنت من تحويل حربها على الإرهاب إلى حرب على الإسلام، وعلى كل أشكال المقاومة الوطنية حين نجحت في خلط الأوراق وقدمت نموذجها الدموي للديمقراطية في العراق. ولم يعد خافياً على أحد أن عتاة الصهاينة من قادة الولايات المتحدة لا يرون عرباً أو مسلمين في الشرق الأوسط، وإنما يرون سُنة وشيعة. وهم ينبشون تحت الرماد لإضرام جمر تاريخي بارد، ينفخ فيه معهم جهلاء متعصبون من الطرفين، يقدمون الفتاوى الدموية، ويثيرون الفتنة التي دمرت الأمة مرات في تاريخها. وما يحدث اليوم من اقتتال مذهبي وفوضى عارمة في العراق وتفتيت له على الطائفية والمذهب والعرق سينسحب على عدد من الدول العربية والمسلمة. ولا أحد من العرب يجهل أن انتصار الفتنة الطائفية في العراق سيمتد لهيبه إلى دول أخرى، وكان حسب العرب ما حدث في لبنان من حروب طائفية عبر تاريخه كي يبتعدوا عن التقسيمات الطائفية البغيضة.

ولا نجد أمام العرب اليوم مخرجاً من نفق الفتنة غير العودة إلى الالتفاف حول عـروبتهم بمعناها التعددي الثري الذي يحتضن بالمحبة والتعاضد كل الأعراق والقوميات الشقيقة للعـرب التي عاشت مع أمتنا العربية قروناً، وبات تاريخنا وتاريخها واحداً مثل الأكراد الـذين أنجبـوا صلاح الدين الأيوبي الذي يعتز به العرب والكرد، وأنجبوا كثرة من عبـاقرة الأدب العربـي الذين يجهل الناس أصولهم العرقية لعمق انتمائهم للعربية مثل أحمد شوقي الذي ولد لأب كردي وأم تركية وجدتين شركسية ويونانية ولكنه كان أمير الشعر العربي. ومحمود تيمور الذي ولـد لأب كردي وأم تركية وكان أمير القص العربي الحديث. وعباس محمود العقاد الكردي الأصل الذي كتب في مقدمة حوار له يقول: "حسب الأكراد شرفاً أنهم أخرجوا للعالم الإسلامي بطلـين خالدين: صلاح الدين الأيوبي ومحمد علي الكبير، وقد تلاقيا في النشأة الأولى، وفي النهضـة بمصر، وفي نسب القلعة اليوسفية إليهما (قلعة القاهرة اليوم)، فهي بالبناء تنتسب إلى صـلاح الدين، وبالتجديد والتدعيم تنسب إلى محمد علي الكبير"، وكان العقاد أحد عباقرة الثقافة العربية. والأمثلة عن امتزاج العروبة بالكرد حديث يطول، وتأمله يثير في النفس نشـوة هـذا الثـراء والتلاحم، ولا يحول دون هذه النشوة في التوحد والانصهار ويحولها إلى شـقاق إلا التعصـب البغيض الأعمى أو الشوفينية المغلقة في فهم الانتماء القومي.

إن دعوتنا إلى الالتفاف حول العروبة هي دعوة إلى الالتفاف حول مـا أنجـزت الثقافـة العربية التي ضخ فيها كل المسلمين والمسيحيين ثقافاتهم باللغة العربيـة بغـض النظـر عـن انتماءاتهم العرقية، ذاك أن جوهر العروبة ثقافي حضاري وليس مفهوماً عرقيـاً، لأن العربيـة اللسان أي الفكر والثقافة.

ولقد كان حرياً بالعرب أن يفيدوا من النصر الضخم الذي حققته المقاومة في لبنان مرتين، حين التف اللبنانيون حولها دون النظر لمذهب شيعي أو سُني، أو لدين إسلامي أو مسيحي. فلم يكن القصف الإسرائيلي يفرق بين المِلل والنِّحل والطوائف، وإنما كان يستهدف اللبناني حيـث كان، وسيكون الخطر فظيعاً إذا استعاد اللبنانيون مأساة الحرب الأهلية لا سمح الله، وهم بحمـد الله يعون هذا الخطر ويحذرون من الوقوع فيه. وحقيقة الأمر أن ماهية الخلاف ليست طائفية، ففي كل من الفريقين تنويعات المجتمع اللبناني كله، ولابد من الوصول إلى حلول وسط، تحقق الوفاق الوطني، لأن لبنان وطن الجميع ولا يجوز أن ينتصر في معاركه إلا لبنان كله.

ويبدو شبح الفتنة مرعباً في فلسطين، وعلى الرغم من تأييدي لـ"حماس" لكونها حركـة مقاومة وطنية شريفة، إلا أنني شديد الحرص على "فتح" التي انتمينا إلى نضالها العريق منذ أن نهضت، ولها في قلوبنا مثل ما لكل حركات المقاومة الفلسطينية من تقدير لنضال مرير. ولـئن

باعدت دروب السياسة بين الفصائل فإن دروب الدم تلتقي كلها في نهـر القضـية الفلسـطينية المقدسة، وسيكون دماراً يحقق فوق ما تريد إسرائيل من تدمير لشعب فلسطين إذا وقعت فـتن تكفي إسرائيل عبء قتل الفلسطينيين. ولذلك أحيي حكمة وعقلانية كل من "حمـاس" و"فـتح"، وأستبشر بأن تجدا طريقاً للوفاق، حيث لابد من الوفاق في كل أرض عربية، ولابد من إفشـال أية مخططات تريد تفريق العرب إلى شيع وملل. ولابد من التوجه بخطاب وطني عراقي شامل إلى العراق يسمو فوق الطائفية والأعراق، ولقد بات ترسيخ مفهوم الوطنية في الأقطار العربية ضرورة قصوى قبل أن تعصف بها عواصف التغيير المدمر الذي تحلم به إسرائيل التي تبـدو اليوم في أضعف حالاتها، وهي تريد أن تحقق عبر بث الفتن الداخلية الطائفية ما عجزت عـن تحقيقه في حروبها.

فأما الولايات المتحدة التي ترفض الحوار مع سوريا بل ترفض توصـيات ومقترحـات مفكريها ورجال السياسة الخبراء فيها، فإنها تعيش حالة مخاض جديدة، نرجو أن يولد منها دعاة سلام يعيدون للولايات المتحدة رؤية إنسانية يفتقر إليها حكام البيت الأبيض الذين أغرقوا العالم بالدماء وهم يبشرون بالديمقراطية والرخاء. وفي عهدهم الدموي كرهت شعوب العالم أميركـا، وكرهت الديمقراطية التي يدعون إليها، ونحن نتفاءل بأن تتخلص الولايات المتحدة من سيطرة إسرائيل عليها، وأن يتحرر القرار الأميركي من التسلط الإسرائيلي، لتعود إلى الولايات المتحدة مكانتها الإنسانية التي حملت شعار العدل والحرية للشعوب فأحبها الناس قبل أن تقع في أسـر الصهيونية العالمية التي حذر الأميركان منها لينكولن.

٢٠٠٦/١٢/٢٢

خطاب الفتنة والتحريض

قرأت مندهشاً مقالة يهاجم صاحبها سماحة المفتي العام للجمهورية في سوريا ويتهمه فيها بالتخلي عن ثوابت الأمة إرضاء لفريق الشيعة، ويدعو علماء المسلمين إلى وقفة في وجه المفتي. ولقد أثارني العنوان لأن فيه دعوة صريحة لفتنة، واتهاماً لرجل عالم متنور يشكل مرجعية فقهية للمسلمين، فرحت أقرأ ما قال سماحة المفتي الدكتور الشيخ أحمد حسون حسب ما نقل عنه صاحب المقالة. ولقد تأملت قول سماحة المفتي فلم أجد فيه ما استنتج. ولا يجهل صاحب المقالة وهو باحث في التاريخ الإسلامي على ما أعلم، ما حل بالدولة العباسية ثم بالدولة الأندلسية لكثرة من حكمها من "أمراء المؤمنين" الذين أوصلوها إلى الهاوية لكثرة ما انتشر في عهدهم من فساد وابتعاد عن ثوابت الأمة ودينها الحنيف.

وما أدري كيف ينظر الباحث إلى خلافة المستكفي أو المعتضد في قرطبة وإشبيلية، أو إلى خلفاء توالوا على مصر في عهد المماليك وكثير منهم لم يعرف من الإسلام شيئاً وكان جل همه شراء الجواري والقيان! ولا يتسع المجال لذكر تفاصيل من سيرة من يدافع عنهم الباحث، لكن كتب التاريخ الرسمية والدينية تقدم عشرات النماذج التي لا تخفى عليه. وكيف يستنتج الباحث أن المفتي تنكر لثوابت الأمة وتطاول عليها وسماحته لم يكفرهم لأنه يكره التكفير، كما أعلم.

وأعجب من قول الباحث إن سماحة المفتي تناول مُسلَّمات أهل السُّنة التي عشنا عليها قروناً واعتبرها خاطئة، مستنداً إلى ما نقل من نص كلام المفتي "سامحوني إن لمست مسلَّماتكم التي عشتم عليها قروناً ولم يتجرأ أحد أن يكشف لكم وضوح خطأ هذه المسلَّمات". أما كان حرياً أن يؤيد الباحث هذا التوجه إلى نقد المسلَّمات التي عشنا عليها قروناً حقاً؟ أفلا تحتاج المسلَّمات إلى مراجعة بعد قرون، وفيها خلط عجيب بين ما هو نص ديني مقدس وبين ما هو منسل من التاريخ لا سند له من الدين أو العقل؟ أيغيب عن الباحث أن الخطاب الإسلامي الذي سارت عليه الأمة قروناً على أنه بدهيات ومُسلَّمات تراكمت فيه معتقدات غريبة عن الإسلام ليست منه في شيء، ولم يجرؤ أحد على المساس بها؟ ولست صاحب اختصاص كي أورد الأمثلة على الرغم من معرفتي بها، ولكن حسبي أن أذكِّر الباحث بأن أخطر ما عانت منه الأمة هو اختلاط التاريخي بالديني من يوم الفتنة الكبرى بعد مقتل سيدنا عثمان إلى اليوم. وأشد خطراً فتاوى التكفير التي باتت تطلق بسهولة بدوافع سياسية أو عن جهالة، وقد أغلق باب الاجتهاد قروناً كي لا يقتحم أحد هذه المُسلَّمات، وبات الناس يقدسون كتباً فقهية عادية ويجعلونها مرجعيتهم بدل العودة إلى كتاب الله وسُنة نبيه. وما زلت أذكر رجلاً كفَّرني ذات يوم

من صدر شبابي لأنني اعترضت على قوله إن الأرض محمولة على قرن ثور، وإن الله ينـزل في الشتاء إلى السماء الرابعة! قلت له إن الأرض كما في القرآن الكريم فلك يسبح في فضاء، وحين يحل الشتاء في بلادنا يكون الصيف في بلاد أخرى، فقال لي غاضباً انظر هذا كتاب الفقيه فلان يقول ذلك أفأنت أعلم منه؟

وأعجب كيف يستنكر الباحث على سماحة المفتي أن يرى أن الإمام علياً كرم الله وجهه هو حجة. أتراه ينكر أن الرسول عليه الصلاة والسلام جعل علياً رضي الله عنه باب مدينة العلم وأن أهل السُّنة جميعاً لا يذكرون الإمام علياً إلا دعوا الله أن يكرم وجهه ويرضى عنه؟ أم أن الباحث يريد أن يعيدنا إلى زمن الفتنة كي نتجادل اليوم من هو أهم عندنا أبو بكر وعمر أم علي؟

ويبدو خطاب الفتنة مثيراً عند إنكار اعتبار سماحة المفتي لوجود آل البيت وجود عدل في الأرض، ولا أحد من المسلمين على اختلاف مذاهبهم ينكر مكانة آل البيت (لأن الله سبحانه وتعالى طهَّرهم وأذهب عنهم الرجس). ولكن الباحث يتساءل (هل أهل الشيعة هم آل البيت؟)، وأستغرب هذا السؤال لأنني أسمع من بعض السُّنة ومن بعض الشيعة من يزعم أنه منحدر من آل البيت ويأتي بأشجار أنساب ويعلن أنه منسوب، وأنا لا أدري ولا الباحث يدري حقيقة الأنساب، لكن النسب الذي يعنينا ونهتم به هو الانتساب بالعمل الصالح والاقتداء بالنبي محمد عليه الصلاة والسلام، ولا يعنينا من دخل إلى السرداب، ولا نتدخل في عقائد الآخرين فهناك من ينتظر خروج الإمام، وهناك من ينتظر عودة السيد المسيح، وهناك من ينتظر المهدي، وهناك في إسرائيل والبيت الأبيض من ينتظرون عودة "الماشيح" وإعلان دولة الرب وهزيمة المسيحيين والمسلمين معاً، وهناك من ينتظر وصول "غودو" مع صموئيل بيكيت! ولست أرى نفعاً للأمة في أن تغرق في نقاش هذه الرؤى ولديها من القضايا المصيرية ما هو أجدر بالحوار.

وقد زعم الباحث أن سماحة المفتي لم يجرؤ على الإجابة عن سؤال حول الصيام في عاشوراء، وقد عجبت من اتهامه بعدم الجرأة وفتواه منشورة في موقعه الإلكتروني يقول "هو سُنة مؤكدة عن النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه الكرام". ثم يأخذ الباحث على سماحة المفتي أن يرى خطأ بعض الصحابة لأنهم لم يسلموا الخلافة لعلي، وأنا أؤيد سماحة المفتي بهذا الرأي وقد ذكرت ذلك مرات في تناولي لتاريخنا في برامجي الثقافية التلفزيونية، وقلت لو أنني كنت يوم الفتنة لوقفت مع الحق وبايعت الإمام علياً. أليس الباحث نفسه يذكرنا

بقول النبي صلى الله عليه وسلم "من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره واخذل من خذله".

لكنني أجد الخوض الآن في أحقية أبي بكر في الخلافة وأحقية عمر من بعده وهل كان أولى أن يكون علي؟ أجد ذلك كله حديثاً تاريخياً تجاوزته الأمة، وسيكون من الترف الفكري المؤدي إلى الفتنة أن نغرق فيه. فهل نحن نريد استعادة الماضي وإخراج الصحابة الكرام من قبورهم لنصحِّح ما حدث يوم السقيفة أو يوم صفين، أم علينا أن نفكر في المستقبل وننطلق إلى محاكاة عظيم أفعال الصحابة الكرام حين تجاوزوا الخلافات حول الحكم وهبوا للدفاع عن الإسلام ضد المرتدين، ثم جهزوا جيوش الفتوحات، ولو أنهم غرقوا في هذه الخلافات لما خرج الإسلام من مكة، بل ربما كان انتهى فيها لولا وعد الله بحفظه.

وأما إنكار الباحث على سماحة المفتي أن يجعل الصحابة أقساماً وطبقات، ويعرف العدول منهم، فهذا أمر لا أرى خلافاً حوله إذا ما أخذنا برأي من قال إن كل من عاصر النبي صلى الله عليه وسلم هو من الصحابة، ولا تخفى هذه الآراء على الباحث. وفي كتاب "الإصابة" لابن حجر ما يدعونا إلى هذا التقسيم أمام من يرون صحابياً من لم يرَ النبي ولكنه عاش في عصره. فمن أخذ بمن رآه مرة فهل تكون له مزية من عاش العمر معه كابن عمه علي وصاحبه أبي بكر والفاروق عمر وصهره عثمان إلى آخر ذلك؟ إنني أتفق مع سماحة المفتي أن كلمة عدول لا تعني أنهم لا يخطئون وقد رفع الله الناس درجات في العلم.

إنني أجد فتح هذه الملفات التاريخية الإشكالية ودعوة الناس للوقوف في وجه المفتي إثارة لفتن طائفية لا تخدم مصالح الأمة، بل تخدم مصالح أعدائها الراغبين في إثارة الفتن. وأرجو من الباحث بحكم معرفته لخطر الفتنة على المسلمين جميعاً، أن يترفع عن هذا الخطاب التحريضي، وأن يعين أمته على التوحد في مواجهة أعدائها، وأن يكون عادلاً وهو يتحدث عن العدول. ولو أن علماء المسلمين في سوريا رأوا في خطاب سماحة المفتي ما رآه الباحث لما انتظروا مقالته كي يعترضوا، ولكنهم يوافقون على خطاب الدعوة إلى مناقشة المسلَّمات، وإلى الابتعاد عن الفتن، وإلى الالتفاف حول ما يتفق المسلمون عليه، وترك ما قد يختلفون حوله، وساحة المتفق عليه أرحب وأوسع.

ثنائيات في «الجزائر عاصمة الثقافة العربية»

أتيح لي أن أشارك في حفل افتتاح احتفالية الجزائر عاصمة للثقافة العربية، وأحسب أن من أفضل ما أنجزته الأمة أمام تحديات العولمة الثقافية هو هذه الاستجابة الإيجابية الواعية المتمثلة في إحياء العقد العربي، وفي إعلان العوْربة في مواجهة العولمة، عبر رؤية جديدة منفتحة تستعيد من خلالها الأمة تمسكها بالهوية الثقافية، وتفسر الثقافة القومية تفسيراً واسع الطيف يضم في سعته كل الثقافات المحلية التي أسهمت في إنتاج هذه الثقافة وتحدثت بلغتها. ٢٠٠٧/١/١٩ وقد أسعدني أن تتزامن احتفالية الجزائر بكونها عاصمة للثقافة العربية هذا العام مع احتفالها بعيد رأس السنة الزراعية الأمازيغي، وهذا ما أشار إليه الرئيس عبدالعزيز بوتفليقة في خطابه الثقافي المتميز في افتتاح الاحتفالية، مشيراً إلى أن هذا التزامن تذكير بالتنوع الثقافي بصفته عربوناً يضمن حيوية الثقافة. وهذا اليوم الفلاحي يعود في الذاكرة الشعبية الجزائرية إلى تربع فرعون الأمازيغي شاشناق الأول على عرش مصر، قبل ٢٩٥٧ سنة خلت، وقد ذكر الرئيس الجزائري هذا التزامن الذكي عبر حديثه عن ثلاث ثنائيات جعلها محاور للاهتمام الثقافي، وأراد من خلالها بث حيوية فكرية في جسد الاحتفالية وهي ثنائية (الهوية والثقافة العربية) وثنائية (الثقافة العربية والعولمة) وثنائية (الثقافة العربية والحرية). وهو في هذا الطرح يحث على البحث عن مضمون وفحوى الثقافات التي توحِّد الأمة بعد وقوعها فيما سماه فراغاً خلقه العجز الثقافي الذي سرعان ما ملأته رؤية دينية ضيقة ومختزلة تجلت في الجزائر بما سماه العشرية السوداء. وكان طبيعياً أن يشير إلى السخط المتولِّد عن تفاقم الخروقات التي طالت أبسط حقوق الفلسطينيين الإنسانية، وإلى الاعتداءات الخارجية المقترفة في الوطن العربي، مشيراً بكناية أدبية إلى ما نجم عن زوال دولة المن والسلوى، واختفاء ثقافتها الرسمية من أخطار بالغة. وعلى الرغم من كوني أتوجس من إقرار الثنائيات في الفضاء الفكري العربي خشية الوقوع في الفخ الثقافي التقليدي الذي تاهت فيه ثقافتنا العربية عقوداً حين سقطت في ثنائيات وهمية مفتعلة بين التراث والمعاصرة أو الحداثة والتقليد أو الإسلام والغرب أو المحلية والقطرية، وسوى ذلك من الثنائيات التي جعلت تنوع الثقافة وتعدديتها نقمة بدل أن تكون نعمة، إلا أنني أنظر بكثير من الاحترام والتفاعل إلى الفكر الذي قدمه الرئيس الجزائري بعمق ثقافي لحظ الخطورة التي تحيق بالثقافة العربية حين تقع في أسر خلط بين الثقافة الوطنية وبين الثقافة العربية ببعدها القومي، مشيراً إلى ضرورة نبذ ما سماه محمد أركون إيديولوجيات الإقصاء المتبادل. وأعتقد أن هذا الإقصاء مسؤول عما تقع فيه الأمة اليوم من أخطار التفتت والتقسيم، لأن مخططات الصهيونية ترتكز أساساً على قابلية كامنة لدى شرائح من بينها نخب متعصبة أو

باحثة عن فرص سلطة أو نفوذ لا يتحققان إلا عبر إقصاء الآخر الذي هو بعض (نحن) حين نتحدث عن الأمة غافلين عن وجود ثقافات وطنية ذات خصوصية عرقية أو دينية مختلفة عن الثقافة العربية بملامحها القومية العريضة، حيث تبدو الحاجة ملحة للتذكير الدائم بدور هذه الثقافات الوطنية المحلية في إغناء الثقافة العربية وتشكيل روافد غزيرة تصب في نهرها الواسع. لقد تذاكرنا في جلسة ثقافية مع كبار مثقفي الجزائر نماذج كثيرة من هذه الروافد التي لا مجال لذكرها هنا، ولكن حسبنا أن نتذكر أن ابن خلدون اعتبر في مقدمته الشهيرة أن العجم (وهو يقصد بهم غير العرب) خدموا علوم العربية أكثر مما خدمها العرب أنفسهم. وبوسعنا أن نتذكر أن مؤلف الكتاب في النحو هو سيبويه الفارسي، وأن ابن أجروم الأمازيغي قدم واحداً من أفضل شروحات النحو العربي، ونقصد (الأجرومية) وهي من أفضل المتون في النحو العربي. ومن المعلوم أن تعلق الشعوب غير العربية بلغتنا العربية كان بدافع ديني محض، ويبدو أن ضعف المشاعر الدينية عند بعض هذه الشعوب كما هو الأمر لدى شرائح كثيرة من العرب أنفسهم، هو الذي يسهم في طرح إشكالية اللغة العربية أمام اللغات المحلية، مع التأكيد على أن الإسلام لم يجبر الشعوب غير العربية على التحدث بالعربية، بل إن من واجبات المسلم أن يحافظ على اختلاف الألسن لأنه من آيات الله سبحانه وتعالى حيث يقول: (ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين). ولعل بقاء اللغات المحلية حية إلى الآن يقدم الدليل الساطع على أن الإسلام حافظ على هذه الخصوصيات الثقافية، فقد كانت الدولة العربية الإسلامية من القوة والمنعة بحيث لو أنها أرادت تهميش هذه الثقافات لفعلت، لكن التاريخ لا يقدم لنا أية محاولة من هذا النوع البغيض الذي لم يفكر به أحد من قادة العرب، بل إن العرب أنفسهم بايعوا سلاطين وحكاماً من غير العرب لمجرد أنهم مسلمون. لقد قاوم العرب المغول والصليبيين حتى هزموهم، ولكنهم قبلوا حكم المماليك ومن بعدهم العثمانيين عبر الأخوة في الدين، ولولا أن القيادات غير العربية نزعت إلى الشعوبية التي فتكت بالدولة المسلمة لما تولد لدى العرب الذين همّشوا هذا النزوع القومي الذي واجه جمعية "تركيا الفتاة" على سبيل المثال، بجمعية "العربية الفتاة"، وواجه حركة التتريك في أواخر القرن التاسع عشر بحركة التعريب، وعلينا أن نتعلم الدرس الحضاري من تاريخنا، ويبدو أن الآفاق المتفتحة في الثقافة العربية تتلمس الطريق الآمنة عبر الاعتراف المتبادل بدلاً من الإقصاء المتبادل. وأما الثنائية الثانية التي طرحها الرئيس الجزائري فهي غاية في الأهمية حيث يحذر الخطاب من خطورة فهم التفتح على الثقافة الغربية أو على العالمية من منظور نشر التقدم بأنه يعني الخضوع أو الانصياع للغرب باسم الحداثة. ولقد وقع كثير من كبار المثقفين العرب في هذا الخضوع الطوعي لقيم الغرب وبعضهم اليوم يتحدث في منابر الثقافة العربية وكأنه أوربي أو

أميركي، متنازلاً عن خصوصيته العربية وهويته الوطنية، وتراثه الإسلامي. وتبدو المشكلة في فهم الحداثة على هذا النوع من الذوبان في الثقافة الغربية أكثر خطورة حين يتشبع بها قياديون عرب يشغلون مواقع مسؤولة عن وضع الخطط التعليمية والتربوية والإعلامية. وبعض هؤلاء يؤمرك الثقافة العربية بدعوى العالمية، ولكنه يقع في فخ العولمة بجوانبها السلبية التي تهدد الثقافات الوطنية والقومية، وتدعو إلى ثقافة تلغى فيها الهويات والملامح الخصوصية. إن تأمل التجربة الحضارية العربية الإسلامية ولاسيما في عصور الازدهار يقدم للأمة مخارج من هذه الإشكالية، حيث قدمت هذه الحضارة نموذجاً فذاً للثقافة العالمية ولكنها لم تلغ قط خصوصيات الثقافات المحلية للشعوب التي ساهمت بقوة في صنع هذه الحضارة. وأما الثنائية الثالثة التي طرحها الرئيس الجزائري فهي ثنائية الثقافة العربية والحرية فحدها احترام حرية الآخر، وهي فيما بعد ذلك فضاء لا حدود له، وهناك الفارق الحضاري بين مفهوم الإبداع وبين مفهوم البدعة التي تقع في الضلالة. لقد أطلقت برامج عواصم الثقافة العربية فرصاً تاريخية أمام المجتمع العربي لحل الكثير من الإشكاليات، عبر تقديم رؤية ثقافية جديدة ومبتكرة تخرج من نفق التقليد إلى فضاء الإبداع، وتقبل برضا وانفتاح مشاركة الآخر، وتفهم الحداثة فهماً مختلفاً عن الفهم الضيق الذي يدعو إلى كونها قطيعة مع الماضي، وتفهم المثاقفة مع الغرب فهماً مختلفاً عن الذوبان فيه. ونرجو لاحتفالية الجزائر أن تقدم النموذج الذي تفيد منه الثقافة العربية في كل عواصمها، وندعو الإعلام العربي إلى دعم هذه الاحتفالية ومواكبة برامجها، فقد قصَّر الإعلام العربي كثيراً تجاه حلب عاصمة الثقافة الإسلامية هذا العام. وهذا عتب أخوي أضعه أمام زملائي من الإعلاميين العرب الذين لم يولوا احتفاليتنا في حلب ما كان ينبغي لها من الاهتمام الإعلامي، مع أن ما قدمته من برامج وأنشطة نوعية عالمية كان مادة ثرية جديرة بأن تسلط عليها أضواء الإعلام العربي والإسلامي".

٢٠٠٧/١/١٩

بحر من الدماء

تزعم بعض الأرقام الرسمية أن عدد الذين قتلوا من العراقيين منذ بدء الاحتلال الأميركي للعراق إلى اليوم لا يتجاوز حتى الآن ثمانمائة ألف عراقي، وأن عدد القتلى الأميركيين لا يتجاوز ثلاثة آلاف، لكن العراقيين الهاربين من بحر الدم في العراق يؤكدون أن عدد الذين قضوا بسبب الاحتلال الأميركي منذ بدئه إلى الآن يزيد على مليوني ضحية، وأن الأرقام التي تعلن لا تمثل إلا نسبة ضئيلة من الرقم الحقيقي، حيث ما تزال تكتشف جثث بالآلاف بلا هوية كما تقول التقارير الأميركية ذاتها. والأمر كذلك بالنسبة إلى عدد القتلى الأميركان، فهم يعلنون رقماً يدور حول الثلاثة آلاف، لكن المراقبين يؤكدون أن العدد الحقيقي يزيد على عشرة آلاف، وأكثر هؤلاء الذين لا تذكرهم تقارير القيادة هم من المرتزقة. وتذكرنا التقارير العسكرية الأميركية ذاتها بأن القيادة الأميركية أيام الحرب على فيتنام كانت تعلن للجمهور رقماً لعدد القتلى كانت الحقيقة ضعفه عشرين مرة، كما جاء في تقرير جمعية المحاربين القدماء الأميركية مؤخراً. وأما عدد المهجَّرين الذي أعلن أنه لا يتجاوز أربعمائة ألف مهاجر، فتنفيه حقيقة رقم المهجَّرين الموجودين في سوريا وحدها، والذين ترحب سوريا بأن تكون ملاذهم ومكان أمنهم وطمأنينتهم، ولكننا ننتظر عودتهم إلى وطنهم سريعاً كيلا تجد سياسة تفريغ العراق من أهله نجاحاً تفرضه ظروف العنف والقتل المريعة التي يتعرض لها أهلنا العراقيون.

ولقد كان إعلان الرئيس بوش عن الحل الذي أشاد به بعض حلفائه في العالم أمراً مريباً، فبدلاً من أن يصغي الرئيس وأنصاره لانتقادات أكثر من ثلثي شعبه الذين يعارضون استمرار الاحتلال للعراق، أعلن عن زيادة عدد القوات، وتجاهل الحلول السياسية التي ذكرته بها بدبلوماسية رفيعة عبر تصريحات مسؤولين أوروبيين كبار دعوا إلى استبعاد الحلول العسكرية والتوجه نحو الحلول السياسية. ولئن كان بعض المحللين السياسيين يريدون إيهام العرب بأن الصراع الدائر في العراق هو حرب أهلية بين شيعة وسُنة، فإن السؤال الذي يتجاهلون طرحه هو من المسؤول عن تفجير هذه النزاعات، وافتعال هذا الصراع بين أبناء الشعب الواحد الذي عاش قروناً في سلام ووئام، تجده في البيت الواحد حيث الزوج سُني والزوجة شيعية أو العكس، دون أن يعني الاختلاف المذهبي شيئاً، فالجميع مسلمون. بل إن الأمر يتعدى المسلمين إلى أديان أخرى فكم من أسرة قامت على تفاهم ووفاق والزوجة فيها مسيحية أو يهودية دون أن يعني ذلك شيئاً منكراً للأسرة أو للمجتمع. فما الذي حدث حتى انقسم المجتمع إلى سُني وشيعي وكردي ومسيحي؟ الجواب باختصار، إنه الاحتلال الذي يطبق سياسته الشهيرة (فرِّق تسدْ)، وتكفيه التفرقة بين أبناء الشعب عبء أن يقوم هو بتدمير المجتمع. بل إن هذه التفرقة

تجعله يتحول إلى حكَم بين المتحاربين، وأقل ما يمكن أن يكون دوره هو التفرج على الشعب وهو يقتل نفسه بنفسه، ويعطي الاحتلال فرصة تحقيق أهدافه في السيطرة الكاملة دون أن يخوض حروباً ويعرض قواته للقتل. إن ذلك لا يغيب عن الشعب العراقي، ولكن القتل يستدعي القتل، وحين تنفجر القنابل يختفي صوت العقل، وتدور الصراعات بين فعل ورد فعل، وهذه السياسة ذاتها هي ما تريد إسرائيل وحلفاؤها تطبيقه في فلسطين ولبنان. فقد عجزت إسرائيل عن إلحاق هزيمة بالمقاومة اللبنانية بل إن المقاومة هزمت إسرائيل هزيمة قادت حكام إسرائيل إلى الاستقالات وستقودهم إلى المحاكم، لكن إسرائيل سرعان ما اتجهت إلى السياسة التقليدية التاريخية الناجعة في إثارة الفتن بين أبناء الشعب الواحد. الأمر ذاته في فلسطين، فكم هو مريح لإسرائيل أن يكفيها المتصارعون عبء القتال، وأن يقتل بعضهم بعضاً، فتتخلص من عدوها التاريخي "فتح" ومن عدوها الصاعد "حماس". إنه حدث مهم لإسرائيل أن تأخذ دور المتفرج، ولئن كان هناك من يستنكر ربط ما يحدث من فتن وحروب أهلية بدوافع أميركية أو إسرائيلية رافضاً نظرية المؤامرة، محملاً الأطراف وحدها مسؤولية ما يحدث، فإن الأمر إذن أشد هولاً إذا كان العرب أنفسهم يمنحون عدوهم فرصاً تفوق أحلامه، حين يدمرون قواهم بأيديهم.

والأمر المحزن أن تجد استراتيجية الرئيس بوش بعض الترحيب العربي، ولاسيما فيما يتعلق بالموقف الأميركي من إيران، حيث تريد الولايات المتحدة إقناع العرب بأن إيران هي العدو لهم وليس إسرائيل، وتريد دفعهم إلى حرب جديدة مع إيران تكون بلادنا العربية ساحتها، وبخاصة في العراق والخليج العربي ولبنان. والأوْلى أن يتوجه العرب إلى تفاهم مع إيران بدل أن تجرهم الولايات المتحدة إلى حروب معها، لأن الولايات المتحدة سترحل ذات يوم من منطقتنا، لكن إيران باقية لأنها جارة قريبة لنا، وتربطنا بها روابط تاريخية ودينية وثقافية واقتصادية واجتماعية. وما مصلحة العرب كي يقاتلوا بالنيابة عن إسرائيل المذعورة من الملف النووي الإيراني، إلى درجة أن قيادتها العسكرية تدرس شن حرب خاطفة على إيران على نحو ما فعلت حين دمرت مفاعل تموز في العراق، وقادة الحروب في الولايات المتحدة يتوعدون إيران مثلما يتوعدون كوريا الشمالية، وهم في إيران يدركون مخاطر الحرب لكنهم يعرفون أن العرب هم الذين سيدفعون الثمن الأكبر، ولو أنهم لجأوا إلى الحلول السياسية لجنبوا البشرية أخطار الحروب. لقد دعوناهم مرات إلى إعلان الشرق الأوسط منطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل، لكنهم يبيحون لإسرائيل أن تكون دولة نووية قادرة على تهديد العالم، وليس جيرانها فحسب، ويرفضون أن يتسلح الآخرون، مع أن الدوافع الكبرى لسباق التسلح لدى البلدان هي الخوف من العدوان، وأما ما يقال عن التدخل الإيراني في العراق، فسببه التراجع العربي الذي أحدث فراغاً كان طبيعياً أن تملأه إيران.

إن على العرب أن يربطوا استراتيجياتهم مع الدول المجاورة الكبيرة المستقرة في المنطقة، مثل تركيا وإيران، فهذان البلدان يشكلان مع العرب قوة إقليمية تربطها مصالح حقيقية مستقبلية وليس مصالح آنية، ويفترض أن تشكل الثقافة المشتركة والتاريخ المتماهي عامل قوة وليس عامل ضعف، ولا يعني هذا التوجه عداء نحو أحد في العالم، فنحن في سوريا مثلاً نريد علاقات متميزة مع كل من تركيا وإيران، وبالطبع فإن كل العلاقات التي نقوم بتمتينها مع دول شتى في العالم تصب في صالح الأمة العربية. ولا يمكن أن تقيم سوريا علاقات مع أي بلد تتعارض مع المصلحة العليا للأمة العربية. ولقد بات مقلقاً أن يجد العرب أنفسهم في بحيرة دم. وحسب المرء أن يتابع نشرة واحدة من نشرات الأخبار العربية كي يدرك حجم الخطر الذي يحيط بنا من كل صوب، وإن لم تستنفر الأمة قواها لإطفاء الحرائق وإيقاف شلال الدم فإنها مهددة بأن تغرق في بحر من الدماء.

٢٠٠٧/٢/٢

الحوار العربي ـ الإيراني

كانت مناسبة طيبة أن نقيم في أصفهان مطلع فبراير الحالي أسبوعاً ثقافياً حلبياً لكون حلب وأصفهان عاصمتي ثقافة إسلامية في عام ٢٠٠٦، ولست هنا في معرض الحديث عن الأهمية الثقافية العربية والإسلامية لهذا التواصل فله موضع آخر، فما يعنيني هنا هو الجانب السياسي من اللقاء مع الأصدقاء الإيرانيين الذين أفادوا من وجودنا معهم فعقدوا ندوة بعنوان "الحوار العربي ـ الإيراني" أقيمت برعاية الرابطة الثقافية الإسلامية في طهران وحضرها عدد من كبار المثقفين الإيرانيين والعرب الذين طرحوا أهم القضايا الراهنة بين الأمتين بشفافية وصراحة. وكان مما جعل الحوار ثرياً حضور أطياف دينية وسياسية ذات صلة بالقرار السياسي. وليس سراً أن الصراع المفتعل بين السُّنة والشيعة، يفرض نفسه في هذه المرحلة بالذات على كل حوار، وكان ضرورياً أن يسارع المعنيون بالثقافة إلى دراسة الوقائع لإيجاد العلاج ودرء الفتنة وإيقافها. وفي لقائي مع هاشمي رفسنجاني عرضت أهمية إعلان عن المشترك بين المذاهب، لنطمئن المسلمين جميعاً إلى أن ساحة المشترك أوسع بكثير من مساحة المختلف حوله. وقد ذكر لي سماحته أن هذا الأمر موضع اهتمامه، وأن علماء مسلمين (ذكر من بعض أسمائهم يوسف القرضاوي، معنيون بهذا الأمر) وقد سررت للمسارعة في إجراء حوار على قناة "الجزيرة" بين رفسنجاني والقرضاوي، ومهما تكن نتائج هذا الحوار محدودة على الصعيد التطبيقي في نظر عدد من المتابعين فإن أهميته تأتي من المكاشفة والمصارحة والصدق في التعبير عن المكنون.

وقد سررت كذلك لاتفاق الشيخين على ضرورة التأكيد على وحدة العراق وانتماء أبنائه إليه بصفته وطناً للجميع، وجعل الإسلام فوق المذاهب والأمة فوق الأعراق، وكنت في الحوار الذي عقدناه في طهران قد وجدت ذات التوجه عند المشاركين. وقد ذكرت لعدد من كبار المسؤولين أهمية أن يستمر الحوار بين العرب وجيرانهم وشركائهم الإيرانيين، وأن يتجه الحوار إلى أهلنا في الخليج بخاصة، فبعضهم يشعر بالقلق من تعاظم قوة إيران العسكرية، وفيهم من يخشى فكرة تصدير الثورة الإيرانية أو التبشير المذهبي بها. وقد استجاب المثقفون الإيرانيون إلى ضرورة استمرار الحوار كيلا يتكرر الخطأ الجسيم الذي وقعت فيه الأمة الإسلامية في فخ الاستعداء، وكنت أؤكد أنني لا أتحدث باسم سوريا في هذا المعرض، وإنما أنقل وجهة نظر بعض المثقفين العرب. فنحن في سوريا لا نجد مع إيران ما يدعونا إلى الشعور بضرورة الحوار، لأن العلاقات السورية ـ الإيرانية وصلت إلى حد متميز في التعاون من أجل مصلحة الشعبين والأمتين، ومن أجل أمن منطقتنا الإسلامية كلها. لكننا لا ننسى أن ثمة

مشكلات عالقة بين العرب والإيرانيين يمكن أن ينفذ منها الخلاف، مثل مشكلة الجزر الإماراتية التي تحتاج إلى نقاش وحوار وحلول قانونية عادلة. وقد قال لي أحد أصدقائي من الخليج إن علاقاتنا التاريخية مع إيران أقوى وأشد من علاقتها مع أي بلد آخر، بل إن ميزان التبادل التجاري بيننا وإيران هو أعلى بكثير مما هو بين سوريا وإيران، لكن الإيرانيين لا يكلموننا بشفافية. ولم أخف عن أصدقائي الإيرانيين خطر ما تقدم عليه الولايات المتحدة من إيهام بأن العدو الحقيقي للأمة العربية هو في الشرق وبالتحديد في إيران الشيعية، كي تصرف أنظارهم عن العدو الحقيقي في إسرائيل. وغير بعيد أن تجد مثل هذه الدعوة أنصاراً لها في وسط من فقدوا الأمل بوجود أمن قومي عربي، وهم يدركون ذلك ويعرفون أن الصهاينة لا يؤمن جانبهم.

إن ما نسعى إليه هو درء الفتنة المفتعلة بين السُّنة والشيعة، فقد بدا مريباً أن يتذكر الشيعي أنه شيعي بعد أربعة عشر قرناً، أو أن يتذكر السُّني أنه سُني بعد هذه القرون الطويلة من التعايش والتفاهم والتمازج الاجتماعي، حيث نجد في الأسرة الواحدة أباً سُنياً وزوجة شيعية، وكذلك العكس، ونجد الامتزاج ذاته في القبيلة الواحدة، مما يدعونا إلى الشك في حقيقة ما يحدث في العراق، وإلى الريبة بأن الاعتداءات التي حصلت على مساجد الشيعة ومساجد أهل السُّنة إنما قام بها عملاء مأجورون يدفعهم الصهاينة على الطرفين لإحداث الفتنة وجر العامة إلى الاقتتال. ونحن لا ننسى حادثة البريطانيين اللذين اعتقلا وهما بملابس شعبية عراقية بعد أن نفذا جرائم إرهابية، فقامت قوى الاحتلال باقتحام السجن وأفرجت عنهما. وكذلك نذكر النساء الست الأميركيات اللواتي وجدن بملابس العراقيات وهن مسلحات. ومثل هذا كثير مما يحدثنا عنه أهلنا العراقيون الهاربون إلينا من جحيم الاحتلال. إننا مطالبون بنشر الوعي في الأوساط الشعبية، وبالبراءة ممن يرتكبون الجرائم ممن يسميهم الأميركان "القاعدة"، ومن الجهال والغوغاء الذين يرتبكون جرائم باسم الشيعة، كما نبرأ من فتاوى التكفير، ونطالب بالكف عن استخدام ألفاظ وأقاصيص تثير مواجع الخلافات التاريخية، كيلا يجرنا أعداء الأمة إلى الفتنة التي يشعلونها بين السُّنة والشيعة في العراق، وبين الطوائف والمذاهب جميعاً في لبنان. والمفارقة أن أعداءنا حين لم يجدوا مذهبية تفرق المجتمع الفلسطيني قاموا بتفجير الصراعات بين "فتح" و"حماس" مع أنهما فصيلان من فصائل المقاومة، ونحمد الله أن قادة فلسطين من الجانبين تمسكوا بالعقلانية والحكمة التي تحمي شعب فلسطين من خطر الوقوع في جحيم حرب أهلية تخطط إسرائيل لإيقاعهم فيها .

وعلينا أن ننبه إلى أن افتعال الفتنة بين الشيعة والسُّنة في الوقت الذي تهدد فيه الولايات المتحدة إيران، لا يبعد أن يكون نوعاً من التعبئة النفسية للسُّنة كي يساندوا الولايات المتحدة في حربها المحتملة ضد الشيعة في إيران، ولهذا ذكّر القرضاوي بموقف المسلمين جميعاً حين

انتصروا لـ"حزب الله" دون النظر إلى الخلافات المذهبية حين شنت إسرائيل حربها على المقاومة في لبنان. وبالعودة إلى الحوار العربي ـ الإيراني أؤكد أنني وجدت أصدقاءنا الإيرانيين منفتحين على الحوار مع العرب عامة، ومع أهل السُّنة بخاصة، وأنا أدعو إلى هذا الحوار من منطلق عروبي، آملاً أن تكون سوريا جسر تواصل ومحبة وتفاهم بين العرب وإيران كيلا تقع فتن جديدة، وحسبنا ما وقعت فيه الأمتان من كوارث وفواجع في الثمانينيات. ولقد حذرت في مقالة سابقة في هذه الصفحة من خطر صفِّين جديدة، ومن بحر الدماء الذي يحيط بنا ويكاد يغرقنا من كل صوب .

إن علينا في أقطارنا العربية أن نؤكد على الانتماء الوطني أولاً، وعلى الانتماء العربي بمعناه الحضاري والثقافي الواسع الطيف، وقد عشنا في رحابته قروناً، ولم يسمح آباؤنا وأجدادنا أن تمزق أمتهم المذاهب والأعراق وفواجع التاريخ.

٢٠٠٧/٢/١٦

خطوة في الاتجاه الصحيح

حين تتقدم الولايات المتحدة خطوة واحدة في الاتجاه الصحيح يشعر العالم كلـه بالارتيـاح، وتبدو الخطوة الراهنة في توجه الولايات المتحدة إلى التباحث حول العراق مع سـوريا وإيـران بالإضافة إلى دول الجوار والدول الخمس دائمة العضوية في مجلس الأمن توجهاً مرحباً به لـدى كل الساسة والمراقبين وفي منطقتنا بخاصة على الرغم من بعض التصريحات الأميركيـة التـي حاولت أن تحد من تفسير الخطوة، وأن تميزها عن سمة المفاوضات، مما يوحي بنوع من التردد الأميركي في اتخاذ القرار الذي فسره المراقبون بأنه انعطاف مهم في سياسة الولايات المتحدة. ولم يكن مفاجئاً أن يرحب بهذه الخطوة جيمس بيكر (وأن يطلب المزيد) لأن تقريره ــ مع هاملتون ــ نصح بالتوجه نحو الحوار الذي بات المخرج الوحيد من الأزمات المعقدة التي تتجه بالعـالم نحـو حرب عالمية مدمرة. وقد جربت الولايات المتحدة نهج الحروب والتدمير فلم تحقق غير الكراهيـة لسياساتها وبات وجهها الحضاري الذي أحبته الشعوب مطلع القرن العشرين وجهـاً بشـعاً يثيـر الخوف من جنون القوة ومن حماقة صناع الحروب، وقد آن أن يتقدم العقل والمنطق بعد أن أشبع عشاق الدم شهواتهم للخوض في دماء الأطفال والشيوخ والنساء من المسلمين والعرب بخاصـة، فضلاً عن قتل الشباب وتدمير مستقبلهم وأوطانهم، وملء قلوبهم بالحقد والبغض والرغبة في العنف والانتقام.

ولقد آن أن يدرك صناع القرار في الولايات المتحدة أن شـعوب المنطقـة لا تقـاد بـالقوة العسكرية مهما كانت عنيفة ومدمرة وطاغية، وحسبهم أن يقوّموا نتائج حربهم على العراق، ونتائج سياسة العنف والإرهاب التي تنتهجها إسرائيل ضد الشعب الفلسطيني، ونتائج حربها العدوانية على لبنان التي لم تحقق من أهدافها سوى التدمير، وقد قام بهذا التقويم عـدد كبيـر مـن السياسـيين والمفكرين الأميركان وأعلنوا رفضهم لهذه السياسة التي وسعت دائرة الإرهاب بدل أن تكافحـه، وأفقدت الشعوب أمنها واستقرارها بدل أن تعزز الأمن والاستقرار، وقدمت أسوأ النماذج لما سمته الديمقراطية، بل وضعت الولايات المتحدة في موقف محرج ومخجل تاريخياً، حين رفضت نتـائج الديمقراطية التي أشرفت هي بنفسها على مصداقيتها في فلسطين، لمجرد أنها لا ترضي إسرائيل. ونحن في ترحيبنا بالخطوة الصحيحة نود أن تتشجع الولايات المتحـدة، وأن تعيـد النظـر فـي سياساتها، وألا يخجل قادتها من الاعتراف، ولو أمام أنفسهم، بأن نهج الوعيـد والتهديـد وشـن الحروب لم يجلب سوى الفوضى التي أتاحت للإرهاب أن يجد أرضاً خصبة له، وأن يجد مبررات فكرية يدعمها التطرف الذي بات ردة فعل يصعب كبحها في مناخ القتل الجماعي اليومي الذي بات خبراً مفجعاً يتدفق كل لحظة عبر وسائل الإعلام التي تكاد تنقل رائحة الدم الذي صار أنهاراً .

وعلى الرغم من تفاؤلي بالخطوة الصحيحة فإنني أخشى أن تسارع إسرائيل إلى عرقلتها، وإلى وضع العقبات أمام الرغبة الدولية في تطور المباحثات المحدودة إلى حوار شامل يتناول كل المشكلات ويبحث لها عن حلول عادلة وقابلة للحياة والاستمرار. فإسرائيل تريد أن تبقى الولايات المتحدة غارقة في بحر الدم، كي تستمر في ابتزازها سياسياً وعسكرياً ومادياً، ولم يعد يخفى على أي مواطن أميركي أن بلاده تخوض حروب إسرائيل، وأنها لا تحقق أية مصلحة خاصة لأميركا التي بوسعها أن تحقق مصالحها بالدبلوماسية وبتبادل المصالح مع دول وشعوب المنطقة، ولا أحد سيرفض التعاون معها ما دام يجد مصلحته فيه، ولكنني مع هذا الحذر أشعر بأن دواعي التفاؤل بنتائج إيجابية للقاء المرتقب أكبر بكثير من الحذر والشك بجدوى التفاؤل .

ونحن في سوريا نشعر بطمأنينة كبيرة على الرغم من التكهنات التي تطلقها بعض وسائل الإعلام التي تحذر من وجود خطة أميركية لضرب سوريا في الصيف القادم، وهذه التكهنات تتكئ على بعض التصريحات الإسرائيلية وتستنتج أن إسرائيل تستعد لحرب في الصيف القادم تستعيد عبرها هيبتها ومكانتها العسكرية في المنطقة بعد أن خسرتهما في حرب الصيف الماضي على لبنان. بل إن بعض المقالات في وسائل الإعلام تحذر سوريا من أن يكون التهديد المعلن لإيران، بينما خطة الحرب تطبخ ضد سوريا. وعلى صعيد تحليل سياسي لا أجد مبرراً موضوعياً لهذه التحليلات، وأستبعد أن تغامر إسرائيل بحرب، كما أستبعد في الوقت ذاته أن تمضي نحو مفاوضات السلام، لأن إسرائيل تعيش أزمة غير مسبوقة في تاريخها على الرغم من كونه صغيراً ومحدوداً، فقد أدركت بعد تجربة الوعد الصادق أن عصر الحروب دون خسائر ضخمة قد انتهى، وهي في ذات الوقت لم تنضج سياسياً وفكرياً لقبول العيش بسلام مع العرب وللتنازل عن المشاريع التوراتية التي يؤكد تعلقها بها تعلقاً إيديولوجياً ما تفعله من تدمير للمسجد الأقصى، وما تقوم به من حصار ظالم للشعب الفلسطيني فضلاً عن سلسلة الهجمات والاعتقالات اليومية في كل أنحاء فلسطين.

وتدرك إسرائيل أن ما كانت تظنه من قدرتها على عزل سوريا دولياً بات وهماً، فقد أثبتت سوريا للمجتمع الدولي أنها ذات دور فاعل لا يمكن تجاهله، وأن من كان يفكر بعزلها وجد نفسه هو المعزول، وسر نجاح سوريا في تحقيق علاقات دولية ذات شأن هو مصداقيتها في مواقفها ووضوح سياستها وإصرارها على أهداف تؤيدها الشرعية الدولية، وإعلانها المستمر بأنها تريد حلولاً سلمية شاملة وعادلة للصراعات والمشكلات القائمة في المنطقة وفق قرارات الأمم المتحدة، ووفق ما بنيت عليه مفاوضات السلام في مدريد.

ولئن كنتُ أتوجس من حماقة صناع قرار الحرب وإصرارهم على إغراق المنطقة بالدم، فإنني أخشى أن تصر إسرائيل على حرب ضد إيران، وهذا ما تشي به خطة إسرائيل والولايات المتحدة من خلال التحريض اليومي على توصيف المنطقة بأنها دول سُنية وأخرى شيعية، ومن خلال إثارة

الفتن عبر الجرائم التي يرتكبها عملاء الموساد في العراق، وهي جرائم تستدعي ردود فعل من ذات السمة، وهدفها الحصول على تأييد لحرب ضد إيران، وهذا ما لا يمكن أن يحدث، لأن المسلمين قد يتصارعون فيما بينهم، ولكنهم يتحدون ضد العدو الخارجي. وعلى إسرائيل أن تقرأ موقف المسلمين من حربها على "حزب الله" الذي يحظى بتأييد إسلامي دون النظر إلى المذهب الديني، وهذا ما يعني أن أي حرب على إيران ستكون حرباً على المسلمين جميعاً .

ولست متشائماً في الاحتمالات حول إيران، لأنني أعرف عن قوة إيران واستعدادها لأية مواجهة محتملة ما يدعوني إلى أن أطمئن على النتائج، لكنني أدعو الله أن يجنب بلادنا جميعاً شر الحروب والدمار، لأن ساحة الحرب إن حدثت لن تقتصر على إيران بل ستكون حرباً بلا حدود. ويبدو أن الاحتمالات الإعلامية حول الحرب في الصيف القادم ستشهد تغيراً إيجابياً إذا نجحت الخطوة الصحيحة التي ستخطوها الولايات المتحدة في اللقاء القادم حول العراق، ونرجو أن يجد المحاورون من الولايات المتحدة ما يدعوهم إلى اعتماد لغة الحوار بديلاً عن لغة الدمار.

٢٢٠٧/٢/١٦

احياء التضامن العربي

يبدو مفجعاً أن يبحث بعض المثقفين العرب عن هوية ويتجاهلون أن العروبة هي الأساس المتين الذي يكوّن حضورهم التاريخي والحضاري ويحدد خصوصياتهم الثقافية عبر اللسان الذي ينتمون إليه، وهو الحامل الفكري الذي يشكل الوجدان الجمعي.

ولا تعارض على الإطلاق بين هوية العروبة، وبين الهوية الإسلامية التي تجمعهم مع بقية الأمم والشعوب التي اعتنقت الإسلام. ولا إنكار البتة لكون الإسلام هو الذي مكّن العروبة من البقاء والانتشار والحضور القوي بين الأمم، فقد كرم الله هذه الأمة حين جعل القرآن عربي اللسان. ونحن لا نكتشف جديداً، فقد استمر حضور هذه الأمة عربياً على مدى القرون من قبل عصر ظهور الإسلام الذي أكد على عروبتها، وقد تماهت العروبة مع الإسلام وباتا معاً يشكلان الجسد والروح لحياة الأمة، ولم يعد ممكناً فصل أحدهما عن الآخر. وها هي ذي الأيام تثبت فشل كل النظريات والأفكار التي حاولت الفصل بينهما، ولم تنجح دعوات الأممية في مختلف الدعوات الفكرية، فقد فشلت في التجربة الشيوعية، وكشف انفراط عقد الاتحاد السوفييتي عن قوة تمسك الشعوب بقومياتها ولغاتها ولهجاتها وثقافاتها المحلية .

وكانت الدعوة الإسلامية أسبق الدعوات إلى الأممية ولكنها كانت تدعو إلى عقد إسلامي بين الأمم يحافظ على الخصوصيات الثقافية والانتماءات القومية، وقد بقي العربي عربياً والفارسي فارسياً على الرغم من كونهما ينتميان إلى أمة إسلامية واحدة. وحين انحرفت التجربة عن التوازن ظهرت النزعات الشعوبية، وكان لها دور في انفراط عقد الدولة الإسلامية . وهذا ما حدث كذلك حين اختل التوازن بين العرب والأتراك في أواخر عهد الدولة العثمانية الإسلامية، فانفرط عقدها وظهر التمسك بالقوميات راسخاً في وجدان الشعوب .

وقد يرتاب في الدعوة إلى إحياء مفهوم العروبة مواطنون من غير العرب، وهذا ما يدعونا إلى التوضيح دائماً، بأن الدعوة إلى العروبة هي دعوة انتماء حضاري وثقافي وليست دعوة عرق ونسب. وهي لا تعني أي إنكار للخصوصيات العرقية للمواطنين من غير العرب، فمن حقهم الاحتفاظ بانتسابهم العرقي. وتبدو العودة ضرورية إلى ساحات الدوائر الثلاث التي أعلنها الفكر القومي في دولة الوحدة السورية ــ المصرية حيث قدمت ثلاثة مستويات للانتماءات، هي الدائرة الوطنية التي يلتقي فيها كل أبناء الوطن، دون النظر إلى أديانهم وأعراقهم، والدائرة الثانية هي الانتماء إلى الأمة العربية، دون النظر إلى العقائد الدينية، فحرية الاعتقاد متاحة للجميع و(لا إكراه في الدين)، وهذه الدائرة تجمع العرب مسلمين ومسيحيين عبر

انتمائهم إلى أمة واحدة، والدائرة الثالثة هي الانتماء إلى الأمة الإسلامية، وهذا الانتماء مفتوح للمسيحية العربية ولليهود ولكل من ساهم في بناء الحضارة الإسلامية دون النظر إلى انتمائه العقائدي. وقد نجحت الحضارة الإسلامية في تحقيق هذا الانتماء الفسيح عبر تجربتها في الدولة الأموية، وكان من مثقفيها الكبار مسيحيون نعتز بإنجازهم الحضاري الإسلامي وبدورهم في الترجمة من علوم الأمم، ومن أبرزهم علماء مدرسة الإسكندرية الذين استعان بهم خالد بن يزيد في ترجمة علوم اليونان. كما كان فيها يهود أسهموا في عمل الدولة، وقد نمت التجربة واتسعت في الدولة العباسية، وكان إنجازها الحضاري مشتركاً عاماً بين كل الأمم المسلمة وكل أتباع الديانات من مواطنيها. ولنا أن نتذكر دور المجوس أمثال ثابت بن قرة والبتاني في "دار الحكمة" في بغداد، وهما من كبار علماء الحضارة الإسلامية، وقد وصلت هذه التجربة إلى ذروتها في الأندلس وكان لليهود رغم قلة عددهم فيها بالقياس إلى المسلمين والمسيحيين دور متاح ومحترم .

إننا نذكر بأهمية إحياء دور الانتماء العربي ونحن على بوابة قمة عربية ستبحث إعادة إحياء وبناء التضامن العربي الذي لا بديل للأمة عنه، وقد مزقتها الاختلافات وكثر الطامعون بها والساعون إلى تفرقيها وإنهاكها. وحسبنا ما حدث في العراق حيث أثارت الصهيونية فتناً طائفية لم تكن مطروحة أمام الفكر العربي، بهدف تمزيق وحدة العراق. وأنا واثق من أن كل الاعتداءات على المساجد والمقامات والأضرحة وعلى كل الرموز والقيم الخاصة بتكوينات المجتمع العراقي حدثت بدفع وتآمر صهيوني، والدليل أن الشعب العراقي لم تمزقه قط هذه الخصوصيات العرقية أو المذهبية أو الطائفية. وقد عاش المجتمع العراقي قروناً في تآلف وانسجام واندماج واحترام لكل قيم المجتمع وكل مكوناته العرقية والدينية، وهذا ما يدعونا إلى السؤال علامَ أثيرت هذه الفتن بين سُنة وشيعة وبين عرب وأكراد بعد قدوم الاحتلال؟

ويبدو أن عقلاء الولايات المتحدة ودول التحالف أدركوا خطر إشاعة الفوضى في منطقتنا لأنها باتت تهدد العالم كله، وقد منحت هذه الفوضى خلايا الإرهاب فرصاً لمزيد من الإجرام. وبدأ التنادي الدولي إلى إعادة النظر في جدوى تمزيق العراق إلى شيع وفرق وميليشيات، وتأثير ذلك على الأمن والاستقرار في المنطقة كلها، فكان مؤتمر دول الجوار بداية نتفاعل بها نحو مزيد من الحوار لحل المشكلات التي باتت تقلق العالم كله، وتهدده بأزمات قد تصل إلى حروب عالمية.

لقد رحبنا بالحوار مع الولايات المتحدة على محدوديته، ونرجو أن يستمر هذا الحوار وأن يشمل كل القضايا المصيرية، وقد تفاعلنا خيراً بما تناقلته الأنباء عن استعداد الولايات المتحدة

لجدولة الانسحاب من العراق، وإعادة النظر في سياسة أميركا في المنطقة، متفائلين كذلك بأن يكف دعاة الحروب عن التهديد والوعيد لشعوب المنطقة ودولها، وحسبهم ما لقيت سياسة الحروب من إخفاق في تحقيق أهدافها، حيث لم يتحقق غير سيل من الجرائم، وطوفان من الدم الذي أغرقت به المنطقة .وغير افتعال للحروب الباردة بين الغرب والإسلام في الوقت الذي نراه متاحاً لمزيد من التفاهم والتعايش بين الشعوب والأديان إذا ما كفت الصهيونية عن إثارة الفتن .

إن التأكيد على مفهوم المواطنة أولاً سيحقق للعراق فرصة إعادة اللحمة الاجتماعية، وهي بوابة الحلول لكل المشكلات، وهي التي بوسعها أن تؤسس للمصالحة الوطنية بعد أن غرق العراق في بحر من الدماء .

كما أن تأكيد عروبة العراق وانتمائه إلى الأمة العربية دون أن يعني ذلك انتقاصاً من انتماء بعض المواطنين إلى أنساب وأعراق أخرى غير العرب، هو بوابة الاستقرار، ما دام الانتماء إلى العربية انتماء ثقافة وحضارة، شارك فيها الأكراد والأتراك والتركمان والشراكسة والسريان وكل الشعوب التي رغبت أن تعيش مع العرب منذ قرون. كما أن تأكيد انتماء العراق إلى الأمة الإسلامية سيكون جامعاً يمنع الفتن والاختلافات المذهبية، لأن المرجعية الإسلامية الدينية الإسلامية تعترف بكل المذاهب الإسلامية التي تنهل من القرآن الكريم ومما جاء به الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم .

إننا نأمل أن تنجح القمة القادمة في إحياء تضامن عربي متين، تستعيد الأمة من خلاله قوتها وحضورها، وتستعيد احترام المجتمع الدولي الذي يرانا أمة عربية منذ قرون. وعلينا التنبّه إلى خطر أبعاد تسمية منطقتنا بـ"الشرق الأوسط "تلك التسمية التي أطلقها شيمون بيريز، فلن ننكر أصلنا العربي، وكون بلادنا من المغرب إلى سلطنة عُمان بلاداً عربية خالصة على مر عصور التاريخ ولن ننتمي إلى الجغرافيا الحديثة التي صنعها الاستعمار ناسين التاريخ والهوية التي نشرنا بها حضورنا في العالم، من أجل أن تجد الصهيونية لإسرائيل انتماء مفتعلاً إلى منطقتنا يطمس العروبة والإسلام عبر انتماء باهت غير ذي ملامح إلى ما يسمى "الشرق الأوسط ."

إن استخدام هذا التعبير ينبغي أن يكون ذا دلالة سياسية محدودة، دون أية دلالات فكرية تقارب الهوية العربية أو تحل بديلاً عنها .

٢٠٠٧/٣/٣٠

أفق ما بعد قمة الرياض

ثمة تفاؤل وارتياح كبيران بما أنجزته قمة الرياض التي انعقدت في أواخر آذار (مارس) ٢٠٠٧ وحسبها أنها جمعت الأشقاء وأعادت الدفء والصفاء إلى العلاقات العربية، وأكدت أن من يراهنون على الخلافات العربية يجهلون أن العرب أسرة واحدة سرعان ما يلتئم شملها حتى وإن بدت متفرقة الرؤى، لأن الخلافات التي تحدث أحياناً في وجهات النظر لا تصل إلى الجوهر الصلب الذي يجمع الأمة حول القضايا الرئيسة، ولا يبدل حقيقة كون الروابط التاريخية والقومية بل العائلية أقوى بكثير من المصالح المرحلية، لأن هذه الروابط العريقة تقوم على أسس قوية صاغها وجدان الشعب العربي. وهو يؤكد للعالم كل يوم أنه شعب واحد، تظهر متانة وحدته حين تشتد عليه المآسي، وقد قال شاعرنا عمر أبو ريشة أيام الانتداب الفرنسي على سوريا: (لمّت الآلام منا شملنا، ونمت ما بيننا من نسب). ولم تمر في تاريخ الأمة منذ زمن الحروب الصليبية مآسٍ وفواجع مثل التي مرت بها في السنوات السبع العجاف الماضية، فقد وجدت الأمة نفسها مستباحة الأرض والكرامة، تتعرض كل يوم للتهديد والوعيد، وقد بلغت الاستهانة بها إلى حد رسم خرائط تقسيم لها تداولها الإعلام الصهيوني، الذي روج على مدى السنوات الماضية لمشروع الشرق الأوسط الكبير، مقدماً العراق نموذجاً للتقسيم المقترح، حيث تقضي الخطة الافتراضية التي أوشكت أن تصير واقعاً، بأن يصير العراق ثلاث دول (شيعية وسُنية وكردية) وأن مشروعاً مماثلاً في التقسيم ينتظر بلاد الشام والسعودية، وأن مصر ستكون الجائزة الكبرى، إلى غير ذلك من التهويمات الجامحة عبر الحملات الإعلامية التي كانت تعبّر عن مدى الاستخفاف بالعرب جميعاً.

وقد واكب الحملة جهد ضخم بذله أنصار المشروع الصهيوني لإثارة الفتن الدينية والطائفية والعرقية تهيئة لمشروع التفتيت المقترح. وقد افتعل دعاة المشروع الصهيوني وجود مشكلات ضخمة تعاني منها الأقليات في الوطن العربي، ثم طبّلوا وزمروا للديمقراطية الأميركية المنقذة للعرب من الديكتاتورية والاستبداد، وطالبوا العرب بأن يعترفوا بأن دينهم الحنيف يحض على الإرهاب ويقدس العنف لمجرد أن هذا الدين العظيم يحض على رد العدوان وعدم الرضوخ للمعتدين. وروجوا أن التطرف الديني استلهام من أصل الإسلام وجذوره، متجاهلين كل الأدلة التي تؤكد أن الإرهابيين هم مجموعات من العملاء يتلقون تدريباتهم في إسرائيل وهم يتسترون بالدين كي يشوهوه ويقدموا صورة سوداء قاتمة له أمام العالم .

وقد ظهرت اعترافات صريحة من متورطين في تنظيمات إرهابية تحدثوا عن أنهم فوجئوا حين طلب إليهم أن يسافروا إلى إسرائيل لتلقي التدريب والعودة إلى العراق لارتكاب الجرائم ضد الشعب. ولم يقف دعاة المشروع الصهيوني عند حدود إثارة الفتن ونشر ثقافة التجهيل بالحقائق، بل دعوا وما يزالون يدعون إلى استئصال القوى الوطنية واجتثاثها، وهذا ما جربوه في لبنان ومن قبل في فلسطين، وجاءتهم النتيجة مذهلة في البلدين، حين وجدوا "حماس" تصل إلى سدة السلطة عبر ديمقراطية نزيهة راقبوها بأنفسهم، رغم كل ما تعرضت له "حماس" والشعب الفلسطيني كله من عمليات تدمير وقتل وإرهاب وأسر وحصار، ووجدوا أن "حزب الله" في لبنان أقوى من أن تتمكن إسرائيل من تصفيته وإبادته رغم أنها استخدمت أعتى ما لديها من قوة عسكرية. وأما سوريا فقد شنوا عليها حملات إعلامية ضخمة لتشويه صورتها أمام العالم، وفرضوا عليها العقوبات لأنها متمسكة بحقوقها وبحقوق الأمة العربية، وقد باتت سوريا تشكل عقبة في وجه رغبتهم بإجبار الأمة على قبول الاستسلام، لكن سوريا صمدت أمام كل الضغوط، وأثبتت مصداقيتها أمام الأسرة الدولية التي أعلنت أن سوريا جزء مهم من الحلول في المنطقة، وليست جزءاً من المشكلات فيها، وقد حرصت سوريا على أن تتمسك بالتضامن العربي، وألا تدع أحداً يحدث شرخاً بينها وبين شقيقاتها من الدول العربية. ولقد عبرت قمة الرياض عن قدرة العرب على اتخاذ موقف موحد، وعلى أن يكونوا هم أصحاب القرار في كل ما يتعلق بشؤونهم وبشؤون منطقتهم، وكان اللقاء حول نقاط التوافق وتجاوز نقاط الاختلاف، تعبيراً عن كون المتفق عليه أرحب وأوسع من الدوائر الضيقة التي يقع حولها الاختلاف، ونحن لا نجد في هذا الاختلاف عامل ضعف ما دامت الأهداف العامة جامعة حول المصلحة العليا للأمة .

ولقد كان انعقاد القمة في المملكة العربية السعودية بحد ذاته داعي تفاؤل، لما للمملكة من مكانة سامية في نفوس العرب جميعاً. ونحن في سوريا نكن أسمى وأعمق المشاعر الحميمة للمملكة، ونقدر مواقفها الداعمة لسوريا وحرصها الدائم على لمِّ الشمل العربي والإسلامي، ونعتقد أن اللقاء على أرض العروبة والإسلام يحمل دلالاته الواضحة، فلابد لهذه الأمة من أن تستمد حضورها من هويتها العربية والإسلامية، وأن تستلهم تاريخ نضالها الذي مكنها من الاستقلال ومن امتلاك سيادتها. ويؤكد هذا التاريخ أن الأمة لم تستطع قط أن تتحرر من الاعتداءات التي تعرضت لها إلا حين تمسكت بجذورها الحضارية وهويتها الثقافية، والتفت حول مقومات حضورها كأمة عريقة بين أمم العالم .

ولئن كان العرب قد اتفقوا في القمة على تفعيل المبادرة العربية للسلام، وعلـــى إقنـــاع الأسرة الدولية بأن هذه المبادرة هي الحل الأمثل لهذا الصراع التاريخي بـــين العـــرب وبـــين وإسرائيل، فإنني أرى من وجهة نظر شخصية أن الفضاء المفتوح أمام المبادرة يجب أن يكون له موعد تستجيب خلاله إسرائيل، لأن السنوات الدامية التي انقضت بعد قمة بيـــروت قـــدمت إجابة إسرائيلية عبرت عن استخفاف إسرائيل بدعوات السلام العربية، حيث أكدت إسرائيل أنها تفضل الحرب وترفض السلام، رغم وجود قوى عقلانية إسرائيلية تدعو إلى انتهـــاز الفرصـــة التاريخية التي يقدمها العرب لإسرائيل. وهذه القوى تدرك بوعي واقعي أن إسرائيل تمر بأزمة وجودية لا سابقة لها في تاريخها القصير جداً، ولاسيما بعد أن تعرضت في الصيف الماضـــي لامتحان خطير وإخفاق مرير حين فوجئت بأنها لم تعد تملك القدرة على هزيمة العرب، لأنهـــا باتت تواجه الشعوب، ولم يكن بوسعها أن تحقق أي هدف لها في الحرب الأخيرة علـــى لبنـــان غير تدمير وهدم منازل بسطاء وفقراء اللبنانيين وتشريدهم. وهذا ما يجب أن يـــدعو إســـرائيل اليوم إلى النظر بجدية إلى مبادرة السلام العربية، كذلك كان على الولايات المتحـــدة أن تعيـــد النظر في سياساتها وقد حذرها عقلاؤها من خطر استمرار تورطها في بحر الدم في العـــراق، ولم تكن أوروبا بعيدة عن الحاجة إلى إعادة النظر وإلى مراجعة مواقفها بعد أن مضت بعـــض دولها بعيداً خلف سياسات الولايات المتحدة التي أدخلتها في صراعات لم تكن أوروبـــا تحتـــاج إليها، مما جر عليها مشكلات لم تكن في حسبانها، وجعل حضورها في العالم العربي موضـــع شك وريبة من قبل الشعب العربي بعد سنوات طويلة من بناء الثقة، ومـــن ترســـيخ علاقـــات متوسطية تقوم على الشراكة والمصالح المشتركة .

إننا نتفاءل بما حققته القمة في الرياض، ونرجو أن يتجنب العرب ما قد تنصبه الصهيونية من فخاخ لاختراق تضامنهم، وأن تعمل الحكومات العربية جميعاً على تعزيز هذا التضامن من خلال التنسيق المستمر لتحقيق المصالح العليا للأمة.

٢٠٠٧/٤/١٦

أوروبا وامتحان مبادرة السلام

ثمة شعور عند عامة العرب أن أوروبا لا تملك سياسات أو رؤى خاصة بها نحو شـــرقنا العربي والإسلامي، بل إن مواقف أوروبية عديدة جعلت العلاقة بين العرب وأوروبـــا موضـــع ريبة .فحين تلبي قيادات مهمة في أوروبا دون تردد دعوة الولايات المتحدة إلى خوض حـــرب ضد العراق فإن ذلك يوحي باستعداد إيديولوجي وتعبوي لديها يدفعها لشن حرب على العرب، حتى وإن كانت تلك الحرب لمصلحة غيرها. وهذا ما يؤكده لدى العرب موقف أوروبا الرسمي الداعم لإسرائيل وحروبها ضد العرب منذ تأسيسها إلى اليوم رغم عدالة قضية فلسطين ورغـــم وجود أنصار كثر للفلسطينيين بين مثقفي الأوروبيين .

ومهما تكن المبررات التي تقدمها الولايات المتحدة وإسرائيل لسياساتهما المضادة لمصالح العرب والمسلمين فإنها ليست مبررات أوروبية، فلأوروبا علاقات تاريخية مديدة مع العـــرب، وروابط الجغرافيا التي تفرض مصالح مشتركة جعلت العرب ينسون بسرعة ما لحق بهم مـــن فواجع ومآسٍ على مر التاريخ بسبب الأطماع الأوروبية في بلادهم. فقد نسي العرب مســـلمين ومسيحيين أن بلادهم تعرضت لعشر حملات صليبية على مدى مائتي عام، قتـــل فيهـــا نحـــو عشرين مليون إنسان، ولم يكن العرب مسؤولين عن الرد العثماني في القرون الوســـطى .وقـــد تحالف العرب مع بريطانيا في مطلع القرن العشرين على أمل أن يبنوا علاقـــات وطيـــدة مـــع الغرب كله، لكنهم فوجئوا بأن أوروبا تمزق بلادهم في اتفاقية "سايكس ـــــ بيكـــو"، وتخطـــط لاحتلال بلادهم، وهكذا تقاسم البريطانيون والفرنسيون الوطن العربي، وأخذت إيطاليا حصـــتها آنذاك. وقد تمكن العرب من الحصول على الاستقلال وكانت المفارقة أن أول ما فعلـــوه هـــو توطيد العلاقة مع البلدان الأوروبية التي تحرروا منها أملاً في فتح صفحات جديدة في التاريخ. فقد عقدت مصر والعراق والسودان أفضل العلاقات مع بريطانيا، وعقدت سوريا ولبنان وتونس والجزائر والمغرب أفضل العلاقات مع فرنسا، رغم أن هاتين الدولتين همـــا اللتـــان وضـــعتا إسرائيل في قلب العالم العربي، بل شنتا مع إسرائيل حرباً على مصر عام ١٩٥٦. وفـــي كـــل مرة يتعرض فيها العرب لعدوان من إسرائيل تقف الدول الأوروبية الصديقة للعـــرب ضـــدهم متحالفة مع إسرائيل، وتعلن أن التزامها بمستقبل إسرائيل غير قابل للنقاش، ويدرك العـــرب أن أصدقاءهم الأوروبيين جاهزون لمساعدة إسرائيل ضدهم، وكأنه ليس في حســـاب أوروبـــا أي التزام أدبي بأمن جيرانها العرب.

إن تشخيص تاريخ العلاقة بين العرب وأوروبا يكشف عن ما يشبه الحالة المرضية المازوخية لدى العرب، حيث يبدون وكأنهم يحبون من يعذبهم ويمتهن كرامتهم .ولقد كانت المفارقة أن يتأثر بثقافة الغالب مثقفون عرب كبار باتوا يقولون وهم خارجون لتوهم من نير الاحتلال في القرن العشرين إن مستقبل بلادهم يقع في الضفة المقابلة من المتوسط، وإن سبيل التقدم هو التماهي مع النموذج الأوروبي. ونحن اليوم لا ننكر على هؤلاء المفكرين الكبار أن يتأثروا بالجوانب العلمية وبالتقدم الذي حققته أوروبا، ولكننا نستغرب أي شعور بالدونية أمام الثقافة الأوروبية. وإذا تذكرنا مقالات سلامة موسى وطه حسين وكثير ممن فتنتهم ثقافة أوروبا نجد نسياناً كاملاً لموقف الغرب من بلادهم، وعشقاً للغرب وإن كان من طرف واحد، وهو ما غفره كثير من العرب لمفكريهم المستغربين ووجدوا فيه رؤية موضوعية تنسجم مع روح التسامح الرحبة التي هي من صلب أخلاق العرب.

لقد وصف كثير من المؤرخين تاريخ العلاقة بين أوروبا والعرب بأنه تاريخ مواجهات فاشلة، ومحت الذاكرة العربية أو أوشكت أن تمحو المرادفات الأوروبية لكلمة مسلم وهي تاريخياً كلمات (همجي وقاسٍ ومتوحش) وهذه الصفات التي روَّجت لها الصهيونية عقوداً في الإعلام الغربي استهجنها الأوروبيون أنفسهم، وبدؤوا يعملون لرسم صورة جديدة غير متأثرة بثقافة القرون الوسطى التي روجت للحروب الصليبية. وأوشك المثقفون الأوروبيون أن ينجحوا مع أصدقائهم العرب بتكوين مفاهيم جديدة، عبرت عنها مواقف أوروبية ممتازة في استقبال المهاجرين العرب ومساعدة المسلمين في بناء مراكزهم ومساجدهم ومدارسهم، وبلغت هذه المفاهيم الصحيحة ذروة في مشاريع الشراكة العربية ــ الأوروبية التي بدأت تتكون عملياً في العقدين الأخيرين من القرن العشرين، ولكن لسوء الحظ جاءت جريمة ١١ سبتمبر التي اتهم العرب والمسلمون بالمسؤولية عنها لتقلب المائدة العربية ــ الأوروبية وتهدم كل ما تم بناؤه من مشاعر الثقة ومفاهيم وأسس التسامح والصداقة الأوروبية ــ العربية. وكانت الدعوة الأميركية إلى مكافحة الإرهاب قد تحولت دون مبررات منطقية إلى صدام جديد بين الغرب والإسلام، ولم يكن الدافع إلى تطوير المعركة والوصول بها إلى مجابهة الإسلام دافعاً أوروبياً وإنما كان دافعاً إسرائيلياً، وحسبنا أن نتذكر خطة التعامل الصهيونية مع هذه المعركة، وقد عبر عنها كثير من أنصار إسرائيل منهم مثلاً ديفيد هاريس (المدير التنفيذي للجنة اليهودية الأميركية) حين كتب لـ"جيروزاليم بوست" يقول: علينا أن نعمل مع إسرائيل لمقاومة الإسلام.

إن ما ينبغي عمله الآن هو قيام أوروبا والعرب بمراجعة لتطور العلاقة بينهما، بهدف التخلص من الآثار السلبية للتاريخ، ولتصحيح سوء الفهم الذي أوشك أن يدمر ما كان متوقعاً أن

ينهض عالياً من مشاعر الثقة والتسامح وأسس الشراكة والتعاون.

وإذا كان تجاهل ذلك على الصعد السياسية مفهوماً لتحقيق ما تتطلبه الدبلوماسية من إظهار لما هو إيجابي والتعمية على ما هو سلبي فإن الأمر مختلف على الصعد الثقافية والفكرية. وقد كشفت أزمة الرسوم عن تفشي حالة سوء الفهم، كما كشفت بعض ردود الفعل الأوروبية على جرائم إرهابية اتهم بها عرب أو مسلمون قبل أية إدانة قانونية عن استعداد عام لإطلاق أحكام مُسبقة كانت جديرة بالمراجعة والتقويم .

لقد زرت أوروبا هذا العام عدة مرات والتقيت مثقفين كباراً وفوجئت بخطورة سوء الفهم عند بعضهم، ورأيت بعضهم الآخر متأثراً بإيديولوجيات تجعل الحروب الصليبية ملهمة إلى الآن. لقد سمعت مثل هذا الخطاب في بعض المحافل الأوروبية وقرأته في مقالات جادة، مما ينبغي أن يدفع العرب والأوروبيين إلى المكاشفة والمصارحة والعمل على إيضاح كثير من الحقائق التي تم تزييفها في الغرب .

لقد طغى خطاب الإعلام الصهيوني في أوروبا، مقابل الغياب المُطلق لخطاب الإعلام العربي وغابت مبادرات العرب الثقافية نحو أوروبا عن ساحاتها الإعلامية، كما نجحت الصهيونية في فرض حصار إعلامي على الأوروبيين والأميركان، فباتت عامة شعوب أوروبا والولايات المتحدة ترى منطقتنا بعيون صهيونية .

وربما كان تردد قادة أوروبا في اتخاذ مواقف عادلة من الصراع العربي ــ الإسرائيلي يعود لكون العرب لا يحرصون كثيراً على إقامة المعيار الدبلوماسي المهم (المعاملة بالمثل) وأجد ضرورياً أن يقوم العرب بإشعار أوروبا بأن البلاد العربية مجال حيوي مهم لأوروبا ينبغي ألا تتم التضحية به مقابل تودد أوروبي لإسرائيل على حساب العرب. والعرب لا يطلبون ثمناً من الأوروبيين لإقامة شراكة عملية صادقة سوى أن تقف أوروبا موقفاً عادلاً، وأمام أوروبا اليوم امتحان خطير في جدية رؤيتها لمستقبل علاقاتها مع العرب عبر الموقف الذي ستتخذه والنشاط الذي ستبذله، لجعل المبادرة العربية للسلام قادرة على أن تكون حلاً لصراع طال أمده، ونرجو أن يدرك أصدقاؤنا الأوروبيون أن إخفاق هذه المبادرة سيغلق الأبواب أمام المستقبل

٢٠٠٧/٤/٣

العرب والمجتمع الدولي

لا أقصد بتعبير المجتمع الدولي كل المجتمعات المنتسبة إلى الأمم المتحدة، فكثيـر منهـا ضعيف الشأن كحالنا نحن العرب، وقد بات حضورنا هامشياً بين الأمم المتقدمة على الرغم من كوننا محور العمل السياسي الدولي، فما أظن قائداً سياسياً في الدول الغربية الكبرى يصرف من وقته واهتمامه لبلده ومواطنيه كما يصرف لقضايا منطقتنا العربية .

والعرب ليسوا مسؤولين وحدهم عن حالة التردي التي يعانون منها اليـوم، فـالمتغيرات الدولية الكبرى عصفت بهم وأفقدتهم أصدقاءهم، بل إن أمماً كانت تناصرهم وتحـرص علـى صداقتهم وترفض أن تقيم علاقات دبلوماسية مع إسرائيل "كرمى لخاطرهم"، سارعت لإقامـة علاقات متينة مع إسرائيل حين وجدت بعض العرب يسعون لتوطيد صلتهم بإسرائيل. ولم يعـد بوسع عربي أن يعتب على أصدقاء الأمس من آسيا أو أفريقيا ممن كـانوا يعتبـرون قضـايا العرب قضاياهم في كل المحافل الدولية، فلن يكون الأصدقاء (ملكيين أكثر من الملك) كما يقول المثل، وقد خسر العرب جملة الأنصار لقضاياهم دون أن يجدوا بديلاً. بل إن الـدول العربيـة التي تقربت من إسرائيل أو من الدول الغربية الكبرى وجدت أن كل ما بذلتـه مـن صـلات وعلاقات ظنتها وطيدة، قابل للانهيار دون إنذار. ولقد كادت تـداعيات جريمـة ١١ سـبتمبر المنظمة أن تودي بتاريخ عريق لبعض الدول العربية مع الولايات المتحدة، لولا أن الولايـات المتحدة كانت بحاجة ماسة إلى تهدئة تمكِّنها من إقامة تحالفاتها الدولية من أجل الحـرب علـى أفغانستان ومن ثم على العراق.

ولقد كان أخطر امتحان تعرض له النظام العربي هو تحميل العرب والمسلمين مسـؤولية الإرهاب الدولي، والطلب من الأنظمة العربية أن تعتبر المقاومة الوطنية ضد العدوان إرهابـاً، ولم يكن أمام العرب غير أن يعلنوا مبادرتهم للسلام، ليواجهوا بها نذر الحرب عليهم، وليقدموا السلام بديلاً للمقاومة، لكن الموقف الدولي من المبادرة بعد إعلانها في قمة بيروت كان بـارداً بل متجاهلاً، في وقت صعَّدت فيه إسرائيل عدوانها على الشـعب الفلسـطيني، وتابعـت فيـه الولايات المتحدة وحلفاؤها عدوانهم على العراق، ووصل طغيان المجتمع الدولي إلـى احتقـار المنطق الإنساني حين صمت على اعتبار المقاومة إرهاباً، وعلى رفـض الولايـات المتحـدة دعوات العرب المُلحة إلى عقد مؤتمر دولي لتعريف الإرهاب.

وكان موقفاً عاقلاً أن تتجنب الأنظمة العربية أي صراع يفرض عليها في مرحلة جنـون القوة الأميركية الصهيونية، ولا تملك هذه الأنظمة ضمانات النصر وليس لها أصدقاء يقـدمون

لها عوناً حاسماً. لكن المقاومة الشعبية لم يعنها أن توصف بالإرهاب أو بسواه، ولم تدخل برنامجها في حساب التوازنات، فقد استمرت بتقديم التضحيات، وكانت قد نجحت في تحقيق نصر مؤزر في لبنان حين تحرر الجنوب المحتل، ثم بدأت المقاومة الفلسطينية تحقق مزيداً من النجاح، ووصلت "حماس" إلى سدة السلطة على الرغم من كل الضربات العنيفة التي تعرضت لها، وقد استخدمت سلاح الديمقراطية الذي أشهره الغرب على العرب، فحققت به "حماس" ما كان أشبه بالحلم.

ولقد بدأ الموقف الدولي من القضايا العربية يتغير بسرعة ملفتة منذ أن حققت المقاومة اللبنانية في الصيف الماضي نصرها الكبير في "الوعد الصادق"، ومنذ أن أثبت الشعب العراقي أنه قادر على الحفاظ على وحدة العراق وهويته على الرغم من كل ما يلقاه العراقيون من عنف ومن تشويه لمواقفهم الوطنية عبر العمليات الإرهابية التي يقوم بها مجرمون يهدفون إلى بث الفوضى والذعر، وكان موقف التيار العروبي القومي الذي قبض على الجمر رغم كل التهديدات والعقوبات والاتهامات الباطلة التي وجهت إليه، مصدر قوة للأمة. كل ذلك جعل قمة الرياض تحقق ما كنا نصبو إليه من تلاحم وتضامن عربي، ومن تمسك بالثوابت، وها نحن اليوم نحصد ثمار الإصرار والمقاومة، فقد تغيرت مواقف مهمة في المجتمع الدولي لصالح العرب، بعد أن استعاد شعبنا احترام المجتمع الإنساني له، وهو يرى بطولاته وصبره على التضحيات. واليوم تراجع شخصيات مهمة في الولايات المتحدة سياسة البيت الأبيض التي جلبت لأميركا كراهية من كل شعوب الأرض، ويبدأ البحث الجاد عن وسائل وآليات الحوار، كما أن مواقف الدول الكبرى بدأت تظهر أقوى في التعبير عن خصوصياتها كما تفعل روسيا التي تدرك خطر القواعد العسكرية الأميركية التي باتت تحيط بها من كل اتجاه، وكذلك الصين التي تمتلك مع العرب تاريخاً صافياً نقياً لا حروب فيه ولا عداوات، بل هو تاريخ تعاون ثقافي وتجاري يشهد اليوم ذروة من ذرواته، وهذا ما يقلق إسرائيل وهي ترى تنامي المصالح المشتركة بين العرب والصين. ودخلت اليابان على الخط ربما بدافع من الولايات المتحدة ليكون لها دور في عملية السلام، وأما الاتحاد الأوروبي الذي يدرك خطر الانجرار إلى حرب جديدة في المنطقة لن تكون محدودة بالتأكيد، فقد بدأ قبل الولايات المتحدة بالعمل بمضمون تقرير "بيكر ــ هاملتون"، بل إن مواقف إسبانيا ومن بعدها إيطاليا بدت سباقة ومتقدمة جداً. ولم يحقق الاحتلال الأميركي للعراق أي هدف لأوروبا، فقد كانت الأهداف كلها إسرائيلية تتمحور حول إضعاف شعب العراق وتدمير قواه، ولكن النتائج بدت كارثية على أوروبا لأن شرر الفوضى سيصيبها أكثر مما يصيب أميركا. وقد حاولت فرنسا أن تجد في مخطط "الشرق الأوسط الكبير"

حصة وظنت أن ماضيها يؤهلها للتخصص بلبنان، لكنها اكتشفت أن لبنان اليوم هو غير لبنان الذي كانت تعرفه في مطالع القرن العشرين، بل وجدت أن مخطط "الشرق الأوسط الكبير" مجرد وهم صهيوني، وأن نظراء سايكس وبيكو لم يعودوا قادرين على رسم الخرائط وتنفيذها وهم مرتاحون. ولقد كان السعي وراء أوهام "الشرق الأوسط الكبير" غلطة من الرئيس شيراك نرجو أن يصحِّحها من سيأتي بعده لأننا نحرص على أن تبقى علاقاتنا العربية مع فرنسا في أفضل حالاتها.

ويبدو من أهم المؤشرات على التحولات في المواقف الدولية هذا الموقف المتصاعد ضد مروجي الحروب، وبخاصة ضد أولئك الذين يريدون إضرام حرب ضد إيران، أو الذين يخشون أن تكون الحرب الخاسرة التي خاضتها إسرائيل ضد لبنان هي آخر الحروب الإسرائيلية على العرب، وبعضهم يرسم سيناريوهات لحرب إسرائيلية ضد لبنان وسوريا. ولقد كنا لا نسمع من الولايات المتحدة إلا لغة التهديد والوعيد، لكننا اليوم بدأنا نسمع تصريحات سياسيين عقلاء في الكونجرس وفي الإعلام الأميركي ترفض الحرب وتدعو إلى الحوار، وهذا ما بدأ يخيف الصهيونية التي تفقد أنصارها بكثرة في الغرب وهم في الحقيقة ليسوا أنصاراً، فالغالبية منهم يكنون لها كراهية شديدة ولكنهم يخشون غضبها، ويصرفونها عنهم إلى بلادنا. ولكنهم بدأوا يضيقون بما تحمِّلهم من مسؤوليات كبيرة، وهذا الشعور يكبر في الولايات المتحدة التي بدأ عقلاؤها يكتشفون ضخامة حجم التضحيات التي يقدمها شعب الولايات المتحدة من أجل إسرائيل، وبدأ السياسيون الأميركيون المخضرمون يكتشفون استحالة التوصل إلى حل عسكري للصراع العربي ــ الإسرائيلي.

ولئن فشلت إسرائيل في زج الولايات المتحدة في حرب ضد إيران لصالحها كما فعلت في العراق، فإن سلسلة من المواقف الدولية ستعيد رسم الخريطة السياسية للتحالفات في العالم، وإن نجحت ــ وهذا ما أستبعده ــ فإن ما سيلحق إسرائيل من تبعات هذه المغامرة العسكرية سيكون أخطر عليها مما قد تتعرض له الولايات المتحدة نفسها، ونرجو أن يزداد موقف المجتمع الدولي وعياً لكون الحروب لا تحسم الصراعات، وإنما يحسمها السلام العادل وحده.

٢٠٠٧/٤/٢٧

أفق أمام سوريا

مع استعداد سوريا للاستفتاء الشعبي على منصب رئيس الجمهورية وتجديد البيعة للرئيس بشار الأسد، تخرج سوريا إلى أفق جديد اتضحت ملامحه مع انتصار المقاومة اللبنانية في حرب "الوعد الصادق" حيث قلب هذا الانتصار كثيراً من المفاهيم التي كانت شبه غائمة لدى الرأي العام الدولي .

وقد نجحت المقاومة في فلسطين وأوصلتها الديمقراطية إلى سدة السلطة، كما نجحت المقاومة في العراق حين لم تنجح الولايات المتحدة في تحقيق أهدافها، وباتت الولايات المتحدة أكثر قابلية لإعادة النظر في سياساتها في المنطقة العربية، وما يحدث اليوم من حوارات ساخنة في ساحات السياسة الأميركية يدلل على ذلك.

كان لسوريا دور فاعل ومؤثر فيما أنجزته المقاومة العربية التي وجدت من يؤمن بها ويثق بقدرتها على الاستمرار في مشروعها التحرري رغم كل ما لقيت من عنف وشدة وضراوة، فقد كانت سوريا حاضنة لفكر وثقافة المقاومة دون أن يتناقض ذلك مع التزامها بالسلام العادل والشامل.

ولئن كان تقرير "فينوغراد" قد حسم مسألة فشل إسرائيل في حربها على لبنان فإن ثنايا التقرير كشفت أن الحرب كانت خطة للقضاء النهائي على المقاومة اللبنانية، ولو أن هذا الهدف تحقق فإن الهدف الثاني سيكون القضاء على المقاومة في فلسطين، وسيكون بالضرورة تأثير تحقيق الهدفين على المقاومة العراقية قاسياً جداً، وهي التي تتعرض لتشويه ضخم عبر العمليات الإجرامية التي يقوم بها إرهابيون مجرمون.

ولقد شكلت سوريا عقبة كبيرة أمام مخططات الصهيونية، فدارت حولها الدوائر، وبدأت تواجه من التهديد والوعيد ما جعل بعض أعداء الداخل والخارج يتوقعون انهيار النظام السياسي فيها، ويراهنون على أنه يعيش أواخر أيامه، غير مدركين أن سوريا تعيش حالة من التماهي الكامل بين الشعب والقيادة السياسية في الرؤية وفي الموقف التحرري والعروبي. ولئن كان هناك من يختلف مع رؤية القيادة في بعض الأمور التي تحتمل وجهات نظر أو تستدعي حواراً داخلياً، فإن ثمة إجماعاً شعبياً عارماً على سلامة وصحة الموقف المبدئي والنهج السياسي وحسن إدارة الأزمات. وهذا الموقف نابع من إيمان الشعب بأن المقاومة خيار وطني لا يتعارض مع خيار السلام حين تجد سوريا شريكاً مستعداً للسلام، وأن الحفاظ على السيادة واجب مقدس مهما كانت التضحيات من أجله جسيمة ومكلفة. وقد صبر الشعب السوري على كل ما تعرض له من حصار ومن عقوبات فرضتها الولايات المتحدة بهدف الضغط على

سوريا، كما تجاوز الشعب مخططات عزل سوريا، وأكد لمن خططوا لعزلــه بــأنهم يعزلــون أنفسهم لأن سوريا جزء رئيس من الحل، ولم تكن قط جزءاً من أية مشكلة. وقد قدمت ســوريا الدليل على كونها تتصرف بعقلانية وتتجنب القرارات الانفعالية، ومثال ذلك إسراعها في تنفيــذ المرحلة الأخيرة للانسحاب في لبنان، وكانت بدأته بعد تحرير جنوب لبنان، وقد فعلت ذلك كي لا تتيح لأعداء الأمة ذرائع لاقتناص موقف يمنحهم شرعية عدوان جديد. كذلك عبرت ســوريا عن موقف عقلاني حكيم حين رحبت بالتحقيق الدولي في جريمة اغتيــال الحريــري، وحــين رفضت أن تنجرَّ إلى ساحة الخلافات اللبنانية رغم كل التحريض الذي كان يدعوها إلى مستنقع الخلاف، وأعلنت أنها مع التوافق اللبناني، وقد وصل التعبير الســوري عــن التــزام ســوريا بالوقوف إلى جانب لبنان كله، حين وقع العدوان الإسرائيلي في الصيف الماضي ففتحت سوريا أبوابها لكل الأشقاء اللبنانيين دون أية تفرقة بين من وقف ضدها وبين من وقف معها. ولم يكن موقف سوريا منة على أحد، فانتصار المقاومة انتصار لسوريا، وكان الهدف أن ينتصر لبنــان وقد انتصر بحمد الله، ولم تستطع إسرائيل أن تحقق هدفها في إبادة المقاومة وجعل لبنان بلــداً ضعيفاً ولقمة سائغة يسهل على إسرائيل وأنصارها ابتلاعها.

لقد واجهت سوريا على مدى السنوات السبع التي هي عمر الرئاسة الأولى للرئيس الأسد أخطر تهديد عرفته الأمة في تاريخها المعاصر. فقد شكلت حرب العراق تهديداً مباشراً لحضور العرب كأمة، بل إن بعض المثقفين العرب ممن فقدوا البوصلة والإيمان أنذروا الأمة بالخروج من التاريخ، وبعضهم شكك في قدرتها على البقاء، وبدأ يروج للهدف العملي من الحرب علــى العراق وهو تفتيت كيان العرب والمسلمين، ورسم خريطة جديدة لهويتهم السكانية عبر مشروع الشرق الأوسط الكبير الذي يهدف إلى أمر واحد، هو إلغاء سمة العروبة والإسلام مــن هويــة المنطقة، وإتاحة المجال الجغرافي والسكاني لإسرائيل كي تصير أكبر وأقوى دولة في المنطقة بعد إغراق دول الطوائف والإثنيات في حروب أهلية مدمرة.

لقد أصر شرفاء العرب على رفض مشروع الشرق الأوسط الكبير، واستنكروا دعــاوى الديمقراطية الأميركية التي كانت الولايات المتحدة تظن أنها ترعب بها الدول العربية وتتيح من خلالها فرصة لفتح الباب أمام من يزعمون أنهم ليبراليون وهم أشباح الصهيونية للوصول إلــى مواقع متقدمة في السلطات العروبية المتمسكة بالحقوق وبثقافة المقاومة. كمــا كــان للموقــف الوطني والعروبي الذي عبر عنه شعب العراق دور كبيــر فــي إفشــال مخططــات التقســيم والتمزيق، مما جعل مشروع الشرق الأوسط الكبير ينكفئ فاشلاً مثلما انكفأت إســرائيل خلــف الجدار الذي بات يعزلها وسيكون سجناً لها، ومثلما انكفأ حلمها بالتنقيب تحت الأقصــى حــين وجدت آثاراً عربية أموية بدل أن تجد الهيكل الذي تبحث عنه.

ولقد تبدى أفق جديد أمام سوريا بعد نجاح قمة الرياض، وتعزيز التضامن العربي، وبعــد أن قامت دول ذات شأن في العالم بمراجعة لمواقفها بعد أن ترددت أمام الضــغط الإســرائيلي والأميركي، وأكدت سوريا مكانتها الدولية عبر احترامها التاريخي للشرعية الدولية وحرصــها عليها، وعبر استعدادها الدائم للتعاون في مكافحة الإرهاب، وما قدمته من دعم للعملية السياسية في العراق، ومن حرص على نجاح الدعم المشترك من دول جــوار العــراق. ولقــد فتحــت الولايات المتحدة أفقاً للحوار مع سوريا نرجو أن يتسع وأن يشمل كل القضايا، لأننا في النهاية لا نريد حروباً، وإنما نطلب حقوقاً أقرتها الشرعية الدولية. ونحن في سوريا لا نغــرد خــارج سرب أمتنا، بل نحرص على تمتين التضامن العربي، وعلــى اســتعادة المشــروع العروبــي القومي، وعلى الدفاع عن الإسلام بوصفه رسالة الأمة الحضارية التي منحتها مكانتهــا عبــر التاريخ.

ومع انتظار سوريا يوم الاستفتاء يكبر الأمل في أن تبدأ المرحلة الجديدة التي تتيح لسوريا خطوات أبعد وأكبر على طريق الإصلاح والتنمية والتحديث وقد قطعت بهــا شــوطاً كبيــراً، ومكنها من النجاح ما تنعم به من أمن واستقرار سياسي.

٢٠٠٧/٥/١١

من يوقف نهر الدماء؟

ليس جديداً ما يتعرض له الشعب الفلسطيني من قتل وتدمير وإبادة واستهداف لحكومته الشرعية المنتخبة عبر أنظف عملية ديمقراطية، ولكن الجديد المريع هو هذا الصمت الدولي الذي اكتفى بإشارة منظمة العفو الدولية في تقريرها عن عام ٢٠٠٦ إلى انتهاكات لحقوق الإنسان ارتكبها جنود إسرائيليون أفلتوا من العقاب. وقد جاء في تقرير "أمنستي أنترناشيونال" أن الجنود الإسرائيليين قاموا بعمليات قتل غير مشروعة ولم يتعرضوا لأية مساءلة قانونية، وأن عدد الفلسطينيين الذين قتلوا بيد الإسرائيليين عام ٢٠٠٦ ازداد ثلاث مرات عما كان عليه الرقم عام ٢٠٠٥. وحذر التقرير من الأوضاع المتدهورة في الأراضي الفلسطينية جراء الممارسات الإسرائيلية. وهكذا يرتاح الضمير الإنساني فقد أشار وحذر، ولكن أحداً من سادة ما يسمى بالمجتمع الدولي لم يبادر إلى إدانة إسرائيل التي تقوم على ملأ من الدنيا بمتابعة مسلسل إبادة الشعب الفلسطيني وتهدد قادته المنتخبين ورئيس وزرائه بالاغتيال مستهترة بكل القيم الإنسانية غير آبهة لموقف شعوب الأرض، فقد أدرك الإسرائيليون أن هذه الشعوب لا تملك أكثر من أن تتظاهر وأن تعبر عن غضبها، بينما يستمر المشروع الصهيوني الأميركي في ممارسة إرهاب منظم ضد الشعوب الضعيفة. فقد تظاهر العالم كله وفي مقدمته شعب الولايات المتحدة ضد الحرب على العراق، وقبلها تظاهروا ضد الحرب على أفغانستان، ولكن الشعوب أجبرت على قبول الأمر الواقع، وقام الإعلام الصهيوني بفبركة الذرائع والمبررات، وكان أشدها استهتاراً بالعقول ذريعة وجود أسلحة دمار شامل لدى العراق، وذريعة ارتباط النظام السابق بـ"القاعدة"، وحين تحقق في العراق الدمار الشامل بدل العثور على الأسلحة، اكتفى باول بأن يعتذر عن مرافعته الشهيرة أمام مجلس الأمن، واعترفت الإدارة الأميركية بأن الذرائع لم تكن صحيحة. ولم يجرؤ على قول الحقيقة في ذرائع الحرب في الغرب إلا من غامر بعداء الصهيونية وقال إن الهدف الحقيقي للحرب على العراق هو تدمير قوة عربية يمكن أن تعلب دوراً مهماً في أية مواجهة محتملة بين العرب وإسرائيل، وقد تحقق الهدف وتم التدمير .وما يزال التحالف الدولي مع الولايات المتحدة يتابع أهدافه عبر إشاعة المزيد من الفوضى لنشر الحرب الأهلية في العراق من خلال العمليات الإرهابية التي تقوم بها شركات إرهابية متخصصة يديرها الاحتلال الذي يعطل بإصراره على مزيد من سياسة العنف ومزيد من الحشد العسكري ورفض لجدولة الانسحاب، كل محاولات القوى الوطنية لمتابعة الحوار بينها لتحقيق مصالحة وطنية تشكل قاعدة العمل السياسي لتخليص العراق من محنته .

ولقد بدأت الولايات المتحدة إشعال النيران في ساحة حرب جديدة لتعوض عن فشلها في العراق، وكانت الساحة لبنان، فضلاً عن متابعتها إشعال النيران في ساحة الحرب التاريخية في فلسطين. وما يحدث في لبنان اليوم ليس أقل خطراً مستقبلياً مما يحدث في العراق، ولئن كان أمراً متوقعاً أن تتدخل إسرائيل والولايات المتحدة لإحداث شرخ في المجتمع اللبناني فإن العجيب الغريب أن يدخل مجلس الأمن معركة تقسيم المجتمع اللبناني، وأن يصبح طرفاً في الانقسام الداخلي، وأن يستعجل تشكيل محكمة دولية من أجل مقتل شخص (لا نقلل من شأنه الشخصي، ولكننا نجزم لو أنه تكلم من قبره لقال: لا تجعلوا دمي معبراً لاحتلال جديد للبنان ولإفقاده سيادته وأمنه ووحدته)، بينما يقتل المئات في العراق وفي فلسطين كل يوم ولا يتحرك كرسي في مجلس الأمن.

إنها ظاهرة مريعة أن يتحول مجلس الأمن العالمي إلى مجلس حرب، وأن تستولي الولايات المتحدة على قراره فيصير مصدر رعب وتخويف للشعوب التي لن يكون أمامها سوى أن تلجأ إلى العنف لتواجه به العنف، وإلى القتل لتدفع عن نفسها القتل، ولا يغيب ذلك عن قادة الولايات المتحدة الذين يدَّعون أنهم يحاربون العنف والإرهاب، ولكنهم حين يظلمون الشعوب ويحرمونها حقها في الحرية والسيادة والاستقلال يقدمون لها الذرائع والمبررات للتمسك بالعنف حين لا يبقى أمامها قاضٍ نزيه تحتكم إليه، وتجد عنده حقوقها .

فأما في فلسطين فقد بات واضحاً أن إسرائيل تريد سحق اتفاق مكة بدباباتها وصواريخها، وبما تثيره من فتن بين الفلسطينيين عبر تحريض واضح، بل ربما عبر مطلب بألا يتحقق شيء في عملية التسوية التي أصبحت ملهاة تراجيدية، إلا بعد تدمير المقاومة. وتبدو مطالب إسرائيل من المقاومة مطالب تعجيزية، فهي تريد أن تلقي المقاومة سلاحها مقابل لا شيء، وأن تعلن قبولها بأوسلو وأن تعترف بإسرائيل، كل ذلك مقابل لاشيء، ربما فقط مقابل أن يبقى قادتها ورجالها ونساؤها وأطفالهم على قيد الحياة. ولقد طلبت إسرائيل ما يشبه ذلك من المقاومة اللبنانية، أرادت منها أن تلقي سلاحها وأن تسلم كل قواها لإسرائيل مقابل لا شيء سوى البقاء على قيد الحياة، وهذا ما يعينه الإسرائيليون حين يقولون "الأمن مقابل السلام" بدل "الأرض مقابل السلام". ولقد جربت إسرائيل أن تفرض إرادتها بالقوة العسكرية على "حماس" وعلى "حزب الله"، فقتلت وقصفت واغتالت ودمرت، واكتشفت أن النساء يلدن، وأن أعداد الفلسطينيين الذين تنوي إبادتهم تزداد يوماً بعد يوم، وأن المقاومين يبدؤون مشروعهم حين ينضمون إلى المقاومة بجعل الموت دفاعاً عن الوطن شهادة يتسابقون إليها، وهذا سر انتصار المقاومة في لبنان وفي فلسطين. ولم تنجح محاولات إسرائيل في تشويه صورة المقاومة رغم كل العمليات

الإجرامية الإرهابية التي يقوم بها عملاء إسرائيل باسم المقاومة، فقد كشف الشعب العربي الحقيقة، وبات متأكداً من أن قوى المقاومة الوطنية لا تتعدى حدود المقاومة المشروعة من أجل تحرير الوطن وفي داخل الأرض المحتلة فقط، ولا تنجرُّ إلى صراعات داخلية، ولا تقوم بأية عملية يدينها القانون الدولي الذي يجعل مقاومة الاحتلال حقاً للشعوب لا جدال فيه تقره كل الشرائع والأديان والأخلاق والأعراف، ولا يتنكر له إلا المحتل الذي يشعر بتهديد المقاومة لعدوانه ولمشروعه التسلطي. ولئن كانت إسرائيل عازمة على إبادة" حماس" عبر عدوانها المتواصل على غزة، وعبر تهديداتها بقتل واغتيال قادة الشعب الفلسطيني فإنها تثير التوتر في المنطقة كلها، لأن "حماس" ليست مجرد منظمة تنتهي باستشهاد بضعة رجال من قياداتها، إنها الشعب الفلسطيني الذي اختار "حماس" وأدرك أنها تتمسك بخيار المقاومة التي تضمن للشعب حقوقه بعد أن خابت وعود "أوسلو" وتقارير بعثات الأمم المتحدة، وخرائط الطريق، وبعد أن مل فريق السلام الفلسطيني من استقبال المفوضين عبر عشرات السنين، وبعد أن قدم من التنازلات لإسرائيل فوق ما كانت تحلم به. ومع ذلك ردت إسرائيل على كل ما يمكن أن نسميه مرونة أو واقعية بحصار زعيمه عرفات، وأخيراً بقتله وبحصار طويل مرير للشعب الفلسطيني كله .

ولئن كنت مطمئناً إلى كون قادة "فتح" هم أصحاب مشروع المقاومة والثورة الفلسطينية تاريخياً، فإنني أخشى على الشعب الفلسطيني أن يقع في أتون الفتنة التي تخطط لها إسرائيل، وأجد ضرورة أن تستعيد منظمة التحرير حضورها وكونها البيت الفلسطيني الذي يشكل مرجعية يقبل بها الجميع، والخطر كل الخطر أن تنجح إسرائيل في إيقاع الشعب الفلسطيني في فخ الفتنة فيقتل الفلسطينيون أنفسهم، ويفقدوا تعاطف شعوب العالم مع قضيتهم. وأرجو أن يتمسك الجميع باتفاق مكة، وأن يدرك الأشقاء في لبنان كذلك خطر استعادة الحرب الأهلية التي ذاق منها الشعب اللبناني ما ينبغي أن يجعله أحرص شعوب الدنيا على تجنب الخلافات المدمرة.
٢٠٠٧/٥/٢٥

حوار العروبة في مصر

في نهاية مسلسل "أرابسك" للكاتب أسامة أنور عكاشة يصاب بطل الرواية حسن النعماني (إن لم تخني الذاكرة) بلوثة جنون وينطلق مهرولاً بين الناس وهو يطلق سؤال الهوية: من نحن؟ يومها استغربت أن يطرح هذا السؤال علينا نحن المشاهدين العرب، وكأننا نزلنا من المريخ لتوّنا ولا نعرف من نحن؟ وقلت في لقاء لي مع بعض مبدعي العمل، يمكن أن يطرح إسرائيلي سؤال الهوية، ولاسيما إذا كان علمانياً ولا يؤمن باليهودية وهي القومية الوحيدة التي تجمع الإسرائيليين، وجلهم يحمل في داخله هوية أخرى هي القومية العرقية أو الثقافية التي ينتسب إليها بالولادة والانتماء العرقي أو اللغوي، وحسب القارئ أن يذكر على سبيل المثال أن بن غوريون وشامير وبيريز بولنديون، وغولدا مائير أوكرانية ومناحيم بيغن روسي، وما أظن أحداً من هؤلاء القادة المؤسسين لإسرائيل، يزعم أن له جداً عاش في فلسطين حتى قبل ثلاثة آلاف سنة. أما نحن العرب فيبدو عجيباً أن يطرح أحدنا سؤال الهوية علينا، ونحن أبناء هذه الأرض التي عاش فيها أجدادنا العرب منذ آلاف السنين، وإن أنكر منكر أحلناه إلى التاريخ ليقرأ عن العرب الكنعانيين الذين عاشوا في شبه الجزيرة العربية وسواحل الخليج (العربي) وهم آموريون، ولغتهم الكنعانية (عربية (وكلمة (كنع) تعني الأرض المنخفضة، وحضارتهم الفينيقية حضارة عربية، لأنهم نزحوا كما تؤكد كل المراجع من الشواطئ الشرقية للخليج العربي (ومن البحرين بخاصة) إلى سواحل المتوسط، وقد قدمت اكتشافات أثرية في مقبرة في البحرين دلائل على هذا التاريخ. وقد امتدت هجرات العرب الساميين من بلاد الشام إلى بلاد الرافدين ثم إلى الشمال العربي الإفريقي (وهذه تسميات حديثة طرأ عليها التطور اللغوي المعروف للغة العربية)، وقد امتدت حضارة الفينيقيين إلى الشاطئ الأوروبي المقابل. وكنت قد تحدثت قبل شهور في محاضرة في مدينة المونيكار (المنكب) في الأندلس أمام علماء مؤرخين أسبان في احتفالية أقمناها تحية لذكرى عبدالرحمن الداخل، وقلت (إن عبدالرحمن ليس أول عربي سوري يدخل إلى المونيكار، فالمؤرخون يعلمون أن أجدادنا العرب الكنعانيين الفينيقيين هم الذين بنوا هذه المدينة كما بنوا قرطاج على الشاطئ العربي الأفريقي)، وذكرت أن" أليسار" الفينيقية العربية، جاءت من سوريا إلى تونس، وفي عهدها كان شعب قرطاج يعبد" الإله" (بعل) وهو "إلهة" عربية شهيرة. ولا أريد أن أغرق في حديث التاريخ هنا، فحسبي من هذه الإشارة العابرة أن أطمئن الصديق أسامة أنور عكاشة وقد عاد إلى طرح سؤال الهوية ومراجعة انتماء مصر إلى العروبة، إلى كوننا أمة عربية عريقة قبل أن يظهر الإسلام، ولم تكن هذه الأمة مجرد قبائل تتقاتل أو تعيش على الغزو فيما بينها كما هو شائع، فهذا جانب بسيط من حياتها، وقد حفظه

التاريخ الأدبي، لأسباب سياسية وإعلامية، ولبيان فضل الإسلام على العرب، ولكن لا يغيب عن بال أحد أن كلمة جاهلية لا تعني الجهل. وحسبنا أن نذكر قول الرسول عليه الصلاة والسلام (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) شهادة بما كان لدى العرب القدامى من قيم ومثل سامية، تألقت في ممالك عربية شهيرة مثل مملكة كندة التي قدمت الشعر نموذجاً من ثقافتها. وسيكون وهماً أن نصدق أن شاعرها امرأ القيس، كان أول شعراء العرب، وأن معلقته الشهيرة هي أول قصيدة في الشعر العربي، فهو أول من حُفظت له وثيقة شعرية معلقة، ولكن سوية شعره الفنية العالية تؤكد أنه سليل حضارة عريقة، هي الحضارة العربية التي شكلت البيئة التي حفظت الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام، ثم حفظت المسيحية، التي أقامت ممالك عربية شهيرة كان منها مملكة الغساسنة ومملكة المناذرة. وقد كان دير أبان جامعة ثقافية مهمة تَخرّج منها مبدعون كبار أمثال المرقش الأكبر. والحديث يطول عن تاريخ الحضارة العربية قبل الإسلام، وهو يؤكد أن الانتماء إليها ليس وهماً وليس (درْوشة قومية) كما ظن الواهمون، فإن أراد أحد أن يتخلى عن شرف الانتماء إلى العروبة، فلن يجبره أحد على التمسك به، ولابد هنا من التأكيد على أن الانتماء إلى العروبة هو انتماء ثقافي محض، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (ليست العربية لأحد منكم بأب ولا أم، وإنما هي اللسان) وقد كان من كبار الصحابة الأجلاء صهيب الرومي وبلال الحبشي وسلمان الفارسي، وقد صاروا عرباً بالانتماء الثقافي. وكل ما جاء في القرآن الكريم من ذكر لعروبة القرآن الكريم إنما جاء وصفاً للسان ولم يأتِ وصفاً للقوم المخاطبين، لأن القرآن الكريم مرسل للناس كافة، والمقصود باللسان هو الفكر والثقافة، وما دامت مصر (والموضوع مثار فيها) تجتمع مع بقية العرب في هذا اللسان، أي الفكر والثقافة، فحسب اللسان أن يكون الرابط القومي، الذي يشكل الوجدان المشترك بين العرب، وأن يحقق الإرادة في الانتماء، ولن يسأل أحد عن الأعراق والأنساب.

إن المراجعة المطلوبة من المثقفين العرب المصريين هي ما فعله كُتاب كبار رفضوا هذه الدعوات التي أطلقت منذ بدايات القرن العشرين، وكانت الاستجابة لها مزيداً من التعلق بعروبة مصر أكدته ثورة يوليو التي استجابت لدعوة القومية العربية الناشطة في سوريا إلى إقامة الوحدة عام ١٩٥٨، ولم تكن الوحدة السورية ــ المصرية في منتصف القرن العشرين أول وحدة بين البلدين، ففي كل فترات القوة العربية كانت الوحدة بين سوريا ومصر، هي السر في الانتصار، وهذا ما أدركه صلاح الدين الأيوبي كي يحقق نصر حطين عام ١١٨٧م، وما أدركه الظاهر بيبرس، كي يحقق نصر عين جالوت عام ١٢٦٠م، وقد بنى كل منهما دولة عظيمة الشأن من خلال وحدة سوريا ومصر. ولا أريد أن يفهم أحد أنني أحلم على طريقة الدراويش

(حسب التعبير الذي استخدم) بعودة الوحدة بين سوريا ومصر، ولكنني أريد أن أؤكد على أن الوحدة قائمة بين أقطار الأمة كلها على الصعيد الثقافي والفكري والوجداني، وغائبة عن الصعيد السياسي والاقتصادي فقط، لأسباب لا تخفى على أحد. وليس بوسع أحد أن ينكر أن الشعب العربي من الخليج إلى المحيط، هو شعب واحد في لغته وثقافته ووجدانه، ومن يتابع الفضائيات العربية ويسمع أحاديث الأسرة العربية الكبيرة، يدرك أن همها واحد وهدفها واحد، ولست من المتشائمين، على رغم ما أشعر به من أسى لما أصاب الأمة من ضعف وهوان، فحسبها أنها الأمة الوحيدة في العالم التي تتصدى للغزاة، وتقدم البطولات في مقاومتها الشجاعة للعدوان في فلسطين والعراق ولبنان. وحسبها أن التحالفات الدولية ضدها بكل ما تملكه من قوة عسكرية غير مسبوقة في التاريخ، تعجز عن إخضاع أبناء هذا الشعب العربي المقاوم. وقد خابت كل الدعوات التي تريد تمزيق هذه الأمة إلى شيع وطوائف وأعراق وقوميات. ولا يغيب عن بال أحد أن هذه الأمة التي حكمها المغول والأتراك والمماليك والصليبيون ثم عادت إليها أوروبا بكل ثقلها النوعي العسكري في مطلع القرن العشرين لتخضعها وتمحو عروبتها وإسلامها قد ازدادت تمسكاً بانتمائها (ومثال الجزائر قريب في التاريخ الحديث). وها هي ذي الصهيونية تعيش أزمتها الوجودية التاريخية، التي لا تجد منها مخرجاً غير الحروب التي لا تحقق غير القتل والتدمير، وتخفق في تحقيق أهدافها في إنشاء شرق أوسط كبير بلا هوية تسيطر عليه، على رغم كل ما تلقى من دعم غير محدود من دول عظمى في أوروبا ومن أميركا. وأرجو من صديقنا الكاتب أسامة الذي نعتز بموهبته الدرامية أن يراجع ما قال، لأننا لا نريد أن تخسره أمتنا العربية، ولا أن يخسر شرف الانتماء إليها، وما الذي يمنعه من أن يجمع الحسنيين :الوطنية المصرية والقومية العربية معاً؟

٢٠٠٧/٦/١٤

سؤال البدهيات عند العرب

بات كثير مما نظن أنه من البديهيات والمسلمات يحتاج إلى فحص وإعادة نظر وتقييم، ويبدو السؤال عما يريده العرب في حاضرهم ومستقبلهم وسط هذا الطوفان من المتغيرات الدولية الكبرى، اقتحاماً لبديهيات تحتاج إلى هزة نوعية للتأكد من صلاحيتها وقدرتها على الاستمرار، فما يحدث في أرضنا العربية اليوم مذهل ومدهش، ويدعونا إلى تأمل عميق لخطر المحنة التي تعيشها الأمة في تحولات لم يكن ممكناً تصورها قبل عقود، وأحسب أن هذه هي المرة الأولى التي تختل فيها القيم على هذا النحو المثير الذي نراه من انقلاب دراماتيكي في المفاهيم والثوابت، لقد دبت الفوضى والفتنة في الحياة العربية حتى بات بعض المثقفين والسياسيين (ولا أقول العامة)، يحتاجون إلى من يقنعهم بأن إسرائيل هي الخطر الذي يهدد مستقبل الأمة، وأن سياسة الولايات المتحدة وحلفائها هي التي أحدثت الانهيارات المتلاحقة التي حلت بنا، بل بات بعضهم يحتاج إلى من يقنعه بأننا أمة !

ولقد قرأت مقالة لإحدى الكاتبات المثقفات تناقش فيها ما حل بالعراق ولبنان وفلسطين من كوارث وتبحث لاهثة عمن يحمل الوزر، وقد قادتها الحنكة والتحليلات السياسية البارعة إلى تحميل المسؤولية لعدة جهات عربية وإقليمية، وكان العجب العجاب ألا يثور عندها أي شك على الإطلاق بدور أو مسؤولية لإسرائيل، كأن الذي يحدث لا يعني إسرائيل في شيء. وهذه الكاتبة ليست حالة فريدة، فقد بتنا نقرأ كل يوم من الآراء والتحليلات ما يدعو إلى الدهشة والاستغراب، وبعضه يحمل توقيع أسماء كنا نكن لها احتراماً، قبل أن تظهر مواقفها الجديدة الغريبة، فبعضهم ينكر انتماءه للعروبة، وآخر يود التنصل من الإسلام، وثالث يريد إقناعنا بأن الخلاص الوحيد هو الاستسلام لإرادة الولايات المتحدة لأنها هي التي تحمل لنا فكر الديمقراطية، وهي التي ستحررنا من تاريخ الجهل والتخلف، وهي التي ستحرر نساءنا من ظلمنا لهن... وسوى ذلك كثير مما يدعونا إلى الإحساس بضرورة فحص ما كان بديهياً ولا يحتاج إلى برهان.

وآية هذا الانقلاب المريع في المفاهيم، أننا بتنا نحتاج إلى إقناع بعضهم بأن المقاومة ليست عدواً للأمة، بل هي الدليل الوحيد على أن الأمة ما تزال حية وفيها شيء من المروءة والنخوة والكرامة، لكن هذه المصطلحات التي لم يفهمها ساسة البيت الأبيض، باتت عصية على الفهم عند بعض المثقفين العرب الذين يعتبرون المقاومة عبئاً عليهم ويرون من يؤمن بها رومانسيين يعيشون خارج عصرهم، وهؤلاء ينتظرون القضاء على المقاومة بأيدي العرب أنفسهم بعد أن عجزت إسرائيل والولايات المتحدة عن تحقيق الهدف، ولم يكن أحد في الأمة يجرؤ على أن يفكر بموقف معاد للمقاومة على مدى سنوات القرن العشرين، فحين انطلقت الثورة الفلسطينية كان العرب جميعاً يمجدون الفدائيين، وكان الإسرائيليون يسمونهم المخربين، لكن الكوفية الفلسطينية انتشرت في العالم

كله، وباتت رمزاً لنضال الشعوب. وحين حوصرت الثورة الفلسطينية تعاطف معها العرب جميعاً، وما كان أحد يتصور أن يأتي يوم يصبح فيه الفدائيون إرهابيين في نظر بعض أشقائهم، وأخطر من هذا الانقلاب في المفاهيم أن يدافع عربي عن إسرائيل وأن يعلن مودته لها، وهو يرى استعدادها اليومي لمواصلة الحرب ضد فلسطين ولبنان وسوريا، ويرى يدها التي تقطر منها دماء العراقيين عبر العمليات الإرهابية الإجرامية التي يقوم بها أنصار إسرائيل ومن ترسلهم ليفجروا في المساجد والأسواق، بهدف إشعال فتيل الحرب الأهلية، تماماً كما تفعل في لبنان حين يرتكب أنصارها الجريمة تلو الجريمة، ويطلع بعض المحللين المثقفين الجاهزين ليتهموا سوريا على الفور، والمفارقة أن بعضهم بات يطلق الكذبة ويصدقها .

هذه الحالة الفجائعية التي تعيشها الأمة التي باتت مهددة بحروب أهلية مدمرة في بعض بلدانها، تدعو إلى إعادة النظر بما نظنه من المسلمات كي نجد المشترك بيننا والمفترق، مثل معرفة الصديق من العدو، ويبدو السؤال الذي بات جديراً أن يطرح الآن: هل فقد العرب قناعتهم بأن المقاومة هي السند الوحيد لهم حين تنهمر على رؤوسهم صواريخ الاحتلال، وتهدم بيوتهم دباباته، وتقتل أطفالهم قنابله ورشاشاته؟ ماذا بوسعهم أن يفعلوا إذا انتهت المقاومة، أهم يطمئنون إلى أن الولايات المتحدة ستحميهم من إسرائيل؟ أم يظنون أن إسرائيل ستحول بلادهم إلى جنات عدن بمجرد أن يعلنوا نهاية المقاومة؟

لقد بدأ بعض العرب يعلن أن المقاومة عبء على مسيرة السلام، وأن الحل هو الإذعان لمطلب إسرائيل في تصفية المقاومة اللبنانية والفلسطينية والعراقية، حسناً من يضمن أن إسرائيل لن تدوس على الرقاب وتركل الجثث في مدن العرب إذا هم باتوا عاجزين عن مقاومة عدوانها؟ لا أحد يملك أن يعطي هذه الضمانة، ولم يحدث في التاريخ الإنساني كله أن تحررت أمة من الاحتلال أو قبل محتلوها الخروج منها والقبول بالسلام معها دون أن ترهق المحتل مقاومة تجبره على التراجع عن مآربه وأهدافه .

وسيبدو سؤال البديهية الثاني أشد مرارة إذا ما تساءلنا عن الهوية والانتماء؛ أما يزال العرب يؤمنون بأنهم أمة واحدة، أم أن الشعور القطري بات غالباً في دعوته كل قطر أن يجد خلاصه الفردي لنفسه.

واضح أن من يريدون التفلت من هذا الانتماء القومي هم من شعورا بالضعف والعجز عن حماية انتمائهم، وباتوا يشعرون انه صار عبئاً ومسؤولية يضيقون بها، لذلك نجد بعضهم يبحث عن انتماءات جديدة غير مكلفة إن لم تكن رابحة .

إن قراءة الأحداث اليومية تشير إلى أن بعض العرب باتوا يستدعون أعداء أمتهم إليهم، ويأتمرون بأمرهم، بل إن بعضهم يرهن مستقبله بهم، وهذا ما يدعونا إلى فحص بديهية الحرص

على التمسك بالسيادة والاستقلال، حيث يبدو أن مفاهيم كهذه باتت عرضة للانقلاب أيضاً، حين نجد قرارات وطنية مصيرية يتخذها سفراء دول كبرى، أو وزراء خارجيتها أو دفاعها! إنني أدرك أن الحالة المفجعة التي تعيشها الأمة العربية اليوم هي حالة مؤقتة، ولن يستمر طويلاً هذا الانقلاب المريع في المفاهيم، فلا يصح إلا الصحيح أما الزبد فيذهب جفاءً، ولكن الآثار الكارثية لما يحدث ستدخِل الأمة في نفق مظلم، ولقد تنادى العرب إلى توافق في الرأي والحلول في قمة الرياض الأخيرة، لكن أعداء الأمة يخترعون لها بعد كل تفاهم ما يجعل التضامن العربي يواجه أزمة جديدة. ولقد بات المواطن العربي يشعر بالقلق والخطر وهو يرى محاولات جادة لإبادة روح المقاومة، ونشر ثقافة الهزيمة والإذعان والاستسلام، ولم يعد يدري ما تخبىء له الأيام؛ فقد يستيقظ على غزو جديد يتيح لإسرائيل أن تحسّن موقعها التفاوضي إن هي قبلت فيما بعد الانهيار أن تعقد سلاماً مع العرب، أو أنه مقبل على انتشار مريع لفوضى هدامة لا تترك له فرصة لتنفس الحياة، كما يحدث اليوم في العراق حيث تطالعنا الأخبار في كل ساعة بمقتل العشرات وانفجار العربات والسيارات المفخخة.

٢٠٠٧/٧/٦

المقاومة طريق إلى السلام

يعيش العالم كله حالة قلق وتربص مما قد تسفر عنه الشهور القادمة من أحداث كبرى يكون لها تأثير كبير على مستقبل البشرية التي باتت منذرة بفقد الأمان والاستقرار، وقد يصل الإنذار إلى ابتلاء البشرية بحروب مدمرة كتلك التي صنعها المجانين الكبار في النصف الأول من القرن العشرين. وإذا ما أصر قادة البيت الأبيض الحاليون الذين تقودهم إسرائيل، على خيارات الحروب، فإنها تنذر البشرية بفقدان كل ما أنجزته من استقرار ورخاء اجتماعي بعد الدروس المفجعة التي كان ينبغي أن تتعلمها من نتائج حماقات صناع الحروب. ولئن كنا ندرك أن إسرائيل تحتاج إلى الحرب، لأنها تخاف من السلام، وأن الولايات المتحدة وقعت في قبضة إسرائيل ولم تعد تملك رؤية استراتيجية خاصة بها وبمصالحها، بل باتت تنظر إلى هذه المصالح وإلى الكون كله بعيون إسرائيلية، فإن الأمر المدهش أن تفقد بعض الدول الأوروبية رؤيتها الخاصة، وأن تزج بنفسها في مواقف تناقض ما أعلنته من قيم ومبادئ بعد ما ذاقت ويلات حربين مدمرتين في القرن العشرين، وأن تدع إنجاز البشرية الأهم، في مجال حفظ الأمن (هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن)، يتعرض لسيطرة مطلقة من قبل الولايات المتحدة التي فقد قادتها البوصلة التي تدلهم على الطريق الأرحب لجذب الشعوب وجعلها تلتف حولها عبر قناعة بدور حضاري لها. والمؤسف أيضاً أن الولايات المتحدة حولت نفسها إلى جندي يخدم في الجيش الإسرائيلي، مهمته الوحيدة أن يحقق مشروع إسرائيل في إبادة الشعب الفلسطيني وفي تدمير قوى شعب العراق، وفي إشاعة الفوضى في لبنان ونشرها في كل المنطقة العربية والإسلامية تحت يافطة "الشرق الأوسط الكبير"، الذي تريد واشنطن أن تجعله ضعيفاً مجزأً ومثقلاً بحروب أهلية، جاهزاً لإعلان الولاء لإسرائيل التي تريد أن تصبح دولة عظمى وسط دول صغيرة متناحرة.

والعرب يدركون خطر هذا المخطط، وهو ليس أمراً جديداً عليهم، فقد سعت دول أوروبية منذ مطلع القرن العشرين لتفتيت الوطن العربي، وتقاسمته بعد انهيار الدولة العثمانية، مما أتاح للصهيونية أن تعلن عن قيام دولتها في فلسطين. وقد تصاعد الدعم الأوروبي لذلك الكيان وأضيف إليه دعم أميركي مطلق، من دون أية وقفة أوروبية أو أميركية حكيمة تسأل: ثم ماذا بعد؟ ماذا يريد الإسرائيليون أكثر مما فعل من أجلهم الأوروبيون والأميركيون؟ هل يريد الإسرائيليون إبادة كاملة لأربعة عشر مليون فلسطيني؟ إن كان الإسرائيليون يتمنون ذلك، فهل يشاركهم الأميركيون والأوروبيون أمنيتهم؟ أعتقد أن شعوب أوروبا وأميركا لا تريد ذلك، فقد عبرت هذه الشعوب عن ضيقها الشديد بتنامي نفوذ الصهيونية في العالم كله، ووقفت في مراحل كثيرة تنادي بضرورة تطبيق قرارات الشرعية الدولية، لكن قادة هذه الشعوب وقعوا في أسر

الصهيونية، وصاروا ينفذون مخططاتها على حساب مصالح شعوبهم. وبوسعنا أن نسأل قادة دول "التحالف": أية مصلحة لهم في طوفان الدم العراقي اليومي؟ وماذا أفادهم تحول العراق إلى بحر دماء؟ وما الأهداف التي يحققونها من قتل وإبادة مليون عراقي، ومن تشريد ملايين العراقيين الذين فقدوا الأمن في بلدهم؟ ولئن كان الهدف هو التخلص من صدام فقد انتهى صدام، وإن كان الهدف إضعاف قوة العراق المزعومة، فقد بات العراق خراباً، وإن كان الهدف المزعوم الآخر هو مكافحة الإرهاب، فأي إرهاب أخطر من وجود مائتي ألف جندي، يقتحمون البيوت ويقتلون الرجال والنساء أمام أطفالهم، ويدمرون المنازل، ويبيدون قرية كاملة بحجة البحث عن إرهابي واحد، ولا أدري كم عراقياً قتل من أجل أن تجد قوات الاحتلال طريدها الزرقاوي مثلاً! ولولا وجود الاحتلال ما وجد مثل الزرقاوي بيئة لما تم افتعاله من جرائم إرهابية كان هدفها الوحيد التشويش على المقاومة وخلط الحابل بالنابل. العمليات الإرهابية التي يشهدها العراق، هي نتاج الاحتلال بل هي من تخطيط الصهيونية التي تريد للعرب أن يغرقوا في بحور دماء الحروب الأهلية.

واليوم يزداد القلق العالمي والتخوف من أن تمعن الولايات المتحدة في عنادها، وأن تصر على تنفيذ مشروعها التخريبي المسمى "الشرق الأوسط الكبير"، وقد بدأت آليات تنفيذه في العراق وفي فلسطين وفي لبنان، وأول هذه الآليات إبادة المقاومة، وقتل إرادة التحرر عند العرب، ووضع دول المنطقة وشعوبها في حالة لا تتيح لها غير الإذعان والاستسلام... وبعض العرب ينفذون هذا المشروع عن وعي أو غير وعي بأنهم هم أول من سيدفعون ثمنه الباهظ. ودروس التاريخ القريب جديرة بأن يتأملها كل من يصدق وعود الإسرائيليين. لقد أعطاهم ياسر عرفات، بدافع إيجاد حل سلمي فوق ما كانوا يحلمون به، ولكن عندما تمسك بحق الفلسطينيين في العودة وبحقهم في القدس وبحقهم في الأرض. قاطعوه وعزلوه وأخيراً قتلوه. وقد وعدوا الفلسطينيين آلاف الوعود ولم ينفذوا منها شيئاً، بما في ذلك وعد بوش بإقامة دولة فلسطينية. والعجيب أن السعاة الأوروبيين الذين حملوا "خريطة الطريق" لإيجاد حل عادل وشامل للصراع، باتوا سعاة بريد يحملون مطالب إسرائيل ورسائلها المنذرة للأمة العربية.

ونحن في سوريا ما نزال نصر على خيار السلام، وقد أوضح خطاب القسم الذي أداه الرئيس بشار الأسد في بدء ولايته الدستورية الثانية، آليات عملية لمتابعة المفاوضات، لكن على العرب جميعاً ألا يطمئنوا إلى الوعود الأميركية، فقد فقدت شعوبنا الثقة بالموقف الأميركي، مثلما فقدت الثقة بقدرة القادة الأوروبيين على اتخاذ مواقف عادلة وهي ترى صمت أوروبا على ما تفعله الولايات المتحدة في العراق من قتل وتدمير يومي، وترى كيف أن بعض هؤلاء القادة لا يملكون برنامجاً خاصاً بهم وإنما هم ينفذون برامج عمل الولايات المتحدة، وهي برامج تصاغ وتبرمج في إسرائيل أو بيد اللوبي الصهيوني العالمي، وقد باتت هذه البرامج والخطط

تدميرية، لأن إسرائيل التي لم تعد قادرة على تحقيق أهدافها في التوسع ونشر النفوذ عبر الحرب السريعة الخاطفة، هي غير قادرة حتى الآن على الدخول في عملية سلام جادة، لأنها تريد الاحتفاظ بالأرض وتريد معها استسلاماً عربياً. وإذا كان هناك في العرب من لا يمانع في أن يتحول إلى مستخدم صغير عند الصهيونية، فإن ملايين العرب قادرون على التصدي لهذه الأماني الإسرائيلية الوهمية التي تحطمت في الصيف الماضي على أيدي المقاومة اللبنانية، وهي في كل يوم تتحطم على أيدي المقاومة الفلسطينية التي باتت قوتها الكبيرة في قدرتها على التضحيات دفاعاً عن الحقوق الفلسطينية، وما تشهده الساحة الفلسطينية حالياً من أحداث مؤسفة، هو بسبب غياب دور حقيقي لأميركا ولأوروبا من أجل تحقيق الوعود التي أعلنها بوش وحلفاؤه ثم تخلوا عنها. وتجربة أوسلو خير شاهد على كذب الوعود التي يخطئ من يصدقها. إن علينا ونحن نمد أيدينا للسلام أن نتمسك بخيار آخر هو من أجل السلام أيضاً، إنه خيار المقاومة التي تجعل إسرائيل مضطرة للقبول بقرارات الشرعية الدولية، ونحن لا نطلب أكثر من ذلك.

٢٠٠٧/٧/٢٠

أي سلام تريد أميركا؟

ما الذي يدعو الرئيس بوش إلى إعلان مبادرة للسلام الآن؟ أهو اقتناع مفاجئ بأن السلام هو الحل الوحيد الذي ينهي الصراع العربي ـ الإسرائيلي؟ لا أظن ذلك، فالرئيس بوش لم يكن يحتاج إلى أن يقف داعماً لسلسلة الاعتداءات الإسرائيلية التي يمكن وصفها بأنها حروب راح ضحاياها الألوف من الشعب الفلسطيني منذ أن تسلم موقع القيادة للدولة الراعية للسلام، منذ عهد أبيه الذي أطلق دعوة شهيرة لـ"مؤتمر مدريد" وقد استجاب لدعوته العرب متفائلين ولكنهم خرجوا منه يائسين. وكان ما دعاهم إلى الاستجابة آنذاك وضوح رؤية راعي السلام، فقد كان هناك مبدأ للمؤتمر الدولي، هو "الأرض مقابل السلام"، ومرجعية هي الشرعية الدولية ممثلة بقرارات مجلس الأمن التي أصبحت شهيرة يحفظها العالم كله، فضلاً عن التوجه المُعلن إلى إقامة دولة فلسطينية عاصمتها القدس، وإلى الاعتراف بحق اللاجئين الفلسطينيين بالعودة وفق القرار الدولي ١٩٤.

وكان هناك الراعي الروسي الذي تعهَّد مع الولايات المتحدة بالوصول إلى تسوية سلمية عادلة وشاملة ودائمة. وقد حضرت مؤتمر مدريد دول عظمى فضلاً عن مساهمة الأمم المتحدة، وقد دفعت سوريا للمشاركة في المؤتمر جملة رسائل تطمينات ووعود بدت جادة عبر سلسلة زيارات ومباحثات قام بها وزير الخارجية الأميركي جيمس بيكر إلى دمشق، والتفاصيل ما تزال في ذاكرة المجتمع الدولي كله. ولقد كانت سوريا صادقة في التوجه إلى ما سمته الخيار الاستراتيجي، وكانت العلاقات السورية ـ الأميركية على مستوى القمة شديدة الوضوح، حتى إن صلة إنسانية محترمة وشفافة نمت بين الرئيس الأسد الراحل وبين الرئيس كلينتون الذي بذل جهداً كبيراً لإنهاء عهده الرئاسي بتسوية تحقق له نصراً تاريخياً. لكن كلينتون كما أحسب لم يكن صاحب القرار الحاسم، فقد كان يحاول لكنه يدرك أن إسرائيل ليست جادة، وأنها تريد الاستفادة من الوقت كما صرح شامير، وكان إقدام الإرهاب الإسرائيلي على قتل رابين قتلاً لمسيرة السلام، وإعلاناً بأن إسرائيل تريد استسلاماً من العرب مقابل أن تضمن لهم أمنهم. ولتأكيد هذا الهدف قام بيريز بمذبحة قانا، ليعلن براءته من درب رابين ويضمن الأمان لنفسه. وحين جاء باراك متفائلاً بأن يذعن العرب للوقائع الجديدة، حاول أن ينكر وديعة رابين، وأن يجبر ياسر عرفات على تنازلات كبرى فيما يتعلق بالوضع النهائي، وكان الرئيس الأسد قد قدم أمثولة التمسك بمبادئ مدريد وعدم التنازل عن أي حق، ولاسيما مع وجود اعتراف دولي به، ولم يكن الرئيس الأسد الراحل يقبل أن يأخذ حقاً منقوصاً تنتقص معه السيادة الوطنية ولا أن

يدير ظهره للقضية الفلسطينية. وهكذا لم تنجح محاولة باراك مع الرئيس الأسد وقد حملها كلينتون، كما لم تنجح محاولته في كامب ديفيد الثانية مع عرفات، وجاءت المفاجأة المذهلة لباراك في النصر الكبير الذي حققته المقاومة اللبنانية و"حزب الله" بخاصة عام ٢٠٠٠، مما دفع شارون أن يقتحم المسجد الأقصى، ليمتحن قوة وحضور الإسلام في العالم الإسلامي كله. وكانت نتائج الامتحان مدهشة له ولحلفائه، فكان لابد من استهداف الإسلام بوصفه حاضناً رئيساً لفكر وثقافة المقاومة، وكان النموذج الطالباني معداً ببراعة لتقديم صوة قاتمة، كما كانت "القاعدة" التي رعاها الأميركان فزّاعة جاهزة، وتم إحراق واشنطن هذه المرة بجريمة سبتمبر، وابتلع العرب الطُّعم، حيث لم يكن ممكناً أمام الهياج الأميركي الجامح أن يطالب العرب بأدلة قاطعة على مسؤولية الإسلام والعرب عن الجريمة، واستغل الإسرائيليون بنجاح باهر ما حدث ليقنعوا العالم بأن المقاومة إرهاب، وأن "حزب الله" و"حماس" و"الجهاد" وسواهم من حركات المقاومة هم نسخة عن "القاعدة". وطبّل الإعلام الصهيوني لغسل أدمغة عالمية غير معنية بالبحث والتدقيق مضت في الركب الصهيوني وصار عدوها الجديد هو المقاومة. وقد حاولت إسرائيل في العام الماضي أن تقضي على المقاومة في لبنان، مثلما كانت تحاول منذ ستين عاماً أن تقضي على المقاومة في فلسطين، لكنها وجدت أن المقاومة أقوى من أن تُباد، وكان طبيعياً أن تسعى إسرائيل وحلفاؤها إلى تفتيت الجسد العربي الذي ينتج المقاومة في لبنان وفلسطين، على غرار ما تفعل أميركا في العراق.

والآن ما الجديد الذي ستقدمه الولايات المتحدة لدفع عملية السلام؟ وما المرجعية التي يريدها الرئيس بوش في دعوته إلى مؤتمر للسلام؟ أعتقد أن مفتاح الحل أمام المؤتمر المنشود هو أن يعلن الرئيس بوش أن أساس المؤتمر المقترح هو المبادرة العربية للسلام، وهي مبادرة واضحة الطريق والمعالم والأسس والمرجعيات، والأوْلى أن تقوم الأمم المتحدة برعاية مؤتمر للسلام، وأن تشارك دول كبرى فيه، لأن السلام بات ضرورة دولية ذات أولوية لإطفاء الحرائق في الشرق العربي والإسلامي. ولو أن ذلك حدث لوجدت الولايات المتحدة أن كل العرب معتدلون، ولسقط هذا التقسيم العدواني، لأن كل العرب موافقون على المبادرة، وهم جميعاً أكدوا رفضهم لأي تعديل فيها، فإذن ليس هناك معتدل ومتشدد، وليس هناك متنازل عن الحق، إلا إذا طلع علينا لا سمح الله من يريد النزول تحت سقف المبادرة. وإذا كان المقصود بفريق غير المعتدلين (سوريا) فإنها لم تخرج عن السرب العربي في اعتماد المبادرة العربية، وهي تدعو باستمرار إلى مؤتمر مثل "مؤتمر مدريد "واضح الأسس والمرجعية والأهداف، وقد أعلن الرئيس الأسد في خطاب القسَم ما تطلبه سوريا بوضوح كي تعود إلى طاولة المفاوضات عبر

آليات قدم ملامحها في خطابه، وقال إن المطلوب "أولاً هو إعلان رسمي من إسرائيل واضح غير ملتبس حول رغبتها بالسلام، والأمر الثاني تقديم ضمانات حول عودة الأرض كاملة، لأن كلمة سلام مرتبطة لدينا بكلمة أرض"، وإلا فما الداعي لتضييع المزيد من الوقت؟ والتجارب الماضية لا تطمئن، وقد أشار الرئيس الأسد إلى ضرورة وجود وديعة تشبه وديعة رابين، ولم تعلن سوريا رفضاً لدعوة السلام في أي يوم، ولكن سوريا تريد أن ترى وضوحاً وجدية، وهي تريد أن تكون دعوة الرئيس بوش جادة، ولن تتأكد جديتها أمام مواطنينا العرب إلا إذا أعلن الرئيس الأميركي أسسها ومرجعياتها وضماناتها ومصداقيتها عبر حضور دولي وأممي ضامن .

إن الخطر الذي يشعر به مواطنونا العرب اليوم هو أن يكون الرئيس بوش يبحث عن ذريعة جديدة لعدوان جديد على المنطقة، مبرره أنه سعى إلى السلام، لكن العرب رفضوه، ودعاة المقاومة أجهضوا مشروع السلام الأميركي، وبالطبع لن يشرح الإعلام الصهيوني المروج طبيعة السلام المعروض من أميركا، فقد يكون الهدف مجرد حملة علاقات عامة تتيح لإسرائيل اصطفافاً جديداً من بعض العرب الذين تسميهم معتدلين ضد من تسميهم متشددين وإرهابيين أو رعاة إرهاب، والمواطنون العرب المرتابون يدفعهم إلى الريبة دعم أميركا العسكري لإسرائيل في مرحلة إعلان سلام!! وسعيها إلى شق الصف العربي واستفادتها من الخلل الحاصل في المجتمع الفلسطيني واللبناني. إن كثيراً من المحللين العرب يخشون أن يكون هدف المسعى الأميركي إحداث شرخ جديد وكبير في الوطن العربي عبر تباين محتمل في المواقف العربية من عرض السلام الغائم لتكون النتيجة مزيداً من التفتت فوق ما تعانيه الأمة من اضطراب في العراق ولبنان وفلسطين، لذلك لابد للأمة من التمسك بثوابتها، والمطالبة الجادة باعتبار المبادرة العربية منطلقاً للسلام، وبإعلان واضح لمبدأ مدريد "الأرض مقابل السلام". فأي تسرع في القبول أو في الاصطفاف والتطبيع مع إسرائيل وبدء مسلسل المصافحات والتقاط الصور التذكارية قد يقود الأمة إلى تفكك لا يريده أي عربي يحرص على الحق العربي، وسيكون مؤلماً أن يقع العرب في ذات الفخ مرات عديدة، مع أمنيتي بأن تكون دعوة بوش مراجعة حقيقية للسياسة الأميركية ينهي بها عهده بطلب الغفران بعد طوفان الدماء التي سيسأله الله والتاريخ عنها، وهي ما تزال تهرق في العراق كل يوم وتهدد بها منطقتنا كلها ظلماً وعدواناً.

٢٠٠٧/٨/٣

«العوْربة»... السبيل لمواجهة العولمة

لا أقصد باستعادة المشروع القومي إعادة نموذجه الذي جعل بعض المثقفين العرب ينفرون منه بعد عقود من تجاربه المريرة، ومن نكساته الشهيرة التي تحمّل مسؤوليتها الفكر القومي عبر رموزه الحاكمة، لكن الفكر بريء من سوء تطبيقه حتى ولو اعترض الذين يربطون الفكر بالنتائج، بحجة أن الحق يعرف بالرجال. لكنني أرى أن الرجال يُعرفون بالحق. وأنا لست ضد المقولة التي طالما رددتها (الأمور بخواتيمها)، لكن الأمور شيء والفكر شيء آخر، فالإسلام بوصفه فكراً وديناً غير مسؤول عن سوء الفهم وسوء التفكير والتطبيق. وكذلك الفكر القومي بوصفه انتماءً ومشروعاً لوحدة أمة غير مسؤول عن الفهم الضيق للقومية، وعن ربطها بأفكار أخرى مثل الماركسية التي لم يحظ الوطن العربي بتطبيق عادل لما فيها من مقاصد إنسانية. وأنا أدرك أن مقولة: "اقرأ تفرحْ جرِّب تحزنْ" تصحُّ بشكل ما على تجربة المشروع القومي، فثمة فارق بين الحلم وبين الحكم، وقد فرَّق بين الحالتين صديقي الشاعر الكبير سليمان العيسى حين سُئل عن سر ابتعاده عن السلطة وهو الذي كان من الرواد المؤسسين لحزب البعث العربي فقال: "لقد آثرت الحلم على الحُكم". ولكن أحلام الأوائل لم تخب كلها، صحيح أن حلم الوحدة السورية ــ المصرية تحول سريعاً إلى كابوس، وأن نكسة حزيران وجهت ضربة قاسية للمشروع القومي، وكانت شبه نهاية تراجيدية لأبرز رموزه (جمال عبد الناصر)، ولكن هذا المشروع قدم خطوة إلى الأمام في حرب أكتوبر، حين نهض من الشعور بالهزيمة معنوياً، لكن العرب لم يستطيعوا استثمار نتائج الحرب .وأعتقد أن النكسة الثانية التي واجهت المشروع القومي كانت في قبول بعض العرب لمبدأ الخلاص الفردي مما جعل العرب الذين خاضوا الحرب معاً ينقسمون إلى فريقين، أحدهما :ما يزال في حالة مواجهة وصراع، والثاني: دخل في حالة سلام وتطبيع مع إسرائيل.

وقد واكب هذا الانقسام افتعال صراع مع إيران، جعل بغداد التي كان بوسعها أن تشكل مركز قوة ضخماً للمشروع القومي، تتجه نحو عدو مُفتعل بدل أن توفر قواها لعدو حقيقي. ولم تحقق الحرب الإيرانية ــ العراقية أي انتصار يذكر سوى انتصار على المشروع القومي العربي الذي تلقى ضربة قاضية حين انتهت الحرب بغزو صدام للكويت وما جر من تدخل أجنبي جعل الوطن العربي قاعدة عسكرية كبرى لحلفاء إسرائيل.

لم يعد بوسع أحد من العرب بعد تلك الضربات القاسية أن يتحدث عن الوحدة العربية التي كانت شعار الأجيال، فقد تقلص حلم الوحدة إلى البحث عن الحد الأدنى من التضامن العربي، وقد مرت مراحل كثيرة لم يكن تحقيق هذا الحد الأدنى فيها ممكناً، حتى إن الجامعة العربية وجدت نفسها مهددة بالانفراط لولا جهد عروبي أمسكها بقوة .

والسؤال الذي يمكن أن يطرح، هل كان المشروع القومي بوصفه فكراً هو المسؤول عن هذا الإخفاق كله؟

إن تأمل ما حدث يكشف أن المشروع القومي تعرض لاختطاف.. تماماً كما تعرض المشروع الإسلامي لاختطاف. ولم يكن هذا الفكر مسؤولاً عن قيام صدام بغزو الكويت، كما لم يكن الفكر الإسلامي مسؤولاً عن التطرف المقيت الذي أسهم في تشويه صورة الإسلام. وكما أن المسلمين في العالم كله لن يتخلوا عن الإسلام مهما حاول أعداؤه من الداخل والخارج تشويه صورته، فإن العرب كذلك مسلمين ومسيحيين لن يتخلوا عن كونهم عرباً وأمة واحدة، وما يزال الحامل العربي هو المخرج الآمن من حالة التمزق المُريع الذي أصاب الأمة، وهو حامل يجد في الإسلام كما في المسيحية ما يعزز قوته وينهض بمشروعه من جديد .

والسؤال الآن: هل بوسع العرب أن يستعيدوا مشروعهم القومي بعد كل ما أصابه من ضربات ووهَن وضعف؟

أقول: نعم، بوسعهم ذلك، بل إن طريق الخلاص الواضح أمامهم هو استعادة كونهم أمة واحدة. وأدرك أن الدعوة إلى استعادة المشروع القومي تتطلب جهداً فكرياً أرجو أن يسهم فيه العرب جميعاً، وأن تتم مراجعة كبرى لتفاصيل هذا المشروع، واعتراف بأخطائه الفكرية والتطبيقية، وأن تبنى رؤيته الجديدة على قاعدة الواقع ومعطياته، وأن يجد العرب وسيلة لاستعادة القوى الكبرى التي خرجت من المشروع، ووجدت نفسها هامشية فيه، بل إن بعضها صار مُطوقاً بالمشروع الصهيوني الذي لبس قناعاً جديداً، وبدّل اسمه إلى مشروع "الشرق الأوسط الجديد". وأدرك أن إيجاد الوسيلة أمر صعب للغاية، ولكن العرب اليوم يدركون جميعاً أنهم مهددون، وأشدهم تعرضاً للتهديد هو الفريق الذي يخترعون له أسماء ترويجية، مثل صفة: الاعتدال، التي تعني أن الفريق الآخر هو الفريق المتشدد. مع أنه الفريق المرن الذي ينادي بالسلام ولكنه يريده سلاماً عادلاً وشاملاً وليس استسلاماً وهواناً، والعدل المطلوب.. عدل نسبي. لأنه عدل مستمد من الواقع والممكن وليس من التاريخ القريب، ولم نعد ندري كيف يكون الاعتدال فوق ذلك! إن الصمت العربي الراهن على ما يجري في العراق من قتل يومي مريع وحالة تهجير شعب العراق بشكل يومي من أرضه ووطنه بحثاً عن الأمان، وتحول أخبار الدمار إلى أنباء عادية لا تستفز أحداً، ولا تعنيه، هو أمر يهدد كل الأقطار العربية بمستقبل دموي عبر الصراعات المفتعلة التي نجد نماذجها في لبنان وفلسطين، وغير بعيد أن تمتد إلى أقطار عربية أخرى، فيكون الاحتلال الصهيوني للأمة قد حقق أهدافه البعيدة في نشر الفوضى والدمار في كل مكان. وهذا هو المقصود بـ"الشرق الأوسط الجديد"، شرق بلا ملامح، وبلا هوية لسكانه، سوى إثنيات وأعراق وطوائف ومذاهب تنبش في التاريخ بحثاً عن جذور فتنة،

تكفي أعداء الأمة عبء القتل والتدمير. وقد بات عجيباً أن نجد في الأمة من يخاف من المقاومة العربية والإسلامية، ويطمئن إلى العدو الإسرائيلي الصهيوني .

ولئن كان أخطر ما يواجه الدعوة إلى استعادة المشروع القومي، هو ما نجح فيه أعــداؤنا من تشويه لصورة العروبة، فإن الجهد الذي ينبغي أن يبذل هو مكافحة هذا التشــويه، وتقويــة اعتزاز الأجيال الشابة بانتمائها للعروبة، وربطها بلغتها الأم، وما تعنيه هذه اللغة من ثقافة وقيم وأسلوب تفكير، وحرص على كون العروبة فضاء فكرياً لكل الأعراق والأديان وليســت نسَــباً عرقياً. فهي ثقافة وانتماء حضاري، وهي فوق ذلك كله، متلازمة مع الإسلام، فالعروبــة هــي الحامل التاريخي للإسلام، والإسلام هو الحاضن الحضاري للعروبة. والعوْربة هــي الســبيل الوحيد لمواجهة العولمة، ولابد من إنهاء الفصام بين المشــروعين الإســلامي والقــومي، لأن أحدهما يكمل الآخر، ولا يتم ذلك إلا بإنهاء حالة اختطاف الفكر العربي كله، عبر ما أرجو أن يتم على صعيد عربي كبير من مراجعة فكرية شاملة.

٢٠٠٧/٨/١٧

العرب... شركة شرق أوسطية!!!

منذ أن انفرط عقد الوحدة السورية ــ المصرية عام ١٩٦١، وأخفقت تجارب الاتحادات الثلاثية التي لم تجد أي تفعيل في الواقع السياسي العربي، بدأ البحث عن التضامن العربي بديلاً عملياً عن الحلم الوحدوي. وكنتُ أستغرب أن يقبل العرب فيما بينهم بالتضامن، الذي كانت تعلنه معهم أمم أخرى تؤيد حقوقهم في المحافل الدولية، بل إن بعض الأمم والدول كانت تعلن أياماً للتضامن مع كفاح الشعب الفلسطيني أو الشعوب العربية، لكن المفارقة أننا بتنا اليوم نبحث ونكاد نكتفي بتحقيق الحد الأدنى من هذا التضامن الذي يحمل دلالة شراكة بدل الاندماج والتمازج في أبعاده القانونية. ولكن الأدبيات السياسية لم تضع حدوداً لهذا التضامن، مما يجعل الحديث عن الحد الأدنى أو الأعلى فيه غير مُقيّد. وأجد من الضروري أن يؤكد العرب في لقاءاتهم السياسية الراهنة على الضوابط والحدود التي يعنيها هذا التضامن، وأن يتم الإعلان عن ماهيته ومضامينه، أهو تضامن شامل، أم تضامن محدود، وهل بوسع أحد المتضامِنين أن يقوم بفعل أو تصرف يخالف المصلحة العامة التي يرمي إليها هذا التضامن دون أن ينقض حدود هذه الشراكة؟

لقد توالت الاتهامات إلى الفكر العربي القومي بكونه يقوم على العواطف والمشاعر، ويستبعد العقلانية والمصالح القطرية، وقيل إن السياسة تدعو إلى الإذعان الكامل للواقعية ولفن الممكن، فتم إجهاض أحلام الوحدة، وتم تجاهل تعريف الأمة العربية، وتم الاعتراف الكامل من الفكر القومي بالدولة القُطرية، ولكن الإسراف في الإذعان للواقعية السياسية أوصل الأمة إلى شرذمة غير مسبوقة في تاريخها. ولنا أن نتذكر أن المماليك وهم ليسوا عرباً، أقاموا دولاً في أرضنا العربية بعد انهيار الدولة العباسية، لكنهم كانوا يحرصون ولو على صعيد شكلي بأن يستمدوا الشرعية من مركز الدولة الأم في بغداد حفاظاً على وحدة الأمة في صورتها الخارجية. وفي العصر الحديث أنكرنا على قادة الأمة في النصف الأول من القرن العشرين إخفاقهم في حرب النكبة، ووجَّه جيلنا إلى بعضهم تهم الخيانة، ولكننا لا نجد أحداً منهم أعلن ذات يوم تنكُّره لمعنى العروبة، أو لأهدافها القومية، بل إنهم أجمعوا على إقامة بيت عربي هو الجامعة العربية، وساعدهم في ذلك البريطانيون الذين كانوا هم والفرنسيون يقتسمون الأمة العربية، ولكنهم لم يجرؤوا قط على إنكار عروبتها وإسلامها، اللهم إلا في تجربة فرنسا الفاشلة في الجزائر. وما يزال العالم اليوم يعاملنا على أننا أمة واحدة ويسمينا العرب، بينما نحن نغرق في واقعية الانقسام ونمعِن في قبول التجزئة إلى حد تكاد تضيع فيه الحدود الدنيا من التضامن

الذي بات حلماً يتلاشى مع ما نشهده من خلل واضح في العقد والميثاق العربي، وفي ما نسميه الثوابت.

لقد قادتنا الواقعية السياسية إلى مواقف لا أدري كيف ستحكم عليها الأجيال العربية القادمة إن هي تمكنت ذات يوم (وسوف تتمكن إن شاء الله) من إصلاح الوضع العربي المتردِّي.

ما يزال العالم اليوم يعاملنا على أننا أمة واحدة ويسمينا "العرب"، بينما نحن نغـرَق في واقعية الانقسام ونمعِن في قبول التجزئة.

ولن أُسرف في وصف ما آلَ إليه الحال العربي (حفاظاً على الحد الأدنى من التضـامن) فهو وضع معروف، حسبنا منه أن بعض العرب يتفرَّجون عليه كأنه يحدث في كوكب آخـر، وبعض مثقفيهم يبحث له عن مبررات. تماماً كما نجد منذ حين مَن يبرر ما يحدث في فلسطين من حصار لغزة وتجويع لأهلها، وتقسيم للشعب الفلسطيني، رغم إدراك الجميع خطر مـا يـتم التخطيط له على صعيد استراتيجي ستكون نتائجه المأساوية شاملة للأمة كلها. ولسوف ينتقدني بعض من يبحثون عن هذه المبررات لإسرائيل أو للولايات المتحدة، ممن يعتبـرون غزوهـا للعراق مثلاً، نشراً للديمقراطية وخلاصاً من الديكتاتورية. وسينتقدني مَن يعتبرون "حـزب الله" مسؤولاً في أسره لجندي إسرائيلي عن تحريض إسرائيل لشن حرب تموز العام الماضي، ومَن يعتبرون تمسك "حماس "بالحق الفلسطيني الشرعي تعطيلاً لعملية السلام وما إلى ذلك، بحيـث يتحول الحديث إلى التناحر في تبادل المسؤوليات بدل الحديث عن خطر الاحتلال في العـراق وفلسطين وعن الخطة الاستراتيجية الأميركية الإسرائيلية لإنهاء ارتباط لبنان بالأمة العربيـة، وإضعاف سوريا وحصارها وإجبارها على اللحاق بالمشروع الصهيوني الشرق أوسطي، الذي انسل إلى بعض مواقع القوة العربية، وباتت تخدم أهدافه عبر شبكة العلاقات السياسية الدوليـة التي تفرضها الواقعية.

والسؤال الذي ينبغي أن يطرح في الملتقيات السياسية العربية بجديـة ومصـارحة علـى قيادات الأمة، إلى أين تمضي أمتنا؟ ها هي ذي إسرائيل تهددنا صباح مساء، وتعِـدُّ لحـروب جديدة، بل إن المحللين السياسيين يترقبون أن تقوم إسرائيل بعدوان جديد هذا الصيف وربما في الخريف القادم، فما موقف العرب إن حدث ذلك؟ هل سيبحث أحدهم عن مبررات لإسـرائيل؟ وبما أن عالمنا اليوم يشجع الأبحاث الافتراضية فلنفترض أن إسرائيل (لا سمح الله) تمكنت من التخلص من "حزب الله" ومن" حماس" ومن كل القوى الوطنية المقاومـة المعطلـة للمشـروع الصهيوني، وأن سوريا أعلنت أنها غير معنية بالحقوق العربية، وآثرت السلامة وانتحت جانباً، وأن الفلسطينيين تنازلوا عن حق العودة وقبلوا أن يتحول المسجد الأقصـى إلـى هيكـل، وأن

تصبح القدس عاصمة لإسرائيل، وأن تبقى المستوطنات فـــي الأرض الفلســطينية، وأن يبقـــى الجدار الفاصل، وأن تبقى إسرائيل بلا حدود دولية معلنة، وأن العرب قبلوا التخلي عن كـــونهم عرباً وأعلن كل واحد منهم انتماءه إلى طائفة أو مذهب أو عرق أو شـــركة شـــرق أوســـطية، ولنفترض أنهم أعلنوا التخلي عن الإسلام ما دام متهماً بالإرهاب وداعياً للعنف (كما يقولـــون) وليقل لنا من يريدون هذا التخلي كيف سيكون حالنا ومصيرنا، إن حدث ذلك، وهو لن يحدث، ولكن هل هذا ما يريدون؟

أعتقد أن الأمة بحاجة ماسة لمواجهة الأسئلة الكبرى، على الأقل لتحديد ضوابط لمعنـــى التضامن العربي، في وقت بات فيه سفير دولة عظمى يتحكم بمصير البلد الذي يفترض حسب القوانين الدولية أنه ممنوع من التدخل في الشؤون الداخلية للبلد الذي يمثل بـــلاده فيـــه. لكـــن الانتهاك بلغ حد تهديد من لا يذعن للإرادة الغربية في رسم الشؤون الداخلية لبلد عربي، وبلـــغ حد الترغيب لسوريا من رئيس دولة كبرى بصلة متينة عالية إذا هي قـــدمت مســـاعدة لدولـــة أجنبية كي تتحكم بمصير بلد عربي، وبالطبع سيكون هذا التحكم من أجل إسرائيل ولصالحها.

ولا يغيب عن بال أحد أن الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا معنيون بإسرائيل وليســـوا معنيين بأحد من العرب، وهذا ما أثبتته التجارب. بل إن كثيراً من قادة الغرب محكومون علانية من اللوبي الصهيوني العالمي، ولعل سر ضعف موقف الرئيس بوش اليوم هو بدء العد التنازلي في تخلي الصهيونية عنه لأن موعد رحيله يقترب. ولقد تابعنا موقف إســـرائيل مـــن الـــرئيس كلينتون قبيل رحيله، ورأينا كيف نسي اللوبي الصهيوني خدماته الجُلَّى لهم، وسهره الليالي وهو يتابع المفاوضات التي لم تفضِ إلى شيء، لأن الإسرائيليين لم يقدموا له أي موقف يساعده على فعل شيء يذكره التاريخ به، بل إن هذا اللوبي ودَّعه بفضيحة مسَّت كرامته الشخصـــية، كمـــا فعلوا مع كثير ممن سبقوه، ولا ندري ما يخبِّئون لبوش قبل أن يحل موعد رحيله!

٢٠٠٧/٨/٣١

إسرائيل والخوف من رفع سقف السلام

لم يك ن مفاجئاً لأحد في سوريا أن تقوم إسرائيل باعتداء عليها عبر اختـــراق طائراتهـــا للأجواء السورية، فقد كان الشارع السوري يتوقع عدواناً إسرائيلياً تحدثت صحف العـــالم عـــن تحضيرات إسرائيل له منذ شهور، وقد توقعت أن تقوم إسرائيل بعمل ما حـــين أجمـــع وزراء الخارجية العرب في اجتماعهم الأخير في القاهرة على ضرورة عدم استبعاد سوريا ولبنان من المؤتمر الذي دعا إليه الرئيس جورج بوش، وجعلوا تأييدهم للمؤتمر مشروطاً بهذا الحضـــور، وكان واضحاً أن إسرائيل التي رفضت خلال عقود أية تسوية شـــاملة، ســـترفض أن تحـــاور العرب مجتمعين، فهي تريد تجزئة الحلول وتهميشها، وقبيل الاجتماع بساعات أعلنت وزيـــرة الخارجية الإسرائيلية ضرورة خفض سقف التوقعات من المؤتمر الذي قيل إن رايس أرادت أن ترفع سقفه، ولم يكن واضحاً كيف يمكن أن يرتفع سقف التوقعات مـــن مـــؤتمر تغيـــب عنـــه الأطراف الرئيسة في القضية. المهم أن إسرائيل قامت باعتداء على الأجواء الســـورية بوســـع المحللين اعتباره رداً على التأييد العربي المشروط للمؤتمر، ويمكن فهمه كرسالة تقول: لا نريد أن تشترك سوريا في المؤتمر. ولقد تابعت في الصحف الإسرائيلية تعليقـــات متنوعـــة حـــول العدوان الأخير، وكان واضحاً أن هناك تعبئة ضد سوريا، بل إن أحد الكتاب الإسرائيليين وجد ضرورة أن يستعيد الجيش الإسرائيلي مكانته بعد الفشل في لبنان في العـــام الماضـــي. ولـــن أتجاهل أن بعض الكتاب الإسرائيليين أشادوا بحكمة سوريا التي لا تريد أن تجر المنطقة والعالم إلى حرب كبرى، لكن التردد الإسرائيلي في إيضاح ما حدث، انتهى إلى ما يثير القلـــق؛ فقـــد بدأت معزوفات إعلامية أميركية تقول إن الطائرات استهدفت مواقع عسكرية إيرانيـــة ســـورية يشتبه بوجود مواد نووية فيها قادمة من كوريا الشمالية، وكتبت "نيويورك تايمز" فـــي عـــددها الأربعاء الماضي إن الإسرائيليين يعتقدون بوجود مواد نووية في المواقع التي استهدفوها.

والعجيب أن تعاني المخيلة الإعلامية الصهيونية من هذا الفقر الذهني الذي يدعوها إلـــى استخدام ذات الأقاصيص والخدع التي سبق لها استخدامها مرات، وقوبلت باستهجان دولي بعد انكشاف سخفها. ومن الواضح أن هذه التعليقات تنبئ ببدء حملة إعلامية تبريرية جديدة لما أظن أن إسرائيل تستعد له من عدوان جديد تبحث له عن ذرائع، يكون من بعـــض أهدافـــه إفشـــال مؤتمر السلام وخفض سقف توقعاته بافتعال ظروف معطلة جديدة.

وليس مفاجئاً لنا خوف إسرائيل من السلام؛ فقد تهربت كثيراً من مؤتمر مدريد، وتمكنـــت من إفشاله حين لم تقبل بحل عادل وشامل ونهائي، وتمكنت من إفشال "أوسلو" حين بحثت فـــي

القضايا الثانوية وتركت ملف القضايا الكبرى مثل القدس واللاجئين والمستوطنات إلى أجل غير مسمى، وتمكنت من إفشال كل مساعي الأمم المتحدة وقرارات مجلس الأمن الدولي التي قدمت حلولاً قبلها العرب ولو أن إسرائيل قبلت بها منذ أن صدرت لكان السلام قد تحقق منذ سنين طويلة، كما تمكنت من إفشال مساعي "اللجنة الرباعية"، بل كانت ترفض تدخل الاتحاد الأوروبي، وتتعامل مع الأوروبيين بضيق بلغ ذروته حين عبر هؤلاء عن رؤيتهم لإسرائيل بوصفها خطراً على السلم العالمي، وحين دعت بعض الجهات المنصفة في أوروبا إلى محاكمة شارون بوصفه مجرم حرب، وحين تهكمت عقول أوروبية نيرة من الرواية الأميركية لجريمة ١١ سبتمبر. وقد وجهت إسرائيل كل طاقات اللوبي الصهيوني العالمي لتحسين صورتها في أوروبا، لكن بقي قبولها بدور أوروبي لتحقيق السلام موضع ريبة عربية وأوروبية أيضاً. بل إن إسرائيل أجهضت الرؤيا "السماوية" للرئيس بوش حول إقامة دولة فلسطينية مقابل الدولة الإسرائيلية. وإذا كان الرئيس بوش الذي اعتبر إقامة دولتين تكليفاً إلهياً، يريد أن يحقق الوصية قبل أن يغادر البيت الأبيض، فإن الإسرائيليين يريدون منه خفض التوقعات كيلا يصاب بخيبة أمل، ولعلهم يقولون في سرهم: ألم تر كيف ودعنا كلينتون؟ وقد بدأت صحافتهم تنسج لبوش حكاية النهاية، وفضائح الوداع. وبوسع الرئيس بوش أن يتساءل: هل يبيع الإسرائيليون موقفاً ذهبياً لرئيس راحل؟ وهل تقدم إسرائيل مجداً تاريخياً لرئيس يفقد شعبيته، ويحمله الكونغرس مسؤولية كبرى حول ما قاد إليه الولايات المتحدة من حروب بلا أهداف، جعلت العالم كله، وليس العرب والمسلمين فقط، يكرهون أميركا، بل إنهم يحملونه مع العالم مسؤولية ما آلت إليه الأوضاع الإنسانية في العراق، ومسؤولية ازدياد خطر الإرهاب بدل الحد منه أو القضاء عليه!

وبوسع المحللين أن يتساءلوا: هل يمكن أن تمضي إسرائيل إلى مؤتمر للسلام يجعل حرب يوليو ٢٠٠٦ آخر حروبها؟ وهل بوسع إسرائيل أن تتخلى عن الضفة الغربية وقطاع غزة والجولان، وعن كل الأراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧ وتعود إلى داخل السور؟ لقد قال شيمون بيريز مرة إن العودة إلى حدود ١٩٦٧ تعني نهاية إسرائيل، لكن بيريز وجنرالات إسرائيل يعرفون جيداً أن للسلام ثمناً، وعلى من يريد أن ينعم بالسلام حقاً أن يدفع ثمنه، وحسبهم أن العرب في مبادرتهم التاريخية يعطون لإسرائيل ما لم يكن يحلم به بن غوريون وغولدا مائير، وإن كان بعضهم يرى أن الظروف التي وصل إليها العرب خلال الأربعين عاماً الماضية من التردي، قد أفقدتهم قدرة الممانعة، وأن بوسع إسرائيل أن تحصل منهم على مزيد من التنازلات لكونهم متفرقين بل وصلوا إلى حال من الضعف منع بعضهم حتى من إظهار الاستنكار لعدوان إسرائيل الأخير على سوريا، حيث صمت بعض أشقائها ولم يصدروا أي تعليق. لكن ما يرونه

هو مجرد القشرة الخارجية للأمة العربية، وعليهم أن يقرؤوا قراءة تحليلية ما تحت القشرة. ولن أسرف في التفسير، فحرب الصيف في لبنان كشفت الغطاء، كما أن موقف المقاومة الفلسطينية يكشف قوة ما تحت القشرة، وأما موقف المقاومة العراقية فقد تعرض لتشويه كبير عبر خلط الإرهاب الصهيوني به وعبر زرع الفتن الطائفية للتشويش عليه، ورغم ذلك فقد حقق حضوراً وطنياً مدهشاً، وشعب سوريا من ذات الطراز الوطني بامتياز، وقد عبر عن قدرته الضخمة على التضحية والصمود في كل المعارك القومية، وسيكون أكثر قدرة على التعبير حين يكون الموقف دفاعاً عن سوريا.

لقد قبلت سوريا منذ انتهاء حرب أكتوبر أن تضع السلام بديلاً عن الحروب، لكن إسرائيل تخاف من أن يحدد السلام حدودها، وأن يقضي على فكرة الإمبراطورية اليهودية الصهيونية، وأن يجبرها على إعادة الحقوق العربية إلى أصحابها، وهذا ما يجعلها تسارع لإفشال أية خطة أو مؤتمر للسلام، وهي تريد من العرب استسلاماً كاملاً، وإذعاناً مطلقاً، عبر إشعال مزيد من الفتن في الجسد العربي، وإنهاكه بالخلافات الدينية والمذهبية والعرقية التي يستجيب لها بعض الجهلاء.

إن جر المنطقة إلى أتون حروب جديدة، والبحث عن ذرائع لها، سينسف كل الجهود الدولية لإحلال السلام في المنطقة، والمجتمع الدولي يدرك أن سوريا جادة في البحث عن السلام، لكنها ليست دولة مستضعفة تستطيع إسرائيل أن تخيفها.

إننا نخشى أن تقود إسرائيل بحماقة الضعفاء، العالم كله إلى دمار جديد فوق ما تعاني منه الإنسانية من ويلات الحروب. ومن يقرأ التاريخ المعاصر سيجد أي دور فظيع ومريع لعبته الصهيونية في إشعال الحربين العالميتين الأولى والثانية في القرن الماضي، وندعو الله أن يجنب البشرية خطر ما تسعى إليه إسرائيل في القرن الحالي.

٢٠٠٧/٩/١٤

رسائل الحرب والسلام

كان اعتداء إسرائيل على الأجواء السورية في الوقت الذي يدعو فيه الرئيس الأميركي إلى مؤتمر للسلام، رسالة للمنطقة وللعالم مفادها أن إسرائيل ترفض خيار السلام وتريد خيار الحرب المستمرة المفتوحة على كل الاحتمالات، بل بات بالوسع أن يفهم المراقبون من سلسلة الأكاذيب والذرائع التبريرية التي قدمتها بعض الصحف الصهيونية عبر مخيلة عاجزة عن الإبداع تكرر ذات الذرائع والأكاذيب التي تم استهلاكها في ذرائع الحرب على العراق، أن ثمة مخططاً يمكن أن يستلهم من تجربة الحرب على العراق نموذجاً يمكن تطبيقه مرة ثانية. هذا ما يمكن فهمه مما يثيره الإعلام الأميركي وينقله الإعلام الإسرائيلي عن أهداف العملية وعن إقحام الملف النووي الكوري والإدعاء بوجود مواد نووية في المنطقة التي تزعم بعض الصحافة الأميركية إنها تعرضت لاقتحام كوماندوز إسرائيلي حصل على مواد نووية من أصل كوري شمالي، وقد استنكر عقلاء العالم كله هذه، ولم يكن دعاة الحروب يعنيهم أن يصدقهم أحد، أو أن يستنكر أكاذيبهم، فقد اعتادوا على الكذب، واعتادوا على الاعتذار والاعتراف بأن ما قالوه كان سخيفاً. والعالم كله يتذكر أن مجلس الأمن انصت باهتمام ذات يوم لتسجيل صوتي لحوار هاتفي غير مفهوم بين ضابطين عراقيين يتحدثان عن إخفاء مواد نووية وقدم التسجيل الوزير "باول" على أنه وثيقة مهمة، وكتم أعضاء المجلس سخريتهم لأنهم غير قادرين على مخالفة الولايات المتحدة. وقد اعتذر "باول" عن سخف ما قدم لمجلس الأمن، ولكن بعد خراب البصرة ودمار العراق كله؟

كذلك اعتذر كثير من المراقبين الدوليين الذين قدموا شهادات كاذبة، وبدا واضحاً أن فريق "هانز بليكس"، وبعده فريق "سكوت ريتر "كانوا يريدون معرفة كل ما لدى العراق من أسلحة وقوى يمكن أن تواجه الحملة الأميركية، وقد قالوا في النهاية إنهم لم يجدوا شيئاً مما يبحثون عنه ولكن الحرب ستقع، والمهم أن توقع الاستلهام من الحرب الصهيونية على العراق يدعو إلى التفكير بحقيقة رؤية إسرائيل وقادة البيت الأبيض لنتائجها، وكيف يقيمون مسارها؟ هل يشعرون حقاً أنها حرب فاشلة لم تؤد أهدافها؟ أغلب الظن أنهم يرون التجربة ناجحة جداً، فقد تحققت الأهداف البعيدة منها، وتم تدمير قوة العراق العسكرية والاقتصادية والاجتماعية، وتمت شرذمة شعب العراق إلى طوائف ومذاهب دينية وأعراق وإثنيات، وتم إشعال الفتن لإدخال العراق في حرب أهلية مذهبية وعرقية، وتم تهجير أربعة ملايين عراقي، وتم قتل العلماء والمبدعين، وإدخال شبكات إرهابية مهمتها القتل والتدمير والتفجير والإبادة لكل القوى الوطنية، وإيجاد الذرائع لاستمرار الاحتلال، وتم شطب العراق لأمد غير قصير من قائمة القوى التي تحسب إسرائيل لها حساباً مستقبلياً في أي حرب تخطط لشنها على العرب فرادى أو مجتمعين. إذن فقد

حققت الحرب على العراق كامل أهدافها الإسرائيلية، ولئن كنا نرى أن هذه الحرب أخفقت من وجهة نظر عربية، فمعيار إجابتنا يتعلق بنهوض مقاومة عراقية أعاقت تقدم المشروع الأميركي الصهيوني، وفرضت شروطاً جديدة على مسار الحرب، ولأننا نرى كذلك أن الولايات المتحدة وحلفاءها دفعوا أثماناً باهظة فوق ما كانوا يتوقعون، لكن الحقيقة التي لا يتجاهلها أحد، هي أن العراق دمر، وأن شعب العراق تعرض لأفظع ممارسات وحشية عرفها تاريخ الحروب الهمجية .كان يُمكن أن يقال إن هذه الحرب أخفقت لو كانت أهدافها الحقيقية نشر الديمقراطية وإحلال الأمن والاستقرار، وبناء عراق جديد تنتشر في ربوعه الحرية، كما ادعت قوى العدوان، وباتت دعواها موضع سخرية دولية، وذلك لا ينفي أن الإدارة الأميركية باتت في مأزق، ولكنه في نظري مأزق أخلاقي أولاً، لقد فقدت الولايات المتحدة مكانتها الأخلاقية في العالم كله، وتمكنت إسرائيل من جرها عبر تعمية كاملة على الشعب الأميركي الطيب، إلى مستنقع دماء غاصت فيه، ولم يعد بمقدورها أن تتزعم شعوب العالم التي باتت تكره أميركا بعد أن كانت حلم الحرية وصاحبة الدعوة إلى الحفاظ على حقوق الإنسان، التي كان الإسلام أول من نادى بها.

لقد دخلت الولايات المتحدة حروبها في منطقتنا من أجل ضمان تفرد القوة لإسرائيل ولإضعاف العرب وسوقهم إلى الحظيرة الإسرائيلية مهانين، ولأول مرة في تاريخها تقود الولايات المتحدة حرباً ضد الإسلام، لأنها رأت الإسلام مصدراً روحياً قوياً للمقاومة في المنطقة، ولأنها وجدت أن المقاومين يستمدون قدرتهم على التضحية بحياتهم من مفهوم الشهادة الإسلامي، فسمت ذلك إرهاباً وأعلنت حرباً دولية ضده، وكان بوسعها أن تزيل الأسباب التي تدعو المستضعفين إلى التضحية بحياتهم، لو أنها نفذت قرارات الشرعية الدولية، لكن رسائل السلام التي قدمها العرب بوضوح مطلق وأهمها ما تضمنته المبادرة العربية، قوبل بالرفض، وبدا واضحاً أن إسرائيل ما تزال متمسكة بخيارات الحرب، والسؤال المهم، هل تستطيع إسرائيل أن تحقق أهدافها بالحرب؟ لعلها تستطيع عبر ما تلقى من دعم عسكري غير محدود أن تحقق دماراً حيث تضرب، ولكنها لن تكون بمأمن فسوف يلحق بها من الدمار ما لا تطيق، ولاسيما أن عقيدة الحرب في المنطقة قد تغيرت، وباتت المقاومة الشعبية هي التي تقود الصراع، وهذه المقاومة قادرة على خوض حروب طويلة المدى، لكن الخطر أن ينفلت الأمن والاستقرار، وأن يتمكن دعاة الحروب من نشر مزيد من الفوضى، عندها ستتحول المنطقة كلها إلى ساحة إرهاب دولي ستكون إسرائيل أول من يدفع ثمنه الفادح.

واليوم تزداد مساعي إسرائيل لإدخال العالم في مآزق جديدة، ولجر الولايات المتحدة لحرب مع إيران أو مع سواها من دول الجوار. والمشكلة الكبرى أن الذين يقررون مستقبل العالم اليوم من السياسيين الأميركيين أو الإسرائيليين لا يمتلكون رؤية إنسانية، إنهم مجموعة

من الأنانيين الذين يؤمنون بحق القوة وحدها في الحياة، وبالتميز العرقي والديني (من شعب الله المختار) ولا يرون أحداً في العالم جديراً بأن يشاركهم العيش على هذا الكوكب، وهذا ما يفسر قدرتهم على قصف المدن، وقتل ملايين الناس دون أن تتحرك ضمائرهم، لأنهم يعتقدون أن هؤلاء الذين يقتلون وتدمر مدنهم، ليسوا جديرين بالحياة.

إن شعبنا العربي في كل أقطارنا العربية، يدرك خطر ما تخطط له إسرائيل، وهو شعب قادر على التضحيات، ولكنه ما يزال يؤكد حرصه على السلام، وتمسكه بالمبادرة العربية، ولكنه ينتظر موقفاً حازماً من المجتمع الدولي لإيقاف الحماقات التي يريد منها دعاة الحروب الهرب من مواجهة استحقاقات السلام، ولا يغيب عن بال أحد أن التهديد اليومي بالحرب على إيران أو سوريا، وتهديد الشعب الفلسطيني، ونشر مزيد من الإرهاب في لبنان عبر جرائم ترتكبها إسرائيل وأعوانها وتتهم بها سوريا، كل ذلك سيحمل المجتمع الدولي مسؤوليات جساماً فوق ما تحمل من النتائج الكارثية للحرب على العراق.

٢٠٠٧/٩/٢٦

الثقافة العربية في مواجهة التحديات

تعددت أشكال استجابة الثقافة العربية للتحديات التي واجهتها منذ انهيار الاتحاد السوفييتي وحتى جريمة الحادي عشر من سبتمبر وما تلاها من تداعيات. ولم تكن الاستجابة العربية لهذه التحديات موحدة الرؤى، فقد كان طبيعياً أن تبرز مواقف متفاوتة، وأن يجد كثير من المثقفين العرب أنفسهم في حيرة واضطراب، تماماً كما كان الموقف السياسي العربي، بعضه يحاول استرضاء الولايات المتحدة التي أطلقت طوفان غضبها على العرب والمسلمين عبر التقرب والمداهنة، وبعضه يحاول البراءة من التهمة عبر خلع الثوب العروبي والإسلامي الذي رآه رثاً مهترئاً غير ملائم لعالم العولمة الثقافية الطاغية. وبعضه يصطف مع المُعادين مباشرة، فيصير أشد على ثقافته العربية والإسلامية من أعدائها التاريخيين، وبعضه يدخل حلبة الصراع وينساق إلى مواجهة تتخذ عدة أشكال منها الحوار ودفع الحجة بالحجة، والرأي بالرأي. وبعضها مقاوم عقلاني يدافع عن أرضه المحتلة وعن حريته المستباحة كما في فلسطين والعراق ولبنان، وبعضها عصابي متطرف يسهل على أعدائه استدراجه إلى عمل إرهابي، فإذا هو يقدم دليلاً لمن يفتقد الحجة على كون الثقافة العربية والإسلامية داعية للعنف وبيئة للإرهاب، ولا يخفى على المتبصرين أن كثيراً ممن انساقوا إلى ردة فعل غير عقلانية وجدوا دعماً وتسليحاً من تنظيمات وأجهزة صهيونية تنشط لتشويه صورة العرب والمسلمين في العالم، حيث لا تفسير لأهداف عملياتهم الإجرامية ولقدراتهم التقنية العليا على تنفيذها غير كونهم يلقون ذاك الدعم الذي يمكنهم من أن يجعلوا الولايات المتحدة وحلفاءها عاجزين عن إنهاء الإرهاب الذي يزداد رغم كل ضراوة الملاحقة لأن كثيراً من العمليات الإرهابية التي شهدتها منطقتنا وبعض عواصم العالم، كان مخططاً لإشاعة الفوضى في البلاد العربية، ولتقديم الذرائع والمبررات لشن هجمة قاسية ضد الجاليات العربية والمسلمة التي تريد الصهيونية أن تحاصرها في كل أنحاء العالم. وقد شكلت ظاهرة معاداة العرب والإسلام تحدياً كبيراً للثقافة العربية والإسلامية في بلاد المغترب، بل لقد وصل التحدي إلى كل بلاد العالم الإسلامي حين قامت بعض الصحف الغربية بتشويه صورة النبي محمد عليه الصلاة والسلام. ولم يكن الأمر فسحة تعبير لصحيفة أو محرر، وإنما كان ضمن حملة واسعة توالت حلقاتها، وبات على الجاليات المسلمة في الغرب بخاصة أن تواجه نمو مشاعر العداء لها، بعد كل عملية إرهابية لا يعرف فاعلها حيث سرعان ما توجه المسؤولية عنها للعرب والمسلمين. والمفارقة أنه لا أحد يتابع نتائج التحقيق بعد أن تظهر براءة العرب والمسلمين، بل إن وسائل الإعلام الغربية تتجاهل نبأ البراءة. وحسبنا مثالاً

عن التزييف جريمة سبتمبر ذاتها التي لم يتم التحقيق فيها إلى الآن، ولا يوجد إلى هذه اللحظة أي دليل قانوني على تورط عرب أو مسلمين فيها، وكل ما قدم من قرائن لا يصمد أمـام أيـة محكمة دولية لدقائق معدودة.

ولقد كان من سلبيات بعض الاستجابة لهذا النوع من التحدي الإذعان في قبول التهمة، بل إن بعض العرب باتوا يسخرون ممن يرفض الإذعان والاعتراف بالمسؤولية، وأذكر أن أحـد الكُتاب العرب هاجموني بقسوة لأنني أعلنت رفضي لمسؤولية العرب والمسلمين عن جريمـة ١١ سبتمبر قبل أن تعلن نتائج تحقيق منطقي قانوني دولي نزيه ومحايد.

ولقد كان من الأهداف البعيدة القريبة للحملة على الإرهاب، ولتشـويه صـورة العروبـة والإسلام، تعميم صفة الإرهاب وتوجيهها إلى المقاومة الوطنية التي تقرها كل الشرائع الوضعية والديانات السماوية. وأعتقد أن إسرائيل كانت المستفيد الوحيد من الحملة على الإرهاب، لأنهـا تمكنت من قمع قوى المجتمع الدولي، وأجبرتها على القبول بدعواها بأن المقاومـة للاحـتلال عمل إرهابي، بذريعة عدم وجود إرهاب جيد وإرهاب سيئ، وعبر هذه المغالطة المنطقية تخلى كثيرون في العالم عن دعمهم الذي كان معلناً للمقاومة الفلسطينية، وللمقاومة اللبنانية، وبـالطبع صودرت المقاومة العراقية عبر التشويش عليها بعمليات إرهابية قام بها عملاء وجهوا جرائمهم ضد الشعب العراقي بهدف تقسيم العراق وإشعال الفتن الطائفية والعرقية والمذهبية فيه، وباتت بعض قوى المجتمع الدولي تعتبر جرائم الاحتلال أعمالاً مشروعة، بينما تعتبر مقاومة الشعوب إرهاباً.

ولقد وقفت الثقافة العربية موقفاً صارماً ضد هذا الخلط بين المقاومة وبين الإرهاب، لكن قوى المجتمع الصهيوني أدخلت إلى الثقافة العربية تقسيمات جديدة فسمَّت من يرفضون اعتبار المقاومة شرعية معتدلين، ومن يؤيدونها متطرفين، وذلك كي تغري بعض العرب بنيل شـرف صفة الاعتدال، وبات هذا التعريف للاعتدال موضع التداول الإعلامي العربي، وبـات بعـض المثقفين العرب يسعون إلى ترويجه. وعلى الرغم من كون السياسات العربية لم تعلن هذا الفهم للاعتدال المطلوب، إلا بعض هذه السياسات باتت تعبر عنه حين تعلن مواقف مضـطربة مـن "حزب الله" ومن "حماس"، مع قناعتها الداخلية المكتومة بأن هذه القوى الوطنية تقوم بمقاومـة شريفة، ولولا صمودها وتضحياتها لما تحرر جنوب لبنان، ولا اهتم أحد بمتابعة الدعوة للسلام، فبدون مقاومة تصبح البلاد مباحة ويصير دور السياسة العربية تلقي الأوامر وتنفيذها دون إبداء أي اعتراض أو تذمر.

ولقد كان من تجليات الاستجابة الثقافية للتحديات قبول العرب إعادة النظر فيما كان من الثوابت، وأقصد هدف تحرير فلسطين كلها فقد جاءت الاستجابة للوقائع والمستجدات منطقية وكان أهم تحول عرفته الثقافة العربية منذ لاءات الخرطوم هو الإعلان العربي عن الاستعداد للاعتراف بوجود إسرائيل ضمن مشروع السلام الذي نوقش في مؤتمر مدريد، والذي تعبر عنه اليوم المبادرة العربية للسلام، ولقد بدأت مصر هذا التحول التاريخي، وقام الفلسطينيون بتعديلات مهمة في الجوهر الذي كان من الثوابت على أمل الوصول إلى تسوية أو سلام، لكن هذه الايجابية الضخمة التي قدمها العرب الذين قبلوا بالتطبيع مع إسرائيل بوصفه دفعة نوايا حسنة على الحساب لم تقابل برد مماثل، بل لقد جاء الرد الإسرائيلي تجاهلاً لاتفاقيات "أوسلو" التي لم تفض إلى شيء، وحصاراً للرئيس عرفات الذي قام بالتحول الجوهري ومن ثم اقتحاماً للمسجد الأقصى، وقد تطور الرد الإسرائيلي على كل ما قدم العرب من تنازلات نوعية، حتى وصل إلى شن حرب بلا هوادة على الفلسطينيين كان واضحاً أنها حرب إبادة.

ولئن كنت أعتبر هذه التحديات وأشكال الاستجابات مظاهر ثقافية فلأن ذلك كله يقع في دائرة الثوابت العقائدية والفكرية والوجدانية فالقضية الفلسطينية ليست أرضاً متنازعاً عليها يمكن حل النزاع حولها عبر تحكيم دولي، إنها قضية وجود وهي صراع بين مشاريع متعددة لها أسس فكرية وعقائدية، فالمشروع الصهيوني ليس مجرد فكرة استيطان، وإقامة دولة يهودية على أرض فلسطين، إنه مشروع عقائدي يهدف إلى بسط السيطرة والنفوذ في المنطقة العربية والإسلامية، وإضعاف كل القوى المجاورة والتفرد بالسلطة ونشر فكر وثقافة صهيونية دينية بل أسطورية، ولهذا لم تضع إسرائيل لنفسها حدوداً فهي تنتظر موعد إعلان مملكة الرب ومن أجله يتم التخطيط لإقامة الشرق الأوسط الكبير على أمل أن تتفرد به إسرائيل وتكون وحدها المالكة لأسلحة الدمار الشامل، بل وحدها من يملك سلاحاً، وعلى الآخرين الاستسلام والرضوخ والإذعان والتخلي عن الهوية العربية والإسلامية للمنطقة وشعوبها. وعلى الثقافة العربية والإسلامية أن تواجه بقوة وثبات هذه التحديات مهما كان حجم التضحيات.

٢٠٠٧/١٠/١٢

إنذار بحرب ثالثة

لم يكن مفاجئاً أن نسمع إنذاراً من الرئيس بوش يحذر فيه من نشوب حرب عالمية ثالثة، فالطريق التي شقها لسياسته منذ البداية هي طريق حروب ودماء، ولا أدري كيف يواجه أي مسئول أمريكي ضميره حين يقرأ التقارير التي تحمل إليه كل يوم أعداد الذين يقتلهم الجنود الأمريكان من الأطفال والنساء والشيوخ والأبرياء، وعدد من تقتلهم إسرائيل من الفلسطينيين بفضل دعم وتشجيع الولايات المتحدة على مزيد من القتل والتدمير، وقد تبدو مسألة الضمير غير مؤرقة لمن يعتقد أن الذين يقتلهم الجنود الأمريكان هم إرهابيون أو متخلفون لا يستحقون الحياة، لكن إهمال مساءلة الضمير في السياسة الأمريكية عامة قضت نهائياً على الوجه الأخلاقي للولايات المتحدة التي نهضت ذات يوم بكونها مدافعة عن حقوق الإنسان، وداعية للسلام والعدل والديمقراطية،و سقوط القيمة الأخلاقية لأية دولة مهما كانت عظيمة في قوتها العسكرية يعني هزيمة كبرى أشد من أية هزيمة عسكرية، وقد سقطت النازية والفاشية أخلاقياً قبل أن تسقطا عسكرياً، ويبدو أمراً مؤسفاً أن تنتهي الإمبراطورية الأمريكية إلى هذا الخواء الأخلاقي وكان بوسعها أن تنقذ للبشرية إنقاذاً تاريخياً من كل أشكال التخلف بفضل ما وصلت إليه من تقدم معرفي وثراء اقتصادي، وأن تتزعم العالم بالمحبة وبكسب القلوب بدل زعامة القوة المدمرة، ونشر الكراهية لأمريكا التي كانت ذات يوم حلم الباحثين عن الحرية والعدالة.

ويبدو أن المحللين فهموا من تحذيرات الرئيس الأمريكي نوعاً من الإصرار على مشروع مخطط للحرب ضد إيران وربما ضد سوريا، حيث تنقل الأنباء العالمية كل يوم استعداداً إسرائيلياً لشن حرب تعيد إليها مكانتها التي فقدتها في حرب تموز ضد لبنان، وتحقق لها هروباً من مواجهة الاستحقاقات التي لا مهرب منها إذا اختارت طريق السلام، ولذلك يأتي الحديث الأمريكي عن السلام مريباً وناقصاً ينسف كل الجهود التي بذلتها الولايات المتحدة ذاتها سابقاً مذ دعت إلى مؤتمر مدريد ووجدت استجابة عربية جادة، ولكنها سرعان ما كشفت كونها تريد استسلاماً من العرب وإذعاناً لإسرائيل، وبعض المحللين يفهمون اليوم أن الدعوة إلى مؤتمر ناقص للسلام هدفها منح إسرائيل فرصة استعادة مسيرة التطبيع العربي المجاني معها، والالتفاف على بعض القوى الإقليمية في المنطقة لمنحها مبرر الوقوف موقف المتفرج في حال حدوث حرب ضد إيران أو سوريا أو ضدهما معاً.

كما يفهم المحللون من التحذيرات والتهديدات اليومية بحدوث حرب في المنطقة أن الولايات المتحدة مصرة على المضي قدماً في الاستلهام من تجربة العراق في التقسيم والتفتيت

والتدمير، وإزالة أنظمة عربية لنشر الفوضى التي تساعد على إعادة تأسيس نظم أثنية ودينية وعرقية تجعل المنطقة أشلاء مبعثرة وقوى متصارعة، ويغيب عن الاستراتيجيين الإسرائيليين المغرورين بوهم القوة المدمرة أن إسرائيل هي من سيدفع الثمن الأكثر فداحة لأية حرب مقبلة، فالحروب القادمة التي نرجو أن تتجنبها المنطقة والعالم لن تكون حروباً تقليدية تدوم أياماً أو شهرين كما تتوقع الصحف الإسرائيلية، بل ستستلهم على الجانب العربي والإسلامي تجارب المقاومة التي ستكون جحيماً يحرق إسرائيل ويحيل المنطقة كلها إلى لهيب يتفجر، ولن تكون الفوضى المنشودة بناءة لإسرائيل، وإنما ستكون مدمرة لها ولكل من يدعمها، ومن يدري!! فقد يكون لا مهرب من هذا القدر، ولاسيما لكون صناع القرار في إسرائيل وأمريكا ينطلقون من تصور وهمي وأسطوري لنهاية الصراع، وهم يربطونه بأبعاد دينية جعلتهم يستلهمون الحروب الصليبية منذ بدء حملتهم على العرب والمسلمين، وهم ينتظرون بجدية إقامة مملكة الرب في إسرائيل.

ولئن كان العالم قد تحالف مع الولايات المتحدة فيما سمته حرباً ضد الإرهاب مذ غزت أفغانستان ثم ما سمته بناء للديمقراطية حين غزت العراق، فهل سيتحالف الغرب الأوربي مع أمريكا وإسرائيل لتفتيت المنطقة العربية والإسلامية وجعلها منطقة حروب مدمرة تقع على حدودها القريبة ولانهاية لها؟ وما موقف دول عظمى في العالم تجنبت معاداة الولايات المتحدة في مطلع القرن، فهل ستصمت على مزيد من الدمار الذي سيهدد العالم كله؟ قد تبدو إسرائيل بحاجة إلى حرب تنقذ فيها هيبتها، وتستعيد مكانتها العسكرية في المنطقة بعد سلسلة هزائمها أمام المقاومة اللبنانية والفلسطينية، وعجزها عن إخضاع سورية وجرها إلى حظيرة الإذعان، ولكن من سيضمن لإسرائيل أنها لن تدفع مستقبلها كله إلى الجحيم؟ والذين يقودون عربة إسرائيل اليوم يعيشون حالة مريعة من القلق، فالعقلاء يدركون أن إضاعة فرصة المبادرة العربية للسلام خطأ استراتيجي ضخم، وانفلات الوضع الإقليمي سيجعل مبادرة السلام العربية من تاريخ سنوات الإذعان، وسيكون من الأوهام الحلم بإجراء أي سلام مستقبلي أو حتى تفاهم مع عشرات وربما مئات الزعماء الذين ستخرجهم الفوضى إلى الساحة الرئيسة في المنطقة، هذا فيما إذا أصرت الولايات المتحدة على إشعالها وحرقها، وسيقول العرب إذا حدث هذا الجنون الهستيري الذي يسيطر على الاستراتيجيين الصهاينة (رب ضارة نافعة) وسيكون المبدأ عليّ وعلى أعدائي يا رب.

كم هو مخجل أخلاقياً وحضارياً أن تنذر الولايات المتحدة الإنسانية كلها بمزيد من الحروب والصراعات الدامية لتحقيق أهداف بوسعها أن تحصل عليها بالحوار والمنطق، وعبر

تبادل المصالح المشتركة، وكيف يمكن أن يبرر أخلاقياً أن تدعم الولايات المتحدة وحلفاؤها إسرائيل لامتلاك أسلحة دمار شامل بوسعها أن تهدد الأمن العالمي كله، بينما هي تنذر دولاً أخرى بالحروب إذا هي حاولت أن تتسلح ولو بأسلحة تقليدية، أو أن تكون لديها قدرة على صد ما قد تتعرض له من عدوان، وكيف تبرر لإسرائيل أخلاقياً إصرارها على التفوق العسكري على كل جيرانها ورفضها الانصياع إلى جعل منطقتنا خالية من أسلحة الدمار، بينما تريد أن تمنع العرب حقهم في المقاومة وهم يتعرضون للعدوان كل يوم؟

لقد كان من أجمل ما قرأت هذا الأسبوع دعوة الشيوعي الإسرائيلي عوزي بورشطاين إسرائيل لتفكيك سلاحها النووي لأنه أصل المشكلة.

ولا أدري عم سيتحدث الذين سيجتمعون في مؤتمر للسلام يتجاهل القضايا الكبرى، وتستبعد عنه الأطراف الأساسية، رغم أن هدف الاستعباد واضح، وقد تم من البداية في مؤتمر مدريد، حيث رفضت الولايات المتحدة وإسرائيل مبدأ الحل العادل والشامل، وأصرت على التسويات الصغيرة ذات السقوف المنخفضة، ولكن إسرائيل تعيش حالة من غياب الوعي، وهي تتخبط لأنها تواجه كارثة كبرى، فقد سدت كل الطرق في وجه المشروع الصهيوني، ولم يفدها في شيء تبديل اسمه إلى مشروع شرق أوسط صغير أو كبير، بعد أن أثبتت المقاومة الشعبية في المنطقة أنها قادرة على إفشال أي مشروع يتعارض مع الإرادة الوطنية لأبنائها.

لقد جربت الولايات المتحدة أعتى ما لديها في العراق، وجربت إسرائيل أشد ما لديها من أسلحة العدوان على فلسطين ولبنان، وجرب البلدان أمريكا وإسرائيل كل ما في جعبتهما من وسائل الضغط والتهديد والوعيد لسوريا، ولم يتحقق لهما سوى السقوط الأخلاقي المريع، وإشاعة الإرهاب وزيادة الاحتقان في السياسة الدولية كلها، ويوشك هذا الاحتقان أن يتسبب في ابتلاء العالم كله بحرب دولية كبرى، إذا لم يسارع عقلاء العالم لكبح جماح الجنون الصهيوني الذي سبق أن تسبب في ابتلاء البشرية في القرن العشرين بحربين مدمرتين.

٢٠٠٧/١٠/٢٦

التفسير الإيديولوجي للصراع

تدور بعض الأبحاث الفكرية حول ظاهرة التطرف، بشكل نخشى معه أن تستغل هذه الأبحاث للوصول إلى هدف بعيد هو وصم حركات التحرر الوطنية بسمة التطرف الفكري والإيديولوجي الذي يشكل حقاً أخطر التحديات التي تواجه الثقافة العربية والإسلامية اليوم، وهي الثقافة التي نادت عبر تاريخها الطويل بالوسطية، ولاسيما بعد أن منحها الإسلام قدسية دينية بقول الله سبحانه (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً). ولقد تعرض مفهوم الوسطية ذاته لاختطافات مذهبية جعلت تحديد نقطة الوسط موضع اختلاف، ولم يكن الاختلاف الفقهي أو الفكري بين النخب ينعكس على حياة الناس إلا في مراحل استثنائية عبر التاريخ، لكن ظاهرة الاختلاف الصحية، والتي تشكل دوافع الحوار الذي ينبغي أن يستمر في جسد الثقافة وروحها، أخذت طابع التطرف الذي تصاعد في أواخر القرن العشرين حتى بلغ ذروة دموية مع مطلع القرن الجديد.

ولقد اطلعت على كثير من الدراسات التي ناقشت موضوع التطرف الإيديولوجي، ووجدت أن بعض الدارسين يبحثون عن أسباب التطرف فيجدون عشرات الأسباب، لكنهم لا يذكرون بينها السبب الأخطر في نمو ظاهرة التطرف وهو وجود إسرائيل في منطقتنا العربية الإسلامية بحد ذاته، ومن ثم سعيها المبرمج لتنمية ظواهر التطرف.

وما أظن أحداً من العرب ينكر أن إسرائيل هي نتاج فكر إيديولوجي متطرف ومتخلف، فهي مؤسسة على أساطير وأوهام تنطلق من تأويل صهيوني للتوراة، يجعل فلسطين أرض المعاد، ويجعل اليهود شعب لله المختار، ويجعل الآخرين من (الغوييم) رغم كل ادعاءات الصهيونية بأنها حركة علمانية، فاسم الدولة العبرية ذاتها اسم ديني. وقد حرصت الثقافة العربية والإسلامية على أن تبتعد في صراعاتها عن الأديان، فأعلنت أنها تجابه الفكر الصهيوني، ولا تعادي اليهودية بوصفها ديناً. ولم يكن هذا الموقف العقلاني جديداً على الثقافة العربية الإسلامية، فحين أعلنت أوروبا حربها الصليبية على العرب والمسلمين قبل ألف عام، رفض المثقفون والمفكرون والمؤرخون العرب تسمية هذه الحروب بالاسم الديني الذي اختارته أوروبا حين لبت نداء البابا "أرابان"، وسموها حروب الفرنجة. وقد انطلق هذا الفهم من علو شأن المسيحية العربية في المجتمع العربي والإسلامي، فالمسيحيون العرب وقفوا مع أهلهم المسلمين يصدون الفرنجة، وموقف المسلمين نابع من كون الثقافة الإسلامية قائمة على الإيمان بالسيد المسيح وبالسيدة العذراء مريم، وبصحف إبراهيم وموسى وبالتوراة والإنجيل وبكل

الرسل والنبيين (لا نفرق بين أحد من رسله) والإسلام يدعو الأديان إلى الكلمة السواء ولا يقبل أن تدخل في صراعات وحروب (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء).

ولذلك لم يكن مفاجئاً أن يرفض العرب والمسلمون تفسير الاستعمار الغربي الذي احتل بلادهم في القرنين التاسع عشر والعشرين على أنه استكمال للحروب الصليبية، وإن كان بعض المؤرخين والباحثين يشيرون إلى ذلك، لكن التفسير الأكثر حضوراً في الثقافة العربية هو تفسير الاستعمار الغربي تفسيراً دنيوياً ينأى عن زج الدين في الصراع. وقد اكتفت كتب التاريخ الحديث، ولاسيما المدرسية منها بإشارة عابرة إلى كون الجنرال "غورو" توجه حين دخل دمشق إلى قبر صلاح الدين ورفس القبر بقدمه وقال قولته الشهيرة (ها نحن عدنا يا صلاح الدين) وفي هذا القول إصرار منه على استمرار الحروب الصليبية في حملته، وأحسب أن نابليون كان أدهى منه حين احتل مصر، فقد حاول أن يتقرب إلى المسلمين عبر مشاركتهم في احتفالاتهم الدينية، بل إن الجنرال "مينو" الذي خلف "كليبر" أعلن إسلامه، وسمى نفسه عبد الله.

وعبر هذا التأسيس الثقافي العربي والإسلامي في شكله الأغلب، بقيت الثقافة العربية والإسلامية في منأى عن التطرف الإيديولوجي، ورفضت أن يكون صراعها مع إسرائيل صراعاً مع اليهودية، وركزت على كونه صراعاً مع حركة استعمارية استيطانية هي الحركة الصهيونية، ولم يحدث قط عبر تاريخ الصراع العربي ــ الإسرائيلي أن تعرض يهودي يعيش في البلاد العربية والإسلامية إلى أي أذى أو اعتداء.

وحين وقعت جريمة ١١ سبتمبر في الولايات المتحدة استنكر العرب والمسلمون أن يسارع قادة الولايات المتحدة وبعض القيادات السياسية والفكرية في الغرب جله، إلى تحميل الإسلام مسؤولية هذه الجريمة الإرهابية الكبرى، ولئن كان بعض العرب والمسلمين قد قبلوا الاتهام فإن الكثرة المطلقة منهم ما يزالون يشككون بالروايات الأميركية والصهيونية لتفاصيل الجريمة، وينتظرون مع كثير من مثقفي الغرب والعالم، تحقيقاً دولياً يكشف الحقائق، ويوضح أبعاد الخدعة الكبرى التي تمخضت عن كونها باتت مبرراً لغزو واجتياح أميركي واسع لبلاد العرب والمسلمين. وعلى الرغم من زلة لسان الرئيس بوش الشهيرة حين وصف غزوه بأنه حملة صليبية جديدة فقد رفض العرب والمسلمون تفسيره الديني لغزوه، وبات كثير منهم يبحث عن تفسيرات مختلفة لدوافع الغزو بعد أن اتسعت ردة الفعل على جريمة سبتمبر، وشمل التدمير شعب أفغانستان الذي لا شأن له بجريمة سبتمبر، ثم شمل العراق وما يزال يهدد بقية بلاد العرب والمسلمين. وكانت التفسيرات تتراوح بين التفسير السياسي الذي يرى رغبة الولايات المتحدة بتوسيع سلطتها على العالم، وبين التفسير الاقتصادي الذي يجعل السيطرة على منابع

النفط والثروات دافع الاجتياح، ويجد هذان التفسيران عند كثير من العرب رواجاً كي يبتعــدوا عن التفسير الديني الذي يستند إلى رؤية إيديولوجية متطرفة من الجانب الأميركي، ولكــن لــم يكن من الممكن أن تتجاهل التفسيرات كون الولايات المتحدة تشن حروبها في منطقتنا لصــالح إسرائيل بل نيابة عنها، وقد كشفت مواقف الولايات المتحدة وحلفاؤهــا عــن حقيقــة الــدوافع الصهيونية بشكل بات يصعب تجاهله أو إنكاره.

ومع كل الفهم الواضح للدوافع الإيديولوجية للغزوات المتلاحقة ضد العرب والمســلمين، فقد أسس العرب حركات مقاومتهم ضمن الأطر الوطنية والقومية، وبــالطبع لــم تكــن هــذه الحركات تتجاهل الدوافع الدينية، فهي تدعو الناس إلى الموت دفاعاً عن أرضهم وعن حريتهم، وحين يكون المرء متجهاً إلى الموت فلابد من أن يستثير عقيدته التي تجعل الموت دفاعاً عــن الأرض والعرض والأمن والكرامة والسيادة شهادة تشكل دافعاً روحياً ومعنوياً، لكن استنفار هذا الدافع لم يصبغ حركات المقاومة بصبغة دينية محضة، فالثورة السورية الكبرى لتحرير سوريا من الانتداب الفرنسي كانت ذات طابع وطني بامتياز، وكذلك كان جيش الإنقاذ الذي انطلق من سوريا، والأمر ذاته في حركة التحرير الجزائرية، رغم أن الدافع الديني لم يغب عنهــا قــط، والأمر ذاته كذلك مع الثورة الفلسطينية التي تمخضت عن حركة "فتح" وما واكبها من جبهــات تحرير وحركات كانت ذات طابع وطني أو قومي.

لكن إمعان الصهاينة في العدوان المستمر على مقدسات المسلمين والمســيحيين العــرب، وإحراقهم للمسجد الأقصى، وعزفهم المستمر على التفسير الديني للصراع عبر إصرارهم على هدم مسجدي القبة والأقصى ومنع المصلين من الوصول إليهمــا، ومحــاولتهم الدؤوبــة بنــاء (الهيكل) وحملتهم الإعلامية الضخمة المعادية للإسلام ولنبيه وقرآنه، أجبرت كثرة المقــاومين على خوض المعركة بصبغة دينية. ولذلك انطلقت حركات تحرير إسلامية باتت هي الغالبة في ساحات المقاومة، على مبدأ أنه لا يفل الحديد إلا الحديد. وهنا أدركت إسرائيل خطورة دخــول الإسلام بقوة إلى حلبة الصراع، ولاسيما بعد مواجهتها للانتفاضة الفلسطينية الكبرى، ومن ثــم هزيمتها أمام المقاومة اللبنانية (الإسلامية منها بخاصة) نهاية القرن العشرين. وكان طبيعياً أن تركز إسرائيل جهدها على محاربة الإسلام بقوة، وبالعمل على تقديم صورة رديئة ومشوهة لهذا الدين السمح، من خلال دعم حركات التكفير والتطــرف، وتنميــة دوافعهــا، وتــوفير الــدعم اللوجستي لها، كما فعلت حليفتها الاستراتيجية مع تنظيم "القاعدة" الذي هو صــناعة أميركيــة محضة.

٢٠٠٧/١١/٩

فهرس

مقدمة ٢
تعددت الأسباب والكره واحد ٣
سيناريوهات المستقبل: أوهام أم حقائق؟ ٧
حروب ضد النوايا: ليس مهماً أن تقتنع! ١٠
الانسحاب من التاريخ وأخطاء اســتراتيجية كبرى ١٥
مهرجان التراث الإسلامي في واشنطن ٢٠
حكماء صهيون وحكماء العرب ٢٥
حلف الناتو: شراكة غير متكافئة ٣٠
حساب التاريخ ومراجعة الذات في أوربا ٣٤
الانتفاضة ورؤية المقاومة ٣٨
العراق وأزمة الضمير الإنساني ٤٢
الإعلام العربي والحفاظ على الثوابت ٤٦
حرب على العراق أم حرب على العالم؟ ٥٠
بين منطق القوة وقوة المنطق ٥٤
الطريق إلى مكافحة الإرهاب ٥٨
خطاب ثقافي جديد ٦٢
من يعادي الأمم المتحدة؟ ٦٦
الخاسرون والرابحون من ١١ سبتمبر ٦٩
نحو نظام عربي جديد ٧٣
من أجدر بأن يتعلم من الدرس نحن أم الأميركان؟ ٧٧
نهاية العروبة أم نهاية الصهيونية؟ ٨١
الحرية والديمقراطية على الطريقة الأميركية ٨٥
الغزو الفكري أخطر من الغزو العسكري ٨٩
الثابتان: العروبة والإسلام ٩٣
لماذا تهرب إسرائيل من السلام؟ ٩٧
قناة «الحرة» والتجربة المرة ١٠١
المواطن العربي والمشروع الأميركي ١٠٥
ما لم يقله كلارك وكوندوليزا ١٠٩
حدود الاستهانة بالعرب ١١٣
هل فقدت الأمة قدرتها على الغضب؟ ١١٧
هل يرسم صراع الأصوليات مستقبل البشرية؟ ١٢١

آفاق الحوار العربي ــ الأمريكي ١٢٥
رسالة الجندي الأمريكي إلى العرب... ١٢٩
دبلوماسية سد الذرائع ١٣٥
عصر انهيار الشرعية ١٣٩
لماذا يريد العرب السلام وتريد إسرائيل الحرب؟.................................. ١٤٥
غياب التاريخ والواقع عن رؤية المستقبل ١٤٩
لزوم ما لا يلزم في الإعلام.. ١٥٥
الدبلوماسية السورية على طريق الحرير ١٦٠
الثقافة والفكر في الإعلام العربي ١٦٤
البعد الثالث في الفكر الإنساني ١٦٨
أوروبا بين العرب وإسرائيل ١٧٢
نحو إحياء نظرية الأمن القومي ١٧٦
لماذا صرنا ضعفاء؟.. ١٨٠
هل الوحدة العربية ممكنة؟.. ١٨٤
المراجعة الفكرية للمشروع القومي... ١٨٦
نحن والأميركان.. ١٨٨
الأصولية اليهودية في مواجهة السلام ١٩٣
في غياب المنطق.. ١٩٧
نحن وفرنسا... ١٩٩
السلام مسؤولية دولية.. ٢٠١
لماذا يتحاملون على سورية؟؟... ٢٠٣
نحو عقد اجتماعي جديد ٢٠٦
العيد والوعد والوعيد ٢٠٩
نريد ساحة حوار لا ساحة حرب... ٢١٢
دعوة إلى الحذر من الفتنة! ٢١٦
القادم أعظم!... ٢٢٠
الديمقراطية مشكلة أم حل؟.. ٢٢٣
قميص عثمان وقميص الحريري.. ٢٢٧
الديمقراطية المستبدة... ٢٣١
مأدبة حوار في سورية ٢٣٥
القرآن والأميركان... ٢٣٨
قراءة في فهم المتغيرات... ٢٤١
تقسيمات إسلامية ٢٤٥

أحكام بلا أدلة ٢٤٩
ما بين سوريا ولبنان........ ٢٥٢
نحو إعلام عربي بديل........ ٢٥٥
عصر الأكاذيب في السياسة والإعلام ٢٥٨
فخاخ في طريق الأمة ٢٦١
سوريا وأمتها العربية........ ٢٦٤
سوريا في مواجهة الإعصار ٢٦٧
سوريا في مواجهة السؤال الصعب........ ٢٧٠
هل نفهم ما يحدث خطأ؟........ ٢٧٣
حاجة الأمة إلى الانتقاد في مجال الاعتقاد........ ٢٧٧
بين معاداة السامية ومعاداة الإسلام........ ٢٨٠
العلاقات السورية ــ اللبنانية واغتيال الحقيقة........ ٢٨٤
ما يحدث بين سوريا ولبنان ٢٨٧
هل صدقت نبوءة هنتنغتون؟........ ٢٩١
هل تصلح الثقافة ما أفسدته السياسة؟........ ٢٩٥
العودة إلى الجذور ٢٩٩
الاعتراف بالآخر ٣٠٣
حوار مع الغرب........ ٣٠٦
حوار الحضارات في حلب........ ٣٠٨
لكي نفهم ما يحدث ٣١٢
الأندلس بوابة الحوار العربي ــ الأوروبي ٣١٦
لصالح من تحاصر المقاومة؟........ ٣١٩
العالم يرانا أمة... فكيف نرى أنفسنا؟ ٣٢٢
وداعاً... أيها السلام! ٣٢٥
عودة الوعي العربي ٣٢٩
عصر النصر........ ٣٣٢
هل انتهت الحرب؟ ٣٣٥
في ذكرى الجريمة........ ٣٣٩
ملامح الخطر القادم ٣٤٢
ما بعد الحرب على لبنان ٣٤٦
بوابة الحوار مع الغرب........ ٣٤٩
أين يكمن الخطر؟ ٣٥٣
التهم الجاهزة ضد سوريا ٣٥٦

تعالوا إلى كلمة سواء ٣٥٩
احذروا صفِّين جديدة! ٣٦٣
خطاب الفتنة والتحريض... ٣٦٦
ثنائيات في «الجزائر عاصمة الثقافة العربية» ٣٦٩
بحر من الدماء ٣٧٢
الحوار العربي ـــ الإيراني.. ٣٧٥
خطوة في الاتجاه الصحيح.. ٣٧٨
احياء التضامن العربي.. ٣٨١
أفق ما بعد قمة الرياض ٣٨٤
أوروبا وامتحان مبادرة السلام ٣٨٧
العرب والمجتمع الدولي ٣٩٠
أفق أمام سوريا... ٣٩٣
من يوقف نهر الدماء؟... ٣٩٦
حوار العروبة في مصر ٣٩٩
سؤال البدهيات عند العرب ٤٠٢
المقاومة طريق إلى السلام... ٤٠٥
أي سلام تريد أميركا؟... ٤٠٨
«العوْربة»... السبيل لمواجهة العولمة ٤١١
العرب... شركة شرق أوسطية!!! ٤١٤
إسرائيل والخوف من رفع سقف السلام ٤١٧
رسائل الحرب والسلام ٤٢٠
الثقافة العربية في مواجهة التحديات... ٤٢٣
إنذار بحرب ثالثة.. ٤٢٦
التفسير الإيديولوجي للصراع ٤٢٩
فهرس... ٤٣٢